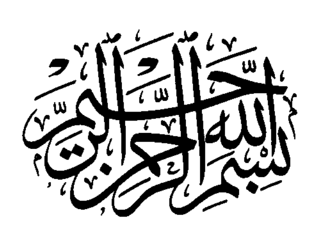

بسم الله الرحمن الرحيم


المنهج السوي





تأليف

العلامة المحقق الداعي إلى الله

الحبيب زين بن إبراهيم بن سميط

باعلوي الحسيني





□ المنهج السوي شرح أصول طريقة السادة آل باعلوي
تاليف: الحبيب زين بن إبراهيم بن سميط باعلوي الحسيني

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

عدد الصفحات: ٨٤٤
قيـاس القطـع: ١٧ × ٢٤



الجمهورية اليمنية، تريم (حضرموت)
تلفاكس ٤١٩٣٣٦ (٠٠٩٦٧٥)، ص.ب ٥٨٠٧٦



ص.ب ١٨٣٤٧٩ ، عمّان ١١١١٨ ، الأردن
هاتف وفاكس: ٥١٥٦٢٠١ (٦ ٠٠٩٦٢)



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمدُ للّه الحنّان المنّان، والصلاةُ والسلام علىٰ سيّد ولد عدنان، وعلىٰ آله الأطهار، وصَحبه الأخيار، والتابعينَ لهم بإحسانٍ ما تعاقب الليلُ والنهار.

وبعد،

فكم كُنّا بانتظار هذه اللحظةِ المباركة التي نخُطّ فيها آخرَ الكلمات قُبيل وضع هذا الكتابِ: «المنهجِ السوي شرحِ أصولِ طريقةِ السادةِ آلِ باعَلَوي»؛ في صورته الأخيرة ليرىٰ النور ويقعَ في أيدي الكثيرين ممن بقُوا دهراً يسألون عنه ويتتبّعون أخباره، وبعد زمنٍ غير يسير أنفقناه في مراجعتِه معَ سماحة مؤلفه الكريم، ثم في تنضيدِه وإخراجه وتصحيحه والعنايةِ به، حتىٰ تبدّىٰ في هذه الحُلّة الرائقة، والإصدارة الفائقة.

هذا الكتابُ هو واسطةُ العِقد من مؤلفات العلاّمة المفتي الداعي إلىٰ اللّه، الحبيب زين بن إبراهيمَ بن سُميط باعَلَوي الحسيني، حفظه اللّه تعالىٰ. جمع فيه مادةً قيّمةً في بيانِ أصولِ وآدابِ طريقةِ السادةِ آلِ باعَلَوي، وقرّب ما في بطون الكتبِ القديمةِ إلىٰ أيدي قرّاء اليوم، معَ دقةِ النقل وحُسْنِ العَرض.

ونحن إذ نزُفُّ هذا السِّفْرَ المبارك إلىٰ قرّائنا، ندعو اللّه تبارك وتعالىٰ أن ينفعَ به وُرّادَه، ونستمدُّ منه العونَ سبحانه علىٰ إكمال السَّير وبلوغ القصد، وهو تعالىٰ من وراء كل قصد، والحمدُ للّه ربِّ العالمين.



ترجمة المؤلف (١)

ـ اسمُه ونَسَبُه:

هو العلاّمـةُ المحقّقُ الفَقِيـه، العابِدُ الزاهِـد، المربِّي الداعـي إلىٰ الله، السيّدُ الحبيبُ أبو محمّد، زَينُ بنُ إبراهيـمَ بنِ زَينِ بنِ محمّـدِ بن زَينِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أحمـدَ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عليٍّ بن سالـمِ بنِ عبدِ الله بنِ محمـدِ سُمَيـطِ بنِ علـيٍّ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أحمـدَ بنِ عَلَويٍّ بنِ أحمـدَ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عَلَـويّ ـ عـمِّ الفقِيـهِ المقـدَّم(٢) ـ بنِ محمدِ صاحبِ مِرْبـاط بنِ عليٍّ خالـعِ قَسَم بنِ عَلَـويٍّ بنِ محمّـد بنِ عَلَـويٍّ بنِ عُبَيدِ الله بنِ أحمدَ المهاجرِ بنِ عيسىٰ الرُّومـيّ بنِ محمّدِ النقيـب بنِ علـيٍّ العُرَيْضِي بنِ جعفرِ الصادِق بنِ محمدِ الباقر بنِ عليٍّ زَيْنِ العابِدِينَ ابنِ سيِّدِنا الحُسَينِ ابنِ الإمـامِ عليٍّ بنِ أبي طالبِ والسَّيِّـدةِ فاطمةَ الزَّهْـراءِ بِنْتِ سَيِّـدِ المرسَلِيـنَ سيِّـدِنا ومولانا محمّدٍ صلّىٰ الله عليه وعلىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ وسلَّم.

فهو سيِّدٌ من أهل البيتِ النبويّ، حُسَينيٌّ: مِن ذُرِّيـةِ سِبْطِ رسولِ الله ﷺ سيّدنا

---

(١) مصـادر ترجمته: «قَبَسات النُّـور» للحبيب أبي بكـر المشهـور ص (١٨٩ ــ ١٩٦)، ترجمـةٌ مختصـرةٌ له بقلم نجله السيد محمـد في مقدمة كتاب «الفيوضـات الربّانية من أنفاس السادة العَلَوية» للمترجم ص (٧ ــ ٩)، «ثَبَت أسانيد وشيوخ المترجَـم» (مخطوط). وما عدا هذه المصادر فهو مستقىٰ من نَجْلِه السيد محمّد بن زَين حفظه الله تعالىٰ مشافهةً.

(٢) والسـادة في حضرموت اليوم جميعهـم إما من ذرية الفقيـه المقدم محمـد بن علـي بن محمـد صاحـب مرباط بن علي خالع قسـم. . .، أو من ذرية عمه الشريـف علوي بن محمد صاحب مرباط. والمترجم ــ رضي الله عنه وعن أجداده ــ من ذرية العم كما في النسب أعلاه.

الحسين عليه السلام، عَلَويُّ الفرع مِن نَسْل الشريف عَلَوي حفيدِ الإمام المهاجر[١]، شافعيُّ المذهب، سُنّيُّ الاعتقاد، سَلَفيُّ المَشرَب علىٰ طريقة أجداده الحضارِمة من السادة آل أبي عَلَوي رضيَ الله عنهم جميعاً.

ــ مولِدُه ونشأتُه:

وُلِدَ المترجَمُ له عامَ ١٣٥٧ هجرية (= ١٩٣٦م)، بمدينة (جاكرتا) بإندونيسيا، في أسرةٍ متديِّنة، لوالدَين عُرِفا بالخَير والصّلاح[٢]. كان أبوه رحمه الله يأخُذُه في صِغَرِه إلىٰ مجلسِ الحبيبِ العارفِ باللّه عَلَويّ بنِ محمّدٍ الحدّاد (صاحبِ بُوقُور[٣] ونَقِيبِ السادةِ العَلَويينَ في تلك البلاد)[٤]، فيَحضُرُ المولِدَ الذي كان يُقيمه الحبيبُ عَلَوي في بيتِه عصرَ يوم الجمُعة، ويحضُرُ أحياناً مَدْرَسَ الحبيبِ الداعي إلىٰ اللّهِ الإمام عليِّ بنِ عبدِ الرحمن الحَبَشي الذي كان يُقيمُه ضُحىٰ كلِّ يومِ أحَدٍ في بيته بـ(كويتانج)، فأدركَتْهُ بركةُ الحضورِ في تلك المجالسِ الشريفة. ويُعَدُّ الحبيبُ

---

(١) الإمام أحمد بن عيسى المهاجر رضيَ الله عنه (ت ٣٤٥هـ).

(٢) كان والدُ المترجَم رحمه الله رجلاً صالحاً تقياً، ذا سَكِينةٍ ووقارٍ وأخلاقٍ كريمة، وقد تولّىٰ في آخر عمرِه الإمامةَ في مسجد الحبيب عبد الله بنِ مُحسِن العطّاس في مدينة (بوقور). ومما يدلُّ على وفور عقله وسَعةِ إدراكه: هجرتُه بأولاده ــ ومنهم المترجَم ــ وهم صِغارٌ إلىٰ مدينةِ (تريم) بحضرمَوت، خوفاً عليهم من الفتنة والفساد، ثم عاد إلىٰ أندونيسيا. وبعد سنواتٍ عديدة صارت تصلُه الرسائلُ مِن ولده المترجَم وقد نبغَ في العلم وصار مُشاراً إليه بالبَنان، فكان الوالدُ يأخذ تلك الرسائلَ ويضعُها فوقَ رأسه وهو يبكي مِن شدّةِ الفرَح. ولم يلتقِ الوالدُ بولده المترجَم بعد أن هاجر إلىٰ حضرموت إلا بعدَ سنواتٍ طويلةٍ في الحرمَين الشريفين عندما حجَّ المترجَمُ حجّةَ الإسلام. عاد بعدها الوالدُ إلىٰ أندونيسيا، وبمدينة (بوقور) كانت وفاته، رحمه الله تعالىٰ.

(٣) (بوقور): تبعد عن (جاكرتا) العاصمة نحو ٣٥ ميلاً، وترتفع عن سطح البحر حوالي ٨٥٠ قدماً، وهي مدينةٌ كثيرة الأمطار، عليلة الهواء، يتخللها نهر جميل.

(٤) المتوفى ببوقور سنة ١٣٧٣هـ، رحمه الله تعالى. تنظر ترجمته في «إدام القوت» لابن عبيد الله السقاف (مادة: قيدون).

عَلَوي أولَ الشيوخ في حياة المترجَم.

تعلَّم المترجَمُ في مدارس (جاوة) القراءةَ والكتابة، وتلقىٰ القرآنَ الكريمَ وعلمَ التجويد، وفي عام ١٣٧١ هجرية (= ١٩٥٠م) رحلَ به والدُه إلىٰ (حضرَمَوت) وكان عمرُه نحو أربعَ عشْرةَ سنةً، وأقامَ في منزل والدِه في المدينةِ المباركة (تَرِيمَ) الغَنّاء.

ـ طلبُه للعِلم وشيوخُه:

في (تَرِيم) شمَّر المترجَم له عن ساعدِ الجِدّ وأقبلَ بالكُلّية علىٰ التلقّي والطَّلَب، متنقلاً بين مدارس تلك المدينة ومآثرها المباركة، خصوصاً (رباط تريم)، فقرأ هناك المختصراتِ الفقهيةَ علىٰ العلاّمة الحبيب محمدِ بن سالم بن حَفِيظ، وحَفِظَ عليه «صَفْوةَ الزُّبَد» للإمام ابن رَسْلان و«الإرشادَ» للشَّرَفِ ابن المُقْرِي حَفِظَ إلىٰ باب الجناياتِ منه. وقرأ عليه كُتبَه في الفرائضِ والنكاح، وبعضَ «المنهاج»، ومجموعةً من كتب التصوُّف، وطَرَفاً مِن علم الفَلَك، وحَفِظَ منظومةَ «هدية الصَّدِيق» للحبيب عبدِ الله بن حُسَين بن طاهر.

وعن الحبيب عمرَ بن عَلَوي الكاف أخذ النَّحوَ والمعانيَ والبيان، وقرأ عليه «مُتمِّمةَ الآجرُّومية»، وحَفِظَ «الألفيةَ» لابن مالكٍ وابتدأ في شرحِها عندَه.

وأخذ الفقهَ أيضاً عن العلاّمة المحقّق الشيخ مَحفُوظ بن سالم الزُّبَيدي، وعن الشيخ الفقيه مفتي تَرِيم: سالم سعيد بُكَيِّر باغِيْثان، وقرأ «مُلحةَ الإعراب» للحريري علىٰ الحبيب سالم بن عَلَوي خِرْد، وأخذ في الأصولِ عن الشيخِ فَضْل بن محمد بافَضْل وعن الحبيبِ عبدِ الرحمٰنِ بن حامِدِ السَّرِي، وقرأ عليهما في «متنِ الوَرَقات».

وكان يحضرُ مجالسَ الحبيبِ العارفِ بالله عَلَوي بنِ عبد الله بن شهاب الدين

ورَوْحتَه[١]، ومَدْرَسَ الرِّباط، ومجلسَ الشيخ علي (ابن أبي بكرٍ السكران رضيَ الله عنه).

وأخذ أيضاً عن الحبيب البَرَكة جعفر بن أحمد العيدروس، وكان يتردّدُ عليه كثيراً، وحصلت له منه إجازاتٌ كثيرة، وعن الحبيبِ القُدْوةِ المُسنِد إبراهيمَ بن عمر ابن عَقِيل، والحبيبِ البَرَكةِ أبي بكر عطّاس بن عبد الله الحَبَشي، وقرأ عليه في «الأربعين الأصل» للإمام الغزالي، وغيرهم. وكان مشايخُهُ يُثنونَ عليه لتميُّزه بينَ أقرانه، وحُسْنِ تأدُّبه وسلوكِه وأخلاقِه.

واستجازَ المترجَمُ كثيراً من المشايخِ من أعلام السادة آل أبي عَلَوي وغيرِهم من علماءِ العالَم الإسلاميّ، كالعلاّمة العارفِ بالله الحبيب محمّد بن هادي السقاف، والعلاّمة الحبيب أحمدَ بن موسىٰ الحَبَشي، والعلاّمةِ المحدِّث السيّد عَلَوي بن عبّاسٍ المالكي المكّي، والحبيب العلاّمة الداعية عمرَ بن أحمدَ بن سُمَيط، والحبيب القُدْوة أحمد مشهور بن طه الحدّاد، والحبيب القدوة عبد القادر بن أحمدَ السقّاف، والعلاّمة السيّد محمد بن أحمد الشاطري، وغيرهم. وتراجمُ هؤلاء جميعاً مفصَّلةٌ في «ثَبَت أسانيدِ المترجَم وشيوخه».

وكانت مدّةُ طلبِ المترجَم للعلم في مدينة (تَرِيم) نحوَ ثماني سنين، قضاها جادّاً مجتهِداً متفانياً في الطلبِ والاستِمدادِ من ذلك المنهَلِ العَذْبِ النَّمِير في تلك المدينةِ المشهورةِ ببركتِها الفيّاضةِ وكثرةِ مَن فيها من العلماءِ والصّالِحين، فَضْلاً عمّا شَرُفت به من مشاهدِ الأولياء، وآثارِ الأسلاف، والبِقاعِ المبارَكة.

---

(١) الروحة: هي المجلس الذي يجتمع فيه الشيخ مع طلابه في غير وقت الدرس، ويكون غالباً وقت العشية؛ يقرأون فيه من كتب السلوك أو السِّيَر أو المناقب أو الأدب؛ من باب الترويح والتسلي بالمفيد النافع. ويختم المجلس (الروحة) بشيء من النشيد العذب ثم بالدعاء والفاتحة.

ـ مدينةُ البَيْضاء والحبيبُ محمّد الهدّار :

بعدَ مُضـيّ تلك الأعـوام الثمانيةِ التي قضاها المترجَم في مدينة (تَرِيم)؛ أشارَ عليه شيخُه الحبيبُ محمدُ بن سالمِ بنِ حَفِيظ بالانتقالِ إلىٰ مدينةِ (البَيْضاء) ـ وتقعُ في أقصىٰ جنوبِ اليَمَن ـ للتدريسِ في رِباطها، والمشاركةِ في واجبات الدعوةِ إلىٰ الله هنـاك، وذلك بعدَ طَلَبٍ من علاّمـة اليَمَن ومفتي (البيضاء) الحبيبِ الداعـي إلىٰ الله محمدِ بن عبدِ الله الهَدّار رحمه الله تعالىٰ.

فتوجَّه المترجَم إلىٰ هناك، مارّاً في طريقـه بمدينة (عَدَن) حيث الحبيبُ سالم ابن عبد الله الشاطري، أحدُ أقرانِـه وأحبابه، وكان الحبيبُ سالمٌ آنذاك خطيباً وإماماً في منطقـةِ (خَوْر مَكْسَر)[١] من نواحي (عَدَن)، وكانت لديـه مكتبـةٌ حافلةٌ بالكتب، يَعكُفُ علىٰ مطالعتها ويجتهدُ في ذلك، فكانت بينَه وبينَ المترجَم مذاكراتٌ علمية، وطالعا سَوِياً كثيراً من نفائس تلك المكتبة.

ثم تابـعَ المترجَمُ سَيرَه مِن (خَوْر مَكسَر) إلىٰ مدينـةِ البَيضـاء، حيـث استقبله الحبيبُ محمـدٌ الهدّار وفَرِحَ به فرحاً شديداً، ومنذ وصـول المترجَم إلىٰ هناك وهو مشمِّـرٌ في تدريس الطلاب تلوَ الطـلاب، يواصلُ في ذلك الليلَ بالنهار. وقد زوّجَه الحبيبُ الهدار ابنتَه، وأجـازه بمَروياّتِه، وكان المترجَـمُ يحضر دروسَـه ومجالسَـه العامـة، ويَعُدُّه من أكبر شيوخِه الذينَ انتفعَ بهم وإنْ لم يقرأْ عليـه في الكتبِ العلميةِ كثيراً كما قرأ علىٰ غيره. كان المترجَمُ الساعِدَ الأيمنَ للحبيبِ الهدّار، وكان الحبيبُ محمّد يستعينُ به في إقامةِ الدروس العلمية، لانصرافه هو للدعوةِ والجلساتِ العامةِ والوعـظ، وكان يُنيبُه في الخطابـةِ عنه عندَ أسفـارِه وتنقُّلاتـه، وأنابـه عنه أيضاً في الإجابة على الاستفتاءات الفقهية.

---

(١) الخور: عربي فصيح، وهو الخليـج في البحـر أو مصب الماء فيه. و(مكسر) بوزن مَشرَب. وهذه البلدة على البحر، لذا سميت بهذا الاسم.

مكثَ المترجَمُ له في مدينـةِ (البيضـاء) أكثرَ من عشريـنَ عامـاً، خادمـاً للعلم وطلّابه، ومفتياً علىٰ مذهَبِ الشافعيّ، وانتفَعَ به كثيرون، وتخرَّج به جماعةٌ من نُبلاءِ الطلَبةِ وفُضَلاءِ العُلَماءِ والدُّعاة[1]، وكان يخرجُ للدعوة إلىٰ الله معَ بعض طلَبته إلىٰ كثيرٍ من القرىٰ المنتشرة حولَ مدينةِ (البيضاء).

وخلالَ تلكَ الأعـوام كان له في ربـاطِ البيضـاء الإقبـالُ التامّ علىٰ المجاهدةِ والعبـادةِ وتهذيبِ النفس، مع الجدّ والتشميـرِ والاجتهـادِ في مطالعـةِ كتـبِ التفسير والحديـثِ والفقـهِ وغيـرها وكتـب السَّلَـف. وكـانت له هِمّـةٌ لا تعـرِفُ الكَـلَلَ في التدريس، والتربيةِ للمريدين، وإرشادِ الغُواةِ والجاهلين.

وكان المترجَـمُ له عندَ الحبيـبِ محمدِ الهـدّار ـ رحمـه الله ـ بمكان، حتىٰ إنّ الحبيبَ كان إذا عرَضَتْ له مسألةٌ علمية وأجابَ عنها المترجَمُ له كان يقول (ما معناه): «إذا أجاب الحبيبُ زين فلا داعي للمراجعة»، لشدة وثوقه بعلمه.

وأثنـاءَ هـذه المـدة كان للمترجَم له عدةُ رحلاتٍ في موسم الحـج ومـواسـم الزيارات، التقـىٰ فيها بكثيرٍ من العلماءِ والصُّلحاء، فأخذ عنهم واستجازهم.

ـ في جوار المصطفىٰ ﷺ:

بعـد إحـدىٰ وعشرينَ سنةً من الجهد المتواصـل في مجالَـي العلـم والدعـوة وتوالي السَّيرِ والسلوكِ علىٰ نَهْج السلف؛ هاجرَ المؤلِّف إلىٰ أرض الحجاز، ثم دُعِيَ لافتتاح ربـاطِ السيّد عبد الرحمن بن حسن الجفريّ رحمه الله في المدينـة المنـوَّرة، فاستقرَّ به المقامُ في مهاجَرِ جدّه المصطفىٰ صلواتُ الله وسلامُه عليهِ وعلىٰ آله. سافر المترجم له إلىٰ المدينةِ في رمضانِ عام ١٤٠٦ هجرية. واشترك هو والحبيبُ سالمُ ابن عبد الله الشاطري في القيام بأعبـاء ربـاطِ الجفري، وقاما بذلك خيرَ قيـام مدة اثنَتي عشرةَ سنةً، انتقل بعدَها الحبيـبُ سالـمٌ الشاطري إلىٰ (تريمَ) للقيـام بشؤون

---

(١) وسيأتي ذكرُ بعضٍ منهم عندَ الكلام علىٰ تلامذةِ المترجَم.

رباطهـا بعدَ إعادة افتتاحـه، وبقـي المترجَـم قائماً بالتـدريسِ والتوجِيـهِ فـي رباط المدينة.

كان يَفِـدُ إلىٰ الرباط المذكور الكثيرُ من طلاب العلـم، من أنحـاءٍ متعدِّدةٍ من البلادِ الإسلامية، وتخرّج علىٰ يدَي المترجَم الكثيرُ منهم. ورغمَ كثرةِ طَلَبةِ المترجَم له وتزايُدِهـم وانشغالِه بتدريسِهم وتربيتهـم، مع التقـدُّم في السـنّ؛ إلا أنّ ذلك لم يُثْنِ عَزْمَه عن اغتنام التلقّي عن عددٍ من العلماء الفُحُول المقيمين بالمدينة المنوَّرة، فأخذ علمَ الأصول عن العلاّمة الأُصوليّ الفقيه الشيخ زيدانَ الشنقيطيِّ المالكي، قرأ عليه «التِّرياقَ النافع علىٰ مسائل جمع الجوامع» للإمام أبي بكر ابن شهاب، ومنظومةَ «مراقي السُّعُود» للشريف عبد الله العَلَوي الشنقيطي، التي هيَ من متون المنتهين في علم الأصول.

كما لازم الاشتغالَ علىٰ العلاّمة النِّحرير أحمدُّ ـ بتشديدِ الدالِ وضَمِّها ـ ابن محمد حامد الحَسَني الشنقيطي أحدِ أئمة الوقت في علوم اللغة وأصولِ الدِّين، فقرأ عليه «شرحَ القَطْر»، وبعضَ «شرح الألفية» لابن عَقِيل، و«إضاءةَ الدُّجُنّة» للإمام المَقَّـرِي في العقـائد، و«السُّلَّمَ المُـرَونَق» للإمـام الأخضَـري، وأصلَـه المنشـورَ «إيساغُوجي» للإمام الأبهريّ، كلاهُما في المنطق، و«إتمـامَ الدِّرايـة لقُـرّاء النُّقايـة» للإمـام السيوطي، و«المقصُـورَ والممـدُود» و«لاميـةَ الأفعـال» كلاهمـا لابن مـالك، والمجلّدَ الأوّلَ من «مغنـي اللبيـب» لابن هشـام، وكتابَيـن في الصَّـرْف، و«الجوهرَ المكنون» في البلاغة. وكان الشيـخ أحمـدُّ المذكورُ يُثني علىٰ المترجَـم بعلـوِّ الهِمّـةِ والجِـدِّ في الطلب.

وكانـت للمترجَـم خـلالَ هذه الفتـرة رحـلاتٌ مباركـةٌ إلىٰ عـددٍ من الأقطار الإسلامية، للدعوة إلىٰ الله، ولقاء العلماء والأولياء، فزار الشامَ وإندونيسيا وعدةَ بقاعٍ في إفريقيا، وغيرها.

ــ حِلْيتُه وأحوالُه :

وضعَ الله للمترجَم له القَبُولَ بينَ الخَلْق، ورزقَه الهَيبةَ في مظهَرِه وطَلْعتِه، إذا رأيتَه رأيتَ رجلاً رَبْعةً في الطول، نحيلَ الجسم، أسمرَ اللَّون، ذا لحيةٍ عمَّها البياضُ وعَلاها النور، لا يفتُرُ لسانُه عن ذكر الله، ولا تكاد سُبحتُه تفارقُ يدَه، معتَمّاً بعِمامةٍ بيضاء، لابِساً الإزارَ والرِّداءَ علىٰ عادةِ السَّلَفِ بحضرمَوت.

وللمترجَم ترتيبٌ خاصٌّ في أوراده وأذكاره في اليومِ والليلةِ مع قيامِه بأعباء التدريس، فتجدُه لا يفتأ يذكر الله في قيامه بالليل ثم خروجِه لصلاة الفجر في الحَرَم النبوي، فيبقىٰ فيه إلىٰ ما بعدَ الإشراق، ثم يتوجّه إلىٰ الرِّباط لتدريس الطلبة، وبعدَ العصر يكون مجلسُ (الرُّوحة) إلىٰ المغرب، ويُتابعُ التدريسَ إلىٰ قُبيل العشاء، ثم يتوجّه لصلاة العشاء في الحَرَم النبوي وزيارةِ جَدِّه الأعظم صلى الله عليه وآله وسلّم التي لم يَزَل ملازماً لها صباحَ مساءَ مدةَ إقامتِه في طَيْبَةَ الطَّيِّبة، لا يقطعُهُ عنها وعن تراتيبِه اليوميةِ من تدريسٍ وذكرٍ وغيرِهما إلاّ سَفَرٌ أو شدّةُ مرض. وبعدَ العشاء يُقيمُ الدروسَ والمجالسَ في أماكنَ متعدِّدةٍ علىٰ اختلاف الأيّام والمواسم.

كلُّ هذا معَ دوامه علىٰ المطالعةِ والمذاكَرة، والعنايةِ بتوجيه الطلَبة وتعليمِهم وتربيتهم، ولقاءِ الزوّارِ والوافدين، والسفرِ للدعوةِ والإرشاد.

ويلمَحُ ذو البَصيرة إذا جالسَ المترجَمَ طَرْفاً ساهِماً إلىٰ الأُفُق، ما يكادُ يُحادِثُكَ حتىٰ كأنه يُجتَذَبُ طَرْفُه ثانيةً إلىٰ حيثُ كان، وله مِن الأحوالِ السَّنِية وسِيْما العارفينَ ما يعلمُه خواصُّ محبِّيه، نفعَنا الله والمسلمينَ به، آمين.

ــ الآخذون عنه :

انتفعَ بالمترجَم خَلْقٌ من الطلبةِ والعامة، وأخذَ عنه كثيرٌ من الدعاةِ وأهل العلم، نذكرُ منهم علىٰ سبيل المثالِ لا الحَصْر[1]:

---

(١) ذكَرْنا هنا بشكلٍ وجيز أبرزَ الآخذينَ عن الحبيب زين، وفي الترجمة الموسَّعة له سنذكر بإذن=

السؤال والجواب، وقد طُبعَ مراتٍ كثيرةً وكُتِبَ له الانتشار، وحصلَ به النفعُ التامّ للخواصّ والعوامّ.

٦ ــ «**هداية الزائرين إلىٰ أدعيةِ الزيارةِ النبوية ومَشاهدِ الصالحين**»، جمعَ فيه الأدعيةَ السَّلَفِيةَ التي تُقال عندَ الزيارة النبوية وزيارة المَشاهِد والمقابر في الحرَمَين وحضرمَوت، (مطبوع).

٧ ــ «**مجموعٌ**» من الفوائدِ المنثورةِ في الأحكام والأدعية والآداب، (مخطوط).

٨ ــ مجموعٌ كبيرٌ من «**الفتاوىٰ الفقهية**»، يقومُ علىٰ جمعِها وترتيبِها حالياً بعضُ نُجباء تلاميذه.

٩ ــ «**ثبَت أسانيده وشيوخه**»، (مخطوط).

ــ ثناءُ العُلماءِ عليه:

وصفَه المفكّرُ الداعية السيّد أبو بكر بن علي المشهور في ترجمته له في كتابه «قَبَسات النور» ص ١٨٩ بـ: «العالم الفقيه، حافِظ المذهب، النَّحْويّ المِفَنّ المشارك في شتّىٰ العلوم، العارِف بالله والدالّ عليه بمواعظِه ورقائقِه الصُّوفية، ذي الطَّلْعة العَلَويةِ السَّلَفية.. الذي انتهت إليه المرجعِيةُ في الفقهِ والفتوىٰ في البلادِ الحِجازية».

ووَصفَه العلاّمةُ المتكلِّم البحّاثة المسنِدُ الشيخ محمّد نمر الخطيب نزيلُ المدينةِ المنوَّرة في إجازته له بـ: «صاحبِ الفضيلة، العلاّمةِ الذائق، الربّانيِّ الفائق».

وكتب علاّمةُ مكّةَ ومحدِّثُها الشيخُ عبدُ الله بنُ سعيدٍ اللحْجيُّ الحَضْرميّ (ت ١٤١٠هـ) علىٰ طُرّة إجازته للمترجَم: «إجازةٌ من الدُّونِ إلىٰ الأعلىٰ»، وحَلاّه فيها بـ: «سيّدي العالم الفاضل».

ووصفه العلاّمةُ الفقيه الدكتور محمد حسن هِيْتُو بـ: «السيِّد النبيل الكامل، والعالِمِ المتواضِعِ العامِل». وفي إجازة السيّد يوسُفَ الرفاعيّ الكويتي وَصْفُه له

بـ: «العلاّمة العامل، الفقيه المربِّي».

أمّا شيخُه الداعية الحبيبُ محمد بنُ عبد الله الهـدّارُ فحـلاّه بـ «السيّـد العلاّمة الداعـي إلىٰ الله، والشـابّ الناشـىء في طاعـةِ الله، السـالِكِ الناسِـك، المحبُوبِ المخطُوب، سيّدي وذُخري، وعُمدتي وعُدّتي».

ووصَفَـه الحبيبُ القُدْوة السيّـد إبراهيمُ بن عَقِيل بـ: «سَلِيـلِ الأكابر، وجامعِ المفاخِـر، زَينِ الشمائـل، ورَبِيبِ الفضائل، الحبيبِ المحبُوب، السيِّد السَّنَد، زين ابن إبراهيم..». وفي إجـازة الحبيـبِ القُـدْوة القُطْب عبد القادر بن أحمـدَ السقّاف وصْفُه بـ: «السيّدِ الأبَرّ، الراغبِ فيما كان عليه أهلُه من كريـمِ السِّيَر، العلاّمةِ زَينِ بنِ إبراهيم..، وهو ممّن عرَفَني وعرَفْتُه، وأحبَّني وأحبَبْتُه»[1].

ـــ وأخيراً،

فما يزال المترجَـمُ قائماً بالدروسِ العلميـة، والعنايـةِ بالطلبـةِ وتوجيههـم، وإرشادِ السالكين، وتربيةِ المريدين، وتحريرِ الفتاوىٰ علىٰ الأسئلةِ الفقهية التي تَرِدُ عليه مِن البُلدانِ المختلفة، والسفَر بينَ الحِينِ والآخر للدَّعوة إلىٰ الله، وتفقُّدِ أحوالِ المسلميـن، وإلقاءِ المحاضراتِ الدينيـة. هذا معَ ما هوَ عليـه من الأحوالِ السَّنِية، والإقبالِ علىٰ الله تعالىٰ والدارِ الآخِرةِ بالهِمَمِ العَلِيّة.

وبالجملةِ، فإنّ المترجَمَ ـــ نفع الله به ـــ يُعَدُّ الآنَ من أجـلاّءِ شيـوخ المرحلـةِ الذينَ عمَّ النفعُ بهم، حَفِظَه الله تعالىٰ ذُخْراً للإسلام وأمتعَ المسلمِينَ ببقائه، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

❋ ❋ ❋

---

(١) جميعُ هذه الكلماتِ والشهاداتِ وغيرُها محفوظةٌ في «ثبَتِ أسانيدِ وشيوخِ المترجَم»، يسَّرَ الله طَبْعَه قريباً.

نبذةٌ
في التعريفِ بطريقةِ السادةِ آل باعَلَوي[١]

(١)
تاريخُ الطريقةِ وأعلامُها

يرجعُ نسَبُ السادةِ آلِ باعَلَوي إلىٰ جدّهم الشريف عَلَوي بن عُبيد اللّه، حفيدِ الإمام المهاجِر إلىٰ اللّه: أحمدَ بن عيسىٰ النقيب (نقيبِ الأشرافِ بالعراق) ابنِ محمدِ النقيب بن علي العريضي بن جعفرٍ الصّادق بن محمد الباقر ابن علي زين العابدينَ بن الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب، رضيَ اللّهُ عنهم أجمعين.

***

في البصرةِ كانت حياةُ الجدِّ: الإمامِ أحمدَ بن عيسىٰ المهاجِر، وفي ربوعها ترعرع، وكان أهلُ البيتِ النبَويّ عليهم السلام تلكَ الحِقبةَ في حُرمةٍ وصيانة، لكنّ خلفاءَ بني العبّاس الذين اتخذوا من العراق قاعدةً لملكهم، كان الضعفُ قد بدأ ينزع بهم، فظهرتِ القلاقلُ والثورات، وراحت الفِتَنُ تعصِفُ بالعراق شيئاً فشيئاً، وكان من أشدِّها: القرامطةُ وهجومُهم علىٰ البصرة في مطلع القرنِ الرابعِ الهجريّ، وظهورُ طائفةِ الزنج.

---

(١) بقلم: إياد أحمد الغوج، باحثٌ في الدراسات الإسلامية، الأردن.

في تـلك الظروفِ المضطربةِ التي لا يُطيـق الصالحـون المتَحامُون عن الدنيا مثلَها، في عام ٣١٧هـ بالتحديد، هاجرَ الإمامُ أحمد بن عيسىٰ، الـذي لُقّب لذلك بالمهاجِر، فارّاً بدينه من تلك الفِتَن المائجة، تاركاً البصرة، في صُحبـة سبعينَ من أهلِـه وأتباعه، شاقّاً طريقَـه إلىٰ الحجاز، ليحُطّ رَحْلَه عاماً منَ الزمـان بمدينة جدّه المصطفىٰ ﷺ، متوجِّهاً بعدَهـا إلىٰ حرَم اللّه الآمِن مكةَ المكـرَّمة، في نفـس العام الذي دخلها فيه القرامطةُ وانتزعوا الحجرَ الأسود.

ثم خرجَ من مكةَ، قاطعاً صحراءَ الجزيرة، إلىٰ عَسِير، فاليمَن، ثم ساقته يدُ القدَر إلىٰ وادي حضرمَوت، ذلك الـوادي المُقفِرِ قليلِ الثرَوات، الذي سادت أكثرَ بقاعِه شوْكةُ الخوارج الإباضية.

***

نـزل المهاجرُ أولَ أمرِه ببلدةِ (الهَجْرَيْن)، وتحوّل بعدهـا إلىٰ قُرىٰ كِنْدة، ثم انتهىٰ به المُقام إلى (الحُسَيِّسة) حيث كان مقرُّه.

لحكمةٍ بالغـة، ولأسبابٍ هيّأها اللّه، لم يطُلِ العهـدُ بمذهب الإباضية، بعدَ قِراع الحُجَج والسيوفِ بينَهم وبينَ المهاجر وصحبِه ومَن ناصرَهـم وانتمىٰ إليهم من أهل السّنة هناك، فخلا أكثرُ الوادي من لَوثةِ الخوارج وأذنابهم، وضربَ أهلُ السُّنة فيه أطنابَهم، ودانَ الناسُ بمذهبِهم[١].

وُلِد للإمام المهاجر ابنُه عُبيد اللّه الـذي أنجبَ بعـدُ ثلاثةَ أبناء، هم: بصريٌّ وجديدٌ وعَلَويّ، وهذا الثالثُ هو الذي تُنسَب إليه ذريةُ السادة آل باعَلَوي كما تقدَّم، فإنّ نسْلَ أخوَيه بادَ وانقرضَ معَ أُفُول شمسِ القرنِ السادسِ الهجري[٢].

---

(١) زال المـذهب الإباضـي بالكلية من حضـرموت سنةَ ٦٩٠ هجرية، من آخر معاقله فيها وهي مدينة شِبام.

(٢) وكانت وفاة الإمـام المهاجر رضيَ اللّه عنه في سنـة ٣٤٥هـ، بقريـة (الحُسَيِّسة) قربَ بلدة =

وبعـد مدةٍ من وفـاةِ المهاجر، انتقلت ذريتُه إلىٰ مدينةِ (تَريم) ـ التي سُمِّيَت علىٰ اسمِ الملِكِ الذي اختَطَّهـا، وهـو: تَرِيمُ بنُ حضرمَوت[١] ـ فكان حلولُهم بها سنةَ (٥٢١هـ) إحدىٰ وعشرين وخمسمئـة، وكـانَ أولَ مَن سكنَهـا الإمـامُ عليُّ بنُ علَـوي الشهيـرُ بـ (خالع قَسَم)، وأخوه سالـمٌ، ومَنْ في طبَقَتِهمـا مِـن بنـي بَصْري وجديد الموجودِينَ آنذاك[٢].

وأصبحت تريـمُ الملقَّبةُ بـ (الغَنّاء) مقرّاً لتـلك الذرّية الكريمة، ونشأتْ بها معاهدُ الخير والصلاح، وكثُرت بها المساجد، فضلاً عمّا تشرّفَت به من رُفاتِ عددٍ من الصحابةِ الكرام الذينَ قضَوا بها قديماً أيام حروب الردّة.

❊ ❊ ❊

إنّ المصـادرَ التاريخية لا تُسعِفُنا بكثيـرٍ من التفاصيـل عن الحِقْبة الأولىٰ من طبقـات العَلَويين، لكن الحقبةَ التي تبـدأ من ولدَيِ السيـدِ الإمـام محمد بـن علي المعـروفِ بـ (صاحبِ مِرْبـاط)[٣]، وهمـا: علـيّ (والدُ الفقيـه المقـدَّم)، وعَلَـوي

= (بُوْر)، في منتصف شِعْبٍ هناك يُعرف ـ علىٰ اسمه ـ بشعب أحمد. ثم لمّا دُفن به الإمام السيـد أحمـد بن محمـد الحبشـي المتوفـىٰ سنـةَ ١٠٣٨ هجريـة صـار يعـرف بـ (شِعْـب الأحمدَين). وكان عُمْر المهاجر لمّا توفي نيّفاً وثمانين عاماً، لأنّ مولدَه بالبصرة كان تقريباً في سنة ٢٦٠ للهجرة.

(١) وقيل: الذي اختطّها سعـدٌ الكامل، وقيل: سميـت بذلك نسبـةً إلىٰ اسـم قبيلة، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: «معجم البلدان» (٢: ٢٨)، والمصادر الآتية في الهامش التالي.

(٢) يُنظر: «المشرع الروي» للشلّي (١: ١٢٩)، و«الغُرَر» للخرد (ص ٧٧)، و«تاريخ شنبل»، وغيرها.

(٣) هو الإمام محمد بن علي بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد اللّه ابن الإمام المهاجر، المتوفىٰ سنـةَ ٥٥٦هـ. كان ذا نفوذٍ ودعوةٍ ذائعـة، و(مرباط) تقع في مدينة ظفار من الديار العُمَانيـة، وحقـق العلامة علوي بن طاهر الحـدّاد في «عقود الألماس» أنها ظفـار القديمة نفسُها.

(المشهور بعَمّ الفقيه المقدَّم)، تلك الحقبةُ وما تلاها هيَ الأكثرُ وفْرةً وزَخارةً من حيثُ المعلوماتُ التاريخية. وإلىٰ هذَين الولدَين ترجعُ أنسابُ جميع آل باعَلَوي من أهل عصرنا هذا.

لقد كان التأسيسُ الفعلي لمعالم الطريقةِ علىٰ يدِ الإمام محمد بن علي باعَلَوي الملقَّب بالفقيهِ المقدَّم، المولودِ بمدينةِ (تريمَ) سنةَ **٥٧٤** هجرية، والمتوفىٰ بها سنةَ **٦٥٣** هجرية، الذي تلقىٰ ــ علىٰ بُعد الشُّقّة ــ عن العارفِ الكبير الشيخ أبي مَدْيَن المغربيّ الشهيرِ بالغَوث بواسطةِ بعضِ أصحابِ أبي مدينَ الذين وصلوا مكةَ المكرَّمة. قال الإمامُ عبدُ الرحمن بنُ عبدِ اللّه بِلفَقِيه المعروفُ بعلاّمة الدنيا (ت **١١٦٢هـ**): «أصلُ طريق السادةِ آل باعَلَوي: الطريقةُ المدْيَنيّة، طريقُ الشيخ أبي مَدْيَنَ شُعَيبِ المغربي، وقطبُها ومدارُ حقيقتِها الفردُ الغَوث الشيخُ الفقيهُ الإمام محمدُ بن عليّ باعَلَوي الحسينيُّ الحضرَميّ، تلقّاها عنه الرجالُ عن الرجال، وتوارثَها عنه الأكابرُ أولو المقاماتِ والأحوال..»[(١)].

ومضت الطريقةُ مِن بعدِ الفقيهِ المقدَّم في أبنائه علىٰ منهجه ومنواله، «ولكنْ لكونِها طريقَ تحقيقٍ وأذواقٍ وأسرار، جنحُوا إلىٰ الخمُول والإسرار، فلم يضعوا تأليفاً.. ومضىٰ الطبقةُ الأولىٰ علىٰ ذلك، إلىٰ زمَنِ العَيدَرُوس [ت **٨٦٤هـ**] وأخيهِ الشيخِ عليّ [ت **٨٩٢هـ**]، فاتّسعَت الدائرة، واحتِيجَ إلىٰ التأليف.. فظهرَ [مِنَ المؤلفاتِ في آدابِ الطريقةِ ومعالم السلوك فيها].. ما يشرحُ الصدور ويُبهِجُ النفوس، كـ«الكبريتِ الأحمر»، و«الجزءِ اللطيف» و«المعارج» و«البَرْقة»[(٢)] وغير ذلك»[(٣)].

---

(١) «عقد اليواقيت الجوهرية» (١: ٣٣ ــ ٣٤).

(٢) «الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر» من تأليف العيدروس الأكبر عبد اللّه بن أبي بكر، و«الجزء اللطيف في التحكيم الشريف» لولده الشيخ أبي بكر العدني، و«المعارج» وهو «معارج الهداية» و«البرقة المَشِيقة بذكر لباس الخرقة الأنِيقة» كلاهما للشيخ علي بن أبي بكر السكران أخي العيدروس الأكبر، وكلها مطبوعة.

(٣) «عقد اليواقيت الجوهرية» (١: ٣٣ ــ ٣٤).

ولمعَ من أعلام هذه الطريقةِ رجالٌ تميّزوا عن أقرانهم ومَن سبَقَهم بالبراعةِ والتقدُّم في العلم والعمل، حتىٰ بلغَ بعضُهم رُتَبَ الاجتهادِ في الفقه، وظهرَ علىٰ آخرين مِن عجائبِ الوِلايةِ ما ضارعَ الأقدمِين، كالشيخ القُطب عبدِ الرحمن السقّاف (ت ٨١٩هـ) الملقَّب بالمقدَّم الثاني، وولدِه الإمام الغَوثِ عمرَ المِحْضار (ت ٨٣٣هـ)، والقطبِ العيدروسِ عبدِ الله بن أبي بكر (ت ٨٦٥هـ)، وولدِه أبي بكرٍ العَدَني (ت ٩١٤هـ) دَفِينِ عَدَن، والشيخ أبي بكرٍ بن سالم المعروفِ بفَخْر الوجود (ت ٩٩٢هـ)، والشيخِ الإمام عمرَ بنِ عبدِ الرحمنِ العَطّاس (ت ١٠٧٢هـ)، وغيرِهم من جِلّةِ الرجال، إلىٰ أنْ وصلتِ الطريقةُ إلىٰ مجدِّدِ منارِها وناشرِ أنوارِها: الإمام شيخِ الإسلام قطبِ الدعوةِ والإرشاد، عبدِ اللّه بن عَلَوي الحداد (ت ١١٣٢هـ).

لقد أخذَتِ الطريقةُ علىٰ يد الإمام الحدّاد منهجاً جديداً، وهو ما سمّاه، رضيَ الله عنه، بـ (طريقة أهل اليمين)، حيثُ رأىٰ أنّ الأنسبَ لأهل العصر والأقربَ إلىٰ أحوالهم والأيسَرَ في اجتذابهم إلىٰ حِياضِ الطاعة هو إحياءُ الحياة الإيمانية لديهم، التي بدَورها تُهيّؤهم للترقي في مدارج الإحسان. فكان أنْ أثمرَ هذا النهْجُ أطيَبَ الثمار في الدعوة وصلاح الأحوالِ الدينيةِ لعامةِ الناس، وانتشرَتْ به الطريقةُ انتشاراً عظيماً في بِقاعٍ شتّىٰ، ولم يزَل هذا المنهجَ الأمثلَ للدعوةِ العامة حتىٰ عصرنا الحاضر.

وقد أثّر الإمام الحدّاد في الأُمّة تأثيراً بالغاً، فلا تزال أورادُه وكلماتُه ووصاياه وأشعارُه تُتَناقَلُ علىٰ ألسنة المسلمين في أقطار إفريقيا: كينيا، تنزانيا، أو آسيا: إندونيسيا، ماليزيا، سنغافورة، بل وأوروبا، فضلاً عن بلاد العرب، بفضل تفانيه في نشر العلم والدعوة بكلامِه، وقلمِه السيّال في تآليفه التي قيل إنها حوت خلاصةَ كتب المتقدِّمين كـ «الإحياء»، وبمظهرِ القدوةِ الكاملة الذي كان عليه، وبأورادِه المباركة، وبمن خرّجَهم مِنَ العلماء والصالحين الذين ساروا علىٰ منهج

أستاذِهم رضيَ الله عنه[١] .

* * *

وحملَ الدعوةَ بعدَ الإمام الحدّاد وعلىٰ منهجه أئمةٌ كبار ودُعاةٌ أبرار، مِن خيار تلامذتِه، كالعلاّمة الإمامِ الحبيبِ أحمدَ بنِ زَين الحبَشي (ت ١١٤٤هـ)، والإمـامِ عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللّه بلفَقيه (ت ١١٦٢هـ) الملقَّبِ بـ (علاّمةِ الدنيا)، والإمامِ البارع محمدِ بن زَين بن سُمَيط (ت ١١٧٢هـ)، فضلاً عن أبناء الحدّاد نفسِه الذيـن كانوا آيةً لتربيةِ أبيهم.

* * *

ثم تلـت طبقةَ الحداد وتلاميذِه طبقةٌ برزَت في نشر الدعوة، وتميّزَت بأثرِها الكبير في أوساطِ عامّةِ المسلمين، وهي طبقةُ الإمام الوليّ الكبير الحبيب عمرَ بنِ سقّافٍ السقّاف الملقّبِ بـ (شيخ الأقطاب)، وتلامذتِه الأئمةِ: الحبيبِ أحمدَ بنِ عمرَ ابنِ سُمَيـط (ت ١٢٥٧هـ)، والحبيبِ عبدِ اللّه بن حُسينِ بن طـاهر (ت ١٢٧٢هـ) صاحـبِ «المجموع الطاهـري»، وأخيه الحبيـبِ طاهـرِ بن حسيـنِ بن طـاهر (ت ١٢٤١هـ)، والحبيـبِ الحسَـنِ بن صالحِ البَحر الجِفْري (ت ١٢٧٣هـ)، والحبيبِ عبدِ اللّه بنِ عمرَ بنِ يحيـىٰ (ت ١٢٦٥هـ)، والتلميـذ الأنبَهِ لهذه الطبقة، المحدِّث العلاّمـة، الحبيـب عيْدَروسِ بنِ عمرَ الحبشيِّ (ت ١٣١٤هـ) صاحبِ الكتاب الفَذّ «عِقْد اليواقِيتِ الجَوْهَرية» الـذي جمعَ فيه أسانيـدَ السـادة العَلَوية فأسدىٰ إلىٰ قومِه بذلك خدمةً جُلّىٰ لقلةِ العنايةِ بالحديثِ وعلومِه في تلكَ الأقطار.

ولعلّ من أبـرزِ رجـالِ آل باعَلَـوي بعدَ هذه الطبقـةِ الأئمـةُ الثلاثـة: مفتـي

---

(١) لذا قال فيه شيخُه الإمام عمر بن عبد الرحمن العطّاس: «السيّد عبد اللّه الحدّاد أمّةٌ وحدَه». وكان سنُّ الإمـام الحدّاد عند وفـاة شيخه العطّاس ثمانيةً وعشرين عاماً! . «الإمام الحدّاد، مجدِّد القرن الثاني عشر الهجري» للدكتور مصطفىٰ البدوي (١ : ٧).

حضرمَوت الأكبرُ الإمامُ عبدُ الرحمن بن محمـدٍ المشهور (ت ١٣٢٠هـ)، صاحب «بغية المسترشدين» وغيرها، ونـادرةُ المتأخّرين العلاّمـةُ المتفنّـن الحبيبُ أحمدُ بن حسـنٍ العَطّاس (ت ١٣٣٤هـ)، الـذي كانـت له سمعةٌ رفيعـة في الأوساط العلمية خـارج حضـرموت كمصر والشـام والحجـاز، وبقيـةُ السلَف، رافعُ لـواءِ المحبّـةِ المحمّدية، الحبيبُ عليُّ بن محمدٍ الحبشي (ت ١٣٣٣هـ)، وما تركه من تراث أدبيٍّ وصوفي كبير، رضيَ اللّه عنهم جميعاً.

ثـم خلَـفَ تـلك الطبقـةَ أعلامٌ، كشيخِ الإسـلام الحبيـبِ عبدِ اللّه بن عمـرَ الشاطِـري (ت ١٣٦١هـ) مؤسِّسِ (رباط تريم) وصاحبِ النهضةِ العلميةِ في وقتـه، والعارفِ باللّه الحبيبِ عَلَوي بن عبد اللّه بن شهابِ الدِّين (ت ١٣٨٦هـ)، والعلاّمةِ الحبيب سالـم بن حَفِيظ (ت ١٣٧٨هـ)، والداعيةِ الكبيـر الرحّـالِ الذائـع الصِّيت، العلاّمةِ الحبيب عمرَ بن أحمدَ بن سُمَيط (ت ١٣٩٧هـ) الذي تلقّىٰ عن أعلامِ هذه الطبقةِ والطبقةِ التي سبقَتْهم، والذي أصبحَ تلامذتُه من أئمةِ عصرنا ودعاتِه الكِبار، كالحبيـبِ عبدِ القادر بن أحمدَ السقّاف، والحبيـبِ أحمـدَ مشهور بن طٰه الحدّاد، والحبيـبِ البرَكـة أبي بكر عَطّاس الحبَشـي، والداعية الحبيب محمدِ بن عبدِ اللّه الهـدّار، والحبيبِ العلاّمـة محمدِ بن سالـم بنِ حَفِيظ، والحبيـبِ المسنِدِ الداعيةِ إبراهيـمَ بن عمـرَ بن عقيـلِ بنِ يحيـىٰ، وغيرِهم[1].

ولكلٍّ من الأعلام المتقدِّمين منَ التراثِ العلمي والأدبي والدّعوي ما يضيقُ المجالُ عن الخوض فيه.

إنّ الحديثَ عن رجالاتِ الطريقة العَلَوية فَسِيحُ المجال للغاية، فلكلٍّ مِنَ المآثر والمناقِبِ ما دُوِّنَت فيه التصانيفُ المفرَدة، وكُلّما غُصْتَ في بحرٍ منهم أنساكَ

---

(١) وعن هذه الطبقة والتي قبلها تلقىٰ العلامة الحبيب زين بن سميط مؤلف هذا الكتاب كما تقدَّم في ترجمته.

غيرَه، حتىٰ لتَقضِي العَجَبَ مِن أمّةٍ من أهلِ الإسلام حَبَاها اللّه مجموعَ هذه المآثرِ الدينيةِ الجليلة.

(٢)

المنهجُ العلميّ

المذهبُ الفقهي الذي عليه السادةُ آل باعَلَوي هو مذهبُ الإمام الشافعيّ رضيَ اللّه عنه، الذي قُدّر له الانتشارُ في اليمن في عهدٍ مبكّر. يقول الحافظُ المؤرّخ شمسُ الدين السَّخَاوي:

«واليمنُ... قطرٌ متّسع، يَشتمِلُ علىٰ تِهامةَ ونَجْد، فيه مدُنٌ وقُرىٰ وشِعابٌ وجبال، ولم يزَلِ العلماءُ به في عصر الصحابةِ يتوفَّرون، والأئمةُ إليها يَرحَلُون، بل هيَ في كل عصرٍ في ازديادٍ منَ العلم. **ولما ظهرَ مذهبُ الشافعيّ واشتُهِرَ به رَجعُوا إلىٰ تقليدِه، وكان ذلك في المئة الثالثة** كما ذكره الجَنَديّ، ثم كثُرَ ذلك، لا سيّما في الدُّوَلِ الأيوبيةِ وما بعدَها إلىٰ الآن..»[١].

وقد كان للإمام المهاجر الدورُ البارزُ في انتشارِ مذهبِ الشافعيّ في حضرمَوت قبلَ سائر اليمَن في تلك الحِقْبة، حيثُ إنّ المفهومَ مِن «تاريخ بامَخْرَمةَ»[٢] أنّ انتشارَ المذهب الشافعيِّ في اليمَن كان في حدود سنةِ **٣٤٠**هـ فما بعد، فيكونُ انتشارُه بحضرمَوتَ بواسطةِ الإمام المهاجِر قبلَ ذلك التاريخ[٣].

---

(١) «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» للإمام شمس الدين السخاوي، (ص ٢٩٦).

(٢) المسمّىٰ «قلائدَ النحر في وفيات أعيان الدهر»، للعلّامة القاضي: الطيِّب بن عبد اللّه بن أحمد بامخرمة العَدَني (٨٧٠ ــ ٩٤٧هـ)، وهو عمُّ الإمام عبد اللّه بن عمر بامخرمة مفتي اليمن وعلّامتِها الأكبر في عصره (٩٠٧ ــ ٩٧٢هـ). و«القلائد» مخطوطٌ في ثلاثة أجزاء، وقد حُقّقَ في رسائل علمية بعدن.

(٣) «جنىٰ الشماريخ جوابُ أسئلةٍ في التاريخ»، للعلّامة المؤرّخ السيّد عَلَوي بن طاهر الحداد، (ص ١٦). ويذكر العلّامة السيد عمرُ بن حامد الجيلاني سبباً آخرَ في انتشار مذهب=

ولم يقف دَورُ السادة آل باعَلَوي وغيرهم من الحضارم علىٰ مجرَّد التمذهبِ بمذهب الشافعيّ، بل لهم في إحيائه ونشرِه، وتحريرِه والتصنيفِ فيه يدٌ طُولىٰ، بَدءاً بالإمام عبدِ اللّه بن عبد الرحمنِ باعُبَيد (ت ٦٠٣هـ)، والفقيهِ المقدَّم نفسِه، والإمام محمد بن سعدٍ باشُكَيل (ت بعد ٧٠٠هـ)، إلىٰ فقهاء آل بافَضْل وآل بامَخْـرَمة، والعلاّمة المفتي عبد الرحمن بن مَزْرُوع، وفقهاء آل باقُشَير وآل السقّاف، والأئمةِ: سعيد باعَشِن وعبدِ اللّه باسَوْدان وعبد الرحمن المشهور، وغيرُهم الكثيرُ من أصحابِ الفتاوىٰ الشهيرة والمصنّفات المحرَّرة. هذا كلُّه فضلاً عمّا أنشؤوه من معاهدَ وأربطةٍ ومدارسَ كثيرة، وما نشرُوه من اتِّباع المذهبِ ودَرْسِه وتدريسِه في أنحاء المعمُورةِ كشرقِ آسيا وإفريقيا والهند وغيرها من البِقاع. ولم تزَلْ حضرمَوت تخرِّجُ أبرعَ الفقهاء في هذا المذهب، بل لعلّها تُعدُّ اليومَ القطرَ الأوحَدَ الذي لم يزل فيه تدريسُ المذهبِ علىٰ أصولِه وقوّته وحيويتِه.

* * *

أما المذهَبُ العَقَديُّ للسادة آل باعَلَوي فهو المذهبُ السُّنّي الأشعري، وذلك بعدَ استقرار أمر حضرمَوتَ علىٰ مذهب أهل السُّنة معَ زوالِ شوكةِ الإباضية منها كما تقدَّم.

فآلُ باعَلَوي ــ مِن قديمِ نشأتِهم ــ انتَهَجُوا المذهبَ الأشعريَّ اعتقاداً،

= الشافعي في حضرموت في زمنٍ مبكّر، وهو: أن الإمامَ الشافعي تولىٰ القضاء في نجران عام ١٧٩هـ، وحمِدَ الناسُ سيرتَه، وانتشر به العدل هناك، وظهر صِيتُه في عموم اليمن، حتىٰ اعتقد بعض الموالين للدولة العباسية أنه سيكون خطراً عليهم، فوشَوْا به إلىٰ الرشيد فاستدعاه إلىٰ بغداد.. إلىٰ آخر الأحداث. ومعلومٌ قربُ نجران إلىٰ حضرموت، مما يَسهُل معه بلوغُ أخبار الشافعي إليها، ويهيّيء للتعريف بمذهبه عندما يفد إلىٰ حضرموت بعض المتصلين بأهلهم من حملةِ مذهبه. انتهىٰ. من محاضرة السيد الجيلاني: «مشاركة فقهاء حضرموت في خدمة الفقه الشافعي»، (ص ٧). =

ومذهبَ الشافعيِّ في الفروع، وهو ما عليه عمدتُهم الإمامُ حُجّةُ الإسلام أبو حامدٍ الغزَالي. يقول الإمامُ الحدّاد في قصيدتِه الرائيةِ الشهيرة:

وكُـنْ أشعـرِيّـاً فـي اعتقـادِكَ، إنـه ... هُوَ المنهلُ الصافيْ عنِ الزَّيغِ والكُفرِ
وقـد حَـرّرَ القطـبُ الإمـامُ مَـلاذُنـا ... عقيـدتَـه، فهْـيَ الشفـاءُ مـن الضُّـرِّ
وأعنـي بِـهِ مَـنْ ليـسَ يُنعَـتُ غيـرُهُ ... بحُجّـةِ إسـلامٍ، فيـا لَكَ مِـنْ فَخْـرِ

* * *

ومِن المناحي العلمية الأخرىٰ في منهج السادة آل باعلَوي قيامُهم علىٰ تدريس العلـوم الإسلامية، ومواصلتهم ذلك علىٰ مرّ أدوار تاريخهـم، ولا تزالُ معاهدُهم وأربطتُهـم منذ السنين الغابرة إلىٰ يومنا هذا تحافـظُ علىٰ سُلَّـمٍ منهجـي في تدريس العلوم، يرافقُه منهجٌ تربوي في التزكية، يتخرَّجُ بهما الطلبةُ بعدَ سنواتٍ وقد اكتملت مَلَكاتُهم العلمية، وصُقِلَت شخصياتُهم الإيمانية، ليتصدّروا للإفادة ومتابعة السَّير معَ جيلٍ جديدٍ من المتعلِّمين.

* * *

ومِـن ملامح منهجهـم العلميّ العنايةُ بالكتابةِ والتأليفِ في مختَلَف الفنون، مِن فقـهٍ وحديثٍ وتصـوُّف، وسيـرةٍ وتاريـخٍ وتراجـم، وغيرهـا، والتدوينُ الحيُّ للمعارفِ والعلوم مِن كـلام أئمتهـم وصالحيهم. وبينَ أيدينـا اليـوم تـراثٌ ضخمٌ مِـنَ المؤلَّفـاتِ القيّمـة والمخطوطـاتِ النـادرة التـي لا يـزالُ الكثيـرُ منها حَبِيسَ الخزائن(١).

---

(١) ولدار العلم والدعوة بتريم السعيُ الدائـب في إخراج مختاراتٍ من تـلك الذخائر، محققةً مخدومة، بأيدي ثُلّةٍ من الباحثين المختَصّين، فلها من كلِّ غيورٍ تحيـةُ تقدير، والدعـاءُ لها بكل توفيق وسداد.

(٣)

المَعالمُ الرُّوحيّة

تتّفـقُ طريقةُ السادةِ آل باعَلَـوي معَ غيرِهـا من الطـرُقِ الصوفيةِ الشرعيـةِ في منهجهـا الروحيِّ العام، إلا أنها تتميّزُ بسَلَفِيّتها الظاهرة، وهيَ: اقتفاءُ ما كـان عليه أعلامُها الأوائل، وبأنّ العملَ بالعلم ركنُها الأساسُ وركيزتُها. لذا، عُنُوا بعلم الفقهِ عنايةً بالغةً أكثرَ مِن غيرِه من العلوم، واشتغلـوا بالآدابِ والأخلاقِ الغزَالية وتهذّبوا بها، وآثرُوا ــ معَ ذلك كلِّه ــ الخمولَ والاستتار.

فهيَ علىٰ وجه العموم كما وصَفَها الإمـامُ الحبيب طاهرُ بن حسين بن طاهر باعَلَـوي (ت ١٢٤١هـ) في نبذةٍ كَتَبها في التعريـف بالطريقـة: «إحكـامُ عقيدةِ أهل السُّنةِ والجماعة ــ وهم: سَلَفُ الأمّةِ الصالحون منَ الصحابةِ والتابعيـن وتابعِيهم بإحسان ــ ومعرفـةُ الأحكام العَينية، واتِّباعُ الآثارِ النبويةِ المخبِرةِ عن أحواله صلىٰ اللّه عليهِ وآله وسلَّم، والتمسُّكُ بالآدابِ الشرعيـة، وهي النهـج الذي درج عليه آل باعلوي طبقةً عن طبقة، إلىٰ النبي ﷺ»[١].

وبعبارةٍ أخصَّ ــ كما يقول الإمام عبدُ الرحمن بنُ عبدِ اللّه بِلفَقِيه رضيَ اللّه عنه ــ هي: «أحدُ طرق الصوفيةِ التي أساسُها الكتابُ والسُّنة، ورأسُها شهودُ المِنّة، فهيَ: اتّباعُ المنصوص علىٰ وجهٍ مخصُوص، وتهذيبُ الأصـول لتقريب الوصول، **فظاهرُها**: علومُ الدِّينِ والأعمال، **وباطنُها**: تحقيقُ المقاماتِ والأحوال، **وآدابها**: صَونُ الأسرارِ والغَيرةُ عليها منَ الابتذال»[٢].

ومن كلام العلاّمة الحبيب عبدِ اللّه بن عمرَ بن يحيىٰ رحمه اللّه تعالىٰ في ذلك:

---

(١) من ملحق «المسلك القريب لكل ناسك منيب» (ص ١٩٩). طبعة دار الحاوي. باختصار.
(٢) «عقد اليواقيت الجوهرية» (١: ٣٣ ــ ٣٤).

«خُلاصة القولِ فيها أنها توزيعُ الأوقاتِ بالأعمالِ الصالحات، معَ كمالِ الاقتداءِ فيها بسَيّدِ السادات، وتصحيحِها بالإخلاصِ مِنَ الشوائبِ والآفات، وتطهيرُ القلبِ مِنْ كلِّ خُلُقٍ دَنِيّ، وتحليتُه بكلِّ خُلُقٍ سَنِيّ، والرحمةُ والشفقةُ علىٰ عِبادِ اللّه، وبَذْلُ الوُسْعِ في تعليمِهم وإرشادِهم إلىٰ ما فيه النجاة، والتورُّعُ عن الحرامِ والشُّبُهات، والتَقَلُّلُ مِنَ المباحاتِ والشهَوات، واغتنامُ ساعاتِ الأعمارِ بالاعتزالِ. . . فلا يُخالِطُون الناسَ إلا للتعلُّمِ والتعليمِ، والجُمُعةِ والجماعةِ وزيارةِ كلِّ حَمِيم، وعِمارةُ تلك المُزاوَراتِ بمُذاكرةِ العلوم، . . . وصلة الأقاربِ والإخوان، وبذلُ المعروفِ لكلِّ إنسان، وحسنُ المعاملة، . . . والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكر، وإغاثةُ الملهوف، معَ الصيانةِ والتعفُّفِ والتواضُعِ ومراقبةِ الخَلّاق، والوفاءِ بالعهد، والزُّهد، والتوكُّلِ علىٰ اللّه»[١].

تلكَ هيَ بعضُ المعالم والآفاقِ الرُّوحيةِ للطريقة، وهيَ مشروحةٌ بالتفصيل في كتابِ «الإحياء» للإمام الغزالي، وفي كلام السادة العلويين ومؤلفاتهم، خصوصاً الإمامَ عبد اللّه بن علوي الحدّاد رحمه اللّه تعالىٰ.

* * *

ورغمَ وجودِ بعض الطرُق الصّوفيةِ الأخرىٰ في اليمن، كالشاذِليّة والقادِرية، التي كان لها شيءٌ منَ الانتشار هناك في بعض العصور، وسَلَك فيها عددٌ من الأعلام؛ إلا أنّ طريقةَ آل باعَلَوي كانت هيَ الغالبةَ في تلك الأصقاع، وانتشرَتِ انتشاراً كبيراً في بُلدانٍ عدّة، ذلك أنّها طريقةٌ واضحةُ المعالم، تبتعِدُ عن منهجِ التربية بالاصطلاح والرمز، والرسوم الخاصّة، فكانت قريبةَ المنال للعامةِ، عظيمةَ التأثيرِ فيهم؛ لأنها ــ في مدارجِها الأولىٰ ــ حركةٌ إيمانيةٌ قوية تناسِبُ العامَّ والخاصّ، أمّا في منتهاها فسلوكٌ وعلومٌ باطنةٌ أثِيرةٌ بالخواصّ.

---

(١) «عقد اليواقيت الجوهرية» (١ : ١٢٩) باختصار وتصرُّف.

لقد كانت طريقةُ آل باعَلَوي تحتضنُ الطرقَ الأخرىٰ، وتتأدَّبُ معها ولا تُنكِر عليها، بل وتستقي مِن معانيها، حتىٰ صرَّحَ محققو أئمتها أنها غزاليةُ الظاهر شاذليةُ الباطـن. يقول الإمام عبدُ الرحمن بِلفَقِيه: «فظاهرُهم ما شرحَه الإمـامُ الغزَالي مِنَ العلمِ والعمل علىٰ المنهج الرشيد، وباطنُهم ما أوضحَه الشاذليةُ مِن تحقيق الحقيقةِ وتجريـدِ التوحيد[1]، . . . جُلُّ مجاهداتِهم الاجتهادُ في تصفيةِ الفُؤاد، والاستعدادُ للتعرُّضِ لنفحـاتِ القُربِ في طريقِ الرَشاد، والاقترابُ إلىٰ اللّه تعالىٰ بكلِّ قُربةٍ في صُحبةِ أهلِ الإرشاد»[2].

وتميَّزت طريقةُ السـادة آل باعَلَوي بمُجافاتهـا لمظاهر الغُلُوّ التي ابتُلِيَت بها بعضُ طرق التصوّف؛ لأنها جعلَتْ مدارَ أمرِها علىٰ تحقيقِ معاني السلوكِ الباطنةِ من إخـلاصٍ وتوكُّـلٍ وزُهدٍ وإقبالٍ علىٰ الآخرةِ ونحـو ذلك، والتزامِ الآدابِ الغزالية، والمثابرةِ علىٰ طلـبِ العلمِ والعملِ به في أحوالِهـا الظاهـرة، دون تعدِّي ذلك إلىٰ رسـومٍ أو مظاهرَ عريّـةٍ عـن المعاني. لقد نهـجَ السـادةُ العَلَويـون الطريقـةَ بمعناها الحقيقيّ كسبيلٍ إلىٰ الآخرة وطريقٍ لإحياءِ معاني الربّانيةِ في الأُمّة.

* * *

ومما تجدُرُ الإشارةُ إليه في هذا الصَّددِ أنّ كلامَنا عن طريقةِ السادة آلِ باعَلَوي ونسبتَهـا إليهم، لا يعني أنها مقصورةٌ عليهم وخاصّة بأُسَرِهم؛ بل لقد اندمَجَ سائرُ الحضـارم ــ بـل وغيرُهـم مِنَ اليمنييـن ــ في رَكْبِها؛ لِمَا تحقّقُـوه مـن مزايـاهـا، ولاتّخاذِها العلمَ والدعوةَ إلىٰ اللّه منهجاً، ولمعت أسماءُ كثيرٍ من الأُسَرِ الحضرمية

---

(١) المقصـود بـ (تحقيـق الحقيقة وتجريد التوحيـد): هو التصـوف الذوقـي وما يتضمنـه من المقامات الروحية العالية في المعاملة مع اللّه تبارك وتعالى، التي مدارها على إفراد القديم عن الحادث، ومحو أوصاف البشرية لشهود ظهور الربوبية. وهو منتهى سير السالكين، وهو المسمى: (السير في اللّه).

(٢) «عقد اليواقيت الجوهرية» (١: ٣٤).

غيرِ العَلَويـة في سماء الطريقة، كآل العَمُـودي، وآل باعَبّـاد، وآل باجَمّـال، وآل بافَضْل، وآل باذِيب، وآل بِن عَفِيف، وغيرُهم الكثير، ممّن أخذوا عن السادةِ وأخذَ السـادةُ عنهم. لقد تشبَّعَ سائرُ ذلك الوادي الشاسعِ بالطريقةِ العَلَوية، وحمـلَ أبناؤه ادابَها وحصَّنوا بها أخلاقَهم، وأسّسوا بنيانَ دُنياهم علىٰ تلك التعاليم الربّانية.

(٤)

الطريقةُ والدّعوة إلىٰ اللّه

كانت الطريقة العَلَوية ــ فضلاً عن كونها منهَجاً في التربيةِ والسلوك ــ سبَباً في انتشارِ الإسلام ودخولِ الأفواج الكبيرة فيه، علىٰ رقعةٍ جغرافيةٍ واسعة، «عبرَ (الهند) إلىٰ (الملايو) و(بُورما) و(إندونيسيا) و(الفلبين) و(سِيلان)، وكذلك جنوبُ شرقِ آسيا، وساحلُ شرقِ إفريقيا، وغيرها»[١].

لقد كان السادةُ العَلَويون ــ في تجاراتهم عبرَ البحار إلىٰ تلك البلاد ــ المثَلَ الكامـلَ للمسلـم الصالـح العالـمِ العـامـل، فاجتَذبـوا النـاسَ بأخلاقِهـم وآدابِهـم وعلومِهم، فكانوا صورةً ناصعةً للشخصيةِ المسلمة المتكاملةِ ديناً ودنيا.

يقول المؤرّخ العلاّمة السيد محمد بن عبد الرحمن بن شهاب العَلَوي: «كان للعـرب الحضـارمـةِ ــ وفي مقدِّمتهـم السـادةُ العَلَويـون ــ تـردُّداتٌ إلىٰ (مليبـار) و(كُجرات) و(كاليكوت) وغيرها من البلاد الهندية، ولهم بها مراكزُ تجاريةٌ ودينية، وقد كان لكثيرٍ منَ العَلَويين رِبَاطاتٌ مفتوحةٌ لطالبي العلم، وكانت السفنُ تذهبُ مِن ساحل حضرمَوتَ قاصدةً (مليبار)، ثم تأخذُ شرقاً علىٰ السواحل الهندية، ومنها إلىٰ (سومطرا) وبلاد (آشي) منها، و(فلمباغ) فـ (جاوىٰ)، وقد ترجمَ في «المَشْرَع»[٢]

---

(١) «الإمام الحداد مجدِّد القرن الثاني عشر الهجري»، للدكتور مصطفى البدوي (١ : ٥٢).

(٢) وهو: «المشرعُ الرَّوي في مناقب السادة الكرام آل أبي عَلَوي» للعلاّمة المؤرِّخ جمال الدين محمد بن أبي بكر الشِّلِّي الحسيني باعلوي، الحضرمي ثم المكّي (١٠٣٠ ــ ١٠٩٣هـ)، من=

لبعض علماء السادة العَلَويين الذين دخلوا جاوىٰ قبلَ وصول الهولنديين إليها بمدةٍ طويلة، وإلىٰ (آشي) منذ ثلاثةِ قرونٍ ونصفِ القرن. . .»[١].

* * *

وحولَ دخولِ الحضارم من السادة آل باعَلَوي وغيرِهم إلىٰ (جاوىٰ) ــ وهيَ مِن أكبر البلاد التي ظهرَ أثرُهم فيها ــ يقولُ الأميرُ شَكِيب أرْسلان في مقالتِه (الإسلامُ في جاوىٰ وما جاورها):

«معلومٌ كونُ أهل حضرمَوتَ من أقدَم أهلِ الأرض[٢] علىٰ الأسفار، وأنّ فقرَ بلادِهم معَ مَضاءِ عزيمتِهم يَحمِلانِهم علىٰ جَوْبِ الآفاق، وأكثرَ ما ينتشرون في جزائر (الجاوىٰ) والبحرِ المحيط، فكانت الحكومةُ الهولنديةُ تَحسِب لهم حساباً كبيراً، ولَشَدَّ ما يَضِيقُ صدرُها بهجرتهم إلىٰ تلك البلادِ خشيةَ أن ينشروا الدعوةَ الإسلاميةَ أو ينبِّهوا الأهاليَ السذَّجَ إلىٰ الأمور التي لولا الحضارمةُ ربما لا ينتبهونَ لها، فما زالت تَضَعُ الحواجزَ أمامَ نزولِهم في تلك الديار وتُراقبُ حركاتِهم وسكناتِهم، وهيَ تحتجُّ لذلك بكونِهم في الأكثر أفّاقِينَ لا يأتون إلىٰ (الجاوىٰ) بشيءٍ من رؤوس الأموال، وأنهم يمنعون غيرَ المسلمين من دخول بلادِهم حضرمَوت، فلا يَحِقُّ لهم إذاً أن يُطالبوا بدخول بلاد هولنده، لأنّ جزائرَ (الجاوىٰ) و(سومطرا) و(بورنيو) وملحقاتِها هيَ ملكٌ لهولنده، وهيَ أَوْلىٰ من الأهالي ببلادهم!».

ويُتابع الأمير قائلاً: «وبناءً علىٰ ذلك فقد ضُويق الحضارمةُ وغيرُهم من العرب في قضية المهاجرة إلىٰ المستعمرات الهولندية أو النيرلندية كما يقولون، ولكن لم تخلُ الحال من كون كثيرينَ من الحضارمةِ تمكّنوا من الدخولِ وأوطَنوا

= أهم المصادر المطبوعة في تراجم السادة العلويين.

(١) نقله عنه الأمير شكيب أرسلان في إضافاته علىٰ كتاب «حاضر العالم الإسلامي» للكاتب الأميركي لوثروب ستودارد، (٣: ١٧٥).

(٢) أي: أشدّهم إقداماً.

تلكَ الديارَ وصاروا من أهلِها، فترتّبَ علىٰ ذلك أنّ الحكومةَ الهولندية ــ التي هي منَ الأصل غيرُ مرتاحة إلىٰ وجودهم بين مسلمي (الجاوىٰ) لكيلا تسطوَ حصافتُهم علىٰ سذاجة هؤلاء، ويوقظوهم من غفلتهم التي هي دَرّةُ الحلْب الاستعماري ــ قد جعلت تُضيِّـق عليهم في غدَواتهم وروْحاتهم، وتنغّص عليهم عيْشَهم، وتفعل ما تشاء، لتحمِلَهم علىٰ ترك تلك الديار. . . »[١].

* * *

كانت تلك صورةً من المصاعب والشدائد الكثيرة التي واجهها السادة في رحلاتهم. وبعيداً عن ذكر تفاصيل تلك الأحداث ومجرياتها المطولة، نُجمِلُ السيرَ فنقول: استمر السادة العلويون في رحلاتهم وثابروا، وتوطّنوا في تلك الأصقاع، وانتشر تراثهم، وسادت آدابهم، ورسخت معالم حضارتهم فيها، حتىٰ كان لهم في حياة شعوبها الأثرُ البالغ.

بل لقد تجاوزَ أمرُهم في تلك البلاد طورَ التأثير في الأهالي إلىٰ تأسيس دُوَلٍ وممالكَ بأسرِها، كلُّها تَدِينُ بمذهبِهم وطريقتِهم، فكانوا رجالَ دينٍ ودولة. يقول المؤرّخ السيد محمّدُ بْنُ شهاب: « . . وفي (آشي) مقابرُ محتويةٌ علىٰ كثيرٍ من السادة العَلَويين، وقد تولّىٰ منهم عدةُ سلاطين في تلك الجزيرة، وهو أمرٌ معروفٌ عندَ الأهالي. . . وقد تأسّست في الهند دوَلٌ كان من العوامل في تأسيسها بعضُ السادةِ العَلَويين، كمملكة الملك عنبر، فقد كان من العوامل الكبرىٰ في تأسيسها إرشاداتُ الحبيبِ علي بن علَوي بن محمد الحداد العَلَوي. . . وما كان الأميرُ جوهر سحرتي إلا تلميـذَ الشيخ الإمام شيخ بن عبد اللّه العَيدَرُوسِ العَلَـوي، ولـذلك، لما توفّي [الأميرُ] اعتنىٰ به السادةُ وجهّزوه، وكان لـه مشهَدٌ عظيم، ودفَنوه في مقبرةِ السادةِ والعربِ تحتَ مدينة بيجافور. . . »[٢].

---

(١) «حاضر العالم الإسلامي» (١: ٣٤٣ ــ ٣٤٤).

(٢) من مقالته: «بيانات عن الحضارمة»، المنشورة في «حاضر العالم الإسلامي» (٣: ١٧٦ ــ ١٧٧). =

«بل تأسّست لهم في الشرق الأقصىٰ وشرقِ إفريقيا والحجاز وغيرها ممالكُ شهيرةٌ باقيـةٌ معالُمها إلىٰ اليوم، كمملكة السادة آل العَيدَرُوس بـ (سُرّت)، ومملكة آل القَـدْري وآل الشيـخ أبي بكر بن سالـم بـ (جزائر القمـر)، ومملكـة آل شهـاب بـ (سِيع)، وسلطنة آل القَدْري بـ (فنتيانك)، وآل بافَقِيه بـ (الفلبين)، ولكل واحدةٍ من هذه الممالك تاريخٌ مفصَّل. . .»[١].

ويقول باحثٌ آخر: «كان سلطانُ جزيرة مدغشقر حينئذٍ شديدَ الارتباط بعرب زنجبـار وإفريقيا الشرقية، وأيضاً بسلاطين جزرِ القمـر، وهم منَ السـادة العَلَويين الحسينيين من آلِ جَمَل الليل وآلِ الشيخ وآل القَدْري وغيرِهم منَ الوافدِينَ إلىٰ هذه الجزُر من حضرموت. . .»[٢].

قال المؤرّخ السيّد ابنُ شهـاب: «ولا يَحتمـلُ المقامُ بسطَ حالهم وتعديدَ مَن دخـلَ مِن أفخاذِهـم إلىٰ الهنـد. . . أمّـا الكـلامُ في بقيـة أفخـاذِ السـادة العَلَويـين ــ المنتشرةِ في (سومطرا) و(برنيو) و(جاوىٰ) و(ملاكا) [مَلَقا] و(جزائر التيمور) ــ فيطول، ولا تزال غالبُ أنسابهم محفوظة»[٣] [٤].

أما في القارة السوداء فقد كـان للسـادة آل باعلوي ــ ولا يزال ــ من الآثار الضخمة ما لا تسع الحديثَ عنه هذه الصفحاتُ الوجيزة[٥].

---

(١) «سيرة السلف من بني علوي الحسينيين»، محاضرةٌ للعلامة محمد بن أحمد الشاطري رحمه الله، (ص ٣٠).

(٢) «دراسات عن العرب والإسلام في شرق إفريقيا» للسيد حامد بن أحمد مشهور الحداد، نقلاً عن «المدخل» للعلاّمة علوي بن طاهر الحداد.

(٣) أي: مدوَّنة. فإن للسـادة عنايةً بمُشجَّـرات أنسـاب العوائل وتجديدهـا عبـر السنين، لذا أصبحت مصدراً هامّاً لتراجمهم.

(٤) (بيانات عن الحضارمة)، المنشورة في «حاضر العالم الإسلامي» (٣: ١٧٧ ــ ١٧٨).

(٥) وينظر فيها للتوسع: «دراسات عن العرب والإسلام في شرق إفريقيا» للأستاذ السيد حامد أحمد مشهور الحداد، وكتابه: «الإمام الحبيب الداعية أحمد مشهور الحداد، صفحات من =

وفضلاً عمّا تقدّم، فللسادةِ العَلَوية في بلادهم وما حولها من أقطار الإقليم انتشارٌ وتأثيرٌ كبير، من خلال الدعوة والتجارة، ولهم مشاركةٌ في عددٍ من الأعمال السياسية في الإقليم[١]، لكنْ ظلَّ طابَعُ الخدمة الحضارية بالعلم والدعوة هو الغالبَ عليهم في أغلب الأدوار والبقاع.

* * *

لقد واجهَ العلويونَ في رحلاتِهم وأسفارِهم الأخطارَ الكثيرة، لكنّ مَضاءَ عزيمتِهم أثمرَ في تلك البلادِ وفي غيرِها نهضاتٍ دينيةً وعلمية، ولهم في الدعوةِ والجهاد صفحاتٌ خالدة علىٰ مرّ الدهر لا تزال آثارُها الباهرةُ ماثلةً إلىٰ يومنا هذا. يرجعُ السرُّ في ذلك كلِّه إلىٰ أنهم كلَّما «وَطِئوا بلداً كان لهم الجاهُ والإجلالُ لمكان أهلهم وسَلَفِهم الطاهر، ومنها: كثرةُ العلماء فيهم بالعلوم الإسلامية، فحيثما وقَعوا نفَعوا، ومنها: تفوُّقهم في الدعوة إلىٰ اللّه وإلىٰ دينه، ومنها: لُطف أخلاقِهم وغَلَبةُ آدابِ التصوّفِ عليهم، فهم أَلينُ أخلاقاً وأسمىٰ تربية»[٢].

* * *

واليوم...

لا تزالُ تلكَ المآثرُ الخالدة حيةً مشرِقة، وها هيَ (تريمُ الغَنّاء) ما تزالُ تَزهُو بصالِحِيها، وبطلَبةِ العلم الدائبين علىٰ تحصِيله في رُبُوعِها، والدعاةُ يجُوبُونَ الأصقاع، في آسيا وإفريقيا والعالم الغَربي، يدعونَ إلىٰ اللّه تعالىٰ علىٰ طريق سَلَفِهم الطاهر، فها هم طلبةُ الحدّاد والهدّار وابن أحمد السقّاف وغيرِهم، وتلك هيَ

= حياته ودعوته» (ص ٣١ ـ ٤٧).

(١) يُنظر للتوسُّع محاضرةُ العلاّمة المؤرّخ السيّد محمد بن أحمد الشاطري رحمه اللّه تعالىٰ: «علماء حضرموت والسياسة».

(٢) (بيانات عن الحضارمة) في «حاضر العالم الإسلامي» (٣: ١٦٩).

الأربطةُ والمعاهدُ العَلَوية تَزينُ وجهَ الأرض وتنشُرُ النور، وأعلامُ الوقت كالحبيبِ ابنِ سُمَيـط في الحجاز، والسادةِ آل الشاطـريّ في أرض الفقيهِ المقدَّم، وذريةِ ابنِ حَفِيـظ البَررة، وأنجالِ المشهـور والهـدّار، وغيرِهم من السادة الأخيار، لا يزالون القدوةَ والأسوة، والوجهَ المشرق لدعوةِ الآباء.

❊ ❊ ❊

لكنّ الحِمْلَ يثقُل..، والهمَّ يكبُر..، ولا بدَّ مِن مزيدِ البذل والعطـاء..، فهل إلىٰ منهلِ الأسـلافِ عَوْدٌ أيها الأنجال؟ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، ردَّنا اللّه إلـىٰ دينـه ردّاً جميـلاً مباركـاً، وما ذلك علـىٰ اللّه بعزيـز، والحمـد للّه رب العالمين.

❊ ❊ ❊

هذا الكتاب

شرحٌ موسَّعٌ لأصولِ وآدابِ السَّير إلىٰ اللّه في طريقة السادة آل باعَلَوي رضيَ اللّه عنهم، جعل المؤلفُ ــ حفظه اللّه ــ منطلقَه فيه العبارةَ الجامعةَ التي قالها الإمامُ المحقّق الحبيب أحمدُ بن زَين الحبَشي (ت ١١٤٥هـ) دَفِينُ الحَوطة، رضيَ اللّه عنه: «طريقةُ السادة آل باعَلَوي إنما هيَ: العلمُ، والعمَل، والورَع، والخوفُ منَ اللّه، والإخلاصُ له عزّ وجَلّ».

ــ أقسام الكتاب ومحتوياته:

قسّم المؤلف كتابه إلىٰ خمسة أقسام كبرىٰ طبْقاً للأوصافِ الخمسةِ التي ذكرها الحبيبُ أحمد بن زَين، ووَسَمَ كلاًّ منها بالحالة، فكانت محتوياتُ هذا الكتاب كالآتي:

الحالة الأولىٰ: العلم. ولسَعةِ مباحث هذه الحالة التي استغرقَتْ قُرابةَ نصف الكتاب؛ فقد شرحَها المؤلف في عشَرة أبواب، كلُّ بابٍ ذو فصولٍ عدّة، وحلاّها بخاتمة.

الحالة الثانية: العمل، شرحَها المؤلفُ في مقدمةٍ وعشَرةِ فصول.

الحالة الثالثة: الورع، جاء شرحها في مقدمةٍ وستةِ فصول.

الحالة الرابعة: الخوف، كسابقتها، جاء شرحها في مقدمةٍ وفصولٍ ستة.

الحالة الخامسة: الإخلاص. ولاتساع مسائله استغرقَ شرحُه ــ بعدَ

المقدمة ــ ثلاثةَ أبوابٍ ذاتِ فصولٍ عدة.

والخاتمة: في النصائح النافعة والوصايا الجامعة.

ــ منهج الشرح:

منهج المؤلف في كتابه هذا أنه يفتتح كلامَه بمقدمةٍ تمهيدية يلفت النظرَ فيها إلىٰ أهمية الحالة وما يتعلّق بها علىٰ وجه الإجمال، ثم ينقل كلامَ الحبيبِ عيدروسِ ابنِ عمرَ الحبشيّ في بيان معناها العام، ثم ينتقل إلىٰ فصولِ الشرح.

يسُوقُ المؤلف ــ بعد أن يفتتح كلَّ فصلٍ بما يناسبه من استهلال ــ ما يختصُّ به ذلك الفصل من النصوص الشرعية، بدءاً بالآيات القرآنية، فالأحاديث النبوية، فأقاويل السلَف المتقدمين، ثم كلام السادة آل باعَلَوي، رابطاً بين تلك النصوص بالتعليق والشرح والإيضاح، ثم يذيّل الفصلَ بما يناسبه من مسائلَ وتنبيهات، أو فوائدَ وحكايا، ونحوِ ذلك، بحيث يكتمل في كلِّ فصلٍ أدلتُه ومسائلُه وما يتبعها، ثم يُتمّ البحثَ بخاتمةٍ إن لزِم ذلك وناسبَ المقام. هذا منهجُه في غالب الكتاب.

وقد راعىٰ المؤلف الترابطَ والمناسبةَ بينَ الفصول، وأن تكونَ وافيةً بالشرح والبيان.

ــ مواردُ الكتاب:

اعتمد المؤلف في جمع مادة كتابه علىٰ مصادرَ شتّىٰ وكتبٍ متنوِّعةٍ كان يلتقطُ فوائدَها علىٰ مرِّ السنين الغابرة، حتىٰ اجتمعت لدَيهِ مادةٌ غنيةٌ نسجها في هذا العِقد النفيس. وعددٌ من تلك المصادر لا يزال مخطوطاً، فقرَّب المؤلفُ من نفائسها ما تقرُّ به أعينُ الناظرين. وقد صرّح المؤلف بتسمية موارده في كثيرٍ من الأحيان، وبقيَ قدرٌ جمٌّ من المصادر مطوياً؛ لأنّ المؤلفَ ــ حفظه الله ــ كان يسوق كثيراً من النصوص والفوائد من محفوظِه الواسع، وكلامُنا هنا مقتصِرٌ علىٰ ما صرّح بالنقل عنه.

وقد تنوّعت هذه المصادرُ علىٰ اختلاف فنون العلم، وقد صنفْناها هنا ليتبين للقارىء مدىٰ تنوّع مادة الكتاب وثرائها:

١ ــ **كتب الآداب والرقائق**: وعلىٰ رأسها كتابُ «إحياء علوم الدين» الذي لا يستغني مؤلِّفٌ عن الاستمداد منه، وعامةُ مصنفات حجّة الإسلام الغزالي. تليها مؤلفاتُ قطب الإرشاد الحبيب عبدِ الله بن عَلَوي الحداد ومكاتَباتُه وكلامُه، كـ«رسالة المعاونة» و«رسالة المذاكرة» و«الدعوة التامة» و«الفصول العلمية» و«الديوان»، ومجموع كلامه المسمّىٰ «تثبيت الفؤاد»، وغيرها. وكتبُ الإمام النووي كـ«التبيان» و«الأذكار»، و«تذكرةُ السامع والمتكلم» للبدر ابن جماعة، و«آداب المتعلِّمين» للطُّوسي، وغيرُها.

٢ ــ **كتب التراجم والسِّير والمَناقب**: ومنها «زاد المعاد» لابن القيّم، في السِّيرة، أما التراجم والمَناقب فكـ«نشر المحاسن الغالية» لليافعي، و«المشرَع الرَّوي» للشِّلِّي، و«الفوائد السَّنِية» للإمام أحمد بن حسن الحداد، و«قُرّة العين» و«بهجة الزمان» كلاهما للإمام محمد بن زَين بن سُمَيط، و«مَجمَع البحرَين» للشيخ باجَمّال، و«عِقْد اليواقيت» للحبيب عيدروسِ بنِ عمرَ الحبَشي، و«الشجرة العَلَوية»، وغيرِها.

٣ ــ **كتب الفقه**: ومنها «المجموع شرح المهذَّب» للإمام النووي، و«المدخل» لابن الحاجّ، و«الأشباه والنظائر» للإمام السيوطي، و«بُغية المسترشِدين» للإمام عبد الرحمن المشهور، و«مطلب الإيقاظ» للعلاّمة عبد الله بلفقيه، وغيرُها.

٤ ــ **كتب التفسير وعلوم القرآن**: كـ«تفسير القرطبي»، و«تفسير البَغَوي»، و«الإكليل»، و«الإتقان» كلاهما للإمام السيوطي، وغيرها.

٥ ــ **كتب الحديث وشروحه**: كـ«صحيح البخاري»، و«شرح صحيح مسلم» للإمام النووي، و«شرح الأربعين النووية» للجُرْداني، وكتبٍ أخرىٰ.

٦ ــ **الدواوين الشعرية**: سواءٌ دواوينُ المتقدمين كالإمام الشافعي، أو دواوين

السـادة العَلَويـة، كديـوان الإمـام الحـدّاد، وديـوان الحبيب علي الحبشي، وديوان الإمام أحمدَ بنِ عمرَ بنِ سُمَيط، وديـوان الإمام عبدِ اللّه بن حُسَين بن طاهر، وغيرِها.

٧ ــ **كتب اللغة**: وقد صـرّح المؤلف بالنقل عن «تهذيـب الأسماء واللغات» للإمام النووي فحسب.

٨ ــ **مجاميع وكتب السادة العَلَوية**: ومنها «مجمـوعُ مواعـظِ وكـلام الحبيب الداعيةِ أحمدَ بنِ عمرَ بن سُمَيط»، و«تثبيت الفؤاد» من كلام الحبيب عبد اللّه بن علوي الحداد، ومجموع كلام إمام المتأخّرين شيخ الإسلام أحمد بن حسن العطّاس، و«النهـر المورود» كلامُ الحبيـب عيـدروس بن عمـرَ الحبشـي، و«المجمـوع الطـاهـري» وهـو: رسـائلُ ومكاتباتُ وكلام الإمـام عبدِ اللّه بن حسيـن بن طاهر، ووصايا أخيه الحبيب طاهر، وغيرُها.

واستمـدَّ المؤلِّـف من عـددٍ من كتـب السادة، كـ«معـارج الهـدايـة» للإمـام الشيخ علي بن أبي بكر السَّكـران، و«القرطاس» للحبيـب علـي بن حسن العطّاس، و«فتـح بصائـر الإخوان» لعلاّمـة الدنيـا عبد الرحمـن بن عبد اللّه بِلفَقِيه، وغيرها. هـذا فضـلاً عن تصانيـف الإمام الحـدّاد التي سبـقَ ذكـرُهـا ضمـنَ كتـب الرقائـق والآداب.

ــ عملُنا في الكتاب:

لقد قيّض اللّه تعالىٰ بفضله لهذا الكتاب همّةَ الابنِ البارّ بأبيه، نجل المؤلف، فضيلةِ الأستاذ السيّدِ محمدِ بنِ زَين بنِ سُمَيـط حفظه اللّه، الذي أخرج أصولَ هذا الكتاب وأوراقَه ومسوَّداتِه التي كانت مغمـورةً في مكتبة والده، فنفضَ الغُبـارَ عنها، وسعىٰ ــ من خـلال الفريـق العلمـي في (دار العلـم والدعـوة) ــ في خـدمـة هذا الكتـاب وإخراجه بأحسن المواصفات، وبذلَ في ذلك ــ من وقتِه وجُهده ومالِه ــ ما يُرتجىٰ له به جزيلُ الثوابِ والبرَكة في الدارَين.

وتتلخّص خدمتُنا لهذا الكتاب في الأمور الآتية:

١ ــ ضبطُ متنه بالشكل اللازم، ووضعُ علامات الترقيم بدقة، والعنايةُ بتفقيرِه وحسْنِ إخراجه.

٢ ــ تخريجُ الأحاديث النبوية المرفوعة. وقد وردَ في الكتاب بعضُ الأحاديث الضعيفة، جرىٰ المؤلِّفُ في نقلِها علىٰ ما قعّدَه العلماءُ مِن جوازِ العمل بالأحاديثِ الضعيفةِ في الفضائل. وبعضُ ما ذكرَه من أحاديثَ جاء ضمنَ نصوصٍ نقلَها عن كتبٍ أملاها مؤلِّفُوها إملاءً، فجاءت بعضُ متونِ الأحاديثِ فيها مرويةً بالمعنىٰ، وقد نبّهنا في عدّةِ مواضعَ إلىٰ ذلك.

٣ ــ التعريفُ بالأعلام الواردين فيه، سواءٌ من السادة آل باعَلَوي أو غيرهم. وكل علَمٍ لا يجدُ القارىءُ ترجمتَه في موضعٍ من الكتاب فليَعلَمْ أنها ــ غالباً ــ تقدّمت ومرّت قبلَ ذلك الموضع، إلاّ أنْ يكون ذلك العلَمُ صحابياً أو من المشاهير جداً عند عامة الناس، كالأئمة الأربعة والخلفاء الأربعة، فإننا لا نترجم له.

٤ ــ عزوُ ما تيسّر عزوُه من نقول المؤلف دون تتبّع أو اطّراد، وتعليقُ بعض الإيضاحات والشروح الطفيفة.

٥ ــ مراجعةُ المؤلف ــ حفظه اللّه ــ في بعض المواضع التي أَشكلَت علينا أثناء العمل، وإضافةُ بعض العناوين الفرعيةِ المفيدة.

٦ ــ عملُ فهارسَ فنيةٍ جامعة، للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار، والأعلام، والتآليف، والمواضع، وفهرسَينِ للمحتويات: تفصيلي وإجمالي.

٧ ــ تصديرُ الكتاب بترجمةٍ وافيةٍ للمؤلف، مدّ اللّه في عمره في خيرٍ وعافية، جمعناها بمَعونةِ نجله السيد محمد جزاه اللّه خيراً، أتبعناها بـ(نبذة في التعريف بطريقة السادة آل باعلوي) بقلم الأستاذ الباحث إياد الغوج وفّقه اللّه، ليكون كالتمهيد للقارىء المعاصر الذي ليسَ له أُنْسٌ بمعرفة معالم الطريقةِ الغرّاء.

٨ ـ كَرَرْنا علىٰ الكتاب ـ بعد إنجاز ما تقدَّم ـ تصحيحاً وتوثّقاً من سلامة نصِّه، علىٰ قدر الوُسْع والطاقة، بحيث أضحىٰ ـ فيما نحسب ـ نقياً نادرَ الخطأ بإذن اللّه تعالىٰ.

* * *

وفي الختام، لا يفوتنا أن نُزجيَ الشكرَ والعِرفان إلىٰ الأخوَين الكريمَين: الأستاذ الباحث إياد أحمد الغوج الذي عايَشَ هذا الكتابَ مدةً من الزمن مراجعةً وخدمةً وتصحيحاً، وترجم لأعلامه وراجع أحاديثه، وبذل في إخراجه جهداً مشكوراً، والأستاذ الباحث محمد أبو بكر عبد اللّه باذيب الذي تولّىٰ الترجمة لجميع أعلام الحضارم ـ منَ السادة آل باعَلَوي وغيرهم ـ الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب، ثم لكل أخٍ كان له في ظهور هذا الكتاب في هذا الحلة المباركة يدٌ وعون. جزىٰ اللّه الجميعَ الأجرَ والمثوبة، وجعل أعمالنا كلَّها خالصةً مقبولةً بمنه وكرمه، آمين، وصلىٰ اللّه علىٰ سيدنا ونبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين.

فريق الدراسات وتحقيق التراث في

(دار العلم والدعوة)



تأليف
العلامة المحقق الداعي إلى الله
الحبيب زين بن إبراهيم بن سميط
باعلوي الحسيني







بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب

الحمـدُ للّهِ الذي بنعمتِـهِ تتِـمُّ الصالحـات، وتنـزِلُ البرَكـات، وتحصُلُ النفَحـات، وصلّىٰ اللّهُ وسلّمَ علىٰ سيّدِ السادات، وقُدوةِ القادات، محمدِ بنِ عبدِ اللّه، خيرِ مخلوقٍ في الأرضِ والسماوات، وعلىٰ آلِهِ معادنِ الحِكمةِ وأمنِ الأمّـةِ ومفاتيـحِ الرحَمـات، وأصحابِـهِ نجـومِ الاهتـداءِ ومصـابيـحِ الاقتداء، وتابِعيهِـم بإحسانٍ إلىٰ يـومِ المِيقات، في كلِّ لحظةٍ أبداً، عددَ ما أحاطَ بهِ عِلمُ اللّهِ ومِدادُ كلماتِ اللّهِ التامّات.

وبعدُ،

قال الفقيـرُ إلىٰ اللّه، جامعُ هذِه الورَقـات، الراجي مِن ربِّهِ أن يُصلحَ له جميعَ المَقاصدِ والنيّات، ويبارِكَ لهُ في العلومِ والأعمالِ الصالحات:

اِعلَمْ أيها الأخُ الحبيـبُ الأدنىٰ، والصَّديـقُ الوفيُّ الأحنىٰ ـ رزَقَني اللّهُ وإيـاكَ التخلُّـقَ بأخـلاقِ أسمائهِ الحُسنـىٰ، والعثـورَ علـىٰ المطلَـبِ الأسْنـىٰ، والمشـرَبِ الأهنىٰ ـ أنّني لمّا وقَفْـتُ علىٰ كـلامِ سيّـدِنا إمامِ العارفينَ وقدوةِ السـالكيـنَ: الحبيبِ أحمـدَ بنِ زَينِ الحَبَشـيِّ[1] نفَعَنـا اللّهُ بـهِ وبسائرِ السَّلَفِ

---

(١) الإمام الكبير أحمد بن زَين بن علوي الحَبَشي، علامـةٌ محقـق وإمـامٌ مرشـد، عالـمٌ عامل، مولده سنةَ ١٠٦٩هـ، ووفاته سنةَ ١١٤٤هـ، تتلمذ لشيخه الإمام عبد اللّه بن علوي الحـداد ما يقـربُ من أربعين سنة، وشرحَ عدداً من قصائده بشروح نفيسة، =

الصالحين، وهُوَ قولُهُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ــ في تعريفِهِ لطريقةِ السادةِ العَلَويين ــ: «طريقةُ السادةِ آلِ أبي عَلَوي إنّما هي: العلمُ، والعمَل، والوَرَع، والخوفُ منَ اللّه، والإخلاصُ له عزَّ وجَلّ»، نقَلَهُ سيّدُنا الإمامُ عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحَبَشيُّ[1] رضِيَ اللّهُ عنهُ في كتابهِ «عِقدِ اليواقيتِ الجَوهَريّة»، ثم قال: فانظُرْ إلىٰ كمالِ تحقيقِه رضِيَ اللّهُ عنه وسَعَةِ اطّلاعِهِ ومديدِ باعِه، جمَعَ نعتَهمُ الشريفَ ووصْفَهمُ المُنِيفَ في خمسِ كلماتٍ وخمسِ حالات. انتهىٰ[2].

فلمّا وقفْتُ علىٰ تلكَ العِبارة، رجَعْتُ باللَّومِ علىٰ نفْسيَ الأمّارة، لتقصيرِها وتخلُّفِها عن طريقةِ هؤلاءِ السادات، ثم تحرَّكَتْ هِمَّتي القاصرةُ ونيَّتي الفاترةُ في جمْعِ ما تيسَّرَ منَ الأدلّةِ والنصوصِ الواضحات، والفوائدِ والنفائسِ المُستَجادات، تكونُ كالشَّرحِ علىٰ تلكَ الخمسِ الحالات، التي هيَ أصولُ طريقةِ أربابِ الأحوالِ والمَقامات، فعسىٰ أن تتحرَّكَ همّةُ الطالبين، وتتقوّىٰ عزيمةُ السالكين، ممّن وقَفَ عليها منَ الإخوانِ الراغبينَ في سلوكِ طريقتِهم، فيَحمِلَهم ذلكَ علىٰ اقتفاءِ سبيلِهم، والاهتداءِ بهَدْيِهم، وليسَ لي إلا

= وله عدة مصنفات و(سفينةٌ) عظيمة حوت فنوناً من العلم وأضراباً شتىٰ، تقع في (٢٠) مجلداً كبيراً. أفرده تلميذه الإمامُ محمد بن زَين بن سُمَيط بترجمةٍ واسعةٍ تقع في مجلدٍ كبير سمّاها «قرة العين».

(١) الإمام الجليل المسند الفقيه عيدروس بن عمرَ عيدروس الحبشي، صاحب الغُرفة، مولده بها سنةَ ١٢٣٧هـ، وبها وفاته سنةَ ١٣١٤هـ، كان مسندَ حضرموت في عصره، واشتهر بهذا الفن، وكانت له رحلاتٌ عديدة في طلب الشيوخ والأخذِ عنهم، وصنف كتابه العظيمَ «عقدَ اليواقيت الجوهرية، وسمط العَين الذهبية، بذكر طريق السادات العلوية» طُبع في جزأين، وله «عقد اللآل في أسانيد الرجال»، و «منحة الفتاح الفاطر في الاتصال بالشيوخ الأكابر»، وكلها طُبعت.

(٢) من «عقد اليواقيت الجوهرية» (١ : ٣١).

الجمْع، راجياً بذلكَ النفْع، لي ولسائرِ المؤمنين، ليكونَ ذلكَ إن شاءَ اللّهُ منَ الباقياتِ الصالِحات، والحسَناتِ الجارِيات، في الحياةِ وبعدَ المَمات.

وإنني ــ معَ اعترافي بالعجزِ والتقصِير، واتّصافي بالجَهلِ وعدَمِ التشمِير ــ أُحرِّضُ إخواني مِن أهلِ البيتِ الطاهرينَ خصُوصاً، وسائرِ المؤمنينَ عمُوماً، علىٰ التمسُّكِ بطريقةِ هؤلاءِ السادةِ المُهتدِين، والأئمّةِ المُقتدِين، نفَعَنا اللّهُ بهِم في الدنيا والدِّين. وقد قالَ سيّدُنا الإمامُ قُطبُ الإرشاد، وغَوثُ العبادِ والبلاد، الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّاد [١] رضِيَ اللّهُ عنهُ مُحرِّضاً علىٰ السلوكِ في تلكَ المَسالك:

خليلَيَّ هل مِن مُسعِدٍ منكُما علىٰ ... سُلوكِ سبيلٍ دارسٍ وخَفيّةِ
تأخَّرَ عنها الأكثرونَ وأعرَضُوا ... لِمَا عَلِمُوا في قَطعِها مِن مَشقّةِ

فعلينا ــ معاشرَ الإخوان ــ أن نضَعَ أقدامَنا علىٰ مَوضِعِ أقدامِهم، ونمشيَ علىٰ ما مشَوْا عليهِ في إحجامِهم وإقدامِهم، فإنّ طريقتَهم مبنيّةٌ علىٰ ثلاثِ خِصال: لُزُومِ الكتاب، واتّباعِ السُّنّة، والاقتداءِ بسَلَفِ الأمّة، وذلكَ هُوَ الصّراطُ المستقيمُ المُشارُ إليهِ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ

---

(١) الإمام المجدّد، المصلحُ الكبير، العارفُ باللّه والدالُّ عليه، سيدنا شيخُ الإسلام وقطبُ الدعوة والإرشاد عبد اللّه بن علوي بن محمد الحداد باعلوي الحسيني التريمي. مولده بالسُّبَير قربَ تريم سنةَ ١٠٤٤هـ، ووفاته بتريم سنةَ ١١٣٢هـ، وهو أشهرُ من أن يُعرَّف، واتفق أهلُ العلم والمؤرّخون علىٰ اعتباره مجدِّدَ القرن الثاني عشر بحضرموت، رُزق قبولاً عند كافة الطبقات والأجناس في حضرموت وخارجها، في حياته وبعد مماته، وأملىٰ مؤلفاتٍ نافعةً مفيدة، حيث كان ضريراً، منها: «النصائح الدينية»، و«الدعوة التامة»، وغيرهما، وله ديوانٌ احتوىٰ علىٰ مفاهيم وأخلاق عالية، وكان يقول عنه: من كان عنده الديوان يكفيه.

وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قالَ أبو العاليةِ[١] في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]: هُم آلُ رسولِ اللّهِ ﷺ.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ أيضاً: إنّ طريقةَ السّادةِ بني عَلَوي أقوَمُ الطُّرقِ وأعدَلُها، وسِيرتُهم أحسَنُ السِّيَرِ وأمثَلُها، وإنَّهم علىٰ الطريقةِ المُثلىٰ، والمَهْيَعِ الأفْيَح، والمَشرَعِ الأوضَح، والسبيلِ الأسلَمِ والأفلَح، ولا ينبغي لخَلَفِهم أن ينتهِجُوا غيرَ المنهَجِ الذي درَجَ عليهِ أسلافُهم، ولا أنْ يَمِيلوا عن طريقتِهم وسِيرتِهم؛ لأنّ طريقتَهم هيَ التي يشهَدُ بصحّتِها الكتابُ العزيزُ والسنّةُ الكريمةُ والآثارُ المَرْضِيّةُ وسِيَرُ السلَفِ الكُمَّل، تلقَّوْا ذلكَ خَلَفاً عن سَلَف، وأباً عن جَدّ، إلىٰ النبيِّ ﷺ. انتهىٰ. نقَلَهُ الإمامُ عليُّ بنُ حسنٍ العطّاس[٢] في كتابِهِ «القِرطاس»[٣].

وقالَ سيّدُنا الإمامُ الهُمَامُ طاهرُ بنُ حسَينِ بنِ طاهرٍ[٤] رضِيَ اللّهُ عنهُ

---

(١) الإمام المقرىء المفسّر الحافظ أبو العالية رُفَيع بن مِهْران الرِّياحي البصري (ت ٩٣هـ)، من أعلام التابعين وعلمائهم.

(٢) الحبيب علي بن حسن العطّاس، صاحب المشهَد، وُلد سنةَ ١١٢١هـ، وتوفي سنةَ ١١٧٢هـ، له مصنفاتٌ عديدةٌ منها: «القرطاس شرح راتب العطاس» مجلدٌ كبيرٌ، وغير ذلك، أفرده الشيخ عبد اللّه باسودان بترجمةٍ موسّعة في مجلد كبير.

(٣) ونقل هذا الكلام أيضاً الشيخُ عبد اللّه باسودان في «فيض الأسرار»، والحبيبُ عيدروس بن عمر في «عقد اليواقيت».

(٤) الإمام القدوة المجاهد العلاّمة. مولده بتريم سنةَ ١١٨٤هـ، استوطن المسيلةَ مع والده وإخوته، وبها كانت وفاتهُ سنةَ ١٢٤١هـ، أخذ عن أحمد بن حسن الحداد وعلي بن شيخ بن شهاب الدين، وغيرهما من شيوخ عصره، له عدة مؤلفات =

من أثناءِ وصيّتِه:

«إنّ التقوىٰ بكمالِها وتفصيلِها وإجمالِها قد صبَّها آباؤنا الأوّلون، وسَلَفُنا الصالحون، في قالَبِ سِيرَتِهمُ السَّوِيّة، وطريقتِهمُ المَرْضِيّة، فهِيَ العُروةُ الوُثقىٰ، لا يستَمسِكُ بها إلا الأتقىٰ، ولا يَزيغُ عنها إلا الأشقىٰ، وهِيَ طريقةُ الرسولِ والخلفاءِ الراشدِينَ الفُحُول، المأمورُ بالعَضِّ عليها بالنواجِذ، مِن كلِّ طالبٍ وآخِذ.

ثم إنّها بالتفصِيلِ بعيدةُ الأطراف، واسِعةُ الأكناف، وبالإشارةِ إلىٰ نموذَجٍ منها علىٰ الإجمال: إنها علومٌ وأعمال، وتطهيرٌ للبال، مِن رذائلِ الخِلال، وتَحلِيتُهُ بكلِّ خُلُقٍ حَمِيد، وَوصفٍ سدِيد، معَ إنفاقِ الأوقاتِ في أنواعِ الطاعات، والباقياتِ الصّالحات، وتصحيحِ النيّات، وصُحبةِ الأخيار، ومصارَمةِ الأشرار، وخُمولٍ وانكِماش، ونُفرةٍ واستِيحاش، عنِ الغَوغاءِ والأوباش، معَ اعترافٍ وإنصاف، واتّصافٍ بمَكارمِ الأوصاف، معَ نفوسٍ أبيّة، وهِمَمٍ عَلِيّة، ووَرَعٍ حاجِز، وزُهدٍ ناجِز، ورِفْقٍ واقِتصاد، وتركٍ للمُعتاد، واهتمامٍ بالمَعاد. هذا شيءٌ يسِير، ونزْرٌ مِن كثير، ذكرْتُهُ تبرُّكاً وتشويقاً للراغبِ في هذا الطريق، ولئلاّ يدّعيَ سُلُوكَها غبيٌّ مِن غيرِ تحقيق، فلا أقلَّ منَ الإنصاف، ولا أجمَلَ منَ الاعتِراف».

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عَيدروسُ بنُ عمرَ الحَبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه:

«إنّ الطريقةَ العَلَويةَ ظاهرُها علومُ الدِّينِ والأعمال، وباطِنُها تحقيقُ المقاماتِ والأحوال، وأدَبُها صَونُ الأسرارِ والغَيرةُ عليها منَ الابتِذال،

= ومكاتبات ورسائل، منها كتابه السائر: «المسلك القريب لكل ناسكٍ منيب»، و«شرح حديث جبريل»، وغيرهما. وله ديوانُ شعر. =

فظاهرُهُم ما شرَحَهُ الإمامُ الغزاليُّ[١] منَ العلمِ والعمَلِ علىٰ المنهَجِ الرَّشِيد، وباطنُهم ما أوضحَهُ الشاذِليّةُ مِن تحقيقِ الحقيقةِ وتجريدِ التوحيد، وعلومُهم علومُ القَوم، ورسومُهم مَحْوُ الرُّسُوم، ويرغَبونَ إلىٰ اللّهِ بالتقرُّبِ إليهِ بكلِّ قُرْبة، ويقولونَ بأخذِ العَهدِ والتلقينِ ولُبسِ الخِرْقة، ودُخولِ الخَلْوةِ والرياضةِ والمجاهَدةِ وعَقْدِ الصُّحْبة، جُلُّ مُجاهَدتِهمُ الاجتهادُ في تصفيةِ الفؤاد، والاستعدادُ بالتعرُّضِ لنفَحاتِ القُرْبِ في طريقِ الرَّشاد، والاقترابُ إلىٰ اللّهِ بكلِّ قُربةٍ في صُحْبةِ أهلِ الرَّشاد، فلا بُدَّ معَ صِدقِ التوجُّهِ لوجهِ اللّهِ مِن فضْلِ اللّه، ومعَ الجِدِّ والاجتهادِ وبَذْلِ الجَهْدِ مِن فتحِ اللّه، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. انتهىٰ. مِن مجموعِ كلامِه «النهرِ المَورود»[٢].

وسُئلَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ[٣] نفعَ اللّهُ بهِ عن تعريفِ

---

(١) حجة الإسلام وإمام الأئمة الأعلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الشافعي (٤٥٠ ــ ٥٠٥هـ)، من أفراد الأمّة، وسادات الأئمة، طبّقت شهرتُه ومؤلفاتُه الآفاق، تُنظر ترجمتُه بتوسُّع في «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (٦: ١٩١ ــ ٣٨٩). وقد عقد المؤلف حفظه اللّه في كتابه هذا فصلاً خاصاً في الحثّ علىٰ مصنفات حجّة الإسلام، فيُنظر.

(٢) هو كتاب «النهر المورود من فيض الكرم والجود»، جمعه من مواعظ ومجالس الإمام عيدروس بن عمرَ الحبشيّ تلميذُه وخاصةُ خاصّته الحبيبُ عُبَيد اللّه بن محسن السقاف المتوفىٰ بسيؤون سنةَ ١٣٢٤هـ. والكتاب لا يزال مخطوطاً.

(٣) الإمامُ العلامة الفقيه المسند المقرىء العارفُ باللّه تعالىٰ ورسوله، السيد الشريف أحمد بن حسن بن عبد اللّه بن علي العطاس باعلوي الحسيني. مولده بحُرَيضة موطن آبائه السادة آل العطاس سنةَ ١٢٥٧هـ، وبها وفاته سنةَ ١٣٣٤هـ، طلب العلم بحضرموت والحجاز، وتخرّج بشيخه مفتي الشافعية بمكة السيد أحمد زيني دَحْلان، وأخذ عنه جملةٌ من الأكابر، وكان هو في عصره من أعيان الأكابر، أُفردتْ ترجمته =

الطّريقـةِ العَلَوية، فقال: ظاهرُها غزاليّةٌ وباطنُها شاذلية، أي: ظاهرُها التخلّي عنَ الأخلاقِ المذمومةِ والتحلّي بالأخلاقِ المحمُودة، وباطنُها شهودُ المِنّةِ للّهِ تعالىٰ مِن أولِ قَدَم، قال: وإنْ شئـتَ فقل: هِيَ سلامـةٌ واستِقامـة، وإن شئتَ فقل: هِيَ مُقابَلةٌ وإقبال، وإن شئتَ فقل: هِيَ تخلّي وتحَلّي، وإن شئتَ فقل: هِيَ هَـدْيٌ وسُكون، وإن شئتَ فقل: هيَ محْوٌ وإثبـات، وإن شئتَ فقل: هِيَ تعَمُّـلٌ وتحَمُّل، وإن شئتَ فقـل: هِيَ سلامةٌ وتسليـم. وهِيَ كما قـالَ الإمامُ عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللّهِ بلْفَقيهِ[١]: اتّباعُ المنصُوصِ علىٰ وجهٍ مخصُوص. ثم قال: وطريـقُ السّلَفِ هِيَ: أن يفعَـلَ في مَحلِّ الفِعل، ويترُكَ في مَحلِّ التّرْك، وينويَ في محلِّ النية، ويُعرِبَ في محلِّ الإعراب. وهِيَ محصُورةٌ في بيتٍ مِن كلامِ الحبيبِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّاد:

والزَمْ كتابَ اللّهِ واتْبَعْ سُنّةً ... واقْتَدْ هَداكَ اللّهُ بالأسلافِ

وقالَ[٢] نفعَ اللّهُ به: أهلُ البيتِ طريقتُهمُ العمَل، ولا يأخُذونَ منَ العِلمِ إلا

= بالتأليـف، وأجمـعُ ما كُتب عنـه «إينـاس الناس بمناقـب الحبيـب أحمد بن حسـن العطاس» لتلميذه الشيخ محمد بن عوض بافضل، في مجلدين كبيرين، وجمعَ كلامه كذلك في كتاب سمّاه: «تنوير الأغلاس» في مجلدين أيضاً.

(١) هو الإمام العلاّمـة، السيد الشريف عبد الرحمن بن عبد اللّه بن أحمد بلفقيه باعلوي الحسينـي، المعروف بعلاّمـة الدنيـا. مولده بتريـم سنـةَ ١١٠٥هـ، وبها وفاته سنةَ ١١٦٢هـ. كان عالماً جامعاً متفننـاً متقناً، أحدَ العارفيـن الواصليـن، تخرَّج بوالده، وبشيخـه قطب الإرشاد الإمام الحداد، وانتفع بهما كثيراً، وأخذ عن غيرهما، ورحل إلىٰ زبيد والحجاز واجتمع بالأكابر. له مصنفاتٌ عديدة منها: «نظم رسالة المريد» لشيخه الحداد، و «رفع الأستار» شرح منظومته في السند التي أجاز بها السيد سليمان ابن يحيىٰ بن عمر الأهدل، (مطبوع)، وأكثر مصنفاته لا تزال مخطوطة.

(٢) أي: الإمامُ أحمدُ بن حسن العطّاس.

ما يُرشِدُهـم إلىٰ العمَلِ ويحفَظُهُ لهُـم، وأمّا باقـي الأشيـاءِ فيتَلقَّوْنَ مِن حضرةِ الفَيض، ويأخذُونَ العلومَ المُطلَقةَ والمُقيَّدةَ مِن حضرةِ التقوىٰ المُشارِ إليها في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

* * *

ثمّ إني أحـذِّرُ نفْسي وأبناءَ جِنسـي ــ خصوصاً مَن كـان مِن أهـلِ البيتِ النبـويّ ــ من مُخالَفةِ سِيرةِ السَّلَـفِ الصالحيـن، وٱختيارِ غيـرِ طريقـةِ السـادةِ العَلَويين، فكيفَ ينبغي لنا العُدُولُ عن طريقتِهم وقد شَهِدَ الكتابُ والسنّةُ علىٰ استقامتِهم، وأجمعَتِ الكافّةُ علىٰ إمامتِهم؟ فالخيرُ كلُّه في مُتابَعتِهم في أقوالِهم وأفعالِهم واعتقاداتِهم.

قالَ الشيخُ الإمـامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحـدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: ساداتُنا آلُ باعَلَوي أمـورُهم مُرتَّبةٌ علىٰ السُّنةِ والعوائـدِ الحَسَنة، ومَن خرَجَ منها فهُوَ قليلُ خَير، وصارَ مثلَ الغُراب! أعجبَهُ مشْيُ القَطاةِ فأرادَ أن يمشيَ مثْلَها فلم يُحسِنْ ثمّ رجَعَ إلىٰ مِشيتِهِ فلم يَعرِفْها فنَسِيَها. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حَسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: كلُّ مَن جَنَحَ إلىٰ غيرِ طريقـةِ السلَفِ العَلَويين ــ أي: مِن أولادِهـم ــ وسارَ بغيرِ سِيرتِهم، يترُكونَهُ هُوَ وما فيه، ولكنْ ما يَنفَعُ ولا يُرفَعُ ولو كثُرَ وكَبُرَ عِلمُهُ وعمَلُه. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا العارفُ باللّهِ عبدُ اللّهِ بنُ مُحسِنٍ العطّاسُ[1] رضِيَ اللّهُ عنه:

---

(١) السيـد الشريـف الولـيُّ الصالـح الحبيـبُ عبد اللّه بن مُحسِـن بن محمـد بن عبد اللّه العطاس. مولده بحُرَيضة ووفاتـه بـ (بوقور) سنة **١٣٥٢**هـ. أخذ عن الحبيب أحمـد ابن حسـن العطـاس وطبقتـه، والحبيـب محمد المحضـار، والحبيـب محمـد بن عيدورس الحبشي، وغيرهم. وكان صاحبَ جاهٍ كبير في (جاوة)، أخذ عنه كثير من الأكابر كالحبيب علوي بن طاهر وأخيه عبد اللّه بن طاهر آل الحدّاد، والحبيب أحمد=

مَن خالَفَ سِيرتَهم وطريقتَهم فهُوَ محجُوبٌ ولو كانَ علىٰ طريقةٍ سَوِيّة، لأنهُ إذا خالَفَ طريقتَهم صارَ عاقّاً لهُم، والعاقُّ لا يُحصِّلُ شيئاً ولو كانتْ طريقتُهُ سَوِيةً، لأنهُ ما خالَفَ طريقتَهم إلا وهو يظُنُّ أنّ طريقةَ غيرِهم أحسنُ وطريقتَهم فيها شيءٌ غيرُ مُستحسَنٍ في ظنِّه، فصارَ عاقّاً لهُم، والسلفُ مِن شأنِهم أنّهُم لا يُحبُّونَ أولادَهم يأخُذونَ عن غيرِهم إلا علىٰ سبيلِ التبرُّك. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّه عنه: الخيرُ كلُّهُ في اتّباعِ السلَفِ رضِيَ اللّهُ عنهُم، لا أحد يُتعِب نفسَهُ إذا كانَ علىٰ غيرِ طريقةِ السلَفِ الصّالحِ في أعمالِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، ولو بلَغَ ما بلَغَ في العِلم ولو صارَ وَلِيّاً، إذا ما كانتْ سِيرتُهُ في عِلمِهِ وعمَلِهِ علىٰ سِيرةِ السَلفِ: لا يقَعُ منهُ شيءٌ. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عيدَرُوسُ بنُ عمرَ الحَبَشيُّ نفَعَنا اللّهُ به:

كانَ السادةُ بنو عَلَوي رضِيَ اللّهُ عنهُم شديدِي الغَيرةِ علىٰ طريقةِ سَلَفِهم أنْ تُشابَ بشيءٍ منَ الطرائقِ الأخرىٰ، حتىٰ إنّ بعضَهم أخذَ عن بعضِ أهلِ الطُّرقِ الأخرىٰ فوجَّهَ إليهِ أكابرُ وقتِهِ العَتَبَ واللائِمة، هذا إنْ كانَ أخَذَ تحكيماً، وأمّا أخذُ التبرُّكِ فإنهُم آخِذونَ وقائلونَ به، ويأخُذونَ جميعَ الطرائقِ مِن غيرِ منعٍ ولا تحجِير، بل كانوا يأخذونَ العِلمَ علىٰ هذا الوجهِ ممَّن كانَ عندَهُ عِلمٌ مِن صغيرٍ أو كبير، حتىٰ إنّ بعضَهم له نحوُ ألفِ شَيخ. انتهىٰ. منَ «النهرِ المَورود».

* * *

وٱعلَمْ أنهُ يتأكّدُ علىٰ مَن هُوَ مِن أهلِ البيتِ النبويِّ خاصةً وسائرِ الناسِ

= مشهور الحداد، والحبيب سالم بن حفيظ، وغيرهم. وجمع كلامه تلميذه الشيخ عبد الرحمن بارجاء.

عامّةً الاعتناءُ بتحصيلِ العلومِ الشرعيّة، والتحلّي بالأخلاقِ النبوية، والتخَلّي عنِ الأوصافِ الدَّنية، وبَذْلُ نفوسِهم وحملُها علىٰ اْقتفاءِ آثارِ آبائهم وأسلافِهم أهلِ الهِمَمِ العَلِيّة، والنفوسِ الأبِية، لينالوا ما نالُوهُ منَ المقاماتِ السَّنِية، ويَصِلُوا إلىٰ ما وَصَلوا إليهِ منَ الرُّتَبِ العَلِيّة.

قالَ سيّدُنا الإمامُ العارِفُ باللّهِ أحمدُ بنُ حَسَنٍ العطّاسُ نفعَ اللّهُ به: قيمةُ المَواهبِ الإلٰهيةِ ثلاثُ خِصال: صِدقُ الطلَب، وحُسنُ الإقبال، وصلاحُ النية، فإذا حصَلَتْ هذهِ الثلاثُ للإنسانِ نالَ مقصودَه، أو كما قال.

عرَّفَنا رضِيَ اللّهُ عنهُ طريقَ الطلَب، والصّدقَ في طلبِ الأَرَب، وذلكَ أنّ النيةَ روحُ الطاعات، والهِمّةَ أساسُ الخَيرات، وعليهِما تُبنىٰ الأعمالُ الصالحات، والأخلاقُ الجَميلات، فأُوصي نفْسي وسائرَ أخِلاّئي بمُلازَمةِ الجِدِّ والتشمِير، ومُفارَقةِ العَجْزِ والتقصِير، فإنّ الأمرَ جِدّ، والعمرَ قصِير، وما الشأنُ شهودُ التقصِيرِ في التقصِير، إنما الشأنُ شهودُ التقصِيرِ في التشمِير.

واْعلَموا معاشرَ الإخوانِ أنهُ كلَّما شَرُفَ المطلَب، زادَ التعَبُ في بلوغِهِ والنَّصَب، والمَعالي لا تُدرَكُ بالهُوَينىٰ والتواني، ولا تثبُتُ بالدّعاوىٰ والأماني، فإنّ الأمرَ كما قالَ سيدُنا الإمامُ الناصحُ للأنامِ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ نفَعَ اللّهُ به: وما يقطَعُ الإنسانُ مسافةَ الظاهرِ والباطنِ إلا بالهِمَمِ العاليةِ الجِدّية، ومَن تَوطَّنَ الكسَلَ والعَجْزَ وتدَرَّعَ بالتسويفِ فقلَّ أن يَنفُذَ في أمر، وقلَّ أن يحصُلَ علىٰ مطلوبٍ إلا ما شاءَ اللّه، وقد أطبقَ علىٰ ذلكَ حُكماءُ الدِّينِ والدنيا. انتهىٰ. مِن أثناءِ مكاتَبة.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ شعراً:

يا طالبَ التحقيقِ قُمْ وبادِرْ	وانهَضْ علىٰ ساقِ الهِمَمْ وخاطِرْ
واصبِرْ علىٰ قَمْعِ الهَوىٰ وصابِرْ	واصدُقْ ولا تَبْرَحْ مُلازِمَ البابْ

قالَ الشيخُ الإمامُ القُطبُ عبدُ اللّهِ بنُ أبي بكرٍ العَيْدَرُوسُ[١] رضِيَ اللّهُ عنـهُ ونفَعَ به: إذا كانتِ الهِمَـمُ ناقِصـة، والبَصائـرُ مُظلِمة، والنفُوسُ جامِحة، والأفكارُ راكِدة، لم تَنَلِ المطلُوب، ولم تَصِلْ إلىٰ المَحبُوب. وقالَ أيضاً: مَن أرادَ الصفاءَ الربّانيَّ فعليهِ بالانكِسارِ والافتِقارِ في جَوفِ اللَّيل. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمـامُ الجَلِيلُ أحمدُ بنُ زَيـنٍ الحَبَشـيُّ رضِـيَ اللّهُ عنـه: لا يُمكِنُ بُلـوغُ أحدٍ إلىٰ مقام إلا إذا كانتْ نفْسُهُ تَتشوَّفُ إلىٰ ذلكَ المقام، وإلاّ لَم يَصِلْ إليه، جَرَتْ عادةُ اللّهِ بأنّ أحداً لن يبلُغَ رُتبةً إلا إذا استَشْرَفَتْ نفسُهُ إليها، وطَمَحَـتْ هِمَّتُهُ للرُّقـيِّ عليها، ولا يحصُـلُ المَـدَدُ إلا بالهِمَـمِ ولو كـانَ ذلكَ القُطْبِيّةَ، وما أَعطىٰ اللّهُ عبداً شيئاً إلاّ أنْ يَخلُقَ في قُوّتِه الاستِعدادَ له، فكم مِنْ صالحٍ لا تَمتَدُّ هِمَّتُهُ إلىٰ ما فوقَ رُتبَتِهِ فلا يَنالُ غيرَ ما هُوَ فيه. انتهىٰ.

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ الهُمامُ محمدُ بنُ زينِ بنِ سُمَيطٍ[٢] رضِيَ اللّهُ عنهُ مِن

---

(١) هو الإمام الكبير، السيد الشريـفُ العارفُ باللّه، سلطـان الملأ، العيـدروسُ الأكبر، عبد اللّه بن أبي بكر بن عبد الرحمن السقاف، وهو أول من سُمّي بالعيدروس. مولده بتريـم سنةَ ٨١١هـ، وبها وفاته سنة ٨٦٥هـ عن ٥٥ سنة. انعقـد إجمـاع أهل عصره علىٰ فضلـه وأسبقيتـه، وشيَّخوه بعد وفاة عمـه الإمام الكرّار سيدنا عمر المحضار، وبلغت كراماته مبلغَ التواتر. أفرد سيرته بالتأليف الإمام الشيخ عمر بن عبد الرحمن صاحب الحمراء باعلوي، وجمع بعضَ كلامه ودرر لفظه الإمامُ محمد بن علي مولىٰ عيديد.

(٢) الإمام العلامة السيد الشريـف، والعلم المنيف، العارف باللّه والدالُّ عليه، الحبيب محمد بن زين بن علوي بن سميط الحسيني، التريمي مولداً سنةَ ١١٠٠هـ، والشبامي وفـاةً سنـةَ ١١٧٢هـ. تربـىٰ بشيخـه وأستـاذه الإمـام عبد اللّه الحـداد وتخـرّج بـه ولازمه ملازمةً أكيدة، وحفظ الكثير من أخباره ومناقبه ودوّنها في كتابه «غاية القصد والمراد في مناقب الإمام الحداد». ودوَّن أخبارَه هو تلميذه الشيخ الصالح الفقيه معروف بن محمد باجَمّال في كتابه «مجمع البحرين في مناقب الحبيب محمد بن =

أثناءِ مكاتبتِه: وبالحرَكاتِ تكونُ البرَكات، وبالهَزِّ يسقُطُ الثمَر، وبالتوجُّهاتِ تكونُ المُواجَهات، وبالاستعداداتِ تكونُ الإمدادات، وبالمُجاهَداتِ تحصُلُ المشاهدات، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ومَن جَدَّ وجَد، وكلُّ مَن سارَ علىٰ الدربِ وَصَل، الهِمّةُ قالَبُ التوفيق. وقالَ المتنبّي[1]:

علىٰ قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتي العزائمُ وتأتي علىٰ قَدْرِ الكرامِ المَكارِمُ
وتَعظُمُ في عَينِ الصَّغيرِ صِغارُها وتَصغُرُ في عَينِ العَظِيمِ العَظائمُ

وفي الإنسانِ أمرٌ عجيبٌ وأسلوبٌ غَريبٌ إذا أمعَنْتَ النظر، وهُوَ أنهُ بتقديرِ اللّهِ عزَّ وجلَّ إذا توجَّه إلىٰ أمرٍ وأجمَعَ هَمَّهُ عليهِ بكُلِّيّتِه لم يَكَدْهُ ذلك الأمرُ كائناً ما كانَ أن لا يكونَ أبداً. وكذلكَ قالَ لِسانُ العُمُوم: الهِمّةُ اسمُ اللّهِ الأعظم، فمتىٰ سَوّىٰ الإنسانُ صُورةَ الهِمّةِ نفَخَ اللّهُ فيها رُوحَ التوفيق،

= زين»، في مجلدٍ كبير.
وقد نفع اللّه به وبدعوته في شِبام خلقاً كثيراً، وكانت هجرته إليها سنةَ ١١٣٥هـ مع والده وأسرته، واستقروا بها ونشروا الدعوة إلىٰ اللّه في أرجائها، وأقبل عليهم الناس من كل حَدَب وصَوب، وكان مرجعُه بعد وفاة شيخِه الحداد شيخَه الحبيب أحمد بن زَين الحبشي، وفي ذلك يقول:

أحْمَدُ الرحمنَ إذْ مَنَّ عَلَيّ بالجَميلِ المَحْضِ أسْداهُ إلَيّ
نعمةً ما مثلُها مِن نعمةٍ نعمةً عظمىٰ لقد جَلَّتْ لَدَيّ
نسبتي للقوم ساداتِ الوَرَىٰ فهما ذُخريْ عِمَادِيْ عُمدَتيّ
وهما الحدّادُ والحَبْشيْ اللذا نِ هما كَنْزِيْ إذا كَلَّتْ يَدَيّ
أيُّ شيءٍ فاتَ مَنْ أدرَكْهُما والذي فاتاهُ أدْرَكْ أيَّ شيّ

(١) الشاعر المشهور أبو الطيّب أحمد بن الحسين الكِنْدِي، من كبار شعراء العرب، ذو الأمثال السائرة والحِكَم البليغة والمعاني المبتكَرة في شعره. مولده بكِندة بالكوفة سنةَ ٣٠٣هـ، ووفاته صريعاً ببغداد سنةَ ٣٥٤هـ. ديوانه مليءٌ بشعر الحكمة وفلسفة الحياة ووصف المعارك.

جرَتْ بذلكَ سُنّةُ اللّهِ في خَلْقِهِ التي لا تَجدُ لها تَبدِيلاً ولا تحويلاً. انتهىٰ. مِن مناقِبه «مَجمَع البحرَين».

وقالَ بعضُ العارفِينَ نفَعَنا اللّهُ بهِم: ليسَ شيءٌ منَ البرِّ إلا دُونَهُ عَقَبةٌ يُحتاجُ إلىٰ الصَّبرِ فيها، فمَنْ صَبَرَ علىٰ شِدّتِها أفضىٰ إلىٰ الراحةِ والسُّهُولة، وإنّما هِيَ مجاهدةُ النفْسِ ثمَّ مُخالَفةُ الهَوىٰ.

وفي «الحِكَم» لسيِّدِنا عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن تعوَّدَ نقضَ العَزائم حِيْلَ بينَهُ وبينَ الغنائم. وفيها: لا يَطمَعُ في بُلوغِ الآمالِ والأوطار مَنْ لم يُوطِّنْ نفْسَهُ علىٰ رُكُوبِ الأهوالِ والأخطار.

وكانَ سيِّدُنا عمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ[1] رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: هِمُّوا بالأمورِ العالية، وإياكُم وأسافِلَ الأمور، فإنِّي ما هَمَمْتُ بأمرٍ إلا نِلْتُه. أي: حتىٰ أنهُ همَّ بالخلافةِ فبلَّغَهُ اللّهُ إياها. أو كما قال.

قالَ الإمامُ القُشَيريُّ[2] رحِمَهُ اللّه: مَن لم يكنْ في بدايتِهِ صاحبَ مُجاهَدةٍ لم يجدْ مِن هذا الطريقِ شَمّة.

وقالَ آخر: مَن ليسَت لهُ بدايةٌ مُحرِقة لم يكنْ لهُ نِهايةٌ مُشرِقة.

---

(١) الإمام العادل والخليفة الراشد الخامس أبو حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأُموي القرشي. كان إماماً فقيهاً مجتهداً، زاهداً أوّاهاً قانتاً، يُضرب المثل بعدله وزهده. قال الإمام الباقر: نجيبُ بني أُمية عمرُ بن عبد العزيز، يُبعث يوم القيامة أُمّةً وحده. مات مسموماً سنةَ (١٠١هـ)، رحمه اللّه تعالىٰ.

(٢) الإمام العلاّمة القدوة الزاهد الأستاذ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشَيري الشافعي (٣٧٥ ــ ٤٦٥هـ)، صاحب «الرسالة القشيرية» الشهيرة. كان علاّمةً في الفقه والأصلين والتفسير والأدب وغيرها، عديمَ النظير في السلوك والتذكير، من أعلام أهل السُّنة.

واْعلَمْ أنّ مِنْ شَأنِ أهلِ الهِمَمِ العَلِيّةِ والنُفُوسِ الأبِيّةِ: محبّةَ مَعالِي الأمور، كما قالَ سيِّدُنا قطبُ الإرشاد عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّاد بعدَ ذِكْرِهِ أحوالَ سَلَفِهِ ومُجاهَداتِهم وعظيمَ أخلاقِهم:

وأَحمِلُ نفْسِي ما استَطَعْتُ علىٰ اْقتِفا ... سَبيلِهِمُ حتىٰ أُوَسَّدَ في الرَّمْلِ

وقالَ مُحيي النفُوس سيِّدُنا القطبُ العَيْدُرُوس نفَعَنا اللّهُ به:

ليسَ الفتىٰ مَن يَدَّعِي بالسالِفات ... إنّ الفتىٰ مَنْ قالَ: (أنا)

* * *

واْعلَمْ أنّ مِفتاحَ السَّعادةِ هُوَ اتّباعُ السُّنّةِ المُحمّدية، فلا وصولَ إلىٰ نَيلِ كلِّ مأمول إلا بمُتابعةِ سيِّدِنا الرَّسول ﷺ، في أقوالِهِ وأفعالِهِ وسائرِ أحوالِه، مِن عباداتِهِ وعاداته.

قالَ سيِّدُ الطائفةِ: الجُنَيدُ بنُ محمّدٍ[1] رحِمَهُ اللّه: «الطّرُقُ إلىٰ اللّهِ كلُّها مسدُودةٌ إلا علىٰ منِ اقتَفىٰ أثرَ الرسُولِ ﷺ».

ولقد صَدَقَ السلَفُ الصّالحُ رضِيَ اللّهُ عنهُم في الاتّباع والاقتِفاءِ بسيِّدِنا رسُولِ اللّهِ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسّلام، فوَضَعُوا في محلِّ قَدَمِهِ الأقدام، في كلِّ وِرْدٍ وصَدْرٍ وإقدامٍ وإحجام:

ثبَتُوا علىٰ قَدَمِ الرَّسُولِ وصَحْبِهِ ... والتابِعِينَ لهُمْ، فَسَلْ وتَتَبَّعِ

ومَضَوْا علىٰ قَصْدِ السَّبِيلِ إلىٰ العُلَا ... قَدَماً علىٰ قَدَمٍ بِجِدٍّ أَوْزَعِ

---

(١) الإمامُ الكبير الناطقُ بالحكمة أبو القاسم الجُنيد بن محمّد البغدادي، شيخ وقته، المعروف بإمام الطائفتَين أهل الشريعة وأهل الحقيقة. صحب خاله السَّرِيّ السَّقَطي، والحارث المحاسبي وجماعة. أخذ الفقه عن أبي ثور وأفتىٰ في حلقته وهو ابن عشرين سنةً. وإليه تنتهي أكثر طرق التصوف. وفاته ببغداد سنةَ ٢٩٨هـ.

وحَمَلُوا أنفسَهم علىٰ التحَلِّي بالأخلاقِ الكريمة، والتخَلِّي عنِ الصِّفاتِ الذَّميمة، وبذَلُوا جُهدَهُم في طاعةِ اللّهِ ربِّ العباد، ففازُوا بالمُراد، ونالُوا أكمَلَ الإمداد، كما قالَ في وَصفِهم إمامُ الإرشاد الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّاد رضيَ اللّهُ عنه:

رجالٌ إلىٰ الرَّحمنِ سارُوا بهِمّةٍ ... معَ الصِّدقِ والإخلاصِ مِنْ غيرِ عائقِ
فنالُوا الذي كلُّ المَطالِبِ دُونَهُ ... فلِلّهِ مِنْ عَيشٍ كَرِيمٍ ورائقِ

وقال أيضاً:

وقد دَرَجَ الأسلافُ مِنْ قَبْلِ هؤلا ... وهِمّتُهم نَيلُ المَكارِمِ والفَضْلِ
لقد رَفَضُوا الدُّنْيا الغَرُورَ وما سَعَوْا ... لها، والذي يأتي يُبادَرُ بالبَذْلِ
فَقيرُهُمُ حُرٌّ وذو المالِ مُنفِقٌ ... رجاءَ ثوابِ اللّهِ في صالحِ السُّبْلِ
لِباسُهُمُ التقوىٰ وسِيماهُمُ الحَيا ... وقَصْدُهُمُ الرَّحمٰنُ في القَولِ والفِعْلِ
مَقالُهُمُ صِدْقٌ وأفعالُهُمْ هُدَىٰ ... وأسرارُهُمْ مَنزُوعةُ الغِشِّ والغِلِّ
خُضُوعٌ لِمَولاهُمْ، مُثُولٌ لِوَجْهِهِ ... قُنُوتٌ لهُ سُبحانَهُ جَلَّ عن مِثْلِ

وكانوا رضِيَ اللّهُ عنهُم قد قَرَنُوا العِلمَ بالعمَل، وصَدَقُوا معَ اللّهِ عزَّ وجلّ، قالَ الحبيبُ العارِفُ باللّهِ مُحسنُ بنُ عَلَويّ السقّافُ[1] رحمه اللّه: «كانَ السلَفُ مَن فاتَهُ مِنهُمُ الكتابُ لم يَفُتْهُ المِحراب، ومَن فاتَهُ المِحرابُ

---

(١) السيد الشريف، الزعيم المصلح، الحبيب محسن بن علوي بن سقاف بن محمد السقاف، مولده بسيؤون سنةَ ١٢١٠هـ، ووفاته بها سنةَ ١٢٩٠هـ. كان إماماً عالماً عاملاً، ذكياً حصيفاً، كثير التلاوة للقرآن، شجيَّ الصوت. ولي القضاء بسيؤون ثم عزل نفسه، وكُف بصره آخر عمره، تخرّج بوالده وأعمامه الأئمة الأعلام، وكان السلاطينُ آلُ كثير يهابونه. له كتاب: «تعريف الخلف بطريق السلف»، وديوانٌ عظيم مشحونٌ بصنوف الآداب والنصائح، وكلاهما مطبوع.

لم تَفُتْهُ الآداب».

ومنهُم ــ وهُمُ الأكثر ــ مَن جمَعَ بينَ الكتابِ والمِحْرابِ والآداب، قالَ سيِّدُنا الإمامُ العلاّمةُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينٍ بلْفَقِيهِ[1] نفَعَنا اللّهُ به:

وفاتَنِي مِن خِيارِ الناسِ كَمْ رَجُلٍ ... ما فارقَ الذِّكْرَ طُولَ العُمْرِ والكُتُبا
بَكّاءُ لَيلَتِهِ سَجّادُ خَلْوَتِهِ ... مِن خَوفِ مالِكِهِ يَستَعذِبُ التَّعَبا
لهُ اشتغالٌ بحِفظِ السرِّ عَنْ دَخَلٍ ... لَيثُ النِّزالِ إذا ما عارَكَ الرُّقَبا
تَلقاهُ في الجُودِ كالطائيْ، وأَحنَفِهم ... في الحِلْمِ، قد فاقَ قُسّاً حيثُما خَطَبا
مِنْ آلِ بيتِ رَسُولِ اللّهِ أكثرُهُمْ ... وآلِ أبي فَضْلٍ الأخيارِ والخُطَبا

وكانَ سيِّدُنا الشيخُ القُطبُ عبدُ الرحمنِ بنُ محمّدٍ السقّافُ[2] رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: إنّ أولادَنا كالذي يَحفِرُ في أرضٍ طَيِّبةٍ قَريبةِ الماء، يَخرُجُ لهُم عن قُرْب، وغَيرُهم كالذي يَحفِرُ في جبلٍ أو أرضٍ صُلْبة، لا يكادُ يخرُج، وإنْ

(١) العلامة الفقيه، والإمام النبيه، السيد الحبيب عبد اللّه بن حسين بن عبد اللّه بلفقيه التريمي مولداً ووفاةً، ولد سنةَ ١١٩٨هـ، وتوفي سنةَ ١٢٦٦هـ، كان فقيهاً محققاً، وبحراً متدفقاً، وَلِيَ إفتاء حضرموت عموماً، وكان مرجعَ علماء عصره، جُمعت فتاواه في مجلدٍ كبير، وكذلك رسائله وجواباته العلمية، وصنّف تصانيف عديدةً منها: «كفاية الطالب شرح هداية الراغب» كلاهما له، و«مطلب الإيقاظ في الكلام علىٰ شيءٍ من غُرَر الألفاظ» في مصطلحات الفقهاء الشافعية، ثلاثتها مطبوعة، وغير ذلك.

(٢) سيدنا الإمام الهمام، شيخ الشيوخ وعنوان الرسوخ، قطبُ عصره وإمام مصره، الشيخ عبد الرحمن السقاف بن محمد مولىٰ الدَّوِيلة بن علي بن علوي الغيور بن الفقيه المقدَّم، مولده بتريم وبها وفاته سنة ٨١٩هـ عن ثمانين عاماً. من أكابر أولياء اللّه الصالحين، كان لا ينام لا ليلاً ولا نهاراً فسُئل عن ذلك فقال: كيف ينامُ مَن إذا نام علىٰ جنبه الأيمن رأىٰ الجنة، أو الأيسر رأىٰ النار؟! وكان يختم القرآنَ ثماني ختمات، أربعاً بالنهار وأربعاً بالليل، رضيَ اللّه عنه.

خرَجَ ماءٌ فعلىٰ بُعْدٍ ومَشَقّة، ولا يدري يكونُ طيِّباً أو مالحاً. انتهىٰ.

وعنِ الشيخِ عبدِ الرحمنِ ابنِ الشيخِ عليٍّ بنِ أبي بكرٍ[١] رضِيَ اللّٰهُ عنهُما قال: سمِعتُ والِدِي علياً يقول: أدركتُ الماضِينَ مِن آلِ أبي عَلَوي ما أحدٌ مِنهم تَحمَّمَ شارِبُه ــ أي: نبتَ شاربُه ــ إلا وهُوَ مكاشَفٌ. انتهىٰ.

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ عَيدَرُوسُ بنُ عُمرَ الحَبَشيُّ رضِيَ اللّٰهُ عنه: كانَ السادةُ بنُو عَلَوي أدناهُم في العِلم مَن يكونُ عندَهُ منَ العِلمِ ما يُغنِيهِ عنِ العلماء، كلُّ واحدٍ منهُم يحفَظُ مناقبَ أهلِهِ وسِيَرَهُم وكراماتِهم، وكانَ أكثرُ الأخْذِ منهُم ــ للعِلمِ والأدَبِ ــ بالتلقّي والتأدُّبِ بالحال، لا بكثرةِ القراءةِ في الكُتُبِ والقِيلِ والقال، حتىٰ إنّ صاحِبَ «المَشْرَعِ الرَّوِيِّ»[٢] إذا ذَكَرَ أحدَهم قال: «تأدَّبَ بأدَبِ أبيه». انتهىٰ. منَ «النهرِ المَورود».

قالَ سيِّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّٰهُ به: السادةُ آلُ باعَلَوي ومَن سارَ بسَيرِهم ــ مِن أهلِ الاهتِداءِ والاقتِداءِ ــ تَحُفُّهمُ العِنايةُ، وتَرعاهُم الرِّعاية، ويُحصِّلُونَ المطلوبَ قريباً بشرطِ سلامةِ الصُّدُور، وحُسْنِ الظنِّ باللّٰهِ

---

(١) السيد الشريف العلّامة الورع عبد الرحمن ابن الشيخ علي بن أبي بكر السكران ابن الشيخ عبد الرحمن السقاف، مولده بتريم سنةَ ٨٥٠هـ، ووفاته بها سنةَ ٩٢٣هـ. كان إماماً عالماً فقيهاً وَرِعاً، يحفظ «الحاوي» للنجم القزويني في الفقه، وكان وَرِعاً شديدَ الاحتياط، حتىٰ إنه كان يغتسل لكل فرض، وله مناقبُ وفضائلُ كثيرة.

(٢) هو السيد الشريف محمد بن أبي بكر الشِلّي باعلوي الحسيني الحضرمي ثم المكّي. ولد بتريم سنةَ ١٠٣٠هـ، وتوفي بمكة سنةَ ١٠٩٤هـ. طلب العلم ولقي شيوخاً كباراً بتريم ومكة، وتتلمذ بمكة علىٰ الإمام البابلي والشيخ عيسىٰ المغربي الثعالبي المَدَني، وآخرين، وصنف مصنفاتٍ عظيمةً منها: «المشرع الروي في مناقب بني علوي»، و «السناء الباهر ذيل النور السافر في أخبار القرن العاشر»، و «الجواهر والدرر في تاريخ القرن الحادي عشر»، وغيرها.

وبخَلْقِ اللّه، والزُّهْدِ في الدنيا والرَّغبةِ في الآخِرة، ومراعاةِ الحقوقِ لأهلِها، وتعظِيمِ العِلمِ والعُلماءِ والأولياءِ والمؤمنِين، ويحرُسُونَ قلوبَهم وأسماعَهم ويحفَظونها مِن كلِّ ما يُدخِلُ التشويشَ عليهِم ويُثبِّطُهم عنِ العمَلِ ويَحرِفُ قلوبَهم عنِ الأخلاقِ المحمُودة، لأجلِ أنْ تَبقىٰ قلوبُهم نقِيّةً وطاهِرةً وصافية، ونفُوسُهم مُطمئِنة، وهِمَمُهُم معلَّقةً بالخَيرِ وأسبابه، هكذا شأنُهم رضِيَ اللّهُ عنهُم. انتهىٰ. مِن «مجموعِ كلامِه».

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ العَلَوِيُّ يأخُذُ سبعَ سنينَ في طلبِ العِلم، وسبعَ سِنينَ يُعلِّم، وبعدَ ذلكَ يَطوِي البِساطَ ويُقبِلُ علىٰ ربِّهِ وخَلَفَهُ غيرُه، والآنَ فيكم مَن لهُ سِتُّونَ سنةً سبعُونَ سنةً ولا وَصَلْنا بتعليمٍ ولا تَعلُّم. انتهىٰ. أو كما قال.

قلتُ: والأمرُ كما ذكَرَ رضِيَ اللّهُ عنه، فقد تأخَّرَ الخَلَفُ الآنَ عنِ السَّلَف، وتأخُّرُهم عنهُم هُوَ التلَفُ كلُّ التلَف، قالَ سيِّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ محمدٍ الحَبَشيُّ(١) نَفعَ اللّهُ به:

مَنْ لا سَلَكْ في طَرِيقْ أَهْلِهْ تَهَيَّمْ وضاعْ
فيا فُرُوعَ النّبِيْ سِيْرُوا علىٰ الاتِّباعْ
خَلُّوا القَدَمْ بالقَدَمْ واحذَرُوا الابْتِداعْ

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه:

---

(١) السيد الشريف العالم الزاهد العارف باللّه شيخ المتأخرين الحبيب علي بن محمد بن حسين الحبشي ابن مفتي مكة المكرمة وأخو فقيهها. مولده بقَسَم سنةَ **١٢٥٩هـ**، ووفاته بسيؤون سنةَ **١٣٣٣هـ**. أخذ عن والده وجمعٍ من أهل العلم، ورحل إلىٰ زبيد والحجاز. استوطن سيؤون وحصل له بها شهرة كبيرة، وبنىٰ بها مسجده (الرياض)، ورباطاً لطلبة العلم إلىٰ جواره، وانتفع به خلقٌ جم، رضيَ اللّه عنه.

حيَّرْ بعَقلِي وفي مِثْلِهْ تَحِيرُ العُقُولْ | ميل الفُرُوعِ الزَّكِيهْ عن طَرِيقِ الأُصُولْ
بهِ زادْ هَمِّيْ ولكنْ ما دَرِيْت إيشَ أقولْ | عسىٰ عنايَهْ منَ المَولىٰ تَرُدّ المُيُولْ

وذكَرَ في «تثبيتِ الفؤاد» عنِ الحبيبِ الإمام عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ أنهُ قال: سمِعَ بعضُ أجِلّاءِ السادةِ شريفاً يقول: «أبي وجَدِّي» فقالَ له: كُن كأبِيكَ وجَدِّك، وإلا فأنتَ عِمامةٌ وصُورة، ولا شيءَ في المَقصُورة.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه شِعراً زاجِراً عنِ الاتكالِ علىٰ النَّسَب:

واحذَرْ وإيّاكَ مِنْ قَولِ الجَهُولِ: أنا | وأنتَ دُونيَ في فَضلٍ وفي حَسَبيْ
فقد تأخَّرَ أقوامٌ وما قَصَدُوا | نَيلَ المَكارِمِ واستَغْنَوْا بكانَ أبي

وللّهِ دَرُّ القائلِ حيثُ يقول:

لسْنا وإنْ أحسابُنا كَرُمَتْ | يوماً علىٰ الأحسابِ نَتّكِلُ
نبنِي كما كانَت أوائِلُنا | تَبني ونفعَلُ مِثلَ ما فعَلُوا

وقالَ المتنبّي:

إذا لم تَكُن نفسُ الشريفِ كأصلِهِ | فماذا الذي تُغنِي رِفاعُ المَناصِبِ
وإنْ عَلَوياً لم يَكُن مِثلَ جعفرٍ | فما هُوَ إلا حُجّةٌ للنَّواصِبِ

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ عمرَ بنِ سُمَيطٍ[1] رضِيَ اللّهُ عنه:

---

(١) الإمام الداعي إلىٰ اللّه، العالم العامل المرشد، مربي السالكين وهادي المريدين، الحبيب أحمد بن عمر بن زين بن علوي بن سميط باعلوي الحسيني الشبامي مولداً ووفاةً، ولد بشبام حضرموت سنةَ ١١٨٣هـ تقريباً، وتوفي بها سنةَ ١٢٥٧هـ. أخذ عن أبيه وابن عمه عبد الرحمن بن محمد وجماعةٍ آخرين، وكان مقصِداً لطلاب العلم في زمنه، وقام بتجديد الدعوة في حضرموت عامة وشبام خاصة، وأذعن له شيوخ عصره، وأخذ عنه جمعٌ غفير. وله رضيَ اللّه عنه مجموعُ كلام ومواعظ، وديوانٌ =

من كانَ ذا طَبعِ أَبيْ   لَمْ يَكْفِهِ (كانَ أَبيْ)
ليسَ الفَتىٰ مَنْ يَكتفِيْ   ويَغْتَــرِرْ بــالنَّســبِ
ويَتْـرُكَ أسبـابَ النَّجـا   مُستبــدِلاً بــالعَطَــبِ
حرْصاً علىٰ مالٍ وجاه   بَلْ ذا هُوَ الغِرُّ الغَبِيْ
إنّ الفَتـىٰ مَـنْ يقتَـدِيْ   بالمُصطفىٰ خَيرِ نبِيْ

ورُوِيَ أنّ جماعـةً منَ السادةِ اجتمَعُـوا علىٰ قـراءةِ «المَشـرَعِ الرَّوِيّ»، وكان عندَهـم أحدٌ مِنَ العامّة، فقالَ لهُم بعدَ القـراءة: هـؤلاءِ أهلُ مَن؟ قالوا: هؤلاءِ أهلُنـا. فقال: الحمدُ للّهِ يومَ ما هُمْ أهلي. قالوا له: لو هُم أهلُكَ لكانَ خيراً لك. فقال: لو هُم أهلي لاستَحيَيْتُ ولضاقَت بيَ الأرضُ منَ الحَياءِ لكونِ عمَلي ليسَ كأعمالِهم. فحصَلَ بذلكَ للسامِعِينَ الانتباهُ والاعتبارُ بقولِه، فجَدُّوا واجتهدُوا في طلبِ العلومِ والأعمالِ التي كانت مَهْيَعَ طريقةِ سَلَفِهم رضِيَ اللّهُ عنهم. أفادَ ذلكَ الحبيبُ عيدَرُوسُ بنُ عمرَ الحَبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به.

رزَقَني اللّهُ وسائرَ إخواني وأخِلاّئي كمالَ الجِدِّ والاجتِهاد، فيما يُلحِقُنا بالآبـاءِ والأجـداد، مِن لُـزُومِ سِيَـرِهِـم، والأخـذِ في طرائقِهـم، وأنْ يُـوفِّقَنـا لمتابَعتِهـم في أعمالِهـم وأقوالِهم، وأفعالِهم واعتقاداتِهم، وأن ينفعَنا بهِم في الدِّيـنِ والدُّنيـا والآخـرة، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

= ومكاتبـات، تصـدر جميعُهـا محقّقـة بإذن اللّه عن دار العلـم والدعـوة بتـريـم ــ حضرموت.

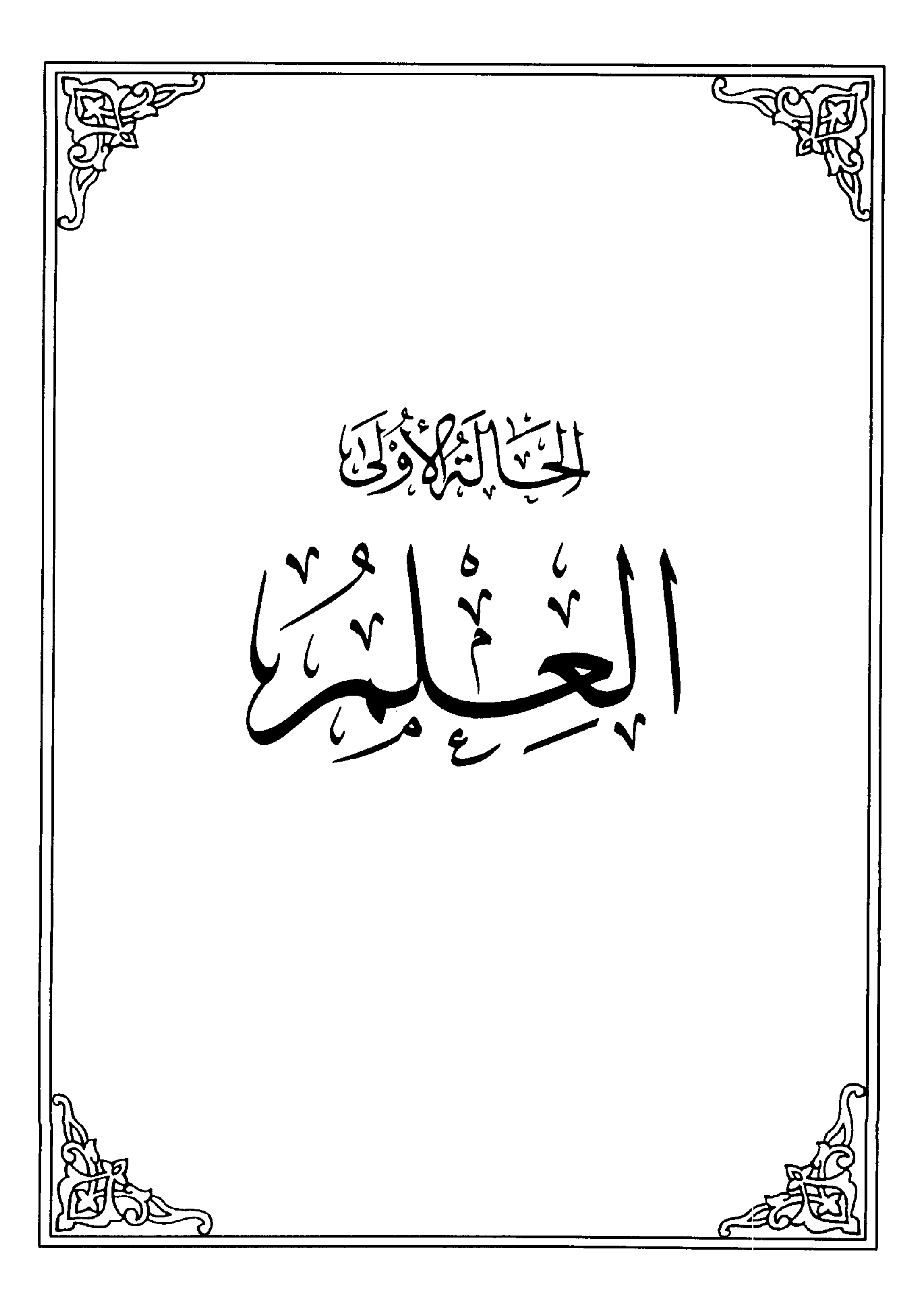
وصلىٰ اللّهُ وسلَّمَ علىٰ سيِّدِنا محمّدٍ الأمينِ المأمُون، كلَّما ذكَرَهُ الذاكرون، وغَفَلَ عن ذِكرِهِ الغافِلون، سُبحانَ ربِّكَ ربِّ العِزّةِ عمّا يَصِفُون، وسَلامٌ علىٰ المُرسَلِين، والحمدُ للّهِ ربِّ العالمين، آمين.

❊ ❊ ❊

وهذا أوانُ الشرُوع في مقصودِ الكِتاب، سائلاً منَ المَولىٰ سبحانَهُ وتعالىٰ الهدايةَ والتوفيقَ للصَّواب، لا إلهَ إلا هُوَ عليهِ توكَّلتُ وإليهِ مَتاب.

ونبتدِىءُ أولاً بإيرادِ كلامِ الحبيبِ عَيدَرُوسِ بنِ عمرَ الحَبَشيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ عندَ كلِّ خَصْلةٍ منَ الخِصالِ الخَمْسِ المتقدِّمةِ التي هِيَ أساسُ طريقةِ السادةِ العَلَويـة، ثم نَذكُرُ بعدَهُ شَواهِدَ الآياتِ القُرآنيـة، والأحـاديثِ النّبوية، والآثارِ السَّلَفية، والفَوائدِ السَّنِية، وباللّهِ التوفيق.

❊ ❊ ❊



الحالة الأولى

العِلْم



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقـدّمة

الحمـدُ للّهِ الفتّاحِ العَليـم، الذي أرشَـدَ مَنِ اصطَفـاهُ مِن عبـادِهِ للتعلُّمِ والتعليـم، وجعَلَ العِلمَ سببَ النجاةِ والفَوزِ بالزُّلفـىٰ عندَ المَلكِ العَظيم، ثم ألبَسَ العامِلينَ بهِ خِلَعَ الجَلالِ والتكريم، وجعَلَهُم مَصابيحَ يَهتدِي بهمُ الأنام، وتَنقَشِعُ بهِم دُجُنّـاتُ الظـلام، يَدعُـونَ إلىٰ سَبيـلِ الغفـورِ الرَّحيم. والصلاةُ والسّـلامُ علىٰ مَن أرسَلَهُ اللّهُ هادياً إلىٰ الصِّـراطِ المُستَقِيـم، وعلىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ الفائِزينَ مِن صُحبتِهِ واتِّباعِهِ بالمَقامِ العَظِيم.

أمّا بعدُ،

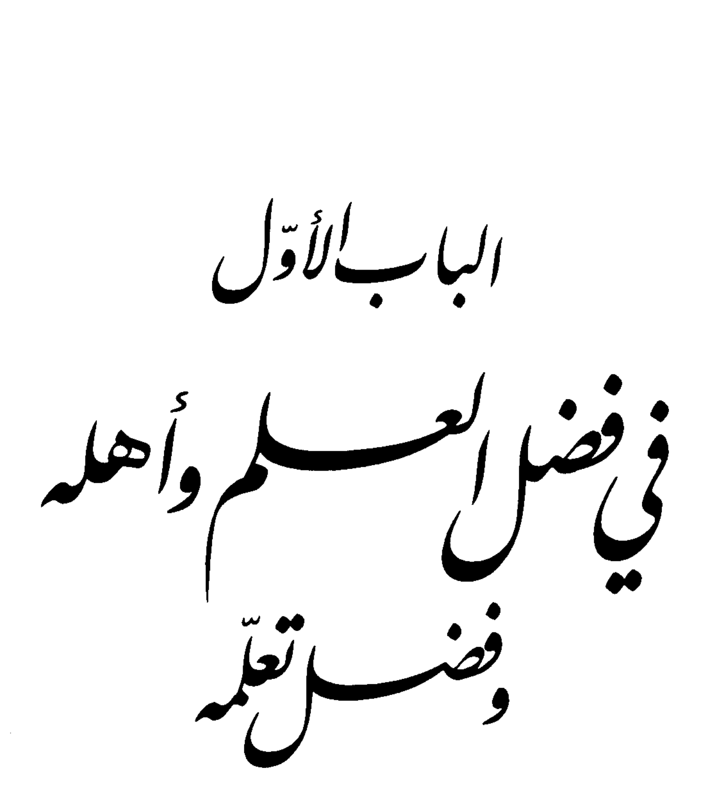
قالَ سيِّـدُنا الإمامُ العـارِفُ باللّهِ عَيدَرُوسُ بنُ عمرَ بنِ عَيدَرُوسٍ الحَبَشيُّ رحِمَهُ اللّهُ ونفَعَ به:

الحالةُ الأولىٰ؛ أي: منَ الحالاتِ الخَمْسِ المتقدِّمِ ذكرُها: **العِلم**، أي: المعهُودُ شرعاً، وهُوَ: التفسيرُ والحديثُ والفقهُ وآلاتُها.

فالعِلمُ هُوَ أصلُ السّعـاداتِ في الدنيا والآخرة، إذ أعظمُ الأشياءِ رُتبةً في حقِّ الآدميِّ السّعادةُ الأبَدِيةُ الأُخرَوِيّة، والنظرُ إلىٰ وَجهِ اللّهِ الكريم، ومُجاوَرتُهُ في جَنّاتِ النَّعِيم، وأفضلُ الأشياءِ ما هُوَ وسيلةٌ إليها، ولا يُتوصَّلُ إلىٰ ذلكَ إلا بالعِلـمِ والعمَل، ولا يُتوصَّـلُ إلىٰ العمَلِ إلاّ بالعِلمِ بكيفيّـةِ العمَل، فكانَ لهُم

رضِيَ اللّهُ عنهُم منَ العِلمِ القِـدْحُ المُعلّـىٰ، والمقامُ الباذِخُ الأعلىٰ، كما يَعرِفُـهُ مَن نظَـرَ في مؤلّفاتِهـم وطالـعَ تراجِمَهـم. انتهىٰ.

❊ ❊ ❊


الباب الأوّل
في فضل العلم وأهله
وفضل تعلّمه

وفيه ستةُ فصول:

الأول: في مدح العلم وذمّ الجهل.

الثاني: فيما ورد من الأحاديث النبوية في فضل العلم وأهله والحث علىٰ طلبه.

الثالث: فيما ورد من كلام السلَف والخلَف في فضل العلم وأهله.

الرابع: في أن قليل العلم خيرٌ من كثير العبادة.

الخامس: في فضل طلبة العلم والمتفقهين في الدين.

السادس: في الحث علىٰ سؤالِ العلماء العاملين، والاستزادةِ من العلم علىٰ الدوام.

الفصل الأوّل
في مدح العلم وذمّ الجهل

ٱعلَمْ أنّ العِلمَ، أي: تعلُّمَهُ وتعلِيمَه، أرفعُ وأفضلُ مِن سائِر الأعمالِ التي يُتقرَّبُ بها إلىٰ اللّهِ تعالىٰ، لأدلةٍ أكثرَ مِن أن تُحصَرَ، وأشهرَ مِن أنْ تُذْكَر.

قالَ اللّهُ عزَّ مِن قائلٍ كريم: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]. بدأَ سبحانَهُ بنفْسِه، وثنّىٰ بملائكتِه، وثلّثَ بأهلِ العِلم، وكفاهُم بذلكَ شَرَفاً وفَخْراً.

وقالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١].

وقالَ اللّهُ جلَّ وعَلا: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩]؛ أي: إنهم لا يستوُونَ أبداً، لا في الدُّنيا، ولا في الآخِرة، ولكنْ يُفضِّلُ اللّهُ مَن يعلَمُ علىٰ مَن لا يعلَمُ بدرَجاتٍ كثيرة، فهَيْهاتَ أنْ تحصُلَ المساواةُ بينَ العلماءِ العامِلينَ وغيرِهم من الجاهلين، ولكنْ يرفعُ اللّهُ أهلَ العلمِ علىٰ مَن سِواهم بدرَجاتٍ كثيرة، فعن ابنِ عباسٍ رضيَ اللّهُ عنهما قال: «يرفعُ اللّهُ العلماءَ يومَ القيامةِ علىٰ سائرِ المؤمنينَ بسبعِمئةِ درجة، ما بينَ الدرجتينِ مسيرةُ خمسِمئةِ عام».

قلتُ: وذلك لأنّ العلمَ أساسُ العِبادات، ومَنْبَعُ الخيرات، كما أنّ

الجَهْلَ رأسُ كلِّ شرّ، وأصلُ جميعِ البَلِيّات.

قالَ سيِّدُنا الحبيبُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا به: الجهلُ أصلُ كلِّ شَرّ، ومَنْشَأُ كلِّ ضَرَر، وهُوَ وأهلُهُ داخِلُونَ في عُمُومِ قولِهِ ﷺ: «الدنيا ملعُونة، ملعُونٌ ما فيها، إلاّ ذِكْرَ اللّهِ وما والاهُ، وعالِماً ومُتعلِّماً»[1].

قالَ سيِّدُنا عليٌّ كرَّمَ اللّهُ وجهَه: «لا عدُوَّ أعدىٰ منَ الجَهْل، والمَرْءُ عدوُّ ما جَهِل».

والجاهلُ واقعٌ في ترْكِ الطّاعاتِ وفعْلِ المعاصي شاءَ أم أبىٰ، فإنهُ لا يَدري أيَّ شَيءٍ الطاعةُ التي أمرَهُ اللّهُ بفعلِها، ولا أيَّ شَيءٍ المَعصِيةُ التي نَهاهُ اللّهُ عنِ ارتكابِها، ولا يَخرُجُ مِن ظُلُماتِ الجَهلِ إلا بنُورِ العِلم.

وللّهِ دَرُّ الشيخِ عليِّ بنِ أبي بكرٍ[2] رضِيَ اللّهُ عنهُ حيثُ يقول:

الجَهْلُ نارٌ لِدِينِ المَرْءِ يُحرِقُهُ   والعِلمُ ماءٌ لتِلكَ النارِ يُطفِيْها

انتهىٰ كلامُ الحدّادِ مِن «رسالةِ المُذاكَرة».

وقال سيِّدُنا العارفُ باللّهِ عمرُ بنُ سقّافِ السقّافُ[3] رضِيَ اللّهُ عنه:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢) وابنُ ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه. قال الترمذي: حسنٌ غريب.

(٢) الشيخ الإمام الجليل العارف باللّه علي بن أبي بكر السكران ابن عبد الرحمن السقاف باعلوي الحسيني التريمي، مولده بها سنة ٨١٨هـ وبها وفاته سنة ٨٩٥هـ. كان من كبار علماء عصره، حفظ «الحاويَ الصغير» وغيرَه، كان وَرِعاً، ومن ورعه أنه لم يشرب القهوةَ لحدوثها، قرأ «الإحياءَ» ٢٥ مرةً، وقُرِىء عليه كذلك.

(٣) الحبيب عمر بن سقاف بن محمد بن عمر بن طٰه الصافي السقاف. كان إماماً عارفاً، انتهت رئاسة العلوم والمشيخة إليه في سيؤون بل وحضرموت، كان صالحاً زاهداً له =

وٱعلَمْ أنّ العِلـمَ يَرفَعُ الوَضِيعَ، والجَهـلَ يُنزِلُ الرَّفيعَ، فمَنْ شَرُفَ نَسَبُهُ وأظلَمَ بالجَهـلِ حَسَبُه نزَلَ بهِ الحال، ووُضِعَ مقامُـهُ معَ الجُهّال، فما الحياةُ إلا لأهـلِ العِلم، وما الموتُ إلا لأهلِ الجَهل، كما قِيل:

وفي الجَهلِ قَبلَ المَوتِ مَوتٌ لأهلِهِ ... فأجسادُهُمْ قَبلَ القُبُورِ قُبُورُ
وإنّ ٱمرَءاً لَمْ يَحْيَ بالعِلمِ ميِّتٌ ... ولَيسَ لهُ حتىٰ النُّشُورِ نُشُورُ

ففي العِلمِ حَياةُ الأبَد، وفي الجَهلِ مَوتُ الأبَد، وأنشَدُوا:

ليسَ مَن ماتَ فاستراحَ بمَيْتٍ ... إنّمـا المَيْـتُ ميِّـتُ الأحيـاءِ

أي: مَن ماتَ بالجَهلِ والبُعدِ عنِ اللّه، فهوَ الميِّتُ حقيقةً وإن كانَ حيّاً صورةً وجسماً. انتهىٰ.

قالَ بعضُ السّلَف: خَيرُ المَواهِبِ العقل، وشَرُّ المَصائبِ الجهل.

ولبعضِهم:

تعلَّمْ فليسَ المَرءُ يُولَدُ عالِماً ... وليسَ أخُو عِلمٍ كمَنْ هُوَ جاهِلُ
وإنّ كَبِيـرَ القَـومِ لا عِلْـمَ عِنـدَهُ ... صَغِيرٌ إذا التَفَّتْ علَيهِ المَحافِلُ

وقالَ سَهْـلُ بنُ عبدِ اللّهِ التُّسْتَـرِيُّ[1] رحِمَهُ اللّه: ما عُصِيَ اللّهُ بمَعصِيـةٍ

= مناقبُ جمة. ولد بسيؤون وتوفي بها سنة ١٢١٦هـ. وله مصنفاتٌ منها: «تفريح القلوب وتفريج الكروب» مطبوع. أفرده تلميذه الشيخ عبد اللّه بن سُمَير بترجمةٍ سماها «المنهل العذب الصاف» في مجلدٍ كبير.

(١) الإمام الصوفي الزاهد شيخ العارفين أبو محمد سهل بن عبد اللّه بن يونس التستري (٢٠٠ ــ ٢٨٣هـ). من كبار الأئمة المتكلمين في علوم الإخلاص ورياضة النفس، قال الذهبي: له كلماتٌ نافعة، ومواعظُ حسنة، وقدمٌ راسخٌ في الطريق، رحمه اللّه تعالىٰ.

أعظمَ منَ الجَهل. وقيلَ له: يا أبا محمّـد، هلْ تَعـرِفُ شيئـاً أشدَّ منَ الجهل؟ قال: نعمْ، الجَهلُ بالجَهل!

قلتُ: وهو ــ كما قالَ الإمامُ الغزاليّ ــ لأنّ الجهلَ بالجَهلِ يَسُدُّ بالكُلّيّةِ بابَ التعلُّم، ومَن يَظُنُّ بنفْسِهِ أنهُ عالِمٌ فكيفَ يتعلَّم! وكذلكَ أفضلُ ما أُطِيعَ اللّهُ بهِ العِلـم، ورأسُ العِلمِ العلـمُ بالعِلم، كما أنّ رأسَ الجهـلِ الجَهـلُ بالجَهل. انتهىٰ.

لطِيفةٌ:

قالَ الخليلُ بنُ أحمدَ[١] رحِمَهُ اللّه: الرجالُ أربعةٌ: رجلٌ يدرِي ويدري أنهُ يدري، فذلكَ عالِمٌ فاتَّبِعُوه، ورجلٌ يدرِي ولا يدرِي أنه يدرِي، فذلكَ غافِلٌ فأيقِظُوه، ورجلٌ لا يدرِي ويدرِي أنه لا يدرِي فذلك مُستَرشِدٌ فأرشِدُوه، ورجلٌ لا يدرِي ولا يدرِي أنهُ لا يدرِي، فذلكَ جاهلٌ فارفُضُوه. انتهىٰ.

مسألةٌ:

ذكَـرَ في «عِقـدِ اليَواقيـتِ الجَـوهَريّـة» عنِ الشيـخِ فَضْـلِ بنِ عبـدِ اللّهِ التَّرِيْمِيِّ[٢] أنهُ قال: سألتُ الشيخَ محمدَ بنَ أبي بكرٍ باعَبّاد[٣]: هلِ العِلمُ أوسعُ

---

(١) الإمام العلاّمة أبو عبد الرحمن الخليـل بن أحمـد الفراهيدي (١٠٠ ــ ١٧٠هـ)، من كبار أئمة اللغة والأدب، واضعُ علم العَروض، وأستاذ سِيبَويه النحوي. أبدع بدائعَ لم يُسبق إليها، وألف عدة مؤلفات منها كتابه الشهير: «العين»، رحمه اللّه تعالىٰ.

(٢) الشيخ فضل بن عبد اللّه بافضل التريمـي، المتوفىٰ بمدينة الشحر سنةَ ٨٠٥هـ. إمامٌ من كبار العارفين، له مناقبُ جليلة وكراماتٌ متواترة.

(٣) الشيـخ محمد بن أبي بكر باعبّـاد، المتوفىٰ بشِبام سنـةَ ٨٠١هـ. من أئمة المحققين الأكـابـر، وعنه أخـذ الشيـخ عبد الرحمـن السقّـاف (ت ٨١٩هـ). من مصنفـاتـه: «المنهاج القويم في مناقب الشيخ عبد اللّه القديم» (مخطوط)، يعني به جدّه عبد اللّه=

منَ الجَهلِ أو الجَهلُ أوسَعُ مِنَ العِلم؟ فقال رضيَ اللّهُ عنه : أمّا علىٰ المُتحَرِّي، فالعِلمُ أوسَعُ منَ الجَهل، وأمّا علىٰ المُتجَرِّي فالجهلُ أوسَعُ منَ العِلم. انتهىٰ.

تنبيهٌ:

قالَ الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ في «رسالةِ المُعاوَنة»: واْعلَمْ أنّ مَن عبَدَ اللّهَ بغيرِ علمٍ كان الضَّرَرُ العائدُ عليهِ بسببِ عبادتِه أكثرَ منَ النفعِ الحاصِلِ لهُ بها، وكم مِن عابِدٍ قد أتعَبَ نفسَهُ في العبادةِ وهُوَ معَ ذلكَ مُصِرٌّ علىٰ معصيةٍ يَرىٰ أنها طاعةٌ أو أنها غيرُ معصِية. وقد حَكىٰ الشيخُ العارفُ باللّهِ محمدُ بنُ عَرَبيٍّ[1] في بابِ الوَصايا منَ «الفتوحاتِ»[2] عن رجلٍ مِن أهلِ المَغرِبِ أنهُ كانَ كثيرَ الاجتهادِ في العبادة، وأنهُ اشترىٰ أتاناً[3] ولم يستعمِلْها في شيء، فسألَهُ إنسانٌ عن سَبَبِ إمساكِها، فقال: ما أُمسِكُها إلا لأُحصِّنَ بها فَرْجي! فكانَ لا يعلَمُ تحريمَ إتيانِ البَهائم، فلمّا عَرَّفَهُ بتحريمِهِ بكىٰ بُكاءً شديداً. انتهتِ الحكايةُ بمعناه.

فمَن لا يَتعلَّمُ العِلمَ لا يتأتّىٰ لهُ إحكامُ العبادةِ والقيامُ بحقوقِها، ولو أنّ رجلاً عَبَدَ اللّهَ سبحانَهُ وتعالىٰ عبادةَ ملائكةِ السماواتِ بغيرِ عِلمٍ كانَ مِنَ

= ابن محمد باعبّاد المتوفىٰ بشِبام سنةَ ٦٨٧هـ.

(١) الولي الكبير، الإمام المحقق، محيي الدين محمد بن علي بن العربي الحاتمي الطائي الأندلسي (٥٦٠ ــ ٦٣٨هـ). ولد بمُرْسِيَة بالأندلس، ورحل إلى الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز وغيرها، واستقر بدمشق وبها مات. برع في سائر العلوم وعُني بالأثر، وبلغ الغاية في المعارف الإلهية حتىٰ لُقّب بـ(سلطان العارفين) وبـ(الشيخ الأكبر). له نحو (٤٠٠) كتاب، من أشهرها: «الفتوحات المكية».

(٢) وقد طُبع بابُ الوصايا هذا في كتابٍ مفرد، فظنّه البعض مؤلفاً مستقلاً للشيخ الأكبر، وليس كذلك.

(٣) وهي أنثىٰ الحمار.

الخاسِرين، فعلىٰ الإنسانِ أن يُشمِّرَ في طلبِ العِلم، ويَجتنِبَ الكسَلَ والمَلَل، وإلاّ فهُوَ في خطرِ الضّلال، فإنّ الجهلَ مِن أقبحِ الخِصال.

قالَ سيِّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ محمّدٍ الحَبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به:

تنكَّـرُ وقتـي أورثَ الحُـزْنَ والهَمّـا
وكيفَ وأهلُ الوَقتِ قد أهمَلُوا العِلْما

عَجِبْتُ لِمَنْ بـالجَهـلِ يَـرضـىٰ ورَبُّـهُ
أتـاحَ لـهُ مِـن فَيـضِ إفضـالِـهِ فَهْمـا



الفصل الثاني
فيما ورد من الأحاديث النبوية
في فضل العلم وأهله والحث على طلبه

اِعلمْ أنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ قائمٌ علىٰ أساسِ العلمِ والمعرفة، فلا ينبغي للمسلمِ أنْ يكونَ بعيداً عن نورِ العلم، بلْ لابدَّ أنْ يَقتبِسَ من الميراثِ النبويِّ، فإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء.

فعن مُعاويةَ رضِيَ اللّهُ عنه قال: سَمِعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: «مَن يُرِدِ اللّهُ بهِ خيراً يُفقِّهْهُ في الدِّين»[١].

وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما عُبِدَ اللّهُ بشَيءٍ أفضلَ منَ الفِقهِ في الدِّين»[٢]، وقال عليهِ صلاةُ اللّهِ وسَلامُه: «فَقِيهٌ واحدٌ أشدُّ علىٰ الشيطانِ مِن ألفِ عابد»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١) ومسلمٌ (١٠٣٧)، وغيرهما.

(٢) أخرجه البيهقي في «شُعَب الإيمان» (ح١٥٨٣) بسندٍ ضعيف، وقال: المحفوظ هذا اللفظ من قول الزهري. انتهىٰ. قلت: أخرجه من قول الزهري رحمه الله أبو نعيم في «الحلية» (٣: ٣٦٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨١) وابن ماجَهْ (٢٢٢) وغيرهما، من حديث ابن عباسٍ رضيَ اللّه عنهما.

قال أبو هريرةَ رضيَ اللّه عنه: لأنْ أجلِسَ ساعةً فأتفقّهَ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أُحيِيَ ليلةً إلىٰ الصَّباح[١].

* * *

وعن أبي الدَّرْداءِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: سَمِعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: «مَن سَلَكَ طريقاً يلتَمِسُ فيه عِلماً سَلَكَ اللّهُ بهِ طريقاً إلىٰ الجَنّة، وإنّ الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العِلمِ رِضاً بما يصنَع، وإنّ العالمَ لَيَستَغفِرُ لهُ مَن في السماواتِ ومن في الأرضِ حتّىٰ الحِيتانُ في الماء، وفضلُ العالِمِ علىٰ العابدِ كفضلِ القمرِ علىٰ سائرِ الكواكب. وإنّ العُلماءَ ورَثةُ الأنبياء، وإنّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا دِرْهماً، وإنّما وَرَّثُوا العِلم، فمَن أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافر»[٢].

وقدِ ٱختُلِفَ في معنىٰ وَضْعِ الملائكةِ أجنِحتَها لطالبِ العِلم، فقيل: هو كنايةٌ عن التواضُعِ لهُ والخُشُوع، وقيل: الكفُّ عنِ الطيران، للنزولِ عندَه والحضورِ معَه، وقيل: التوقيرِ والتعظِيمِ له، وقيل: معناهُ تَحمِلُهُ عليها وتُعِينُهُ علىٰ بلوغِ مَقصِدِه.

قلتُ: ويُؤيِّدُ هذا المعنىٰ الأخِيرَ ما حُكِيَ عن الشيخ أحمدَ بنِ أبي الجَعْدِ[٣] رحِمَهُ اللّه: أنهُ لمّا أتاهُ الشيخُ عبدُ اللّهِ باعَبّادٍ وأخوه[٤]، أخَذَ الشيخُ

---

(١) نقله البيهقي في «شعب الإيمان» (٣: ٢٣١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وابنُ ماجه (٢٢٣)، كلهم من حديث أبي الدرداء رضي اللّه عنه، وأخرج أولَه مسلمٌ (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٣) الشيخ أحمد بن أبي الجعد، من مدينة أبْيَن، صحب الشيخين سالماً الأبْيَني وعلياً الأهدل. توفي سنةَ بضع وتسعين وستمئة. «طبقات الخواصّ» ص٧٢ ــ ٧٤.

(٤) الشيخ عبد اللّه بن محمد باعبّاد الشبامي المتوفىٰ سنة ٦٨٧هـ، جدُّ الإمام محمد بن=

أحمدُ يَتبَرَّكُ ويتمَسَّـحُ بأقدامِهما، وأمرَهُمـا بأنْ يَضَعا أقدامَهُما علىٰ عُضوٍ مِن أعضائهِ الشريفة، فلمّا قالا له: لِمَ تفعَلُ ذلكَ ونحنُ ما أتَينا إليكَ إلا لنتبَرَّكَ بكَ ونَستفِيـدَ مِن علومِكَ وأخلاقِـك؟! فقالَ لهُما: ما فَعلْـتُ ذلكَ إلا لمّـا رأيـتُ الملائكةَ تَفرِشُ أجنِحتَهـا لكما، ورأيتُكما تَضعـانِ عليها أقدامَكُمـا، فأحبَبْتُ التبرُّكَ وٱلتماسَ بَرَكةِ مَواضعَ مَسَّتْها أجنحةُ الملائكة. انتهىٰ. ذكَرَها في «النهرِ المورود».

وأمّا إلهامُ الحيوانـاتِ بالاستغفـارِ للعالِم فقِيـلَ: إنها خُلِقَـت لمصالحِ العبادِ ومنافِعِهم، والعلماءُ همُ الذينَ يبيِّنونَ ما يَحِلُّ منها وما يَحرُم، ويُوصُونَ بالإحسانِ إليها ونفْيِ الضَّرَرِ عنها. أفادَهُ ٱبنُ جماعةَ في «تَذكِرتِه»[1].

فقد سُئلَ الحبيـبُ عَيدَرُوسُ بنُ عمرَ الحَبَشـيُّ نفَعَ اللّهُ به: أيُّ شيءٍ منَ الانتفاعِ الحاصلِ للحيتانِ منَ العالِم حتىٰ استَغْفرتْ له؟ فأجاب: إنّ العالِمَ إذا عَمِلَ بعِلمِه، وعلَّمَ الناسَ العِلـم، وأمرَهُم بالخيرِ وٱئتَمَرُوا، ونهاهُم عنِ الشرِّ وانزَجَرُوا، رضِيَ اللّهُ عنِ العباد، وأنزَلَ الرَّحمةَ ببَرَكةِ الطاعة، والغَيثَ ينتفعُ بهِ كلُّ شـيءٍ منَ الحيـوانِ حتىٰ السَّمَـكُ في البحر، وهذا مِن بَرَكـةِ العِلمِ ودعوةِ العالِمِ إليه، وكذلكَ العالِمُ يأمُرُ بالإحسانِ إلىٰ الحيوانِ في سائرِ أحوالِهِ حتىٰ في ذَبْحِهِ فيما يُذبَـح، وفي قتلِهِ حيثُ جازَ قتلُـه، ويَنهىٰ عنِ المُثلةِ به، فبانَ بذلكَ وجهُ كونِ كلِّ شيءٍ يستَغفِرُ للعالِمِ حتىٰ حِيتانُ البحر. انتهىٰ. منَ «النهرِ المورُود».

= أبي بكر باعبّاد (ت ٨٠١هـ) المتقدمـة ترجمتُـه، وأخـوه: عمـر، ولم نعثر له على تحديدٍ لسنة الوفاة.

(١) وهي: «تذكـرة السامـع والمتكلِّم في أدب العالم والمتعلِّم» للإمام المحدِّث الفقيه، القاضي بدر الدين محمـد بن إبراهيم بن سعد اللّه بن جماعـةَ الكِنانـي الشافعي (ت ٧٣٣هـ)، وكتابه هذا من خير ما أُلِّف في أدبِ الطلَب، وهو مطبوع.

قلتُ: واستغفارُ حِيتانِ البحرِ للعالِمِ يكونُ في حياتِهِ وبعدَ مَماتِهِ إلىٰ يوم القِيامة؛ لأنّ العِلمَ يُنتَفَعُ بهِ بعدَ موتِ العالِمِ إلىٰ يومِ القيامة، وفي هذا دليلٌ علىٰ شرَفِ العِلمِ وتقدُّم أهلِه، وأنّ مَن أُوتِيَهُ فقد أُوتِيَ فَضْلا عظِيماً. ويؤيِّدُ ذلكَ قولُهُ ﷺ: «العلماءُ ورَثةُ الأنبياء، ويُحِبُّهم أهلُ السماء، وتستَغفِرُ لهمُ الحِيتانُ في البحرِ **إلىٰ يوم القيامة**»(١).

***

وعن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «تَعلَّموا العِلم، فإنّ تعلُّمَهُ للّهِ خَشية، وطلَبَهُ عِبادة، ومُذاكَرتَهُ تسبيح، والبحْثَ عنهُ جهاد، وبَذْلَه لأهلِهِ قُربَة، وتعليمَهُ لِمَن لا يعلَمُهُ صدَقة، لأنهُ مَعالِمُ الحلالِ والحَرام، ومَنارُ سُبُلِ أهلِ الجَنّة، وهُوَ الأنيسُ في الوَحْشة، والصّاحِبُ في الغُربة، والمُحَدِّثُ في الخَلْوة، والدَّلِيلُ علىٰ السَّرّاءِ والضَّرّاء، والسِّلاحُ علىٰ الأعداء، والزَّينُ عندَ الأخِلاّء، يرفَعُ بِهِ اللّهُ أقواماً فيجعَلُهُم في الخَيرِ قادةً وأئمّةً تُقتفىٰ آثارُهُم، ويُقتَدىٰ بأفعالِهِم، ويُنتَهىٰ إلىٰ رأيِهِم، وترغَبُ الملائكةُ في خُلّتِهِم، وبأجنحتِها تَمسَحُهُم، ويستَغفِرُ لهُم كُلُّ رَطْبٍ ويابِس، وحِيتانُ البحرِ وهَوامُّه، وسِباعُ البَرِّ وأنعامُه. لأنّ العِلمَ حياةُ القُلُوبِ منَ الجَهل، ومِصباحُ الأبصارِ في الظُّلَم، يبلُغُ العبدُ بالعِلمِ منازِلَ الأخيار، والدرَجاتِ العُلىٰ في الدُّنيا والآخرة. التفكُّرُ فيهِ يَعدِلُ الصِّيام، ومُدارَستُهُ تَعدِلُ القِيام، بهِ تُوصَلُ الأرحام، وبهِ يُعرَفُ الحَلالُ منَ الحرام، وهُوَ إمامُ العمَلِ والعمَلُ تابعُه،

---

(١) أخرجه أبو نُعيم والديلمي وابنُ النجّار وغيرهم. قال الحافظ ابن حجر: له طرقٌ وشواهدُ يُعرف بها أنّ للحديث أصلاً. انتهىٰ. من «فيض القدير» للمناوي (٤: ٣٨٥).

يُلهَمُهُ السُّعَداء، ويُحرَمُهُ الأشقِياء»[١].

❋ ❋ ❋

وعن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنه قال: قيلَ: يا رسُولَ اللّه، مَن أكرَمُ النّاس؟ قال: «أتقاهُم»، قالوا: ليسَ عن هذا نسألُك، قال: «فيُوسُفُ نبيُّ اللّهِ ابنُ نبيِّ اللّهِ ابنِ نَبِيِّ اللّهِ ابنِ خليلِ اللّه»، قالوا: ليسَ عن هذا نسألُك، قال: «فعن معادِنِ العرَبِ تَسألُوني؟ خِيارُهُم في الجاهليةِ خِيارُهُم في الإسلامِ إذا فَقُهُوا»[٢].

قالَ الإمامُ النوويُّ[٣]: (معادِنُ العرَب): أصولُها. و(فَقُهوا) بضمِّ القاف؛ أي: صاروا عالِمينَ بالأحكامِ الشرعيّةِ الفِقهيّة.

وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «يَشفَعُ يومَ القِيامةِ ثلاثةٌ: الأنبياءُ، ثمّ العُلماءُ، ثمّ الشُّهداءُ»[٤].

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللّهُ بعدَ إيرادِه هذا الحديثَ: فأعظِمْ بمَرتَبةٍ هيَ تَلِي النّبُوةَ وفوقَ الشهادةِ معَ ما وَرَدَ في فَضلِ الشَّهادة. انتهىٰ.

قلتُ: وفي ذلكَ دليلٌ علىٰ أنّ العلماءَ العامِلينَ أفضَلُ عندَ اللّهِ مِنَ

---

(١) أخرجه ابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١: ٥٤) وقال «حديثٌ حسن جداً، ولكن ليس له إسنادٌ قوي، ورويناه من طرقٍ شتىٰ موقوفاً». قلت: وأخرجه موقوفاً على معاذٍ أبو نعيم أيضاً في «حلية الأولياء» (١: ٢٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٣) ومسلمٌ (٢٣٧٨) وغيرهما.

(٣) شيخ الإسلام محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، وفاته سنةَ ٦٧٦هـ، غنيٌّ عن التعريف. والنصُّ المنقولُ عنه هنا هو من كتابه «شرح صحيح مسلم» (١٥: ١٣٥).

(٤) أخرجه ابنُ ماجَهْ في «سُنَنِه» (٤٣١٣) وغيره، من حديث عثمانَ رضيَ اللّه عنه.

الشهداءِ الذينَ قُتِلوا في سَبِيلِ نَصرِ الدِّين، قـالَ الحَسَنُ البَصريُّ[١] رحمَه اللّه: «يُوزَنُ مِدادُ العُلماءِ بدَمِ الشهداءِ فيرَجَحُ مِدادُ العُلماءِ علىٰ دم الشهداء»، وقالَ ابنُ مَسعُودٍ رضيَ اللّهُ عنه: «عليكم بالعِلمِ قبلَ أن يُرفَعَ، ورَفعُه مَوتُ رُواتِه، فوالذِي نفسِـي بيدِه لَيَوَدُّ رِجالٌ قُتِلوا في سَبِيلِ اللّهِ شهداءَ أن يَبعَثَهم اللّهُ عُلماءَ لِمَا يَرَونَ مِن كَرامتِهم». ذكَرَه في «الإحياء».

❊ ❊ ❊

(١) إمام التابعين أبو سعيد الحسن بن يسار البصري (٢١ ــ ١١٠هـ)، سيّد أهـل زمانـه علماً وعملاً وحالاً. قال الإمام الغزالي: كان الحسن البصري أشبهَ الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة، رضيَ اللّه عنه.

الفصل الثالث
فيما ورد من كلام السلف والخلف
في فضل العلم وأهله

اِعلمْ أنّ فضلَ العلمِ لا يخفىٰ علىٰ أحد، إذِ العلمُ هو المختصُّ بالإنسانية؛ لأنّ جميعَ الخِصالِ ـ سوىٰ العلمِ ـ يشتركُ فيها الإنسانُ وغيرُهُ من الحيوان، كالشجاعةِ والقوةِ والشفقةِ وغيرِها. وبالعلمِ أظهرَ اللّهُ فضلَ آدمَ عليهِ السلامُ علىٰ الملائكة، وأمرَهم بالسُّجُودِ له، وأيضاً هو الوسيلةُ للوصولِ إلىٰ السعادةِ الأبديةِ إنْ وقعَ العملُ بمُقتضاه.

قالَ أميرُ المؤمنينَ الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللّهُ وجهَه: العِلمُ خيرٌ منَ المال: العلمُ يحرُسُك، وأنتَ تحرُسُ المال. العلمُ يزكو علىٰ الإنفاقِ والمالُ تُنقِصُهُ النَّفقة. العِلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليه. العِلمُ يُكسِبُ العالِمَ الطاعةَ في حياتِهِ وجميلَ الأُحدوثةِ بعدَ موتِه، ومحبّةُ العلمِ دِينٌ يُدانُ بها، ومنفَعةُ المالِ تَزولُ بزوالِه، ماتَ خُزّانُ الأموالِ وهُم أحياء، والعلماءُ باقونَ ما بَقِيَ الدّهر، أعيانُهم مفقودةٌ وأمثالُهم في القلوبِ موجودة.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه:

النـاسُ مِـن جِهَـةِ التمثيـلِ أكْفـاءُ   أبـوهُـمُ آدمٌ والأُمُّ حـوّاءُ

فـإنْ يكُـنْ لهُـمُ فـي أصلِهِـمْ شرَفٌ ... يُفـاخِـرونَ بـهِ، فـالطِّيـنُ والمَـاءُ
مـا الفَخـرُ إلاّ لأَهـلِ العِلـمِ إنَّهُـمُ ... علىٰ الهُدىٰ ــ لِمَنِ ٱستهدىٰ ــ أدِلاّءُ
وقَـدْرُ كـلِّ ٱمـرِىءٍ مـا كـانَ يُحسِنُهُ ... والجـاهلـونَ لأهـلِ العِلـمِ أعـداءُ
ففُـزْ بعِلـمٍ تعِـشْ حيّـاً بـهِ أبـداً ... النـاسُ مَوتـىٰ وأهـلُ العِلـمِ أحيـاءُ

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: كفىٰ بالعِلمِ شرفاً أن يدّعيَهُ مَن لا يُحسِنُهُ ويفرَحَ إذا نُسِبَ إليه، وكفىٰ بالجهلِ ذمّاً أن يتَبرّأَ منهُ مَن هُوَ فيهِ ويغضَبَ إذا نُسِبَ إليه.

وقـالَ الإمامُ الحَسنُ البصْـريُّ رحْمـةُ اللّهِ عليـهِ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]: إنّ الحَسنةَ في الدنيا هِيَ العِلمُ والعبادة، وفي الآخرةِ هِيَ الجنّة.

وقالَ رحمَهُ اللّه: لو كانَ للعلمِ صورةٌ لكانتْ صورتُهُ أحسنَ من صورةِ الشمسِ والقمرِ والنجومِ والسماء.

وقالَ ابنُ عبّاسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُمـا: خُيِّرَ سُليمـانُ عليهِ السّلامُ بينَ العلمِ والمالِ والمُلك، فٱختارَ العلم، فأعطاهُ اللّهُ المالَ والمُلك.

وقالَ سيّدُنـا عيسىٰ عليهِ السـلام: مَن تعلَّمَ وعمِـلَ وعلَّـم، فذاكَ يُدعىٰ عظيماً في مَلَكوتِ السموات.

وقالَ أبو الـدّرداءِ رضِيَ اللّهُ عنه: العالِـمُ والمُتَعلّـمُ شريكانِ في الخير، وسائرُ الناسِ همَجٌ لا خيرَ فيهم.

وقالَ أبو مسلمٍ الخَوْلانيُّ[1] رحِمَهُ اللّه: مثَلُ العلماءِ في الأرضِ مثَلُ

(١) التابعيُّ الكبير أبو مسلم عبدُ اللّه بن ثُوَب الخَوْلاني الداراني (ت ٦٢هـ)، من أحبار الأُمّة وزهّادها وحكمائها، أسلم في أيام النبي ﷺ ودخل المدينة في خلافة الصدّيق. حلّاه الذهبي بـ«سيّد التابعين وزاهد العصر». وبداريّا الشام قبرٌ يُزار يُقال إنه قبره.

النجومِ في السّماء، إذا بدَتْ للناسِ اهتَدَوْا بها، وإذا خَفِيَتْ عليهِم تحيَّروا.

وقالَ أبو الأسودِ الدُّؤَليّ[١]: ليسَ شيءٌ أعزَّ منَ العِلم. المُلوكُ حُكّامٌ علىٰ الناسِ والعُلماءُ حكّامٌ علىٰ الملوك.

وقالَ سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ[٢] رحِمَهُ اللّه: لم يُعطَ أحدٌ في الدنيا شيئاً أفضَلَ منَ النبُوَّة، وما بعدَ النبُوَّةِ أفضَلُ منَ العِلمِ والفِقه، فقيل: عمَّنْ هذا؟ قال: عنِ الفقهاءِ كلِّهم.

وقالَ الشافعيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن أرادَ الدنيا فعليهِ بالعِلم، ومن أرادَ الآخرةَ فعليهِ بالعِلم، فإنّهُ يُحتاجُ إليهِ في كلٍّ منهُما.

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: مَن لا يُحبُّ العِلمَ لا خيرَ فيه، فلا تكنْ بينَكَ وبينَهُ معرِفةٌ ولا صداقة، فإنّ العِلمَ حياةُ القلوبِ ومِصباحُ البصَائر. انتهىٰ.

قالَ فتحٌ المَوصِليُّ[٣] رحِمَهُ اللّه: أليسَ المريضُ إذا مُنِعَ الطّعامَ والشرابَ والدواءَ يموت؟ قالوا: بلىٰ، قال: كذلكَ القلبُ: إذا مُنِعَ الحِكمةَ

---

(١) أبو الأسود ظالم بن عمرو الدُّؤَلي الكناني (ت ٦٩هـ)، واضعُ علم النحو وأول من نقط المصحف. كان فقيهاً شاعراً فارساً، ولي إمارة البصرة أيام عليّ رضيَ اللّه عنه، وبها وفاته.

(٢) العلاّمة المفسّر الحافظ شيخ الإسلام أبو محمدّ سفيان بن عُيَيْنَةَ الهلالي الكوفي (١٠٧ ــ ١٩٨هـ)، محدِّث الحرم المكي. ولد بالكوفة، وسكن مكةَ وبها توفي. كان إماماً حجةً حافظاً واسعَ العلم كبير القدر. قال الشافعي: لولا مالكٌ وسفيان لذهب علم الحجاز.

(٣) الزاهد الولي العابد أبو نصر فتح بن سعيد الموصلي (ت ٢٢٠هـ)، أحد أكابر الأولياء، من أقران بشر الحافي. كان عظيم الشأن في باب الورع والمعاملات. وهو فتحٌ الصغير، وهناك فتحٌ الكبير، زاهد زمانه: فتح بن محمد الموصلي (ت ١٧٠هـ)، من أقران إبراهيمَ بن أدهم. وكلاهما من كبار المشايخ، رضيَ اللّه عنهما.

والعِلمَ ثلاثةَ أيامٍ يموت .

قالَ الإمامُ الغزاليّ : ولَقد صَدَقَ رحِمَهُ اللّه ، فإنّ غذاءَ القلبِ العِلمُ والحِكمة ، وبِهما حياتُه ، كما أنّ غذاءَ الجَسدِ الطعام ، ومَن فقَدَ العِلمَ فقلبُهُ مريضٌ وموتُه لازم ، ولكنّهُ لا يشعُرُ به ، إذ حُبُّ الدنيا وشغُلُهُ بها أبطلَ إحساسَه ، فنعوذُ باللّهِ من يومِ كشْفِ الغِطاءِ ، فإنّ الناسَ نِيام ، فإذا ماتوا انتَبهوا . انتهىٰ مُلخّصاً منَ «الإحياء» .

❋ ❋ ❋

قالَ سيّدُنا الإمامُ العلاّمةُ عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللّهِ بلفقيه رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا بهِ في «فتحِ بصائرِ الإخوان»[1] : اعلَمْ أنّ هذا الدِّينَ أوّلَهُ وآخرَه ، وظاهرَهُ وباطنَهُ : لا بدَّ فيهِ مِن علمٍ وعمَل ، فالعِلمُ ، وإن كانَ منهُ ما هُوَ وسيلة ، فهُوَ أصلُهُ ودليلُه ، وهُوَ للمؤمنِ وزيرُهُ وخليلُه ، وهُوَ ــ إلىٰ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرةِ ــ منهَجُهُ وسبيلُه ، بل هُوَ لمَن قصَدَ بهِ وجهَ اللّهِ وصَدَقَ فيهِ معَ اللّهِ أفضَلُ عبادة ، فما عُبِدَ اللّهُ بشيءٍ أفضَلَ مِن فقهٍ في الدِّين ، ولَفقيهٌ واحدٌ أشدُّ علىٰ الشيطانِ مِن ألفِ عابد ، وفضْلُ العالِمِ علىٰ العابدِ كفضْلِ النبيِّ ﷺ علىٰ غيرِه ، ومَن نالَ العِلمَ واتّقىٰ اللّهَ بهِ فقد نالَ أشرفَ منازِلِ الفضلِ والسّعادة ، ومَن يُرِدِ اللّهُ بهِ خيراً يُفَقِّهْهُ في الدِّين ، وخيرُ النّاسِ في الجاهليّةِ خِيارُهُم في الإسلامِ إذا فقُهوا . انتهىٰ .

وقالَ الإمامُ العارفُ باللّهِ أحمدُ بنُ حَسنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به : إذا اتّسعَ عِلمُ الإنسانِ اتّسعَتْ مَعرِفتُه ، وإذا اتّسعتْ مَعرِفتُهُ اتّسعَ مَشهَدُه ، وإذا اتّسعَ

---

(١) عنوانه كاملاً : «فتح بصائر الإخوان في دوائر الإسلام والإيمان والإحسان» ، طُبع بمصر قديماً .

مَشهدُهُ اتّسعَ شهودُه، وإذا اتّسعَ شهودُهُ اتّسعَ مدَدُه. انتهىٰ.

قالَ الإمامُ السُّيوطيُّ[١] رحِمَهُ اللّهُ في كتابِهِ «الإكليلِ»، في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. . الآيات: لمّا أرادَ اللّهُ إظهارَ فضْلِ آدمَ لم يُظهِرْهُ إلا بالعِلم، فلو كانَ في الإمكانِ شيءٌ أفضَلَ منَ العِلمِ كانَ إظهارُ فضلِهِ بذلكَ الشيء، لا بالعِلم، وكذلكَ أمَرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لهُ لأجلِ فضيلةِ العِلم.

وقالَ الطِّيْبيُّ[٢]: أفادتْ هذهِ الآيةُ أنّ عِلمَ اللغةِ فوقَ التحلّي بالعبادة، فكيفَ عِلمُ الشريعة؟ انتهىٰ.

فائدة:

ذكَرَ العلاّمةُ ٱبنُ القيِّمِ[٣] في «زادِ المَعاد»: أنّ العلمَ مِن أسبابِ شرْحِ الصّدر، قالَ: فإنّهُ يشرَحُ الصّدرَ ويوسِّعُهُ ويكونُ أوسعَ منَ الدنيا، والجهلُ يُورِثُهُ الضِّيقَ والحصْرَ والحبْس، فكلّما ٱتّسعَ عِلمُ العبدِ انشرحَ صدرُه واتّسع،

---

(١) الإمام الكبير حافظ عصره جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (٨٤٩ ـ ٩١١هـ)، فقيهٌ مفسِّرٌ لغويّ، برع في جُلّ علوم الإسلام، وبلغَ رتبةَ الاجتهاد، نافت تصانيفُه علىٰ السبعمئة.

(٢) الإمام البارع شرف الدين الحسين بن محمد الطِّيْبي (ت ٧٤٣هـ)، من أئمة الحديث والتفسير والبيان، كان آيةً في استخراج الدقائق من الكتاب والسُّنة، متواضعاً منفقاً ملازماً للتعليم. من أجلّ مؤلفاته: «شرح مشكاة المصابيح»، و«شرح كشّاف الزمخشري».

(٣) شمس الدين محمد بن أبي بكر الزُّرَعيّ الدمشقي الحنبلي المعروفُ بابن قيّم الجوزية (٦٩١ ـ ٧٥١هـ)، علاّمةٌ متفنن، لكنْ له في الاعتقاد وبعض الفروع آراءٌ تلقّاها عن شيخه ابن تيميّة، خالفَ بها رأيَ جماهير أهل السنة والجماعة.

وليسَ هذا لكلِّ عِلم، بلِ العِلـمُ المُورَّثُ عنِ الرسـولِ ﷺ، وهُوَ العِلمُ النافع، فأهلُـهُ أشرَحُ الناسِ صدراً، وأوسَعُهـم قلوباً، وأحسَنُهـم أخلاقـاً، وأطيَبُهـم عيْشاً.

قال: ومِن أسبابِ شـرْحِ الصّدرِ دَوامُ ذِكْرِ اللّهِ علىٰ كـلِّ حـالٍ وفي كـلِّ مَوطِـن، فللذِّكْرِ تأثيرٌ عجيبٌ في ٱنشراحِ الصّـدرِ ونعيمِ القلب، وللغَفلةِ تأثيـرٌ عجيبٌ في ضِيقِهِ وحبْسِهِ وعذابِه.

ومنهـا: الإحسـانُ إلـىٰ الخَلْـقِ ونفعُهـم بما يمكنُـهُ منَ المـالِ والجـاهِ والنّفـعِ بالبَدنِ وأنواعِ الإحسـان، فإنّ الكريـمَ المُحسِـنَ أشرَحُ النـاس صـدراً وأطيَبُهم نفْساً وأنعمُهـم قلبـاً، والبخيلُ الذي ليسَ فيهِ إحسانٌ أضيَـقُ النـاسِ صدراً وأنكدُهـم عيْشاً وأعظَمُهم همّاً وغمّاً.

ومنها: الشجاعةُ، فإنّ الشُّجـاعَ مُنشرحُ الصّـدرِ متّسعُ القلب، والجبانُ أضيـقُ الناسِ صدراً وأحصَرُهم قلباً، لا فرحةَ لهُ ولا سرورَ ولا لَذّةَ له ولا نعيمَ إلا مِن جنسِ ما للحيوانِ البهِيميّ، وأمّا سـرورُ الرُّوحِ ولَذّتُها فمحرَّمٌ علىٰ كلِّ جبان، كما هُوَ محرَّمٌ علىٰ كلِّ بخيل، واللّهُ أعلَم. انتهىٰ ملخَّصاً.

* * *

وللّهِ دَرُّ بعضِهم حيثُ يقولُ في مدحِ العِلمِ وذمِّ الجهل:

مَعَ العِلم فٱسلُكْ حيثُما سلَكَ العِلمُ ... وعنهُ فكاشِـفْ كـلَّ مَـن عنـدَهُ فَهْمُ

فـفيهِ جِلاءٌ للقـلوبِ مـنَ العَـمىٰ ... وعونٌ علىٰ الدِّينِ الذي أمرُهُ حتْمُ

فإنّـي رأيـتُ الجَهْـلَ يُـزرِي بأهلِـهِ ... وذا العِلمِ في الأقوامِ يرفَعُهُ العِلمُ

يُـعَدُّ صـغيرَ القومِ وهْوَ كـبيرُهمْ ... ويَنفُـذُ منـهُ فيهِـمُ القـولُ والحُكْـمُ

فأيُّ رجاءٍ في ٱمرِئٍ شابَ رأسُهُ ... وأفنـىٰ شبابـاً وهْـوُ مُستَعْجِـمٌ فَدْمُ

يروحُ وَيغدو الدَّهرَ صاحبَ بطنِهِ　　تراكَمَ في أحشائهِ الشَّحْمُ واللَّحمُ
إذا سئلَ المحرومُ عن حال أمْرِهِ　　بدَتْ رُحَضاءُ العِيِّ في وجهِهِ تَسمو
فهل أبصرَتْ عيناكَ أقبحَ منظَراً　　منَ الشَّخصِ لا عِلمٌ لديهِ ولا حِلْمُ
فخالِطْ رُواةَ العِلمِ واصْحَبْ خِيارَهُمْ　　فصُحبتُهمْ دِينٌ وخُلطتُهم غُنْمُ
ولا تَعدُوَنْ عيناكَ عنهُمْ فإنَّهُم　　نجومٌ: إذا ما غابَ نجمٌ بدا نجْمُ
فواللّهِ لولا اللّهُ ما اتّضحَ الهُدىٰ　　وما لاحَ مِن غيبِ السّماءِ لنا نجْمُ

وللإمامِ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ هذهِ الأبيات:

من لم يذُقْ ذُلَّ التعلُّمِ ساعةً　　تَجرَّعَ ذُلَّ الجهْلِ طُولَ حياتِهِ
ومَن فاتَهُ التعليمُ وقتَ شبابِهِ　　فكبِّرْ عليهِ أربعاً لوفاتِهِ
حياةُ الفتىٰ واللّهِ بالعِلمِ والتُّقىٰ　　إذا لم يكونا لا ٱعتبارَ لذَاتِهِ

وللّهِ دَرُّ القائل:

وكلُّ فضيلةٍ فيها سَناءُ　　وجدْتَ العِلمَ مِن هاتيكَ أَسنىٰ
فلا تعتَدَّ غيرَ العِلمِ ذخراً　　فإنَّ العِلمَ كَنزٌ ليسَ يَفنىٰ

وقالَ آخرُ:

رضِينا قِسمةَ الجبّارِ فينا　　لنا عِلمٌ وللجُهّالِ مالُ
فإنّ المالَ يفنىٰ عن قريبٍ　　وكَنزُ العِلمِ باقٍ لا يزالُ

وقالَ بعضُهم:

تعلَّمْ فإنَّ العِلمَ زَيْنٌ لأهلِهِ　　وفضْلٌ وعُنوانٌ لكُلِّ المَحامدِ
وكنْ مُستفيداً كلَّ يومٍ وليلةٍ　　منَ العِلمِ، وٱسبَحْ في بحورِ الفوائدِ
تفقَّهْ، فإنَّ الفِقهَ أفضَلُ قائدٍ　　إلىٰ البِرِّ والتقوىٰ و أعدَلُ شاهدِ
هوَ العَلَمُ الهادي إلىٰ سَنَنِ الهُدىٰ　　هوَ الحِصْنُ يُنجي مِن شرورِ الشدائدِ

وإنَّ فقيهـــاً واحـــداً متَـــورِّعـــاً ... أشدُّ علىٰ الشيطانِ مِن ألفِ عابدِ

وقالَ الآخرُ:

العِلـمُ مَغـرِسُ كلِّ فخـرٍ فاجتهدْ ... أنْ لا يفُوتَكَ فخرُ ذاكَ المَغرِسِ

وٱعلَـمْ بـأنَّ العِلـمَ ليسَ يَنـالُـهُ ... مَن هـمُّـهُ فـي مَطعـمٍ أو مَلبَسِ

وقالَ سيّدُنا أحمدُ بنُ عمرَ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنه:

لا شـيءَ كـالعِلـمِ قَـطُّ ... سِيـروا إليـهِ وحُطّـوا

فـي مجلِـسِ العِلـمِ سِرٌّ ... بِـهِ الـوِزْرُ عنّـا يُحَـطُّ

من يطلُبِ العِلمَ يَحظىٰ ... بُـــرتبَـــةٍ لا تُخَـــطُّ

والـرِّزقُ يـأتيـهِ سهْـلاً ... لو عَمَّ في النّاسِ قَحْطُ

والعِلـمُ حِصْـنٌ حَصيـنٌ ... مِن شرِّ مَن جاءَ يسطُو

لطـــالبيـــهِ بقَصـــدٍ ... لـم يمتـزِجْ فيه خَلْـطُ

يا جاهلاً قدْرَهُ اسمَعْ ... مـا مِثلُـهُ قَـطُّ قَـطُّ

إن شئتَ تَحظىٰ بشيءٍ ... منـهُ ويـأتِيـكَ قِسْـطُ

كـنْ فـي البكـورِ غُراباً ... وفـي التمَلُّـقِ قِـطُّ

ثـمّ احتَمِـلْ مثـلَ كلـبٍ ... وذا لِنُجْحِـكَ شَـرْطُ

وقالَ سيدنا الإمامُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينِ بنِ طاهرٍ[1] رضِيَ اللّهُ عنه:

---

(١) السيّد الإمام، الداعية الكبير، الحبيب عبد اللّه بن حسين بن طاهر، مولده بتريم سنةَ ١١٩١هـ، ووفاته بالمَسيلة سنةَ ١٢٧٢هـ. تلقّىٰ العلم عن علماء حضرموت وعدد من علماء الحرمَين، ونبغ حتىٰ صار من كبار العلماء، وجمع بين السَّعة في العلم وشدّة الصلاح والعبادة. أبلىٰ بلاءً حسناً في نشر العلم والإصلاح الاجتماعي ومحاربة الظلم وفساد الحكم. من مؤلّفاته «سُلّم التوفيق» و «ديوانُ شعر» و «مجموعٌ» فيه عدة مؤلفات ورسائل ومكاتبات. رحمه اللّه تعالىٰ ورضيَ عنه.

واطلُبِ العلمَ في صباحٍ وممسىٰ وبليلٍ وبالعِشىٰ والبُكورِ
إنَّ في العِلمِ كلَّ فوْزٍ ونُجح إنَّ في العِلمِ كلَّ خيرٍ ونُورِ
فبِهِ تعرِفُ الإلهَ وتعرِفْ كلَّ أمرٍ: في وِردِهِ والصُّدورِ

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ محمّدٍ الحَبشيُّ نفَعَ اللّهُ به:

وفي طلَبِ العِلمِ الشّريفِ توجَّهوا بجِدٍّ وتشميرٍ وتـرْكٍ لِمُعتادِ
ففي العلمِ نورٌ للفؤادِ وبهجَةٌ ومِيرادُهُ للعبدِ أحسَنُ مِيرادِ
بهِ يَعرِفُ الإنسانُ حقَّ إلهِهِ ويُهدَىٰ بهِ ضالٌّ ويَروىٰ بهِ الصّادي

ولبعضِهم هذهِ الأبيات:

العِلمُ أفضَلُ شيءٍ أنتَ ذاخِرُهُ فاطلُبْ هُدِيتَ فُنونَ العِلمِ والأدبا
كم ماجدٍ بطَلٍ آباؤُه نُجُبٌ كانوا الرؤوسَ فأمسىٰ بعدَهُم ذَنَبا
قد يجمَعُ المالَ شخصٌ ثم يُسلَبُهُ عمّا قليلٍ، فيَلقىٰ الذُّلَّ والحَرَبا
وصاحبُ العِلمِ مغبوطٌ بهِ أبداً ولا يُحاذِرُ منهُ الفَوْتَ والسَّلَبا
يا جامعَ العِلم، نِعمَ الذُّخرُ تجمَعُهُ لا تَعدِلَنَّ بهِ دُرّاً ولا ذَهَبا

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع
في أنّ قليل العلم خيرٌ من كثير العبادة

عن أبي أُمامـةَ الباهِليِّ رضيَ اللّه عنه قال: ذُكِرَ لِرَسـولِ اللّهِ ﷺ رجُلان: أحدُهمـا عابِدٌ والآخَرُ عالِمٌ، فقـالَ رسـولُ اللّهِ ﷺ: «فضلُ العالِمِ علىٰ العابِدِ كفَضلي علىٰ أدناكُم»[٢].

وقالَ ﷺ: «بينَ العالِمِ والعابدِ مئةُ دَرَجة، بينَ كُلِّ دَرَجتَينِ حُضْرُ الجوادِ المُضَمَّرِ[٣] سبعِينَ سنة»، ذكره في «الإحياء»[٤].

---

(١) ترجمة الفصل هذه هي نصُّ حديثٍ أخرجه ابنُ عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١ : ٢١) وغيره، من حديث عبد اللّه بن عمرو رضي اللّه عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب.

(٣) حُضْرُ (بالضم): عَدْو، جَرْي. الجواد المُضَمَّر: هو الذي يُعلَف حتىٰ يسمن، ثم لا يُعلَف إلا قوتاً ليَخِفّ. وقيل: يُشَد عليه السرج ويُجَلَّل بالأجِلّة حتىٰ يعرقَ فيذهبَ رَهَلُه ويشتدَّ لحمُه. والمقصود أنه من أقوىٰ الجياد عدواً وأسرعها. تُنظر «النهاية» لابن الأثير (١ : ٣٩٨، ٣ : ٩٩).

(٤) قال الحافظ العراقي في «تخريجه»: (١ : ٧): [أخرجه] الأصفهاني في «الترغيب والترهيب» من حديث ابن عمر عن أبيه وقال: سبعون درجة، بسندٍ ضعيف، وكذا رواه صاحب «مسنَد الفردوس» من حديث أبي هريرة [«الفردوس» ٣: ١٢٨].

وورَدَ أيضاً مرفوعاً: «مجلِسُ فِقهٍ خيرٌ مِن عبادةِ سِتِّينَ سَنة»[١].

وعنه ﷺ: «خَيرُ دينِكم أيسَرُه»، و«خيرُ العِبادةِ الفِقهُ»[٢].

وعن أبي ذَرٍّ رضيَ اللّهُ عنه قال: قال لي رسولُ اللّهِ ﷺ: «يا أبا ذَرّ، لأَنْ تَغدُوَ فتَعلَّمَ آيةً مِن كتابِ اللّهِ خَيرٌ لكَ مِن أن تُصلِّيَ مئةَ ركعة، ولأَنْ تَغدُوَ فتُعلِّمَ باباً مِن العِلمِ عُمِلَ به أو لم يُعمَلْ خيرٌ مِن أن تُصلِّيَ ألفَ ركعة»[٣].

وعن أبي ذَرٍّ وأبي هُرَيرةَ رضيَ اللّهُ عنهُما قالا: بابٌ مِنَ العِلم نتعَلَّمُه أحبُّ إلينا مِن مئةِ رَكعةٍ تطوُّعاً، وبابٌ مِن العِلمِ نُعلِّمُه عُمِلَ بهِ أو لم يُعمَلْ أحَبُّ إلينا مِن مئةِ ركعةٍ تطوُّعاً[٤].

* * *

وقد ظهرَ بما ذكرناهُ أنّ الاشتغالَ بالعِلم للّهِ أفضَلُ مِن نَوافِلِ العِباداتِ البَدَنيةِ مِن صلاةٍ وصِيامٍ وتَسبيحٍ ودُعاءٍ ونحوِ ذلك؛ لأنّ نفعَ العِلمِ يَعُمُّ صاحِبَه

---

(١) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٥: ١٧٦) من حديث ابن عمر رضي اللّه عنهما، بسندٍ ضعيف.

(٢) أخرج الأولَ أحمد في «مسنده» (٥: ٣٢) من حديث مِحْجَن بن الأدرع، بإسنادٍ جيّد، وأخرج الثانيَ الطبرانيُّ في «الصغير» (٢: ٢٥١) من حديث ابن عمر، بسندٍ ضعيف. قاله الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١: ٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٩) بإسنادٍ حسن كما قال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (١: ١٢٥).

(٤) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٨: ٢١٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩: ٢٤٧)، لكن بلفظ: «ألف ركعة» في الجملة الأولىٰ منه.

والناسَ، والنوافِلُ البَدَنيةُ مَقصُورةٌ علىٰ صاحِبها، ولأنّ العلمَ مُصَحِّحٌ لِغَيره مِن العبـادات، فهيَ تَفتَقِرُ إليهِ وتَتوقّـفُ عليهِ ولا يَتوقّفُ هوَ عليهـا، ولأنّ العُلماءَ وَرَثةُ الأنبيـاءِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسّلام وليسَ ذلكَ للمُتعبِّدِين، ولأنّ طاعةَ العالِم واجِبـةٌ علىٰ غَيـرِه فيه، ولأنّ العِلـمَ يَبقـىٰ أثَرَهُ بعـدَ مَوتِ صاحِبـه، وغيرُهُ مِنَ النوافِلِ تَنقَطِعُ بمَوتِ صاحِبِها، ولأنّ في بقاءِ العِلمِ إحياءَ الشريعةِ وحِفظَ مَعالِمِ المِلَّة. انتهىٰ. ذكرَ ذلك ابنُ جماعةَ في «تذكرتِه».

وممّا يـدُلُّ أيضاً علىٰ رُجحـانِ العِلـم وأفضَلِيتِـهِ علـىٰ سائـرِ العِبـاداتِ القاصِـرةِ ما ذكَـرَهُ ابنُ الحـاجِّ المالِكيُّ[1] في كتابِـه «المَدخَـل»، قـال رحمَـهُ اللّه: وردَ في الحديثِ عنه ﷺ أنه قال: «ما أعمالُ البرِّ في الجِهـادِ إلاّ كبَصْقةٍ في بَحْـر، وما أعمـالُ البِـرِّ والجِهادِ في طَلَبِ العِلـمِ إلاّ كبَصْقـةٍ في بَحْر»[2]. انتهىٰ.

وكانَ الإمامانِ سُفيـانُ الثّـورِيُّ[3] والشافعـيُّ يقولانِ: ليـسَ شَـيءٌ بعدَ

---

(١) الإمـام العلاّمـة الصالح العـارف أبو عبد اللّه محمد بن محمـد بن محمـد العبـدري المالكي الفاسي، المعروف بابن الحاجّ (ت ٧٣٧هـ)، نزيلُ مصر. تفقّه بفاس، ثم نزل مصر، وحج. صحب العارف الكبير أبا محمـد بنَ أبي جمـرة مختصِـر البخاري وشارحه. توفي بالقاهرة. وكتابه «المدخل» كثير الفوائد كما قال الحافظ ابن حجر، وهو مطبوع.

(٢) ورد نحوه بلفـظ: «. . كنفْثةٍ في بحرٍ لُجّـي» لكـنْ في الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر لا طلب العلم، أخرجه علي بن معبد في كتابه «الطاعة والمعصية» مرسلاً أو معضلاً. قاله العراقي في «تخريج الإحياء» (٢ : ٣٠٨).

(٣) الإمام العَلَم شيخ الإسلام، أمير المؤمنين في الحديث، أبو عبد اللّه سفيان بن سعيد الثـوري الكوفي (٩٧ ــ ١٦١هـ)، سيّد أهـل زمانـه علماً وحفظاً وزهـداً. قـال ابن المبارك: لا أعلمُ علىٰ وجه الأرض أعلمَ من سفيان.

الفرائـضِ أفضَلَ مِن طلَبِ العِلـم. وكان سيِّدُنـا الإمامُ أبو جعفـرٍ محمّدٌ الباقرُ رضيَ اللّه عنه يقـول: عالمٌ يُنتفَعُ بعلمِـه أفضـلُ مِن ألفِ عابد[١]. وقال سيِّدُنا الإمـامُ أحمـدُ بـنُ زَيـنٍ الحَبَشـيُّ رضـيَ اللّهُ عنـه: مسـألـةٌ مِن العِلـم خَيـرٌ من مئـةِ عِبـادة، ومَـن يَطلبُ العلمَ خَيرٌ ممّن يَجتَهِدُ في العِبادةِ ليلَه ونَهارَه. وقال نفـعَ اللّهُ به: ساعـةٌ مِنْ عالمٍ خَيرٌ مِن كذا وكذا سَنـةً مِن غَيـرِهِ ولو كان عابِداً. انتهىٰ.

فتأمّلْ رَحِمَك اللّهُ هذه النصُوصَ والأدلةَ والآثارَ تَعرِفْ مِن ذلك أنّ العِلمَ ـ أي: تعلُّمَه وتعلِيمَه ـ أرفعُ وأفضَـلُ مِن سائِرِ الأعمـالِ التي يُتقَرَّبُ بها إلىٰ اللّهِ تعـالىٰ ربِّ البَريّات، فهُوَ مِن أعظم العبـادات، والفضائـلِ المُستجادات، وأنّ الاشتِغـالَ به من أفضَـلِ الطاعات، وأَولىٰ ما أُنفِقَتْ فيهِ نفائسُ الأوقات، وأنّ العُلماءَ أفضَلُ الناسِ وأرفعُهم قَدْراً وأحسَنُهم ذِكْراً وأشرَفُهم فَخْراً.

قال الإمامُ الحَسَنُ البَصريُّ رحمَهُ اللّه: صَريرُ قَلَمِ العالِمِ تَسبيحٌ، وكِتابةُ العِلمِ والنظَـرُ فيهِ عِبـادةٌ، ومِدادُه كَدَمِ شَهِيـد، وإذا قـامَ مِن قَبرِه نظَرَ إليه أهلُ الجَمْع، ويُحشَرُ معَ الأنبياء. انتهىٰ.

قـالَ في «بَهْجةِ الزمان»[٢]: وكان سيِّدُنـا الإمـامُ الجَليـلُ أحمدُ بنُ زَينٍ الحَبَشيُّ رضيَ اللّهُ عنه ونفعَنا به، يُعظِّمُ العِلمَ الغايةَ والنهايةَ، ويُثني علىٰ أهلِه غايةَ الثناء، ويُكرِمُهم ويُبَجِّلُهُم غايةَ التبجيلِ والإكرام، ويُشِيرُ إلىٰ أنّ الخَيرَ كلَّه في طَلَبِ العِلم، وأنّ ساعةً منه تَعدِلُ عِبادةَ العُمْر. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه عنه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣: ١٨٣).

(٢) كتاب «بهجة الزمان وسَلْوة الأحزان في ذكر طائفةٍ من الأعيان والأصحاب والأقران» للإمام الحبيب محمد بن زين بن سُمَيط، ألّفه في تراجم أقران وتلامذة شيخه الإمام عبد اللّه بن علوي الحدّاد، والكتاب طُبع في مصر.

وعن أبي هريـرةَ رضيَ اللّهُ عنه: لأنْ أُعلِّمَ بابـاً مِنَ العِلمِ في أمرٍ أو نَهْيٍ أَحَبُّ إليَّ مِن سَبعِينَ غَزوةً في سَبيلِ اللّه.

وسئلَ سيِّـدُنا الإمامُ سُفيانُ الثَّوريُّ رحمَـه اللّهُ عنِ الرَّجُـلِ يَغزُو: أحَبُّ إليكَ أو يتعلَّمُ القرآن؟ فقال: يتعلَّمُ القرآن؛ لأنّ النبيَّ ﷺ قال: «خَيرُكُم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَه»[١]. انتهىٰ.

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) وغيره، من حديث عثمان بن عفّان رضيَ اللّه عنه.

الفصل الخامس
في فضل طلبة العلم والمتفقّهين في الدين

عن أنسٍ رضِيَ اللّهُ عنه قـال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «مَن خَرَجَ في طلَبِ العِلمِ فهُوَ في سبيلِ اللّهِ حَتّىٰ يَرجِعَ»[١].

وقال ﷺ: «مَن غَدا إلىٰ المسجدِ لا يريدُ إلاّ أنْ يَتعلَّمَ خيراً أو يُعلِّمَ كانَ لهُ كأجرِ حاجٍّ تامّةٍ حَجّتُه»[٢].

وعن ابنِ عبّاسٍ رضـيَ اللّهُ عنهُمـا قال: قالَ النبيُّ ﷺ: «الغُدُوُّ والرَّواحُ في تعلُّمِ الدِّينِ خَيرٌ عِندَ اللّهِ تعالىٰ مِنَ الجِهادِ في سَبيلِه»[٣].

وقالَ عليهِ الصّلاةُ والسلام: «مَن تَفَقَّـهَ في دِينِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ كفاهُ اللّهُ ما أهَمّه، ورَزَقَهُ مِن حَيثُ لا يَحتَسِبُ»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧) وقال: حديثٌ حسنٌ غريب.

(٢) رواه الطبراني في «الكبير» (٨: ١١١ برقم ٧٤٧٣) والحاكم في «المستدرك» (١: ٩١)، من حديث أبي أمامةَ رضيَ اللّه عنه، بإسنادٍ لا بأسَ به كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١: ١٣٨)، وقال في «المجمع» (١: ١٢٣): رجاله موثقون كلهم.

(٣) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (٣: ١٠٩).

(٤) رواه الإمام أبو حنيفةَ من حديث عبد اللّه بن الحارث بن جَزْء الصحابي رضي اللّه عنه، «مسند أبي حنيفة» (١: ٢٥).
=

وردَ في الأثَر: «إنّ اللّهَ تَـكفَّلَ لطالِبِ العِلمِ برِزقِه».

قال سيِّـدُنا الحبيـبُ عبدُ اللّهِ بْنُ عَلَويّ الحـدّاد نفـعَ اللّهُ بـه: هذا تكفُّلٌ خاصٌّ بعدَ التكفُّلِ العامِّ الذي تَـكفَّلَ اللّهُ به لكلِّ دابّةٍ في الأرض، فيكونُ معناهُ زيادةَ التيسِير، ورَفْعَ المُؤنةِ والكُلْفةِ في طَلَبِ الرِّزقِ وحُصُولِه. انتهىٰ.

ومِن كـلامِ سيِّدِنا العارفِ باللّهِ الحبيبِ أحمدَ بْنِ زَيْنٍ الحَبَشيِّ نفعَنا اللّهُ به: إذا كانَ للإنسـانِ فَهْمٌ في العِلمِ ومَنَحَهُ اللّهُ هِمّةً في طَلَبِهِ فذلكَ أقوىٰ سَببٍ لحُصُولِ الرِّزق، ولا أنفعَ له مِن ذلك ــ أعني: طلبَ العِلم ــ فيَنبغِي أنْ يَصرِفَ هَمَّه في طَلَبِه ولا يَتكلَّفَ طلبَ رِزقِه، فسوفَ يُـكفىٰ ويُساقُ إليه؛ لأنّ اللّهَ تكفَّلَ لطالبِ العِلمِ برِزْقِه. انتهىٰ.

قلتُ: ومِن أقوىٰ الأسبابِ الجالِبةِ للرِّزقِ أيضاً كما ذكَرَهُ العارِفونَ إقامةُ الصّلاةِ بالتعظِيم والخُشُـوع، وقـراءةُ سُورةِ الواقِعة، خُصُوصاً بالليل، وسُورةِ يَسٓ و﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ وقـتَ الصُّبْـح، وحُضُورُ المسجِـدِ قبـلَ الأذان، والمداومـةُ علىٰ الطهارة، وأداءُ سُنّةِ الفَجْـرِ والوِتْرِ في البَيت، وعِمارةُ ما بعدَ صلاةِ الصُّبـحِ إلىٰ طُلُوعِ الشمسِ عُكُوفاً في المسجِد، وقولُ: (يا كافي يا مغني يا فتّاحُ يا رزّاق) بالتكرير.

وعن الإمامِ الشافعيِّ رحمَهُ اللّه: أربعةٌ تَجلِبُ الرِّزقَ: قِيامُ الليل، وكثرةُ الاستِغفارِ بالأسحار، وتعاهُدُ الصَّدَقة، والذِّكرُ أوّلَ النهارِ وآخِرَه. وأربعةٌ تَمنَعُ الرِّزقَ: نومُ الصُّبْحة، وقِلّةُ الصّلاة، والكَسَل، والخِيانة. انتهىٰ.

قلتُ: نومُ الصُّبْحةِ، أي: نومُ الغَداة.

وممّا يَمنَـعُ الرِّزقَ أيضـاً: كثرةُ النـوم، والأكلُ والشـربُ جُنُبـاً، وكَنسُ البَيـتِ في الليل، وتَركُ القُمامـةِ في البيت، والمشيُ قُدّامَ المشايخ، والخِلالُ بكلِّ خَشَبـة، وغَسـلُ اليدَينِ بالطِّيـن، والجُلُـوسُ علىٰ العَتَبـة، والوُضُوءُ في

المَبْـرَز، وخِياطةُ الثوبِ علىٰ جَسَـدِه، وتَجفِيـفُ الوَجـهِ بالثوب، وتركُ نَسْجِ العنكَبُوتِ في البَيت، والتهاوُنُ بالصّلاة، وإطفاءُ السِّراجِ بالنَّفَس، وتركُ الدُّعاءِ للأبوَيـن، كلُّ ذلك يُورِثُ الفقـرَ، عُرِفَ ذلك بالآثـار. ذكرَ ذلك نَصِيـرُ الدِّين الطُّوسِيُّ[١] في كتابِ «آدابِ المتعلِّمِين».

❋ ❋ ❋

---

(١) أبو جعفـر نصيـر الدين محمـد بن محمـد بن الحسـن الطُّوسـي (٥٩٧ ــ ٦٧٢هـ)، فيلسـوفٌ وعلاّمةٌ في العلوم العقليـة والأرصـاد والرياضيات والمجسطي، وله عدةُ مؤلفاتٍ جليلة. توفي ببغداد.

الفصل السّادس
في الحثّ على سؤال العلماء العاملين والاستزادة من العلم على الدّوام

قالَ اللّهُ تباركَ وتعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فهذهِ الآيةُ الكريمةُ جمعَتْ بينَ الحَثِّ علىٰ التعلُّمِ والتعلِيم، والأمرِ بالتفقُّهِ في الدِّينِ القَويم.

وقالَ اللّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ في الحثِّ علىٰ سُؤالِ العُلماءِ العامِلينَ فيما أشكلَ علىٰ الإنسانِ مِن أمورِ الدِّين: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

قالَ الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ نفَعَ اللّهُ به: السؤالُ مِفتاحٌ يُتوَصَّلُ بهِ إلىٰ ما في الصُّدُورِ والقُلوبِ مِن معاني العُلُومِ وأسرارِ الغُيُوب، فكما أنهُ لا يُوصَلُ إلىٰ ما في البيوتِ منَ الأمتعةِ والنفائسِ إلا بالمفاتيحِ المتَّخَذةِ منَ الحديدِ والخَشَب؛ كذلكَ لا يُوصَلُ إلىٰ ما عندَ العُلماءِ العارِفينَ مِنَ العلومِ والمعارِفِ إلا بالأسئلةِ المتَّخَذةِ مِن طَلَبِ الاستِفادةِ مقرُوناً بالصِّدقِ والرَّغبةِ وحُسْنِ الأدب.

ثم ذَكرَ عنِ الإمامِ سفيانَ الثَّورِيِّ رحِمَهُ اللّه أنهُ كانَ يُبادِرُ بالرَّحِيل مِن كلِّ

بلدةٍ دخَلَها ولم يسألْـهُ أحدٌ مِن أهلِهـا عن شـيءٍ منَ العِلـم، ويقول: هذا بلدٌ يموتُ فيهِ العِلم.

وكانَ الشِّبْلِيُّ[١] رحِمَـهُ اللّهُ إذا جلَسَ في حَلْقتِهِ ولم يَسألْهُ أحدٌ يتلُو قولَهُ تعالىٰ: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

وعنِ النبيِّ ﷺ قال: «العِلمُ خزائـن، مفاتيحُها السؤال، ألا فاسألوا فإنهُ يُؤجَـرُ فيهِ أربعـة: السائل، والعالِم، والمُستَمـع، والمُحِـبُّ لهُم»[٢]، ووردَ مرفوعاً: «حُسْنُ السؤالِ نِصفُ العِلم»[٣].

فعُلِمَ ممّا مرَّ أنهُ يَتعيَّنُ علىٰ كلِّ مَن لم يَعلَـمْ أنْ يَسـألَ أهـلَ الذِّكْر، وهُمُ العلمـاءُ العامِلُونَ الناصِحُـونَ للّهِ ولرسولِهِ ولعامّـةِ المؤمنيـن، ولْيَحذَرْ مِن أنْ يَسـأَلَ عن دِينِه مَن ليسَ بهذا الوصـفِ منَ العلمـاءِ ممّن يطلُـبُ بعِلمِـهِ الدُّنيـا ويتَّخِـذُه مِصيَدةً وشَبَكةً لجَمْعِ حُطامِها، فاحْذَرْ منهُ وفِرَّ فِرارَكَ منَ الأسد، فإنّ ضَرَرَهُ عليكَ أكثرُ مِن نَفْعِـهِ لكَ؛ لأنّ مَنْ لم يُؤمَـنْ علىٰ دِينِ نفْسِهِ فكيفَ يُؤمَنُ علىٰ دِينِ غيرِه! فٱفْهَم.

وكانَ محمّـدُ بنُ سِيرِيـنَ[٤] ومالكُ بنُ أنـسٍ رَحِمَهما اللّهُ يقولان: «هذا

---

(١) العارف الكبير، شيخ الطائفة، أبو بكر دُلَـف بن جَحْـدَر الشبلـي البغـدادي (٢٤٧ ـ ٣٣٤هـ). قال السلمي في «طبقاته» ص٣٣٧: تاب في مجلس خيرِ النسّاج، وصحب الجنيـد ومَن في عصـره من المشايخ، وصار أوحدَ وقته حالاً وعلمـاً. وكان عالماً، فقيهاً علىٰ مذهب مالك.

(٢) أخرجـه أبو نعيـم في «الحلية» (٣: ١٩٢) من حديث علـي رضيَ اللّه عنـه مرفوعاً بإسنادٍ ضعيف كما قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١: ٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «شُعَب الإيمان» (٥: ٢٥٥) من حديث ابن عمر رضيَ اللّه عنهما، وضعّف إسنادَه.

(٤) الإمام التابعـي الجليل أبو بكـر محمد بن سيريـن الأنصاري البصري مولىٰ أنس بن =

العِلمُ دِين، فانظُرُوا عمّن تأخُذُون دِينَكم».

وقالَ سيِّدُنا القُطبُ أحمدُ بنُ زينٍ الحَبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: علامةُ العالِم المأمُون ــ أعني مَن تريدُ أخْذَ دينِكَ عنه ــ أن يكونَ خائفاً مِن ربِّه، وعلامةُ خَوفِهِ ظُهُورُه ــ أي: الخَوفِ ــ في أعمالِه، فمَن رأيتَ عليهِ هذِهِ العلامةَ فخُذْ دِينَكَ مِنه، وقلِّدْهُ في جميعِ ما جاءَ بِه، وإنْ لم تَجِدْهُ هكذا فدَعْهُ ولا تَقْتَدِ بِه، ولكنْ لا تُسِيءِ الظنَّ بِهِ لكونِكَ لم تَرَ عليهِ الخَوفَ الذي هُوَ شرطُ العِلم، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، ولا تقطَعْ بهَلاكِهِ لشُهُودِكَ فيهِ قِلّةَ الخَوف، فإنّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ لم يُؤتِهِ العِلمَ ويُرِدْ هَوانهُ وإضرارَه بالعِلم. وأيضاً فلا يَعرِفُ كونَ العالِمِ لم يعمَلْ بعِلمِهِ إلا عالمٌ آخر؛ لأنّ القاصِرَ لم يعلَمْ حقيقةَ العِلم حتىٰ يَحكُمَ بُوجودِه وعَدَمِه، فلا يَصِحُّ ولا يُقبَلُ منهُ الإنكارُ بحال، وأيضاً فلا يُصدَّقُ عالِمٌ في عالِمٍ آخرَ إلا إن كانَ عالِماً وَرِعاً تقيّاً ولم يكنْ قصدُهُ إلا النُّصحَ للّهِ وللمسلِمين، فحينَئذٍ يُصدَّقُ في عالِمٍ آخر. انتهىٰ. مِن «قُرّةِ العَين» للحبيبِ العلاّمةِ محمدِ بْنِ زَيْنِ بنِ سُمَيْطٍ نفعَ اللّهُ به[1].

***

وقالَ اللّهُ تعالىٰ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، أمَرَهُ بطلَبِ الزيادةِ منَ العِلم، إذ هُوَ أشرفُ الخِصالِ وأرفَعُ الخِلال، ولا يُحِبُّه إلا ذُكرانُ الرِّجال، ولا يكرَهُهُ إلا السّفَهاءُ والأنذال، وهُوَ الكمالُ الذي ينبغي طلَبُ المَزيدِ منه، والكَنزُ الذي لا يُستغنىٰ عنه. وكانَ مِن دُعائِهِ صلّىٰ اللّهُ عليهِ وآلِهِ

= مالكٍ رضيَ اللّه عنه. كان ــ مع إمامته في العلم والفقه والحديث ــ آيةً في الورع، بارعاً في تعبير الرؤىٰ.

(١) «قرّة العين وجلاء الرَّين في ترجمة الحبيب أحمد بن زين» مخطوط، ولعله يصدر قريباً بإذن اللّه ضمن منشورات (دار العلم والدعوة) بتريم.

وسلَّم: «اللهُمَّ انفَعْني بما عَلَّمتَني، وعَلِّمْني ما يَنفَعُني، وزِدْني عِلماً»[١].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسّلام: «إذا أتىٰ علَـيَّ يومٌ لا أزدادُ فيهِ عِلْماً يُقرِّبُني إلىٰ اللّهِ عزَّ وجَلَّ فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذلكَ اليوم»[٢].

فالمُؤمنُ العاقلُ اللبيبُ الفاضلُ كلَّما ٱزدادَ عِلماً ٱزدادَ طَلَباً وتعطُّشاً.

وفي الحدِيثِ عنهُ عليـهِ الصّـلاةُ والسّلام: «لَنْ يشبَعَ المُـؤمنُ مِن خَيرٍ يَسمَعُهُ حتىٰ يكونَ مُنتهاهُ الجنةَ»[٣]، و «مَنهُومانِ لا يَشبَعان: منهومٌ في عِلمٍ لا يشبع، ومنهومٌ في دُنيا لا يشبع»[٤].

قال سيِّدُنا الإمامُ عَيدَرُوسُ بنُ عُمرَ الحَبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ العارفِينَ باللّهِ لا يَزالونَ يتلهَّفـونَ ويطلُبونَ المزيـدَ ولو نالـوا ما نالوا وأُعطوا ما أُعطوا، فأبصـارُهُم طامِحةٌ لِمَا لا يتناهـىٰ ولا يُحـاطُ بِهِ ما بَقِيَـتِ الدنيـا، بل سَيرُهُم وتَشمِيرُهم في طلَبِ المَقصِد، وهذا لا يَنتهِي حتىٰ في الآخِرةِ دارِ الجَزاء، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩]، حتىٰ إنّ بعضَ الأكابـرِ لمّا قِيـلَ لـه: قالَ فـلان: شـربـتُ حتىٰ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٩٩) وابن ماجه (٢٥١) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦: ٣٦٧) وأبو نُعيم في «الحلية» (٨: ١٨٨) من حديث السيدة عائشةَ رضيَ اللّه عنها، بسندٍ ضعيف كما قال العراقي في «تخريج الإحياء» (١: ٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٦) من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضيَ اللّه عنه، وقال: حديثٌ حسنٌ غريب.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١: ٩٢) من حديث أنس رضي اللّه عنه، وقال: صحيحٌ على شرط الشيخين. وهو عند الطبراني في «الكبير» (١٠: ٢٢٣) من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه.

رَوِيتُ، قال: قولوا له: غيرُكَ شَرِبَ ماءَ البِحارِ وهُوَ عَطْشانٌ إلىٰ الآنَ لم يَزَلْ فاغِراً فاهُ يتلهَّفُ يطلُبُ المزيد. انتهىٰ. مِنَ «النهرِ المَورود».

فائدة:

ثبتَ في «صحيحِ البُخاريِّ»[١] أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ آخىٰ بينَ أبي الدَّرداءِ وبينَ سَلمانَ الفارسيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُما. قالَ النَووِيُّ في «تهذيبِ الأسماء»: وكانَ أبو الدَّرداءِ قد سكنَ الشام، فكتبَ إلىٰ سَلمان: أمّا بعد، فإنّ اللّهَ قد رَزَقَني بعدَكَ مالاً وولداً، ونزلتُ الأرضَ المقدَّسة. فكتبَ إليهِ سلمان: سلامٌ عليك، أمّا بعد، فإنّكَ كتبتَ إليَّ أنّ اللّهَ رَزَقَكَ مالاً وولداً، فاعلَمْ أنّ الخيرَ ليسَ بكثرةِ المالِ والوَلَد، ولكنّ الخيرَ أن يكثُرَ حِلمُك وأنْ يَنفَعَكَ عِلمُك. وكتبتَ إليَّ أنكَ بالأرضِ المقدَّسة، وإنّ الأرضَ لا تقدِّسُ أحداً[٢]. وإنما يقدِّسُ كلَّ إنسانٍ عمَلُه.

لقد صدقَ سَلمانُ رضِيَ اللّهُ عنه، فإنّ العِلمَ ميراثٌ نبويٌّ يتوارثُهُ الأولياءُ والعُلماءُ والأخيار، والمالَ غادٍ ورائح، ظِلٌّ زائلٌ وحالٌ حائل، ولا يَفتخِرُ بهِ ذوو المُرُوءاتِ والأقدار.

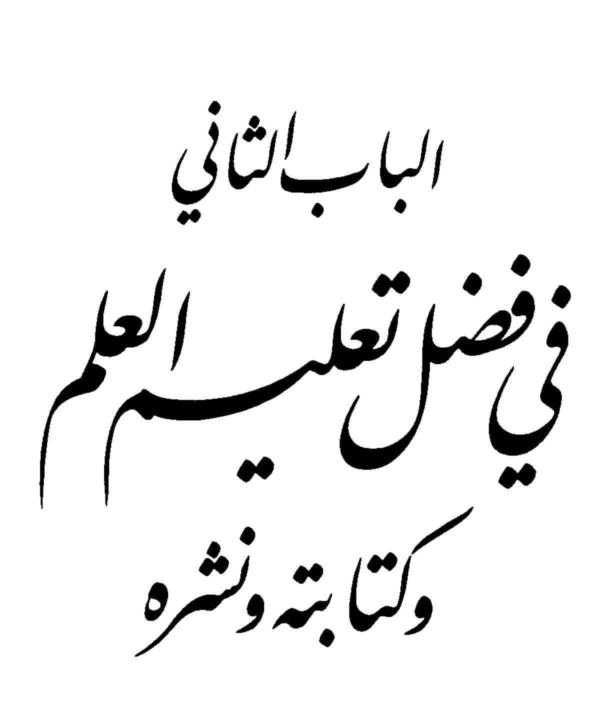
وقد ورَدَ أنّ الدنيا يُعطِيها اللّهُ مَن يُحبُّ ومَن لا يُحبّ[٣]، ولا يُعطي العِلمَ إلا مَن يحبُّه منَ الأبرار، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦٨) من حديث أبي جُحيفةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» للإمام النووي (١ : ٢٢٧).

(٣) ففي الحديث الذي أخرجه الإمامُ أحمد في «مسنده» (١ : ٣٨٧) وغيرُه؛ عن ابن مسعود رضيَ اللّه عنه مرفوعاً: «إن اللّه قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن اللّه عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدِّين إلا لمن أحب، فمن أعطاه اللّه الدِّين فقد أحبَّه...».


الباب الثاني
في فضل تعليم العلم
وكتابته ونشره

وفيه ثلاثة فصول:

الأول: في فضل تعليم العلم وبذله.

الثاني: في فضل كتابة العلم والتأليف فيه.

الثالث: في حرمة منع العلم وكتمانه.

الفصل الأوّل
في فضل تعليم العلم وبذله

اِعلَمْ أنّ مِن أجَلِّ ثمرَاتِ العِلمِ وفوائدِه تعليمَهُ وبذْلَهُ للناس، فذلكَ مِن أفضلِ القُرُبات، الموصِلةِ إلىٰ أرفعِ المقامات، ويكفي في شرفِ ذلك قولُ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلام: «إنّما بُعِثتُ مُعلِّماً»(١).

وقالَ عيسىٰ عليه السلام: مَن تعلَّمَ وعمِلَ وعلَّمَ يُدعىٰ عظيماً في مَلَكوتِ السماوات(٢).

فينبغي للعالِمِ أن يعمَلَ بعِلمِهِ أَوّلاً، ثمّ يعلِّمَ غيرَهُ لكي ينتفِعَ ذلكَ الغيرُ به، فيبقىٰ لهُ الأجْرُ ويستمرُّ لهُ الثواب ما دامَ يُنتفَعُ بعِلمِهِ إلىٰ يومِ المَآب.

وقال رسولُ اللّه ﷺ: «إنّ ممّا يلحَقُ المؤمنَ مِن علمِهِ وعمَلِهِ وحسَناتِهِ بعدَ موتِهِ عِلماً عَلَّمَهُ ونشَرَه»(٣).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩) والدارمي (٣٥٥) من حديث عبد اللّه بن عمرو رضيَ اللّه عنهما، وضعّف إسناده الحافظ البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١ : ٩٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» ص٥٩ وأبو نعيم في «الحلية» (٦ : ٩٣) عن ثور بن يزيد قال: قال عيسىٰ بن مريم عليه السلام. . . فذكره.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٤٢) وابن خزيمة (٤ : ١٢١) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه: بإسنادٍ حسن كما قال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ : ٥٥). =

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسّلام: «إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطَعَ عمَلُهُ إلا مِن ثلاث: صدَقةٍ جارِية، أو عِلمٍ يُنتفعُ به، أو ولَدٍ صالحٍ يَدعو له»[١].

قالَ بعضُ المُحقّقين: إذا تأمّلتَ الحديثَ المذكورَ وجَدتَ معانيَهُ الثلاثةَ موجودةً في مُعلِّمِ العِلم: أمّا الصّدَقةُ، فإقراؤهُ إياهُ وإفادتُه، ألا ترىٰ إلىٰ قولهِ ﷺ في المُصلّي وحدَه: «مَن يتصَدَّقُ علىٰ هذا»[٢]؟ أي: بالصّلاةِ معَهُ لتحصُلَ لهُ فضيلةُ الجماعة، ومُعلِّمُ العِلمِ يُحصِّلُ للطالبِ فضيلةَ العِلمِ التي هِيَ أفضَلُ مِن صلاةٍ في جماعة، ويَنالُ بها شرَفَ الدنيا والآخرة. وأمّا العِلمُ المنتفَعُ بهِ فظاهر؛ لأنّهُ كانَ سبباً لإيصالِ ذلكَ العِلمِ إلىٰ كلِّ مَنِ انتفَعَ به. وأمّا الدُّعاءُ الصالحُ لهُ فالمُعتادُ المُستقرأُ علىٰ أَلْسِنةِ أهلِ العِلمِ والحديثِ قاطبةً منَ الدُّعاءِ لِمَشايخِهم وأئمّتِهم. وبعضُ أهلِ العلمِ يَدعُونَ لكلِّ مَن يُذكَرُ عنهُ شيءٌ منَ العِلم، وربّما يقرَأُ بعضُهمُ الحديثَ بسندِهِ فيَدعو لجميعِ رجالِ السَّند، فسُبحانَ منِ ٱختَصَّ مَن شاءَ مِن عبادِهِ بما شاءَ مِن جزيلِ عطائه.

* * *

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ اللّه عنه مرفوعاً: «سبْعٌ يجرِي للعبدِ أجرُهُنَّ بعدَ مَوتِهِ وهُوَ في قبرِه: مَن عَلَّمَ علْماً، أو أجرىٰ نهَراً، أو حفَرَ بئراً، أو غرَسَ نخْلاً، أو بنىٰ مسجِداً، أو وَرَّثَ مُصحَفاً، أو ترَكَ ولداً يستغْفِرُ له»[٣].

= وتتمةُ الحديث: «.. وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقةً أخرجها من ماله في صحته وحياته، يلحقه من بعد موته».

(١) أخرجه مسلمٌ (١٦٣١) والترمذي (١٣٧٦) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) جزءٌ من حديث أخرجه أحمد (٣: ٥) وأبو داود (٥٧٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه البيهقي في «شُعَب الإيمان» (٣: ٢٤٨) وأبو نُعيم في «الحلية» (٢: ٣٤٤) =

قلتُ: وقد نَظَمَ ذلكَ الإمامُ جلالُ الدِّينِ السُّيوطيُّ رحِمَهُ اللّهُ بقولِه:

إذا ماتَ ٱبنُ آدمَ ليسَ يجري عليهِ مِن فِعالٍ غيرُ عشْرِ
علومٌ بثَّها، ودُعاءُ نجلٍ وغَرْسُ النّخْلِ، والصَّدَقاتُ تجري
وِراثةُ مُصحَفٍ، ورِباطُ ثَغْرٍ وحَفْرُ البئرِ، أو إجراءُ نهْرِ
وبيتٌ للغَريبِ بَناهُ، يَأوي إليهِ، أو بناءُ محَلِّ ذِكْرِ

ومِنَ الأخبارِ الواردةِ في فضِيلةِ التعليمِ أيضاً ـ وهيَ كثيرةٌ ـ قولُه ﷺ: «إنّ اللّهَ وملائكتَهُ وأهْلَ السَّمواتِ والأَرْضِ، حتىٰ النَّمْلةُ في جُحْرِها وحتّىٰ الحُوت، لَيُصَلُّونَ علىٰ مُعَلِّمِ النّاسِ الخَير»[١].

وقالَ ﷺ: «أفضَلُ الصَّدَقةِ أن يتعلَّمَ المرءُ المسلمُ عِلْماً ثم يعلِّمُهُ أخاهُ المسلم»[٢].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلام: «أجوَدُكم بعدي رجلٌ عَلِمَ عِلْماً فنَشَرَه، يُبْعَثُ يومَ القيامةِ أُمّةً وحْدَه»[٣].

وعنِ الحسَنِ البصْريِّ رحِمَهُ اللّهُ قال: لأَن أتعلَّمَ باباً منَ العِلمِ فأُعلِّمَهُ مسلماً أحبُّ إليّ مِن أن تكونَ ليَ الدنيا كلُّها في سبيلِ اللّه. انتهىٰ.

= من حديث أنس بن مالك رضيَ اللّه عنه، وقد تقدم بنحوه حديث ابن ماجه أولَ الفصل: «إن مما يلحق المؤمن..».

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) من حديث أبي أمامةَ الباهلي رضيَ اللّه عنه، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريب.

(٢) أخرجه ابنُ ماجه (٢٤٣) من حديث أبي هريرةَ رضي اللّه عنه، بإسنادٍ حسن كما قال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ : ٥٤).

(٣) أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٥ : ١٧٧) والبيهقي في «شُعَب الإيمان» (٢ : ٢٨١)، من حديث أنس بن مالك رضيَ اللّه عنه.

نقَلَهُ في «الإحياء».

وورَدَ أنّ اللّهَ تعالىٰ أَوحىٰ إلىٰ موسىٰ: «تعلَّمِ الخيرَ وعلِّمْهُ النّاس، فإنّي منوِّرٌ لمُعلِّمِ العلمِ ومُتعلِّميهِ قبورَهم حتىٰ لا يستوحِشوا لمكانِهم». انتهىٰ.

مطلَبٌ

الأولَوِيةُ في التعليمِ للأهلِ والأولادِ ونحوِهم

عـن علـيٍّ رضِيَ اللّهُ عنـهُ في قولـهِ تعـالىٰ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، قال: علِّموا أنفُسَكم وأهلِيكُمُ الخيرَ[١]. أي: ما ينجُونَ بهِ منَ النار.

وعنِ ٱبنِ عبّاسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما قال: فقِّهوهُم وعلِّموهُم وأدِّبوهُم.

وقالَ مُقاتِل[٢]: حقُّ المسلـمِ أن يؤدِّبَ نفْسَـهُ وأهلَهُ وعبيـدَه، فيُعلِّمَهُمُ الخيرَ ويَنهاهُم عنِ الشّرّ. انتهىٰ.

قلت: وفي ذلكَ دليلٌ علىٰ تأكُّدِ وجوبِ تعليمِ الأهلِ والأولادِ ونحوِهم، فهو أهمُّ وأقدَمُ من تعليمِ غيرِهم؛ فإنّ كلَّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيّتِهِ.

قالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ عمرَ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنه: بِرُّ الولدِ علىٰ الوالدِ واجـبٌ بتعليمِـهِ وتربيتِـه، والشارعُ عليهِ السلامُ لم يرغِّبْ كثيراً في بِرِّ الأبناء؛ لأنّـهُ ٱستكفـىٰ بالوازعِ الطّبَعِـيّ، وهُوَ أقوىٰ مـنَ الـوازعِ الشـرعيّ، بخلافِ بِرِّ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢: ٤٩٤).

(٢) أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠هـ)، من أعلام المفسّرين لكنه متروك الحديث. قال ابنُ المبارك: ما أحسن تفسيره لو كان ثقةً. توفي بالبصرة.

الوالدَين علىٰ الأبناء، فإنّهُ رغَّبَ فيهِ كثيراً، وهما في الوجوبِ سواء. انتهىٰ. من «مجموعِ كلامِه».

قالَ سيّدُنا الإمامُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينِ بنِ طاهرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا بهِ في رسالتِهِ المُسمّاةِ «صِلةَ الأهلِ والأقربين بتعليمِ الدِّين»:

يجبُ علىٰ الآباءِ والأُمّهاتِ والأولياءِ والوُلاةِ تعليمُ أولادِهم وأهليهِم وعبيدِهم وكلِّ مَن لهُم عليهِ وِلايةٌ ما يجبُ عليهِم، كالإيمانِ والصلاةِ والزكاةِ والحجِّ، وأمْرُهم بذلك، ويعلِّمونَهم تحريمَ المحرَّمات، كالزِّنا واللِّواطِ وكشفِ العورةِ والسرقةِ والخيانةِ والكَذِبِ والغِيْبةِ والنّميمةِ والكِبْرِ والحسَدِ والرِّياءِ ونحوِ ذلك، وينهَوْنَهم عن ذلك، فإن أهمَلوا ذلكَ فقد غَشُّوهُم وخانوهُم وظلَموهُم.

قال في «الإحياء»: يقال: أوّلُ ما يتعلّقُ بالرجلِ يومَ القيامةِ أهلُهُ وولدُه، فيقفونَهُ بينَ يدي اللّهِ تعالىٰ، فيقولون: يا ربَّنا، خُذْ لنا بحقِّنا مِنه، فإنّهُ ما علَّمَنا ما نجهَل، وكان يُطعِمُنا الحرامَ ونحنُ لا نعلَم. فيقتَصُّ اللّهُ لهُم منه.

وقال ﷺ: «ما بالُ أقوامٍ لا يُفَقِّهونَ جيرانَهُمْ ولا يعلِّمونَهُمْ ولا يعِظونَهُمْ ولا يأمُرونَهُمْ ولا يَنْهَونَهُمْ؟ وما بالُ أقوامٍ لا يتعلَّمُونَ مِن جيرانِهِمْ ولا يتفَقَّهونَ ولا يتَّعِظون؟ واللّهِ ليُعَلِّمَنَّ قومٌ جيرانَهُمْ ويُفَقِّهونَهُمْ ويَعظونَهُمْ ويأمُرونَهُمْ ويَنْهَونَهُمْ، وليَتَعَلَّمَنَّ قومٌ مِن جيرانِهِمْ ويتفقَّهُونَ ويتَّعِظون، أو لأُعاجلَنَّهُمْ بالعقوبةِ في دارِ الدنيا»[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير»، من حديث عبد الرحمن بن أَبْزىٰ، وسنده مقارب. يُنظر: «مجمع الزوائد» (١ : ١٦٤).

=

وإذا كانَ هـذا في الجارِ معَ الجـار، فكيـفَ بأهـلِ الدارِ معَ أهلِ الدار؟ انتهىٰ.

وفي الحديثِ عن رسولِ اللّهِ ﷺ قالَ: «حقُّ الولدِ علىٰ الوالدِ أن يُحسِّنَ اسمَه، ويُحَسِّنَ مُرضِعَه، ويحَسِّنَ أدبَه»[1].

قالَ سيدُّنا الإمامُ طاهرُ بنُ حسينِ بنِ طاهرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ في الحثِّ علىٰ تعليمِ الوالدِ وتأديبِهِ مِن أثناءِ قصيدتِهِ النُّونيّة:

وفـي العِلـمِ نُـورٌ لأربـابِـهِ ... ويَسري إلىٰ الغيرِ إنسٍ وجانْ
وعلمُ الصِّغَرْ مثلُ نقْشِ الحجرْ ... يقَـرُّ ويثبُـتُ وسْـطَ الجَنـانْ
فقلـبُ الصبـيْ مثـلُ لـوحٍ نقـيْ ... فـأوّلُ شـيءٍ يُـلاقيـهِ بـانْ
فمـا دامَ بـاطنُـهُ صـافيـاً ... ألا ٱغرِسْ بهِ مُوجباتِ الجِنانْ
وإلاّ تَـولاّهُ جنـدُ الهـوىٰ ... وصـارَ مُقيمـاً بـذاكَ المكـانْ
ويَعسُـرُ مِـن بعـدُ إزعـاجُـهُ ... وفيـهِ يَطـولُ عنـاءُ المَعـانْ
وإن يتـرُكِ الطّفـلَ مـعْ نفْسِـهِ ... بحَسْبِ الهوىٰ في الصِّبا الأَبوانْ
ففـي القُـربِ لا بـدَّ أن ينظُـروا ... عُقـوقـاً، وشيئـاً لـهُ يَكـرَهـانْ
ويـومَ القيـامـةِ يـدعـوهُمـا ... إلىٰ الحَكَمِ العدْلِ يختَصِمانْ
لمَـا قصَّـروا مِـن حقـوقٍ لـهُ ... بهـا أُمِـرَا بعـدَ سبْـعٍ ثمـانْ
وإن أدَّبـاهُ وقـامـا بِـهِ ... فبـالبِـرِّ فـي الحـالِ يستَبشِـرانْ
وحظُّهُمـا كـامـلٌ وافـرٌ ... منَ ٱفعالِهِ الصّالحاتِ الحِسانْ
فيـا ويْـحَ مُهمِـلِ أولادِهِ ... وتـارِكِهـمْ كـالـدوابِّ السَّـوانْ

---

(١) أخرجه البيهقي في «شُعَب الإيمان» (٦: ٤٠٢) من حديث السيدة عائشة رضيَ اللّه عنها، وقال: فيه ضعف.

يظلُّـونَ فـي جهلِهـمْ يعمَهـون	ولا يفقَهـونَ سـوىٰ للخِـوانْ
قسـاةُ الطِّبـاعِ رَضُـوا بـالضَّيـاعِ	وحـظُّ الضيـاعِ بـديـلُ الجِنـانْ
فيا خُسرَهُمْ، ثم يا خُسرَهُمْ	بيـوم التَّغـابُـنِ يـومِ البيـانْ
ويـا فَـوْزَ مَـن كـانَ أدَّبَهُـمْ	وعلَّمَهُـمْ كـلَّ فعـلٍ يُـزانْ
يحوزُ الثوابَ ويُوقىٰ العِقابَ	وقُـرَّةُ عيـنٍ لـهُ كـلَّ آنْ

فائدة:

أفادَ الإمامُ القُطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «رسالةِ المُذاكـرة»: أنّ أعمالَ الطفلِ منَ الطاعاتِ التي تكونُ قبلَ البلوغِ في صحائفِ أبوَيهِ منَ المسلمين، ومهما أحسَنَا في تربيتِهِ والقيامِ عليهِ كما ينبغي، فالمرجوُّ مِن فضلِ اللّهِ ألا يُخيِّبا مِن أعمالِهِ الصالحةِ وطاعاتهِ بعدَ البلوغ، بلِ المرجوُّ مِن فضـلِ اللّهِ أن يكونَ لهُما مثلُ ثوابِـهِ. ويشهَـدُ لذلكَ ما ورَدَ منَ الأحاديـثِ في الدعاءِ إلىٰ الهدىٰ والدِّلالةِ علىٰ الخير، فإنَّهُما قد دَعَواهُ إلىٰ الهدىٰ ودلاَّهُ علىٰ الخيرِ مهما أخَذا في حقِّهِ بنحوِ ما ذكَرْناهُ منَ الإحسانِ في تربيتِهِ وأمرِهِ بالخيرِ وترغيبِهِ فيهِ ونهْيِهِ عنِ الشّرِّ وزَجْرِهِ عنه. انتهىٰ.



الفصل الثاني
في فضل كتابة العلم والتأليف فيه

قالَ النبيُّ عليهِ الصَّلاةُ والسّلام: «إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقَطَعَ عمَلُهُ إلاّ مِن ثلاث: صدَقةٍ جارِية، أو عِلمٍ يُنتفَعُ به، أو ولَدٍ صالحٍ يَدعو له»[١].

فسَّرَ العلماءُ رضِيَ اللّهُ عنهُمُ الصّدَقةَ الجاريةَ بعدَ الموتِ بالوَقْف، والعِلمَ المُنتفَعَ بهِ بعدَ الموتِ بالتصنيفِ والتعليمِ والإفتاء، وهُوَ في التصنيفِ أظهر؛ لأنّهُ أطوَلُ استمراراً.

قالَ السُّبكيُّ[٢] رحِمَهُ اللّه: فإنّ العالِمَ وإنِ ٱمتدَّ باعُهُ وأُحكِمَ ٱنتفاعُهُ فنفْعُهُ قاصرٌ علىٰ مُدّةِ حياتِه، ما لم يُصنِّفْ كتاباً يخلِّفُ بعدَهُ، أو يُورِّثْ عِلماً يَنقُلُهُ عنه تلميذٌ إذا وجَدَ نفْسَهُ فقدَه. انتهىٰ.

---

(١) تقدّم تخريجه من مسلم (١٦٣١) والترمذي (١٣٧٦) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) الإمام العلاّمة الأصولي الفقيه المتفنن البارع قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهّاب بن علي بن عبد الكافي السُّبكي (٧٢٧ ــ ٧٧١هـ)، من محققي الأئمة والمشاركين في جُلّ العلوم، ويقال إنه بلغ رتبة الاجتهاد. صنف مؤلفاتٍ فائقةً محرّرة، كـ«جمع الجوامع» و«معيد النعم» و«الأشباه والنظائر»، وموسوعته الزاخرة «طبقات الشافعية الكبرىٰ»، وغيرها.

رُويَ عنِ الإمامِ الشيخِ عمرَ بنِ عبدِ الرحمنِ العطّاسِ[1] رضِيَ اللّهُ عنهُ أنّهُ ذُكِرَ عندَهُ كثرةُ التصنيف، فقالَ بعضُ مَن حضَرَ: إنّهُ لا حاجةَ إلىٰ التصنيفِ اليوم، فقالَ الحبيبُ عمرُ رضِيَ اللّهُ عنه: وهل يضُرُّ الصائحُ بعدَ الصائحِ؟

قالَ سيِّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ اللّهَ يُنطِقُ علماءَ كلِّ زمانٍ بما يُوافِقُ أهلَه، والتصانيفُ تبلُغُ الأماكنَ البعيدةَ وتبقىٰ بعدَ موتِ العالِم، فيحصُلُ لهُ بذلكَ فضْلُ نشرِ العِلم، ويُكتَبُ مُعلِّماً داعياً إلىٰ اللّهِ في قبرِهِ كما قالَ ﷺ: «مَن أنعشَ لسانَهُ حقّاً يُعمَلُ بهِ مِن بعدِهِ أُجرِيَ عليهِ أجرُهُ إلىٰ يومِ القيامةِ»[2]. انتهىٰ.

قالَ الإمامُ النوويُّ رحمَه اللّه: وينبغي أنْ يعتنيَ ـ أي المعلِّم ـ بالتصنِيفِ إذا تأهَّلَ له، فبه يَطّلِعُ علىٰ حقائقِ العِلم ودقائقِه ويَثبُتُ معَه؛ لأنه يضطرُّه إلىٰ كثرةِ التفتيشِ والمطالعةِ والتحقيقِ والمراجعةِ والاطّلاع. انتهىٰ[3].

فائدة:

ومِن فوائدِ التصنيف ـ كما قالَ الخطيبُ البَغداديُّ ـ أنّهُ: يُثبِتُ الحِفظ، ويُزكّي القلب، ويشْحَذُ الطّبع، ويُجيدُ البيان، ويُكسِبُ جميلَ الذِّكْرِ وجزيلَ

---

(١) هو السيد الإمام الجليل أحد أكابر صلحاء عصره عمر بن عبد الرحمن بن عقيل العطاس، مولده بقرية اللسك ـ شرقي تريم ـ سنة٩٩٢هـ، ووفاته بحُريضة سنة ١٠٧٢هـ. أخذ وتخرّج بشيخه الحسين بن الشيخ أبي بكر بن سالم، وأخذ عنه الإمام الحداد. أفرده الحبيب علي بن حسن العطاس بالترجمة في مجلدين كبيرين سمّاهما «القرطاس»، وله ترجمة في «شرح العينية».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٣: ٢٦٦)، من حديث أنس بن مالك رضيَ اللّه عنه.

(٣) مقدمة «المجموع شرح المهذّب» (١ : ٢٩).

الأجر، ويُخلِّدُهُ إلىٰ آخرِ الدهر، والأَوْلىٰ أن يُعتنىٰ بما يعُمُّ نفعُهُ وتكثُرُ الحاجةُ إليه، وبما لم يُسبَقْ إلىٰ تصنيفِه.

فائدةٌ أُخرىٰ:

أفادَ الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: أنّ مِن حقِّ الشيوخِ علىٰ المُريدينَ حفظَ علومِهم وفوائدِهم، وإبلاغَها إلىٰ مَن بعدَهُم لِتُستفادَ مِنهم، ويكثُرَ ــ بأجورِ منِ استفادَ بها ــ أجرُهم، ويحيا بها ذِكْرُهم؛ لأنّ كلَّ مُهتدٍ وعاملٍ إلىٰ يومِ القيامةِ يحصُلُ لهُ أجر، ويتجدَّدُ لشيخِهِ مثْلُ ذلك، ولشيخِ شيخِهِ مثْلاه، وللشيخِ الثالثِ أربعة، وللرابعِ ثمانية، وهكذا: تضعُفُ كلُّ مَرتبةٍ بعددِ الأجورِ الصالحةِ بعدَه، إلىٰ النبيِّ ﷺ، وبهذا يُعلَمُ تفضيلُ السلَفِ علىٰ الخلَف. انتهىٰ. من مقدّمةِ «عِقدِ اليواقيت».

تنبيهٌ:

قال الإمامُ النوويّ: ينبغي أنْ يكونَ اعتناؤه ــ أي: العالمِ المؤلِّفِ ــ منَ التصنيفِ بما لم يُسبَقْ إليه أكثرَ. والمرادُ بهذا أنْ لا يكونَ هناكَ مصنَّفٌ يُغني عن مصنَّفِه في جميعِ أساليبِه، فإنْ أغنىٰ عن بعضِها فلْيُصنِّفْ مِن جنْسِه ما يَزيدُ زياداتٍ يُحتَفَلُ بها، معَ ضَمِّ ما فاتَه منَ الأساليب، ولْيَكُن تصنيفُه فيما يعُمُّ الانتفاعُ بهِ ويكثُرُ الاحتياجُ إليه. انتهىٰ[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) مقدمة «المجموع شرح المهذّب» (١ : ٣٠).

الفصل الثالث
في حرمة منع العلم وكتمانه

قالَ اللّهُ تبارَكَ وتعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وفي الحديث: «ما آتىٰ اللّهُ عالماً عِلْماً إلاّ وأخَذَ عليهِ منَ المِيثاقِ ما أخَذَ علىٰ النبيِّينَ: أن يُبيِّنوهُ ولا يكتُموه»(١).

فإذا سُئِلَ العالِمُ عن عِلمٍ يجبُ عليهِ تعليمُهُ مِن أحكامِ الإسلامِ والإيمانِ وكيفيّةِ الصلاةِ والطَّهارةِ ونحوِها مِن أمورِ العِباداتِ: لم يسَعْهُ السكوتُ عن ذلك، فمَنِ امتنَعَ مِن تعليمِ ما علّمَهُ اللّهُ وكتَمَ البيانَ الذي أوجبَهُ عليهِ فقد دخَلَ في الوعيدِ الواردِ في الكتابِ والسُّنة، كقولِهِ تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وكقولِهِ تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

---

(١) خرّج هذا الحديث بتفصيل الإمام الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (١: ١٠٥)، والمتحصِّل من كلامه أنّ الحديثَ ضعيفٌ يتقوّىٰ بشواهده.

وقال ﷺ: «مَن سُئِلَ عن علمٍ فكَتَمه ألجَمَهُ اللّهُ بلِجامٍ مِن نارٍ يومَ القِيامة»[١]، وفي روايةٍ: «ما مِن رجُلٍ يحفَظُ عِلْماً فيكتُمه إلاّ أُتِيَ به يومَ القِيامةِ مُلْجَماً بلِجامٍ مِن نار»[٢].

وقال عليهِ الصلاةُ والسلام: «إذا ظهَرَتِ الفتَنُ وسُبَّ أصحابي فلْيُظْهِرِ العالِمُ عِلْمَه، ومَن لم يفعَلْ ذلك فعليهِ لعنَةُ اللّهِ والملائكةِ والنّاسِ أجمَعين، لا يقبَلُ اللّهُ منهُ صرْفاً ولا عَدْلاً»[٣] ذكرَهُ سيِّدُنا عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «الدّعوةِ التامّة».

وقال رضِيَ اللّهُ عنهُ مِن أثناءِ المُكاتَبةِ إلىٰ بعضِ وُلاةِ الأمور: وقد أخَذَ اللّهُ مِيثاقَ الذينَ أوتوا الكتابَ لَيُبَيِّنُنَّهُ للنّاسِ ولا يكتُمونَه. وفي المأثور: كم مِن ملِكٍ سيّئاتُهُ في صحائفِ العلماءِ مِن أهلِ زمانِهِ لِتَرْكِهِمُ النُّصحَ وعدَمِ إرشادِهم لهُ إلىٰ الحقّ، وخيرُ الملوكِ مَلِكٌ يصدُرُ عن رأيِ العلماء، وشرُّ العلماءِ مَن يجعَلُ عِلمَهُ تابعاً لرأيِ الملوك. انتهىٰ المقصود منه.

ومِن كلامِ الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ حسينِ بنِ طاهرٍ نفَعَ اللّهُ به: إنّ احتِكارَ العِلمِ أشدُّ منَ احتِكارِ الطعام. كما قالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ عمرَ بنِ سُميطٍ نفَعَ اللّهُ به: انظُروا التشديداتِ الواردةَ في احتِكارِ الطعام، وليسَ نفْعُ الطعامِ كنفْعِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨) واللفظ له، والترمذي (٢٦٤٩)، وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه. قال الترمذي: حديثٌ حسَن.

(٢) أخرج هذه الرواية ابنُ ماجه في «سُننه» (٢٦١)، من حديث أبي هريرة أيضاً.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢: ١١٨) من حديث معاذ بن جبل رضي اللّه عنه، وفيه ضعْف، يُنْظر «لسان الميزان» (٧: ٣١٤).

العِلم، أنا أريدُ كلاًّ يعلِّمُ بالذي يعرِفُهُ وإن قَلَّ عِلمُه.

وقالَ شيخُ الإسلام زكريّا[١] رحِمَهُ اللّه: إيّاكَ أن تكتُمَ العِلمَ عن عدوِّك، فإنّ الشرعَ حقيقةً إنّما هُوَ للّهِ ولرسولِه، ومِن شرطِ كلِّ مُحبٍّ للّهِ ولرسولِهِ أن يُحبَّ نشْرَ ما شرَعَهُ اللّهُ ورسولُهُ في جميعِ الخَلْق، سواءٌ أكانوا أصدقاءَ أم أعداء. انتهىٰ.

وعن سفيانَ الثوريِّ رحِمَهُ اللّهُ قال: مَن بَخِلَ بالعِلمِ ٱبتُليَ بإحدىٰ ثلاث: أن ينساهُ، أو يموتَ ولا ينتفعُ به، أو تذهبَ كتُبُه. انتهىٰ. مِن مقدِّمةِ «شرحِ المُهذّب»[٢].

تنبيهٌ:

قالَ الشيخُ الإمامُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ الذي يُظهِرُ للعَوامِّ الذي يترجَّحُ عندَه، ويكتُمُ الباقي، يدخُلُ في قولِ اللّهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ [البقرة: ١٥٩]، فلا تذكُرْ لهُ الذي تريدُهُ وترجَّحَ عندَك، بلِ اذكُرْ ما قالَهُ أهلُ العِلمِ وهُوَ يلتقطُ الذي يريد.

---

(١) الإمام العلاّمة الفقيه قاضي القضاة شيخ الإسلام أبو يحيىٰ زكريّا بن محمد الأنصاري السُّنَيكي المصري (٨٢٣ ــ ٩٢٦هـ). من أئمة الشافعية وأعلام عصره، ومن الجامعين بين العلم والولاية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. تتلمذ للحافظ ابن حجر العسقلاني وتتلمذ عليه الإمام الفقيه ابن حجر الهيتمي، فكان يقول: دُققتُ بين حجرين! وله التصانيف المحرَّرة، كـ«شرح الروض» و«شرح البهجة» وغيرهما في شتىٰ الفنون.

(٢) مقدمة «المجموع شرح المهذَّب» (١ : ٤٠).

وقالَ نفعَ اللّهُ بـه: اثنـانِ في الدنيا إذا ماتا فَهُمـا كالمَيْتـةِ التي لـم تُذَكَّ: الغنـيُّ الذي وسَّعَ اللّهُ عليهِ وبسَطَ رزْقَهُ ولم يتصدَّقْ في وجوهِ الخير، والعالِمُ الذي لم ينفَعِ النّاسَ بعلمِه. انتهىٰ. من «مجموعِ كلامه».

* * *

فائدة:

قالَ الإمامُ النَووِيُّ رحِمَهُ اللّهُ في كتابِه «التِّبيان»: تعليمُ المتعلّمينَ فرضُ كفايـة، فإن لم يكنْ مَن يصلُـحُ إلا واحدٌ تعيَّـنَ عليـه، وإن كانَ هنـاكَ جماعـةٌ يحصُـلُ التعليمُ ببعضِهم، فإنِ ٱمتنَعـوا كلُّهـم أثِموا، وإن قامَ بهِ بعضُهم يسقُطُ الحرَجُ عنِ الباقين، وإن طُلِبَ مِن أحدِهم وٱمتنَعَ فأظهَرُ الوجهينِ أنّهُ لا يأثَم، ولكنْ يلزَمُهُ ذلكَ إن لم يكُنْ لهُ عُذر. انتهىٰ[١].

وقال رحِمَهُ اللّه: قالَ العلماءُ رضِيَ اللّهُ عنهُم: ولا يمتنِعُ مِن تعليمِ أحدٍ لكونـهِ غيرَ صحيحِ النيّة، فقد قـالَ سفيـانُ الثـوريُّ وغيـرُه: طلَبُهُم للعلمِ نيّة. وقالوا: طلَبْنا العِلمَ لغيرِ اللّهِ فأبىٰ أن يكونَ إلا للّه، معناه: كانت غايتُهُ أن صارَ للّهِ تعالىٰ.

* * *

تنبيه:

قالَ الإمامُ السُّيوطـيُّ رحِمَـهُ اللّه في «الإتقـان»: وأمّا أَخْذُ الأُجرةِ علىٰ التعليـمِ فجائز. ففي البخـاريّ: «إنّ أحَقَّ ما أخذْتُم عليهِ أجْراً كتابُ اللّه»[٢]،

---

(١) «التبيـان في آداب حملة القـرآن»، البـاب الرابـع: في آداب معلِّم القرآن ومتعلِّمه، ص٢٠.

(٢) «صحيح البخاري» (٥٧٣٧)، من حديث ابن عباسٍ رضيَ اللّه عنهما.

وقيل: إنْ تعيَّنَ عليهِ لم يجُزْ وٱختارَهُ الحَلِيمـيّ[١]، وقيـلَ: لا يجوزُ مُطلقاً، وعليهِ أبو حنيفة. وفي «البستانِ» لأبي اللّيث[٢]: التعليمُ علىٰ ثلاثةِ أوجُه:

أحدُها: للحِسْبة، ولا يأخذُ بهِ عِوَضاً.

الثاني: أن يُعلِّمَ بالأجرة.

والثالث: أن يُعلِّمَ بغيرِ شرط، فإذا أهديَ إليهِ قَبِل.

فالأولُ مأجور، وعليهِ عمَـلُ الأنبيـاء، والثـاني: مختَلَفٌ فيه والأرجَحُ الجَواز، والثالث: يجوزُ إجماعاً؛ لأنّ النبيَّ ﷺ كانَ معلِّماً للخَلْقِ وكانَ يقبَلُ الهديّة. انتهىٰ[٣].

* * *

تنبيه:

لا يحِلُّ لعالِمٍ أن يذكُرَ مسألةً لمَن يَعلَمُ أنّهُ يقَعُ ــ بمَعرِفتِها ــ في تساهُلٍ في الدِّينِ ووقوعٍ في مَفسَدة، إذِ العِلمُ إمّا نافع، كالواجباتِ العينيّة، يجبُ ذِكْرُهُ لكلِّ أحـد، أو ضـارٌّ كالحِيَلِ المُسقِطَةِ للزّكـاة. وكلُّ ما يوافِقُ الهوىٰ ويجلِبُ

---

(١) الإمام الكبيـر الفقيه المتكلِّـم الغـوّاص على دقائق العلـوم أبو عبد اللّه الحسين بن الحسـن بن محمد بن حَلِيم الحَلِيمي (٣٨٨ ــ ٤٠٣هـ)، صاحـب الكتـاب الجليـل «المنهاج في شُعَب الإيمان» وغيره. قال السبكي في «طبقاته» (٤ : ٣٣٣): أحدُ أئمة الدهر، وشيخ الشافعيين بما وراء النهر.

(٢) أبو الليث هو: الإمام العلاّمة نصر بن محمّد السمرقندي (ت ٣٧٣هـ)، الملقَّب بإمام الهدىٰ، أحد أئمة الحنفية وأجلاّء المفسّرين والفقهاء، كان صوفياً زاهداً. و«البستان» هو كتابه: «بستان العارفين» في الزهد والرقائق والأخلاق وما ورد فيها من أحاديث وآثر، وللإمام النووي كتابٌ بنفس العنوان، وكلاهما مطبوع.

(٣) «الإتقان في علوم القرآن»، النوع الرابع والثلاثون، ص٣٢٢ ــ ٣٢٣.

حُطـامَ الدنيـا لا يجـوزُ ذِكرُهُ لمَن يُعلَمُ أنّهُ يعمَـلُ بهِ أو يعلِّمُـهُ مَن يعمَلُ به، أو فيـهِ ضـررٌ ونفْـع، فإن ترجَّحتْ مَنافعُـهُ ذكَـرَه، وإلا فـلا. انتهـىٰ. من «بُغيـةِ المسترشدين».

❊ ❊ ❊

الباب الثالث

في الاجتهاد في طلب العلم وبذل الهمّة في تحصيله



وفيه ثلاثة فصول:

الأول: في أنّ العلمَ لا يُنال إلا بالجِدّ والاجتهاد.

الثاني: في السفر والترحال لطلب العلم.

الثالث: حكاياتٌ في اجتهاد أئمة السلف في تحصيل العلم.

الفصل الأول
في أنّ العلم لا يُنال إلا بالجدّ والاجتهاد

اعلَمْ ــ رحِمَكَ اللّه ــ أنهُ كلَّما شرُفَ المَطلَبُ زادَ التعَبُ في بلوغِهِ والنَّصَب. والعُليا لا تدرَكُ بالهُوينىٰ، ولا تُنالُ المعالي إلا بشِقِّ الأنفُس. وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن يحيىٰ بنِ أبي كثيرٍ[١] رحمه اللّه تعالىٰ قال: لا يُستطاعُ العِلمُ براحةِ الجِسم[٢]. وكما قيل:

لا تَحسَبِ المَجدَ تمراً أنتَ آكلُهُ ... لن تبلُغَ المجدَ حتىٰ تلْعَقَ الصَّبِرا

وقيل أيضاً:

لولا المَشَقّةُ سادَ النّاسُ كلُّهُمُ ... الجُودُ يُفقِرُ والإقدامُ قتّالُ

قالَ بديعُ الزمانِ[٣] رحِمَهُ اللّه: اِعلَمْ أنّ العِلمَ بطيءُ اللِّزام، بعيدُ المَرام،

---

(١) الإمام الحافظ الحُجّة العابد أبو نصر يحيىٰ بن أبي كثير الطائي مولاهم (ت ١٢٩هـ)، أحد الأعلام. كان طَلّابةً للعلم، جريئاً في الحق، لا يروي إلا عن ثقة. رحمه اللّه تعالىٰ.

(٢) «صحيح مسلم»، باب أوقات الصلوات الخمس (٥: ١١٣ من شرح النووي).

(٣) الأديب الفائق أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيىٰ الهمداني (٣٥٨ ــ ٣٩٨هـ)، أحد أئمة الكتّاب الناثرين، وصاحب «المقامات» التي نسج علىٰ منوالها الحريري. كان أعجوبةً في الحفظ، يرتجل وضع المقامات، طار ذكره في الآفاق. =

لا يُدرَكُ بالسِّهام، ولا يُرىٰ في المَنـام، ولا يـورَثُ عنِ الآباءِ والأعمام. وإنّما هُوَ شجـرةٌ لا تصلُـحُ إلا بالغَـرس، ولا تُغـرَسُ إلا في النفْـس، ولا تُسقـىٰ إلا بالـدّرس، ولا تُحصَّلُ إلا باستِنـادِ الحجَر، وافتـراشِ المَدَر، وإدمـانِ السّهَر، وقلّـةِ النّوم، وصِلةِ الليلةِ باليـوم. ولا يُدركُـه إلا مَن أنفَـقَ العيـن، وجثـا علىٰ العين. أيظُنُّ أنّ مَن أشغَلَ نهارَهُ بالجَمعِ وليلَهُ بالجِماعِ يخرُجُ منَ الفقهاء؟ كلاّ واللّه، حتىٰ يقصِدَ الدّفاتـر، ويستصحِـبَ المَحابر، ويَقطَعَ القِفار، ويصِلَ في طلَبِ العِلمِ بينَ اللّيلِ والنّهار، ويُوافِقَ منَ الصّبرِ مُرّاً طيّباً، ومنَ التوفيقِ مطَراً صيّباً. انتهىٰ.

وقالَ الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ نفَعَ اللّهُ بهِ شعراً:

وخُذْ مِن علومِ الدِّينِ حظّاً مُوفَّراً	فبالعِلمِ تسمو في الحياةِ وفي الحشْرِ
وبالجِدِّ والصّبرِ الجميلِ تحُلُّ في	فسيحِ العُلىٰ، فٱستوصِ بالجِدِّ والصبرِ

وللّهِ دَرُّ الإمامِ السُّيـوطيِّ رحِمَهُ اللّهُ في خُطبـةِ «الأشبـاهِ والنظائرِ» حيثُ يقـول: ولَـعمْـري، إنّ هذا الفـنَّ لا يُدرَكُ بالتمنّـي، ولا يُنـالُ بسـوفَ ولعلَّ ولوَ أنّي، ولا يَبلُغُهُ إلا مَن كشَفَ عن ساقِ الجِدِّ وشمَّر، وٱعتزَلَ أهلَهُ وشدَّ المِئزَر، وخاضَ البِحـارَ وخالَـطَ العَجاج، ولازَمَ الترَدُّدَ إلىٰ الأبـوابِ في الليلِ الدّاج، وحلَّقَ علىٰ الفضائلِ وقنَصَ الشوارد. . . إلخ ما قال.

ومِن كلامِ أميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنه: تفقَّهوا قبلَ أن تُسَوَّدوا. قالَ الإمامُ النَوويُّ رحِمَهُ اللّه: معناهُ اجتَهدوا في كمالِ أهليَّتِكم وأنتم أتباعٌ قبلَ أن تصيروا سادة، فإنّـكُم إذا صِرتُم سادةً متبوعينَ ٱمتنَعْتُم منَ التعلُّمِ لارتفاعِ مَنزلتِكم وكثـرةِ أشغالِكـم، وهذا معنىٰ قولِ الإمامِ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ

= مات بـ(هراة) مسموماً. =

عنه: تفقَّهْ قبلَ أن تترأس، فإذا رأسْتَ فلا سبيلَ إلىٰ التفقُّه. انتهىٰ. مِن «التبيان»[١].

وقالَ مالكُ بنُ دينار[٢] رحِمَهُ اللّه: مَن طلَبَ العِلمَ لنفْسِهِ فالقليلُ منهُ يكفيه، ومَن طلَبَ العِلمَ للنَّاسِ فحوائجُ النّاسِ كثيرة.

قالَ ٱبنُ الوَرْديِّ[٣] في لاميّتِه:

اطلُبِ العِلمَ ولا تكسَلْ فما	أبعدَ الخيرَ علىٰ أهلِ الكسَلْ
واحتفِلْ بالفِقهِ في الدِّينِ ولا	تشتغِلْ عنهُ بمالٍ وخَوَلْ
واهجُرِ النّومَ وحصِّلْهُ فمَن	يعرِفِ المطلوبَ يَحقِرْ ما بذَلْ
لا تقُلْ قد ذهَبَتْ أربابُهُ	كلُّ مَن سارَ علىٰ الدّربِ وصَلْ
في ازديادِ العِلمِ إرغامُ العِدا	وجَمالُ العِلمِ إصلاحُ العمَلْ
قيمةُ الإنسانِ ما يُحسِنُهُ	أكثرَ الإنسانُ منهُ أو أقَلْ

وكانَ ٱبنُ السُّبكيِّ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ يقول:

سهَري لتنقيحِ العلومِ ألذُّ لي	مِن وَصلِ غانيةٍ وطيبِ عناقِ

---

(١) «التبيان في آداب حملة القرآن»، آخر الباب الرابع، ص٢٦.

(٢) من سادات العلماء الأبرار، وأحد ثقات التابعين، كان آيةً في الزهد والورع والإقبال علىٰ الآخرة. ماتَ سنةَ ١٢٧هـ، رحمه اللّه تعالىٰ ورضي عنه.

(٣) العلاّمة الأديب المؤرِّخ أبو حفص عمر بن مظفَّر، زين الدين ابن الوردي (٦٩١ ـ ٧٤٩هـ). مولده بمَعَرَّة النعمان ووفاته بحلب. له «تاريخ» و«ديوان شعر» ومنظوماتٌ بديعة في الفنون، كـ«البهجة» و«نظم الحاوي الصغير» للقزويني الذي شرحه شيخ الإسلام زكريا. قال الإمام السيوطي: كان إماماً بارعاً في الفقه والنحو والأدب، مفنناً في العلم، ونظمه في الذروة العليا والطبقة القصوىٰ. «بغية الوعاة» (٢ : ٢٢٦).

وصـريـرُ أقـلامـي علـىٰ أوراقِـهِ أحلـىٰ مـنَ الـدّوكـاءِ للعُشـاقِ
وألـذُّ مِـن نقـرِ الفتـاةِ لـدَفِّهـا نَقـري لأُلقـي الـرَّمْلَ عـن أوراقي
وتمـايُلـي طـرَبـاً لِحَـلِّ عـويصـةٍ في الدّرسِ أشهىٰ مِن مُدامةِ ساقي
وأَبِيـتُ سهـرانَ الـدُّجـىٰ وتبيتَـهُ نومـاً، وتبغـي بعدَ ذاكَ لِحاقي[1]

وقالَ آخر:

السِّباقَ السِّباقَ قولاً وفعلاً حَذِّرِ النفْسَ حسْرَةَ المسبوقِ

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ محمّدٍ الحبَشيُّ نفَعَنا اللّهُ بهِ شعراً:

وفي طلَبِ العِلمِ الشّريفِ توَجَّهوا بجِـدٍّ وتشميـرٍ وتَـرْكٍ لِمُعْتـادِ
ففـي العِلـمِ نـورٌ للفـؤادِ وبهجَـةٌ ومِيـرادُهُ للعبـدِ أحسَـنُ ميـرادِ
بـهِ يَعـرِفُ الإنسـانُ حـقَّ إلٰهِـهِ فيُهدىٰ بهِ الغاويْ ويَرْوىٰ بهِ الصّادي
وإنْ شِئْتُـمُ أن تحفَظـوا مـا عَلِمْتُـمُ فـذلـكَ فـي تكـريـرِ درسٍ وتَـردادِ

وقال بعضُهم:

العِلمُ مَغرِسُ كلِّ فخرٍ فاجتَهِدْ أن لا يفوتَكَ فخْرُ ذاكَ المَغرِسِ
وٱعلَـمْ بـأنّ العِلـمَ ليـسَ ينـالُـهُ مَـن همُّـهُ فـي مَطعـمٍ أو ملبَـسِ

❊ ❊ ❊

---

(١) وتُنسب هذه الأبيات أيضاً للإمام المفسّر أبي القاسم الزمخشري صاحب «الكشّاف»، فلعـلّ الإمام تاج الدين السبكـي إنما تمثّل بها، يُنظر: «صفحـات من صبر العلماء» للعلاّمة الشيخ عبد الفتّاح أبو غدة رحمه اللّه تعالىٰ، ص١٣٩.

الفصل الثاني
في السفر والترحال لطلب العلم

قالَ سيّدُنا الإمـامُ شيخُ الإسلامِ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفعَ اللّهُ به: لو لـم تكنْ في التنقُّلِ مِن موطـنٍ إلىٰ موطنٍ فائدةٌ لَمَا أمَرَ بهِ المَولىٰ. فقيلَ له: وما التنقّلُ المأمـورُ به؟ قـال: هُـوَ المذكورُ في قولهِ تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧].

وقالَ عليهِ الصـلاةُ والسلام: «أُطْلُبوا العِلمَ ولو بالصِّينِ»(١). قالَ سيّدُنا القُطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحـدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: الصينُ إقليمٌ بعيدٌ مِن أبعدِ المَواضـع، قليلٌ منَ النّاسِ مَن يصِلُ إليهِ لبُعـدِه. فإذا وجـبَ علىٰ المسلـمِ أن يطلُبَ العِلمَ وإن كانَ في هذا المَحَـلِّ البعيـدِ فكيفَ لا يجـبُ عليهِ إذا كانَ بينَ العلماءِ ولا يلحقُهُ في طلبِهِ كثيرُ مُؤْنةٍ ولا مشقّةٌ كثيرة؟ انتهىٰ.

قالَ العلماءُ رحِمَهُمُ اللّهُ تعالىٰ: إنّ الرحلةَ في طلَبِ العِلمِ إمّا فرضُ عينٍ إذا لـم يجِـدْ في بلدِهِ مَن يُعلِّمُـه، أو منـدوبٌ مُرغَّبٌ فيهِ إذا كانَ لِطلَبِ الزيادة.

---

(١) تتمته: «.. فإن طلب العلـم فريضـة علىٰ كل مسلـم»، أخرجـه البيهقـي في «شُعَـب الإيمـان» (١٥٤٣) وابنُ عبد البر في «جامع بيـان العلـم» (١: ٧)، وغيرهمـا، من حديث أنس بن مالك رضيَ اللّه عنه. قال البيهقي: هذا حديثٌ متنه مشهور وإسناده ضعيف.

وإذا وجبَ علىٰ الإنسانِ أن يُسافِرَ للتفقُّهِ في الدِّينِ فكيفَ لا يتعيّنُ علىٰ مَن نشأَ بينَ العلماءِ والصالحين؟ وأيُّ عُذرٍ لهُ عندَ اللّهِ ربِّ العالمين؟ فمَن أهمَلَ العِلمَ ورضِـيَ بالجَهـلِ والعَمىٰ فهُوَ جاهـلٌ مغـرورٌ قد غرَّتْهُ الحياةُ الدنيا وغرَّهُ باللّهِ الغَرور.

قالَ سيّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ محمّدٍ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ شعراً:

تنكُّـرُ وقْتـي أورَثَ الهَـمَّ والغَمّـا   وكيفَ وأهلُ الوقْتِ قد أهمَلوا العِلْما
عجِبتُ لمَن بالجَهلِ يرضىٰ وربُّهُ   أتاحَ لهُ مِن فيضِ إفضالِهِ فَهْما

قالَ سيّـدُنـا الإمـامُ القطـبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: ينبغـي للإنسانِ أن لا يستقِرَّ مكانَه، بل يسيرُ في الأرضِ لعلَّهُ أن يرىٰ أكملَ منهُ فيقتـديَ بهِ إن قدَرَ علىٰ ذلكَ وساعدَهُ الحالُ والوقت، أو يرىٰ معتبِراً فيعتبرَ أو يُفيدَ أو يستفيد. ثم أشارَ إلىٰ أبياتٍ ــ وهِيَ للإمامِ الشافعيِّ رحِمَهُ اللّه ــ:

تغرَّبْ عنِ الأوطانِ في طَلَبِ العُلا   وسافِرْ، ففي الأسفارِ خمسُ فوائدِ
تفـرُّجُ هَـمٍّ واكتسـابُ معيشـةٍ   وعِلـمٌ وآدابٌ وصحبـةُ مـاجـدِ
فإن قيلَ: في الأسفارِ ذُلٌّ ومِحنَةٌ   وقطْعُ الفَيافي وارتكابُ الشدائدِ
فمَـوتُ الفتـىٰ خيرٌ لـهُ مِـن حياتِـهِ   يعيـشُ بهـا مـا بيـنَ واشٍ وحـاسدِ

وقالَ حُجّةُ الإسـلامِ الغزالـيُّ قدَّسَ اللّهُ سِرَّهُ في «الإحياء»: وقَلَّ مذكورٌ في العِلـمِ مُحصِّلٌ لهُ ــ مِن زمَنِ الصّحابةِ إلىٰ زمنِنا هذا ــ لم يُحصِّلِ العِلمَ إلا بالسفرِ وسافَرَ لأجْلهِ. انتهىٰ.

وقالَ الشَّعبيُّ[1] رحِمَهُ اللّه: لو سافَرَ رجلٌ منَ الشامِ إلىٰ أقصىٰ اليمنِ في

---

(١) علاّمة التابعين الإمام أبو عمرو عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي المعروفُ بالشعبي (٢٨ ــ ١٠٤هـ). أدرك خمسمئةٍ من الصحابة، وكان يُستفتىٰ والصحابـة متوافـرون. قـال مكحـول: ما رأيـتُ أحداً أعلمَ من الشعبي. =

كلمةٍ تدُلُّهُ علىٰ هدىً، أو ترُدُّهُ عن ردَىً، ما كانَ سفَرُهُ ضائعاً.

قلت: وقد رُويَ عن جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ رضِيَ اللّهُ عنهما أنّهُ رَحَلَ مسيرةَ شهرٍ إلىٰ عبدِ اللّهِ بنِ أُنيسٍ رضيَ اللّه عنه في حديثٍ بلَغَهُ عنهُ، سمِعَهُ مِن رسولِ اللّهِ ﷺ، قال: فاْشتريتُ بعيراً، ثمّ شدَدْتُ عليهِ رَحلي، فسِرتُ إليهِ شهراً حتىٰ قدِمتُ عليهِ الشام. فقلتُ للبوّاب: قلْ له: جابرٌ علىٰ الباب. فقال: اْبنُ عبدِ اللّه؟ قلت: نعمْ. فخرَجَ يطأُ ثوبَه، فاعتنقَني واعتنَقْتُه. فقلت: حديثٌ بلَغَني عنكَ أنّكَ سمِعْتَهُ مِن رسولِ اللّهِ ﷺ في القِصَاص، فخَشِيتُ أن تموتَ، أو أموُتَ، قبلَ أن أسمَعَه. قال: سمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: «يُحْشَرُ النّاسُ يومَ القيامةِ عُراةً غُرْلاً[١] بُهْماً». قال: فقلنا: وما بُهْماً؟ قال: «ليسَ معَهُم شيء. ثم يُناديهِم بصوتٍ يسمَعُهُ مَن بَعُدَ كما يسمَعُهُ مَن قَرُب: أنا المَلِكُ أنا الدَّيّان. ولا ينبَغي لأحدٍ مِن أهلِ النّارِ أن يدخُلَ النّارَ ولهُ عندَ أحدٍ مِن أهلِ الجنَّةِ حقٌّ حتّىٰ أَقُصَّهُ مِنه. ولا ينبَغي لأحدٍ مِن أهلِ الجنّةِ أن يدخُلَ الجنّةَ ولأحدٍ مِن أهلِ النّارِ عندَهُ حقٌّ حتّىٰ أَقُصَّهُ مِنه حتّىٰ اللّطْمة». قال، قلنا: كيفَ وإنّما نأتي اللّهَ عَزَّ وجَلَّ عُراةً غُرْلاً بُهْماً؟ قال: «بالحسَناتِ والسيِّئات»[٢].

وقالَ الشَّعْبيُّ: رحَلَ مسروقٌ[٣] إلىٰ البصرةِ في تفسيرِ آية. فقيلَ له: إنّ الذي يُفسِّرُها رحَلَ إلىٰ الشام، فتجهَّزَ ورحَلَ إلىٰ الشامِ حتىٰ عَلِمَ

---

(١) غرلاً: غيرَ مختونين.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣: ٣٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٠).

(٣) الإمام القدوة العَلَم أبو عائشة مسروق بن الأجدع الهمْداني الكوفي (ت ٦٢هـ)، من كبار التابعين والمخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ، ومن أجلِّ الفقهاء المتقنين أصحابِ عبد اللّه بن مسعود رضيَ اللّه عنه. =

تفسيرَها. وقالَ عِكرمةُ[١] في قولِهِ عزَّ وجَلّ: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠]: طلَبتُ ٱسمَ هذا الرجلِ الذي خرَجَ مِن بيتِهِ مهاجراً إلىٰ اللّهِ ورسولِهِ أربعَ عشْرةَ سنةً حتىٰ وجدتُه. وهُوَ: ضَمْرَةُ بنُ حبيب. انتهىٰ. مِن «تفسيرِ القُرطبيّ»[٢].

وكانَ الشيخُ سالمٌ بافضْل[٣] رضِيَ اللّهُ عنهُ مِن كبارِ الأئمّةِ المُعتمَدينَ والعلماءِ المُحقِّقين، وكادَ العِلمُ أن يندرِسَ في ناحيةِ حضرَمَوتَ فأحياه، وذلكَ أنهُ سافَرَ في طلبِ العِلمِ ومكَثَ أربعينَ سنةً في العراقِ وغيرِه، يظُنُّ أهلُهُ أنّهُ قد مات، ثم جاءَ ودرَّسَ في بلدِهِ وأقبَلَ عليهِ طلبَةُ العِلمِ مِن كلِّ مكان، وحصَّلَ علىٰ يديهِ خلْقٌ كثير، حتىٰ بلَغَ عددُ المفتِينَ في (تريمَ) ثلاثَمئةِ مُفتٍ في عصرٍ واحدٍ ومصنِّفينَ كثيرين.

فائدة:

ذكَرَ في «رَوضِ الأفكار» أنّ رجلاً سافَرَ سبْعَمئةِ فَرسَخٍ ليسأَلَ عن ستِّ كلمات: الأُولىٰ: ما أثقَلُ منَ السماواتِ والأرض؟ قال: البُهتانُ علىٰ البريء.

---

(١) العلاّمة الحافظ المفسِّر أبو عبد اللّه عكرمة بن عبد اللّه البربري المدني (٢٥ ــ ١٠٥هـ)، مولىٰ ابن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي.

(٢) سيأتي النقل عن الإمام القرطبي في غير ما موضع، وهو: الإمام أبو عبد اللّه محمد ابن أحمد الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت ٦٧١هـ)، من كبار المفسِّرين وجلّةِ العلماء، وكان صالحاً متعبِّداً وَرِعاً طارحاً للتكلُّف، يمشي بثوبٍ واحد وعلىٰ رأسه طاقية. من تآليفه: تفسيره المسمّىٰ: «الجامع لأحكام القرآن»، و«الأسنىٰ في شرح أسماء اللّه الحسنىٰ»، و«التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة»، وغيرها.

(٣) العالم الفقيه الشيخ سالم بافضل التَّريمي الحضرمي (ت ٥٨١هـ)، من قدماء علماء تَريم. طلب العلم في العراق وأحياه في بلده تريم، من تلامذته الكبار: السيّد سالم ابن بصري العَلَوي. «صلة الأهل» ص ٤٠ ــ ٦٦.

الثانيـة: ما أوسَعُ منَ الأرض؟ قال: الحَـقّ. الثالثة: ما أغنىٰ منَ البحر؟ قال: القلـبُ الغنيُّ بالقَناعـة. الرابعـة: ما أبرَدُ منَ الثلـج؟ قال: طلـبُ الحاجةِ منَ الصَّديـقِ إذا لـم يقضِها. الخامسـة: ما أقسىٰ منَ الحجـر؟ قال: قلـبُ الكافر. السادسة: ما أذَلُّ منَ اليتيم؟ قال: النّمّامُ عندَ المُقابَلة. انتهىٰ. نقَلَهُ في «نُزهةِ المجالس»[١].



(١) «نزهة المجالس ومنتخب النفائس» في المواعظ وأخبار الصالحين، لعبد الرحمن بن عبد السلام الصفُّوري الشافعي (ت ٨٩٤هـ). لكنّ لهذا الكتاب علةً! وهي أنّ مؤلِّفه لم ينحَرَّ في تنقيته من الأحاديث الواهية والموضوعة، فوقع فيه كثرةٌ منها، فينبغي الاحترازُ من ذلك عند مطالعته، واللّه الموفِّق.

الفصل الثالث
حكايات في اجتهاد أئمة السّلف في تحصيل العلم

قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

كانَ عبدُ اللّهِ بنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يقول: طَلَبتُ العِلمَ فلم أجِدْ أكثرَ منهُ في الأنصار. فكنتُ آتي الرجُلَ فأسألُ عنه، فيقالُ لي: نائم. فأتوسَّدُ رِدائي ثم اضْطجِعُ حتىٰ يخرُجَ إليَّ الظُّهر. فيقول: متىٰ كنت هنا يا ابنَ عمِّ رسولِ اللّه ﷺ؟ فأقول: منذُ زمَنٍ طويل. فيقول: بئسَما صنَعت. هلاّ أعلمتَني؟ فأقول: أردتُ أن تخرُجَ إليَّ وقد قضيتَ حاجتَك[١].

وفي روايةٍ عنهُ قال: وجدتُ أكثرَ حديثِ رسولِ اللّهِ ﷺ عندَ هذا الحيِّ من الأنصار، واللّهِ إنْ كنتُ لآتي الرجُلَ منهُم فيقال: هُوَ نائم، فلو شئتُ أن يوقَظَ لي، فأَدَعُهُ حتىٰ يخرُجَ لأَستَطْيِبَ بذلكَ حديثَه[٢].

فانظُرْ إلىٰ حَبْرِ الأُمةِ ومحبّتِهِ للعِلمِ وتعظيمِهِ أهلَهُ ورغبتِهِ فيه. وقد كان رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: ذَلَلْتُ طالباً فعَزَزْتُ مطلوباً.

---

(١) أخرجه الدارمي في «مسنده» (٥٧٢).

(٢) أخرجه الدارمي أيضاً (٥٧٣)، وغيره.

وقيلَ لهُ رضِيَ اللّهُ عنه: بمَ أدركْتَ العِلم؟ فقال: بلِسانٍ سَؤول، وقلبٍ عَقُول، وكفٍّ بَذُول.

ولبعضِهم:

العِلمُ في جُوعٍ وذُلٍّ ومِحنَةٍ وبُعدٍ عنِ الآباءِ والأهلِ والوطَنْ
ولو كانَ كسْبُ العِلمِ أسهلَ حِرفةً لمَا كان ذو جهلٍ علىٰ الأرضِ في زمَنْ

وأنشدَ الشافعيُّ رحمه اللّه:

أخي لن تنالَ العِلمَ إلا بستةٍ سأُنبيكَ عن تفصيلِها ببيانِ
ذكاءٍ، وحِرْصٍ، واجتهادٍ، وبُلْغَةٍ وصُحْبةِ أستاذٍ، وطُولِ زمانِ

* * *

قالَ الإمامُ النَوويُّ رَحِمَه اللّه: نشأَ الشافعيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ يتيماً في حِجْرِ أُمِّهِ في قلّةِ عيشٍ وضِيقِ حال، وكانَ في صِباهُ يجالِسُ العلماء، ويكتُبُ ما يَستفيدُهُ في العِظامِ ونحوِها لعَجزِه عنِ الوَرَقِ حتىٰ ملأَ منها خبايا. انتهىٰ[١].

ورُوِيَ أنّ الإمامَ الشافعيَّ رضِيَ اللّهُ عنهُ حفِظَ القرآنَ وهو ٱبنُ سبع سنين، وحفِظَ «المُوَطّأَ» للإمامِ مالكٍ وهُوَ ٱبنُ عشرِ سنين. وأَذِنَ لهُ شيخُهُ مسلمُ ابنُ خالدٍ الزَّنجيُّ[٢] في الإفتاءِ وهُوَ ٱبنُ خمسَ عشْرةَ سنة. وقالَ له: أفْتِ يا أبا عبدِ اللّه، فقد ــ واللّهِ ــ آنَ لكَ أن تُفتي. انتهىٰ[٣].

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» للإمام النووي (١ : ٤٦).

(٢) الإمام فقيه مكة أبو خالد مسلم بن خالد الزنجي المكّي (١٠٠ ــ ١٨٠هـ)، كان فقيهاً عابداً يصوم الدهر، تفقّه بابن جريج. لازمه الإمام الشافعي وتفقّه به حتىٰ أذن له بالفتيا.

(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» (١ : ٥٠).

وقالَ الربيع[١]: لم أرَ الشافعيَّ رضِيَ اللّهُ عنهُ آكلاً بنهارٍ ولا نائماً بليل، لاشتغالِهِ بالتصنيف.

وحُكِيَ عن الإمامِ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ عنه: لمَّا ورَدَ المدينةَ وجلَسَ في حلقةِ الإمامِ مالكٍ، والإمامُ مالكٌ يُملي «المُوطّأَ» علىٰ مَن هناك، فأملىٰ عليهِم ثمانيةَ عشَرَ حديثاً، وكانَ الإمامُ الشافعيُّ في أُخرَياتِ النّاس، ورمَقَهُ الإمامُ مالكٌ ببصَرِهِ وهُو يكتُبُ بأصبعِهِ علىٰ ظهرِ كفِّه، فلمَّا تفرَّقَ أهلُ المجلِسِ دعاهُ وسألَهُ عن بلدِهِ ونسَبِهِ فأخبَرَه، فقالَ الإمامُ مالك: رأيتُك تعبَثُ بيدِكَ علىٰ ظهرِ كفِّك. فقال الشافعي: لا، ولكنّي إذا أَمليْتَ حديثاً كتبتُهُ علىٰ ظهرِ كفِّي، وإن شئتَ أعدْتُ عليكَ ما أمليتَ علينا. فقال: هات. فأملىٰ عليهِ الثمانيةَ عشرَ حديثاً التي أملاها مِن حفْظِه، فأدناهُ منهُ وقرَّبَهُ وقالَ لهُ: يا محمَّد، اتَّقِ اللّهَ تعالىٰ، فإنّهُ سيكونُ لك شأن. أفادَ ذلكَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «مجموعِ كلامِه».

* * *

وذَكَرَ النَووِيُّ رحِمَهُ اللّهُ في مُقدّمةِ «مجموعِه» عن الشيخِ أبي إسحاقَ الشِّيرازِيِّ[٢] رضِيَ اللّهُ عنهُ أنّهُ قال: كنتُ أعيدُ كلَّ درسٍ مئةَ مرة. وإذا كانَ في

---

(١) الربيع بن سليمان بن عبد الجبّار المُرادي مولاهم المصري المؤذِّن (١٧٤ ـ ٢٧٠هـ)، الإمامُ المحدِّث، الفقيه الكبير، صاحب الإمام الشافعي وراوية كتبه. كان مؤذِّناً بجامع عمرو بن العاص بمصر، وكان الشافعي يُحبّه، وقال: ما خدمني أحدٌ ما خدمني الربيعُ بن سليمان.

(٢) الإمام الكبير الفقيه الأصولي العلاّمة الزاهد شيخ الإسلام أبو إسحاق إبراهيم بن علي ابن يوسف الفيروزابادي الشيرازي الشافعي (٣٩٣ ـ ٤٧٦هـ). قال أبو بكر الشاشي: أبو إسحاق حجة اللّه علىٰ أئمة العصر. وبحسن إخلاصه اشتهرت تصانيفه في =

المسألةِ بيتُ شعرٍ يُستشهَدُ بهِ حفِظتُ القصيدةَ كلَّها مِن أجلِه.

ورؤيَ رحِمَهُ اللّهُ في النّومِ بعدَ وفاتِهِ وعليهِ ثيابٌ بِيض، فقيلَ له: ما هذا؟ فقال: عزُّ العِلم. انتهى[١].

ورُوي أنّ الشيخَ أبا إسحاقَ المذكورَ ٱختصَرَ «التنبيه» من «تعليقةِ» شيخِهِ أبي حامد[٢]، وهيَ ثمانيةَ عَشَرَ مُجلَّداً، وكانَ يُصلّي عندَ كتابةِ كلِّ فصلٍ ركعتَينِ ويدعُو اللّهَ أن ينفَعَ بهِ قارئه. وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ مُجابَ الدَّعوة.

قالَ الحبيبُ عليُّ بنُ محمّدٍ الحَبشيُّ نفَعَ اللّهُ به: كانَ الشيخُ أبو إسحاقَ الشِّيرازِيُّ يكرِّرُ الدرسَ ألفَ مرة، وسيّدي أحمدُ بنُ زَينٍ الحبَشيُّ خمساً وعشرينَ مرة.

* * *

نقَلَ الفِرَبْريُّ[٣] عنِ الإمامِ البخاريِّ رحِمَه اللّهُ أنّهُ كان يقول: ما وضَعتُ في كتابي «الصحيح» حديثاً إلا ٱغتَسلتُ قبلَ ذلكَ وصلّيتُ ركعتَين. وعنهُ قال: صنَّفتُ كتابي «الصحيح» لِستَّ عشْرةَ سنة، خرّجتُهُ مِن ستِّمئةِ ألفِ حديث، وجعَلتُهُ حُجّةً بيني وبينَ اللّهِ تعالىٰ.

= الآفاق، كـ«التنبيه» و«المهذَّب» و«اللمع» وغيرها.

(١) مقدمة «المجموع شرح المهذَّب» (١: ١٤، ١٦).

(٢) الشيخ أبو حامد أحمد بن محمد بن أحمد الإسفراييني (٣٤٤ ـ ٤٠٦هـ)، شيخ طريقة العراقيين، حافظ المذهب وإمامه: جبلٌ من جبال العلم، وحبرٌ من أحبار الأئمة. له «تعليقةٌ» علّقها عنه البندنيجي، وكتابٌ في «أصول الفقه»، وغيرهما.

(٣) المحدِّث الثقة العالم أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن مطَر الفِرَبْري (٢٣١ ـ ٣٢٠هـ)، راوي «الجامع الصحيح» عن مؤلفه الإمام البخاري.

قالَ الشيخُ ٱبنُ حجرٍ الهيتميُّ[١] رحِمَهُ اللّه: قاسَيتُ في الجامعِ الأزهرِ منَ الجوعِ ما لا تحتمِلُهُ قُوىٰ البشَريةِ لولا مَعونةُ اللّهِ عزَّ وجَلَّ وتوفيقُه، بحيثُ أنّي جلَستُ فيهِ أربعَ سنينَ ما ذُقتُ اللَّحمَ إلا في ليلةٍ دُعينا لأكل، فإذا هُوَ لحمٌ لم يُوقَدْ عليه، فانتظرناهُ إلىٰ أنِ ٱبْهارَّ الليلُ[٢]، ثمَّ جيءَ بهِ فإذا هو يابِسٌ كما هُوَ فلم أستطعْ منهُ لُقمة.

ورُويَ أنّ الشيخَ المَحَلِيَّ[٣] شرحَ «المِنهاجَ» في عشرِ سنين، وشرَحَهُ الشيخُ ٱبنُ حجرٍ في تسعةِ أشهُر، فقيلَ لهُ في ذلك، فقال: إنّ الشيخَ المحليَّ ٱلتزَمَ الدليلَ والتعليلَ ونحنُ لم نلتزِمْ ذلك.

* * *

قالَ الحبيبُ الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللهُ عنهُ: كان شيخُنا السّيدُ أحمد دَحلان[٤] يمُرُّ علىٰ كلِّ درسٍ ستَّ عشْرةَ مرة، ويُعلِّقُهُ في

---

(١) الفقيه الكبير، العلامة المتفنن، الإمام شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن محمد بن حجر الهَيْتمي المصري ثم المكيّ (٩٠٩ ــ ٩٧٤هـ). إمام المتأخرين، وعمدة المحققين، علىٰ تصانيفه المعوَّل في تحرير المذهب.

(٢) ابْهَارَّ الليل: انتصف، أو: تراكبَتْ ظلمتُه، أو: ذهبت عامّتُه، أو: بقيَ نحوُ ثلُثِه. انتهىٰ. من «القاموس» (ب هـ ر).

(٣) الإمام العلاّمة البارع الفقيه المفسِّر الأصولي جلال الدين محمد بن أحمد المَحَلِّي المصري الشافعي (٧٩١ ــ ٨٦٤هـ). صنَّف التصانيف الدقيقة الجليلة كالتفسير الذي أتمّه الجلال السيوطي فسُمي «الجلالين» و«شرْح المنهاج» و«شرح جمع الجوامع» و«شرح الورقات»، وغيرها. كان مَهيباً صدّاعاً بالحق، يواجه بذلك الظلمة والحكّام.

(٤) العلاّمة الفقيه المؤرِّخ مفتي مكة أحمد بن زيني دَحْلان الشافعي المكي (١٢٣٢ ــ ١٣٠٤هـ). وُلد بمكة وتولىٰ فيها الإفتاء والتدريس، ووفاته بالمدينة. من مؤلفاته: =

ذِهنِهِ أربعَ مرات.

وكـانَ الشيـخُ عبـدُ اللّهِ بنُ عبـدِ الرحمـنِ بلْحـاجّ بافضْـل[١] صـاحـبُ «المُختصَر»[٢] يمُرُّ علىٰ كلِّ درسٍ عشرينَ مرة، ويُعلِّقُهُ في ذِهنِهِ خمسَ مرات. وبلَغَنـا أنّ الشيـخَ أحمـدَ بنَ مُوسىٰ بنِ عُجَيـلٍ اليمنـيَّ[٣] قرأَ «رسالـة» الإمـامِ الشافعـيِّ خمسَمِئـةِ مرة. وبلَغَنا أنّ الشيـخَ فضـلَ بنَ عبدِ اللّهِ بافضْـل صاحبَ (الشِّحْـرِ) قرأَ «صحيحَ البخاريِّ» ألفَ مرة. وأنّ بعـضَ علمـاءِ الهندِ في حفظِهِ القرآنَ يمُرُّ علىٰ كلِّ مُقرَإٍ ألفَ مرة. انتهىٰ.

كـان الحبيـبُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشـيُّ نفَـعَ اللّهُ بهِ يـروي عنِ الشيخِ زكريّـا الأنصـاريِّ أنّـهُ عاشَ نحوَ مئةِ سنـة، وأنّـهُ كانَ في سـنِّ الكِبَـرِ يـدرِّسُ محفوظاتِـهِ جميعَها مِن جميعِ الفنـونِ حتىٰ «متنَ الآجرُّوميّـةِ» مِن شدّةِ محبّتِـهِ وعنايتِهِ للعِلم. ويُروىٰ أنّ كتابَهُ «شرحَ التحرير» قُرِىءَ عليهِ سبعينَ مرة، وكانَ

= «الفتوحات الإسلامية»، و«خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام»، و«الدرر السنية في الردّ علىٰ الوهّابية»، وغيرها.

(١) العلاّمة الفقيه المحقّق عبد اللّه بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بافَضْل الحضرمي التريمي الشافعـي (٨٥٠ ــ ٩١٨هـ). ولد في تريم، وارتحـل لطلب العلم إلىٰ الشِّحْر وعَدَن فالحرمَين، ثم عاد إلىٰ الشحر وبها توفي. برعَ وتميّـز وفاق وبَعُد صِيتُه، وانتهت إليه رياسـة العلم في تلك النواحـي، وكان مع ذلك عابـداً وَرِعـاً زاهداً، متواضعاً حسَن الخُلُـق، كثيرَ السعي في حوائـج المسلميـن، وافـرَ الحُرمـة لـدىٰ السـلاطيـن. من مؤلفاته: المختصران: «الكبير» (وهو المقدمة الحضرمية) و «الصغير»، و «فتاوىٰ»، و «رسالة في فضل القائم بالأسحار»، وغيرها.

(٢) «المختصر» اثنان: كبير وهو المسمّىٰ بـ«مسائل التعليم»، وصغير.

(٣) العالم الفقيـه المحقق، وأحدُ كبار أولياء تهامة المعتقَدين. وفاتُه في ٢٥ ربيع الأول سنةَ ٦٩٠هـ. ولمحمـد عبده كيّال في ترجمتـه: «الفقيـه الذي لم ينصفـه التـاريخ» مطبوع.

يُخصِّصُ هذا الكتابَ مِن بينِ مُصنَّفاتِهِ الكثيرة، حتىٰ أنّهُ ماتَ وهُو علىٰ صدرِه. انتهىٰ. منَ «النهرِ المورود».

وكان سيّدُنا شيخُ الأئمّةِ المجتَهدينَ محمّدُ بنُ عَلَوي بنِ أحمدَ بنِ الأستاذِ الأعظَمِ[١] نفَعَ اللهُ بهِم في أيامِ طلبِهِ العِلمَ يُطالعُ قراءتَهُ في الليل، فيستغرقُ بعضَهُ أو جُلَّه، وربَّما استغرقَ الليلَ كلَّه.

وحُكِيَ أنّهُ ٱحترقَ عليهِ بالسِّراجِ ثلاثَ عشْرَةَ عِمامةً عندَ مطالَعتِه، لِشدّةِ ٱستغراقِهِ فيها، وإذا أحسَّ بالنوم يخرُجُ إلىٰ ساحلِ البحرِ يكرِّرُ محفوظاتِه. وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يحفَظُ القرآنَ و«التنبيهَ» وأكثرَ «المُهذَّب». ذَكَرَ ذلكَ الحبيبُ عيدروسُ بنُ عمرَ في «العِقد»[٢].

وحُكِيَ عنِ الشيخِ القُطبِ عبدِ اللّهِ بنِ أبي بكرٍ العيدروسِ رضِيَ اللّهُ عنهُ

---

(١) السيد الشريف الإمام العلامة الفقيه المحقق الورع الصالح محمد بن علوي بن أحمد ابن الفقيه المقدم محمد بن علوي الحسيني التريمي، مولده بتريم وبها وفاته سنة ٧٦٧هـ. حفظ القرآن الكريم في صغره، و«التنبيه» وأكثر «المهذب»، وتفقه ببلده علىٰ العلامة عبد اللّه بافضل، وسلك ولبس من شيخه الإمام الشيخ عبد اللّه باعلوي ابن عم أبيه، وأخذ الفقه والطب والحساب عن الشيخ سعد الفقيه بافضل، ورحل للأخذ عن أهل العلم وللاستزادة منه إلىٰ زبيد وتعز وعدن، ثم حج وجاور بالحرمين وسمع من كثيرين، ورحل إلىٰ (مقدشوه) ولازم بها علماءها، وأخذ عن الشيخ محمد بن عبد الصمد الجهوي، فقرأ عليه التفسير والحديث والفقه والتصوف وعلوم العربية، وكان فقيهاً أصولياً مشاركاً. له أخبار كثيرة في طلب العلم والحرص عليه، وانتفع به الناس بعد عودته إلىٰ تريم، وممن أخذ عنه الإمام الشيخ عبد الرحمٰن ابن محمد السقاف، وشيخه الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر باعبّاد، وأجاز لهما إجازة عامة، ومنهم محمد بن عمر (أبو مريّم)، وغيرهم كثير. وله كراماتٌ كثيرة، رحمه اللّه ورضي عنه. «المَشرَع» (١ : ٣٧٣ ـ ٣٧٥).

(٢) «عقد اليواقيت الجوهرية» (١ : ٤).

أنهُ كان يأخُذُ الكتابَ الذي هُوَ قريبُ حجْمِ «المِنهاج»، فيُطالعُ فيهِ مِن أوّلِ الليلِ حتىٰ يأتيَ علىٰ آخرِهِ من ليلتِهِ تلك.

وحُكِيَ عنهُ أنهُ قال: قد آخُذُ شيئاً من الكتُبِ مثلَ «نشرِ المَحاسنِ»[١] وكتابِ «أطرافِ العجائبِ» وقتَ الظُّهر، وأطالعُهُ وأُتقنُ ما فيه، وما يأتي وقتُ العصرِ إلا وقد أتيتُ علىٰ آخره. وكنتُ أودُّ أن أُفنيَ مُهجَتي في الاجتهادِ وأهوىٰ ذلكَ وأُحِبُّهُ حبّاً ضرورياً.

وكانَ سيّدُنا الشيخُ الكبيرُ عبدُ الرحمنِ بنُ عليِّ بنِ أبي بكرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُم يقول: ما أحبُّ الحياةَ إلا لِمُطالعةِ الكتُب، ولأزدادَ منَ الخير، ولأُشرفَ علىٰ العلومِ النافعة. وكانَ من مقروءاتِهِ علىٰ والدِهِ الشيخِ عليٍّ «الإحياء»، قرأَهُ عليهِ أربعينَ مرّةً وقُرِىءَ عليه أربعينَ مرّةً أيضاً. انتهىٰ.

وكانَ سيّدُنا الإمامُ الجليلُ أحمدُ بنُ زينِ الحَبشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: مِن حينِ الصِّغرِ وأيامِ الصِّبا ونحنُ نتلهّفُ علىٰ طلبِ العِلمِ والخيرِ ولا نجدُ المُعينَ في بلدِنا ولا مَن يشفي الغَليل. وكانَ معَنا تطلُّعٌ وتَوَلُّعٌ وتألُّهٌ لطلَبِ الزيادةِ منَ الخيرِ وأفعالِ البرِّ سيّما طلبُ العِلم.

وكانَ يرحَلُ في طلبِهِ إلىٰ البُلدانِ القريبةِ منهُ مثلِ (شِبامَ) و(تريسَ) و(سيؤون)، ويمشي إليها مِن غيرِ مركوب. ذكَرَهُ سيّدُنا عيدروسُ بنُ عمرَ في «عِقدِ اليواقيت».

وفيهِ أيضاً: أنّ الحبيبَ العارفَ باللّهِ حسنَ بنَ صالحٍ البحرَ[٢] كان

---

(١) «نشر المحاسن الغالية، في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية» للإمام العلامة الولي الصالح عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨هـ). وهو مطبوع.

(٢) السيد الشريف، البدر الزاهر، جبل الزهد والعبادة، الإمام التقي العارف بالله الحسن=

يرتحـلُ إلىٰ (تريم) لطلبِ العِلـمِ هُوَ والمعلِّـمُ عبدُ اللّهِ بنُ سُمَيـر[١]، ويُقيمانِ هنـاكَ المدّةَ الطويلـة، ولـم يكنْ لهُمـا طعـامٌ إلا اليسيـرُ من التمرِ غداءً وعشاءً مجاهـدةً لأنفُسِهما واقتداءً منهُما بهِ صَلَـواتُ اللّهِ عليـهِ وسلامُه، إذ كانَ عليهِ السلامُ يَمضي عليهِ الشهرُ والشّهرانِ وليسَ لهُ طعامٌ إلا التمرَ والماء.

وكانَ الحبيـبُ حسَنٌ المذكـورُ يقرأُ الأربعيـنَ مرةً مِن سـورة (يسٓ) عندَ ضريحِ سيّدِنا الفقيهِ المقدَّمِ[٢] علىٰ نيّةِ أنّ اللّهَ يُسهّلُ عليهِ معرفةَ العِبارة. انتهىٰ.

وفي «النهرِ الموردِ» عنِ الحبيبِ عيدروسِ بنِ عمرَ الحبَشيِّ أن الحبيبَ الإمامَ عبدَ اللّهِ بنَ عمرَ بنِ يحيىٰ[٣] رضِيَ اللّهُ عنهُ لَمّا كانَ ليلةُ زفافِهِ علىٰ زوجتِهِ

= ابن صالح البحر الجفري العلوي الحسيني، مولده سنة ١١٩١هـ، ووفاته بقرية (ذي أصبح) سنة ١٢٧٣هـ. أخذ عن كبار رجال عصره، وتخرّج بهم، كالإمام أحمد بن عمر بن سميط، ووالده الإمام عمر بن زين بن سميط، والسيد الإمام عمر بن سقاف، والحبيـب حامد بن عمر حامد باعلـوي، وغيرهم كثيـر بتريم وشِبام وسيؤون. وكان صاحب فتوح عظيمة، وأول ما قرأ وتعلم علىٰ يد الشيخ الصالح عبد اللّه بن سعد بن سُمَيـر، ثم صار الفقيه المذكـور من خواصّه، وأفـرده بترجمـةٍ اعترافـاً منـه بفضلـه وتقدّمـه، سمّاها: «قلادة النحر» (مخطوطة).

(١) الشيخ الفقيـه المعلم الصالح عبد اللّه بن سعد بن سُمَيـر، مولـده بـ(خلع راشد) سنة ١١٨٠هـ، ووفاته بها سنةَ ١٢٦٦هـ، أخذ عن علماء عصره وفقهائه بحضرموت، وهو والد الشيخ سالم صاحب «سفينة النجاة» المتوفىٰ بحيدر أباد سنة ١٢٧٦هـ.

(٢) الإمام الكبير، شيخ الشيوخ، ومَنْ تُنسب إليه طريقة السادة آل أبي علوي، القطب محمد بن علي بن محمد بن علي صاحب مرباط، الملقّب بالفقيه المقدَّم (٥٧٤ ــ ٦٥٣هـ)، أحد أكابر الأولياء وصدور العلماء. قبره بمقبرة بشّار بـ(تريم)، ترياقٌ للقاصدين.

(٣) السيد الشريف، العالم الفقيه المحقق، مفتي حضرموت في عصره، عبد اللّه بن عمر ابن يحيىٰ العلوي الحسينـي، مولده بقريـة (المَسِيلـة) قرب تريم سنة ١٢٠٩هـ وبها وفاته سنة ١٢٦٥هـ. كان فقيهاً عالماً مفتياً، له فتـاوىٰ جُمعت وطُبعت بعد وفاته، =

قالَ خالُهُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينِ بنِ طاهر : أنا أفعَلُ لعبدِ اللّهِ ما يُلهيهِ عن العروسِ إلىٰ أنْ يُصْبِح! وكانَ يعلمُ مِن حالِ الحبيبِ عبدِ اللّهِ محبتَهُ الأكيدةَ للعِلمِ، خصُوصاً لو رأىٰ كتاباً غريباً؛ لا يصبرُ عنهُ حتىٰ يستوعبَهُ بالمُطالَعة. فوضَعَ لهُ كتاباً غريباً في موضِعِ مرورِه، فلمّا رآهُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ حمَلَهُ ونظَرَ فيه، ولم يزلْ يُطالعُ فيهِ إلىٰ الصَّباحِ ونَسِيَ الزوجة.

وكانَ يُحكىٰ عنِ السيّدِ أحمدَ بنِ حسينِ العيدروسِ[1] أنهُ خطبَ بنتَ عمِّه، فأبىٰ أبوها مِن تزويجِها منه، فنذَرَ للّهِ أنها إن تيسَّرتْ لهُ أن يُطالعَ «الشِّفاءَ» كلَّه في ليلةٍ واحدةٍ وهِيَ ليلةُ زفافِها والسِّراجُ في يدِها، ثم إنها تيسَّرت لهُ، فلمّا زُفّتْ إليهِ طرَحَ السِّراجَ في يدِها وجعَلَ يُطالعُهُ: مِن أوّلِهِ حتىٰ أتىٰ عليهِ كلِّه وهِيَ ماسكةٌ السِّراج. انتهىٰ.

وعن سيّدِنا الإمامِ الهُمَامِ أحمدَ بنِ عمرَ الهندوانِ[2] رضِيَ اللهُ عنه قال:

= وكان كثيرَ الأسفار والترحال داعياً إلىٰ اللّه ومرشداً ومذكّراً، وجاب كثيراً من الأقطار، وهو المعروف عند أصحاب الأثبات والتراجم بصاحب البقرة. وممن أخذ عنه من علماء الشام شيخ المتأخرين العلامة المسند الشيخ عبد الرحمٰن بن محمد الكزبري الحفيد المتوفىٰ سنة ١٢٦٢هـ، وتدبّجا معاً كما هو مذكورٌ في «ثبت الكزبري» وغيرهما. وأما شيوخه فكثيرون أجلّهم خالاه الإمامان: طاهر وعبد اللّه ابنا الحسين بن طاهر، أما بقيتهم فتُنظَر في ترجمته في «عقد اليواقيت» لتلميذه عيدروس ابن عمر الحبشي (١: ١٢٧ ــ ١٣٠).

(١) لعلّه السيد الشريف أحمد بن الحسين بن عبد اللّه العيدروس المتوفىٰ سنة ٩٦٨هـ.

(٢) السيّد الشريف، العبد الصالح الذاكر، العالم العامل، الحبيب أحمد بن عمر بن عقيل الهندوان باعلوي، المتوفىٰ بتريم سنةَ ١١٢٢هـ. من أقران الإمام الحداد وأصدقائه. كان منوّر القلب، سليم الصدر، ليّن الجانب، حليماً زاهداً ذاكراً، ملازماً للإفادة ونفع الناس وإيناسهم. رحمه اللّه تعالىٰ.

كنتُ في صِغَـري إذا أشـكَلتْ عليَّ مسألةٌ لا أنامُ حتىٰ تتَّضِحَ لي، فإذا اتَّضحت لي كانَ ذلكَ عندي خيـراً منَ الدنيـا. وكانتِ الشمعةُ كثيراً ما تحرقُ رأسي عندَ المُطالَعـةِ باللّيل، ولم أدرِ عندَ المُطالَعـةِ بعَشاءٍ ولا بغَداء، وربّما أكلتُهُ فأقـولُ لأهلـي: هاتوا عَشاي، وربما لم آكلْهُ وأحسِـبُ أنّي أكلتُه، لشدّةِ الاستغراقِ في المُطالَعة. وكنتُ أطالعُ في «تُحفةِ» الشيخِ ٱبنِ حجر وأنا ابنُ عشرِ سنينَ أو أقلَّ وغيـرِ ذلكَ من الكتُبِ المُطوَّلَـة، وحفِظـتُ في «التُّحفـةِ» إلىٰ بـابِ الصـلاة. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الحبيـبُ أحمدُ بنُ عمرَ بنِ سُميـطٍ نفعَ اللّهُ به: كانَ الحبيبُ محمّـدُ بنُ زينِ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنـه في أوّلِ أمـرِهِ يأتـي كلَّ يومٍ بجُزءٍ منَ «الإحياء».

وقرأَ سيّدُنا الحسَنُ بنُ عبدِ اللّهِ الحدّادُ[1] «الإحياءَ» نحوَ اثنتَينِ وسبعينَ مرةً.

وكانَ سيّدُنا عمرُ بنُ حامدٍ عَلَوي[2] يُطالعُ قراءتَهُ علىٰ الحبيبِ عبدِ اللّهِ

---

(١) السيد الشريف، والبدر المنيف، أحد العبّاد الزهّاد، الإمام الحسن بن الإمام عبد اللّه ابن علوي الحداد العلوي الحسيني التريمـي، مولده بتريـم سنة ١٠٩٩هـ، وبها وفاته سنة ١١٨٨هـ. تلقىٰ العلم عن والده وشيوخ عصره، وكان متقشّفاً زاهداً غيرَ عابىء بالنـاس، يحب العلم ومذاكرته ومطالعـة «الإحيـاء». أفرده بالترجمـة حفيده السيد علوي بن أحمد بن حسن ـ الآتية ترجمتـه ـ بمصنف سمـاه «المواهـب والمنن في مناقـب جدي الحسن» في ثلاثـة أجـزاء، وهو مفيـدٌ جداً وفيه تراجمُ نفيسـةٌ للأسرة الحدّادية التريمية.

(٢) السيد الشريف، العالـم الراسخ، العابد الصالح، عمـر بن حامد بن علوي بن حامد ابن حامد المنفِّر باعلـوي الحسينـي التريمـي، ولد بتريـم وتوفـي بها سنـة ١١٥٤ أو ١١٥٥هـ، صحب الإمـام الحداد ولازمه، وأشـار الأخيـر إلىٰ أنه خليفته بتريم بعـد=

الحـدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ ثمانيَ عشْرةَ مرّة. والحبيبُ أحمدُ بنُ زينِ الحَبشيُّ ثلاثاً وعشرينَ مرة. انتهىٰ.

وفي «الشجَـرةِ العَلَـويـة»: أنّ مِن مقـروءاتِ السيّـدِ عَلَـوي بـنِ أحمـدَ الحـدّادِ[1] رضِيَ اللّهُ عنـهُ علىٰ أبيـهِ «تحفةَ المُحتـاجِ» ثـلاثَ مراتٍ فضـلاً عن غيرِها.

وكانَ الشيـخُ الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحَبشـيُّ نفَـعَ اللّهُ بهِ يحكـي عنِ الحبيبِ عمرَ بنِ زينِ بنِ سُميطٍ[2] رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ لِبثَ نحوَ سبعَ عشرةَ سنةً لا

= موته، وهو جد السادة آل حامد المتولِّين إمامة (مسجد باعلوي) بتريم.

(١) العلامة المتفنـن الحبيب علوي بن أحمـد بن الحسـن ابن الإمام عبد اللّه الحداد، ولد بتريم سنة ١١٦٣هـ وبها توفـي سنة ١٢٣٢هـ. كان فقيهاً عالمـاً متوسعاً، رحـل إلىٰ كثير من الأقطـار وخاصة عُمان وأخذ بها عن جماعـة كثيرة، والأحسـاء كذلك، واستفاد منه أهل عُمان والأحساء وجرت بينه وبينهم إفاداتٌ علمية وأدبية. أمّا والده فهو العلامة الولي الحبيب أحمد بن الحسن الحدّاد، مولده ووفاته بتريم (١١٢٧ ــ ١٢٠٤هـ). له عدة مؤلفات، وهو الذي هذَّب كتاب «تثبيت الفؤاد» وجمع كل كلام فيه مع ما يوافقه.

(٢) السيـد الشـريـف، العالـم الـزاهـد، الصـالـح العـابـد، عمر بن زين بن علـوي بن عبد الرحمن بن سميط العلوي الحسيني، التريمي مولداً الشبامي وفاةً، ولد بتريم سنة ١١٢٠هـ وتوفي بشبام سنة ١٢٠٧هـ. أدرك الإمام الحداد صغيراً وأخذ عنه أخذاً تاماً وعقَلَ منه ومن أخباره الشـيءَ الكثير، ثم تخرّج بأخيه محمد بن زين وبالحبيب عمر ابن حامد باعلوي والحبيب أحمـد بن زين الحبشي وابنه جعفر والحبيب الحسين بن عبد اللّه الحـداد وغيـرهم. وهاجـر مع والـده وأهل بيتـه إلىٰ شبـام سنـة ١١٣٥هـ واستنـروا بها ونفع اللّه بهم أهلها النفعَ العميـم. جمع بعض مواعظه وكلامه تلميذه الشيـخ الأديب عبد اللّه بن عوض باذيب، وترجـم هو لأخيه الحبيب محمد بترجمة مختصرة، وله رحلة أملاها عقب حجّه عام ١١٩٠هـ تقريباً، رحمه اللّه تعالىٰ.

يضَعُ ظهرَهُ علىٰ الأرض، وكانَ مُداوِماً علىٰ العِلمِ وقراءةِ كتُبِه، وكانَ أكثرُ مَنْ يقرأُ لهُ الكتبَ ابنُهُ سيّدُنا أحمدُ بنُ عمر، وكانَ إذا رأىٰ عليهِ شيئاً من آثارِ النومِ في اللّيلِ يُعطيهِ شيئاً منَ اللَّوزِ والزّبيبِ يستَدفعُ بهِ النُّعاس. انتهىٰ. منَ «النهرِ المورود».

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: بلَغَنا أنّ الحبيبَ أحمدَ بنَ زينٍ الحبَشيَّ كان لا ينامُ كلَّ ليلةٍ حتىٰ يمُرَّ علىٰ سبعينَ ورقةً مِن «شرحِ المُهَذّبِ» في القِطَعِ الكِبار. وكانَ الحبيبُ سقّافُ بنُ محمّدٍ[1] قاضي (سَيْؤون) يأخُذُ «العُباب» ــ وهُوَ مجلَّدٌ ضخْم ــ ويجلِسُ في ظِلِّ جدارِهِ فيُتمُّهُ قبلَ أن يَفيءَ الظلُّ عنِ الجدار. وكان الشيخُ عمرُ المِحْضار[2] يحفَظُ «المِنهاج».

وكانوا يقرأونَ «المُهذَّبَ» مُدارَسةً، وجزّأوهُ أربعينَ جزءاً، فيقرأونَ كلَّ يومٍ جزءاً.

---

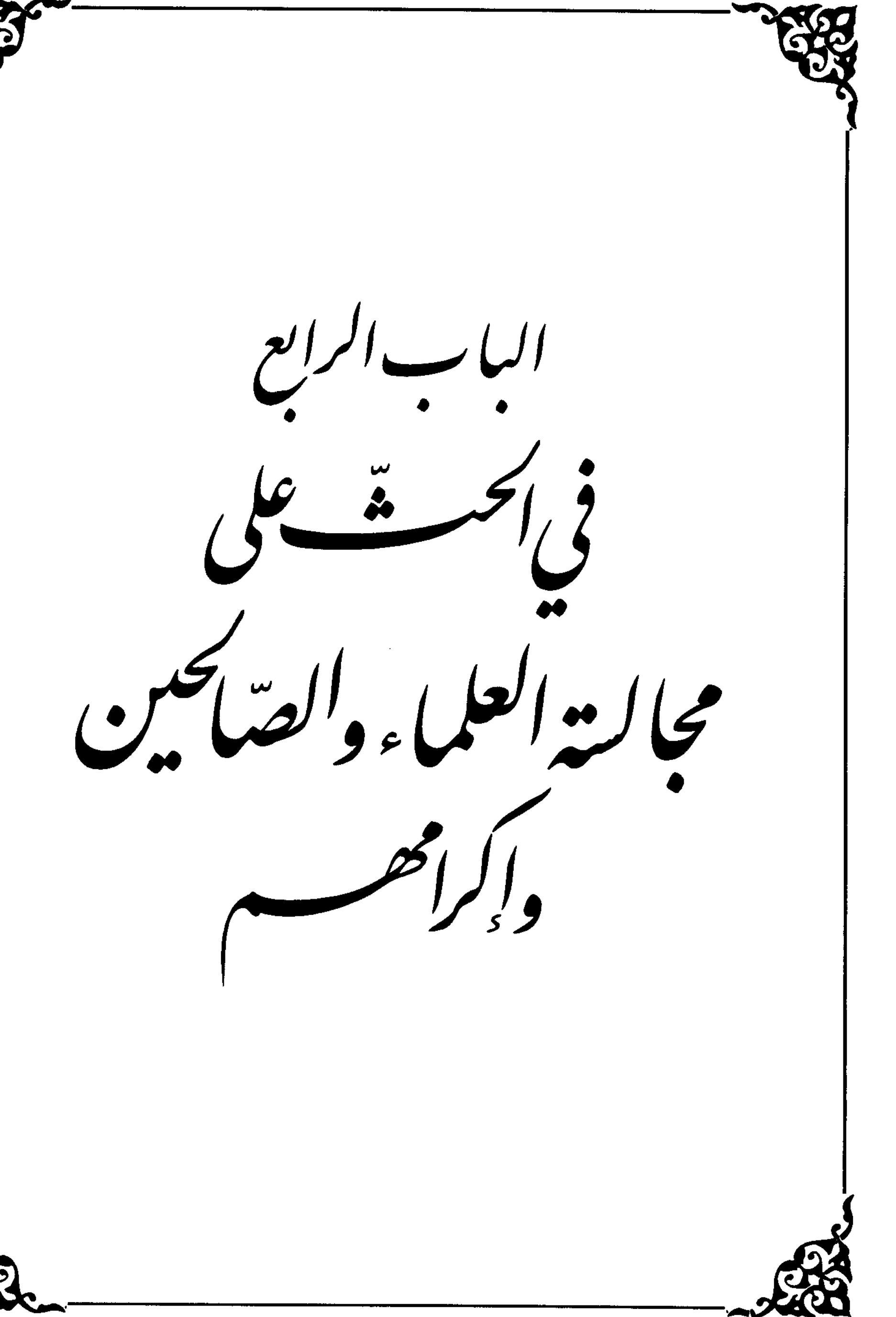
(١) السيد الشريف، العلامة الفقيه، القاضي سقاف بن محمد بن عمر الصافي السقاف العلوي الحسيني السيؤوني، ولد بسيؤون ونشأ بها، وبها توفي سنة ١١٩٥هـ، له مناقبُ باهرة ومزايا فاخرة وفضلٌ مشهود، أفرده ابنه السيد الحسن بكتاب ضمنه ترجمته ومناقبه، أعقب من الولد خمسة كلهم أئمة علماء هم: الحسن ــ المذكور ــ وعمر، وعلوي، ومحمد، وعبد الرحمن، فيهم من تولىٰ القضاء وكم من ذريته من الأكابر.

(٢) هو سيدنا الإمام المغوار، المغمور بالأنوار، القوّام بالأسحار، السيد الشريف شيخ شيوخ عصره، وأشهر مشاهير مصره، عمر المحضار بن الشيخ الإمام عبد الرحمن السقاف العلوي الحسيني التريمي، ولد بتريم وبها توفي ساجداً في صلاة الظهر في الثالث من ذي القعدة سنة ٨٣٣هـ له مناقب عظيمة ومزايا فخيمة يعرفها من طالعها في «الغرر» و«المشرَع» وغيرهما من كتب التراجم، نفع اللّه به.

وقالَ سيّـدُنا الإمـامُ أحمـدُ بنُ عمرَ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ: إنّ سيّدَنا أحمدَ بنَ زينٍ الحبَشيَّ منَ المُستَهتَرِينَ بذِكْرِ اللّه[1]، وقد يتّفقُ مجلسٌ واحدٌ منَ الشَّرْقِ إلىٰ الصُّفُورِ في قراءةِ الكتُب.

❊ ❊ ❊

(١) المستهتَر بالذكر: المستغرَق فيه والمكثِر منه إكثاراً شديداً.



الباب الرابع

في الحثّ على مجالسة العلماء والصّالحين وإكرامهم



وفيه أربعة فصول :

الأول : في الحثّ علىٰ حضور مجالس العلماء .

الثاني : في الحثّ علىٰ مجالسةِ الأولياء وصحبةِ الأخيار .

الثالث : في الحثّ علىٰ الأدبِ مع العلماء والأولياء وتعظيمهم .

الرابع : في التحذير من الإنكار علىٰ الأولياء والصالحين .

الفصل الأول
في الحثّ على حضور مجالس العلماء

عن يحيىٰ بنِ أبي كثيرٍ رحِمَهُ اللّهُ في قولِه تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، قال: هيَ مجالسُ الفِقْه[١].

وعن عبدِ اللّهِ بنِ عمرٍو رضيَ اللّهُ عنهُما، أنّ رسولَ اللّه ﷺ دخَلَ المسجدَ فرأىٰ مَجلِسَين، أحدُ المَجلِسَين يدعُونَ اللّهَ ويرغَبونَ إليه، والآخرُ يتعلَّمونَ الفِقْهَ ويعلِّمُون، فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «كلا المَجلِسَينِ علىٰ خير، أحدُهُما أفضلُ منَ الآخر، أما هؤلاءِ فيدعُونَ اللّهَ ويرغبُونَ إليهِ إن شاءَ أعطاهُمْ وإن شاءَ منَعَهُم. وأمّا هؤلاءِ فيتعلَّمُونَ ويعلِّمونَ الجاهل، وإنّما بُعِثْتُ مُعلِّماً، وهؤلاءِ أفضلُ». فأتاهُمْ حتّىٰ جلَسَ معَهُم[٢].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللّه عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا مرَرْتُم برياضِ الجنّةِ فارتَعوا». قالوا: يا رسولَ اللّه، وما رياضُ الجنّة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكْر»[٣]. وعنه أيضاً رضيَ اللّه عنه مرفوعاً: «إنّ للّهِ سَيّارةً منَ الملائكةِ

---

(١) رواه عنه الخطيبُ البغدادي في كتابه: «الفقيه والمتفقّه».

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» برقم (٢٢٩) والدارمي في «مسنده» (٣٥٥)، وغيرهما.

(٣) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٣٥١٠) وحسَّنه.

يطلُبونَ حِلَقَ الذِّكْر، فإذا أتَوْا عليهِمْ، حَفُّوا بهِم»[١].

وعن عطاءٍ[٢] رحِمَهُ اللّهُ قال: حِلَقُ الذِّكْرِ هِيَ مجالِسُ الحَلالِ والحرام، تعرِفُ كيفَ تشتري وتبيع، وتُصلّي وتصومُ وتحُجّ، وتنكِحُ وتُطلِّقُ، وأشباهَ ذلك.

وعن أبي واقدٍ اللَّيثيِّ، أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ بينَما هُوَ جالسٌ في المسجدِ والنّاسُ مَعَه، إذ أقبلَ ثلاثةُ نَفَر، فأقبَلَ اثنانِ إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ، وذهَبَ واحد. قال: فوقفا علىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ. فأمّا أحدُهما فرأىٰ فُرْجةً في الحَلقةِ فجلَسَ فيها، وأمّا الآخَرُ فجَلَسَ خلفَهُم، وأمّا الثالثُ فأدبَرَ ذاهباً. فلمّا فَرَغَ رسولُ اللّهِ ﷺ، قال: «ألا أُخْبِرُكُم عنِ النَّفرِ الثّلاثة؟ أمّا أحدُهُم فأوىٰ إلىٰ اللّهِ فآواهُ اللّه. وأمّا الآخَرُ فاستَحْيا منَ اللّهِ فاْستحيا اللّهُ مِنه. وأمّا الآخَرُ فأَعْرَضَ عنِ اللّهِ فأَعرَضَ اللّهُ عنه»[٣].

وعن أبي أُمامةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّ لقمانَ الحكيمَ عليهِ السلامُ[٤] قال لابنِه: يا بُنيَّ، عليكَ بمُجالَسةِ العُلماء، واسْمَعْ كلامَ الحُكماء، فإنّ اللّهَ لَيُحيِي القلبَ الميِّتَ بنُورِ الحِكمةِ كما يُحيي الأرضَ

---

(١) أخرجه البزّار (٣٠٦٢ كشف الأستار)، وحسَّن إسناده الهيثمي في «المجمع» (١٠ : ٧٧).

(٢) الإمام التابعي الجليل مفتي الحرَم أبو محمد عطاء بنُ أبي رباح القرشي مولاهم المكّي (ت ١١٤هـ). أدرك مئتين من أصحاب النبي ﷺ. قال محمدٌ الباقر رضي اللّه عنه وقد اجتمع عليه الناس: عليكم بعطاء، هو واللّه خيرٌ لكم مني.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦) ومسلمٌ (٢١٧٦) وغيرهما.

(٤) صدِّيقٌ حكيمٌ معمَّر، كان في زمان بني إسرائيل، قيل: هو ابنُ أخت أيوب عليه السلام. رُويت عنه الكثير من الحِكَم والوصايا. وللعلاّمة الحبيب علي بن حسن العطّاس رحمه اللّه: «لقمان الحكيم وحِكَمُه»، مطبوع.

الميِّتةَ بوابلِ القَطْرِ»(١).

وكانَ سهلُ بنُ عبدِ اللّهِ التُّسْتَرِيُّ رحِمَهُ اللّهُ يقول: مَن أرادَ أن ينظُرَ إلىٰ مَجالِسِ الأنبياءِ فلْينظُرْ إلىٰ مجالسِ العلماء، فهُم خلفاءُ الرّسُلِ في أُممِهِم، ووارِثوهُم في عِلمِهم، فمَجالِسُهم مجالسُ خلافةِ النبوّة.

وعن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللّه عنه قال: المتَّقونَ سادة، والفقهاءُ قادة، ومُجالَستُهُم زيادة(٢).

وعن ٱبنِ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُما قال: مجلِسُ فقْهٍ خيرٌ مِن عبادةِ ستينَ سنَة.

وعن عمرَ بنِ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ الرجُلَ لَيخرُجُ مِن منزِلِهِ وعليهِ منَ الذنوبِ مثْلُ جبالِ تِهامة، فإذا سمِعَ العالِمَ خافَ وٱسترجَعَ عن ذنوبِه، وانصرَفَ إلىٰ منزِلِهِ وما عليهِ ذنوب، فلا تُفارِقوا مجالسَ العلماء، فإنّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ لم يخلُقْ علىٰ وجهِ الأرضِ تُربةً أعزَّ عليهِ من مجالسِ الذِّكر. ذكَرَهُ في «الإحياء».

وقالَ كعبُ الأحبارِ(٣) رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: لو أنّ ثوابَ مجالسِ العِلمِ بدا

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨: ٢٣٦ برقم ٧٨١٠) والبزّار (٢٣٧) وغيرهما، من حديث أبي أمامة رضيَ اللّه عنه، وفي سنده ضعيفان. وذكره الإمام مالكٌ في «الموطّأ» بلاغاً عن لقمان عليه السلام.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩: ١٠٥ برقم ٨٥٥٣) موقوفاً علىٰ ابن مسعود رضيَ اللّه عنه. قال الهيثمي في «المجمع» (٢: ١٩٠): رجاله موثّقون. ويُروىٰ مرفوعاً عن أنس، أخرجه ابن النجّار، لكنه لا يصح.

(٣) العلاّمة الحبْر كعب بن ماتع الحِمْيَري اليماني (ت٣٢هـ)، كان يهودياً فأسلمَ بعد وفاة النبي ﷺ. قدم المدينة زمن عمر فجالس الصحابة وأخذ عنهم السنن، وكان يحدِّثهم عن الكتب الإسرائيلية. وكان حسن الإسلام، من نبلاء العلماء. =

للناسِ لاقتتَلوا عليهِ حتىٰ يترُكَ كلُّ ذي إمارةٍ إمارتَهُ وكلُّ ذي سُوقٍ سوقَه .

وقالَ عطاءٌ رحِمَهُ اللّه : مجلسُ عِلمٍ يكفِّرُ سبعينَ مجلساً مِن مجالسِ اللَّهو .

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه : مجلسُ الدعوةِ إلىٰ اللّهِ وذِكرِ الصالحينَ صابونُ القلوبِ وماءُ القلوب . أمّا القلوبُ الكثيفةُ التي فيها شيءٌ فلها صابون ، وأمّا القلوبُ الحيّةُ فلها ماءٌ يسقِيها ويزيدُها حياة .

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه : ما يُعقَدُ مجلسُ عِلمٍ أو ذكرِ اللّهِ إلا وأنشأَ اللّهُ مِن ذلكَ المجلسِ سحابةً بيضاءَ ، فيسوقُها إلىٰ قومٍ لم يعمَلوا خيراً قطّ ، ويُمطِرُها عليهِم ، فيصيروا كلُّهم منَ السعَداء .

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه : إذا نصَبَ ربُّكَ موكباً إلهيّاً لا تقُلْ : لا أحضُر ، فإنّهُ ما ينصِبُ لكَ موكباً وحدَكَ . أُدخُلْ في برَكاتِ الصالحين ، لو قعَدتَ عندَهم وأنتَ غافلٌ ولكنْ لكَ نيّةٌ صالحةٌ أعطَوْكَ ممّا معَهم . هُمُ القومُ لا يَشقىٰ بهِم جَليسُهم .

تنبيه :

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعنا به : وربّما ٱجتنَبَ بعضُ الجُهّالِ أهلَ العِلمِ ومجالسَ العلماءِ خوفاً أن يعرِفَ ما يلزَمُهُ العمَلُ به ، يظُنُّ أنّ ذلكَ عُذرٌ له ، وهيْهات ! إنّما ذلكَ يزيدُهُ تشديداً ومطالَبة ؛ لأنّهُ أعرَضَ عن أحكامِ اللّهِ عِلماً وعمَلاً فهُوَ أشدّ . وغايةُ العُذرِ في أشياءَ تكونُ لمَن رُبِّيَ في الباديةِ وفي بُعدٍ عن أهلِ الإسلام . ومَن هُوَ مسلمٌ وآباؤهُ مسلمونَ أنّىٰ لهُ العُذر . انتهىٰ . مِن «تثبيتِ الفؤاد» .

قالَ الحبيبُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينِ بنِ طاهرٍ نفَعَ اللّهُ به:

يا تاركاً للمَدارسْ، ليسَ هذا حسَنْ	مجالسُ العِلمِ ما تُترَكْ وفيها المِنَنْ
مجالسُ الخيرِ فيها كلُّ فضلٍ ومَنّْ	مجالسُ الخيرِ تَدفَعْ للفتَنْ والمِحَنْ
مجالسُ العِلمِ تحوي الخيرَ في كلِّ فنّْ	طُوبىٰ لعبدٍ جعَلْها مالُهْ والسَّكَنْ
مجالسُ العِلمِ تذهَبْ بالكدَرْ والدَّرَنْ	بِها بِها يصلُحُ الظاهرْ وما قد بطَنْ
ذا الحقُّ صِدْقاً يقيناً ليسَ حدْساً وظَنّْ	كمْ جاءت آيات معروفة لأهلِ الفِطَنْ
وكمْ أحاديث مَرْوية لِجَدِّ الحَسَنْ	شِيْ في البخاريْ وفي مسلمْ وشِيْ في السُّنَنْ
حضورُ مجلسِ علمٍ خيرْ مِنَ ألفٍ أنْ	تَعودَهم أو تُشيِّعَهُم وأن تَركَعَنْ

فائدة:

قالَ أبو اللّيث: مَن جلَسَ عندَ عالِمٍ ولم يقدِرْ علىٰ حفظِ شيءٍ منَ العِلمِ نالَ سبعَ كرامات: فضلَ المتعلِّمين، وحبْسَهُ عنِ الذنوب، ونزولَ الرحمةِ عليهِ حالَ خروجِهِ مِن بيتِه، وإذا نزَلَتِ الرحمةُ علىٰ أهلِ الحلَقةِ حصَلَ لهُ نصيبُه، ويُكتَبُ لهُ طاعةٌ ما دامَ مستمعاً، وإذا ضاقَ قلبُهُ لعدَمِ الفَهمِ صارَ غمُّهُ وسيلةً إلىٰ حضرةِ اللّهِ تعالىٰ لقولِهِ تعالىٰ: «أنا عندَ المنكسِرةِ قلوبُهم مِن أجْلي»[1]. أي: جابِرُهم وناصِرُهم. انتهىٰ. مِنْ «بُغيةِ المسترشدين».

* * *

---

(١) وهو منقول عن نبيّ اللّه موسىٰ عليه السلام، كما أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢: ٣٦٤) عن مالك بن دينار، وعن عمران القصيران (٦: ١٧٧)، كلاهما يرفعه إلىٰ موسىٰ عليه السلام. أمّا في المرفوع إلىٰ نبينا محمدٍ ﷺ فلا أصلَ له.

الفصل الثاني
في الحثّ على مجالسة الأولياء وصحبة الصّالحين

عنِ ٱبنِ عباس رضِيَ اللّٰهُ عنهُما قال: قلت: يا رسولَ اللّٰه، أيُّ جُلَسائنا خير؟ قال: «مَن ذكَّرَكُم باللّٰهِ رؤيتُه، وزادَ في عِلْمِكُمْ مَنْطِقُه، وذَكَّرَكُمْ بالآخِرةِ عِلْمُه»[١].

قالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ عمرَ بنِ سميطٍ نفعَ اللّٰهُ به: الخيرُ والشرُّ مَذْرِيٌّ[٢] في الإنسان، ولا يظهَرُ إلا بمُخالَطتِهِ لغيرِه، فإنْ خالَطَ الأخيارَ ظهَرَ منهُ فعلُ الخير، وإن خالَطَ الأشرارَ ظهَرَ منهُ فعلُ الشرّ.

وقالَ الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّٰهِ بنُ عَلَوي الحدّاد: ٱعلَمْ أنّ مُخالَطةَ أهلِ الخيرِ ومُجالَستَهم تزرَعُ في القلبِ محبّةَ الخيرِ وتُعِينُ علىٰ العمَلِ به، كما أنّ مخالَطةَ أهلِ الشرِّ ومُجالَستَهم تغرِسُ في القلبِ حبَّ الشرِّ والعمَلَ به. وأيضاً،

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٤ : ٣٢٦ برقم ٢٤٣٦) قال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (١ : ١٤٧): رواته رواة الصحيح إلا مباركَ بنَ حسّان. وبنحوه قال الهيثمي في «المجمع» (١٠ : ٢٢٦).

(٢) مذري: أي مبذور، وهي باللهجة الحضرمية، لأنهم يسمون البذر: ذرياً، فيقولون: فلانٌ يذري، أي: يضع البذر في الأرض، والمراد هنا أن الخير والشر مبذورٌ في جِبِلّة الإنسان وطينته، واللّٰه أعلم.

مَن خالَطَ قوماً وعاشَرَهُم أحبَّهُم ضرورةً، سواءٌ أكانوا أخياراً أم أشراراً. والمرءُ معَ مَن أحبَّ في الدنيا والآخرة.

قالَ سيّدُنا الإمامُ الهُمَامُ محمّدُ بنُ زينِ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنه: ولا تُجالسْ إلا مَن تُذَكِّرُكَ باللّهِ رؤيتُه، ويُنهِضُكَ إلىٰ اللّهِ بحالِهِ وهمّتِه. عليكَ بهِ إذا وجدتَه، وعَضَّ عليهِ بالنواجذِ إن لَقِيتَه، فإنّهُ لا أنفعَ للقلبِ ولا أعوَدَ عليهِ من مُجالَسةِ الصالحينَ والأخيار، ولا أضرَّ عليهِ مِن مُجالَسةِ غيرِ الجنسِ مِن أهلِ الغَفلةِ والأشرار.

وفي الحديث... «المَرْءُ علىٰ دِينِ خلِيلِهِ»[1]. وقد قيل: مَن صَحِبَ الأخيارَ جعَلَهُ اللّهُ منَ الأخيارِ وإن كانَ منَ الأشرار. ومَن صحِبَ الأشرارَ جعَلَهُ اللّهُ منَ الأشرارِ وإن كانَ منَ الأخيار. فإذا عجَزْتَ عن مُشاهدتِهم ورؤيتِهم ــ كما هُوَ الغالبُ في هذا الزمانِ ــ فلا أحسنَ مِن مُطالَعةِ سيَرِهم وأخبارِهم ومَناقِبِهم وآثارِهم. انتهىٰ. مِن «مجمَعِ البحرَين».

وعن سيّدِنا الإمامِ العارفِ باللّهِ أحمدَ بنِ زَينٍ الحبَشيِّ نفَعَ اللّهُ بهِ قال: الفَهمُ نورٌ يُشرِقُ في القلب، ولا يُعطاهُ إلا مَن جالَسَ الصالحينَ أو طالَعَ كتُبَهم. وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: مُجالَسةُ الصالحينَ أنفَعُ للعبدِ مِن مئةِ ــ أو قالَ: ألفِ ــ عُزلة. قال: وقد تكونُ مُجالَسةُ شخصٍ واحدٍ أنفعَ مِن مُجالَسةِ سبعينَ ألفاً.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: ولو لم تكُنْ

---

(١) أخرجه أحمد (٢: ٣٠٣) وأبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) وغيرهم، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه، بلفظ: «الرجل علىٰ دين خليله، فلينظر أحدكم مَنْ يُخالِل».

في مُجالَسةِ الصالحينَ إلا خَصلةٌ واحدةٌ لكفَتْ، وهي: جذبُ همِّهم وقلوبِهم ونيّاتِهم لكَ ورفعُها إياكَ إلىٰ منازلِهم، وإلاّ بأنْ سَلِمتَ منَ الخواطرِ الرديئة، ولم يكنْ شيءٌ مِن ذلك، فتكفيكَ السلامةُ منَ المعاصي ما دُمتَ بحضْرتِهم.

وعنِ الإمامِ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: أربعةٌ تزيدُ في العقْل: ترْكُ الفضولِ منَ الكلام، والسِّواك، ومُجالَسةُ الصالحين، والعلماء.

وعن بعضِ الصالحينَ قال: مَن صلّىٰ وراءَ مغفورٍ غُفِرَ له، ومَن واكَلَ مغفوراً غُفِرَ له، ومن جَلَسَ معَ الصالحينَ زادتْ رغبتُهُ في الطاعات، ومَن جلسَ معَ العلماءِ ازدادَ منَ العِلمِ والعمَل. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا إبراهيمُ الخَوّاصُ[1] رحِمَهُ اللّه: دواءُ القلوبِ خمسةُ أشياء: قراءةُ القرآنِ بالتدبُّر، وإخلاءُ البطْن، وقيامُ الليل، والتضرُّعُ عندَ السّحَر، ومُجالَسةُ الصالحين. ذكَرَهُ النوَوِيُّ في «الأذكار»[2].

ومنَ الحكاياتِ المأثورةِ في مُجالَسةِ الصالحينَ: ما حُكِيَ عنِ الشيخِ الكبيرِ أبي سليمانَ الدارانيِّ[3] رحِمَهُ اللّهُ أنّهُ قال: اختلَفْتُ إلىٰ مجلسِ بعضِ القُصَّاص، فأثَّرَ كلامُهُ في قلبي، فلمّا قُمتُ لم يبقَ في قلبي منهُ شيء، فعُدْتُ ثانياً، فسَمِعتُ كلامَه، فبَقِيَ في قلبي أثرُ كلامِهِ في الطّريق، ثم ذهَبَ عنّي، ثم عُدْتُ ثالثاً، فبَقِيَ أثرُ كلامِهِ في قلبي حتىٰ رجَعْتُ إلىٰ منزِلي، فكسَرْتُ آلاتِ

---

(١) الإمام القدوة أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الخَوّاص (ت ٢٩١هـ). كان أوحَدَ المشايخ في وقته، من أقران الجنيد والنوري. ممّن سلك طريق التوكُّل، وله في السياحات والرياضات مقاماتٌ وقدمٌ راسخ.

(٢) في كتاب «تلاوة القرآن» منه، فصل: مسائل وآداب ينبغي للقارىء الاعتناء بها.

(٣) زاهد عصره الإمام الرباني أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية العَنْسي الداراني (١٤٠ ــ ٢١٥هـ). من أجلِّ المشايخ وأحسَنهم كلاماً في معاني السلوك.

المُخالَفاتِ ولَزِمْتُ الطّريق. انتهىٰ. ذكَرَهُ سيّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ حسَنٍ العطّاسُ ــ نفَعَ اللّهُ بهِ ــ في «القِرطاس».

ورُوِيَ أنّهُ مرَّ بمجلسِ منصـورِ بنِ عمّارٍ[١] رحِمَهُ اللّهُ غلامٌ مملوكٌ لبعضِ التُّجّـار، فسَمِعَـهُ يقول: مَن أعطـىٰ هذا الفقيـرَ أربعـةَ دراهـمَ دعَـوْتُ لهُ أربـعَ دعَـوات. وكانَ معَ الغلامِ أربعـةُ دراهمَ بعثَهُ مَولاهُ ليأخُذَ لهُ بها حاجة، فدفَعَها إلىٰ الفقيـر، فدعا له. ورجَعَ إلىٰ سيّدِهِ بلا شيء. فسألَهُ عنِ الدَّعواتِ التي دعا بها، فقال: الأُولىٰ: أن يُخَلِّصَني اللّهُ منَ الرِّقّ. فأعتقَه، قال: والثانية؟ فقال: أن يخلُـفَ اللّهُ عليَّ الدراهـم. فقـال: لكَ أربعـةُ آلافِ درهم. قال: والثالثة؟ قـال: أن يتوبَ اللّهُ عليَّ وعليـك. فقال: إنّي تُبـتُ إلىٰ اللّه. قـال: والرابعة؟ قال: أن يَغفِـرَ اللّهُ لي ولكَ وللمُذكِّـرِ وللقـوم. فقالَ الرجل: أمّا هذهِ فليستْ إليَّ. فلمّا نامَ الرجلُ رأىٰ في مَنامِهِ الحقَّ عزَّ وجَلّ. فقال: أتُراكَ تفعَلُ ما إليكَ ولا أفعَـلُ مـا إليّ؟ قد غَفـرْتُ لكَ وللغـلامِ وللمُذَكِّـرِ وللقـوم. انتهـىٰ. مِنَ «الفصولِ العلميّة» للإمامِ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنه.

❊ ❊ ❊

وقال نفَعَ اللّهُ بـه: عليكَ بصُحبةِ الأخيارِ والتـأدُّبِ بآدابِهـم، والاستفادةِ مِن أقوالِهم وأفعالِهـم، وزيـارةِ الأحيـاءِ والأمـواتِ منهُم، معَ التعظيمِ البالغِ لهُـم وحُسـنِ الظنِّ الصادقِ فيهم، فبذلكَ يحصُلُ الانتفاعُ للزائرين، ويَفيضُ الـمَـدَدُ مِن جهتِهـم. وإنّمـا قـلَّ انتفاعُ أهـلِ الزمـانِ بالصّـالحيـنَ مِن حيثُ قلّةُ التعظيمِ لهُم وضَعـفُ حُسنِ الظنِّ فيهم، فحُرِموا بسببِ ذلكَ برَكاتِهـم ولم

---

(١) الواعـظُ البليغ الصالـح أحد الأكابـر أبو السَّـرِيّ منصـور بن عمّـار بن كثير السُّلمـي الخراسـاني (ت في حدود ٢٠٠هـ). كان عديـم النظيـر في الموعظـة والتذكير. من كلامه: من جزع من مصائب الدنيا تحوّلت مصيبته في دينه.

يشاهِدوا كراماتِهـم، حتىٰ توهَّموا أنّ الزمانَ خـالٍ منَ الأولياء، وهم بحمدِ اللّهِ كثيرونَ ظاهرونَ ومَخفِيّونَ ولا يَعرِفُهم إلاّ مَن نوَّرَ اللّهُ قلبَهُ بأنوارِ التعظيمِ وحُسنِ الظنِّ فيهِم. وقد قيل: المَدَدُ في المشهَد.

وقـالَ بعضُ العارفين: مَن أرادَ أن يظفَرَ بالخيرِ كلِّهِ مِن مُجالَسةِ الأولياءِ فعليهِ بثلاث: أن لا يصرِفَ همَّهُ عنهُم، فإنَّهم ينظُرونَ إلىٰ القلبِ كما تنظُرُ الماءَ في الزُّجاج، ولا يُطالِبَهـم بالعِصمة، فإنّهُم محفوظون، وأن لا يسمَعَ تنقيصَهم للغيـر، فإنّهم إنّما يريدونَ بذلكَ تكميلَـه. وللوَلـيِّ أن يتكلَّـمَ فيمَـن دونَهُ ولو بمنزِلة. انتهىٰ.

قالَ الشيخُ أبو الحسنِ الشاذِليُّ[1] رضِيَ اللّهُ عنه: إذا حضَرتُم درسَ أحدٍ منَ العلمـاءِ أوِ الصالحيـنَ ولـم تفهَمـوا شيئـاً مِن كلامِـهِ فسلِّموا له، وإيّاكُم أن تقولـوا: «ليسَ في كلامِ هذا فائـدة»، فإنّ الملائكـةَ والجِـنَّ يحضُرونَ دروسَ العلمـاءِ والصالحين، فربَّما كانَ ذلكَ العالِـمُ أوِ الصالـحُ يُرسِلُ كلامَهُ بحسْبِ فهْمِ أولئـكَ الحاضرينَ منَ الملائكـةِ والجِـنِّ فقطْ دونَ الحاضريـنَ منَ الإنسِ القاصرين. انتهىٰ.

❊ ❊ ❊

قالَ سيّدُنا الإمامُ العارفُ باللّهِ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ برَكةَ مجالَسةِ الأكابرِ تعودُ ولو بعدَ حين. ولا يقولُ الإنسان: «إنّي لم أرَ أنّي حصَّلْتُ شيئـاً ولا وقَعتُ علىٰ شيء»، فإنّ مَن جدَّ وجَدَ ومَن سارَ علىٰ الدّربِ

---

(١) الوليُّ الكبير، أستاذ العارفيـن، القطب الفرد، الإمام أبو الحسن علي بن عبد اللّه بن عبد الجبّـار الشاذلي المغربـي (٥٩١ ــ ٦٥٦هـ). إمام السادة الشاذلية، ومَن عمّت بركاته الآفاق، صاحب الأوراد الجليلة الذائعة كـ«حزب البحر» وغيره.

وصَل، والغالبُ أنّ الزيادةَ الحاصلةَ للسَّالِكِ لطريقِ اللّهِ تكونُ خُفية، وما مثالُهُ إلا الزيـادةُ الواقعـةُ في الناميـاتِ منَ الحيوانـاتِ والأشجـار، فإنّـكَ ترىٰ مثلاً الصبيَّ كلَّ يوم كاليومِ الذي قبلَهُ ولا تظهَرُ لكَ فيهِ زيادة، والنخلةُ مثلاً كذلك، ولا شـكَّ في أنّ النمُوَّ واقعٌ ولكنّهُ خفِيّ. وأمّا الزيادةُ الجلِيّةُ الواضحةُ الظاهرةُ فهِيَ نـادرةٌ لا تكونُ إلا علىٰ جهَةِ خَـرْقِ العادة. فلْيلزَمِ العبدُ بُدَّهُ اللازمَ وينتَظِرْ فضْلَ اللّه. فقد ورَدَ: «إنّ لِربِّـكُم في أيّامِ دهْرِكُم نَفَحات، ألا فتَعرَّضوا لها»[١]. والتعرُّضُ يكونُ بالتشميرِ في مَرْضاةِ العليِّ الكبير. انتهىٰ. مِن «النهرِ المورود».

وقالَ سيّدُنا الإمامُ الشيخُ عليُّ بنُ أبي بكرٍ السكْرانُ باعَلَوي نفعَ اللّهُ بهما في كتابِهِ «مَعارجِ الهداية»: رُويَ أنّ الشيخَ الكبيرَ محمّدَ بنَ حُسَينٍ البَجَليَّ[٢] رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ قال: رأيتُ رسولَ اللّهِ ﷺ في المَنام. فقلت: يا رسولَ اللّه، أيُّ الأعمالِ أفضل؟ فقال: وقوفُكَ بينَ يديْ وَليٍّ للّهِ كحَلْبِ شاةٍ أو كشيِّ بيضةٍ أفضلُ مَن أن تعبُدَ اللّهَ حتىٰ تتقطَّعَ في العبادةِ إرْباً إرْباً. فقلتُ: يا رسولَ اللّه، حيّاً كانَ أو ميِّـتاً؟ فقال: حيّاً كانَ أو ميِّـتاً.

قالَ بعضُهم: وذلكَ لأنّ الواقفَ بينَ يدي الوَليِّ يندَرجُ فيهِ ويدخُلُ تحتَ ٱستيـلاءِ شمولِـه، فيكونُ الوَلـيُّ واسطتَـهُ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ، فيحصُلُ لهُ ـــ بتلكَ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٩ : ٢٣٣) و«الأوسط» من حديث محمد بن مسلمة رضيَ اللّه عنه، قـال في «المجمع» (١٠ : ٢٣١): فيه من لم أعرف، ومـن عرفتهم وُثقـوا. انتهىٰ. وأخرجـه الطبراني أيضاً في «الكبيـر» (برقم ٧٢٠) من حديث أنس رضي اللّه عنه، قال في «المجمع» (١٠ : ٢٣١): إسناده رجاله رجال الصحيح غير عيسىٰ بن موسىٰ. وهو ثقة. انتهىٰ. قلت: وله مع ذلك شواهد تزيده قوةً.

(٢) الشيخ محمد بن حسين البجلي اليمني، من العلماء الأجلاّء الصالحين، وأحد الأولياء المعتقَدين، له كراماتٌ شهيرةٌ عند أهل بلده. توفي سنةَ ٦٢١هـ، ودُفن بقرية عَواجَهْ باليمن. «جامع كرامات الأولياء» (١ : ١٩٧).

الوَقْفةِ بواسطةِ الوَليّ ــ ما لم يحصُلْ بعبادتِهِ حتىٰ يتقطَّعَ إرْباً إرْباً، ويكونُ الحاصلُ على قدْرِ آستعدادِ الوَليّ، فإنّ الإمداداتِ علىٰ قدْرِ الاستعدادات. انتهىٰ. ذكَرَهُ سيّدُنا العلاّمةُ أحمدُ بنُ حسنٍ الحدّادُ في كتابِهِ «الفوائدِ السَّنِية».

وسُئلَ سيّدُنا العارفُ باللّهِ عبدُ اللّهِ بنُ مُحسنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ بهِ عن معنىٰ قولِهم: وقوفُكَ بينَ يديْ وَليٍّ للّهِ تعالىٰ حيٍّ أو ميّتٍ خيرٌ مِن أن تتقطَّعَ في العبادةِ إرْباً إرْباً[١]، فقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: هذا الفضْلُ لا يحصُلُ إلاّ إن وقَفَ بينَ يدَي الوَليِّ وهُوَ يعلَمُ أنّهُ ولِيٌّ للّه، بأن يُطلِعَهُ اللّهُ علىٰ ولايتِه. فقيلَ له: هذا مُشكِل. فقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: ليسَ بمُشكِل. أمَا كانَ أبو بكرٍ الصِّدّيقُ رضِيَ اللّهُ عنهُ مثلاً وأبو لهَبٍ جلَسا معَ النبيِّ ﷺ وأكلا معَه؟ لكنْ أبو بكرٍ جلَسَ معَهُ وهُوَ يعلَمُ أنّهُ نبيُّ اللّهِ ورسولُه عِلمَ حقيقة، فحصَلَ لهُ ما حصَلَ حتىٰ صارَ أفضَلَ الناس. وأبو لهبٍ جلَسَ معَهُ ولكنْ لا يعلَمُ أنّهُ نبيٌّ ورسول، بل يعلَمُ أنّهُ يتيمُ أبي طالبٍ ورجلٌ مِن قريشٍ وابنُ أبيهِ وأُمِّه، فلم يحصُلْ لهُ شيءٌ ممّا حصَلَ لأبي بكر. وإذا كانَ النبيُّ ﷺ لا تحصُلُ بمُجالَستِهِ هذهِ المَزيّةُ إلا بالعِلمِ فكيفَ بغيرِه؟ وأمّا مُطلَقُ الوقوفِ بينَ يديْ وَليٍّ فلا يَخلو مِن فائدة، خصوصاً إذا كانَ معَ آعتقاد. والمَدَدُ في المشهَد، فبِقدْرِ المُشاهَداتِ تكونُ القابليّات. انتهىٰ. مِن «مجموعِ كلامِه»، جمْعِ تلميذِه الشيخِ عبدِ الرحمنِ بارَجاء[٢].

وقالَ الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا به: ما تظهَرُ برَكاتُ الصالحِ علىٰ مَن صحِبَهُ إلا بعدَ موتِه. والوَليُّ يكونُ اعتناؤهُ بقَرابتِهِ واللائذينَ بهِ بعدَ موتِهِ أكثرَ منَ اعتنائهِ بهِم في حياتِه؛ لأنّهُ في حياتِهِ

---

(١) المشار إليه في الرؤيا المتقدمة من كلام الشيخ محمد بن حسين البجلي رضيَ اللّه عنه.

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عمر عرفان بارجاء، المولود بتريم والمتوفىٰ بها سنةَ ١٣٥٥هـ، ووالده أحدُ الخمسة الذين أسّسوا رباط تريم سنة ١٣٠٥هـ، رحمهما اللّه تعالىٰ.

مشغولٌ بالتكليف، وبعدَ موتِهِ طرَحَ اللّهُ عنهُ الأعباء. انتهىٰ.

وسُئِلَ الشيخُ أحمدُ بنُ عُقبةَ الحضرَميُّ[1]: هل إمدادُ الحيِّ أقوىٰ أمِ الميت؟ فقال: بل إمدادُ الميّت؛ لأنّهُ في بِساطِ الحقّ.

ولمّا حضَرَتِ الشيخَ عليّاً المتّقيَ[2] الوفاةُ حزِنَ تلميذُهُ الشيخُ عبدُ الوهاب، فقالَ له: لا تحزَنْ، نحنُ قومٌ نمُدُّ المريدينَ بعدَ الوفاةِ كما نمُدُّهم في الحياةِ وأكثر. انتهىٰ.

فائدة:

نُقِلَ عن صاحبِ كتابِ «أعمالِ التاريخ»: أنّ مَن كتَبَ تاريخَ وليٍّ للّهِ تعالىٰ كانَ معَهُ في الجنّة، ومَن طالَعَ ٱسمَهُ في التاريخِ حُباً لهُ كأنّما زارَه، ومَن زارَ وليّاً غُفِرَتْ ذنوبُهُ ما لم يؤذِهِ أو يؤذِ مسلماً في طريقِه. انتهىٰ. مِن مقدمةِ كتابِ «القِرطاس» لسيّدِنا الإمامِ عليِّ بنِ حسَنٍ العطّاسِ نفَعَ اللّهُ به.

---

(١) هو سيدنا الإمام العارف الرباني الشيخ أحمد بن عبد القادر بن عقبة الشبامي الحضرمي. ولد بشِبام حضرموت ونشأ بها ورحل إلىٰ تريم وسيؤون ونواحيها للأخذ عن الشيوخ، أدرك سيدنا عمر المحضار وأخذ عنه ولبس منه ومن أخيه العيدروس، رحل إلىٰ مكة وأخذ عنه الأكابر كالسخاوي والسيوطي ولبسا منه، وتتلمذ علىٰ يديه العارف الكبير الشيخ زروق البرلسي المغربي وتخرّج به وذكره في كثيرٍ من كتبه، وأفرد ترجمته. ترجم له السخاوي في «الضوء اللامع» والمناوي في «طبقات الصوفية»، وغيرُهما، وكانت وفاته بصحراء مصر الغربية غريباً وحيداً، رحمه اللّه تعالىٰ.

(٢) العلاّمة المحدِّث الوليُّ الصالح العارف باللّه علي بن حسام الدين الهندي الملقَّب بالمُتّقي (ت بعد٩٥٢هـ). جاور بمكة مع جماعة من مريديه يتعبّدون ولا يخرجون إلا للصلاة في الحرم. اجتمع به الشيخ عبد الوهّاب الشعراني بمكة وانتفع به. من مؤلفاته الشهيرة كتابه «كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال» في الحديث.

الفصل الثالث
في الحثّ على الأدب مع العلماء والأولياء وتعظيمهم

قالَ أبو عثمانَ الحِيْرِيُّ(١) رحِمَهُ اللّه: الصُّحبةُ معَ اللّهِ تعالىٰ بدوامِ الهيبةِ والمُراقبة، ومعَ الرسولِ ﷺ باتّباعِ سُنّتِهِ ولزومِ ظاهِرِ العِلم، ومعَ أولياءِ اللّهِ تعالىٰ بالاحترامِ والخدمة، ومعَ الأهلِ بحُسنِ الخلُق، ومعَ الإخوانِ بدوامِ البِشْرِ ما لم يكنْ إثماً، ومعَ الجُهّالِ بالدعاءِ لهُم والرحمةِ عليهِم. انتهىٰ.

فعليكَ أيها الأخُ بتعظيمِ أهلِ العِلمِ وإعطائهم حقَّهم كائنينَ ما كانوا؛ لأنّهم حُمّالُ الشريعةِ المُطهَّرة، الدُّعاةُ إلىٰ اللّه، الآمِرونَ بالمعروفِ والناهونَ عنِ المُنكَر، فبِهم يُقتدىٰ، وبنورِهم يُهتدىٰ.

والقرآنُ الكريمُ مُشعِرٌ بشَرفِهم وفضلِهم، والسُّنةُ المحمَّديةُ مُصرِّحةٌ برفعةِ قدْرِهم. قالَ اللّهُ عزَّ وجَلّ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

---

(١) الإمام الواعظ القدوة، شيخ الإسلام، وليُّ اللّه تعالىٰ أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحِيري النيسابوري الصوفي (٢٣٠ ــ ٢٩٨هـ). كان في الخراسانيين كالجُنيد في العراقيين. قال الحاكم: لم يختلف مشايخنا أنّ أبا عثمان كان مجابَ الدعوة، وكان مجْمَع العُبّاد والزهّاد.

وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ليسَ مِنْ أُمّتي مَن لم يُجِلَّ كبيرَنا، ويَرحمْ صغيرَنا، ويَعرِفْ لعالِمنا حقَّه»[١].

ووردَ أيضاً عنه ﷺ: «أُغْدُ عالِماً أو مُتعلِّماً أو مُستمِعاً أو مُحبّاً ولا تكُنِ الخامسةَ فتهلِك»[٢].

وعن أبي أُمامةَ رضيَ اللّه عنه مرفوعاً: «ثلاثةٌ لا يَستخِفُّ بهم إلا مُنافِق: ذو الشَّيبةِ في الإسلام، وذو العِلْم، وإمامٌ مُقسِط»[٣].

قالَ الإمامُ الشّعرانيُّ[٤] رحِمَهُ اللّهُ في «الأنوارِ القُدسيّة»: أُخِذَ علينا العهدُ العامُّ مِن رسولِ اللّه ﷺ أن نُبجِّلَ العلماءَ والصالحينَ والأكابرَ وإن لم يعمَلوا بعِلمِهم ــ يعني كلَّه ــ ونقومَ بواجبِ حقوقِهم ونكِلَ أمرَهُم إلىٰ اللّهِ تعالىٰ، فمَنْ أخَلَّ بواجبِ حُقُوقِهم مِن الإكرامِ والتبجيلِ فقد خانَ اللّهَ ورسولَه، فإن

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥: ٣٢٣)، والطبراني في «الكبير»، وغيرهما، من حديث عُبادةَ بن الصامت رضيَ اللّه عنه، بإسنادٍ حسن كما قال الهيثمي في «المجمع» (١: ١٢٧).

(٢) أخرجه البيهقي في «شُعب الإيمان» (١٥٨١) والبزّار في «مسنده» (٩: ٩٤) والطبراني في معاجمه الثلاثة، من حديث أبي بَكرة رضيَ اللّه عنه. قال الهيثمي في «المجمع» (١: ١٢٢): رجاله موثقون.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٨١٩)، وفي سنده ضعفاء.

(٤) الإمام العلاّمة الصالح الوليّ أبو المواهب عبد الوهّاب بن أحمد بن علي الشعراني الشافعي (٨٩٨ ــ ٩٧٣هـ). تتلمذ على أئمة عصره كشيخ الإسلام زكريا والشهاب الرملي والأشموني وغيرهم، وبرع في العلوم، ثم سلك طريق التصوف والمجاهدة فبلغ فيه الغاية. أكثر تصانيفه في التصوّف وآدابه وتراجم رجاله، فمنها: «الطبقات الكبرىٰ» و«الوسطىٰ» و«الصغرىٰ» في تراجم الأولياء، «تنبيه المغترين»، «العهود المحمدية»، وغيرها من المؤلفات التي بلغت نحو ثلاثمئة. رحمه اللّه تعالىٰ.

العلماءَ نُوّابُ رسولِ اللّهِ ﷺ، وحَمَلةُ شريعتِه وخُدّامُه، فمَن ٱستهانَ بهِم تعدّىٰ ذلكَ إلىٰ رسـولِ اللّهِ ﷺ، وذلكَ كُفر، وقد مـالَ إلىٰ ذلكَ بعضُ العلماءِ وكفَّرَ مَن قالَ في عِمامةِ العالِم: هذهِ عُمَيْمةُ العالِم، بالتّصغير. انتهىٰ.

قالَ الشيـخُ أبو الحسَنِ ابنُ بُنانٍ[1] رحِمَهُ اللّه: لا يُعظِّمُ أقدارَ الأولياءِ إلا مَن كان عظيمَ القَدرِ عندَ اللّه.

***

قالَ الشيـخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحـدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: ينبغي أن يحتَـرِمَ الإنسانُ جانـبَ الربوبيّـةِ أولاً، ثم جانبَ النبـوّة، ثم جانـبَ العلمـاءِ العاملين، ثم جانبَ أولياءِ اللّهِ تعالىٰ؛ لأنّهم خاصّتُه، وأنْ لا يعترضَ علىٰ أحدٍ ويُخصِّصَه. والإمـامُ الغزاليُّ ــ معَ كثرةِ ما ٱعترَضَ علىٰ علماءِ السُّوءِ ــ لم يُخصِّصْ أحداً بذِكْر. انتهىٰ.

وقـالَ سيّدُنا الإمامُ أحمـدُ بنُ حسَنٍ العطّـاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: النظَرُ إلىٰ الصّالحيـنَ ومحبّتُهم فائـدةٌ عظيمـة، فكيفَ نظَـرُهم إلىٰ مَنِ التمَسَ برَكتَهـم؟ وينبغي للإنسانِ إذا جلَـسَ عندَ الصّالحينَ أن يُحسِنَ ظنَّهُ ويُفرِغَ قلبَهُ عن جميعِ الأشياءِ: الزَّينِ منها والشَّين.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إذا نظَـرتَ إلىٰ الأوليـاءِ والصّالحينَ بعينِ الانتقادِ والاعتـراضِ طُرِدْتَ عنهُم وحُرِمـتَ برَكتَهـم؛ لأنّهـم يتحرَّكـونَ بحركـةٍ غيرِ

---

(١) العارف الولي أبو الحسن ــ ويُقال: أبو الحسين ــ ابنُ بُنان المصري (ت بعد ٣٢٠هـ تقديراً). من أجلّة مشايخ مصر، صحب أبا سعيد الخرّاز وإليه ينتمي. وفاته بأرض التِّيه شمال مصر. وهو غير الإمام أبي الحسن بُنان بن محمد الحمّال الواسطي نزيل مصر وشيخها (ت ٣١٦هـ).

حركتِك ونيّةٍ غيرِ نيتِك، وإذا نظرتَ إليهِم بعينِ الاعتقادِ ٱقتَديْتَ بهِم وٱهتَديتَ بهَديِهم وسرَىٰ فيكَ سرُّهم. انتهىٰ.

أقـولُ: فلْيحـذَر مَـن يصحَبُهـم ويُجالِسُهـم مـنَ الاعتـراضِ عليهِـم والإعـراضِ عنهُـم، فإنّ الاعتـراضَ عليهِـمُ ٱعتراضٌ علـىٰ رسـولِ اللّهِ ﷺ، والاعتـراضُ علىٰ رسولِ اللّهِ ٱعتـراضٌ علىٰ اللّهِ عزَّ وجَـلّ. قـال أبـو الحسنِ الجَوْسَقيُّ[1] رحِمَهُ اللّه: علامةُ الشَّقاوةِ أن يُرزَقَ العبدُ صُحبةَ العارفيـنَ ثم لا يحترمُهم.

قالَ الإمامُ عبدُ اللّه الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: العـارفـونَ ينبغي أن يعامَلوا بالصِّـدق؛ لأنّهم لا يقبَلونَ التلبيـس، ويَميزُونَ الكلامَ الصِّدقَ منَ الكذِب كما تَميزُ أنتَ بينَ الحُلوِ والحامض.

فائدةٌ:

رُوِيَ في بعض الآثار أنّ اللّهَ تعالىٰ يحاسِبُ عبداً، فترجَحُ سيئاتُه، فيؤمَرُ بهِ إلىٰ النـار، فإذا ذُهِبَ بهِ يقولُ اللّهُ تعالىٰ لجبريـلَ عليهِ السلام: أدرِكْ عبدي واسأَلْـه: هل جلَسَ في مجلِسِ عالِمٍ في الدنيا فأغفِرَ لهُ بشفاعتِهِ؟ فيسأَلُ العبدَ جبريلُ فيقـول: ما جلَسْت. فيقولُ جبريـل: يا ربّ، أنتَ أعلَمُ بحالِ عبدِك. فيقول: سَلْه: هل أحبَّ عالِماً؟ فيسألُهُ، فيقول: لا. فيقول: يا جبريل، سلْهُ: هل جلسَ علىٰ مائدةٍ مع عالِم؟ فيسألُه، فيقول: لا. فيقول: يا جبريلُ، سَلْهُ عنِ ٱسمِـهِ وعن نَسَبِـه، فإن وافَقَ ٱسمُـهُ ٱسمَ عالِمٍ غُفِرَ له، فيسأَلُهُ فلا يوافِق، فيقولُ لجبريل: خُذ بيدِهِ وأدخِلْهُ الجنّة، فإنّهُ كان يحبُّ رجلاً كانَ ذلكَ الرجلُ يحبُّ عالِماً. فيُغفَرُ لهُ ببرَكتِه. انتهىٰ، نقله في خاتمةِ «مجمَعِ البحرَينِ» للشيخِ

---

(١) لم نقف علىٰ ترجمته فيما بين أيدينا من المصادر.

معروفِ بنِ محمّدٍ باجَمّال[١] رحِمَهُ اللّه.

❊ ❊ ❊

---

(١) هو الشيخ الصالح الفاضل معروف بن محمد باجمّال الشبامي، مولده نحو (١٢٠٠هـ) ووفاته سنة (١٢٨٦هـ) كما هو مكتوبٌ علىٰ ضريحه بجرب هيص. أخذ عن الإمامين عبد الرحمن بن محمد بن زين بن سميط وأحمد بن عمر بن سميط وغيرهما، وصنف: «مجمع البحرين في مناقب الإمام محمد بن زين» في مجلد كبير، وله ابنٌ عالم فقيه شاعر هو عبد اللّه بن معروف، توفي بشِبام سنة (١٢٩٢هـ).

الفصل الرابع
في التحذير من الإنكار على الأولياء والصّالحين

قالَ ٱبنُ عطاءِ اللّهِ[١] رحِمَهُ اللّهُ في «لطائفِ المِنَنِ»[٢] ما نصُّه:

وصيّةٌ وإرشاد: إياكَ أيها الأخُ أن تسعىٰ إلىٰ الواقِعِينَ في هذهِ الطائفةِ المُستَهزئينَ بهِم؛ لئلاّ تسقُطَ مِن عينِ اللّهِ وتستوجِبَ المَقْتَ منَ اللّه، فإنّ هؤلاءِ القومَ جلسوا معَ اللّهِ علىٰ حقيقةِ الصِّدقِ والإخلاصِ والوفاءِ ومُراقبةِ الأنفاسِ معَ اللّهِ سبحانَهُ وتعالىٰ، قد سلَّموا قيادَهم إليه، وألقَوْا أنفُسَهم بينَ يديه، وتركوا الانتصارَ لأنفُسِهم حياءً مِن رُبوبيتِهِ واكتفاءً بقيُّوميّتِه، فقام لهُم بأوفىٰ ما يقومونَ لأنفُسِهم كالمُحارِبِ لمَن حارَبَهم والمُغالِبِ لمَن غالَبَهم، وقد ٱبتُلِيَ هذهِ الطائفةُ بالخَلْق، خصُوصاً أهلَ العِلمِ الظاهر، فقلَّ أن تجِدَ منهُم

---

(١) الإمام الولي الكبير المرشد العارف باللّه تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء اللّه الإسكندري الشاذلي (ت٧٠٩هـ)، خليفة أبي العباس المُرسي وصاحب «الحِكَم» التي طارت كلَّ مطار. قال الذهبي: كانت له جلالةٌ عجيبة، ووقعٌ في النفوس، ومشاركةٌ في الفضائل.. وكان يتكلّم بكلام يروّح النفوس، ومزَجَ كلام القوم بآثار السلف وفنون العلم. رحمه اللّه تعالىٰ.

(٢) وهو: «لطائف المِنَن، في مناقب الشيخ أبي العبّاس (المُرسي) وشيخه أبي الحسَن (الشاذلي)»، مطبوع.

مَن ينشرحُ صدرُهُ للتصديقِ بولَيٍّ مُعيَّن، بل يقولُ لك: نعمْ، نعلَمُ أنّ الأولياءَ موجودونَ ولكنْ أينَ هم؟ فلا يُذكَرُ لهُ أحدٌ إلا أخَذَ يرفَعُ خصوصيّةَ اللّهِ فيهِ، طَلِقَ اللِّسانِ بالاحتجاج، عارياً مِن وجودِ نورِ التصديق. فاحذَرْ ممّن هذا وصْفُهُ وفِرَّ منهُ فِرارَكَ منَ الأسَد. انتهىٰ.

قالَ سيّدُنا الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رَضِيَ اللّهُ عنه ونَفَعَ اللّهُ به: مَن أنكَرَ علىٰ العارِفِينَ ابتُلِيَ بقسوةِ القلب.

وقالَ الشيخُ أبو تُرابِ النَّخْشَبيُّ[١] رحِمَهُ اللّه: إذا أَلِفَ القلبُ الإعراضَ عنِ اللّهِ صَحِبتْهُ الوقيعةُ في أهلِ اللّه.

* * *

وٱعلَمْ أنّ أنبياءَ اللهِ وأولياءَهُ يتخلّقونَ بالرّحمةِ معَ عبادِ اللّه، فلا يَدعُونَ علىٰ مَن ظلَمَهم، غيرَ أنّ اللّهَ سبحانهُ يغارُ عليهم أن تُنتَهَكَ حُرمَتُهم أو يُوطأَ حَرَمُهم أو تُخفَرَ ذِممُهم، فعندَ ذلكَ يقومُ لهُمُ الحقُّ وينتقِمُ لهُم ممّن عاداهُم، ويُنصفُهم ممّن ناوأهُم.

كما قالَ في الحديثِ القدُسي: «مَن عادىٰ لي ولياً فقد آذنْتُهُ بالحَرْب»[٢]: أي: أعلَمتُهُ أنّي مُحارِبٌ له؛ وذلكَ لأنّ الوَليَّ لا ينتصرُ لنفْسِه، فيكونُ اللّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ هُوَ الذي ينتصِرُ له. فنعوذُ باللّهِ مِن مُعاداةِ أوليائه.

---

(١) الإمام القدوة الوليُّ شيخ الطائفة أبو تراب عسكر بن الحُصَين النخشبيّ (ت ٢٤٥هـ). كتب العلم وتفقّه، ثم تألّه وتعبّد، وساح وتجرّد. كان شيخُه حاتماً الأصم. قال ابن الجَلّاء: صحبتُ ألفي شيخ ما لقيت مثلَ أبي تراب، وآخر. من كلامه لمّا سُئِلَ عن صفة العارف قال: الذي لا يُكدّره شيء، ويصفو به كلُّ شيء.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

قالَ سيّدي الإمـامُ أحمدُ بنُ إدريسَ المَغربيُّ[(١)] رضِيَ اللّهُ عنه : اللّهَ اللّهَ أن تحتَقِرَ مسلماً أو تؤذيَه، فقد يكونُ ولياً من أولياءِ اللّهِ وأنتَ لا تشعُر، فتكونَ داخلاً في غضـبِ اللّه، ففي الحديـث: «إنّ اللّهَ لَيغضَبُ لأوليائِه كما يغضَـبُ اللّيثُ لأشبالِه»[(٢)].

واللّهُ سبحانَهُ يحارِبُ ثلاثةَ أنواعٍ مِن أهلِ المعاصي: قاطعَ الطريق وآكلَ الرِّبا والمـؤذيَ لأوليائـه. وفي الحـديث الآخرِ القدُسيّ: «مَن عادىٰ لي وليّاً فقـد بارزَنـي بالمُحـاربَـة»[(٣)]. وقـال تعـالـىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .﴾ الآية [المائدة: ٣٣]. وقالَ تعالىٰ في آكلِ الربّا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . .﴾ [البقرة: ٢٧٨ ــ ٢٧٩]. وفي الحديث: «من آذىٰ ولياً فقد حاربَ اللّه»[(٤)]. انتهىٰ.

وقالَ بعضُ العارفين: الوليُّ قد يغارُ إذا أُوذيَ أو لم يُحترَم، ويظُنُّ بعضُ

---

(١) الإمـام القطب الغـوث أبو العبّاس أحمد بن إدريس الشريف الإدريسي الحسني (ت ١٢٥٣هـ). مولده قرب فاس، اجتهـد في الطلب حتىٰ بلغ الإمامة في علوم الظاهر، وسـلك في طريق الشاذليـة وفُتحت له أبـواب المواهب. ارتحل إلىٰ مصر والحجاز واليمن وبها كانت وفاته بـ(صَبْيا). أخـذ عنه أكابر عصـره كالسنوسي وظافر المدني وعثمان الميرغني وعابد السندي وغيرهم، وانتشرت طريقته، وكانت له الشهرة التامة بالتحقيق في العلوم والولاية الباهرة. رضيَ اللّه عنه.

(٢) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر، فلعلّه من الآثار غير المرفوعة.

(٣) أخرجـه ابنُ ماجَـهْ (٣٩٨٩) من حديـث عمـر بن الخطـاب رضيَ اللّه عنه، بلفـظ: «. . من عادىٰ للّه ولياً فقد بارز اللّه بالمُحاربة . .».

(٤) أخرجـه أحمـد في «مسنده» (٦: ٢٥٦) من حديـث السيّدة عائشة رضيَ اللّه عنها، بلفظ: «من آذىٰ لي ولياً فقد استحلَّ محاربتي».

النّاسِ إذا رأىٰ ذلك منهُ أنّ ذلكَ انتصارٌ منهُ لنفسه أو طلبٌ لتعظيمِها، وليسَ الأمرُ كذلك، ولكنْ غَيرةً لِمَا يعلَمُهُ ممّا أودعَهُ اللّهُ فيهِ مِن سرِّ الوِلاية، فهُوَ يغارُ علىٰ عدَمِ تعظيمِ أو احترامِ ذلكَ السرّ. انتهىٰ.

وسئلَ سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُ عن دعاءِ سيّدِنا سعدِ ابنِ أبي وقاصٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ علىٰ الذي تكلَّمَ فيه ووقَعَ في عِرضِه، معَ أنّ المأمورَ به العفوُ وعدمُ الانتقام، فأجابَ ــ نفَعَ اللّهُ به ــ بأنّ هذا ليس من بابِ فضيلةِ العفْوِ علىٰ الانتقام، فإنّ انتقامَ سيّدِنا سعدٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ ليسَ لنفسِه، حاشاه! وأنّما فعلَ ذلكَ انتقاماً لحُرمةِ الصُّحبةِ أن تُنتهَك.

وكذلكَ يكونُ كلُّ انتقامٍ صدرَ من صاحبِ رُتبةٍ منَ الصّحابةِ أو غيرِهم مِن أهلِ الرُّتبِ الدّينيةِ التي يؤدّي تركُ الانتقامِ لها إلىٰ إهانةِ الدِّينِ وهتكٍ لهُ، فمثلُ هذا حمايةٌ للدِّينِ المحمّديّ لا انتقامٌ للنفْس. انتهىٰ ملخّصاً منَ «النهرِ المورود».

عقوبةُ المُنكِرينَ علىٰ العلماءِ والصّالحين

قالَ العلمـاءُ رحِمَهُم اللّهُ تعالىٰ: إنّ الوقوعَ بنحوِ غِيبةٍ أو نميمةٍ في أهلِ العِلـمِ مِن كبائرِ الذنـوب، ففاعلُـهُ فاسـقٌ مردودُ الشهـادة، وعلىٰ والي الأمـرِ المُبالغةُ في التنكيلِ بهِ لئلاّ يكونَ ذريعةً إلىٰ احتقارِ العلماء. وهذا إذا لم يستحِلَّ أذاهُم واحتقـارَهُم عالماً بذلك، وإلا فهُوَ مُرتـدٌّ يُقتَلُ بردَّتِـهِ إذا لـم يتُبْ، وقد جُرِّبَ أنهُ مَن وقَعَ في العلماءِ آمتُحِنَ بسُوءِ الخاتمةِ والعياذُ باللّهِ تعالىٰ. انتهىٰ.

وقـال سيّدُنا الشيخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ[1] رضِيَ اللّهُ عنهُ: مَن وقَعَ في

(١) القطـب الأشهـر عَلَم الأولياء الشيخ أبو محمـد عبد القادر بن أبـي صـالح الجيلاني الحنبلي البغدادي (٤٧١ ــ ٥٦١هـ)، الولي الذي طبّقت شهرته الآفاق. قال سلطان=

عِرضِ وليٍّ ٱبتلاهُ اللّهُ بموتِ القلب.

وقالَ أبو العباسِ المُرْسي[(١)] رحِمَـهُ اللّه: تتبَّعنـا أحوالَ القوم، فما رأيْنا أحداً أنكرَ عليهِم وماتَ بخيرٍ أبداً.

وقالَ أبو عبدِ اللّهِ القُرشيُّ[(٢)] رحِمَـهُ اللّه: من غَضِبَ منهُ وليٌّ ضُرِبَ في قلبِهِ بسهمٍ مسموم، ولم يمُتْ حتىٰ تفسُدَ عقيدتُهُ فيموتَ علىٰ أخسِّ حال.

ومِن كلامِ الشيخِ العارِفِ باللّهِ حُسينِ بنِ عبدِ اللّهِ بافضْل[(٣)] رحِمَهُ اللّه: لا يُنكِرُ علىٰ الأولياءِ إلا ميّتُ القلبِ ناقـصُ العقلِ مدَّعٍ راضٍ عن نفسِه، أحمقُ جاهـلٌ مغرورٌ يابسٌ جامد، حشويٌّ مُبتـدعٌ أعمىٰ البصيرة، مخسوفٌ به مفتونٌ هالكٌ مَمقـوتٌ عندَ اللّهِ وعندَ النـاس، لا يُقبلُ قولُـهُ ولا يُعبـأُ به، ويخرُجُ منَ الدنيا علىٰ غيرِ دينِ الإسلام، ويُبتلىٰ بالقُلِّ وبالفقرِ في الدنيا، ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾، لا ورعَ لهُ ولا تقوىٰ، بل ولا إسلامَ ولا إيمان، ولو تلبَّسَ بشيءٍ منها في ظاهـرِه، فإنهُ خَليٌّ عن الجميع؛ لأنهُ لا خلاقَ له. انتهىٰ. نقَلَهُ سيّدُنـا الحبيبُ عليُّ بنُ حسَنٍ العطّاسُ في «القِرطاس».

= العلماء العز بن عبد السلام: ما نُقلت كرامات أحدٍ بالتواتر إلا الشيخ عبد القادر.

(١) الولي الكبير سيّدي أبو العبّاس أحمد بن عمر المُرْسي (ت ٦٨٦هـ)، وارث علوم أبي الحسن الشاذلي، وأحدُ أجَلّ الأولياء. أفرد ترجمتَه تلميذُه ابن عطاء اللّه السكندري في كتابه: «لطائف المنن» المارّ ذكره. مقامُه بالإسكندرية شهيرٌ قِبلةٌ للزوّار.

(٢) الولي الزاهد القُدوة الربّاني أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن إبراهيم القرشي الهاشمي الأندلسي (ت ٥٩٩هـ). كان ذا كرامـاتٍ وأحـوال، صحبه جماعةٌ من الصالحيـن، وكانت له جلالةٌ عجيبة وشهرة. أقام مدةً بمصر، ثم سكن القدس وبها توفي.

(٣) كان من العلمـاء العارفين، عاش في تريم ومات بها سنة (٩٧٩هـ)، وهو صـاحـب كتاب «الفصول الفتحية» في التصوّف (مخطوط بمكتبه الكاف بتريم ــ حضرموت).

حكايتان:

رويَ أنّ الشيـخَ عبدَ القادرِ الجيلانيَّ رضِيَ اللّهُ عنهُ وٱبنَ السَّقّاءِ ورجلاً آخَرَ دخلوا علىٰ رجـلٍ منَ الأوليـاءِ يقالُ لهُ: الغَوْثُ، علىٰ نيّةِ الزيارةِ له، فأمّا الشيخُ عبدُ القادرِ فإنهُ طلبَ برَكتَـه، فقـالَ لهُ الغَوثُ: يا عبدَ القادر، كأنّي بكَ يوماً وقد قلتَ وأنت علىٰ الكُرسيّ: قَدمـي هذهِ علىٰ رقبةِ كلِّ وليٍّ للّه، فطأطأَ لكَ جميـعُ الأولياءِ رِقابَهم في جميعِ الجهـات. وأمّـا ٱبنُ السَّقّاءِ فإنهُ صدرَ منه اعتـراضٌ علىٰ ذلكَ الولـيّ، وقد كانَ ابنُ السّقّـاءِ مِن كِبـارِ العُلمـاء، فقـالَ لهُ الوَلـيّ: اُسكُتْ، فإنّي أجدُ مِن كلامِكَ رائحـةَ الكُفر، ولعلّكَ تموتُ علىٰ غيرِ دينِ الإسلام. فكانَ مِن خَبَرِهِ أنهُ سارَ في رسالةٍ بينَ المسلمينَ والنَّصارىٰ ففُتِنَ وتنصَّرَ، فقيلَ لهُ بعدَ ذلك: هل تذكُرُ شيئـاً منَ القرآن؟ فقال: لا أذكُرُ إلا قولَهُ تعـالىٰ: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]. انتهىٰ. ذكَـرَهُ الحبيبُ عليُّ بنُ حسَنٍ العطّاسُ في كتابِهِ «القِرطاس».

ورُوِيَ عن أبي يزيدَ البُسطاميِّ[١] أنه قال في حقِّ تلمِيذٍ له اعترضَ عليه: دعُـوا مَن سقَطَ مِن عَيـنِ اللّه. فرُؤيَ بعدَ ذلكَ مع الأوبـاش، وسَرَقَ وقُطِعَتْ يَدُه.

تنبيهٌ:

قالَ ابنُ عطـاءِ اللّهِ رحِمَـهُ اللّهُ تعالىٰ: فإنْ قيلَ: قد يوجدُ مَن آذىٰ بعضَ الأولياءِ ولم تظهَرْ أَماراتُ النُّصرةِ والانتقامِ مِنه؟

---

(١) القـدوة الزاهـد سلطـان العارفيـن أبو يزيـد طَيْفـور بن عيسـىٰ البِسطـامـي (١٨٨ ــ ٢٦١هـ)، جليل القدر عظيم الحال. أصله من (بِسطام) بلدةٌ بين خراسان والعراق، ووفاته فيها. من كلامه: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شرٌّ منه فهو متكبّر.

قلتُ: يُعاقبُ بما هُوَ أعظَمُ ممّا لا يُطلَّعُ عليه، وتكونُ عقوبتُه قساوةً في القلبِ وجموداً في العينِ أو تعويقاً عن طاعةِ اللّهِ أو وقوعاً في مَعصيتِه، أو تُسلبُ لذاذةُ خدمتِه، فلا يلزَمُ تعجيلُ عقوبتِهِ لِقِصَرِ الدنيا عندَ اللّهِ تعالىٰ. وفي الحديثِ المشهورِ: «إذا أرادَ اللّهُ بعبدٍ شراً أمسَكَ عنهُ عُقوبتَه في الدنيا فيَرِدُ القيامةَ بِذُنوبِه»[1]. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا القُطبُ عبدُ اللّهِ بن عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: من ٱعترضَ علىٰ ذي صَلاحٍ وٱعتراضُهُ بشَرعٍ ممتزِجٍ بحظِّ نفْس، كأنْ أرادَ تنقيصَهُ أو حَطَّ مَرتبتِهِ بينَ النّاس، فهذا يهلِك، إلّا إن كانَ ٱعتراضُهُ لمُجرَّدِ الشرع، ويكونُ ظاهرُهُ وباطنُهُ واحداً، سَلِمَ منَ المعترَضِ عليه، وإلا هلَك، فقد ذُكِرَ أنّ ٱبنَ المُقْرِي[2] ما سَلِمَ من [إسماعيلَ بنِ] إبراهيمَ الجَبَرْتيِّ[3] إلا لكونِهِ ليسَ لهُ حظٌّ في ٱعتراضِه، بل لمُجرَّدِ الشريعة. انتهىٰ. من «تثبيتِ الفؤاد».

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) والحاكم (٤: ٦٠٨) وغيرهما، من حديث أنسٍ رضيَ اللّه عنه، ولفظه: «إذا أراد اللّه بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد اللّه بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتىٰ يوافي به يومَ القيامة».

(٢) الإمام البارع الفقيه العلاّمة الأديب عالم البلاد اليمنية شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المعروف بابن المقري (٧٦٥ ــ ٨٣٧هـ). انتشر ذكره في أقطار البلاد، وكان غايةً في الذكاء والفهم. من تصانيفه: «الروض» مختصر «الروضة»، وشرحُه، و«إرشاد الغاوي» مختصر «الحاوي» وشرحُه، وكتابه الأعجوبة: «عنوان الشرف الوافي»، وغيرها.

(٣) الولي العارف الشيخ إسماعيلُ بن إبراهيمَ الجَبَرْتي ثم الزَّبيدي (٧٧٢ ــ ٨٠٦هـ)، كان له في البلاد اليمانية الصِّيتُ والجلالة، وكان علىٰ مشرب الشيخ محيي الدين ابن العربي وينتصر له، وبسبب ذلك ردَّ عليه الشرف ابن المقري.

فوائدُ
فيما قيل في التسليمِ للأولياء

عن سيّدِنا الإمامِ أحمدَ بنِ زينِ الحبَشيِّ نفَعَ اللّهُ بهِ قال: سَتْرُ الوليِّ عنِ الناسِ وعدَمُ مَعرِفتِهم بهِ رحمةٌ لهم؛ لأنّهم إذا عرَفوهُ وأساءوا الأدبَ معَهُ وآذَوْهُ معَ معرِفتِهم بكونِهِ وليّاً هلَكوا وعَطِبوا، ومتىٰ كانَ ذلك معَ الجهْلِ بهِ كانَ الأمرُ أهونَ منهُ معَ العِلمِ به. انتهىٰ. مِن «قرةِ العين».

وعنِ الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ أسعدَ اليافعيِّ[1] رحِمَهُ اللّه قال: وكثيرٌ من هذهِ الطائفةِ جمَعوا بينَ الوَلَهِ والتخريبِ في ظاهرِ الشَّرعِ تخريباً بائناً يُسقِطُهم عن أعيُنِ النّاسِ ليستَتِروا بها عن شُهرةِ الصَّلاح، وهؤلاءِ أهلُ مذهَبٍ معروفٍ يُخفونَ مَحاسنَهم ويُظهرونَ مَساويَهم، ومنهُم من يكشِفُ عورتَهُ بينَ النّاس، ومنهُم مَن يُرىٰ أنهُ لا يُصلّي، وهُم يصلّون ويجتَهِدونَ فيما بينَهم وبينَ ربِّهم؛ لأنهم كانوا يبالغونَ في نفْيِ رؤيةِ المخلوقينَ وإسقاطِهم مِن قلوبِهم ولا يبالونَ بمَدحِهم وذمِّهمُ ٱستجلاباً لكمالِ الإخلاصِ وٱستبراءً للنفوس مِن شوائبِ الشِّركِ الخفيِّ الذي لا يسلمُ منهُ إلا الخَواصّ. ولا يُبالي أحدُهُم بكونِهِ عندَ النّاسِ زِنْدِيقاً إذا كانَ عندَ اللّهِ صدّيقاً. قد كَنَسوا بنفوسِهمُ المَزابلَ لتحيا بمولاها حياةً طيّبةً قبلَ يومِ الميعاد... إلىٰ إن قال:

فقد رُوّينا أنّ بعضَهم كانَ لا يُرىٰ أنهُ يصلّي، فأُقيمتِ الصلاةُ يوماً وهُوَ قاعد، فقالَ لهُ بعضُ الفقهاء: قُم فَصلِّ مع الجماعةِ، مُنكِراً عليه، فقامَ وأحرَمَ

---

(١) الإمام العلاّمة القدوة العارف باللّه أبو محمد عفيف الدين عبد اللّه بن أسعد اليافعي اليمني المكي الشافعي، دفينُ مقبرة المَعْلاة بمكة المكرمة (ت ٧٦٩هـ). قال الحافظ السخاوي: «كان من أهل العلم الظاهر والباطن، والعمل والحال والإخلاص، ذا كراماتٍ ظاهرة، وكشوفٍ جلية». «وجيز الكلام» (١ : ١٥٦هـ).

معَهم، وصلىٰ الركعةَ الأُولىٰ والفقيهُ المُنكِرُ ينظُرُ إليه، فلما قاموا للركعةِ الثانيةِ نظرَ الفقيهُ إلىٰ مكانِ الرجُل، فرأىٰ غيرَه يصلّي مكانَه، فتعجَّبَ مِن ذلك، ورأىٰ في الركعـةِ الثالثـةِ غيرَ الاثنين، فازدادَ تعجُّبـاً، ورأىٰ في الرابعةِ رابعاً، فاشتدَّ تعجُّبُه. فلمّا سلَّمَ والتفتَ فرأىٰ صاحبَهُ الأولَ جالساً مكانَهُ وليسَ عندَهُ أحدٌ منَ الثلاثة، فتحيَّرَ ممّا رأىٰ، فقـالَ لهُ الفقيـرُ وهُوَ يضحَـك: يا فقيه، أيُّما الأربعةِ صلّـىٰ معَكم هذهِ الصلاة؟ فاعترفَ الفقيهُ بكرامتِـهِ وزالَ ما عندَهُ منَ الإنكـار. انتهىٰ.

أقول: وفي «تثبيتِ الفؤاد»: عن سيّدِنا الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنـهُ قـال: إنّ الشيـخَ عبدَ اللّهِ العيـدروسَ جلَسَ لـهُ رجـلٌ يفُـصُّ له[١] حتـىٰ دخَـلَ وقـتُ الصلاة، فقـالَ الرجلُ للشيخ: قُمْ للصـلاة. قال: قد صلَّيت، فخـرَجَ الرجلُ فرأىٰ الجماعةَ قد خرَجوا مِن مسجِدِ الشيخِ أبي بكرٍ[٢] مُصلِّين، فقالَ لهُم: مَن صلّىٰ بكُم؟ قالوا: صلَّىٰ بنا الشيخ عبدُ اللّه. قالَ سيّدُنا الحـدّاد: وهـذهِ وأمثالُهـا تُسلَّـمُ لأوليـاءِ اللّهِ ولا يُعتـرَضُ عليهـم فيهـا؛ لأنّ عقولَهـم ـ أيِ المعتَرِضِيـن ـ لم تبلُغْ أحوالَهم، أي أوليـاءِ اللّه. انتهـىٰ. أو كما قال.

وذكَرَ سيّدُنا الإمامُ أحمـدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ بهِ أنهُ كانَ رجلٌ مِن أولياءِ اللّهِ تعالىٰ يُتَّهَمُ بالفِطرِ في رمضان، فأرادَ بعضُ الناسِ أن يختبرَه، فجاءَ إليهِ حيـنَ هلَّ هِـلالُ رمضانَ وطَلَـبَ منهُ أن يكـونَ عنـدهُ حتـىٰ ينقضـيَ شهـرُ رمضـان، فأجابَهُ إلىٰ ذلك، واشتـرطَ عليهِ الشيـخُ أن يكـونَ معـهُ في خَلْوتـهِ

---

(١) دار-جةٌ حضرمية معناها: يدلِّك (يكبّس) رجلَيه.

(٢) الشيـخ أبي بكر السكـران والد الإمام عبد اللّه العيـدروس صاحـب القصّـة أعـلاه، والمسجدُ قائمٌ معروفٌ باسمه إلىٰ يومنا هذا.

وحدَهمـا، فصاما أوّلَ يومٍ من رمضـان، ورُميَ مِدفَعُ إفطـارِ البلدِ وأفطرا، ثمَّ صامـا اليومَ الثاني، ورُميَ مِدْفَـعُ الإفطـارِ وأفطرا، وهكذا حتـىٰ مرّتْ عليهما ثلاثونَ يومـاً: يصومـانِ كلَّ يـوم، حتىٰ دخَلَ شوالٌ ورُمِيتْ مَدافِعُ العِيد، فقالَ للشيخ: الآنَ انقضىٰ رمضانُ وأريدُ الخروج، فأذِنَ لهُ وخرَجَ من عندِه، فكان إذا مَرَّ بأحدٍ بدأَهُ بالتهنِئـةِ بالعيـد، فقيلَ له: أتستهـزىءُ بنا أم بكَ جنون؟ كيفَ تُهنئُنا بالعيدِ ونحنُ بأوّلِ ليلةٍ مِن رمضان؟ قالَ: كيفَ وأنا صُمت رمضانَ كلَّه؟ فرجَعَ باللوّمِ علىٰ نفْسِهِ وصدَّقَ بوِلايةِ ذلكَ الشيخ. انتهىٰ.

وعن سيّدِنا الإمـامِ عيدروسِ بنِ عمرَ الحبَشـيِّ رضِيَ اللّهُ عنـهُ أنّ الشيخَ أحمدَ بنَ حجَرٍ المكّيَّ حضَرَ عندَ السيّدِ عبدِ اللّهِ بنِ محمدٍ صاحبِ الشبيكة[١]، فأمَرَ بإحضارِ السَّماعِ بحضرةِ الشيخِ ٱبنِ حجَر، فعَلِموا سَماعـاً، فصفّقَ الشيخُ ٱبنُ حجـرٍ وصفّق جميعُ الحاضرين. فلمَّا خرَجَ قيلَ لهُ: كيفَ تفعَلُ هذا وأنتَ تُنكِرُ السَّماع؟ فقال: رأيتُ الموجوداتِ تصفّقُ فصفَّقتُ معَها. ومِثلُ هؤلاءِ حَلَّ لهُمُ السَّماع. انتهىٰ. منَ «النهرِ المورود».

---

(١) هو صاحب الشبيكة (الثاني) السيد الشريف الولي عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن ابن عبد اللّه بن أحمد العلـوي الحسينـي التريمـي ثم المكي، ولد بتريم أوائل القرن العاشر، ونشأ بها وحفظ «القرآن العظيم»، وحفظ «الإرشاد» وقسطاً من «المنهاج»، ولازم والـده وتخرّج به، ورحل إلىٰ مكـةَ المكرمـة سنة (٩١٨هـ)، ودخل عَدَن في طريقه وأخذ بها عن جملة من أعيانها. استقر بمكة وأخذ عن ابن عراق وأبي الحسن البكري وعلي المتقي الهندي والنشيلي وغيـرهم، وأجازه المذكورون والسيد العلامة محمد علي خِرْد، وتوفي بمكة بعد أن اشتهـر أمره وذاع صيته سنة (٩٧٤هـ). ومات في تلك السنة الشيخ ابن حجر الهيتمي والسلطان سليم العثماني، فقيل: مات سلطان الطريقـة وسلطان الشريعـة وسلطـان الخليقـة. اهـ. من «المشرَع» (٢: ٤٢٩) وما بعدها.

أقول: فلا يسَعُ الإنسانَ إلا التسليمُ لأولياءِ اللّه، وأن لا يعترِضَ عليهِم، وتأويلُ ما ورَدَ عنهُم منَ المُشكِلاتِ وردُّ ذلكَ إلىٰ أهلِهِ ومَن يعلَمُه؛ فإنّ عقولَنا لم تبلُغْ أحوالَهم.

وسلِّمْ لأهلِ اللّهِ في كلِّ مُشكِلٍ لديكَ، لديهِم واضحٌ بالأدلّةِ

قالَ سيّدُنا القطبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا به: مَنْ أُوهِمَ إشكالاً مِن كلامِ المُحقِّقينَ فلا ينبغي أن يسارعَ إلىٰ الإنكارِ عليهِم، بل يدَعُهم ويسَعُهُم الكتابُ والسُّنة، ويجعَلُها مِن قَبيلِ المُتشابِهاتِ الوارِداتِ في الكتابِ والسُّنة، ولِمَ جاءتْ هكذا حتىٰ احتاجَ النّاسُ فيها إمّا إلىٰ التسليمِ وإمّا إلىٰ التأويل.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: كلُّ ما ذُكِرَ عنِ الأكابِرِ منَ الكلامِ الذي ظاهرُهُ التبجُّح، كقولِ الشيخِ أبي الحسَنِ الشاذليّ: منذُ أربعينَ سنةً ما حُجِبتُ عن الله، وقولِ أبي العباسِ المُرسي: لو حُجِبتُ عن جنّةِ عدْنٍ لحظةً ما عددتُ نفْسي منَ المؤمنين. كلُّ هذا مؤوَّلٌ وليس علىٰ ظاهرِه. انتهىٰ. مِن «تثبيت الفؤاد».

وكانَ سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ يروي عن شيخِهِ: سيّدِنا الحبيبِ عبدِ اللّهِ بنِ الحسَينِ بنِ طاهرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما: أنّ مَن تكلَّمَ منَ الأولياءِ في غَيبتِهِ وفنائهِ عمّا سوىٰ مولاهُ بكلامٍ يُنكِرُهُ العقل، لا ينبغي المُبادَرةُ إلىٰ إنكارِهِ عليهِ والقدْحِ فيه، بل يُنظَرُ أولاً في الشخصِ المتكلِّم: هل ثبتَتْ ولايتُهُ وصَلاحُهُ أم لا؟ فإنْ ثبتَتَ ولايتُهُ نُظِرَ: هل ثبتَ نِسبةُ ذلكَ إليهِ وصحَّ إسنادُ ذلك؟ وبعدَ صحةِ نِسبتِهِ إليه فإنْ كان موافقاً للشّرعِ الشريفِ وإلا طُلِبَ مِن ذوي الاطّلاعِ علىٰ العلومِ الظاهرةِ والباطنةِ تأويلُهُ بمعنىً سائغٍ يقبَلُهُ العقلُ والشّرع. انتهىٰ. مِن «النهر المورود».

وقالَ الإمامُ الشّعرانيُّ رحِمَهُ اللّه: ربَّما تكلَّمَ العارفُ في نظْمِهِ أو غيرِهِ علىٰ لسانِ الحقِّ تباركَ وتعالىٰ، وربَّما تكلَّم علىٰ لسانِ رسولِ اللّه ﷺ، وربّما تكلَّم علىٰ لسانِ القُطب، فيظُنُّ بعضُهم أنّ ذلكَ علىٰ لسانِه، فيُبادِرُ إلىٰ الإنكار. . . إلخ.



الباب الخامس

في آداب العالم والمتعلّم

وفيه خمسة فصول:

الأول: آدابُ العالِم.

الثاني: آداب المتعلِّم في طلب العلم.

الثالث: آداب المتعلِّم مع معلِّمه.

الرابع: في فوائد يحتاج إليها طالبُ العلم والعالم.

الخامس: في أدعيةٍ وأذكارٍ مفيدة لطالب العلم وفوائد أخرىٰ.

مقدّمة في مكانة الأدب

قالَ ٱبنُ المُبـاركِ[1] رحِمَهُ اللّه: نحنُ إلىٰ قليلٍ منَ الأدبِ أحوجُ منّا إلىٰ كثيرٍ مِنَ العِلـم. وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن تهـاوَنَ بالآدابِ عوقِـبَ بحِرمـانِ السُّنـن، ومَن تهاوَن بالسُّننِ عوقبَ بحِرمانِ الفرائض، ومن تهاونَ بالفـرائضِ عوقِبَ بحرمانِ المَعرِفة.

وقـالَ الشيخُ أبو عليٍّ الدقّـاقُ[2] رضِيَ اللّهُ عنـه: تـرْكُ الأدبِ يوجـبُ الطَّرد، فمن أسـاءَ الأدبَ علىٰ البِساطِ رُدَّ إلىٰ البـاب، ومَن أسـاءَ الأدبَ علىٰ البابِ رُدَّ إلىٰ سياسةِ الدوابّ. انتهىٰ. ذكَرَ ذلكَ في «نشرِ المَحاسن».

قالَ بعضُهم لابنه: يا بُنيّ، لأَن تتعلَّـمَ بابـاً من الآدابِ أحبُّ إليَّ مِن أن تتعلَّمَ سبعينَ باباً من أبوابِ العِلم. انتهىٰ.

---

(١) الإمام الحافظ المجاهد القدوة شيخ الإسلام عالم زمانه وإمام عصره أبو عبد الرحمن عبد اللّه بن المبارك الحنْظَلـي (١١٨ ــ ١٨١هـ). قال العبّـاس بن مصعـب: جمع عبد اللّه الحديـث، والفقـه، والعربيـة، وأيـام النـاس، والشجـاعـة، والسخـاء، والتجارة، والمحبّةَ عند الفِرَق.

(٢) الأستـاذ أبو علي الحسن بن علي الدقّـاق (ت ٤٠٥هـ)، شيـخ الإمـام أبي القاسـم القشيـري صاحب «الرسالة». طلب العلم وحصَّل العربية والأصول وبرع في الفقه، ثم سلك طريق التصوُّف فصار لسان وقته.

وكـانَ الإمـامُ الشافعـيُّ رحِمَـهُ اللهُ يقـول: قـالَ لي مـالكٌ رحِمَهُ اللّه: يا محمّدُ، اجعَلْ عِلمَكَ مِلْحاً وأدبَكَ دقيقاً.

وقـالَ عبدُ الرحمنِ بنُ القـاسم[1]: خَدمـتُ الإمامَ مالكاً رضِيَ اللّهُ عنـهُ عشرينَ سنة، فكان منها سنتانِ في العِلم وثمانيَ عشْرةَ سَنَةً في تعلُّمِ الأدب. فيا ليتني جعَلتُ المُدَّةَ كلَّها أدباً.

قيـل: إذا جمَـعَ المُعلِّـمُ ثلاثـاً تمّـتِ النّعمـةُ بها علىٰ المُتعلِّـم: الصبـرَ والتّـواضـعَ وحُسنَ الخلُـق. وإذا جمَـعَ المُتعلِّـمُ ثلاثاً تمَّـتِ النّعمـةُ بهـا علىٰ المُعلِّم: العقلَ والأدبَ وحُسنَ الفَهم. انتهىٰ. منَ «الإحياء».

حكايةٌ:

حُكـيَ عن أبي يزيدَ البُسطاميِّ رحِمَـهُ اللّهُ أنهُ قصَدَ إلىٰ زيارةِ رجلٍ يُذكَرُ بالصلاح، فانتظرَهُ في مسجد، وخرَجَ الرّجل، فألقىٰ نُخامةً في المسجد، أي: في جدارِهِ مِن خارج، فرجَعَ الشيخُ ولم يجتمعْ به، وقال: لا يؤمَنُ علىٰ أسرارِ اللّهِ مَن لم يُحافِظْ علىٰ آدابِ الشّرع.

* * *

(١) الإمـام القـدوة فقيه مصر، أبو عبد اللّه عبد الرحمـن بن القاسـم بن خـالد العُتَقِـيّ المصري (١٢٨ ــ ١٩١هـ)، وارثُ علم الإمام مالك وخليفتُه.

الفصل الأوّل
في آداب العالم

قالَ سيّدُنا القُطُب عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ نفعَ اللّهُ به: مَن تأمّلَ أحوالَ الصّحابةِ وتوقُّفَهم في الأمورِ عن ما لا يعني عرَفَ آدابَ الرّجالِ وآدابَ العِلم وآدابَ الأئمّة، وعرَفَ ما ينبغي أن يُستكثَرَ منهُ منَ العِلمِ ويُستَقلَّ منهُ وما يُظهَرُ وما يُكتَم، انظرْ كيفَ لم يسألوا الرّسولَ ﷺ عنِ الرجُلِ الشديدِ بياضِ الثّيابِ: مَن هُوَ؟ ومِن أينَ جاءَ حتىٰ ابتدأَ بنفسِهِ يَحكيهِ لعُمرَ بعدَ مُدّة؟ ويُعرَفُ مِن ذلكَ منْعُ الإخبارِ عنِ الشيءِ قبلَ وقتِه، وإذا جاءَ أخبَرَ مِن غيرِ سؤال. وكيفَ لم يسألوا عنِ المرأةِ التي طلَبتْ أن يُقامَ عليها حدُّ الزّنا، وعنِ الرّجلِ الذي أتاها؟ وهل هوَ بغَصْبٍ أو برِضىً منها؟ ونحوِ ذلك. انتهىٰ. مِن «تثبيت الفؤاد».

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: لا يجدُ العالِمُ لَذّةَ العِلمِ حتىٰ يُهذِّبَ نفْسَهُ وأخلاقَهُ ويستقيمَ علىٰ الكتابِ والسُّنةِ ويرمِيَ بالرِّياسةِ تحتَ قدمِه.

* * *

ـــ الإنصاف:

فمِنْ آدابـه: الإنصاف، قالَ الإمامُ ابنُ عبدِ البَرِّ[١] رحِمَهُ اللّه: مِن بركـةِ العِلمِ وآدابِهِ: الإنصاف.

وقالَ الإمامُ مالكٌ رحِمَهُ اللّه: ما في زمانِنا أقلُّ منَ الإنصاف.

قالَ الدَّميريّ[٢]: هذا في زمـانِ مالِك، فكيفَ بهـذا الزمَـنِ ـــ أي: وما بعدَهُ ـــ الذي هلَكَ فيهِ كلُّ هالك؟

ومِن أمثِلةِ الإنصافِ أنّ امرأةً ردَّت علىٰ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونبَّهتْهُ علىٰ الحقِّ وهُوَ في خُطبتِهِ علىٰ ملإٍ منَ النّـاس، فقال: امرأةٌ أصابتْ وأخطأَ رجل. وسأَلَ رجلٌ عليّاً كرَّمَ اللّهُ وجهَهُ فأجاب، فقال: ليسَ كذلكَ يا أميرَ المؤمنين، ولكـنْ كذا وكذا، فقـال: أصبْتَ وأخطأْتُ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾. انتهىٰ. نقلَه في «الإحياء».

ـــ قولُ: (لا أدري) أو: (اللّهُ أعلَم):

ومِن آدابِه أنْ يقولَ: (لا أدري) أو (اللّهُ أعلَم) إذا سُئِلَ عمّا لا يعلم، فقد رُوِيَ في الأثَرِ عن ابنِ عمرَ رضيَ اللّه عنهما قولُه: «العلمُ ثلاثة: كِتابٌ ناطِق،

---

(١) الإمـام الكبيـر العلاّمة، حافـظ المغرب أبو عمـر يوسـف بن عبد اللّه بن محمـد بن عبد البَـر النَّمَـري الأندلسي المالكـي (٣٦٨ ـــ ٤٦٣هـ). كان إمامـاً ديّناً ثقـةً متقنـاً مُتبَحِّراً، صنف التصانيف الفائقة، وكان يميل في فقهه إلىٰ مذهب الإمام الشافعي.

(٢) العلاّمة الفقيـه المتفنّن كمال الدين محمـد بن موسىٰ بن عيسـىٰ الدَّمِيري ثم القاهري (٧٤٢ ـــ ٨٠٨هـ). قـال السخـاوي: أحـد أعيـان الشـافعيـة وخيـارهـم، وشـارح «المنهاج» المطرّز بفوائد نفيسة، و«حياة الحيوان»، و«شرح ابن ماجه» وغيرها... وكان ذا حظٍّ في العبادة.. متميّزاً في الأدب والحديث. «وجيز الكلام» (١: ٣٨٣).

وسُنَّةٌ ماضية، ولا أدري»[١].

قالَ الإمامُ مُحيي الدّينِ النّوَويُّ رحِمَهُ اللّه: مِن عِلمِ العالِمِ أن يقولَ فيما لا يعلَم: لا أعلَم، أو: اللّهُ أعلَم.

وقد قالَ ابنُ مسعودٍ رضِيَ اللّهُ عنه: يا أيها النّاس، مَن عَلِمَ شيئاً فلْيقُل به، ومَن لم يعلَمْ فلْيقُل: اللّهُ أعلَم، فإنّ مِنَ العِلمِ أن يقولَ لمَا لا يعلَمُ: «اللّهُ أعلَم»، قالَ اللّهُ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦][٢].

ثمّ قالَ الإمامُ النّوَويُّ: ٱعلَمْ أنّ مُعتقَدَ المُحقّقِينَ أنّ قول العالِمِ: «لا أدري» لا يضَعُ منزلتَه، بل هو دليلٌ علىٰ عِظَمِ محَلِّهِ وتقواهُ وكمالِ معرِفتِه؛ لأنّ المُتمكّنَ لا يضُرُّهُ عدَمُ معرِفتِهِ مسائلَ معدودة، بل يُستدَلُّ علىٰ قولِهِ: «لا أدري» علىٰ تقواهُ وأنّهُ لا يجازِفُ في فَتواه. انتهىٰ. مِن مُقدّمةِ «شرحِ المُهذَّب»[٣].

قالَ سيّدُنا أميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرّمَ اللّهُ وجهَهُ: «وابَرْدَها علىٰ كِبدي»! ثَلاث مرات. قالوا: وما ذاك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: أن يُسأَلَ الرجُلُ عمّا لا يعلَمُ، فيقول: اللّهُ أعلَم.

وعن ٱبنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما: جُنَّةُ العالِمِ: «لا أدري». والبابُ هذا واسعٌ عن كبارِ الصحابةِ والتابعين فكيفَ بغيرهم!

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١: ٢٩٩ برقم١٠٠) وغيره، موقوفاً علىٰ ابن عمر رضيَ اللّه عنهما، بسندٍ حسّنه ابن حجر كما في «فيض القدير» (٤: ٣٨٨).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٧٧٤).

(٣) «المجموع شرح المهذّب» (١: ٣٤).

ومِن آدابه:

ـ التورُّعُ عنِ الفُتْيا:

رُوِّينا عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ليلىٰ(١) قال: أدركْتُ عشرينَ ومئةً مِن أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ يُسألُ أحدُهُم عنِ المسألة، فيردُّها هذا إلىٰ هذا حتىٰ ترجِعَ إلىٰ الأوّل. وفي رواية: ما مِن أحدٍ يُحدِّثُ بحديثٍ إلا وَدَّ أنّ أخاهُ كفاهُ إياه، ولا يُستفتىٰ عن شيءٍ إلا وَدَّ أنّ أخاهُ كفاهُ الفُتيا.

وعنِ ٱبنِ مسعودٍ وٱبنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُم: مَن أفتىٰ عن كلِّ ما يُسأَلُ فهُوَ مجنون. وكانَ الإمامُ مالكٌ رحِمَهُ اللّهُ يقول: مَن أجابَ في مسألةٍ فينبغي قبلَ الجوابِ أن يعرِضَ نفْسَهُ علىٰ الجنّةِ والنارِ وكيفَ خَلاصُه، ثمّ يُجيب. وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: ما أفتَيتُ حتىٰ شهِدَ لي سبعونَ أنّي أهلٌ لذلك. انتهىٰ. مِن مُقدِّمةِ «شرحِ المهذَّب»(٢).

قالَ سيّدُنا الإمامُ العلّامةُ الوَجيهُ عبدُ اللّهِ بنُ الحسَينِ بلفقيه رضِيَ اللّهُ عنهُ في مقدّمة كتابهِ «مطلَبِ الإيقاظ»:

ولْيتذكّرِ المُوفَّقُ بما ورَدَ عنِ المُختارِ في قولِهِ: «أجْرَؤكُم علىٰ الفتْوىٰ أجْرَؤكُم علىٰ النار»(٣). ولْيتأمّلْ أحوالَ السلَفِ الصّالحِ منَ الصحابةِ والتابعينَ ومَن بعدَهُم مِن عُلماءِ الدِّينِ وتَحرِّيَهم في الفتوىٰ معَ أمكَنيّةِ أقدامِهم في العلوم وقوّةِ اجتهادِهم وبُعدِهم عن الهَوىٰ، حتىٰ رُوِيَ عنِ الإمامِ مالكٍ رحِمَهُ اللّهُ

---

(١) التابعي الإمام أبو عيسىٰ عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ الأنصاري الكوفي (ت ٨٢هـ). كان فقيهاً، أخذ عن عمر وعلي وأبي ذر وابن مسعود وكثير من الصحابة. قال عبد اللّه بن الحارث لمّا اجتمع به: ما شعرتُ أنّ النساء ولَدن مثل هذا.

(٢) «المجموع شرح المهذَّب» (١: ٤٠ ـ ٤١).

(٣) أخرجه الدارمي في «سُننه» (١٥٧) وغيره، عن عبيد اللّه بن أبي جعفر مرسَلاً.

ـ وهُوَ مِن أجلِّ علماءِ السلَفِ الصّالح ـ أنهُ أجابَ علىٰ أربعِ مسائلَ مِن نحوِ أربعينَ مسألة، قالَ في البواقي: اللّهُ أعلَم.

ـ الترفُّعُ عن الدنيا:

ومِن آدابِ العالِـمِ أن يكونَ شريـفَ النفْسِ مرتفعـاً عنِ الجبـابرةِ وأبناءِ الدنيا. قالَ ٱبنُ مسعود: لو أنّ أهلَ العِلمِ صانوا العِلمَ ووَضَعوهُ عند أهلِهِ سادوا بهِ أهلَ زمانِهم، ولكنْ بذَلوهُ لأهلِ الدنيا لِينالوا مِن دنياهُم فهانـوا علىٰ أهلِها. وإلىٰ ذلكَ أشار الفقيهُ الجُرجانيُّ[١] رحِمَهُ اللّه حيثُ قال شِعراً:

ولـم أبتَذِلْ في خِدمةِ العِلمِ مُهجَتي ... لأَخدُمَ مَن لاقَيْتُ لكنْ لأُخدَما
أأشقـىٰ بـهِ غَـرْسـاً وأجنِيـهِ ذِلّـةً ... إذاً فاتّباعُ الجهْلِ قد كانَ أحزَما
ولو أنّ أهلَ العِلمِ صانوهُ صانَهُم ... ولو عظَّموهُ في الصدورِ لعُظِّما
ولكـنْ أهـانـوهُ فهـانـوا، ودنَّسـوا ... مُحيَّاهُ بالأطماعِ حتىٰ تَجهَّما[٢]

---

(١) الإمام القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجُرجاني الشافعي (ت **٣٩٢**هـ) قاضي جرجان ثم الرَّي، والجامعُ بين الفقه والشعر، كان حسنَ الخط، فصيحَ العبارة، من مؤلفاتـه: «الوساطـة بين المتنبي وخصومـه» و«كتـابٌ في الوكالـة» فيـه أربعة آلاف مسألة. قال الإمام الشيرازي: كان فقيهاً أديباً شاعراً.

(٢) ولهذه القصيدة العصماء أبياتٌ قبل التي ساقها المؤلف، هي:

يقولونَ لي فيكَ انقباضٌ وإنما ... رأَوْا رَجُلاً عن مَوقفِ الذُّلِّ أحْجَما
أرىٰ الناسَ مَنْ داناهُمُ هانَ عندَهُمْ ... ومَـنْ أكرَمَتْـهُ عِـزّةُ النفـسِ أُكـرِما
وما كُلُّ بَرْقٍ لاحَ لي يَستَفِزُّني ... ولا كلُّ مَنْ لاقَيْتُ أرضاهُ مُنْعَما
وإني إذا ما فاتَني الأمرُ لم أبتْ ... أُقَلِّـبُ كَفِّـيْ إثـرَهُ مُتنَـدِّمـا
ولم أَقضِ حقَّ العلم إنْ كان كُلّما ... بـدا طَمَـعٌ صَيَّـرْتُـهُ لـي سُلَّمـا
إذا قيلَ: هذا مَنْهَلٌ، قلتُ: قد أرىٰ ... ولكنَّ نفسَ الحُرِّ تَحتَمِلُ الظَّما

قال الإمامُ تاج الدين السُّبكي رحمه اللّه: للّه هذا الشعر ما أبلَغَه وأصنَعَه! وما أعلىٰ =

ولسيّدِنا الإمامِ عليِّ بنِ محمّدٍ الحبَشيِّ رحِمَهُ اللّهُ ورحِمنا بهِ نظْماً:

إن حُزْتَ عِلماً فاتخِذْ حِرفةً تَصونُ ماءَ الوجْهِ لا يُبذَلُ

ولا تَشِنْهُ أن تُرىٰ سائلاً فشَأنُ أهلِ العِلمِ أن يُسألوا

وعن ربيعةَ الرأيِ[1] رحمَهُ اللّهُ قال: «لا ينبغي لأحدٍ عندهُ شيءٌ منَ العِلمِ أن يُضَيِّعَ نفْسَه»[2].

وعن عمرَ بنِ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ قالَ لعبدِ اللّهِ بنِ سلامٍ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن أربابُ العِلمِ؟ قال: الذينَ يعمَلون. قال: فما يَنفي العِلمَ مِن صدورِ العلماءِ؟ قال: الطَّمع. وقالَ الحسَنُ البصْريُّ رحِمَهُ اللّه: عقوبةُ العلماءِ موتُ القلوب، وموتُ القلوبِ طلَبُ الدنيا بعمَلِ الآخرة.

= علىٰ هامَ الجَوزاءِ مَوضِعَه! وما أنفَعَهُ لو سَمِعَه مَن سَمِعَه! وهكذا فليكن ـ وإلا فلا ـ أدبُ كل فقيه.. انتهىٰ. «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (٣: ٤٦١).

(١) الإمام الفقيه مفتي المدينة أبو عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن القرشي المدني (ت ١٣٦هـ)، قيل له (ربيعة الرأي) لكثرة اشتغاله بالاجتهاد. قال فيه الإمام مالك: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة. ومن كلام ربيعة: العلم وسيلةٌ إلى كلِّ فضيلة.

(٢) ذكره البخاري تعليقاً في كتاب العلم من «صحيحه»، باب: رفع العلم وظهور الجهل. ووصله الخطيب في «الجامع» والبيهقي في «المدخل» كما ذكر الحافظ في «الفتح» (١: ١٧٨).

فائدة: قال الحافظ في «الفتح» (١: ١٧٨): ومراد ربيعة أنّ من كان فيه فهمٌ وقابلية للعلم لا ينبغي له أن يهملَ نفسَه فيترك الاشتغال، لئلا يؤدي ذلك إلىٰ رفع العلم. أو مراده: الحث علىٰ نشر العلم في أهله لئلا يموت العالم قبلَ ذلك فيؤدي إلىٰ رفع العلم. أو مراده: أن يشهر العالم نفسه ويتصدَّىٰ للأخذ عنه لئلا يضيعَ علمُه. وقيل: مراده تعظيم العلم وتوقيره، فلا يهين نفسه بأن يجعله عرضاً للدنيا. وهذا معنىً حسن، لكن اللائق بتبويب المصنف ما تقدم. انتهىٰ.

وقالَ عبدُ اللّهِ بنُ المُباركِ رحِمَهُ اللّه: مَن حمَلَ القرآنَ ثمَّ مالَ بقلبِهِ إلىٰ الدنيا فقدِ اتّخَذَ آياتِ اللّهِ هُزُواً ولعِباً.

قالَ سُفيانُ بنُ عُيينة: بلغَنا عنِ ابنِ عباسٍ أنهُ قال: لو أنّ حمَلَةَ القرآنِ أخَذوهُ بحقِّهِ وما ينبغي لأحبَّهمُ اللّه، ولكنْ طلَبوا بهِ الدنيا فأبغضَهُمُ اللّهُ وهانوا علىٰ النّاس. انتهىٰ.

ذكَرَ الإمامُ الغزاليّ: أنّ العالِمَ الذي هُوَ من أبناءِ الدنيا أخسُّ حالاً وأشدُّ عذاباً منَ الجاهل.

ـ التواضُع:

ومن آدابِهِ أن يتواضَعَ للّهِ في سرِّهِ وعَلانيَتِهِ ويحتَرِسَ مِن نفْسِه. وعن أيوبَ السَّخْتِيانيِّ[1] رحِمَهُ اللّهُ قال: ينبغي للعالِمِ أن يضَعَ الترابَ علىٰ رأسِهِ تواضعاً للّهِ عزَّ وجَل.

وعنِ الفُضَيلِ بنِ عياضٍ[2] رحِمَهُ اللّه: إنّ اللّهَ يحبُّ العالِمَ المُتواضِعَ ويُبغضُ العالِمَ الجبّار، ومَن تواضَعَ للّهِ عزَّ وجَلَّ ورّثَهُ الحِكمة.

قالَ الإمامُ النّوَويُّ رحِمَهُ اللّهُ: وقد كانَ كثيرونَ منَ السّلَفِ يستَفيدونَ مِن تلامذتِهم ما ليسَ عندَهم.

---

(١) الإمام الحافظ الربّاني سيّد العلماء أبو بكر أيوب بن أبي تميمة العَنَزي مولاهم البصري (٦٨ ـ ١٣١هـ). من صغار التابعين. كان الإمام شُعبة يقول: حدّثني أيوب سيّد الفقهاء. وقال غيره: كان أيوب جهبذَ العلماء. كان ثقةً وَرِعاً، شديدَ التمسُّك بالسنة، سريعَ الدمعة، حريصاً علىٰ إخفاء أحواله.

(٢) الإمام القدوة الربّاني، شيخ الإسلام أبو علي الفُضَيل بن عياض التميمي الخراساني، شيخ الحرَم المكّي (١٠٥ ـ ١٨٧هـ). أورَعُ أهل زمانه، وأحدُ أكابر الأئمة العُبّاد الصُّلحاء الزهّاد.

وثبتَ أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قرأ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البيّنة: ١] علىٰ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضِيَ اللّهُ عنـه، وقال: «أمَرَني اللّهُ أن أقرأ عليك»[1]. فاستنبَطَ العلماءُ مِن ذلكَ فـوائد: منها بيـانُ التواضُع، وأنّ الفاضـلَ لا يمتَنـعُ منَ القراءةِ علىٰ المَفْضول. انتهىٰ.

قالَ الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينِ بنِ طاهـرٍ نفَـعَ اللّهُ بـه: كانَ الأخُ طاهرٌ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ يتَتلمذُ لكلِّ مَن وجَدَهُ مُساوياً لهُ أو أدنىٰ منهُ في أيِّ بلدٍ كان، ولـم يُظهِرْ نفْسَهُ بدعوةِ الخَلْقِ ولا تذكيرِهم إلا إذا لم يجِدْ من يقومُ بذلكَ مبالغةً في الخُمـول. وكانَ في بعضِ البلـدان إذا رأىٰ من يدَّعـي المعرِفـةَ نكَسَ كتابَهُ وقالَ له: بأقرأ عليك؟ وحصَلَ النفْعُ لهُ ولغيرِهِ بسببِ تواضعِهِ وتهذيبِ نفْسِه؛ لأنـهُ مَن تكبَّرَ علىٰ النّـاسِ وطلَبَ منهُـمُ المجـيءَ إلىٰ عندِهِ والقـراءَةَ عليهِ لم يحصُلْ لهُ ولا منهُ ٱنتفاع.

وقالَ سعيـدُ بنُ جُبَير[2]: لا يزالُ الرجُلُ عالِماً ما تعلَّم، فإذا تَركَ التعلُّـمَ وظنَّ أنهُ قدِ استغنىٰ واكتفىٰ بما عندَهُ فهوَ أجهَلُ ما يكون.

قلت: ومِن أثنـاءِ كـلامٍ لسيّدِنا الإمامِ الهُمام: محمّـدِ بنِ زينِ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنه: أنّ مَن قهَرَ نفسَـهُ وقبِـلَ الحَقَّ ممّـن جاءَ بهِ فقـد تَواضَـعَ للحقِّ وأنصَـف، وهذهِ صفةُ الطالبِ الصـادق يقبَـلُ الفائـدةَ ممّن كانتْ وأينَما كانتْ

---

(١) أخرجه الشيخان، البخـاري (٣٨٠٩) ومسلم (٧٩٩) وغيرهما، من حديث أنس بن مالك رضيَ اللّه عنه.

(٢) الإمام العَلَم، التابعي الجليل الربّاني، الحافظ المقرىء المفسِّر الشهيد، أبو محمـد سعيد بن جُبير الأسدي الوالبي مولاهم الكوفي (ت ٩٥هـ). عن عمرو بن ميمون عن أبيـه قال: لقـد مات سعيـد بن جبير وما علىٰ ظهر الأرض أحدٌ إلا وهو محتـاجٌ إلىٰ علمه. قتله الحجّاج صبراً.

وعنـدَ مَن كانتْ، ولا يجعلُ الفائدةَ المطلوبةَ وَقفاً علىٰ أحـدٍ مِن النـاس دونَ أحـد، بل يغتنِمُ تحصيلَ الفضائـلِ ويتطلَّـبُ الوسائـلَ المُوصِلـةَ إلىٰ اللّهِ عزَّ وجَـلّ. قـالَ اللّهُ عزَّ وعلا: ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]. والفلاحُ هُو النّجاح، وهُوَ الحصولُ علىٰ المأمولِ منَ المَطالب والرَّغائب. والحِكمةُ ضالّةُ المؤمن، والتوفيقُ بيدِ اللّه، والهُدىٰ هُدىٰ اللّه. ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]. انتهىٰ.

وقالَ نفَـعَ اللّهُ به: التـواضُـعُ سَجيّةٌ وهِبَـةٌ يخُـصُّ اللّهُ بها مَن يحبُّ مِن عبـادِه، ويُتصـوَّرُ هذا حتىٰ معَ العُصـاةِ والفَسَقـةِ والفُجّـار، بـل مـعَ الـدوابِّ والجمـادات، بل معَ الكُفّار، وتعرِفُ ذلكَ من سيـرةِ المصطفىٰ ﷺ في خطابهِ وجوابِـهِ معَ الجبَابِـرةِ والضُّعفـاءِ وأسْقاطِ النّاس، والتنزُّلِ لهُم مِن عُلُوِّ مَنصِبِـهِ رحمةً لهُم، وذلكَ مِن شدّةِ المعرفةِ والخوف. قالَ بعضُهم: إذا حمَـلَ العِلبُ بالدَّوْمِ سقَطَ عِذْقُه، ونالَهُ كلُّ أحَد، وبالعكس، وكذا النخيلُ إذا كثُر ثمَرُهُ نكَسَ وبالعكس. انتهىٰ. من أثناءِ «المُكاتَبة».

قلت: وإلىٰ ذلكَ أشارَ القائل:

إذا زادَ عِلـمُ المـرْءِ زادَ تـواضُعـاً ... وإن زادَ جهـلُ المـرءِ زادَ تـرفُّعـا

وفي الغُصنِ مِن حَمْلِ الثّمارِ مثالُهُ ... وإن يَعْرُ مِن حَملِ الثّمارِ تَمنَّعا

وقال بعضُهم:

تواضَعْ تكُنْ كالنّجمِ في أُفُقِ السَّما[1] ... علىٰ صَفَحـاتِ المـاءِ وهْـوَ رَفيـعُ

ولا تـكُ كـالـدُّخـانِ يَعلـو بنفْسِـهِ ... إلـىٰ طبقـاتِ الجـوِّ وهْـوَ وَضِيـعُ

---

(١) في رواية: * تواضعْ تكنْ كالنجم لاحَ لناظرٍ *.

رُوِيَ أنّ نبيَّ اللّهِ سليمانَ عليهِ السلامُ كانَ ـ معَ ما أُعطِيَ منَ المُلْكِ ـ لا يرفَعُ بصَرَهُ إلىٰ السماءِ تخشُّعاً وتواضُعاً للهِ تعالىٰ، وكانَ يُطعِمُ النّاسَ لذائذَ الأطعمةِ ويأكلُ خبزَ الشّعير. وكانتِ العجوزُ تعترِضُهُ وهُوَ علىٰ الرِّيح في جنودِه، فيأمُرُ الريحَ فتقِف فينظُرُ في حاجتِها. ذكَرَ ذلكَ القاضي عِياضٌ[1] في «الشفاء».

ـ تَرْكُ المِراء والجَدَل:

قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحمهُ اللّه: سمِعتُ سفيانَ بنَ عُيَينةَ يقول: إنّ العالِمَ لا يُماري ولا يُداري، ينشُرُ حِكمةَ اللّه، فإن قُبِلتْ حَمِدَ اللّه، وإن رُدَّتْ حَمِدَ اللّه.

وعن سيّدِنا الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنه: مِن شأنِ أهلِ الحقِّ ترْكُ الجدَل، وإن جادَلوا فبكلمةٍ واحدة، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: مَن كانَ عارفاً بعِلم، ومتحقِّقاً فيه، إذا سمِعَ من يتكلّمُ في ذلكَ العِلمِ الذي يُحسِنُهُ ينبغي لهُ أن يسكُتَ ولا يتكلّمَ فيُظهِرَ نفْسَهُ، وإذا تكلَّمَ فإنّ ذلكَ يُعَدُّ منهُ سَخافة، فكثيرٌ ممّن معَهُ بابٌ أو عَشرُ مسائلَ يتكلّمُ معَ كلِّ من سمِعَهُ يتكلّمُ في شيءٍ منَ المُذاكرة.

---

(١) الإمام الكبير، مفخرة بلاد المغرب، الحافظ الأوحد، القاضي أبو الفضل عياض بن موسىٰ اليَحْصُبي السَّبتي المالكي (٤٧٦ ـ ٥٤٤هـ). من كبار الأئمة المحققين الجامعين للعلوم، وصاحب التصانيف الجليلة الفائقة، كـ«الشفا بتعريف حقوق المصطفىٰ ﷺ» و«مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار» و«الإكمال في شرح مسلم»، وغيرها.

ـــ عدمُ مُخالطةِ السَّلاطِين:

قالَ الإمامُ جعفَرٌ الصادقُ رضيَ اللّه عنه: العُلمـاءُ أُمَنـاءُ الرُّسُلِ ما لـم يُخالِطـوا السُّلطـانَ ويُداخِلـوا الدُّنيا، فإذا خالَطُوا السُّلطانَ ودَخَلوا في الدنيا فقد خانوا اللّهَ والرَّسول، فٱعتزِلُوهم وٱحذَروهم[١].

ورُوِيَ: «شرارُ العلماءِ الذينَ يأتونَ الأُمراء، وخِيارُ الأُمراءِ الذينَ يأتونَ العُلماء»[٢].

وفي ترجمةِ عليِّ بنِ الحسينِ الصندلي[٣] أنّ السُّلطانَ مَلِكَ شاه قالَ له: لِمَ لا تجيءُ إليّ؟ فقال: أرَدتُ أن تكونَ من خيرِ الملوكِ حيثُ تزورُ العلماء، ولا أكونَ مِن شرِّ العلماءِ حيثُ أزورُ الملوك. انتهىٰ.

فائدةٌ:

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينٍ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: النّهيُ عن الدخولِ على السَّلاطينِ والسّعي لهُم ليس علىٰ إطلاقهِ، بل هُوَ في حقِّ مَن يطلُبُ الدنيا. وأمّا من قَصْدُهُ بذلكَ النصيحةُ لهُم فهُوَ خارجٌ عنِ الذّم، فإطلاقُ الذمِّ علىٰ ذلكَ من الخطأ، فإنّ كثيراً منَ الصالحينَ قد دخلوا عليهِم ولكنْ نصيحةً لهُم وشفَقةً عليهِم وعلىٰ المسلمين. وقد قيلَ: إنّ العيدروسَ[٤] قبَّلَ قدَمَ بعضِ الأُمراءِ لدَفْعِ شرٍّ أرادَ أن يُوقِعَهُ بالمسلمين. انتهىٰ. مِن مناقِبه «قرّةِ العين».

---

(١) وهو من كلام الإمام جعفر الصادق كما في «سير أعلام النبلاء» (٦: ٢٦٢)، لكن رواه أبـو جعفر العقيلي مرفوعـاً ــ كما في «جامع بيـان العلـم» لابن عبـد البر (١: ١٨٥) ــ وابنُ الجوزي في «الموضوعات» (٥١٠) وغيرهما، من حديث أنس، ولا يصح رفعه، قال أبو حاتم في «العلل» (٢: ١٣٧): هذا حديثٌ منكر.

(٢) ذكره في «الإحياء» (١: ٦٨). قال الحافظ العراقي في «تخريجه»: أخرجه ابنُ ماجه بالشطر الأول نحوه، من حديث أبي هريرةَ بسندٍ ضعيف.

(٣) لم نقف علىٰ ترجمته فيما بين أيدينا من المصادر.

(٤) الأكبر سلطان المَلاَ عبد اللّه بن أبي بكر رضي اللّه عنه، تقدمت ترجمته.

ـــ الرِّفْقُ بطَلَبَةِ العِلم:

قـالَ الإمامُ النَوويُّ رحِمَهُ اللّهُ في مُقدّمـةِ «شرحِ المُهـذَّب»: يُستحَـبُّ للمُعلِّـمِ أن يَرفُـقَ بالطالبِ ويُحسِنَ إليه ما أمكَنَه، فقد رَوىٰ الترمـذيُّ عنِ أبي هارونَ العَبْديِّ قال: كُنا نأتي أبا سعيدٍ الخُدريَّ رضِيَ اللّهُ عنهُ فيقول: مَرحباً بوصيّـة رسـولِ اللّهِ ﷺ، إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ النّـاسَ لكُـمْ تَبَع، وإنّ رجالاً يأتونكـم مِن أقطـارِ الأرضِ يتفقَّهـونَ في الدِّيـن، فإذا أتَوْكُـم فاستوصـوا بهِم خيراً»[١]. انتهىٰ[٢].

قال سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّا لا نحبُّ أن نحيِّـرَ الطالب، بل نُعطِيـهِ علىٰ قَدْرِه، وترىٰ أقوامـاً يطيلونَ علىٰ المُبتَدئينَ ويحيِّرونهم حتىٰ يمَلّوا. وعِلْمان لا نأمَنُ مُتفقِّهةَ الزمانِ عليهما: عِلمُ الحقائقِ وعِلمُ الخِلافِ بينَ الأئمة، وعندَنا منها كُتبٌ كثيرةٌ لكنّنا لا نُظهِرُها. انتهىٰ. مِن «تثبيت الفؤاد».

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: ينبغي في هذا الزمانِ أنّ المطلوبَ هُوَ الذي يدوِّر[٣] للطالبِ ولو هُوَ خالفَ ما عليهِ السلَف، ليحصُل لهُ التذكُّر، لأنهُ لولا المُذاكَرةُ نسِي، ولأجلِ الثواب.

تنبيهٌ:

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: العِلمُ أمانةٌ ينبغي أن يصانَ ولا يُبذَلَ إلا لأمينٍ حافِظٍ ذي ورَعٍ وتُقىٰ، وإلا صارَ ضياعاً لهُ ووضعاً لهُ في غيرِ محَلِّه. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠) وابن ماجه (٢٤٩)، وغيرهما.

(٢) «المجموع شرح المهذَّب» (١ : ٢٧).

(٣) أي: يبحث، لفظةٌ دارجة.

الفصل الثاني
آداب المتعلّم في طلب العلم

ـ طهارةُ القَلْبِ والتخلّي عنِ المُخالَفات:

قالَ الإمامُ النوويُّ رحِمَهُ اللّه في مقدّمة «شرحِ المُهذَّب»: ينبغي للمُتعلّم أن يُطهِّرَ قلبهُ من الأدناس، ليصلُحَ لقَبولِ العِلمِ وحِفظِهِ واستثمارِه.

ففي «الصحيحَين» عن رسولِ اللّهِ ﷺ: «إنّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صلُحت صلُحَ الجسَدُ كلُّه، وإذا فسَدتْ فسَدَ الجسَدُ كلُّه، ألا وهِيَ القلب»[1]. وقالوا: تطييبُ القلبِ للعِلمِ كتطييبِ الأرضِ للزِّراعة. انتهىٰ[2].

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ نفَعَ اللّهُ به: لو جئتَ بوعاءٍ وسخٍ لرجلٍ تريدُ منهُ سمناً أو عسلاً أو نحوَ ذلكَ قالَ لك: رُح ٱغسِلْهُ أولاً، وهذا في أمورِ الدُنيا. فكيفَ توضَعُ الأسرارُ في القلوبِ الوسِخة؟ أو كما قال.

وروي أنهُ لمّا قدِمَ الشافعيُّ علىٰ مالكٍ رحِمَهُما اللّهُ وقرأَ عليهِ «المُوطّأ» حِفْظاً فأعجبتْهُ قراءتُهُ ولازَمَه، قالَ لهُ مالك: يا محمّد، اتّقِ اللّهَ واجتنبِ المعاصي، فإنهُ سيكونُ لك شأن. وفي روايةٍ أنّهُ قال: إنّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ قد ألقىٰ

---

(١) البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رضي اللّه عنه.
(٢) مقدمة «المجموع شرح المهذَّب» (١ : ٣٥).

علىٰ قلبِكَ نوراً، فلا تُطفئْهُ بالمعاصي. انتهىٰ.

وكانَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّهُ يقول:

شكوتُ إلىٰ وكيعٍ سُوءَ حِفْظي ... فأرشَدَني إلىٰ ترْكِ المَعاصي
وأخبرَني بأنَّ العِلمَ نورٌ ... ونورُ اللّهِ لا يُهدىٰ لِعاصي

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللّهِ[1] نفعَ اللّهُ به: حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يدخُلَهُ النّورُ وفيهِ شيءٌ ممّا يكرَهُ اللّهُ عزَّ وجَلّ. انتهىٰ.

ـ الإخلاصُ للّهِ في تعلُّم العِلم:

واْعلمْ أنهُ لا بدَّ لطالبِ العِلمِ مِن حُسنِ النّيةِ في تعلُّمِ العِلم، إذِ النيةُ هِيَ الأصلُ في جميعِ الأفعال، لقولِهِ ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنِّيّات»[2]. فينبغي أن يقصِدَ بهِ وجهَ اللّهِ والعمَلَ به، وإحياءَ الشريعة، والقُربَ منَ اللّهِ وطلَبَ رِضاه، وإزالةَ الجهلِ عن نفْسِهِ وعن سائرِ الجُهّال، وإحياءَ الدِّينِ وإبقاءَ الإسلامِ بالأمرِ بالمعروفِ والنّهيِ عنِ المُنكرِ مِن نفْسِهِ ومنَ الغيرِ بقدْرِ الإمكان.

ـ التواضُعُ وخدمةُ العُلَماء:

وينبغي لطالبِ العِلمِ أن لا يُذِلَّ نفْسَهُ بالطّمَع، ويحترَزَ عنِ التكبُّر. قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: لا يطلُبُ أحدٌ هذا العِلمَ بالمُلكِ وعزِّ النفْسِ فيفُلح، ولكنّ مَن طلبَهُ بذُلِّ النفْسِ وضِيقِ العيشِ وخدمةِ العلماءِ أفلح.

قلت: وفي الأثرِ عنِ ابنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما قال: ذلَلْتُ طالباً فعزَزْتُ مطلوباً. وقد كانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يذهَبُ إلىٰ بيت أُبيِّ بنِ كعبٍ فيجدُ بابَهُ

---

(١) التُّسْتَري، وقد تقدّمت ترجمته.

(٢) أخرجه البخاري (١) ومسلمٌ (١٩٠٧) وغيرهما، من حديث عمر بن الخطّاب رضيَ اللّه عنه.

تارةً مفتوحاً فيأذَنُ لهُ في الدخولِ سريعاً، وتارةً مغلوقاً فيستَحي أن يطرُقَ عليهِ البـاب، فيمكُثُ حتىٰ ربّما مضـىٰ عليهِ أكثرُ النهار وهُوَ جالسٌ علىٰ بابِ الدارِ والرّيـحُ تُسـفُّ عليهِ التراب، إلىٰ أن يصيـرَ لا يُعرَفُ مِن كثرةِ الغبارِ الذي عَلِقَ ببَدنِهِ وثيابه، فيخـرُجُ أُبيٌّ رضِيَ اللّهُ عنهُ فيراهُ في تلكَ الحالة، فيعظُمُ عليـه، فيقول: لمَ لا ٱستأذَنت؟ فيعتذرُ لهُ بالحَياءِ منه. انتهىٰ.

ووقَعَ لهُ معَهُ أن أُبيّاً رضِيَ اللّهُ عنهُ أرادَ الركوبَ يوماً، فأخَذَ ابنُ عباسٍ بركابِهِ حتىٰ ركِبَ ثمّ سارَ معَه، فقال: ما هذا يا ٱبنَ عباس؟ فقال: هكذا أُمِرنا بتعظيمِ علمائنا، وأُبيٌّ راكباً وٱبنُ عباسٍ ماشياً بإزاءِ مركوبِ أُبيٍّ، فلما نزلَ أُبيٌّ قبَّلَ يدَ ٱبنِ عبّاس، فقال له: ما هذا؟ فقال: هكذا أُمِرنا بتعظيمِ أهلِ بيتِ نبـيِّنا ﷺ. أفادَهُ الحبيبُ العلاّمةُ عبدُ اللّهِ بنُ الحسينِ بلفقيه كما في «عِقدِ اليواقيت».

وعن سفيانَ بنِ عُيَينةَ رحِمَهُ اللّهُ قال: قرأتُ القرآنَ وأنا ٱبنُ أربعِ سنين، وكتبتُ الحديثَ وأنا ٱبنُ سبعِ سنين، ولمّا بلغتُ خمسَ عشرةَ سنةً قال لي أبي: يا بُنيّ، قدِ انقطَعتْ عنكَ شرائعُ الصِّبا، فٱختَلِطْ بالخيرِ تكنْ مِن أهلِه، وٱعلَمْ أنهُ لن يُسعَـدَ بالعلماءِ إلا مَن أطاعَهم، فأَطِعْهُـم تُسعَدْ، وٱخدُمهم تقتَبِسْ مِن عِلمِهم. فجعَلتُ أمِيلُ إلىٰ وصيةِ أبي ولا أعدِلُ عنها. انتهىٰ. نقَلَهُ النوَويُّ في «تهذيبه»[١].

ومن كلامِ سيّدِنا الإمامِ جعفرٍ الصادقِ[٢] رضِيَ اللّهُ عنه: أربعٌ لا ينبغي

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» للإمام النووي (١ : ٢٢٥).

(٢) الإمام الحبْر، السيّد الهاشمي، أبو عبد اللّه جعفر بن محمّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب، المدني الصادق، أحدُ السادة الأعلام من التابعين (٨٠ ـ ١٤٨هـ). قال الإمام أبو حنيفة: ما رأيتُ أفقهَ من جعفر ابن محمّد. قلت: وكان من أعلام أهل الولاية وأئمة الهدىٰ، وكان يقول: سلوني =

للشريفِ أن يأنَفَ منها: قيامُهُ مِن مجلِسِهِ لأبيه، وخدمَتُهُ لضيفِه، وقيامُهُ علىٰ دابّتِه، وخدمَتُهُ لمَن يتعلَّمُ منه. انتهىٰ.

وعن مُجاهِدٍ[1] رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ قال: لا يتعلَّمُ العِلمَ مستَحْيٍ ولا مُستكبِر[2].

قلت: لأنّ المستَحِيَ يمنَعُهُ الحَياءُ عن التفقُّهِ في الدِّينِ والسؤالِ عمّا لا يعلَم، والمتكبِّرُ يمنَعُهُ كِبْرُهُ عن الاستفادةِ والتعلُّمِ ممّن هو دونَهُ في الرُّتبة، ولا يكونُ المرءُ عالِماً حتىٰ يأخذَ العلمَ مِمّن هُوَ فوقَهُ وممّن هُوَ مِثلَهُ وممّن هُوَ دونَه.

ـ التماسُ الفائدةِ حيثُ كانت:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: ينبغي للسّالكِ أن يأخُذَ الفائدةَ العِلميّةَ والآدابَ الحسَنةَ الشرعيّةَ من حيثُ وجدَها: مِن قريبٍ أو بعيدٍ أو رفيعٍ أو وَضيعٍ أو ظاهرٍ أو خامل، ولا يتقيّدَ بقَيدِ الرُّعونةِ والعادة، وتَمنَعَهُ نفْسُهُ منَ التلقّي ممّن لا يكونُ لهُ ذِكرٌ ولا شُهرةٌ ولا صِيت، فإنّ فاعلَ هذا منَ الجاهلينَ الغافلينَ عمّا ورَدَ في الخبر: «الحِكمةُ ضالّةُ المؤمنِ حيثُما وجَدَها ٱلتقَطَها»[3]. وعمّا قالَ بعضُ أهلِ

= قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدِّثكم أحدٌ بعدي بمثل حديثي.

(١) الإمام التابعي أبو الحجّاج مجاهد بن جَبْر المكّي الأسود، شيخ قرّاء ومفسّري عصره (ت ١٠٢هـ) روىٰ عن ابن عبّاس فأكثر وأطاب، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، وعن أبي هريرة وعائشة وعدة من الصحابة. قال مجاهد: عرضتُ القرآنَ ثلاثَ عرضات علىٰ ابن عبّاس، أقِفُه عند كل آية، أسألُ فيمَ نزلت وكيف كانت.

(٢) ذكره البخاري في كتاب العلم من «صحيحه»، باب الحياء في العلم، برقم (٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧) وابن ماجه (٤١٦٩) وغيرهما، من حديث أبي هريرة =

الحِكمة: انظُرْ إلىٰ ما قال، ولا تنظُرْ إلىٰ مَن قال. انتهىٰ.

وحُكِيَ عن أبي البَخْتَرِيِّ[١] أنهُ كان يقول: لأنْ أكونَ في قومٍ أعلَمَ منّي أحبُّ إليَّ من أن أكونَ في قومٍ أنا أعلَمُ منهم؛ لأني إن كنت أعلَمَهُم لم أستفِد، وإن كنت معَ مَن هُوَ أعلَمُ منّي ٱستفَدت. انتهىٰ. نقَلَهُ اليافعيُّ في «مرآةِ الجنان». ثم قال: والتعليلُ بغيرِ هذا أحسَن، وهُوَ أنهُ إذا كانَ أعلَمَ منهُم تقلَّدَ الأمورَ الخطيرةَ وأسنِدتْ إليه الخُطوبُ المُضِرّةُ التي لعلّهُ لا يكمُلُ القيامُ بها ولا يأمَنُ منَ الوقوعِ في عطَبِها، وإذا كانوا أعلَمَ منهِ ٱنتفىٰ عنهُ ذلكَ المحذور، وأمِنَ مِن الخوفِ في عواقبِ الأمور. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا القطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: لا يُفتَحُ علىٰ أحدٍ في العِلمِ حتىٰ يطلُبَهُ ويعتقِدَ أنهُ خلِيٌّ منه؛ لأنّ المَظاهرَ الدُّنيويةَ قد تَنقُصُ منَ المظاهرِ الأُخرَويّة. انتهىٰ.

ـ التخفُّفُ مِن الطعامِ والمَنام:

قال سَحْنُونٌ[٢] رحِمَهُ اللّه: لا يصلُحُ العِلمُ لمَن يأكُلُ حتىٰ يشبَع.

= رضيَ اللّه عنه، بلفظ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحقُّ بها». قال الترمذي: حديثٌ غريب.

(١) التابعيُّ العلاّمة الفقيه أبو البَخْتَري سعيد بن فيروز الطائي مولاهم، الكوفي، أحدُ العُبّاد (ت ٨٢هـ). كان مقدَّم الصالحين القُرّاء الذين قاموا علىٰ الحجّاج في فتنة ابن الأشعث فقُتل في وقعة الجماجم. كان يُقرَن بسعيد بن جبير في العلم والفقه، رحمه اللّه تعالىٰ.

(٢) الإمام العلاّمة فقيه المغرب أبو سعيد عبد السلام بن حبيب التَّنوخي القيرواني المالكي (ت ٢٤٠هـ)، قاضي القيروان وصاحب «المدوَّنة». قال أبو العرب: اجتمعَتْ في سَحنون خلالٌ قلّما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع الصادق، والصَّرامة في الحق، والزَّهادة في الدنيا، والتخشّن في الملبَس والمطعَم، والسَّماحة. =

ومِن حِكمةِ لقمانَ الحكيم: يا بُنيّ، إذا امتَلأتِ المَعِدةُ نامتِ الفِكرة، وخرِستِ الحكمة، وقعَدتِ الأعضاءُ عنِ العبادة.

وعنِ الإمامِ الشافعيِّ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ قال: ما شبِعتُ منذُ ستَّ عشرةَ سنةً إلا شبْعةً طرَحتُها مِن ساعتي؛ لأنّ الشبَعَ يُثقِلُ البدَنَ ويُقسّي القلبَ ويُزيلُ الفِطنةَ ويَجلِبُ النومَ ويُضعِفُ صاحبَهُ عنِ العبادة. انتهىٰ. من «حِليةِ الأولياء».

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضِيَ اللّهُ عنه: إياكُم والبِطْنةَ في الطّعامِ والشراب؛ فإنها مَفسَدَةٌ للجسَدِ مَوْرَثةٌ للفشَلِ مَكْسلةٌ عنِ الصلاةِ، وعليكُمْ بالقَصدِ فيهِما، فإنهُ أصلَحُ للجسَدِ وأبعَدُ عنِ السَّرَف، وإنّ اللّهَ لَيُبغِضُ الحَبرَ السّمين. رواهُ أبو نُعَيمٍ[1] في «الطبِّ النبويّ»، نقَلَهُ في «كشفِ الخَفاء»[2].



(١) الإمام الحافظ، العلاّمة الصوفي، شيخ الإسلام أبو نُعيم أحمد بن عبد اللّه الأصبهاني (٣٣٦ ــ ٤٣٠هـ). أحد الأئمة الحفّاظ، وصاحب التصانيف المباركـ النافعة، كـ«حلية الأولياء» و«الطب النبوي» و«دلائل النبوّة»، وغيرها.

(٢) «كشف الخفاء» (١ : ٢٨٩) عند أثر: «إنّ اللّه يكره الحَبْر السمين».

الفصل الثالث
آداب المتعلّم مع معلّمه

جـاءَ في الأثَـر: «تعلّمـوا العِلـم، وتعلَّمـوا للعِلـمِ السَّكِينـةَ والـوقـارَ، وتواضعوا لمَن تتعلَّمون منه»[١].

قالَ الإمامُ النوَويُّ رحِمَهُ اللّه: ينبغي للمُتعلِّمِ أن يتواضَعَ لمُعلِّمِهِ ويتأدّبَ معَـهُ وإن كانَ أصغـرَ منهُ سِنّاً وأقلَّ شُهرةً ونسبـاً وصلاحـاً، فبِتـواضُعِهِ يُدرِكُ العِلم، وقد قالوا نظْماً:

العِلمُ حربٌ للفتىٰ المتَعالي ... كالسَّيلِ حربٌ للمَكانِ العالي

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به: إنّ المحصولَ منَ العِلمِ والفَهمِ والنُّور ــ أعني الكشفَ للحجُب ــ علىٰ قدرِ الأدبِ معَ الشيخ، وعلىٰ قدرِ ما يكونُ كِبَرُ مقدارِهِ عندَكَ يكونُ لكَ ذلك المقدارُ عندَ اللّهِ من غيرِ شكّ.

قال: وكانَ الأمينُ والمأمونُ ابنا هارونَ الرشيدِ يتبادرانِ نعْلَيْ شيخِهِما

---

(١) ولا يصح مرفوعاً، فقد أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦: ٢٠٠ برقم ٦١٨٤) وابن عدي في «الكامل» (٤: ٣٣٦) من حديث أبي هريرة رضيَ اللّه عنه، وفي سنده راوٍ متروك كما في «مجمع الزوائد» (١: ١٢٩).

الكِسائيِّ[١] أيُّهما يُلبِسُهُ إياهُما، فيقولُ لهُما عندَ ذلك: لكلٍّ واحدٍ واحدة. وقد رُويَ في الحديث: «آباؤكَ ثلاثة: أبوكَ الذي ولَدَك، والذي زوَّجَكَ ابنتَه، والذي علَّمَك، وهُوَ أفضَلُهم»[٢]. انتهىٰ. منَ «العطِيّةِ الهنية».

قلتُ: وفي ذلكَ يقولُ القائل:

أُقَدِّمُ أستاذي علىٰ بِرِّ والدِي ... وإن كانَ لي مِن والدي البِرُّ والعطْفُ

فهذا مُرَبّي الروحِ، والروحُ جوهَرٌ ... وهذا مُربّي الجِسمِ وهْوَ لها صَدْفُ

قالَ الإمامُ الشّعرانيُّ: وبلَغَنا عنِ الشيخِ بهاءِ الدِّينِ [السُّبْكي][٣] قال: بينما أنا راكبٌ معَ والدي ـ شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ السُّبكيِّ[٤] ـ في بعضِ طرُقِ الشام، إذ سمعَ شخصاً مِن فلّاحي الشام يقول: سألتُ الفقيهَ مُحييَ الدِّينِ النوَويَّ عن مسألةِ كذا وكذا، فنزَلَ والدي عنِ الفرسِ وقال: واللّهِ لا أركَبُ

---

(١) الإمام المقرىء شيخ العربية، أبو الحسن علي بن حمزة الأسَدي مولاهم الكوفي، الملقَّب بالكسائي لكِساءٍ أحرم فيه (ت ١٨٩هـ). أحد أصحاب القراءات السبع المتواترة. قال الإمام الشافعي: من أراد أن يتبحَّرَ في النحو فهو عيالٌ علىٰ الكسائي.

(٢) لم نقف عليه مرفوعاً فيما بين أيدينا من المصادر.

(٣) الإمام البارع الفقيه الأديب المتفنّن، قاضي دمشق، بهاء الدين أبو حامد أحمد ابن شيخ الإسلام تقي الدين السبكي، (٧١٩ ـ ٧٧٣هـ). أخذ عن والده فنوناً من العلم، وبرع وتقدَّم، وتولىٰ المناصب العديدة. من تصانيفه الفائقة: كتابه «عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح» في البلاغة. وله تكملةٌ علىٰ شرح والده علىٰ «المنهاج» الفقهي.

(٤) الإمام الكبير، مجتهد عصره، فخر العلماء، شيخ الإسلام تقي الدين أبو الحسن علي ابن عبد الكافي السبكي (٦٨٣ ـ ٧٥٦هـ). قال فيه الإمام السيوطي: إمام وقته تفسيراً وحديثاً وفقهاً وكلاماً وأصولاً ومنقولاً ومعقولاً، بل المجتهدُ الذي لم يأتِ بعدَه مثلُه ولا قبلَه من دهرٍ طويل.

وعينٌ رأتْ مُحييَ الدِّينِ تمشي! ثم عَزَمَ عليهِ بركوبِ الفرسِ وأقسَمَ عليهِ باللّه، وصارَ الشيخُ ماشياً حتىٰ دخَلَ الشام. ثم قال الشّعرانيّ: فهكذا يا أخي كان العلماءُ يفعَلونَ بأشياخِهم، معَ أنهُ لم يُدرِكْهُ وإنّما جاءَ بعدَ موتِهِ بسنين. انتهىٰ.

وكانَ أبو حنيفةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: ما صلَّيتُ صلاةً منذُ مات حمّادٌ[1] ـ يعني شيخَهُ ـ إلا ٱستغفرتُ لهُ معَ والديّ، وإنّي لأستغفرُ لمَن تعلَّمتُ منهُ عِلماً أو علَّمتُه.

وعن أبي يوسُفَ[2] قال: إنّي لأدعو لأبي حنيفةَ قبلَ أبويّ، ولقد سمِعْتُ أبا حنيفةَ يقول: إنّي لأدعو لحَمّادٍ معَ والديّ. انتهىٰ. مِن «تهذيبِ الأسماءِ» للنوَويِّ[3].

قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: كنتُ أتصفَّحُ الورَقَةَ بينَ يديْ مالكٍ رحِمَهُ اللّهُ صفْحاً رقيقاً هيْبَةً لهُ لئلاّ يسمَعَ وقْعَها.

وقالَ الربيعُ[4] صاحبُ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُما: ما ٱجترَأتُ أن أشرَبَ الماءَ والشافعيُّ ينظُرُ إليَّ هيبَةً له.

---

(١) الإمام فقيه العراق أبو إسماعيل حمّاد بن أبي سليمان الكوفي، الأصبهاني الأصل (ت ١٢٠هـ). من صغار التابعين. روىٰ عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه، وتفقّه بإبراهيمَ النَّخَعي وهو أنبل أصحابه وأفقههم. وعنه أخذ الإمام أبو حنيفة. كان حمّاد أحد العلماء الأذكياء، إماماً في الفقه، جواداً سخياً.

(٢) الإمام المجتهد المحدِّث العلامة، القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي (١١٣ ـ ١٨٢هـ)، صاحب الإمام أبي حنيفةَ وتلميذُه الأول وأحد أعلام ذلك العصر. بلغ من رئاسة العلم ما لا مزيدَ عليه، وكان الخليفة هارون الرشيد يُبالغ في إجلاله.

(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢: ٢١٨، ٢١٩).

(٤) المُرادي، تقدمت ترجمته ص ١٤٦.

قالَ الإمامُ الشّعرانيُّ رحِمَهُ اللّه: بلَغَنا عنِ الإمامِ النوَويِّ رحِمَهُ اللّهُ أنهُ دَعـاهُ يوماً شيخُهُ الكَمالُ الإرْبليُّ[١] ليأكُلَ معَـه، فقـال: يا سيّدي، أعْفِني مِن ذلك، فإنّ لي عُذراً شرعيّاً، فتَرَكه. فسأَلهُ بعضُ إخوانِه: ما ذلك العُذر؟ فقال: أخافُ أن تسبِقَ عينُ شيخي إلىٰ لقمةٍ فآكُلَها وأنا لا أشعُر.

وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ إذا خرَجَ للدرسِ ليقـرَأَ علىٰ شيخِـهِ يتصدَّقُ عنهُ في الطريقِ بما تيسَّر، ويقول: اللّهُمّ اُسترْ عنّي عيبَ مُعلِّمـي حتىٰ لا تقَعَ عيني لهُ علىٰ نقيصَةٍ ولا يبلِّغَني ذلكَ عنهُ أحد. رضِيَ اللّهُ عنه.

رُويَ عن أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللّهُ عنه، قال: مِن حقِّ المُعلِّـمِ عليـكَ أن تُسلِّمَ علىٰ النّاسِ عامّةً وتخُصَّهُ دونَهـم بتحيّة، وأن تجلِسَ أمامَهُ، ولا تشيرَنَّ عندَهُ بيدِكَ ولا تَغمِزَنّ بعينَيك، ولا تقولَنّ: قالَ فلانٌ خلافَ ما تقول، ولا تغْتـابَنَّ عندَهُ أحداً، ولا تشاورْ جليسَـكَ في مَجلسِـه، ولا تأخُذْ بثوبِهِ إذا قـام، ولا تُلِحَّ عليهِ إذا كَسِـل، ولا تُعـرِضْ، أي: لا تشبَـعْ مِن طولِ صُحبتِـه. انتهىٰ. ذكَرَ ذلكَ الإمامُ النَـوويُّ في كتابِـهِ «التِّبيانِ في آدابِ حَمَلَةِ القرآن»[٢].

وعن أبي بكرِ بنِ عياشٍ[٣] قال: ماتَ أخو سفيانَ الثّوريّ، فاجتَمَعَ النّاسُ

---

(١) الشيخ الإمام أبو الفضائل كمال الدين سَلّار بن الحسن الإرْبِلي (ت ٦٧٠هـ)، تلميذُ الإمـام ابن الصلاح، وشيخُ الإمام النـووي، وأحـد أئمة المذهب. كان عليه مـدار الفتوىٰ بالشام في وقته.

(٢) «التبيان في آداب حملة القرآن»، باب آداب متعلم القرآن ومعلِّمه، ص ٢٤.

(٣) الإمام الفقيـه المحدِّث المقرىء العابد القـوّام أبو بكـر بن عيّاش بن سالـم الأسَدي مولاهـم، الكوفي الحنّاط (٩٥ ــ ١٩٣هـ). قال يزيـد بن هارون: كان أبو بكر بن عيّاش خيِّراً فاضلاً، لم يضع جنبَه علىٰ الأرض أربعينَ سنةً.

إليهِ لَعزائه، فجاءَ أبو حنيفة، فقامَ إليهِ سُفيانُ وأكرَمَهُ وأقعَدَهُ مكانَهُ وقعَدَ بينَ يدَيه، ولمّا تفرّقَ النّاسُ قالَ أصحابُ سفيان: رأيناكَ فعلتَ شيئاً عجيباً! قال: هذا رجلٌ مِنَ العِلمِ بمكان، فإن لم أقُمْ لعِلمِهِ قُمتُ لِسنِّه وإن لم أقُمْ لِسنِّه قمتُ لِفقهِه، وإن لم أقُمْ لِفقهِه قمتُ لورَعِه.

وقالَ أبو سهلٍ الصُّعلوكيُّ[1] رحِمَهُ اللّه: عقوقُ الوالدَينِ تَمحوهُ التّوبة، وعقوقُ الأُستاذِينَ لا يمحوهُ شيءٌ ألبتّة. نقَلَهُ النوويُّ في «تهذيبه»[2].

وكان سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ عمرَ الهِنْدوانُ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: إنّما حُرِموا العِلمَ لقلّةِ ٱحترامِهم لأهلِ العِلم.



(١) إمام عصره في العلوم بلا مدافعة، أبو سهل محمد بن سليمان الصُّعْلُوكي الشافعي (٢٩٦ ـــ ٣٦٩هـ). كان إماماً بارعاً في الفقه والنحو والتفسير واللغة والشعر والعَروض والكلام والتصوف وغيرها. أخذ المذهب عن أبي إسحاق المروزي، والحديث عن ابن خزيمة، وصحب من أئمة التصوّف المرتعشَ والشبلي وأبا علي الثقفي، وغيرهم.

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢ : ٢٤٣).

الفصل الرابع
في فوائد يحتاج إليها طالب العلم والعالم

فائدة:

قالَ الشيـخُ زكريّا رحِمَهُ اللّهُ في كتابِـهِ «اللؤلـؤِ النَّظيـمِ في رَوْمِ التعلُّمِ والتعليم»: أما شروطُ تعلُّمِ العلومِ وتعليمِها فاثنا عشرَ:

واحدُها: أن يقصِدَ بهِ ما وُضِعَ ذلكَ العِلمُ له، فلا يقصِـدُ غيرَ ذلكَ منَ اكتسابِ مالٍ أو جاهٍ أو مُغالَبَةِ خصْمٍ أو مُكاثَرة.

ثانيها: أن يقصِدَ العِلمَ الذي تقبَلُهُ طِباعُه؛ إذْ ليسَ كلُّ أحدٍ يصلُحُ لتعلُّمِ العلوم، ولا كلُّ من يصلُحُ لجميعِها، بل كلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له.

ثالثُها: أن يعلَمَ غايةَ ذلكَ العِلمِ ليكونَ علىٰ ثقةٍ من أمرِه.

رابعُها: أن يستوعِبَ ذلكَ العِلمَ مِن أوّلِهِ إلىٰ آخرِهِ: تصَوُّراً وتصديقاً.

خامسُها: أن يقصِدَ فيهِ الكُتبَ الجيّدةَ المستوعِبةَ لجميعِ الفنّ.

سادسُها: أن يقرأَ علىٰ شيـخٍ مُرشدٍ وأميـنٍ ناصـح، ولا يستبِـدَّ بنفْسِهِ وذكائه.

سابعُها: أن يُذاكِـرَ الأقـرانَ والأنظارَ طلبـاً للتحقيـقِ لا للمُغـالَبـة، بل للمُعاوَنةِ على الفائدةِ والاستفادة.

ثامنُها: أنهُ إذا علِمَ ذلكَ العلمَ لا يُضيّعْهُ بإهمالِهِ ولا يمنعْهُ مُستحِقَّه، لخبرِ: «مَن علِمَ عِلماً نافِعاً وكتَمَهُ ألجَمَهُ اللّٰهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ بلِجامٍ مِن نار»[١]، ولا يُؤتيهِ غيرَ مستحِقِّه، لِمَا جاءَ في كلامِ النبوّة: «لا تُعَلِّقوا الدُّررَ في رِقابِ الخنازير»[٢]؛ أي: لا تؤثِروا العُلومَ غيرَ أهلِها. ويُثبِتُ ما استنبطهُ بفِكرِهِ ممّا لم يُسبَقْ إليهِ لمَن أتىٰ بعدَهُ كما فعَلَ مَن قبلَه، فمواهبُ اللّٰهِ لا تقِفُ عندَ حدّ.

تاسعُها: أن لا يعتقدَ في عِلمٍ أنهُ حصَّلَ منهُ مقداراً لا يُمكِنُ الزيادةُ عليه، فذلكَ نقصٌ وحِرمان.

عاشرُها: أن يعَلمَ أنّ لكلِّ عِلمٍ حدّاً، فلا يتجاوَزْهُ ولا ينقُصْ عنه.

حاديَ عشَرِها: أن لا يُدخِلَ عِلماً في عِلمٍ آخرَ لا في تعلُّمٍ ولا في مُناظَرة؛ لأنّ ذلكَ يشوِّشُ الفِكر.

ثانيَ عشَرِها: أن يُراعيَ كلٌّ منَ المُتعلِّمِ والمُعلِّمِ حقَّ الآخر، خصُوصاً الأول؛ لأنّ مُعلِّمَهُ كالأبِ بل أعظَم، لأنّ أباهُ أخرَجَهُ إلىٰ دارِ الفَناءِ ومُعلِّمُهُ دَلَّهُ علىٰ دارِ البقاء. انتهىٰ. من «مَطلَبِ الإيقاظِ في غُرَرِ الألفاظِ» للعلاّمةِ عبدِ اللّٰهِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨) والترمذي (٢٦٤٩) وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضيَ اللّٰه عنه وغيره. وله ألفاظٌ عدّة تُنظر مفصَّلةً في رسالة الحافظ أحمد الغماري: «رفع المنار لحديث: من سُئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار»، وهي مطبوعة.

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٩: ٣٥٠) ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (برقم ٤٥٨)، من حديث أنس رضيَ اللّٰه عنه. وهو عند ابن ماجه (٢٢٤) بلفظ: «طلب العلم فريضةٌ علىٰ كل مسلم، وواضعُ العلم عند غير أهله كمقلِّد الخنازير الجوهرَ واللؤلؤَ والذهب». قال المِزّي: رُوي من طرق تبلغ رتبةَ الحُسْن. انتهىٰ. من التعليقات علىٰ «سنن ابن ماجه» (١ : ٨١).

ابنِ حسَينٍ بلفقيه رضِيَ اللّهُ عنه.

قالَ الربيعُ بنُ سُلَيمان: سمعتُ الشافعيَّ يقول: يحتاجُ طالبُ العلمِ إلىٰ ثلاثةِ أشياء: طولِ العمُرِ، وسَعَةِ اليدِ، والذكاء. وإلىٰ ذلكَ أشارَ القائل:

أخي لن تنالَ العِلمَ إلا بستةٍ ... سأُنبيكَ عن تفصيلِها ببيانِ
ذكاءٍ وحِرصٍ واجتهادٍ وبُلْغَةٍ ... وإرشادِ أستاذٍ وطُولِ زمانِ

فائدة:

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: ينبغي لمَن أرادَ أن ينتَفِعَ بالعِلمِ هُوَ في نفْسِهِ فقطْ مِن غيرِ نظَرٍ إلىٰ كونِ هذا ينفَعُ غيرَه أو لا ينفَعُه؛ أن يؤثِرَ من العِلمِ ما هو أوقعُ أثراً في قلبِه وأكثرُ ترقيقاً له، وأن يقيِّدَهُ بالكتابةِ والتكريرِ أو نحوِ ذلكَ ممّا يزيدُهُ رسوخاً، فإنّ ذلكَ أنفَعُ له مِن كثيرٍ منَ العلومِ التي لا يجدُ بها ما ذُكِرَ منَ التأثيرِ والترقيقِ والخشوع. وهكذا يكونُ في جميعِ الأعمالِ والأحوالِ والأقوالِ وغيرِ ذلك، يتحرّىٰ ما هُوَ اللائقُ بهِ وإن كان لا يليقُ ولا يناسبُ غيرَهُ، هذا فيمَنْ أرادَ أن ينتفعَ هُوَ في نفْسِهِ فقط.

وأمّا من أرادَ أن ينفعَ غيرَهُ بالعِلمِ مِن عبادِ اللّهِ فينبغي أن يكونَ كالطبيبِ الـذي ينظُرُ في الدّاءِ وسببِهِ ومادّتِهِ ويعطي المريضَ الدواءَ الذي يصلُحُ لدائه، وربّمـا جاءَهُ مَن كانتْ بهِ العِلّةُ نفْسُها، فيُعطِيهِ دواءً آخرَ غيرَ الذي أعطاهُ الأوّلَ لمَعرفتِهِ أنّ السببَ المُوجِبَ لعِلّتِهِ غيرُ السبَبِ الموجِبِ لعلّةِ الآخر.

وهكذا العلومُ يُعطي كلاً ما يصلُحُ لهُ منها ولا يُقدِّرُ للناسِ ما يصلُحُ لهُ بمقياسِـه، ويكونُ هذا أيضاً في حـقِّ مَن يريـدُ التصنيفَ ونحوَهُ. انتهىٰ. نقَلَهُ سيّدُنا الإمامُ محمدُ بنُ زينِ بنِ سُميطٍ في «قُرةِ العينِ وجِلاءِ الرَّيْن».

فائدة:

قالَ سيِّدُنا الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: ينبغي للإنسانِ أن يتبحَّرَ في فنٍّ من العلومِ حتىٰ يُنسَبَ إليهِ ويُعرَفَ به. قالَ سيّدُنا عليٌّ كَرّمَ اللّهُ وجهَه: مَن أكثرَ من شيءٍ عُرِفَ به. ويتطرّفَ في البقيةِ في كلِّ فنٍّ ويأخُذَ مَجامعَها وجُملتَها، حتىٰ إذا سُئلَ عن شيءٍ فإذا هُوَ معَهُ فيه معرفةٌ ولا يكونُ جاهلاً، ولهذا صنَّفَ الإمامُ السُّيوطيُّ «النّقايةَ» وشرَحَها[1]. وإذا حفِظَ عِلماً حفظَ جميعَ العلوم المُتعلِّقةِ بهِ بحيثُ إذا اقتصدتَ واقتصرتَ فيهِ كنتَ فيها كذلك مُقتصِداً ومُقتصِراً، وخيرٌ لكَ أن تُحسِنَ عشرَ مسائلَ وتُتقنَها مِن أن تقرأَ كتاباً تامّاً لا تُتقِنُه. انتهىٰ. أو كما قال.

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: عِلمُ الأصولِ عِلمان: علمُ أصولِ الدِّينِ كالعقائد، ولا بدَّ أن يأخُذَ الإنسانُ منهُ قدْرَ الحاجةِ: كعقيدةِ الإمامِ الغزاليِّ رحِمَهُ اللّه. وعِلمُ أصولِ الفقهِ، وهُوَ عَسِرٌ لا يكادُ يُفهَم، ولا يجبُ علىٰ كلِّ أحد. فينبغي أن يأخُذَ من الأصلَينِ قَدْرَ الضرورة، ثم يأخذُ في كتُبِ الرقائقِ التي تُرقِّقُ قلبَهُ وتُرغِّبُهُ في الآخرةِ وتُزهّدُهُ في الدنيا، ثم لْيأخُذْ في العبادةِ فيجتهدَ فيها، ويكثرَ مِن تلاوةِ القرآنِ جهدَه، فإذا لم يُمكِنْهُ في بعضِ الأوقاتِ أكثَرَ منَ الذِّكرِ ويُلازمُهُ في كلِّ أحوالِهِ، فإنّ العمُرَ قصيرٌ والبِطالةُ ذاهبةٌ بأكثرِهِ. ولْيجعَلْ غايةَ اعتنائِه ومُطالَعتِهِ في المُهمِّ منها، فيُطالعَ المهمَّ ويحفظَ المُهمّ، وإن أرادَ مُطالعةَ

---

(١) «النقاية»: مَعْلَمةٌ صغيرة أَودَعَ فيها الإمامُ السيوطي خلاصةَ أربعةَ عشرَ علماً وزُبدةَ مسائلها، وتلك العلوم هي: علوم أصول الدين، والتفسير، وأصول الفقه، والفرائض، والنحو، والتصريف، والخط، والمعاني، والبيان، والبديع، والتشريح، والطب، والتصوّف. ثم شرَحَ «النقاية» في كتاب سمّاه: «إتمام الدراية لقُرّاء النقاية». والأصل والشرح مطبوعان.

غيرِ ذلكَ جعَلَهُ في نادرِ الأوقات. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

فائدة:

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: ينبغي لسالكِ طريقِ الآخرةِ أنْ يتتبَّعَ الفوائدَ حيثُ كانتْ عندَ أهلٍ وغيرِ أهل، ويستمِدَّ مِن كلِّ أحدٍ كائناً مَن كانَ: عالِماً كانَ أو عاميّاً، فرُبَّ خُلُقٍ جميلٍ يجدُهُ في بعضِ العوامِّ ولا يجدُهُ عندَ غيرِهِ ولا هُوَ في نفْسِه، ومِن شأنِ الصادقِ أن يأخُذَ مِن جليسِهِ كلَّ مليحٍ يراهُ فيهِ مِن قولٍ أو فعلٍ ويترُكَ ما يَستقبحُهُ منه، وإذا أخذَ الفائدةَ التي يجِدُها عندَهُ فما عليهِ ممّا هُوَ فيهِ منَ الفسادِ والاعوِجاج. انتهىٰ. مِن «قرةُ العين».

وقالَ نفعَ اللّهُ به: الفَهمُ لأهلِهِ نعمةٌ عظيمة، ولكنّهم ربَّما لا يستشعِرونَ كونَهُ نِعمةً؛ لاستِنادِهم إلىٰ كونِ ذلكَ من النظَرِ في كتابٍ مثلاً، وهُوَ بالحقيقةِ يوجِدُهُ اللّهُ عندَ النظَرِ في الكتابِ أو غيرِه. وينبغي للمُطالعِ في الكتُبِ أن يستمدَّ مِنَ اللّهِ المعونَةَ علىٰ تيسيرِ الفهم، ويستحضِرَ ذلك، فسوفَ يحصلُ لهُ المطلوبُ ويَفتَحُ اللّهُ عليهِ بالفَهمِ في الدِّين. انتهىٰ. مِن «قرةِ العين».

فائدة:

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به: خَصلتانِ يحسُنُ مِن طالبِ العِلم أن يُلاحظَهما: لا يدخُلُ في شيءٍ مِن علومِهِ وأعمالِهِ إلا بنيّةٍ صالحة، وأن ينظرَ إلىٰ الثمَرةِ والنتيجة، وإذا لم يلاحِظْ هذا لم يَنتفِع. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: إذا وقفَ طالبُ العِلمِ علىٰ فائدةٍ وأراد حِفْظَها وتقييدَها، ولم تحضُرْ لديهِ دَواةٌ ولا قلَمٌ فلْيَكتبْها بأصبعِهِ علىٰ كَفِّهِ أو ذِراعِه. وبلغَنا أنّ الإمامَ الشافعيَّ رضِيَ اللّهُ عنهُ لمّا ورَدَ المدينةَ وجلَسَ في حلقةِ الإمامِ مالكٍ رحِمَهُ اللّهُ والإمامُ مالكٌ يُملي «الموطأ» علىٰ من هناك، أملىٰ عليهم

ثمانيةَ عشَرَ حديثاً، وكانَ الإمامُ الشافعيُّ في أُخرَياتِ النّاسِ، ورَمَقهُ الإمامُ مالكٌ ببصَرِهِ وهُوَ يكتُبُ بأصبعِهِ علىٰ ظهرِ كفِّه، فلمّا تفرَّقَ أهلُ المجلِسِ دعاهُ وسأَلَهُ عن بلدِهِ ونسبتِه، فأخبَره، فقالَ الإمامُ مالك: رأيتُكَ تعبَثُ بيدِكَ علىٰ ظهرِ كفِّك. فقالَ الشافعيُّ: لا، ولكنّي إذا أمليْتَ حديثاً كتبتُهُ علىٰ ظهرِ كفّي، وإن شئتَ أعدْتُ عليكَ ما أملَيْتَ علينا. فقال: هات، فأَملىٰ عليهِ الثمانيةَ عشَرَ حديثاً التي أملاها مِن حِفْظِه، فأدناهُ منهُ وقرَّبَه. وكانَ ما كانَ مِن شأنِهِ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا به. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: إذا مَررْتَ علىٰ شيءٍ في القراءةِ ولم تفهمْهُ أو لم يحضُرْ فيهِ بالُك، فأعِدْهُ مرةً أخرىٰ في وقتٍ آخر؛ لأنّ الأوقاتَ تختلِف. وإذا أشكَلَتْ عليكَ مسألةٌ وقتَ القراءةِ فراجِعْها مرةً واحدةً في مَظِنّتِها؛ لأنّ كثرة المُراجعةِ في الكتُبِ وقتَ القراءةِ تمسَخُ بركَةَ الوقتِ وتُشتِّتُ الباطنَ وتُضيّعُ ما في ذهنِك. وإذا طالعتَ درسَكَ فأعمِلِ الفكرةَ فيهِ حتىٰ يتبيَّن لكَ معناه، ولا تكنْ متقيِّداً بما تراهُ في السُّطور. وفهْمُ القارىءِ يسري إلىٰ السامعين، وبَلادتُه تسري إلىٰ السامعِين، ونورُهُ يسري إليهم. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: السلَفُ يقولونَ: الكتابةُ ومُطالَعةُ النّحوِ بعدَ العْصرِ تُضعِفُ العقلَ والبصَر، وكذلكَ أهلُ الطبِّ يقولونَ في علمِ المعقول، وسلَفُنا لا يقرأونَ في كتُبِ المعقولاتِ بعدَ العصْر، وإنّ ذلكَ بالليلِ إن لم يكنْ بالنهارِ أَولىٰ مِن بعدِ العصْر.

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: كانَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ العيدروسُ مِن سَعَةِ عقْلِهِ لا يُقرِىءُ أحداً في كتابٍ مِن كتُبِ الفِقهِ إلا ومعَهُ كتابٌ في التصوُّف. وكانَ السيدُ سليمانُ ابنُ يحيىٰ مقبول الأهدَلُ[1] لا يَبتدىءُ في الدَّرسِ إلا بعدَ أن يستَفتِحَهُ بشيءٍ مِن

---

(١) العلاّمة نفيسُ الدين سليمان بن يحيىٰ بن عمر مقبول الأهدل (١١٣٧ ــ ١١٩٧هـ)، =

كتاب «الإحياء»، ثم يبتدىءُ في قراءةِ الفِقه. ذكَرَ ذلكَ ابنُهُ السيّدُ عبدُ الرحمنِ ابنُ سليمانَ[١] في «النفَس اليمانيّ»[٢].

فائدة:

قالَ الشيخُ محمّدُ بنُ عوضٍ بافضْل[٣]: كانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ ـ يعني الإمامَ أحمدَ بنَ حسنٍ العطّاسَ نفَعَ اللّهُ به ـ يُعجِبُهُ أن يبتدىءَ القارىءُ بما فيهِ بُشرىٰ للسامعين، وقد جاءَ إليهِ أحدُ الطّلَبةِ يريدُ القراءةَ عليهِ في «صحيح البُخاريّ»، فشَرَعَ يقرأُ مُبتدئاً بكتابِ الجنائز، فتغيَّرَ وجهُهُ عليهِ وعاتَبَهُ عِتاباً شديداً. وقال:

= محدّث زبيد واليمن في عصره. كان علاّمة في المعقول والمنقول، وإليه مرجع الفتوىٰ في تلك الديار.

(١) كان محدّثاً مؤرّخاً من فقهاء الشافعيّة، مولده بزبيد سنةَ ١١٧٩هـ، وبها وفاته سنةَ (١٢٥٠هـ). وهم أهلُ بيتٍ تسلسل فيهم العلم، فالجدُّ يحيىٰ (ت ١١٤٧هـ) كان مُسنِدَ الديار اليمنية، وابنُه سليمان (ت ١١٩٧هـ) علاّمةٌ بارعٌ مفتٍ، وعبد الرحمٰن (ت ١٢٥٠هـ) ابن سليمان وليَ الإفتاءَ بعدَ أبيه علىٰ حداثة سنّه، وكان علاّمةً متقناً، ومحمد (ت ١٢٦٠هـ) ابن عبد الرحمٰن، كان عالماً زاهداً ناب عن والده في الفتوىٰ آخر أيامه، ثم سليمان (ت ١٣٠٤هـ) ابن محمد كان مفتيَ زبيد وأحدَ جبال العلم، ثم ولده عبد الرحمٰن المتوفىٰ بمكةَ المكرّمة سنة ١٣١٠هـ كان عالماً فاضلاً. رضي الله عنهم جميعاً.

(٢) اسمه كاملاً: «النفَس اليماني والرَّوح الريحاني في إجازة القضاة بني الشوكاني» في التراجم والأسانيد.

(٣) العلاّمة الفقيه الشيخ محمد بن عوض بن محمد بافضل المذحجي السعدي التريمي (١٣٠٣ ـ ١٣٦٩هـ). لازَمَ الإمام أحمد بن حسن العطّاس وانتفع به، وجمعَ من نفيس كلامه مجلدَين قيّمَين سمّاه: «تنوير الأغلاس بذكر أنفاس سيّدي الحبيب أحمد ابن الحسن العطّاس». ومن مصنفاته: «صلة الأهل في مناقب آل أبي فضل»، مطبوع. وصَفَه الإمام عمر بن أحمد بن سميط في «النفحة الشذية» ص ٨٤ بـ«العالم العامل، الفائق علماً وعملاً وأدباً وكمالاً وفضلاً».

أما في هذا الكتابِ بابٌ سوىٰ بابِ الجنائز؟ وحُسنُ الابتداءِ والافتتاحِ دليلٌ علىٰ فطانةِ الطالبِ ونَجابتِهِ. انتهىٰ. مِن «مجموعِ كلامِه».

فائدة:

قالَ بعضُهم: أجوَدُ الأوقاتِ لِلحِفظِ الأسحار، ولِلبحثِ الإبكار، ولِلكتابةِ وسَطُ النهارِ، ولِلمُطالعةِ والمُذاكرةِ الليلُ. وقالَ الخطيب[1]: أجوَدُ أوقاتِ الحِفظِ الأسحارُ ثم وسطُ النهارِ ثم الغَداةُ. قالَ: وحِفظُ الليلِ أنفَعُ مِن حِفظِ النهار، ووقتُ الجوعِ أنفَعُ مِن وقتِ الشِّبَع، وأجوَدُ أماكنِ الحِفظِ الغُرَفُ وكلُّ موضعٍ بعيدٍ عنِ المُلهِيات.

فائدة:

قالَ الحبيبُ الإمام عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: كلُّ عِلمٍ لهُ أصولٌ إذا ضبَطَها الإنسان، تكادُ تنضَبِطُ لهُ الفروع، ومَن أرادَ أن يتبحَّرَ في فنٍّ فلْيأخُذْ بأصولِهِ لتَتْبعَها الفروع.

فائدة:

قالَ سيّدُنا الحبيبُ أحمدُ بنُ عمرَ بنِ سُميطٍ نفَعَ اللّهُ به: إذا استَفَدْتَ فائدةً فأفِدْها غيرَك، وقلْ لهُ يُفِدْ غيرَهُ حتىٰ يزيدَكَ الله. وقيلَ شِعراً:

أَفيدوا جَهولاً ما علِمتُوهُ دُونَهُ ... يُفيدُكُمُ الرحمنُ ما تجهَلونَهُ

---

(١) الإمام الحافظ الكبير العلاّمة المتفنن أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي، خاتمة الحفّاظ المتقدمين (٣٩٢ ــ ٤٦٣هـ). ما أخرَجَتْ بغداد بعد الدارقطني أحفظَ منه. صنف التصانيف الفائقة في الحديث وغيره، والمحدّثون بعده عيالٌ علىٰ كتبه، منها: «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع»، و«الفقيه والمتفقه» و«تاريخ بغداد»، وغيرها.

الفصل الخامس
في أدعية وأذكار مفيدة لطالب العلم وفوائد أخرى

فائدة:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ بهِ في «العطِيّةِ الهنيّة»: وليكنْ ممّا تتّخذُهُ ذِكْراً ــ مِنَ الأسماءِ التي تُورِثُكَ حِفظَ العلومِ وفهْمَ معانيها والنّطقَ بغرائبِها ــ هذانِ الاسمانِ: (المُبدِىءُ الخالق)، وأقلُّ ما تذكرُ بهِما كلَّ يومٍ مئةَ مرةٍ ولا حدَّ لأكثرِه، وذلكَ أن تقول: يا مُبْدِئُ يا خالق.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إذا أردتَ النّومَ فاقرَأْ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ ..﴾ إلىٰ: ﴿.. يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فإنّ فيها منافعَ كثيرة، منها أنّها تُعِينُكَ علىٰ حِفظِ القرآنِ، وأنكَ لا تنسىٰ ما حفِظتَهُ مِن ذلك، فلازِمْها كلّما أردتَ النّومَ في أيِّ وقتٍ كانَ بليلٍ أو نهار. انتهىٰ.

فائدة:

وفي «الإتقان» للإمامِ السّيوطيِّ رحِمَهُ الله: أخرَجَ الدّارميُّ[1] عنِ المُغيرةِ

---

(١) في «سُنَنه» (٢: ٩٠٦) في فضائل القرآن، حديث رقم (٣٢٦٢).

ابنِ سُبَيع ـ وكانَ مِن أصحابِ عبدِ اللّه[١] ـ: مَن قرَأَ عشرَ آياتٍ منَ (البقرةِ) عندَ منامِهِ لم ينسَ القرآن، أربعٌ من أوّلِها، وآيةُ الكُرسيّ، وآيتانِ بعدَها، وثلاثٌ من آخرِها. انتهىٰ[٢].

فائدة:

في كتابِ «الفوائدِ» للشَّرْجيِّ[٣] قال: قالَ الكَلْبيّ[٤]: كانَ لي ولَدٌ كلَّما قرأَ شيئاً مِن القرآنِ نسيَه، فرأيتُ قائلاً يقولُ لي: اكتُبْ لهُ في إناءِ ماء: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ * ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٥] ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩] ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢] وألقِ عليهِ ماءَ زمزَمَ واسقِهِ ولدَكَ يحفَظِ القرآنَ إن شاءَ اللّهُ تعالىٰ. انتهىٰ. ذكَرَهُ الحبيبُ عليُّ بنُ حَسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه في «القِرطاس». انتهىٰ.

---

(١) ابن مسعود الصحابي رضيَ اللّه عنه.

(٢) «الإتقان في علوم القرآن» (٢: ١١٥٦) في النوع الخامس والسبعين في خواصّ القرآن.

(٣) العلاّمة المحدِّث اليمني شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشَّرْجي الزَّبيدي (٨١٢ ـ ٨٩٣هـ). اشتهر وتوفي بزبيد. له «التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح» المعروف بمختصر الزبيدي، و«طبقات الخواصّ»، و«الفوائد»، وغيرها.

(٤) العلاّمة الأخباري أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسِّر (ت ١٤٦هـ). كان أيضاً رأساً في معرفة الأنساب، إلا أنه متروك الحديث.

فائدة:

قالَ الشيخُ محمّـدٌ العُمَريُّ في كتابِـهِ «بحـرِ الأنـوارِ»[١] عندَ ذكْرِهِ منافعَ أسماءِ اللّهِ الحُسنىٰ، قال: اسمُهُ تعالىٰ «العليمُ» مَن داومَ علىٰ ذكْرِهِ تكلَّمَ بعِلمٍ لم يكنْ يعلَمُه، وظهَرتْ علىٰ لِسانِهِ الحِكمة. واسمُهُ تعالىٰ «البديع» ذاكِرُهُ لا يزالُ يُبدِي عنهُ العلومَ الإلٰهيّة، ويُنبِـعُ اللّهُ العلومَ علىٰ لسانِه.

فائدة:

قالَ بعضُ المشايخ: إن الإكثارَ والملازمةَ مِن ذكرِ: «بسمِ اللّهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيـم» يَنوبُ منـابَ الشيخِ المُرشدِ المُربّي إذا فَقَدَهُ الطالبُ وأعوزَه، وأقلُّ الإكثارِ عددُ حروفِها في كلِّ يومٍ وليلة، وذلكَ سبعُمئةٍ واثنتانِ وعشرونَ مرة. انتهىٰ. مِنَ «القِرطاس».

فائدة:

هـذا الذِّكرُ يؤتـىٰ به قبلَ كـلِّ قراءة، ممـا اشتُهِرَ عـن السلَفِ بالفتوح، وهُوَ: سبحانَ اللّهِ، والحمدُ للّه، ولا إلهَ إلا اللّه، واللّهُ أكبـر، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللّهِ العليِّ العظيم، عدَدَ كلِّ حرفٍ كُتِبَ أو يكتَبُ أبدَ الآبدينَ ودَهْرَ الدّاهِرين، سبحانَـكَ لا عِلمَ لنا إلاّ ما علَّمْتَنا، إنّكَ أنـتَ العليـمُ الحكيم. انتهـىٰ. ذكرَهُ الحبيـبُ المُنيبُ علـيُّ بنُ عبدِ الرحمٰنِ المشهـورُ[٢] فـي «لمْعـةِ

---

(١) كما نقلَ ذلك الحبيب علي بن حسن العطّاس في كتابه «القرطاس» (١: ١٠٣).

(٢) العالم الربّاني المُجْمَع علىٰ جلالته، الأوّاه المنيب العابد الخاشع، الذي قيل: إنـه صـورة من رجال «الرسالة القشيريـة»، الحبيـب علي بن عبد الرحمٰن بن محمد بن حسين المشهور باعلوي (١٢٧٤ ــ ١٣٤٤هـ). من تلامذته: شيخ الإسلام عبد اللّه ابن عمر الشاطري، والحبيب سالم بن حفيظ، والحبيب علوي بن شهاب، وغيرهم من الأكابر.

=

النور»[١]، ورَواهُ عنِ الحبيبِ الإمامِ عمرَ بنِ حَسنِ الحدّادِ[٢] نفعَ اللّهُ بهِم.

فائدةٌ:

عنِ الحبيبِ أحمدَ بنِ حسنِ العطّاسِ رضِيَ اللّهُ عنه: إذا أرادَ المُذكِّرُ التذكير، أو أرادَ التدريسَ والتعليمَ يقولُ هذا الدُّعاء: بسمِ اللّهِ الرحمٰنِ الرَّحيم، ربِّ اشرَحْ لي صَدري ويسِّرْ لي أمْري واحلُلْ عُقدَةً مِن لِساني يَفْقَهوا قولي، وسدِّدْ لِساني واهدِ قلبي بحقِّ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ.

وعنهُ نفَعَ اللّهُ بهِ قال: مَن أرادَ أن يُذاكِرَ النّاسَ أو يُعلِّمَ أحداً فلْيستحضِرْ أهلَ الدَّرْكِ وأهلَ الباطنِ ويقُلْ: دستورَكم يا أهلَ الدَّرْكِ ويا أهلَ الباطنِ ويا أهلَ النَّوبةِ ويا أهلَ النور. وهُم يَمُدُّونَهُ ويُعِينونَه. انتهىٰ. أو كما قال.

فائدةٌ:

عن سيّدِنا العارفِ باللّهِ الحسنِ بنِ صالحِ البحْرِ نفعَ اللّهُ بهِ: لِفَهْمِ العِلمِ والعمَلِ بهِ وعدَمِ نسيانِهِ تُردِّدُ هذا الدُّعاء: اللّهُمّ إنّي أسأَلُكَ فهْمَ النبيّينَ وحِفظَ المُرسَلينَ وإلهَامَ الملائكةِ المُقرَّبين، اللّهُمّ أغْنِني بالعِلمِ وزيِّنّي بالحِلمِ وأكرِمْني بالتّقوىٰ وجمِّلْني بالعافيةِ يا أرحمَ الراحمين. انتهىٰ.

---

(١) «لمعة النور في مناقب الحبيب العلاّمة علي بن عبد الرحمٰن المشهور»، تأليف العلاّمة السيد محمد بن سقّاف بن زين بن محسن الهادي، (مخطوط).

(٢) الإمام الوليُّ العالم العارف باللّه، الحبيب عمر بن حسن بن عبد اللّه بن أحمد بن الحسن بن الإمام عبد اللّه بن علوي الحدّاد (١٢٣٥ ـ ١٣٠٨هـ)، مولده ووفاته بتَرِيم، أخذ عن الكبار كالحبيب عبد اللّه بن حسين بن طاهر، والسيّد محمد بن حسين الحبشي، وآل باسودان بالخريبة، وغيرهم.

فائدةٌ:

منقولةٌ مِن «مجموعِ» كلامِ الحبيبِ أحمدَ بنِ حسنٍ العطّاسِ نفعَ اللّهُ به، وهِيَ: يُروىٰ أن رجلاً جاءَ إلىٰ النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللّه، إنّي كثيرُ النِّسيان، فعَلِّمْني شيئاً، فقالَ لهُ: «قُلْ عندَ كلِّ يوم: اللّهُمّ اجعَلْ نَفْسي مُطمئنّة، تؤمنُ بلقائك، وتقنَعُ بعطائك، وتَرضىٰ بقضائك». قال: فما نسيتُ بعدَها شيئاً[١]. يقولُ ذلكَ ثلاثَ مرات.

فائدة:

لِعَدَمِ النِّسيانِ أيضاً، عن الحبيبِ العارفِ باللّهِ عليِّ بنِ مُحمّدٍ الحبَشيِّ نفَعَ اللّهُ به: قراءةُ قولِهِ تعالىٰ: بسمِ اللّهِ الرّحمٰنِ الرَّحيم ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى . . .﴾ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلىٰ: ١ ــ ٦] ويكررُها سبعاً. انتهىٰ.

فائدة:

يُروىٰ عن الإمامِ عليٍّ كرّمَ اللّهُ وجهَهُ أنهُ قالَ لرجلٍ شكا إليه النِّسيان: عليكَ باللُّبَان، فإنّهُ يُشجِّعُ القلبَ ويُذهِبُ النّسيان. ويُذكَرُ عن ابنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما أنّ شُربَهُ معَ السكّرِ علىٰ الرِّيقِ جيدٌ للبولِ والنِّسيان.

ويُذكَرُ عن أنسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ شكا إليهِ رجلٌ النِّسيان، فقال: عليكَ بالكُنْدُر، وانقَعْهُ منَ الليل، فإذا أصبحتَ فخُذْ منهُ شَربةً علىٰ الرّيق، فإنهُ جيدٌ للنِّسيان. انتهىٰ. ذكَرَ ذلكَ في «زادِ المعاد».

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٣٦٤) من حديث أبي أُمامةَ رضيَ الله عنه، **دون القصة**، بلفظ: «اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة، تؤمن بلقائك، وترضىٰ بقضائك، وتقنَعُ بعطائك».

وذُكِرَ أيضـاً: أنهُ قد يُورِثُ النِّسيـانَ أشيـاءُ بالخاصّيّـة: كحِجامةِ نقْرةِ القَفاء، وإدمانِ أكلِ الكسفرةِ الرَّطبة، والتفاحِ الحامض، وكثـرةِ الهَمِّ والغَمّ، والنظَرِ في الماءِ الواقفِ والبوْلِ فيه، والنظرِ إلىٰ المصلوب، والإكثارِ من قراءةِ ألواحِ القبـور، والمشيِ بينَ جمَلَيـنِ مقطورَين، وإلقاءِ القملِ بالحيـاة، وأكلِ سُؤْرِ الفأر، وأكثرُ هذا معروفٌ بالتجربة. انتهىٰ.

وعـنِ ابنِ شِهابٍ[1] أنهُ كانَ يكـرَهُ أكلَ التفـاحِ وسُـؤْرَ الفأرِ ويقولُ: إنهُ يُنسي، وكانَ يشرَبُ العسَلَ ويقولُ: إنهُ يُذْكي.

فائدةٌ:

قالَ سيّدُنا الحبيبُ عليُّ بنُ عبدُ الرحمنِ المشهورُ نفَعَ اللّهُ به: إنّ شحمةَ الغُرابِ من رأسِ الغنَـمِ تورِثُ العِلمَ لمَن أكلَها. وكـانَ رضِيَ اللّهُ عنـهُ يحبُّهـا ويأكلُها نيّة، وقد يأمُرُ بشَيِّها علىٰ النّار.

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: قالَ بعضُ العلماءِ: إنّ الصبيَّ صاحبَ الرأسِ الكبيرِ يكونُ عالِماً، وقالَ: إنّ الصبيَّ إذا حلَقَ رأسَهُ يومَ الرَّبُوعِ أربعينَ أربعاءَ مُتواليةً مِن بعدِ الولادةِ يكونُ عالِماً. انتهىٰ. من «لمْعةِ النور».

فائدةٌ:

عنِ الإمـامِ عليٍّ كرّمَ اللّهُ وجهَهُ قال: ثـلاثٌ يـزِدْنَ في الحِفظِ ويُذهِبْنَ البلغَم: السّواكُ والصّومُ وقراءةُ القرآن.

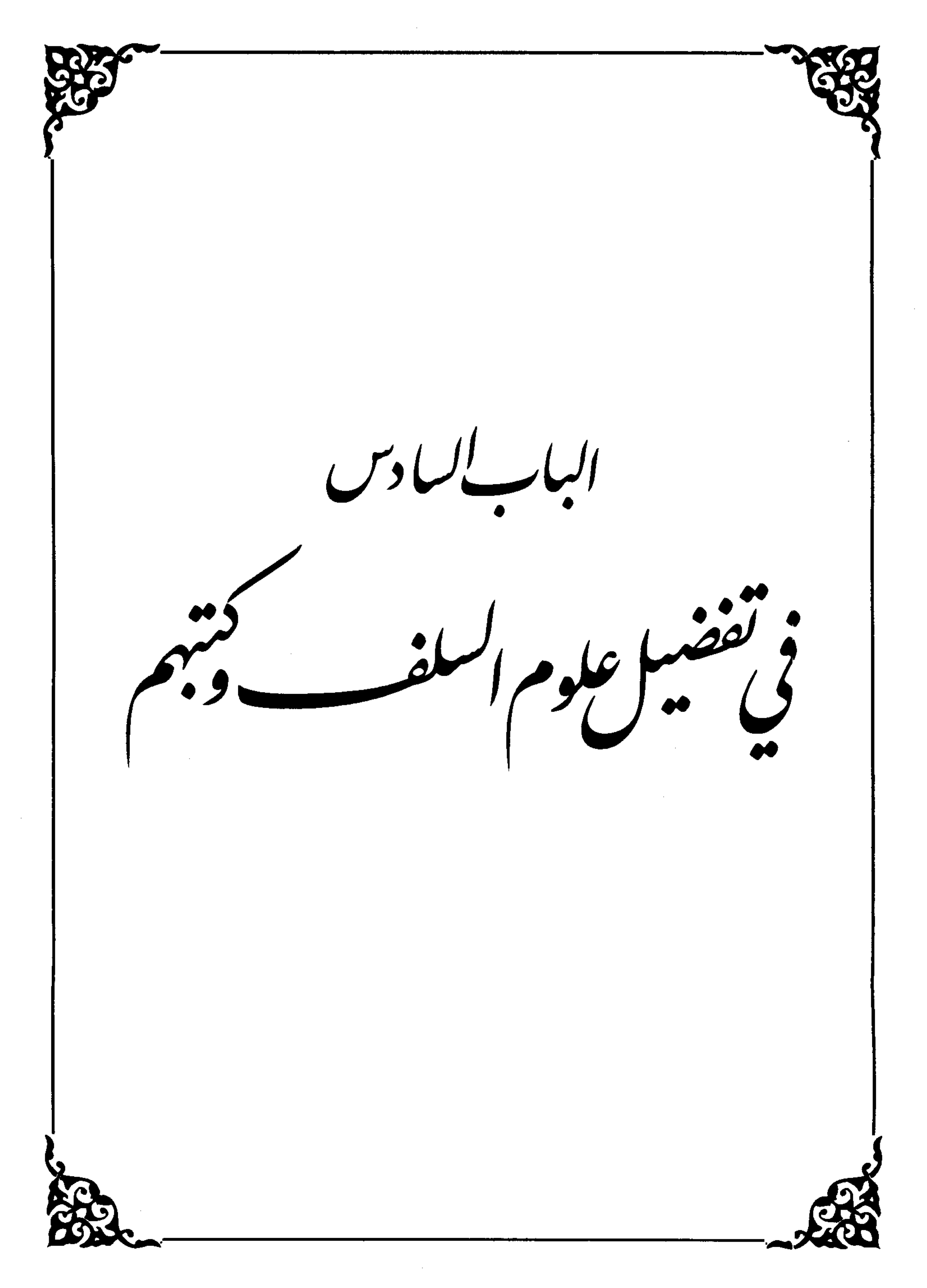
وقالَ بعضُهم: أكْلُ إحدىٰ وعشرينَ زبيبةً حمراءَ في كلِّ يومٍ علىٰ الرّيقِ

---

(١) وهو الإمـامُ الزُّهـري، أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن شهاب، التابعـي المدنـي الحافـظ. أحد الأئمـة الأعـلام، وعالـم الحجـاز والشـام (٥١ ــ ١٢٣هـ).

يـورِثُ الحِفظَ ويَشفـي كثيراً منَ الأمـراضِ والأسقـام، وكـلُّ ما يقلِّلُ البلغَـمَ والرُّطوبـاتِ يزيدُ في الحِفظ، وكلُّ ما يزيـدُ في البلغمِ يورِثُ النِّسيان. وكثرةُ البلغَمِ مِن كثرةِ شرْبِ الماء، وكثرةُ شرْبِ الماءِ مِن كثرةِ الأكل، والسواكُ يقلِّلُ البلغَمَ ويزيـدُ في الحِفظِ والفصاحة، وكذا أكلُ الزبيـبِ والخبـزِ اليابسِ يقطَعُ البلغَـم. وممّـا يورِثُ النِّسيانَ كثرةُ الهمومِ والأحزانِ في أمورِ الدنيـا، وكثرةُ الاشتغالِ والعلائق.





الباب السادس

في تفضيل علوم السلف وكتبهم



وفيه أربعة فصول :

الأول : في بيان العلم النافع .

الثاني : في تفضيل كتب السلف علىٰ غيرها .

الثالث : في نخبةٍ من الكتب الموصىٰ بها .

الرابع : في كتبٍ تُحذَر القراءة فيها .

الفصل الأوّل
في بيان العلم النافع

قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «العِلمُ عِلْمان: فعلمٌ في القلب، فذلك العلمُ النافع، وعلمٌ علىٰ اللِّسان، فذلكَ حُجّةُ اللّهِ علىٰ ابنِ آدَمَ»[١].

وكانَ الإمامُ مالكٌ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ يقول: ليسَ العِلمُ بكثرةِ الرِّواية، وإنّما العِلمُ نورٌ يقذِفُهُ اللّهُ تعالىٰ في القلب.

وكانَ سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ نفعَ اللّهُ بهِ يقول: العِلمُ إن وقَعَ في القلبِ فهُوَ نور، وإن وقع في النفْسِ فهُوَ نار.

ومِن كلامِ سيّدِنا العارفِ باللّهِ عبدِ اللّهِ بنِ مُحسِنٍ العطّاسِ رضِيَ اللّهُ عنه: العِلمُ عِلمان: عِلمُ خشيةٍ ونُور، وهذا كلَّما ٱزدادَ الإنسانُ منهُ زادَتْ معرِفتُهُ بنفْسِهِ وتحقَّقَ أنهُ لا يعلَمُ منَ العِلمِ شيئاً، وعِلمُ لسان، كلَّما ٱزدادَ الإنسانُ منهُ ٱزدادَ دَعوىٰ، وظَنَّ أنهُ لا يوجَدُ في العِلمُ مِثلُه. انتهىٰ.

وفي الأثر: ما أكثرَ الأشجارَ وليس كلُّها بمُثمِرة، وما أكثرَ الثّمارَ وليس

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شيبةَ والحكيم الترمذيُّ وابن عبد البر عن الحسن البصري مرسلاً بسندٍ صحّحه الحافظان المنذري والعراقي، وصحّحا أيضاً رفْعَه عن الحسن عن جابر كما نقَلَ ذلك كلَّه عبد الرؤوف المُناوي في «الفيض» (٤: ٣٩١).

كلُّها بطيّب، وما أكثرَ العُلماءَ وليسَ كلُّهم بمُرشِد، وما أكثرَ العلومَ وليسَ كلُّها بنافـع. انتهىٰ. فالعلمُ النافـعُ هُوَ مـا يزيدُ به القلبُ زهـداً في الدنيا ورغبـةً في الآخرةِ وتواضُعاً وخشوعاً للّهِ تعالىٰ.

قـالَ سيّدُنـا الشيخُ الإمـامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحـدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «الفصـولِ العلميّـة»: إذا أردتَ أن تعـرفَ النافـعَ المُهمَّ في حقِّـكَ منَ العلومِ والأعمال، والأنفعَ الأهمّ، فاستَحضِرْ في نفْسِكَ أنّكَ تموتُ غداً، وأنّكَ تصيرُ إلىٰ اللّهِ تعـالىٰ وتقِفُ بينَ يَدَيهِ فيسـأَلُكَ عن كـلِّ شـيءٍ مِن علومِكَ وأعمـالِكَ وجميعِ شؤونِكَ وأحوالِكَ، ثمْ تصيرُ إلىٰ الجنّةِ أوِ النّـار. فالمُهمُّ النافعُ هُوَ ما تجِدُهُ عندَ ذلكَ الاستحضارِ وهُوَ الأولىٰ بك، والأهَمُّ عندَكَ والأجدَرُ الأحقُّ أن تشتغلَ بهِ وتُلازِمَه. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينٍ الحبَشيُّ نفَعَنا اللّهُ به: مثالُ علومِ الآخرةِ مثالُ الغِـذاء: لا يُستغنـىٰ عنهُ بُكرةً وعشيّة، وغيرُها من العلومِ ــ ويشيرُ إلىٰ الفروعِ الفِقهيّةِ النادرةِ ونحوِها ــ كالفَواكِهِ ونحوِها منَ الأمورِ المُستغنىٰ عنها. انتهىٰ. ذكرَهُ في «قرةِ العين».

وكان سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقولُ على ما وردَ في الحديـث أنّ: «طَلَـبَ العِلم فريضـةٌ علىٰ كـلِّ مسلـم»[1]: إنّ النـاسَ اختلفوا في معنىٰ هذا الحديث، فكلٌّ نزَّلَهُ علىٰ فنٍّ منَ الفنون، وأصوبُ ما قيلَ فيه: إنه علمُ الحال، وهُوَ: ما يلزَمُ العبدَ مِن حينٍ يُصبحُ إلىٰ حينِ يُمسي. وإنّ من العِلمِ الذي طلبُهُ فرضٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ هُوَ العِلمُ الذي تتوصّلُ بهِ إلىٰ معرفةِ

---

(١) رُويَ عـن أنس وغيـره من الصحابة. قال العراقي: قد صحّـح بعـض الأئمـة بعض طرقه. وقال المِزّي: طرقه تبلغ به رتبةَ الحُسْن. وانظر تخريجه بتوسّع لدىٰ الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨.

الحلالِ لتَتناولَهُ ومعرفةِ الحرامِ لتجتنبَه. انتهىٰ. مِن «النهرِ المورود».

وقالَ سيِّدُنا الشيخُ عليُّ بنُ أبي بكرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «مَعارجِ الهِداية»: إنّ فرضَ العينِ منَ العِلمِ ثلاثةُ أنواع:

النوعُ الأوّل: معرفـةُ اللّهِ تعالىٰ، أي: معرِفـةُ ذاتِـهِ وصِفاتِـهِ وأفعالِـه، لتعرِفَ أوّلاً مَن تعبُدُهُ وبالطاعةِ مَن تقصِدُه.

النوعُ الثاني: معرفةُ ما فُرِضَ علىٰ العبـدِ في ظاهـرِهِ مِن أحكامِ الشريعةِ وفوائدِها البديعة.

النوعُ الثالث: ما فُرِضَ علىٰ العبـدِ في باطِنه، وهُوَ عِلـمُ القلـبِ المُهمُّ المتروك، ويُسمّىٰ الفِقهَ الكبير... إلىٰ آخرِ ما قال.

قـالَ الشيخُ أبو عبـدِ الرحمنِ السُّلمِـيُّ[1] رحِمَهُ الله: كـلُّ علمٍ لا يورِثُ صاحبَـهُ الخَشيةَ والتواضعَ والنصيحةَ للخلـقِ والشّفقةَ عليهِـم ولا يحمِلُهُ علىٰ حُسنِ معامَلةِ اللّهِ تعالىٰ، وأداءِ الأمانةِ ومُخالفةِ النفْسِ ومُبايَنةِ الشهَوات، فذلكَ العِلمُ الذي لا ينفَع، وهُوَ الذي استعاذَ منهُ النبيُّ ﷺ فقال: «أعوذُ بكَ مِن عِلمٍ لا يَنفَع»[2].

وقـالَ رجلٌ للجُنَيـد: أيُّ العِلمِ أنفَـع؟ قـال: ما دلَّكَ علـىٰ اللّهِ تعـالىٰ

---

(١) الإمام القـدوة، الزاهد الصوفي، الحافظ شيخ خراسان أبو عبد الرحمٰن محمد بن الحسين السُّلَمي (ت ٤١٢هـ)، صاحب المؤلفـات كـ«طبقات الصوفية» و«عيوب النفس ومداواتها» و«آداب الصوفية» وغيرها. قال أبو عبد اللّه الحاكم: إن لم يكن أبو عبد الرحمٰن من الأبدال، فليس للّه في الأرض وليّ.

(٢) أخرجه مسلـمٌ في «صحيحه» (٢٧٢٢) وغيـره، من حديث زيد بن أرقم رضيَ اللّه عنه.

وأبعدَكَ عن نفْسِك. ذكَرَ ذلكَ ٱبنُ عبّادٍ[١] في «شرحِ الحِكَم».

وقـال سيّدُنا الإمامُ العلاّمةُ عبدُ الرحمنِ بنُ عبـدِ اللّهِ بلفقيـه رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ في «فتح بصائرِ الإخوان»: العِلمُ أعظمُ أبوابِ الدِّينِ وأسبابِ القُربِ مِن ربِّ العالَمين، فبِه يعرِفُ العبدُ نفْسَهُ في عجْزِهِ ونقْصِهِ وذُلِّهِ وفقْرِه، ويعرِفُ ربَّهُ وكبريـاءَهُ وغِناهُ عنهُ وفضلَهُ عليـهِ في جميـعِ أمرِه، فالعلـمُ الـذي لا يثمرُ هذه الثمرةَ ولا تنمو بهِ هذه المعرفةُ في هذهِ الشجرةِ، ليس من علومِ الدِّينِ بحال، وإنّما هُوَ قِيلٌ وقال، وهُوَ إذا لم يُفدِ الهدىٰ والنورَ واليقينَ فإنّما هُوَ بلاءٌ وبُورٌ وصِفاتُ المُنافقين. فكلُّ عِلمٍ لم يقرِّبْ إلىٰ اللّهِ فليسَ من اللّهِ بشيء. انتهىٰ.

وقالَ نفَعَ اللّهُ بهِ شعراً:

وعِلمُ ذي الأنوارِ في جَنانِهِ   وعِلمُ ذي الأوْزارِ في لِسانِهِ

وعن سيّدِنا الشيخِ الإمـام عبدِ اللّهِ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنـهُ قـال: كلُّ ما صَـرَفَ قلبَكَ عنِ اللّهِ مِن علمٍ أو غيرِهِ، أو وسوَسْـتَ بهِ في نفْسِكَ فاترُكهُ وإن كانَ من علومِ الآخرة.

واختلافُ العلوم كاختلافِ الطُرق، فخُذ منها ما تحتاجُ إليه. مثلَ ما إذا كنتَ مسافراً ورأيـتَ طُرقاً كثيرةً فلا تسلُكِ الطرُقَ كلَّهـا، بـل واحدةٌ منها التي منها طريقُك. انتهىٰ.

وكتَبَ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا بهِ إلىٰ بعضِهم: وعليكَ بالعلومِ الغَزاليّةِ وما

---

(١) الفقيه الخطيب الواعظُ، الوليُّ العارف باللّه، الإمام أبو عبد اللّه محمد بن إبراهيم ابن عبّاد النَّفْزي الحِمْيَري الرُّندي ــ من أهل (رُندة) بالأندلس ــ المالكي (٧٣٣ ــ ٧٩٢هـ). من مؤلفاتـه: شرحٌ نفيسٌ علىٰ «الحكـم العطائيـة» سمّاه «غيث المواهب العلية»، مطبوع، و«الرسائل الكبرىٰ» و«الصغرىٰ»، وغيرها.

جَرى مَجراها منَ الصُّوفياتِ والفِقهيّاتِ التي هِيَ علومُ الشرعِ وصريحُ الكتابِ والسُّنة، فَثمَّ السّلامةُ والغَنيمةُ، واحترِزْ مما سوىٰ ذلك، فإنّهُ ربّما يشوِّشُ علىٰ الإنسانِ سُلوكَهُ. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: لا شكَّ أن مطالعةَ الكتُبِ: كتُبِ القوم، كالغَزاليّة، أفضلُ من التقرُّبِ بنوافلِ العبادات؛ لمَا فيها منَ التعريفِ بحالِ النفْس، ولمَا فيها منَ النفعِ المُتعدّي أيضاً. انتهىٰ.



الفصل الثاني
في تفضيل كتب السّلف على غيرها

كانَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفعَ اللّهُ بهِ يحُثُّ كثيراً علىٰ كتُبِ السلَفِ ويُرغِّبُ في قراءتِها ويقول: إنّ فيها النورَ والبرَكةَ والعِلم، والشيطانُ يُحسِّنُ للنّاسِ ما هُم فيهِ من الاشتغالِ بالكتُبِ المُعقّدةِ ليصرِفَهم بذلكَ عن الخيرِ والبَركةِ ويحرِمَهُمُ العِلم؛ لأنهُ يعلَمُ أنّهم إذا أقبلوا علىٰ كتُبِ السلَفِ حصّلوا العِلمَ والعمَل. وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: مَن أرادَ التقدمَ فعليهِ بكتُبِ المتقدّمين ومن أرادَ التأخُّرَ فعليهِ بكتُبِ المتأخرين.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: جرِّدوا القراءةَ في كتُبِ السلَف؛ لأنّهم جمَعوا بينَ العِلمِ والعَملِ والإخلاصِ والصّدق، وأمّا إعراضُ بعضِ النّاسِ عن كتُبِ السلَفِ المتقدمينَ في الفِقهِ وغيرِهِ فهُوَ مِن الحِرمانِ والتحكّمِ في الدِّينِ واتّباعِ الهوىٰ. نعوذُ باللّهِ من ذلك.

وقالَ أيضاً رضِيَ اللّهُ عنه: ومنَ المُصيبةِ العامّةِ أنّ أكثرَ المتأخرينَ يعتقدونَ أنّهم أعرَفُ منَ المتقدّمينَ وأحوَطُ منهم، معَ أنّهم ما عمِلوا إلا أن جمَعوا كلامَ المتقدّمينَ وضمُّوا بعضَهُ إلىٰ بعض، وحذَفوا الأدلّةَ والعِلَلَ واقتَصروا عليهِ وقالوا: هذا حاصلُ العِلم.

وقالَ نفَعَ اللّهُ بهِ: إنّ فقهاءَ الوقتِ وطلَبةَ العِلمِ ما يَنوونَ أخذَ العِلمِ مِن

ثلاثةِ أشياء، أوّلُها: القرآنُ ما يتدبَّرونَه ولا يتفهّمونَهُ ولا يأخذونَ العِلمَ منهُ، وكتُبُ الحديثِ والسنّة، لا يقرَأونَها إلا للبرَكةِ لا غير، ومقابلُ الأصحِّ والأظهرِ مِن كتُبِ السلَفِ المتقدّمينَ لا يقبلونَهُ ولا يقرَأونَهُ إلا للاستظهار. وهل تدري لِمَ لمْ يدركوا فهْمَ معاني القرآن؟ ذلكَ لكونِهم لا يحبّونَ كتُبَ السلَفِ القديمة؛ لأنّها تحتوي علىٰ الدليلِ والتعليلِ والتنظير، ولهذا إذا نظرتَ إلىٰ العالِمِ الكبيرِ الطّبقةِ وجَدتَ باطنَهُ مُظلِماً لخُلوِّهِ عنِ القرآنِ وعنِ عِلمِ السنّةِ النبويّة.

وقال سيّدُنا القُطبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن تأمّل تصانيفَ المتأخّرينَ رآها تقصُرُ عن تصانيفِ السابقين؛ لأنّها أوضَحُ ونيّاتُهم أحسَنُ مِن نيّاتِهم.

ومن كلامِ سيّدِنا العارفِ باللّهِ عبدِ اللّهِ بنِ مُحسِنِ العطّاسِ نفَعَنا اللّهُ به: إذا رأيتَ أو سمعتَ شيئاً من الكتُبِ فاعرِضْهُ علىٰ عمَلِ السلَفِ وكتُبِهم، فإنْ وافقَ هديَهم فالزَمْهُ وما لمْ فاترُكْه، فإنهم ميزانُ تصحيحِ الأعمالِ في جميعِ الأحوالِ، ومطالعةُ كتُبِهم وقراءتُها منَ البرِّ لهُم، وترْكُها منَ العُقوق. ولا بأسَ بِمطالعةِ كتُبِ غيرِهم ولكنْ معَ مطالعةِ كتُبِهم.

ـــ كتبُ الإمامِ الحدّادِ رضيَ اللّهُ عنه:

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: كتُبُ الحبيبِ عبدِ اللّهِ الحدّاد رضِيَ اللّهُ عنه كافيةٌ لمَن تمسَّك بها، فهيَ تُظهِرُ للمتمسِّكِ حقائقها. والحبيبُ عبدُ اللّهِ لا يفارقُ كتبُه[1]؛ لأنّ كلاًّ عندَ كلامِه، وجميعُ العلومِ موجودةٌ في ديوانِ الحبيبِ عبدِ اللّهِ الحدّادِ نفعَ اللّهُ به.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: علومُ الحبيبِ عبدِ اللّهِ الحدّادِ كلُّها وهْبيّة، وإنّما

---

(١) أي: أنّ رُوحَه لا تفارقُ الأماكنَ التي تُقرَأ فيها كتُبُه، نفعنا الله به.

هُوَ سترَهـا بصورةِ العِلمِ الظاهـر، وجمعَ العلومَ الظاهرةَ والباطنةَ في كلامِه. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمـامُ محمّدُ بنُ زينِ بنِ سُميـطٍ رضِـيَ اللّهُ عنهُ: وعليـك بقراءةِ الكتُـبِ النافعة، ولا أنفعَ ولا أجدىٰ ولا أرفَعَ مِن كتُبِ مولانا الحبيـبِ عبدِ اللّهِ الحـدّاد، سيّما «النصائـحُ» و«الدَّعوةُ» و«الديـوان»، فعليـكَ بذلك، تنجو إن شاءَ اللّهُ منَ المهالِك، وتُرفَعُ إلىٰ الممالِك.

وذَكَرَ رضِيَ اللّهُ عنهُ أن سيّـدَنا عبدَ اللّهِ الحـدّادَ نفَعَ اللّهُ بهِ كانَ يقول: مَن عنـدَهُ «الديوانُ» لا يحتـاجُ معَهُ إلىٰ غيره، ألم تعلَمْ أنّا أودَعْناهُ منَ العلومِ والأسرارِ ما لم نُودِعْهُ غيرَهُ منَ المؤلَّفات؟! انتهىٰ.

وفي «تثبيتِ الفؤاد» أنّ سيّدَنا الحبيـبَ عبـدَ اللّهِ الحدّادَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: ما بقيَ شيءٌ منَ الأمورِ التي يحتاجُ إليها السالكونَ إلا وضعْناهُ في كتُبِنا، فمَن أرادَ شيئاً مِن ذلكَ وجدَهُ فيها. انتهىٰ.

يُـروىٰ عن بعـضِ أكابرِ العارِفيـنَ أنهُ قال: الإمـامُ الغـزاليُّ غـزَلَ علومَ الطريقـة، والإمـامُ الشّعـرانيُّ نسَجَها، والحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحـدّادُ قصَّرها وحظاها، والحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ حسَينِ بنِ طاهرٍ فصَّلَها وخيَّطَها. ولم يبقَ إلا اللِّباسُ لمَن وُفِّقَ له.

ــ كتُبُ الإمامِ حُجّةِ الإسلامِ الغزاليّ:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: أكِبَّ علىٰ مُطالَعةِ كتُبِ الإمامِ الغزاليّ، فإنّها في الكتُبِ كالخُصَارِ[1] في الطّعام، بل أعلىٰ مِن ذلك؛ فإنّ الطعامَ إذا لم تشتَهِهِ ترَكْتَهُ إلىٰ وقتٍ آخرَ، وهذه لا يُستغنىٰ عنها بحال؛ لأنهُ

---

(١) بخاء مضمومة ثم صاد مهملة، وهو الإدام بالدارجة الحضرميّة.

جمعَ فيها الشريعةَ والطريقةَ والحقيقةَ ومواريثَ السلَفِ. وقد رأىٰ بعضُهم بعدَما صنَّفَ «الإحياءَ» الشيطانَ وهُوَ يحثو علىٰ رأسِهِ التراب، فقالَ لهُ: ما بالُك؟ قالَ: صُنِّفَ في الإسلامِ كتابٌ أخشىٰ أنّ النّاسَ يتّبعونَه.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ نفعَ اللّهُ به: إذا قالَ الإمامُ حُجّةُ الإسلامِ قولاً فلا يُلتفَتُ إلى قولِ مَن خالَفَه، وكفىٰ بما قالَهُ حُجّةً لصاحِبِهِ لكونِهِ إمامَ الفقهاءِ والصّوفيّة. انتهىٰ. من «قرةِ العين».

قالَ سيّدُنا القطبُ الشيخُ عبدُ اللّهِ بنُ أبي بكرٍ العيدروسُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: أجمعَ العُلماءُ العارِفونَ باللّهِ تعالىٰ علىٰ أنهُ لا شيءَ أنفَعُ للقلبِ وأقربُ إلىٰ رضِىٰ الربِّ سبحانَهُ مِن مُتابَعةِ الغزاليِّ ومحبّةِ كتُبِه. وكتُبُ الغزاليِّ لُبابُ الكتابِ والسنّةِ ولُبابُ المعقولِ والمنقول. انتهىٰ.

ومن كلامِ سيّدِنا الحبيبِ عبدِ اللّهِ بنِ مُحسِنٍ العطّاسِ: الغزاليُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ ــ في الأولياءِ، أو قالَ: في العلماءِ ــ مثلُ سيّدِنا محمّدٍ في الأنبياء، والنّوَوِيُّ رضِيَ اللّهُ عنه قطبُ الفقهاء.

يروىٰ عنِ الشيخِ القطبِ عبدِ الرحمنِ السّقافِ أنهُ كان يقول: مَن لم يقرإِ «المُهذَّب» لم يعرِفْ قواعدَ المذهب، ومن لم يقرإِ «التنبيه» فليسَ بنَبيه، ومن لم يُطالعِ «الإحياء» فما فيهِ حياء، ومَن لا لَهُ وِرد فهُوَ قِرد. انتهىٰ.

وقالَ الحبيبُ الإمامُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ آلُ أبي عَلَوي قبلَ أنْ يصِلَ إليهِمُ «الإحياء» للغزاليِّ أرادوا أن يُصنِّفوا كتاباً لهُم ولمَن بعدَهم، يحفَظُ عليهِم سيرتَهم وما وجدوا عليهِ سلَفَهم منَ العِلمِ والعمَل، فبينَما هُم يَشْتَوِرُونَ علىٰ فعْلِ ذلكَ وصَلَ إليهِم كتابُ «الإحياء»، فأعجَبَهم ووافقَهم، فاكتَفَوْا بهِ عن كتابٍ آخر.

الفصل الثالث
في نخبة من الكتب الموصىٰ بها

كتُبُ التفاسير

ــ تفسير البَغَوي[١] «معالم التنزيل»:

كانَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا بهِ يقـول: أركانُ الدِّينِ عندنا أربعة: «البخاريُّ» في الحديـث، و«البَغَويُّ» في التفسير، و«المِنهاجُ» في الفِقه، ومنَ الكتُبِ الجامعةِ «إحياءُ علومِ الدِّينِ». هذهِ القواعـدُ التي عليها البِناء، وطالعْنا كتباً كثيـرةً فلم نرَ أجمَـعَ منها، والوقتُ قصيـر، والقواعِدُ هِـيَ التـي عليهـا البِنـاءُ وهِيَ العَمَـد. انتهـىٰ. مِن «تثبيـت الفؤاد».

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: «تفسيرُ البَغوِيِّ» مِن أحسَنِ التفاسير، ولكنْ لا تَحسُنُ

---

(١) الإمام الجِهبِذ الكبيـر محيي السنة أبو محمـد الحسين بن مسعـود الفَرّاء البَغَوي (ت ٥١٦هـ)، صاحـب «التهذيب» و«شرح السنـة» والتفسير المسمّـىٰ «معالـمَ التنزيل» وغيرها. قال فيه شيخ الإسلام تقي الدين السبكي: اعلم أنَّ صاحبَ «التهذيب» قلَّ أن رأينـاه يختـار شيئاً إلاّ وإذا بُحِثَ عنه وُجِدَ أقـوىٰ من غيره، هذا مع اختصار كلامه، وهذا يدلُّ علىٰ نُبْلٍ كبير، وهو حَرِيٌّ بذلك، فإنه جامعٌ لعلوم القرآن والسنة والفقه. انتهىٰ. من «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (٧: ٧٦).

مُطالَعَتُهُ إلا لذي علمٍ أو بحضرةِ عالم؛ لأنّ فيهِ أشياءَ مُشكِلة، ويحتوي علىٰ سبعةِ علوم. انتهىٰ.

وفي «العَطيّةِ الهَنيّةِ» لسيّدِنا الحبيبِ عليِّ بنِ حسَنٍ العطّاسِ رضِيَ اللّهُ عنهُ ما نصُّه: كانَ ساداتُنا آلُ أبي عَلَوي يُحرِّضونَ علىٰ القراءةِ في «تفسيرِ البغويِّ» وهُوَ جديرٌ بذلك، كما قيل: عينُهُ فِرارُه، وشاهِدُهُ اصفِرارُه. قال: وهُوَ عُمدةٌ في تحقيقِ ذلك. انتهىٰ.

ـ تفسير الطَّبَريّ[1] «جامع البيان»:

قالَ الإمامُ النَوويُّ في «تهذيبه»: كتابُ ابن جريرٍ في التفسيرِ لم يُصنِّفْ أحدٌ مِثلَه[2]. وقالَ الإمامُ السُّيوطيُّ في «الإتقان»: إنَّه أَجَلُّ التفاسيرِ وأعظَمُها، فإنهُ يتعرَّضُ لتوجيهِ الأقوالِ وترجيحِ بعضِها علىٰ بعضٍ والإعرابِ والاستنباط، فهُوَ يَفوقُها بذلك. انتهىٰ[3].

وقالَ سيّدُنا الحبيبُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفعَ اللّهُ بهِ بعد أن قُرِىءَ عليهِ في «تفسيرِ ابنِ جرير»: مَن أرادَ العِلمَ المُتلَقَّفَ مِن حضرةِ الرسالةِ فلْيقرأْ هذا التفسيـر، والعلمـاءُ ما صـاروا علمـاءَ بالـزَّرْزَرة، أي: بتعقيـدِ العباراتِ واختصـارِها وصياغةِ الألفاظ، بل صاروا علمـاءَ بالتبيينِ والإقبالِ علىٰ العِلمِ بقلوبِهم وأجسامِهم وأرواحِهم. انتهىٰ، أو كما قال.

---

(١) الإمام الجليـل، المجتهد المطلَـق، أبـو جعفـر محمـد بن جريـر الطَّبَري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ). أحد أئمة الدنيا علماً وديناً، طوّف الأقاليم في طلب العلم، وصنّف الكتب العظيمة، كـ«التفسير» و«تاريخ الأمم والملوك» و«تهذيب الآثار» وغيرها.

(٢) «تهذيب الأسماء واللغات» (١ : ٧٨).

(٣) «الإتقان في علوم القرآن» (٢ : ١٢٣٥) في النوع الثمانين: (في طبقات المفسّرين).

كتبُ الحديثِ وشُروحِه

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به: ما شيءٌ يفيدُ في تهذيبِ النّفوسِ وتدريبِها مثلُ كلامِهِ ﷺ؛ لأنّ اللّهَ قد جعَلَهُ واسِطةً بينَهُ وبينَ خلْقِه، وقد شرَعَ لهُم شرائعَ الهُدىٰ والخيرِ والبِرِّ والإحسان، وأمَرَهُ بإبلاغِ ما أنزَلَهُ إليهِ مِن ربِّه، فعليكُمْ بسنّتِهِ ﷺ التي دلَّ عليها كلامُهُ وفِعلُهُ الشريف.

ـ «صحيح البخاري»[١]:

يروىٰ عنِ الشيخِ أبي زيدٍ المَرْوَزيِّ[٢] قال: كنتُ نائماً بينَ الرُّكنِ والمَقام، فرأيتُ النبيَّ ﷺ في المنام، فقال: يا أبا زيد، إلىٰ متىٰ تدرسُ كتابَ الشافعيِّ ولا تدرسُ كتابي؟ فقلت: يا رسولَ اللّه، وما كتابُك؟ قال: جامعُ محمّدِ بنِ إسماعيل، يعني صحيحَ البُخاريِّ رضِيَ اللّهُ عنه. نقَلَهُ النّوَوِيُّ في «تهذيبِ الأسماء»[٣].

ـ «سنن أبي داود»[٤]:

قالَ الخَطّابيُّ رحِمَهُ اللّه: إنّ كتابَ «السُّنَنِ» لأبي داود كتابٌ شريفٌ لم

---

(١) الإمام البخاري غنيٌّ عن التعريف، وفاته سنة ٢٥٦هـ بـ(خَرْتَنْك) إحدىٰ قرىٰ سَمرقَند، وقبره ظاهرٌ يُزار إلىٰ يومنا هذا.

(٢) الإمام الأوحد عديم النظير في زمانه، شيخ الإسلام أبو زيد محمد بن أحمد بن عبد اللّه الفاشاني المروزي (٣٠١ ـ ٣٧١هـ)، كان ممّن أجمعَ الناسُ علىٰ زهده وورعه وكثرة علمه وجلالته في العلم والدين، وأحد أكابر أئمة المذهب.

(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» (١ : ٧٥).

(٤) الإمام شيخ السُّنة أبو داودَ سليمانُ بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني (٢٠٢ ـ ٢٧٥هـ). من أكابر حفّاظ الحديث وأحدُ أصحاب الكتب الستّة الأصول في الحديث. قال الإمام إبراهيم الحربي وغيره: أُلين لأبي داودَ الحديث كما أُلين لداودَ، عليه السلامُ، الحديد.

يُصنَّفْ في كلِّ الدنيا كتابٌ مِثلُه، وقد جمَعَ أبو داود في كتابِهِ هذا منَ الحديثِ في أصولِ العِلم وأمّهاتِ السُّنَنِ وأحكامِ الفقه ما لا نعلَمُ متقدِّماً سَبَقَهُ إليهِ ولا مُتأخّراً لحِقَهُ فيه. قالَ: ورُوِّينا عنِ المُحسِـنِ بنِ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ الواذاريّ[١] قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ في المنامِ فقال: مَن أرادَ أن يستَمسِكَ بالسُّنَنِ فلْيقرأْ كتابَ أبي داود. انتهىٰ[٢].

ـ «جامع الترمذي»[٣]:

وقـالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحـدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ الإمام الغـزاليَّ تعلّق آخرَ عُمرِهِ بعلمِ الحديث، حتىٰ قالَ بعضُهم: لو طالَ عُمرُهُ لأرخصَ تلكَ البضاعـة. قال: وكانَ أكثرُ تعلُّقِـهِ مِن كتُـبِ الحديث بجامعِ التّرمـذيّ، حتىٰ رُوي عنـه أنهُ قـال: من عندَهُ «جامع التّرمـذيّ»، كأنّما عنـدَهُ نبـيٌّ يتكلم[٤]. انتهىٰ.

---

(١) لم نقف علىٰ ترجمته فيما بين أيدينا من المصادر.

(٢) «معالم السُّنن» للإمام الخطّابي (١: ١٠، ١٣) المطبوع بهامش «مختصر أبي داود» للمنذري.

(٣) الحافـظ الناقد الفقيه، الإمام أبو عيسىٰ محمـد بن عيسـىٰ بن سَوْرة الترمذي الضرير (٢١٠ ــ ٢٧٩هـ)، أحد أصحاب الكتب الستّة الأصـول في الحـديث، كان مضرب المثل في الحفظ.

(٤) وهذه الكلمة أخذها الإمام الغزالي عن الإمام الترمذي نفسه، حيث قال: صنّفتُ هذا الكتـاب وعرضْتُه علىٰ علماء الحجـاز والعـراق وخراسان فرَضُوا به، ومَن كان هذا الكتـاب في بيته فكأنمـا في بيته نبيٌّ يتكلّم. انتهىٰ. من «سير أعـلام النبلاء» للإمـام الذهبي (١٣: ٢٧٤)، وغيره.

ـ «الموطأ» للإمام مالك[١]:

قالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «الموطإ» للإمامِ مالكِ بنِ أنسٍ رضِيَ اللّهُ عنه: هُوَ كتابٌ يميلُ إليهِ السلَفُ ويقدِّمونَهُ علىٰ الكثيرِ مِن الكتُبِ الصِّحاحِ الموثوقِ بها، ويقولون: المرجِعُ في العمَلِ إلىٰ عمَلِ أهلِ المدينة.

ـ «فتح الباري» للحافظ ابن حجر[٢]:

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: لمَّا وردَ «فتحُ الباري» إلىٰ زَبِيدَ أمَرَ السلطانُ أن تُزيَّنَ البلدُ كلُّها، وأمَرَ أهلَها بالخروج إلىٰ مُلاقاتِهِ تعظيماً لهذا الكتاب. وقيلَ للشيخِ الشوكانيّ: هلاّ شرَحتَ «صحيحَ البُخاريّ»؟ فقال: لا هجرةَ بعد «الفتح»، يعني «فتحَ الباري». انتهىٰ. أو كما قال.

ـ «شرح مسلم» للإمام النووي:

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّا وجدنا منَ البركةِ والنورِ والعلمِ والإفادةِ والاستفادةِ في هذهِ الكتُبِ الثلاثةِ ما لم نجِدْهُ في غيرها، وهِيَ: «الإتقانُ في علومِ القرآن»، و«شرحُ النّوويِّ علىٰ صحيحِ مسلم»، و«اليواقيتُ والجَواهِر في عقائِدِ الأكابِر» للشَّعرانيّ. فعليكَ بمُطالَعتِها ومُداوَمةِ النظَرِ فيها. انتهىٰ.

---

(١) توفي الإمام مالك بن أنس الأصْبَحي، إمامُ دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة المتبوعين، سنة ١٧٩هـ بالمدينة المنوَّرة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والتسليم، وقبره بالبقيع المشرَّف.

(٢) حافظ الدنيا أوحد عصره، ومَن لم يأتِ بعدَه مثلُه، محيي مآثر السُّنة المطهَّرة، شيخ الإسلام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني الشافعي (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ).

كتُبُ التصوُّف

ـ الأمهاتُ السِّتّ:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: الأُمّهاتُ السّتُّ في التصوُّفِ ستةُ كتُب: «الإحياءُ»، و«مِنهاجُ العابدين»، و«الأربعينَ الأصل» للغزاليّ، و«رسالةُ القُشَيرِيّ»، و«عَوارفُ السَّهْرَوَرْدِيّ»[1]، و«القُوتُ» لأبي طالبِ المَكّيّ[2]. وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يحكي عن بعضِ الأكابِرِ أنهُ كانَ يقول: مَن أرادَ النورَ فعليهِ بـ«القُوتِ» لأبي طالبِ المكّيّ، ومَن أرادَ العِلمَ فعليهِ بـ«الإحياءِ» للغزاليِّ. انتهىٰ. مِن «النهرِ المورود».

ـ كتُبُ الإمامِ الغَزَاليّ عموماً:

ومِن كلامِ سيّدِنا الشيخِ القُطبِ عبدِ اللّهِ بنِ أبي بكرٍ العيدروسِ رضِيَ اللّهُ عنهُ: مَن أرادَ طريقَ اللّهِ ورسولِهِ ورضاهُما فعليهِ بمُطالعةِ كتُبِ الغزاليّ، وخصوصاً البحرَ المحيطَ: «إحياءَهُ»، أعجُوبةَ الزّمان. «إحياءُ علومِ الدِّينِ» فيهِ جميعُ الأسرار، و«بدايةُ الهِدايةِ» فيهُ التُّقىٰ، و«الأربعينَ الأصل» فيهِ شرحُ الصراطِ المستقِيم، و«مِنهاجُ العابدِين» فيهِ الطّريقُ إلىٰ اللّه، وكتابُ «الخُلاصةِ»

---

(١) وقد انتخَبَ نفائسَه أحدُ أكابر السادة العَلَوية، وهو الإمامُ العارفُ باللّه محمد بن زين ابن سُمَيط (ت ١١٧٢هـ)، في كتابه «الدرر واللطائف في اختصار عوارف المعارف»، وقد حققه بعض طلبة العلم، وهو في طريقه للطبع. أمّا السهروردي فهو الإمام الواعظ المفسّر الفقيه الوليّ العارف باللّه، شيخ الشيوخ شهاب الدين أبو حفص عمر ابن محمد السهروردي الشافعي (٥٣٩ ـ ٦٣٢هـ)، من أئمة التصوُّف.

(٢) سيأتي الكلام استقلالاً علىٰ «قوت القلوب». أمّا مؤلفه فهو الإمام الزاهد العارف باللّه شيخ الصوفية أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي المكّي (ت ٣٨٦هـ)، كان كثير المجاهدات، مجتهداً في العبادة.

في الفِقهِ فيهِ النور. انتهىٰ. مِن «شرحِ العَينيّـة».

ـــ «إحياء علوم الدِّين» للإمام الغزالي:

وقـال رضِيَ اللّهُ عنـه في الثّناءِ علىٰ كتاب «الإحياء»: وبعدُ، فليسَ لنا طريقٌ ومِنهاجٌ سوىٰ الكتابِ والسنّة، وقد شرَحَ ذلك كلَّهُ سيّدُ المُصنِّفينَ وبقيةُ المُجتهِدِينَ حُجّةُ الإسـلامِ الغزاليُّ في كتابِهِ أُعجوبـةِ الزمـان، العظيمِ الشان، المُلقَّبِ «إحياءَ علومِ الدِّين»، الذي هُوَ عبارةٌ عن شرحِ الكتابِ والسّنةِ والطريقةِ والحقيقـة، ولو بعَثَ اللّهُ الموتىٰ لمَا أوصَـوا الأَحيـاءَ إلا بمـا في «الإحياء». وأشهَدُ باللّهِ سرّاً وعَلانيَةً: أنّ مَن طالَعَ «الإحياءَ» كانَ مِن المُهتَدِين. انتهىٰ.

قالَ الإمامُ النوويُّ رحِمَهُ اللّه: كادَ «الإحياءُ» أن يكونَ قرآناً.

قالَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: وهل ذلكَ لكثرةِ ما فيهِ مِن آيِ القـرآنِ للاستدلال بهـا أم لكونِهِ مُعجِـزاً فشابَهَ القـرآنَ من هذا الوجـه؟ وهذا أقرب. ومعنىٰ كونِهِ مُعجِـزاً أنهُ علىٰ مِنوالٍ لم يُسبَقْ إليهِ مِثلُه، ويعسُرُ علىٰ مَن أرادَ أن يصنِّفَ مثلَهُ الإتيانُ بمُصنَّفٍ علىٰ نمَطِه. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ في قصيدتِهِ العينيّة:

والحُجّةُ الحَبْرُ الذي باهىٰ بهِ	أهلَ الرسالةِ خيرُ كلِّ مشفَّعِ
وبِوضعِهِ «الإحياءَ» فاقَ، فيا لَهُ	مِن فائقٍ، وكمثلِهِ لم يُوضَعِ

ـــ «كتابُ الأربعين في أصولُ الدِّين» للإمام الغزالي:

قـالَ الإمامُ عبدُ اللّه الحـدّادُ رضِـيَ اللّهُ عنـهُ: «كتابُ الأربعينَ الأصل» فيـهِ أشياءُ ليستْ في «الإحيـاء»، وهُـوَ كتابٌ جليـل، وسمـاهُ الشيخُ عبدُ اللّهِ العيدروسُ: الصّراطَ المستقيم، وفي كتُبِ الإمـامِ الغزاليِّ خاصيّة، وهِيَ أنّها تجلِبُ القلبَ إلىٰ الحضورِ معَ اللّهِ بالخاصيّةِ لا بمجرَّدِ العِلم. انتهىٰ.

وقـالَ رضِـيَ اللّهُ عنـهُ: كتـابُ «الأربـعيـنَ الأصـل» للإمـامِ حُـجّـةِ الإسـلامِ الغزاليِّ مِنَ الكتُبِ النافعةِ في الدِّيـنِ لأهلِ البدايات وأهلِ النهايات، وكتابُ:

ـ «رسالةِ القُدْس في مُناصَحةِ النفْس»:

للشيخِ محمّدِ ابنِ عربيٍّ كذلك، وكانَ ألّفها بمكّةَ المُكرّمةِ وذُكِرَ أنهُ طافَ بها البيـتَ العتيقَ سبعاً، وليس فيها شيءٌ من الأمـورِ المُشكِلة، فينبغي لسالِكِ الطريقِ إلىٰ التحقيقِ أنْ يكثِرُ منَ النظَرِ في هذَينِ الكتابينِ لطَلَبِ النفْعِ والانتفاعِ في طريقِ أهلِ الحقِّ والاتباع. انتهىٰ. مِن «مُكاتَبتِه».

ـ «بداية الهِداية» للإمامِ الغَزَالي:

قـالَ الحبيبُ عليُّ بنُ محمّـدٍ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: «بدايةُ الهدايةِ» كتابٌ عظيـم، جمَـعَ العِلـمَ الظاهرَ والباطـن، وهِيَ بدايةٌ توصِـلُ إلىٰ النهـاية، وقد أوصَلتْ كثيراً بالعَملِ بها منَ النّاسِ إلىٰ الاجتماع بالنبيِّ ﷺ يقَظة، وكانَ سلَفُنا يتعاهَدونَ علىٰ العملِ بما في «البدايةِ»، والثلاثةُ الذينَ أقاموا بالمدينةِ المنوَّرةِ وتعاهَـدوا علىٰ العمَلِ بما في «البدايـة»: الحبيـبُ عبدُ الرحمـنِ بنُ مُصطـفىٰ العيـدروس[1]، والحبيبُ شيـخُ بنُ محمّدٍ الجفْريّ[2]، والحبيبُ أبو بكرٍ بنُ

---

(١) السيّد الإمـام الأديب العلاّمة عبد الرحمن بن مصطفـىٰ بن شيـخ العيدروس، مولده بتريم سنة (١١٣٥هـ)، ووفاته بمصر سنة (١١٩٢هـ)، له مصنفاتٌ كثيرة، أخذ عنه الإمام مرتضىٰ الزبيدي، وانتسب إليه في الأخذ علىٰ كثرة شيوخه.

(٢) الحبيب شيـخ بن محمد بن حسـن بن علـوي الجفري (ت ١٢٢٢هـ). ولد بتـريم، وأخذ عن سيدنا الحسن بن عبد الله الحدّاد، ثم هاجر إلىٰ الهند وتوفي بكاليكـوت. أخذ عنه جماعة منهم العلاّمة باسودان وغيره. كان أبوه وجده وأبو جده من أصحاب الإمام الحدّاد.

حسينٍ بلفقيه[١]، ووَفَوا بالعَهدِ حتىٰ اجتمعوا بالنبيِّ ﷺ يقَظة.

قالَ سيّدُنا القُطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ نفَعَ اللّهُ به: أولىٰ ما ينبغي أن تُطالعَ كُتبَ الإمامِ الغزاليِّ علىٰ قدرِ حالِك، فإن كنتَ مِن المُبتدئينَ فـ«البداية»، وإلا فَـ«الأربعينَ الأصل»، وإلا فـ«المِنهاجُ» أي: «مِنهاجُ العابدين»، فإن كان لكَ معرفةٌ وفهمٌ في العلمِ فطالعْ في «الإحياء»، فإن كنتَ لا تعمَلُ بـ«البدايةِ» فقُلْ في نفْسِك: لا شكَّ إذا لم أقدِرْ على العمَلِ القليلِ فلا أقدِرُ علىٰ الكثير.

ـ «قُوتُ القلوب» لأبي طالبٍ المَكّيّ:

قالَ نفَعَ اللّهُ به: وعليكُم بمُطالَعةِ «قُوتِ القلوبِ» للشيخِ الإمامِ أبي طالبٍ المكّيّ، فإنهُ كتابٌ جامعٌ نافع. وكانَ الشيخُ السَّهْرَوَرْدِيُّ صاحبُ «العَوارفِ» يسمّيهِ «ديوانَ الإسلام»، وهُوَ مِن أجمَعِ الكتُبِ وأنفَعِها في فنِّهِ بعد «إحياءِ علومِ الدِّين».

ـ كُتُبٌ أخرىٰ في السُّلُوك:

في «مجموعِ» كلامِ الحبيبِ أحمدَ بنِ حسَنٍ العطّاسِ نفَعَ اللّهُ بهِ أنهُ سألَهُ بعضُ الطّلَبةِ عمّا تنبغي القراءةُ فيهِ، فقال: اقرأْ في «البدايةِ» و«الأذكارِ» و«المِنهاجِ». وقال: إن الحبيبَ عبدَ اللّهِ الحدّادَ يقول: قراءةُ «المِنهاجِ» في الفقهِ، و«الإحياءِ» في التصوُّفِ، و«البَغَويِّ» في التفسيرِ، و«المُلحَةِ» في

---

(١) وقفنا علىٰ ترجمتين بهذا الاسم، الأولىٰ: لأبي بكر بن حسين بلفقيه المتوفىٰ سنةَ ١٠٧٤هـ بالهند ببلدة (بيجافور). والثانية: لسَمِيّه المتوفىٰ في (آشي) بإندونيسيا سنةَ ١٠٠٠هـ. ولم يكن أحدٌ منهما معاصراً للسيّد عبد الرحمن بن مصطفىٰ العيدروس المصري المتوفىٰ سنةَ ١١٩٢هـ، فالله أعلم بالحال.

الإعـرابِ[١] وكتُبِ ٱبنِ هشامٍ[٢]: ممّا يحصُلُ بقراءتِها الفتـوحُ، وتتـرقّىٰ بها الرُّوح. انتهىٰ.

وفـي «شرحِ العَينيّـة»: أنّ الشيـخَ أحمـدَ بنَ محمّـدٍ الحبَشـيَّ صاحـبَ الشِّعْـب[٣] رضِـيَ اللّهُ عنـهُ كـانَ يقـول: ثلاثُ نِعَمٍ اختُـصَّ بها المتـأخرونَ وهِـيَ: «شـرحُ الحِكمِ» لابنِ عبّاد، وقصـائدُ الفقيـهِ عمـرَ بامَخْـرَمة[٤]،

---

(١) لمؤلفها العلاّمة الأديب الكبير أبي محمد القاسم بن علي الحَريري البصري (٤٤٦ ــ ٥١٦هـ). صاحب «المقامات الحريرية» التي اشتهرت وتُرجمت إلىٰ عدة لغات، وله أيضاً «درة الغوّاص» و«ملحة الإعراب»، وغيرها.

(٢) كـ«مغني اللبيب» و«شـذور الذهب» و«قطر الندىٰ» و«أوضح المسالك» و«الإعراب علىٰ قواعد الإعراب»، وغيرها. وابنُ هشام هو: جمال الدين أبو محمد عبد اللّه بن يوسف، المعـروف بابن هشام (٧٠٨ ــ ٧٦١هـ)، من أئمـة العربيـة. مـولده ووفاته بمصر. قال ابن خلدون: ما زلنا ونحـن بالمغرب نسمع أنّه ظهر بمصر عالمٌ بالعربية يُقال له ابن هشام أنحىٰ من سيبويه!

(٣) الإمام الولي المنوَّر سيدنا الحبيب شهاب الدين أحمد بن محمد بن علوي الحبشي، ولد بتريم، وحفظ القرآن وطلب العلم، وصحب الأكابر كالشيخ أبي بكر بن سالم وغيره. رحل إلىٰ الحرمين وجاور بهما سنين، وكان كثير المجاهدة والعبادة، ووهبه اللّه من المعارف والولاية ما يبهر العقول. استوطن آخرَ عمره الحُسَيِّسةَ وتوفي بها سنة ١٠٣٨هـ، ودُفـنَ في شِعْـب الإمـام المهاجر، ولذا سُمِّي (صاحبَ الشِّعب)، وسُمِّي ذلك الشعْب بعده بـ: (شِعْب الأحمدَين): المترجم، والإمامِ أحمدَ بن عيسىٰ المهاجر.

(٤) الشيـخ عمر بن عبد الله بن أحمد بامخرمة الحضرمـي (٨٨٤ ــ ٩٥٢هـ). من أعيان حضـرموت، عالمٌ فقيهٌ صوفـيٌّ شاعـرٌ، صاحب مواجيد وأذواق. مولده بالهجرين ووفاتـه بسيؤون. أخـذ عـن والـده عبد الله بن أحمـد مفتـي عـدن، وعـن الشيـخ عبد الرحمـن الأخضر باهرمز، وعنه ولده عبد الله بن عمـر مفتـي حضرموت الأكبر في عصره. له ديـوانٌ بديع باللهجة الحضرميـة،ويُعـدُّ الشاعـرَ الشعبيَّ الأول في حضرموت. ومن مؤلفاته: «وِرد الوارد القدْسي من معنىٰ آية الكرسي»، وغيره. =

والقهوةُ البُـنِّيّة[١]. انتهىٰ.

ويذكَرُ عن بعضِ المتأخّرينَ أنهُ زادَ علىٰ هذه الثلاثة: كتُبَ الحبيبِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنه.

وكانَ الحبيبُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ يروي عن سيّدِنا الإمـامِ عبدِ اللّهِ الحدّاد: أنهُ كانَ لا يـزالُ ثلاثـةٌ منَ الكتُـبِ تُقـرأُ عليه، كلّما تمَّ كتـابٌ منها أمَرَ بإعـادةِ القـراءةِ فيـهِ مِن أوّلِـهِ. . وهكـذا، وهِيَ: «ريـاضُ الصالِحين»[٢]، و«مقالُ الناصِحين»[٣]، و«شرحُ الحدِيقة» ــ يعني علىٰ «العروةِ الوثيقة» ــ للشيخِ محمّدِ بنِ عمرَ بَحْرَق[٤].

وفي «مجمـوع» كلامِ سيّـدِنا الإمـامِ أحمدَ بنِ عمرَ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: «حديقةُ» الإمام بَحْرَق هديةٌ مِن اللّهِ تعالىٰ للمسلمين، وأوَدُّ أنها في كلِّ بيتٍ ويحفَظُها كلُّ قلب، لأنّها دعـوةٌ إلىٰ اللّهِ خالصة، وهِيَ زُبدةُ الزُّبدةِ وعُمدة. انتهىٰ.

---

(١) لِمَا فيها من الإعانة علىٰ طاعة اللّه بالسهر والقيام.

(٢) للإمام النووي رضيَ اللّه عنه.

(٣) «مقال الناصحين بحفظ شعائر الدين» للإمام العلاّمة الوليّ الشيخ محمد بن عمر باجَمّال الحضرمي (٩٠٥ ــ ٩٦٤هـ). صحب الولي الشهير الشيخ معروف باجمّال، وسلك طريق القوم فصار من المحققين فيها، وكان سخياً ناصحاً شديد التعلُّق بالآخرة. صنَّف عدة مؤلفات نافعة جُلّها في التصوّف.

(٤) العلاّمة المتفنن الفقيه النحوي الأديب علاّمة اليمن محمد بن عمر بن مبارك الحميري الحضرمي الشافعي، الشهير ببَحْرَق (٨٦٩ ــ ٩٣٠هـ). ولد بحضرموت، وتلقىٰ العلم بها وبزبيد والحرمين ونبغ. ولي قضاء الشِّحر ثم رحل إلىٰ الهند وبها توفي، من مصنفاتـه: «تحفة الأحباب شرح مُلحـة الإعراب» و«شرح لاميـة الأفعـال» و«حليـة البنات والبنين» و«الحديقة الأنيقة شرح العروة الوثيقة»، وغيرها.

وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: نوصيكُم بأربعـةِ كُتـبٍ الزَموها: كتابِ «الحديقةِ الأنيقة» للشيخِ الإمام محمّدٍ بَحْرَقَ، وكتابِ «مقالِ الناصحينَ» للشيخِ محمّدِ بنِ عمرَ باجَمّـال، وهـذان الكتابان لا يزالانِ يُقـرآنِ في مجلسِ الحبيبِ عبدِ اللّهِ الحدّاد، إذا تمّ واحدٌ منهُما سِيْرَ في الثاني، وكتابِ «الدُّرِّ الثميـنِ» للحبيـبِ عبدِ القادِرِ بنِ شيخِ العيدروسِ الذي وصفَهُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ بقولِهِ في العينيّـة: (. . عبدِ القادرِ المُتضَلِّع)[1]، والرابـعُ: «إتحـافُ النبيلِ»[2] لسيّدنـا الإمامِ طاهرِ بنِ حسَينٍ نفَعَ اللّهُ به. انتهىٰ.

كتُبُ الفِقه

ـ «المُهَذَّب» للإمامِ الشِّيرازيّ[3]:

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ مِن عمَلِ السلَفِ المُواظَبةُ على قراءةِ «المُهذَّبِ» كلَّ يوم، وجَزّأوهُ واحداً وأربعينَ جزءاً، يقرأونَ كلَّ يومٍ جزءاً مُدارَسةً كمُدارَسةِ القرآن، وإذا ختَموهُ أعادوه، ووصلوا إلىٰ ما وصلوا إليهِ مِن العِلمِ وبرَكتِهِ والعَملِ ونورِهِ والإحاطةِ بالدليلِ والتعليلِ وما استُنبِطَ مِن ذلكَ وما قِيسَ عليهِ.

---

(١) الإمام العلاّمة المؤرِّخ، الولي الكبير، صاحب التصانيف البديعة، الحبيب عبد القادر ابن شيخ العيدروس (٩٧٨ ـ ١٠٣٨هـ). سكن حضرموت وانتقل إلىٰ أحمـد آباد بالهنـد، وبها توفي. كان الإمـام الحدّاد رضـيَ اللّه عنـه يقول: هو أكثر آل باعلـوي تآليـف. من مؤلفاتـه: «النور السافـر عـن أخبار القرن العاشـر» و«تعريف الأحيـاء بفضائـل الإحياء» و«غايـة القُرَب في شرح نهاية الطلـب»، وغيرها. ومنها الكتـاب المذكور أعلاه: «الدُّرُّ الثمين في بيان المهمّ من علم الدِّين».

(٢) «إتحاف النبيل ببعض معاني حديث جبريل»، طبع بسنغافورا سنةَ ١٤١٢هـ.

(٣) تقدمت ترجمته ص ١٤٦.

ـ «مِنهاجُ الطّالبينَ» للإمامِ النوَويّ:

وكـانَ سيّـدُنا القطـبُ عمـرُ بنُ عبدِ الرحمنِ العطّـاسُ نفَـعَ اللّهُ بهِ يأمُرُ بقـراءةِ «المِنهاجِ» ويُحرِّضُ عليهِ ويقول: إنّ النوَوِيَّ ضمِنَ بالفُتـوحِ لِمَن قرأَ فيه.

وفي كتابِ «القِرطاسِ» عنِ الشيخِ الفقيهِ عبدِ اللّهِ بنِ عمرَ باعَبّادٍ[١] أنهُ سألَهُ الشيخُ القُطبُ عمرُ بنُ عبدِ الرحمنِ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: فيمَ تقرأُ منَ الكتُبِ؟ فقال: في كتابِ «الإرشادِ» للشيخِ إسماعيلَ ابنِ المُقْري. فقالَ للشيخِ عليّ باراس[٢]: يا عليّ، أَقْرِئْهُ في كتابِ «المِنهاجِ» للشيخِ النوَوِيّ، وأَقرِىءْ جميعَ أصحابِكَ فيه، فإنهُ مُباركٌ والفتحُ إن شاءَ اللّهُ حاصلٌ في قراءتِه؛ لأنهُ قَمِينٌ بذلك[٣]، وكيف لا ومُصنّفُهُ قطبٌ وقد دعا لقارئه؟! انتهىٰ.

وكانَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنهُ يحُثُّ كثيراً علىٰ قراءةِ «المِنهاج» للنوَويِّ رحِمَهُ اللّه، وقالَ: مَن أرادَ أن يقرأَ شيئاً مِن شروحِهِ فلْيقرإِ «المُغنيَ» أولاً ثمّ «النهايةَ» ثمّ «التُّحفة»، ومَن أشكَلَ عليهِ شيءٌ منَ «التُّحفةِ» و«النهايةِ» فلْيراجِعِ «الغُرَر»[٤].

---

(١) لم نقف علىٰ ترجمته فيما بينَ أيدينا من المصادر.

(٢) الشيخ الفقيه الصالح علي باراس (ت ١٠٩٤هـ)، صاحبُ الإمام عمر بن عبد الرحمن العطّاس (ت ١٠٧٢هـ) المتقدمة ترجمته ص ١٢٣. له عددٌ من التآليف، منها: «شرحٌ علىٰ الحِكَم العطائية»، وشرحٌ لقصيدة الغوث أبي مدين: (ما لذةُ العيش..)، وغيرهما.

(٣) أي: جَدِير، حَقِيق.

(٤) «الغُـرَر» هو: «غُرَر البهـاء الضَّـوِي، في ذكر العلمـاء من بنـي جديـد وبصـري وعلـوي» للمحدِّث الفقيه جمـال الدين محمـد بن علي خِرْد باعَلَوي (ت ٩٦٠هـ). مطبوع.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: مَن أرادَ أن يتعلَّمَ فعليه بـ«المُغني»، أي: «شرحِ المِنهاج»، ومَن أرادَ أن يُعلِّمَ فعليهِ بـ«التُّحفة»، ومَن أرادَ أن يُحقِّقَ فعليهِ بـ«المَحَلِّي علىٰ المِنهاج»[١]. انتهىٰ.

ـ كتُبٌ أخرىٰ في الفقه:

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: عليكُم برسالةِ الحبيبِ أحمدَ بنِ زينِ الحبَشيِّ و«المُختصَرِ اللطيفِ»، أَقرِئوا الطَّلَبَةَ فيهِما؛ لأنّ السلَفَ ضمِنوا بالفتوحِ لِمَن قرأهُما، وكانَ السلَفُ يُحِبُّونَ قراءةَ «الإقناعِ علىٰ أبي شُجاعٍ» للخطيب[٢]، والحبيبُ حسَنُ بنُ صالحٍ البحرُ[٣] ما قرأَ إلا «الإقناع».

فائدة:

عن إبراهيمَ بنِ محمّدٍ الشافعيِّ[٤] قال: سألتُ أبي: أيُّ العِلمِ أتعلَّمُه؟ فقال: أمّا الشّعرُ فإنهُ يضَعُ الرفيعَ ويرفعُ الخَسيس، وأما النحوُ فإذا بَلَغَ صاحبُهُ الغايةَ فيهِ صارَ مؤدِّباً، وأمّا القرآنُ فإذا بلَغ صاحبُهُ الغايةَ فيهِ صارَ معلِّماً، وأمّا الفقهُ فهُوَ سيّدُ العلوم. انتهىٰ. مِن «نزهةِ المَجالس».

---

(١) المسمّىٰ: «كنز الراغبين شرح منهاج الطالبين»، وعليه حاشيتا قليوبي وعميرة. وترجمة الإمام المحلِّي تقدمت ص ١٤٨.

(٢) الإمام الفقيه المفسّر الولي شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني القاهري الشافعي (ت ٩٧٧هـ). من أعيان متأخّري الشافعية، وصاحب الشرح الجليل علىٰ «منهاج الإمام النووي» المسمّىٰ: «مغني المحتاج»، وتفسير «السراج المنير»، و«الإقناع في حلِّ ألفاظ أبي شجاع»، وغيرها.

(٣) تقدمت ترجمته ص ١٥١.

(٤) لم نقف علىٰ ترجمته فيما بين أيدينا من المصادر.

كتُبٌ متفرِّقة

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: أربعُ مقدِّماتٍ ينبغي قراءتُها وتَكرارُها للمُبتدئِ والمُنتهي، المُبتدئُ تنفَعُهُ والمُنتهي تُذكِّرُه؛ لاحتوائها علىٰ علومٍ كثيرة، وهِيَ: مقدّمةُ «تفسيرِ الفخْرِ الرازيّ»[1]، ومقدّمةُ «شرحِ النوويِّ علىٰ صحيحِ مُسلم»، ومقدّمتُهُ علىٰ «شرحِ المُهذَّب»، و«مقدّمةُ ٱبنِ خَلدون»[2].

وذكَرَ رضِيَ اللّهُ عنهُ كتابَ «الأسماءِ والصِّفاتِ» للبيهقي[3]، فقالَ لبعضِ

---

(١) الإمام الكبير المتكلِّم الأصولي المفسّر فخر الدين أبو عبد اللّه محمد بن عمر الرازي (٥٤٤ ــ ٦٠٦هـ). أوحد زمانه في العقليات وعلوم الأوائل، وصاحب التصانيف الفريدة، كتفسير «مفاتيح الغيب» و«المعالم» و«المحصِّل» و«أساس التقديس» و«عصمة الأنبياء» و«مناقب الشافعي» وغيرها. وكان واعظاً بارعاً فائقاً باللغتين العربية والفارسية.

(٢) العلاّمة المؤرِّخ الفيلسوف، البحّاثة وعالم الاجتماع، الإمام ولي الدين أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي المالكي (٧٣٢ ــ ٨٠٨هـ). مولده ونشأته بتونس، رحل إلىٰ المغرب والأندلس وعاد إلىٰ تونس ثم استقر بمصر وولي بها قضاء المالكية، وتوفي فجأةً في القاهرة. اشتُهر بكتابه «العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجَم والبربر» أوله «مقدمته» الشهيرة التي تُعد من أصول علم الاجتماع، وقد ترجمت إلىٰ الفرنسية وغيرها من اللغات.

(٣) الحافظ الكبير الناقد أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ ــ ٤٥٨هـ). من أئمة الشافعية وفحول الحفّاظ. قال إمام الحرمين أبو المعالي الجُوَيني: «ما من فقيهٍ شافعي إلا وللشافعي عليه منّةٌ إلاّ أبا بكر البيهقي، فإنَّ المِنّةَ له علىٰ الشافعي لتصانيفه في نصرة مذهبه». قال الحافظ الذهبي: أصاب أبو المعالي، هكذا هو، ولو شاء البيهقيُّ أن يعملَ لنفسه مذهباً يجتهد فيه لكان قادراً علىٰ ذلك، لسَعَة علومه ومعرفته بالاختلاف. «سير النبلاء» (١٨ : ١٦٩). =

مُريديـه: ينبغـي لكَ أن تحصِّلَ نسخةً منه؛ لأنـه كلُّـه اتّباعٌ وكلُّهُ نورٌ وكلُّهُ سُنةٌ وكلُّـهُ توحيد، وما قـوِيَ إيمانُهم إلا بمُطالَعتِهِـم فيهِ وفي أمثالِـه، لا بمُطالَعـةِ «السَّنُوسيّة».

وقالَ رضِـيَ اللّهُ عنهُ في كتابِ «زادِ المعادِ» لابنِ القيّم: ينبغي لكلِّ مَن أرادَ أن يتحـرّىٰ ويتعبّـدَ باتّباعِ السّنـةِ النبويّـةِ أن لا يفـارقَ هذا الكتابَ. وكانَ الحبيبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ يُحبُّهُ ويَميلُ إليهِ كثيراً، وليتَ عندي منهُ نسخـاً عديدةً لأُهديَها إلىٰ طُـلّابِ العِلم، ولكـنْ أينَ مَن يمتَلىءُ قلبُهُ في وقتِنا ويغتبِطُ بهـذا الكتـابِ ويقيِّـدُ نفْسَهُ بمـا يـراهُ فيـهِ مِن أخـلاقِ الرسـولِ وآدابِـهِ ومعـامَلاتِهِ ﷺ؟ نعمْ، فيهِ اختياراتٌ لهُ خالَفَ فيهـا الجمهـور، ولكنْ لا يضُرُّ ذلك، والحقُّ أحَقُّ أن يُتّبَع.

وقـالَ نفَـعَ اللّهُ به: النّاسُ مُعرِضونَ عنِ الكتُبِ التي فيها النفْع، مِثلَ: كتابِ «البرَكةِ في السّعيِ والحرَكةِ» للشيخِ الحُبَيشيّ[١]، قالَ مؤلِّفُهُ رحِمَهُ اللّه:

= **قلت**: وقفت لشيخ الإسلام مجتهدِ عصرِه الإمام تقيِّ الدينِ السُّبكيِّ علىٰ تعليقٍ نفيسٍ علىٰ كلمةِ إمام الحرمين هذه، قال فيه: «كنتُ أسمعُ وأنا صغيرٌ من بعضِ مشايخي الشافعية يحكي أنّ كلَّ مَنْ بعدَ الشافعيِّ للشافعيِّ مِنّةٌ عليه إلا البيهقيَّ فله مِنّةٌ علىٰ الشافعيّ، حتىٰ كبـرتُ وعرفـتُ ما وصلـتُ إليه من قدْرِ الشافعيِّ والبيهقيّ، فعَرفْتُ ــ علىٰ معرفتي بعظَمةِ البيهقيّ ــ أنّ مِنّةَ الشافعيِّ علىٰ البيهقي، وأنّ البيهقيَّ إنما مشىٰ في نورِ الشافعيِّ المقتفي نورَ رسولِ الله ﷺ». انتهىٰ من رسالته «النظر المصيب في عتق القريب» (مخطوطة). انتهىٰ. إياد.

أمّا كتاب «الأسماء والصفات» فمطبوعٌ بعناية وتعليقات الإمام العلاّمة محمد زاهد الكوثري، وله عليه مقدمةٌ نفيسة.

(١) العلاّمة العامل الصالح القدوة جمال الدين محمد بن عبد الرحمٰن بن عمر الحُبَيْشي الوُصـابي (٧١٢ ــ ٧٨٢هـ). كـان عالمـاً بالحديـث والتفسيـر والأدب، عـارفـاً =

مَن كانَ عندهُ هذا الكتابُ و«التّنبيه» فجديرٌ بأن يُدعىٰ بالفقيه، والكتابُ هذا عظيمٌ لا يَستغني الإنسانُ عنهُ، جمَعَ فيهِ مؤلِّفُهُ ما لم يجمَعْهُ غيرُه.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: إنّ كتابَ «الشّفا في تعريفِ حقوقِ المصطفىٰ ﷺ» مُجرَّبةٌ قراءتُهُ لكشفِ الكُرب[1].

وقال سيّدُنا الإمامُ عَلَوي بنُ محمّدٍ الحدّادُ[2] نفَعَ اللّهُ به: ينبغي لطالبِ العِلمِ أن لا يخلوَ عن هذهِ الكتبِ الثلاثة، وهِيَ: «نهايةُ» ابنِ الأثير[3]،

= بالقراءات، صالحاً ذاكراً، جامعاً للفضائل. من مؤلفاته المطبوعة: «البركة في فضل السعي والحركة» و«النورين في إصلاح الدارين» و«نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف».

(١) وقال فيه الإمام الشريف محمّد بن جعفر الكتاني رحمه اللّه تعالىٰ، في كتابه «الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرَّفة» ص ١٠٦: «هو كتابٌ عظيمُ النفع وكثير الفائدة، لم يؤلَّف مثلُه في الإسلام، وقد جُرِّبَت قراءتُه لشفاء الأمراض المزمنة وتفريج الكروب ودفع الخطوب، شكر اللّه سعيَ مؤلِّفه وجازاه عليه بأتم جزاءٍ وأعظمِه».

(٢) العالم المرشد الصالح الوجيه الحبيب علوي بن محمد بن طاهر الحدّاد (١٢٩٩ ــ ١٣٧٣هـ). مولده بـ(قيدون) بحضرموت ووفاته بـ(بوقور) بإندونيسيا. تربّىٰ بوالده وجدّه، ثم هاجر إلىٰ إندونيسيا واستقر بها، ولازم الحبيب محمد بن عيدروس الحبشي وغيره من الأجلّة. وانفرد بالسيادة في تلك البلاد بعد شيوخه. كان كريماً محسناً برّاً، وله مناقبُ وشمائل حسنة. أخذ عنه أكابر أعلام العصر كالحبيب أحمد مشهور الحدّاد والحبيب حامد بن علوي بن طاهر الحداد وغيرُهما، رضيَ اللّه عن الجميع.

(٣) الإمام البارع المحدِّث الفقيه اللغوي مجد الدين المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري الشافعي المعروف بابن الأثير (٥٤٤ ــ ٦٠٦هـ). صاحب التصانيف الفائقة الذائعة كـ«جامع الأصول من أحاديث الرسول» و«النهاية في غريب الحديث والأثر» =

و«الإتقانُ في علوم القرآن»، و«مقدّمةُ ٱبنِ خَلدون».

* * *

= و«شرح مسنَد الشافعي» وغيرها. وهو أحد إخوةٍ ثلاثةٍ عُرفوا بـ(ابن الأثير) هم:
الأول: الإمام مجد الدين ابن الأثير (٥٤٤ ـــ ٦٠٦هـ)، المترجَم هنا.
الثاني: الإمـام عز الدين ابن الأثير (٥٥٥ ـــ ٦٣٠هـ)، المؤرِّخ النسّابـة المحـدِّث، صاحب «الكامل في التاريخ» و«أُسْد الغابة في معرفة الصحابة»، وغيرهما.
الثالث: الإمـام ضياء الدين ابن الأثيـر (٥٥٨ ـــ ٦٣٧هـ)، الكاتب البليغ، صاحب «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» الفريد في بابه.

الفصل الرابع
في كتب تُحذرُ القراءةُ فيها

ينبغي للإنسانِ أن يَحتَـرِزَ مِن مُطالَعةِ الكُتـبِ التي تشتَمِلُ علىٰ الأمورِ الغامضة، إيثاراً للسلامةِ وخشيةً أن يفهمَها علىٰ غيرِ وجهِها فيَضِلَّ عن سَواءِ السبيل ويَهلِكَ معَ الهالكين، وذلكَ مثلُ مؤلفاتِ الشيخِ ٱبنِ العربيّ، وكتابَيِ «المِعراج» و«المضْنون» للإمام الغزاليّ، وكذلكَ مؤلَّفاتُ الشيخِ عبدِ الكريمِ الجِيْلِيِّ[1] كما ذكَرَ ذلكَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ الحدّادُ في «رسالةِ المُعاوَنة».

وقالَ الإمامُ سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ نفعَ اللّهُ به: رُوِيَ عن سيّدِنا عبدِ اللّهِ العيدَرُوسِ أنه رأىٰ بيدِ ولدِهِ أبي بكرٍ العَدَنيِّ[2] جزءاً من

---

(١) الشيخ العارف عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي (٧٦٧ ــ ٨٣٢هـ). ابنُ سِبْط الشيخ عبد القادر الجيلاني، وأحدُ الصوفيّة الذين غلب عليهم الجانبُ الفلسفيّ الرَّمـزي. من مؤلفاته: «الإنسان الكامـل» و«الكهـف والرقيـم في شـرح بسم اللّه الرحمٰن الرحيم» و«شرح مشكلات الفتوحات المكية»، وغيرها.

(٢) الإمام القطب أبو بكر بن عبد اللّه العيدروس العدني (٨٥١ ــ ٩١٤هـ). مولده بتريم ووفاته بعَدَن، وقبره بها ظاهرٌ يُزار. أخذ عن الأكابر كوالده وعمّه الشيخ علي بن أبي بكر السكران، والإمام الفقيه عبد اللّه بن عبد الرحمٰن بافضل، والإمام العامري صاحب «بهجة المحافل»، وغيرهم. كان عابداً زاهداً عظيم السّخاء سليم الصدر كثير الخشية، اشتُهر في الآفاق. من تصانيفه: «الجزء اللطيف في التحكيم الشريف»، =

«الفتوحاتِ المكيّة» لابنِ عربيّ، فزجَرَهُ عن مُطالَعةِ ذلكَ الكتاب.

ونقَلَ في «تثبيتِ الفؤاد» عن سيّدِنا الإمامِ عبدِ اللّهِ الحدّاد رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ قال: لا ينبغي للطالبِ أن يبتدىءَ بمُطالَعةِ كتُبِ الشاذليّةِ حتىٰ يطالعَ أولاً غيرَها قبلَها ويُحكِمَها، ككُتُبِ الإمامِ الغزاليّ. ثم يطالعُ بعدَ ذلكَ كُتبَ الشاذليّةِ ليستفيدَ، فإنِ ابتدأَ بها أوّلاً رجَعَ يحتجُّ بالأقدارِ وبَقِيَ كلَحْمٍ علىٰ وَضَمٍ[1].

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: عِلمانِ لا نأمَنُ متفقِّهةَ الزمانِ عليهما: علمُ الحقائقِ وعلمُ الخِلافِ بينَ الأئمّة. وعندَنا منهُما كتبٌ كثيرةٌ ولكنْ لا نُظهِرُها.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: ينبغي للإنسانِ أن لا يتعمّقَ في مُطالَعةِ الكُتبِ التي فيها ذكرُ ما وقَعَ لسيّدِنا عليٍّ مِن الحروبِ كالجَمَلِ وصِفّينَ وغيرِ ذلك؛ لأنّها توغِرُ الصدور، ولا بدّ ما يمرُّ عليهِ القليلُ منها في شيءٍ منَ الكتب، وإن بُلِيَ العالِمُ بذلكَ واحتاجَ إلىٰ النظَرِ في شيءٍ ممّا ذُكِرَ فلْيتوسّطْ ولا يُمعِن.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: إنّا لم نطَّلعْ علىٰ شيءٍ مما جرىٰ بين الصحابة، إلاّ لمّا وصَلتِ الزَّيديةُ إلىٰ حضرَمَوت، استَشْرفْنا علىٰ بعضِ الأشياءِ دعَتِ الحاجةُ إليها، وأمّا التوغُّلُ في ذلكَ والنظرُ فيما هنالكَ فإنهُ لا محالةَ يشغَلُ القلبَ ويَهوِي بهِ في مهاوي الضّلال.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: إنّ السلَفَ رضِيَ اللهُ عنهُم ينهَوْنَ عنِ الاطّلاعِ علىٰ ما شجَرَ بين الصحابةِ رضِيَ اللّهُ عنهُم،

= وديوان شعر، وأجوبة في التصوّف، ومجاميع في الأدعية والأذكار. رضيَ اللّه عنه.

(١) الوَضَم: كلُّ ما يُوضَع عليه اللحمُ من خشبٍ أو حَصِير أو نحو ذلك، يُوقىٰ به من الأرض. والمقصود بالمَثَل أنه باقٍ علىٰ حاله لا يحصل له نضجٌ ولا تمام.

خصوصاً الأُمويّين والهاشميّين. وبلَغَنا عن بعضِهم أنّ القارىءَ إذا بلَغَ إلىٰ ذكْرِ شيءٍ من ذلكَ في الكتابِ الذي يقرأونَه يقولون لهُ: اترُكهُ واقرأْهُ لنفْسِك. وبلَغَنا أنّ الحبيبَ عبدَ اللّهِ الحدّادَ قال: يا ليتَ صاحبَ «المَشْرَعِ» لم يذكُرْ قصةَ مقتَلِ الحسَين. كلُّ ذلكَ خوفاً مِن تغييرِ القلوبِ ومَيْلِها إلىٰ غيرِ ما ينبغي واعتقادِها غيرَ الحقّ، ويكفي قولُ صاحبِ «الزُّبَد»:

وما جرىٰ بينَ الصِّحابِ نسكُتُ   عنهُ، وأجرَ الاجتهادِ نُثبِتُ

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ السلَفَ لا ينظُرونَ في كتُبِ التوحيدِ المشتَملةِ علىٰ المَباحثِ الدقيقةِ والمسائلِ الكلاميّة. قالَ سيّدُنا الشيخُ عبدُ اللّهِ العيدروسُ: هذا مِثلُ أن يقولَ أحدُكم في معرِضِ المَدح: «فلانٌ ليسَ بحائك، وليسَ بحجّام..» وهكذا، وذلكَ ذمٌّ لا مَدْح. وسيّدُنا الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّاد يقول: إنّ قراءةَ «السَّنُوسيّةِ» أو «أُمِّ البَراهينِ» حرامٌ[1]. وقالَ نفَعَ اللّهُ به: السلَفُ لا يميلونَ إلىٰ التوغُّلِ في علومِ التوحيدِ ولا في علوم الأدَبِ التي تجذِبُ الإنسانَ وتُخرِجُهُ عن دائرةِ الاعتدال، ومَن زادتْ فصاحتُهُ زادت قباحتُهُ، وليسَ أن يترُكَ الإنسانُ لِسانَهُ عَوجاءَ، ولكنْ هُوَ التوغُّلُ الجَمّ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ الشيخَ ٱبنَ تيميةَ[2] لهُ مذهَبٌ ثانٍ، وقد نقَمَ عليهِ

---

(١) وهذا الكلام من الإمام الحدّاد محمولٌ علىٰ غير المتمكِّن في ذلك العلم أو مَنْ يأخذُه عن غير أهله، خوفاً عليه من المزلّة والوقوع في الزندقة، وإلاّ فالكتابان المذكوران من المتون المعتمدة في العقائد عند أهل السنة.

(٢) العلاّمة الحنبلي تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيميّة (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ). سُئل عن حاله الإمامُ الكبير وليُّ الدين العراقي فقال في كتابه «الأجوبةِ المرضية عن الأسئلةِ المكيّة» ص ٩٢: أما الشيخُ تقي الدين ابن تيميّة فهو إمامٌ واسعُ العلم، كثيرُ الفضائل والمحاسن، زاهدٌ في الدنيا، راغبٌ في الآخرة، علىٰ طريق السلَف الصالح؛ لكنه ـ كما قيل فيه ـ علمُه أكبر من عقله، فأدّاه اجتهاده إلىٰ خرق الإجماع =

السلَفُ لبعضِ مسائلَ انفرَدَ بترجيحِها وأفتىٰ بما لم يُفتِ به السلَف، وربّما شدّدَ بعضُ أهلِ العِلمِ في ذلك، ومنِ اطّلعَ علىٰ كتُبِهِ بانَ لهُ الخطأُ والصّواب، وحمَلَ الأشياءَ علىٰ ظاهِرِها، وقد نبّهَ الشيخُ ابنُ حجرٍ وغيرُهُ علىٰ شيءٍ من ذلكَ وحذَّرَ الجُهّالَ مِن مُطالَعةِ كتبِه(١). انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: إنّ سَلَفَنا كانوا لا يُحبّونَ الاشتغالَ الكثيرَ بالبحثِ في علمِ العقائد، ويقول: إنّ كثرةَ التطلُّعِ علىٰ مسائلِ ذلكِ الفنِّ يُخشىٰ منهُ إثارةُ الشكوكِ والاطّلاعُ علىٰ المسائلِ والعقائدِ الزائغة، ومثلُ هذا، البُعدُ عنهُ أَولىٰ، ويكفي الإنسانَ مِن هذا العِلمِ ما حوَتْهُ عقيدةُ الغزاليِّ رحِمَهُ اللّهُ ونحوُها منَ العقائدِ المختصَرةِ الوَجيزة. انتهىٰ. مِن «النهرِ المورود».

❊ ❊ ❊

= في مسائلَ كثيرةٍ قيل: إنها تبلغ ستين مسألة، فأخذته الألسنة بسبب ذلك، وتطرّق إليه اللوم، وامتُحن بهذا السبب، ومات مسجوناً بسبب ذلك. والمنتصرُ له يجعله كغيره من الأئمة في أنه لا تضرّه المخالفة في مسائل الفروع إذا كان ذلك عن اجتهاد، ولكن المخالف له يقول: ليست مسائلُه كلها في الفروع، بل كثيرٌ منها في الأصول، وما كان منها في الفروع فما كان يسوغ له المخالفة فيها بعد انعقاد الإجماع عليها، ولم يقع للأئمة المتبوعين مخالفةٌ في مسائل انعقد الإجماع عليها قبلهم بل لم يقع لأحدٍ منهم قولٌ إلا وهو مسبوقٌ به من بعض السلف كما صرَّح به غير واحدٍ من الأئمة. وما أبشعَ مسألتَي ابن تيمية في الطلاق والزيارة، وقد ردّ عليه فيهما معاً الشيخ الإمام تقي الدين السبكي، وأفرد ــ رحمه اللّه تعالىٰ ــ ذلك بالتصنيف، فأجاد وأحسن». انتهىٰ.

(١) وذلك في كتابه «الفتاوىٰ الحديثية»، وغيره من كتبه.



الباب السابع

بين علماء الآخرة وعلماء الدنيا



وفيه فصلان :

الفصلُ الأول : في أوصافِ علماءِ الآخرة .

الفصلُ الثاني : في التحذير من علماء الدنيا .



الفصل الأول
في أوصاف علماء الآخرة

قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]. عن أنسٍ أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ سُئلَ عنِ الراسخينَ في العِلم، فقال: «مَن بَرَّتْ يمينُهُ، وصَدَقَ لِسانُه، واستقامَ قلبُه، وعَفَّ بَطْنُهُ وفَرْجُه، فذلكَ منَ الرَّاسخينَ في العِلْم»(١).

وقالَ بعضُهم: الراسخُ في العِلمِ: مَن وجَدَ في عِلمِهِ أربعةَ أشياء: التقوىٰ بينَهُ وبينَ اللّه، والتواضعَ بينَهُ وبينَ الخَلْق، والزُّهدَ بينَهُ وبينَ الدنيا، والمجاهدةَ بينَهُ وبينَ نفْسِه. انتهىٰ. مِن «تفسير البغَويّ».

قلتُ: ومِن أوصافِهم: دَوامُ مراقبةِ اللّهِ تعالىٰ، والمُحافَظةُ علىٰ خَوفِهِ في سائرِ أحوالِهم، ودَوامُ السَّكِينةِ والوَقارِ والخشوعِ والخضوعِ والتواضعِ للّهِ عزَّ وجَلَّ.

قالَ الإمامُ الغزاليُّ: قيلَ: خمسٌ منَ الأخلاقِ هِيَ مِن علاماتِ علماءِ الآخرة، مفهومةٌ مِن خمسِ آياتٍ مِن كتابِ اللّهِ عزَّ وجَلّ: الخَشيةُ والخُشوعُ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣: ١٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٨: ١٥٢ برقم ٧٦٥٨)، وابنُ أبي حاتم كما في «تفسير ابن كثير» (سورة آل عمران: الآية ٧).

والتّواضعُ وحُسنُ الخلُقِ وإيثارُ الآخرةِ علىٰ الدنيا، وهُوَ الزُّهد.

فأمّا الخَشيةُ فمِن قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. وأمّا الخُشوعُ فمِن قولِهِ تعالىٰ: ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٩٩]. وأمّا التواضعُ فمِن قولِهِ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]. وأمّا حُسنُ الخُلُقِ فمِن قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وأمّا الزُّهدُ فمِن قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٨٠]. انتهىٰ. من «الإحياء».

وكانَ ابنُ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُما يقول: لا يكونُ الرجُلُ مِن أهلِ العلمِ حتىٰ لا يحسُدَ مَن فوقَه، ولا يحقِرَ مَن دُونَه، ولا يبتغي بهِ ثَمَناً.

وكانَ الشَّعبيُّ رحِمَهُ اللّهُ يقول: إنّما الفقيهُ: مَن وَرِعَ عن مَحارِمِ اللّهِ تعالىٰ، والعالِمُ مَن خافَ اللّهَ عزَّ وجَلّ.

وقالَ رجلٌ للحسَنِ البصْريِّ رحِمَهُ اللّه: إنّ فُقهاءَنا يقولونَ: كذا، فقالَ الحَسن: هل رأيتَ فقيهاً قطُّ؟ إنّما الفقيهُ: الزّاهدُ في الدنيا، الراغبُ في الآخرة، البصيرُ في دِينهِ، المُداوِمُ علىٰ عبادةِ ربِّه.

ـــ صُوَرٌ مِن أحوالِ العُلماءِ الربّانيين:

قيلَ لِبعضِ أهلِ البصرة: مَن سيّدُكم؟ قال: الحسَن، قيل: بمَ سادَكم؟ قال: ٱحتاجَ الناسُ إلىٰ عِلمِهِ واستغنىٰ هُوَ عن دُنياهم.

وعن أبي بكرٍ الهُذَليِّ الشاعرِ المشهورِ[١] قالَ: قالَ أبو العباسِ

---

(١) في الهذليين من الشعراء: أبو كبير عامر بن الحُلَيس الهذلي، شاعرٌ فحل، من شعراء الحماسة. قيل: أدرك الإسلام وأسلم وله خبرٌ مع النبي ﷺ. وديوانه مطبوع.

السفّاحُ[(١)]: بأيِّ شيءٍ بلَغَ حسَنُكم ـ يعني: الحسَنَ البصْريّ ـ ما بلَغ؟ قلت: يا أميرَ المؤمنين، جمَعَ كتابَ اللّهِ وهُوَ ابنُ اثنتَيْ عشْرَةَ سَنة، فلم يُجاوِزْ سورةً إلىٰ غيرِها حتىٰ يعرِفَ تأويلَها وفيمَ أُنزِلَت. ولم يَقلِبْ دِرهماً في تجارة. ولم يَلِ للسلطانِ إمارة. ولم يأمُرْ بشيءٍ فيهِم حتىٰ يفعَلَه، ولا بِتَرْكِ شيءٍ حتىٰ يدَعَه.

قالَ الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ جعفرٌ الصّادقُ بنُ محمدٍ الباقرِ رضِيَ اللّهُ عنهُما كثيرَ الدُّعابةِ والتبسُّم، فإذا ذُكِرَ عندَهُ النبيُّ ﷺ ٱصفَرّ، وما رأيتُهُ يُحدِّثُ عن رسولِ اللّهِ ﷺ إلا علىٰ طهارة. ولقدِ اختَلَفْتُ إليهِ زماناً، فما كنتُ أراهُ إلا علىٰ ثلاثِ خِصال: إمّا مُصلّياً، وإمّا صامتاً، وإمّا يقرَأُ القرآن. وكانَ لا يتكلَّمُ فيما لا يَعنِيه، وكانَ منَ العلماءِ والعُبّادِ الذينَ يخشَوْنَ اللّهَ عزَّ وجَلّ. انتهىٰ. ذكَرَهُ القاضي عِياضٌ في «الشِّفاء».

وعنِ الفُضَيلِ بنِ عياضٍ رَحِمَهُ اللّهُ قال: كانَ الإمامُ أبو حنيفةَ مشهوراً بالورَعِ معروفاً بالإفضال، صَبوراً علىٰ تعليمِ العِلمِ باللّيلِ والنهار، كثيرَ الصمتِ قليلَ الكلامِ حتىٰ تَرِدَ مسألةٌ في حلالٍ أو حرام، وكانَ هارباً منَ السلطان.

ومِن شدّةِ ورَعِهِ أنّهُ كانَ لا يجلِسُ في ظِلِّ جدارِ غريمِه، ويقول: كلُّ قَرْضٍ جَرَّ نفْعاً فهُوَ رِباً، وكانَ دَيْدَنُهُ الدِّلالةَ علىٰ الحقّ.

---

(١) أبو العباس عبد اللّه بن محمد بن علي بن عبد اللّه بن عبّاس بن عبد المطّلب، الملقّب بالسفّاح (١٠٤ ـ ١٣٦هـ). أول خلفاء الدولة العبّاسية وأحد الجبّارين الدهاة من ملوك العرب. كان شديد العقوبة عظيم الانتقام، ولقب بالسفّاح لكثرة ما سفح من دماء الأمويين، وهو أول من أحدث نظام الوزارة في الإسلام، وكان موصوفاً بالفصاحة والعلم والأدب.

وحُكِيَ أنّهُ دُعِيَ للقَضاء، فامتنَع، فضُرِبَ في ذلكَ بالسِّياطِ وحُبِس، بل وماتَ في الحبْس. ولمَّا سمِعَ إشفاقَ المُشفقِينَ عليهِ وهم يقولونَ: ماذا عليهِ لو وَلِيَ واتّقىٰ هذهِ السياطِ؟ قالَ: سِياطُ الدنيا ولا سِياطُ الآخرة. وقالَ عاصم: لو وُزِنَ عقْلُ أبي حنيفةَ بعقْلِ نصفِ أهلِ الأرضِ لرجَحَ بِهم.

عن زافرِ بنِ سُليمانَ قال: كان أبو حنيفةَ يُحيي اللّيلَ بركْعةٍ يقرَأُ فيها القرآن.

وعن أسدِ بنِ عمرٍو قال: قامَ أبو حنيفةَ الليلَ بهذه الآية: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦] يردِّدُها ويبكي.

وكانَ الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ رحِمَهُ اللّهُ ذا وَقارٍ وخَشية، مُبالِغاً في تعظيمِ عِلمِ الدِّين، كثيرَ الأدبِ والتوقيرِ لرسولِ اللّهِ ﷺ.

قالَ ابنُ المُبارَك: كنتُ عندَ مالكٍ وهُوَ يُحدِّثُنا، فلدَغتْهُ عقربٌ ستَّ عشْرةَ مرّةً وهُوَ يتغيّرُ لونُه ويصفَرُّ ولا يقطَعُ حديثَ رسولِ اللّهِ ﷺ، فلمّا فرَغَ منَ المجلسِ قلتُ له: يا أبا عبدِ اللّه، لقد رأيتُ منكُمُ اليومَ عجَباً، قال: نعَمْ، إنّما صبَرْتُ إجلالاً لحديثِ رسولِ اللّهِ ﷺ.

وعنِ ٱبنِ وهْبٍ[1] قال: قيلَ لأُختِ مالك: ما كانَ شغُلُهُ في بيتِه؟ قالت: المُصحَفُ والتّلاوة.

وكانَ الإمامُ الشافِعِيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ قد جزّأَ اللّيلَ ثلاثةَ أجزاء: الثلُثُ الأوّلُ يكتُب، والثلُثُ الثاني يُصلّي، والثلُثُ الثالثُ يَنام.

---

(١) الإمام الكبير عبد اللّه بن وهب الفِهْري المصري (١٢٥ ــ ١٩٧هـ)، من أكابر تلامذة الإمام مالك، إمامٌ جامعٌ بين الفقه والحديث.

وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يختِمُ في كلِّ يـومٍ خَتمة، وفي رمضانَ يختِمُ ستّينَ خَتمة.

وكانَ يقول: ما كذَبتُ قـطُّ، ولا حلَفْتُ باللّهِ صادقـاً ولا كاذباً. وقال: وما ترَكتُ غُسلَ الجُمعةِ في بردٍ ولا سفَرٍ ولا غيره.

وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنه: ما شبِعتُ منذ ستَّ عشْرةَ سنَةً إلا شَبعَةً طرَحتُها مِن ساعتي؛ لأنّ الشِّبَعَ يُثقِلُ البدَن، ويُقسّي القلب، ويُزِيلُ الفِطنة، ويَجلِبُ النوم، ويُضعِفُ صاحبَهُ عنِ العبادة.

وكانَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ رحِمَهُ اللّهُ يُصلّي في كلِّ يومٍ وليلةٍ ثلاثَمئةِ ركعة، وكانَ يختِمُ القرآنَ في كلِّ سبعةِ أيامٍ خَتمة، وفي كلِّ سبعِ ليالٍ خَتمة. وكانَ كثيـرَ القِيام، يَنامُ نوْمةً خفيفةً بعدَ العشاء، ثمّ يقـومُ إلىٰ الصبـاحِ يُصلّـي ويدعو.

وكـانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ إذا جاعَ أخَذَ كِسـرَةً يابسـة، فنفَضَهـا منَ الغُبارِ ثمّ صبَّ عليها الماءَ حتىٰ تبتَلّ، ويأكُلَها بالمِلح. وكانَ أكثرُ إدامِهِ الخَلّ.

قالَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ: حُبسَ الإمامُ أحمدُ ثمانيةَ عشرَ شهراً. وكانَ فيها يُضـرَبُ كلَّ قليلٍ بالسِّياطِ إلىٰ أن يُغمىٰ عليه، ويُنخَسُ بالسيـفِ ثمّ يُرمىٰ علىٰ الأرضِ ويُـداسُ عليه، ولـم يزَلْ كذلكَ إلىٰ أن مـاتَ المعتصِـمُ[١] وتولّىٰ بعدَهُ الواثـق[٢]، فاشتَدَّ الأمرُ علىٰ أحمـد، فأقـامَ مُختفيـاً لا يخـرُجُ إلىٰ صـلاةٍ ولا

---

(١) المعتصِمُ باللّه العبّاسيّ: محمد بن هارون الرشيد، (١٧٩ ــ ٢٢٧هـ). أحد عُظماء خلفاء الدولة العبّاسية، وفاتح عمُّورية من بلاد الروم، كان ــ مع قوة ساعده وصلابة بدنه ــ ليّنَ العريكة سَهْلَ الخُلُق، اتسعت رقعة الخلافة في زمنه جداً.

(٢) الواثق باللّه العبّاسي: هارون بن محمد (المعتصم باللّه) بن هارون الرشيد، (٢٠٠ ــ ٢٣٢هـ). وليَ خلافة الدولة العبّاسيّة بعد أبيه، امتحن النّاس في مسألة خلق القرآن، =

غيرِهـا، حتىٰ ماتَ الواثقُ ووَلِيَ المتوكّـل[١]، فرفَـعَ المِحنةَ عـن أحمـدَ وأمرَ بإحضارِهِ وإكرامِه.

وقالَ هلالُ بنُ المُعَلّىٰ: أربعةٌ لهُمُ المِنّةُ علىٰ الإسلام، وذكَرَ مِنهم أحمدَ ابنَ حنبلٍ حيثُ ثبَتَ في المِحنةِ ولم يقُلْ بخَلقِ القرآن.

رُوِيَ أنّ أبا جعفرٍ المنصورَ العبّاسيَّ[٢] استدعىٰ بعبدِ اللّهِ بنِ طاووسٍ[٣] ومالكِ بنِ أنس، فلمّا دخَلا عليهِ أطرَقَ ساعةً ثمّ ٱلتفتَ إلىٰ ابنِ طاووس، فقالَ له: حدِّثْني عن أبيك، فقال: حدَّثني أبي أنّ أشدَّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ رجلٌ أشرَكَـهُ اللّهُ في سُلطانِـه، فأدخَلَ عليهِ الجَـوْرَ في حُكمِه. فأمسَكَ أبو جعفـرٍ ساعة، قالَ مالك: فشمَّرْتُ ثيابي خوفاً أن يُصيبَني دمُه، ثمّ قالَ لهُ المنصـور: ناوِلْنـي تلكَ الدّواةَ، ثلاثَ مرّات، فلـم يفعَلْ، فقـال: لـمَ لا تُناوِلُني؟ فقال: أخافُ أن تكتُبَ بها مَعصِيةً فأكونَ قد شاركتُكَ بها. فلمّا سمِـعَ ذلكَ قال: قُوما

= وكان مع ذلك كريماً عارفاً بالآداب والأنساب، كثيرَ الإحسان لأهل الحرمين.

(١) المتوكِّـل علىٰ الله العبّاسي، جعفـر: ابن (المعتصـم بالله) وأخو (الواثق) المتقدمة ترجمتهما (٢٠٦ ــ ٢٤٧هـ). كان جواداً محبّاً للعمران، وهو الذي أمر بترك الجدل في القرآن ورفَع الفتنة.

(٢) المنصور العبّاسي: عبد اللّه بن محمد بن علي بن سيّدنا عبد اللّه بن عبّاس رضي اللّه عنهما. (٩٥ ــ ١٥٨هـ). ثاني خلفاء بني العبّاس بعد أخيه السفّاح، ووالد الخلفاء العباسيين جميعاً، وكان أفحلَهم شجاعةً وعزماً، إلاّ أنه قتل خلْقاً كثيراً حتىٰ استقام ملكـه، وهـو أول مـن عُني بالعلوم من ملوك العـرب، وكـان عارفاً بالفقـه والأدب والفلسفة والفلك، محباً للعلماء.

(٣) أبو محمد عبد اللّه بن الإمام الفقيـه طاووس اليماني (ت ١٣٢هـ)، الإمام المحدِّث الثقة. قال مَعْمَر: كان من أعلم النّـاس بالعربية، وأحسَنِهم خُلُقاً، ما رأينا ابنَ فقيهٍ مثلَه.

عنّي، قال: ذلكَ ما كنّا نبغي. قالَ مالك: فما زِلتُ أعرفُ لابنِ طاووسٍ فضْلَهُ مِن ذلكَ اليوم. انتهىٰ. «مرآةُ الجنان» لليافعيّ[١].

وكانَ الإمامُ أبو إسحاقَ الشِّيرازيُّ يوماً يمشي وبعضُ أصحابِهِ معَه، فعرَضَ لهُ كلبٌ فحَسَرَهُ صاحبُه، فنَهاهُ الشيخُ وقال: أَمَا علِمتَ أنّ الطريقَ بيني وبينَهُ مشترَك؟

ودخَلَ يوماً مسجداً ليأكُلَ فيهِ شيئاً علىٰ عادتِه، فنَسِيَ ديناراً، فذكَرَهُ في الطريق، فرجَعَ فوجَدَهُ فترَكهُ ولم يمَسَّه، وقال: رُبّما وقَعَ مِن غيري ولا يكونُ ديناري.

وفي «مجموع كلامِ الحبيبِ عليِّ بنِ محمّدٍ الحبشيِّ»: أنّ الشيخَ القاضيَ المُحبَّ الطّبريَّ[٢] تعمَّرَ مئةً وسنَتَيْن[٣] ولم تتغيّرْ لهُ جارحةٌ مِن جوارحِهِ لا يدٌ ولا رِجْلٌ ولا سمْعٌ وبصَر، وكانَ يدرِّسُ ويُفتي وهُوَ في هذا السنّ. فقالَ بعضُ تلامذتِه: كيفَ متَّعَكَ اللّهُ يا سيّدي بجوارِحِكَ كلِّها إلىٰ هذا العُمر؟ فقال: كيفَ لا يُمتِّعُني بها وأنا ما عَصَيتُهُ بها قطّ.

---

(١) وذكر هٰذه الحكاية أيضاً ابنُ خلكان في «وفيات الأعيان» (٢: ٥١١)، وللإمام الذهبي تعليقٌ عليها يُنظَر في «سِيَر أعلام النبلاء» (٦: ١٠٤).

(٢) الصحيح أنّ هذه الحكاية مرويةٌ في حق الإمام أبي الطيِّب الطبري (٣٤٨ ــ ٤٥٠هـ) أحد كبار أئمة المذهب العراقيين، وليست في حق المحبِّ الطبري (٦١٥ ــ ٦٩٤هـ) شيخ الحرم المكّي، كما في النص أعلاه. والحكاية ذكرها علىٰ الصواب الإمام الشيرازي في «طبقات الفقهاء» ص ١٢٧، والنووي في «التهذيب» (٢: ٢٤٧)، والذهبي في «سير النبلاء» (١٧: ٦٧٠)، وغيرهم.

(٣) تصحفت (سنتين) في الأصل المنقول عنه إلىٰ: (ستين)! وزيد بعدها كلمة: (سنةً)، فأصبحت (١٦٠) بدل (١٠٢)! والتصويب من مصادر الحكاية المشار إليها آنفاً.

وفيهِ أيضاً: لمّا ماتَ الشيخُ أحمدُ الرّمليُّ[١]، قامَ ولدُهُ محمّدٌ الرّمليُّ[٢] ونادىٰ في الناسِ وقال: اشهَدوا أنّ والدي هذا ماتَ وقد سلِمَ المسلمونَ مِن لسانِهِ ويدِه.

وقالَ الإمامُ الشَّعْرانيُّ رحِمَهُ اللّه: صحِبتُ الشيخَ محمّداً الخطيبَ الشَّربينيَّ مؤلِّفَ «المُغني» أربعينَ سنَة، فما رأيتُهُ عمِلَ فيها مكروهاً.

وكذلكَ قيلَ في الشيخ ٱبنِ حجَرٍ الهَيْتَميِّ رحِمَهُ اللّه. انتهىٰ. ذكَرَهُ الإمامُ الحبيبُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ في «كلامِه».

وأفادَ الحبيبُ: عيدروسُ بنُ عمرَ الحَبشيُّ أنّ أحداً خَدَمَ الشيخَ زكريّا الأنصاريَّ نحوَ عشرينَ سنةً، قال: ما رأيتُهُ تكلَّمَ فيما لا يعنِيه، ولا غفَلَ عن ذكْرِ اللّهِ، حتىٰ حالَ القراءةِ عليه إذا سكَتَ القارىءُ لإصلاحِ نحوِ غلطةٍ اشتَغَلَ بذكْرِ اللّهِ حالَ سكوتِه.

❊ ❊ ❊

---

(١) الإمام الفقيه الولي الصالح شهاب الدين أحمد بن حمزة الرملي الشافعي (ت ٩٥٧هـ). من مؤلفاته: «الفتاوىٰ»، و«فتح الجواد بشرح منظومة ابن العماد» في المعفوّات، وغيرهما. توفي بالقاهرة.

(٢) الإمام الفقيه الكبير شمس الدين محمد بن أحمد الرملي (٩١٩ ــ ١٠٠٤هـ)، فقيه الديار المصرية في عصره ومرجعها في الفتوىٰ، يُقال له: الشافعي الصغير. مولده ووفاته بالقاهرة. من مؤلفاته: «نهاية المحتاج شرح المنهاج» و«فتاواه»، وغيرهما.

الفصل الثاني
في التحذير من علماء الدنيا

اِعلَمْ ـ رَحِمَك اللّه ـ أنّ جميعَ ما ورَدَ في فضلِ العِلمِ والعلماءِ منَ الآياتِ والأخبار، إنّما هُوَ في حقِّ العلماءِ العاملينَ المُتّقينَ الأبرار، الذينَ قصَدوا بعِلمِهم وعمَلِهم وجْهَ اللّهِ الكريمِ الغفّار، الدّالّينَ عليهِ والدّاعِينَ إلىٰ سبيلِهِ آناءَ الليلِ والنهار، دونَ مَن طلَبَهُ بسُوءِ نِيّة، أو لأغراضٍ دُنيويّة، فإنّهُ لا فضيلةَ لهُ ولا خيرَ فيه، بل هُوَ موسومٌ بالخَسار، وقد شبّهَ اللّهُ تعالىٰ في كتابهِ العزيزِ علماءَ السُّوءِ في الخِّسّةِ بالكلبِ والحِمار، بل هُم شرٌّ منهُما لِمَصيرِهِما إلىٰ التراب، ومَصيرِهِم إلىٰ دارِ البَوار، قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ * وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

قالَ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذهِ الآية: كانَ بَلْعامُ بنُ باعوراءَ ينظُرُ إلىٰ العَرش، وكانَ مُجابَ الدّعوةِ ويحضُرُ مجلِسَهُ اثنا عشَرَ ألفاً منَ المتعلّمين. فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾. وكانَ يحفَظُ اسمَ اللّهِ الأعظم، فدعا علىٰ موسىٰ وقومِهِ، فوقَعَ في التِّيهِ أربعينَ سَنة،

فدعا عليهِ موسىٰ بنَزْعِ المعرِفةِ مِن قلبِه، فخرَجَتْ مِن صدرِهِ كحَمامةٍ بيضاء.

قالَ الرازيُّ: وهذهِ الآيةُ مِن أشدِّ الآياتِ علىٰ أهلِ العِلم؛ لأنّ مَن أعطاهُ اللّهُ تعالىٰ العِلم، فأخْلَدَ إلىٰ الدنيا ومالَ إليها، كانَ شبيهاً بأخسِّ الكلاب، وهُوَ الذي يلهَثُ عادةً مِن غيرِ تعَبٍ وعطش. انتهىٰ.

وقالَ جّلَ وعَلا: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥].

***

وممّا جاءَ مِنَ الأحاديثِ في الترهيبِ ممّن قصدَ بعلمِه غيرَ وجهِ اللّه قولُه عليه الصّلاةُ والسّلام: «مَن طَلَبَ العِلْمَ لِيُجاريَ بهِ العلماءَ أو لِيُماريَ بهِ السُّفَهاءَ أو يَصْرِفَ به وجوهَ النّاس إليه أدْخَلَهُ اللّهُ النّار»[١].

وقولُه ﷺ: «مَن تَعَلَّمَ عِلْماً ممّا يُبْتغىٰ به وجْهُ اللّهِ تعالىٰ لا يَتَعَلَّمُهُ إلاّ لِيُصيبَ بهِ عَرَضاً منَ الدّنيا لم يَجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامة»[٢].

وعن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنه، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أوّلَ النّاسِ يُقضىٰ يومَ القيامةِ عليهِ رجلٌ استُشْهِدَ فأُتِيَ بهِ، فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفَها، فقال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: قاتَلْتُ فيكَ حتَّىٰ استُشهِدْت. فقال: كَذَبْتَ! ولكنَّكَ قاتَلْتَ لأنْ يُقال: جريء، فقد قيل. ثم أُمِرَ به، فَسُحِبَ علىٰ وجْهِهِ حتّىٰ أُلقِيَ في النّار. ورجلٌ تَعَلَّمَ القرآنَ وعَلَّمَهُ وقرأَ القرآنَ فأُتِيَ به، فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفَها، فقال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فيكَ القرآنَ، قال:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٤)، وابن حبّان (١: ١٣٣)، وغيرهما، من حديث كعب بن مالك رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وغيره، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

كذبْت! ولكنَّكَ تعلَّمْتَ ليُقال: فُلانٌ عالِم، وقرأْتَ القرآنَ ليُقال: هُوَ قارىء، فقد قيل. ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ علىٰ وجْهِهِ حتىٰ أُلقِيَ في النّار. ورجلٌ وَسَّعَ اللّهُ عليهِ وأعطاهُ مِن أصنافِ المالِ كُلِّه فأُتِيَ به، فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فعَرَفَها. قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: ما تَرَكْتُ مِن سبيلٍ تُحِبُّ أن يُنْفَقَ فيها إلاّ أَنفَقْتُ فيها لك. قال: كذَبْتَ! ولكنَّكَ فَعَلْتَ ليُقال: هُوَ جَواد، فقد قيل. ثم أُمِرَ به، فسُحِبَ علىٰ وجْهِهِ ثُمَّ أُلقِيَ في النّار»[١].

وزاد في رواية: ثم ضَرَبَ رسولُ اللّه ﷺ علىٰ رُكبتِيْ وقال: «يا أبا هريرة، أُولئكَ الثلاثةُ أوَّلُ خلْقِ اللّهِ عَزَّ وجَلَّ تُسَعَّرُ بهِمُ النَّارُ يومَ القيامة»[٢].

وحُكيَ أنهُ بلَغَ هذا الخبرُ معاوية رضِيَ اللّهُ عنهُ فبكىٰ بكاءً شديداً وقال: صدَقَ اللّهُ وصدَقَ رسولُهُ ﷺ، وقَرأَ هذهِ الآية ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦]. انتهىٰ.

وقالَ ﷺ: «سيظهَرُ قومٌ يقرَأونَ القرآنَ يقولون: مَن أَقرأُ منّا؟ مَن أعلَمُ منّا؟ مَن أَفْقَهُ منّا؟ أولئكَ هُم وَقُودُ النّار»[٣].

وذكَرَ الإمامُ الشّعرانيُّ عن شيخِهِ عليٍّ الخوّاصِ[٤] أنهُ كانَ يقولُ في معنىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، وغيره، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجها الترمذي (٢٣٨٢)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط»(٦: ٢٢١)، والبزّار (١: ٤٠٥)، من حديث عمر رضيَ اللّه عنه. ورجال البزّار موثقون كما في «المجمع» (١: ١٨٦).

(٤) الولي الصالح علي الخوّاص، شيخ الإمام الشعراني وهو ـ أي الشعراني ـ الذي أشهره ورفع عَلَمه في تصانيفه وكتاباته، بل أفرد فتاويه في التصوف بكتاب سمّاه: «درر الغوّاص علىٰ فتاوىٰ سيّدي علي الخوّاص» (مطبوع). وكان الشيخ علي ذا قدم راسخة في الولاية والمعارف، أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، وهو من تلاميذ الوليِّ الشهير الشيخ إبراهيم المتبولي المصري (ت ٨٧٧هـ). رحمهم اللّه جميعاً ونفعنا ببركتهم. =

حديث: «إنّ اللّهَ يؤيِّدُ هذا الدِّينَ بالرجلِ الفاجرِ»[١]: معناهُ أنّ الناسَ ينتفِعُونَ بعلمِ الفاجِرِ وتعليمِهِ وإفتائِه وتدريسِهِ حتىٰ يكونَ في الصُّورةِ كالعلماءِ العامِلين، ثم يُدخِلُهمُ اللّهُ بعدَ ذلكَ النارَ لعدَمِ إخلاصِه، أي: تعلَّمَ العِلمَ رِياءً وسُمعةً فيُعلِّمُ الناسَ أمورَ دينِهم ويُفقّهُهم ويَحرُسُهم وينصُرُ الدِّينَ إذا ضعُفَ جانبُه. انتهىٰ. منَ «الأنوارِ القُدسية».

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: جميعُ ما ورَدَ في فضْلِ العِلمِ والعمَلِ إنّما هُوَ في حقِّ المُخلِصينَ فيه، فلا تكنْ في غلَط، فإنّ الناقدَ بصير، وقد كثُرَ في هذا الزمانِ أقوامٌ لا يعمَلونَ بعِلمِهم، وإذا نازَعَهم مُنازعٌ في دَعواهُم ــ في قولِهم: نحنُ أهلُ العِلم ــ ٱستدلّوا بما جاءَ في فضْلِ طلبِ العِلمِ مُطلقاً مِن غيرِ شرطِ إخلاص، فيقالُ لِمثلِ هؤلاء: فأينَ الآياتُ والأخبارُ والآثارُ الواردةُ في حقِّ مَن لم يعمَلْ بعِلمِه ولم يُخلِص؟ فلا تُغالِطْ يا أخي فتدّعيَ الإخلاصَ في عِلمِكَ وعمَلِكَ مِن غيرِ تفتيش، فإنهُ غِشّ. انتهىٰ. مِنَ «الأنوارِ القُدسية».

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ العالِمَ الذي هُوَ مِن أبناءِ الدنيا أخَسُّ حالاً وأشدُّ عذاباً منَ الجاهل، وإنَّ الفائزينَ المقرَّبينَ هُم علماءُ الآخرة.

وقالَ سيِّدُنا الشيخُ الإمامُ القُطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحداد نفَعَنا اللّهُ بهِ في معنىٰ ما ورَدَ: «إنّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء»[٢]، و: «علماءُ أُمّتي كأنبياءِ بني إسرائيل»[٣]: إنّ المُشارَ إليه بِوِراثةِ النبيّينَ والمَخصُوصِ بالتشبيهِ بهِم في قولِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) جزءٌ من حديث أبي الدرداء رضيَ اللّه عنه الذي أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وغيرهما.

(٣) قال الحافظ السخاوي في «المقاصد الحسنة» ص ٣٤٠: قال شيخُنا ــ ابن حجر ــ ومن قبله الدميري والزركشي: إنه لا أصلَ له. =

سيّدِ المرسَلينَ ليس كلَّ عالم، بل هُوَ مِن جُملةِ العلماءِ: العالِمُ الربّانيُّ الراسخُ قدَمُهُ في معرِفةِ علومِ الكتابِ والسُّنّةِ: الظاهرةِ منها والباطنة، الرحيمُ بعبادِ اللّه، الشفيقُ عليهِم، الزاهدُ في الدنيا، المتَحقِّقُ بالخَشيةِ للّهِ تعالىٰ، العاملُ بما علِمَ ٱبتغاءَ وجهِ اللّه. انتهىٰ. مِن «مقدّمةِ مكاتَبتِه».

قلت: وعنِ ٱبنِ عباس رضِيَ اللّهُ عنهُما مرفوعاً: «علماءُ هذه الأُمّةِ رجلانِ: رجلٌ آتاهُ اللّهُ عِلْماً فبَذَلَهُ للنّاسِ ولم يأخُذْ عليهِ طمَعاً، ولم يشتَرِ بهِ ثمناً قليلاً، فذلكَ يُصَلّي عليهِ طَيرُ السَّماءِ وحِيتَانُ البحرِ ودوابُّ الأَرْضِ والكرامُ الكاتبون، ويَقْدُمُ على اللّهِ سيِّداً شَريفاً حتىٰ يُرافقَ المرسَلين. ورجلٌ آتاهُ اللّهُ عِلْماً في الدنيا فضَنَّ بهِ علىٰ عبادِ اللّهِ، وأخَذَ عليهِ طمَعاً، واشترىٰ بهِ ثمناً قليلاً، فذلك يأتي يومَ القيامةِ مُلْجَماً بلِجَامٍ مِن نار، ويَنادي منادٍ علىٰ رؤوسِ الخلائق: هذا فُلانُ ابنُ فلان، آتاهُ اللّهُ عِلْماً في الدنيا، فضَنَّ بهِ علىٰ عبادِ اللّهِ وأخَذَ عليهِ طمَعاً، واشترىٰ بهِ ثمناً قليلاً، ثمّ يُعَذَّبُ حتىٰ يَفرُغَ الحِساب»[١]. نقَلَهُ سيّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ حسنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ بهِ في «العَطيّةِ الهَنيّة».

واعلَمْ أنّ الشيطانَ علىٰ إضلالِ العالِمِ أحرصُ مِنهُ علىٰ إضلالِ الجاهل؛ لأنَّ العالِمَ إذا ضلَّ يضِلُّ بضلالِهِ غيرُه، فأنه إذا فسَدَ يفسُدُ بفسادِهِ العوامّ، ولا يُتَجرّأُ علىٰ ارتكابِ المَناهي والمُخالَفاتِ إلا باستجراءِ العلماء. بخِلافِ الجاهل، ولهذا قالَ بعضُ العارفين: علماءُ السُّوءِ أضَرُّ علىٰ الدِّينِ المُحمّديِّ مِن إبليس.

وفي الحديث: «صِنْفانِ مِن أُمَّتي إذا صَلَحُوا صلَحَ النّاس، وإذا فَسَدُوا

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧: ١٧١ برقم ٧١٨٧).

فَسَدَ النّاس: الأُمراءُ والعلماء». ذكَرَهُ في «الإحياء»[١].

عن حُذيفةَ بنِ اليمانِ رضيَ اللّهُ عنه: كانَ النّاسُ يسألونَ رسولَ اللّهِ ﷺ عن الخير، وكنتُ أسألهُ عنِ الشَّرِّ مَخافةَ أن يُدْرِكَني، فقلت: يا رسولَ اللّه، إنّا كنّا في جاهليَّةٍ وشرّ، فجاءنا اللّهُ بهذا الخيرِ، فهل بعدَ هذا الخيرِ مِن شَرّ؟ قال: «نَعَمْ»، قلت: فهل بعدَ ذلكَ الشَّرِّ مِن خيـر؟ قال: «نَعَمْ، وفيهِ دَخَن»، قلت: وما دخَنُه؟ قال: «قومٌ يستَنُّونَ بغيرِ سُنَّتي، ويهْتَدُونَ بغيرِ هَدْيِي، تعرِفُ منهُمْ وتُنكِـر»، قلت: فهل بعدَ ذلكَ الخيـرِ مِن شـرّ؟ قال: «نَعَمْ، دُعَاةٌ علىٰ أبوابِ جهنَّم، مَن أَجابَهُمْ إليها قَذَفوهُ فيها»[٢].

وقـالَ رسـولُ اللّهِ ﷺ: «أخـوَفُ ما أَخـافُ علىٰ أُمَّتي: كلُّ مُنافِقٍ عليمِ اللِّسان»[٣]، «والّذِي نفْسي بيدِهِ، لا تقومُ السَّاعةُ حتّىٰ يكونَ عليكُمْ أُمراءُ كَذَبة، ووُزراءُ فَجَرة، وإخوانٌ خَوَنة، وعُرَفاءُ ظَلَمة، وقُرَّاءٌ فَسَقة، وعُبَّادٌ جُهَّال، يفتَحُ اللّهُ عليهِمْ فِتنـةً غبراءَ مُظْلِمـة، فيَتَهَوَّكونَ تَهَوُّكَ اليهودِ الظَّلَمة، فحينَئذٍ يُنقَضُ الإسلامُ عُروةً عُروةً حتّىٰ لا يُقالَ: اللّه اللّه»[٤]. ذكَرَهُ سيّدي الشيخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ في «الغُنية».

قالَ الإمامُ جعفَرٌ الصادقُ رضيَ اللّهُ عنه: «العلمـاءُ أُمَناءُ الرُّسُلِ ما لـم يُخالطُوا السُّلْطانَ ويُداخِلُوا الدنيا، فإذا خالطُوا السُّلطانَ ودَخَلُوا في الدنيـا فقد

---

(١) أخرجه ابنُ عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عبّاس رضيَ اللّه عنهما بسندٍ ضعيف كما قال العراقي في «تخريج الإحياء» (١ : ٦).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٨٤) ومسلمٌ (١٨٤٧)، وغيرهما.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١ : ٢٢، ٤٤) من حديث عمرَ رضيَ اللّه عنه، وابنُ حبّان في «صحيحه» (٨٠) من حديث عمران بن حصين رضيَ اللّه عنه.

(٤) أخرجه البزّار في «مسنده» (٧ : ٨٠) بنحوه، من حديث معاذ بن جبل رضيَ اللّه عنه.

خانُوا اللّهَ والرّسول، فاعتزِلُوهُمْ واحذَرُوهُمْ»[١].

وقال ﷺ: «أنا مِن غيرِ الدَّجّالِ أَخوَفُ عليكُمْ منَ الدَّجّال»، قيل: فما هُوَ يا رسولَ اللّه؟ قال: «عُلماءُ السُّوء»[٢]. ذكرَهُ الإمامُ الغزاليُّ في «البداية».

وفي «تثبيتِ الفؤادِ» عنِ الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنه: ما أفسَدَ علىٰ الناسِ دينَهم إلا العلماء، ولكنْ بعدَ فسادِ دينِهم، وما أفسَدَ علىٰ الناسِ دُنياهم إلا الأمراء، لكنْ بعدَ فسادِ دُنياهم، فبِفسادِ العلماءِ يفسُدُ الدّين، وبفسادِ الأمراءِ تفسُدُ الدنيا؛ لأنّ قَوامَ الأمرِ إنّما هُوَ بالرؤوس: أهلُ الدِّينِ لأهلِ الدِّينِ وأهلُ الدنيا لأهلِ الدنيا، فإذا تغيّرَ الرؤوسُ تغيّرَ المرؤوس. انتهىٰ.

قلت: وقد أشارَ إلى هذا المعنىٰ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ المُبارَكِ حيثُ يقول:

رأيتُ الذنوبَ تُميتُ القلوبَ ... وقد يُورِثُ الذُّلَّ إدمانُها
وتَرْكُ الذنوبِ حياةُ القلوبِ ... وخيرٌ لنفْسِكَ عِصيانُها
وهل أفسَدَ الدِّينَ إلا المُلوكُ ... وأحبارُ سُوءٍ ورُهبانُها
وباعوا النُّفوسَ ولم يرتَجُوا ... ولم تغْلُ في السُّوقِ أثمانُها
لقد رتَعَ القومُ في جِيفةٍ ... يَبِينُ لِذي اللُّبِّ أَنتانُها

وعن عمرَ بنِ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ أخوَفَ ما أخافُ علىٰ هذهِ الأُمّةِ المُنافقُ العَليم، قالوا: وكيفَ يكونُ مُنافقاً عليماً؟ قال: عليمُ اللِّسانِ

---

(١) تقدم تخريج هذا الأثر ص ٢٠٩.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥: ١٤٥) من حديث أبي ذر رضيَ اللّه عنه، ولفظه: «من الأئمة المضلين».

جاهلُ القلبِ والعمَل. انتهىٰ. نقَلَهُ في «الإحياء».

وعن عليٍّ كرّمَ اللّهُ وجهَهُ قال: قصَمَ ظهري رجُلان: عالِمٌ مُتهتِّك، وجاهلٌ مُتنسِّك.

وكانَ صالحٌ المُرِّيُّ[1] رحِمَهُ اللّهُ يقول: احذَروا عالِمَ الدنيا أن تُجالسوهُ خوفاً أن يفتِنَكم بزخرَفةِ لسانِهِ ومدْحِهِ للعِلمِ وأهلِهِ مِن غيرِ عمَلٍ به، وكانَ يقول: ربَّما كانَ عِلمُ العالِمِ زادَهُ إلىٰ النار، فلا ينبغي لأحدٍ أن يفرَحَ بعِلمِهِ إلاّ بعدَ مُجاوزةِ الصراط، فهناكَ يعلَمُ حقيقةَ عِلمِهِ: هل هُوَ حُجّةٌ لهُ أو عليه. انتهىٰ.

رُوِيَ في آثارِ السّلَفِ أنّ الواعظَ كان إذا جلَسَ للناس، قالَ العلماء: تفَقّدوا منهُ ثلاثة: فإن كانَ مُعتقِداً البِدعةَ فلا تُجالِسوه، فإنّهُ عن لسانِ الشيطانِ ينطِق، وإن كانَ سيّىءَ الطُّعمةِ فلا تُجالسوه، فإنّهُ عنِ الهوىٰ ينطِق، فإن لم يكنْ مَكِينَ العقلِ فلا تُجالسوه، فإنّهُ يُفسِدُ بكلامِهِ أكثرَ ممّا يُصلِح. ذكَرَهُ في «الإحياء».

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللّهِ رضِيَ اللّهُ عنهُما، قال: لا تجلِسوا عندَ كلِّ عالِمٍ إلا عالماً يَدعوكم مِن خمسٍ إلىٰ خمس: منَ الشّكِّ إلىٰ اليقين، ومنَ الرِّياءِ إلىٰ الإخلاص، ومنَ الرّغبةِ إلىٰ الزُّهد، ومنَ الكِبْرِ إلىٰ التواضُع، ومنَ العداوةِ إلىٰ النصيحة. انتهىٰ. مِن «قُوتِ القلوب».

وكانَ يحيىٰ بنُ مُعاذٍ الرازيُّ[2] رحِمَهُ اللّهُ يقولُ لعلماءِ الدنيا: يا أصحابَ

---

(١) الزاهد الخاشع، واعظُ أهل البصرة، أبو بِشْر صالح بنُ بشير القاصّ (ت ١٧٢هـ). قال سفيان الثوري لمّا سَمِعه: ما هذا قاصّ، هذا نذير. وقال ابن الأعرابي: كان الغالبُ علىٰ صالح كثرة الذكر والقراءة بالتحزين. قيل: مات جماعةٌ سمعوا قراءته.

(٢) الإمام الربّاني الواعظ أبو زكريا يحيىٰ بن معاذ الرازي (ت ٢٥٨هـ). قال في «الرسالة =

العِلم، قُصورُكـم قَيْصريّـة، وبيوتُكم كِسْرَويّة، وأبوابُكم ظاهِريّة، وأخفافُكم جالُوتيّة، ومَراكِبُكم قارُونيّة، وطِباعُكم نُمْروذية، وأَوانيكُم فِرعَونيّة، ومآثِمُكم جاهليّة، ومَذاهِبُكم شيطانيّة، فأينَ الشريعةُ المُحمَّدية؟!

قـالَ سيّدُنا الإمـامُ عبدُ اللّهِ الحـدّادُ رضِيَ اللّهُ عنـهُ في كتابِـهِ «الدعـوةِ التامّة»:

ذُكِرَ في بعضِ الأخبارِ أنّ رجلاً صَحِبَ موسىٰ عليهِ السّلامُ ولازَمَهُ حتىٰ أخَذَ عنهُ العِلم، ثمّ جعَلَ يقول: حدَّثَنا موسىٰ كَلِيمُ اللّه، حتىٰ أثرىٰ وكثُرَ مالُه، ثمّ فقَـدَهُ موسىٰ، فجعَلَ يسأَلُ عنهُ فلا يسمَعُ لهُ بخبَر، إلىٰ أن جاءَهُ رجلٌ وفي يدِهِ خِنزيـرٌ وفي عنُقِهِ حبلٌ أسود، فسألَهُ موسىٰ عنه: هل رآه؟ فقالَ له: نعمْ، هُوَ هذا الخِنزيـر. فسأَلَ موسىٰ ربَّهُ أن يُعيـدَهُ إلىٰ صورتِـهِ ليسأَلَهُ عمّـا أصابَه، فأوحىٰ اللّهُ إليه: لو سأَلتَني بما سألني بهِ آدمُ فمَنْ بعدَهُ لم أُعِدْهُ إلـىٰ صورتِه، ولكنّي أخبِرُكَ عنهُ لـمَ صنَعتُ بهِ هكذا؛ لأنّهُ كانَ يطلُبُ الدنيا بالدِّين. انتهىٰ.

ورُويَ أنّ اللّهَ تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ داودَ عليهِ السلام: يا داود، لا تسأَلْ عنّي عالِماً قد أسكرَتْهُ الدنيا فيصُدَّكَ عن سبيلي، أولئكَ قُطّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي.

وقـالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحِمَهُ اللّه: قرأتُ في بعضِ الكتُـب: أنّ اللّهَ عـزَّ وجَـلَّ يقول: إنّ أهوَنَ ما أنا صانِـعٌ بالعالِـمِ إذا أحَـبَّ الدنيـا أن أُخرِجَ حلاوةَ مُنَاجاتي مِن قلبِه.

وعن عمرَ بـنِ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: إذا رأيتُمُ العالِمَ مُحبّاً للدنيا

= القشيرية» ص ٧٠: نسيجُ وحده في وقته، له لسانٌ في الرجاء خصوصاً، وكلامٌ في المعرفة. ونقـلَ من كلامه: الفَوتُ أشدُّ من الموت، لأنَّ الفَوتَ انقطاعٌ عن الحق، والموتَ انقطاعٌ عن الخَلْق، مَن خانَ اللّه في السر هتكَ اللّه ستره في العلانية.

فاتَّهِمُوهُ علىٰ دينِكم، فإنَّ كلَّ محِبٍّ يخوضُ فيما أحبّ.

وذُكِرَ أنّ النَّواويصَ[١] شكَتْ إلىٰ اللّهِ مِن نَتَنِ جِيَفِ الكُفّارِ فقيلَ لها: إنّ بطونَ علماءِ السُّوءِ أشدُّ ممّا أنتُم فيه.

وفي بعضِ الأخبار: أنّ الناسَ ينزِلُ بهِم نازِلة، فيَفزَعُونَ إلىٰ علمائهم فيجدونَهم قد مُسِخوا قِرَدةً وخنازير. قالَ بعضُ المُحقِّقين: المُرادُ مسْخُ صوَرِهِمُ الباطنة، وقد مُسِخَتْ مِن زمان. انتهىٰ.

وحُكِيَ عن بعضِ علماءِ بني إسرائيلَ أنّهُ جمَعَ سبعينَ صندوقاً مِنَ العِلم، فأوحىٰ اللّهُ إلىٰ نبيٍّ ذلكَ الزمان: أنْ قُلْ للعالِم: لا تنفَعُكَ هذه العلومُ وإن جمَعْتَ مثلَها أضعافاً مُضاعَفَةً ما دُمتَ متّصفاً بثلاثِ خِصال: حبِّ الدنيا، ومساعدةِ النفْسِ والشيطانِ علىٰ ما تهوىٰ، وإذايةِ مسلم.

قالَ عيسىٰ عليهِ السلام: مثَلُ علماءِ السُّوءِ كمثَلِ صخْرةٍ وقعَتْ علىٰ فَمِ النَّهر، لا هِيَ تشرَبُ الماءَ ولا هِيَ تترُكُ الماءَ يخلُصُ إلىٰ الزّرع، ومثَلُ قناةِ الحُشِّ ظاهرُها جِصٌّ وباطِنُها نتَن، ومثَلُ القبورِ ظاهرُها عامرٌ وباطنُها عِظامُ المَوتىٰ.

وقالَ أيضاً عليهِ السّلام: مَثلُ الذي يتعلَّمُ العِلمَ ولا يعمَلُ بهِ كمثَلِ ٱمرأةٍ زنَتْ في السِّر، فظهَرَ حمْلُها فٱفتُضِحت، فكذلكَ مَن لا يعمَلُ بعلمِه: يفضَحُهُ اللّهُ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الأشهاد.

وكانَ الإمامُ الحسَنُ البصْريُّ رحِمَهُ اللّهُ يقول: إذا اشتغَلَ العلماءُ بجمْعِ الحلالِ صارَ العوامُّ يأكُلونَ الشُّبَه، وإذا صارَ العلماءُ يأكُلونَ الشُّبَهَ صارَ العوامُّ

---

(١) النواويص لعلها جمعُ (نَوْص)، وهو الحمار الوحشي كما ورد في «القاموس» وغيره، لأنه لا يزال نائصاً، أي: رافعاً رأسه كالنافر. واللّه أعلم.

يأكُلونَ الحرام، وإذا صارَ العلماءُ يأكُلونَ الحرامَ صارَ العوامُّ كُفاراً.

فائدة:

كانَ سيّدُنا الحبيبُ الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقولُ علىٰ قولِ بعضِهم: «طلبْنا العِلمَ لغيرِ اللّهِ فأبىٰ أن يكونَ إلا للّه»: إنّ لهُ مَعنَيين: أحدُهما أنّ العِلمَ أبىٰ أن يحصُلَ لنا لفَواتِ شرطِهِ الذي هُوَ كونُه للّه، ويكونُ هذا العِلمَ النافعَ لا غيرَ النافع، فإنهُ يأتي إلىٰ البَرِّ والفاجر، فكم عالمٍ يعلَمُ الرسومَ والرواياتِ المُتّسعةَ ولكنْ ليسَ لهُ حظٌّ من النفْع بذلكَ وإنْ نفَعَ غيرَهُ به، فيكونُ هذا مِن معنىٰ ما ورَد: «إنّ اللّهَ يؤيِّدُ هذا الدِّينَ بالرجلِ الفاجر»[1]. والمعنىٰ الثاني: أنّا طلبْنا العِلمَ بغيرِ إخلاصٍ ولا حُسنِ قصْد، فلمّا أطلَعَنا اللّهُ علىٰ ما أطلَعَنا عليهِ منهُ حصَلَ لنا ــ ببركةِ العِلمِ ــ القصدُ الحَسنُ والإخلاص، فصارَ عِلمُنا للّهِ. انتهىٰ. بمعناه.

وعنِ الشيخِ الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ بعدَ أن ذُكِرَ عندَهُ الحديثُ المذكور، قال: كما ترىٰ أقواماً يقاتِلون الكفّارَ مُرادُهمُ الغنائمُ وأخْذُ البُلدان، فيحصُلُ بهذا دفْعٌ عنِ الإسلامِ والمسلمين، وآخرِينَ يقاتِلونَ قُطّاعَ الطّريقِ وغيرَ ذلكَ ممّا يقوىٰ بهِ الدِّين، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ في الوُلاة. أو كما قال. انتهىٰ. مِنَ «تثبيتِ الفؤاد».

إرشاد:

قال الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ نفَعَ اللّهُ به: الدعوىٰ علىٰ حالَين: مُدّعٍ متكلّمٌ بأن يقول: أنا كذا وكذا، ومُدّعٍ ساكتٌ لم يذكُرْ نفْسَهُ بشيءٍ ولكنهُ إذا قِيلَ لهُ: إنكَ جاهل، أو: لم تعرِفْ شيئاً، أو وُصِفَ بأيِّ شيءٍ فيهِ نقص، يغضَب، فهذا

---

(١) تقدم تخريجه قريباً في هذا الفصل.

مدّعٍ أيضاً ولو لم يكُنْ مثلَ الأوّل. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

وقالَ رضِيَ اللّٰهُ عنه: كلُّ مُدَّعٍ مخذول، ولا بُدَّ أن يُقَيِّضَ اللّٰهُ لهُ مَن يُعجِزُهُ فينخَذِلُ عندَ ذلكَ ولو كانَ كثيرَ العِلم، وما نرىٰ أحسنَ للإنسانِ منَ الاعترافِ وطرْحِ نفْسِهِ في الأرض، فإن كانَ عندَهُ فضْلٌ فما يَزيدُهُ ذلكَ إلا رِفعة، وإن كانَ غيرَ ذلكَ فقد خُلِقَ مِنَ التراب، فلا لومَ عليهِ إذا صارَ فيما خُلِقَ منه. وقد ذكَرَ الشّعراويُّ أنّ رجُلاً منَ العلماءِ قال: لا أعلَمُ في الأُمّةِ بعدَ أبي بكرٍ الصدّيقِ أعلَمَ منّي، فقالَ لهُ آخر: صدَقَ الأستاذ، فكم في لحيتِكَ مِن شعرة؟ فلم يجِدْ جواباً فاختَذَلَ بسببِ دَعواه، وكذا وقَعَ لابنِ عربيٍّ في قصتِهِ معَ دابّةِ البحر.

قلتُ: هذه القصةُ ذكرَها الشيخُ الكاملُ محيي الدِّينِ بنُ العربيِّ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ عن نفْسِه فقال: إنهُ كانَ راكباً في سفينةٍ في البحرِ المُحيط، فهاجَتِ الرّيح، فقالَ: ٱسكُنْ يا بحر، فإنّ عليكَ بحراً منَ العِلم، فطلَعتْ لهُ هائشةٌ منَ البحرِ وقالتْ له: قد سمِعنا قولَك، فما تقولُ فيما إذا مُسِخَ زوجُ المرأةِ هل تعتَدُّ عِدّةَ الأحياءِ أم الأموات؟ فما درىٰ الشيخُ ما يقول، فقالتْ لهُ الهائشة: تجعلُني شيخةً لكَ وأنا أُعلِّمُكَ الجواب؟ فقالَ: نعمْ. فقالت: إنْ مُسِخَ حيواناً ٱعتدّتْ عِدّةَ الأحياء، وإن مُسِخَ جَماداً ٱعتدّتْ عِدّةَ الأموات. انتهىٰ.

ورويَ أنّ مقاتِلَ بنَ سليمانَ الأزديَّ[1] قال يوماً: سَلوني عمّا دونَ العرش. فقيلَ له: مَن حلَقَ رأسَ آدمَ عندما حَجّ؟ فقال: هذا ليسَ مِن علمِكُم ولكنّ اللّٰهَ أرادَ أن يَبتليَني لمّا أعجبتْني نفْسي. وقالَ لهُ آخر: الذرّةُ أوِ النّملةُ مِعاؤها في مُقدَّمِها أم مُؤخَّرِها؟ فَبقيَ ما يدري ما يقولُ له. قالَ الراوي: فظَنَنْتُ أنها عقوبةٌ عوقِبَ بها. انتهىٰ. مِنْ «مرآةِ الجَنان» لليافعيّ.

---

(١) إن كان هو مقاتل بن سليمان (البلخيَّ) المفسِّر فقد تقدَّمت ترجمته ص ١١٨.

الباب الثامن

الدّعوة إلى الله
وظيفة العلماء الهُداة



وفيه فصلان:

الأول: في فضل الدعوة إلىٰ اللّه.

الثاني: في آدابٍ ينبغي أن يتحلّىٰ بها الدعاةُ إلىٰ اللّه.



الفصل الأوّل
في فضل الدّعوة إلى الله

الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين، الذي جعَلَ الدّعاءَ إلىٰ سبيلِهِ والهِدايةَ إلىٰ طريقِهِ والدِّلالةَ علىٰ طاعتِهِ سبيلَ النبيّين، وطريقةَ الخلفاءِ الراشدين، وعمادَ المتّقين، وحِرفَةَ المؤمنين.

والصلاةُ والسلامُ علىٰ رسولِ اللّهِ الأمين، سيّدِنا محمّد، المُخاطَبِ بقولِهِ تعالىٰ في كتابِهِ المُبين: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]. صلّىٰ اللّهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ الطيّبينَ الطاهِرين، وعلىٰ أصحابِهِ الهادينَ المُهتدين، الدّاعينَ إلىٰ سبيلِ ربِّ العالمين.

وبعدُ: فقد قالَ اللّهُ تباركَ وتعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

أمَرَ اللّهُ تعالىٰ نبيَّهُ ﷺ في هذهِ الآيةِ أن يدعوَ عبادَهُ بالحِكمة أوّلاً، ثم إذا ما أجْدَتِ الحِكمةُ فبالموعظةِ الحسَنة، ثم إذا ما أجدَتِ الموعظةُ الحسَنةُ فبالمُجادَلةِ بالتي هِيَ أحسَن. فهذهِ ثلاثُ مَراتبَ للدعوةِ إلىٰ سبيلِ اللّه، وليسَ بعدَها مَرتَبة.

وقالَ عليهِ أفضَلُ الصّلاةِ والسلام: «مَن دعا إلىٰ هُدَىً كانَ لهُ منَ الأجرِ

مِثْلُ أُجورِ مَن تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن أُجورِهِم شيئاً، ومَن دعا إلىٰ ضلالَةٍ كانَ عليهِ منَ الإثْمِ مِثْلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلكَ مِن آثامِهِم شيئاً»[١].

وقالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: «خِيَارُ أُمّتي مَن دعا إلىٰ اللّهِ وحَبَّبَ عبادَهُ إليه»[٢].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلام: «خَيرُ النّاسِ أنفَعُهُم للنّاس»[٣].

وفي رواية: «أحَبُّ الناس إلىٰ اللّهِ عزَّ وجَلَّ أنفَعُهُم للناس»[٤].

وقالَ ﷺ: «الخَلْقُ كُلُّهُم عِيالُ اللّه، وأحَبُّهُم إلىٰ اللّهِ أنفَعُهُم لعِيالِه»[٥].

وفي الأثَر: «أحَبُّ العِبادِ إلىٰ اللّهِ الذينَ يُحَبِّبُون اللّهَ إلىٰ عِبادِه، ويَمْشُونَ في الأرضِ نُصْحاً»[٦].

قالَ سيّدُنا قطبُ الإرشاد، الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّاد رضِيَ اللّهُ

---

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه ابن النجّار في «تاريخه» من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه كما في «فيض القدير» (٣: ٤٦٣). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧: ١٤٣) بلفظ: «خيار الصديقين».

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦: ٥٨) من حديث جابر بن عبد اللّه رضيَ اللّه عنه.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢: ٤٥٣ برقم ١٣٦٤٦) وغيره من حديث ابن عمر رضيَ اللّه عنهما، وفيه راوٍ ضعيف كما قال الهيثمي في «المجمع» (٨: ١٩١).

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠: ٨٦ برقم ١٠٠٣٣) من حديث ابن مسعود، وفي سنده متروكٌ كما قال الهيثمي في «المجمع» (٨: ١٩١)، لكن له عواضد.

(٦) ذكره الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١: ٢٢٤) موقوفاً علىٰ بعض أصحاب النبي ﷺ. وروىٰ نحوه البيهقي في «الشُّعَب» (١: ٣٦٣) من حديث أنس مرفوعاً وضعّفه. والصحيح أنه من كلام أبي الدرداء والحسن البصري كما رواه عنهما الإمامُ أحمد في «الزهد»، وغيرُه.

عنه: ولا يستطيعُ أحدٌ أن ينفعَ خلْقَ اللّهِ بمثِلِ دعوتِهم إلىٰ بابِ اللّهِ تعالىٰ، بتعريفِهم ما يجبُ عليهِم منَ التوحيدِ والطاعة، وتذكيرِهم بآياتِهِ وآلائه، وتبشيرِهم برحمَتِه، وتحذيرِهم مِن سَخَطِهِ الواقعِ للمُتعرّضينَ لهُ منَ الكافرينَ والفاسقين. انتهىٰ.

وقالَ بعضُهم: مِن أجَلِّ الرُّتبِ منفَعةُ النّاس في دينِهم ودنياهم، والنفْعُ في الدِّينِ أهمُّ وأقدَمُ منَ النفْعِ في الدنيا، والكلُّ مطلوبٌ ومرغوبٌ فيهِ جدّاً. انتهىٰ.

وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ لمُعاذِ بنِ جبلٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ حينَ بعثَهُ إلىٰ اليمنِ: «يا معاذ، لأن يهديَ اللّهُ علىٰ يدَيكَ رجلاً من أهلِ الشركِ خيرٌ لكَ مِن أنْ يكونَ لكَ حُمُرُ النَّعَم»[1].

وقالَ أيضاً لعليٍّ كرَّمَ اللّهُ وجهَه: «لأن يهديَ اللّهُ بكَ رجلاً واحداً خيرٌ لكَ مِن حُمُرِ النَّعَم»[2].

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به: أكثِروا منَ الدعوةِ إلىٰ اللّه، فإذا لم يسمَعْ دعوتَكَ هذا سمِعَها غيرُه، وإذا لم تُسمَعْ في وقتٍ سُمِعَت في وقتٍ آخر، وإلاّ سمِعَها أحدٌ في صُلبِ أبيهِ وانتفَعَ بها في المستقبل. ومثَلُ الدعوةِ إلىٰ اللّهِ مثَلُ الحبّة: تضَعُها في الأرضِ وما تدري إلا وقد أثمَرَتْ وصارتْ بُستاناً.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: ومِثالُ صاحبِ الدعوةِ إلىٰ اللّهِ والعِلمِ مثالُ مَن

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥: ٢٣٨) من حديث معاذ رضيَ اللّه عنه، ورجاله ثقاتٌ كما قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٥: ٣٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٩) ومسلمٌ (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد رضيَ اللّه عنه.

كانت معَهُ بضاعة، لا يترُكُها في داره، فإنّهُ لا يجيءُ أحدٌ يسألُهُ عنها، بل عليهِ أن يعرِضَها في السُّوقِ وعسىٰ أن تَنفُقَ وإن لم تنفُقْ فلْيُرخِصِ الثمن. انتهىٰ. أو كما قال، مِن «مجموعِ» كلامِه.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ محمدٍ الحبَشيُّ نفعَ اللّهُ به: إنّ الدعوةَ إلىٰ اللّهِ أقوىٰ ركنٍ للاتّصالِ بالحبيبِ ﷺ. وذُكِرَ أنّ الحبيبَ محمّدَ بنَ جعفرٍ العطّاسَ[١] كانَ يجتمعُ بالنبيِّ ﷺ يَقَظة، فسألَهُ الفتحَ الكبير، فقالَ له: الفتحُ الكبيرُ عندَ أحمدَ بنِ عُمرَ بنِ سُميط، فتوجَّهُ الحبيبُ محمّدٌ إلىٰ شِبَام، حتىٰ أتىٰ الحبيبَ أحمدَ بنَ عمر، فقالَ له: حوَّلَني النبيُّ ﷺ عليك، فقال: الحَوالةُ مقبولة، بشرطِ أن تُطلِقَ لِسانَكَ بالدّعوةِ إلىٰ اللّه. فٱلتزَمَ لهُ بذلك، ورجَعَ فدعا إلىٰ اللّه، ففتَحَ اللّهُ عليهِ بالفَتْحِ الكبير. انتهىٰ. أو كما قال.

وقالَ الحبيبُ الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: بلَغَنا أنّ الشيخَ عبدَ اللّهِ بنَ عبدِ الباقي الشّعابَ المَدنيَّ[٢] كانَ ممّنْ يجتمعُ بالنبيِّ ﷺ

---

(١) الحبيب الولي الصالح محمد بن جعفر بن علي بن الحسين بن عمر بن عبد الرحمٰن العطاس، كان مشاراً إليه بالبنان في عصره، داعياً إلىٰ اللّه، يتجوّل في القرىٰ والوديان، ولد ببفته وتوفي بغيل باوزير.

(٢) الشيخ الصالح عبد اللّه بن عبد الباقي الشعاب المدني، كان من الصالحين الأخيار، له مصنفاتٌ في الفقه والفرائض وغيرها، أخذ عن الشيخ السيد علي بن عبد البر الونائي الحسيني (ت ١٢١٢هـ) وانتفع به، والشيخ محمد المغربي (شيخ الدلائل) بالحرم المدني. اجتمع به عددٌ من العلويين منهم الحبيب محمد بن حسين الحبشي (ت ١٢٨٢هـ) مفتي الشافعية بمكة، والحبيب عيدروس بن عمر الحبشي اجتمع به في المدينة المنورة قبل وفاته بنحو شهر، ونزل عنده في المدينة وأضافه ٢٤ يوماً، وأخذ عنه أخذاً تاماً. توفي بجدة في ١٢ ذو الحجة ١٢٧٦هـ بعد فراغه من الحج وكان أوصىٰ أن يحضر غسله ويصلي عليه الحبيبُ عيدروس بن عمر ففعل ذلك. =

يَقَظة، وكانَ يسأَلُ الوارِدِينَ مِن أهلِ حضرَموْتَ ويقولُ لهُم: خبِّروني عنِ السيّدِ أحمدَ بنِ عمرَ بنِ سُميطٍ ما عمَلُهُ وما شأنُه؟ فإنّي لم أجتمِعْ بالنبيِّ ﷺ إلاّ وأسمَعُهُ يمدَحُهُ كثيراً ويُثني عليهِ ثناءً عظيماً، فقيلَ له: شأنُهُ ودَيدَنُهُ الدّعوةُ إلىٰ اللّهِ والأمرُ بها. قال: ولهذا كانَ النبيُّ ﷺ يحبُّهُ ويُثني عليه.

وقال ﷺ: «إنّ اللّهَ يبعَثُ في هذهِ الأُمّةِ علىٰ رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يُجَدِّدُ لها دِينَها»[1].

قالَ العلماء: بشَرطِ أن يكونَ المبعوثُ علىٰ رأسِ المئةِ رجلاً مشهوراً معروفاً مشاراً إليه، وأن تنقَضيَ المئةُ وهُوَ مشهور. ولا يكونُ المُجدِّدُ إلا عالماً بجميعِ العلومِ الدِّينيّةِ: الظاهرةِ والباطنة، وأن يكونَ جامعاً لكلِّ فنّ، وأن يعُمَّ نفْعُهُ أهلَ الزمن، وأن يكونَ مِن أهلِ بيتِ المصطفىٰ ﷺ علىٰ قول. وقد جاءَ ذلكَ في حديث. انتهىٰ. ذكَرَهُ الحبيبُ عليُّ بنُ حسنٍ العطّاس في «القِرطاس».

فائدة:

عنِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ أنّ المبعوثَ في المئةِ الأُولىٰ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الخليفة، وعلىٰ رأسِ المئةِ الثانيةِ الإمامُ محمدُ بنُ إدريسَ الشافعي، وذكَروا علىٰ رأسِ المئةِ الثالثةِ أبا الحسَنِ الأشعريّ[2]، والرابعةُ فيهِ خلاف.

= يُنظر «عقد اليواقيت» (٢: ٥٢ ــ ٥٣).

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) والحاكم (٤: ٥٢٢) وصحّحه، من حديث أبي هريرة رضيَ اللّه عنه.

(٢) الإمام الكبير، ناصر السُّنة، إمام المتكلِّمين، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (٢٦٠ ــ ٣٢٤هـ)، إمام أهل السُّنة والجماعة وقدوتهم في تحرير العقائد، وقامع المعتزلة وغيرهم من فِرَق المخالفين، وإليه وإلىٰ أبي منصورٍ الماتُريدي يُنسب تقعيد=

ولـم يختلـفِ النقْلُ في الإمـامِ الغـزاليِّ أنّهُ المُجـدِّدُ علـىٰ رأسِ المئـةِ الخـامسة. ذكَرَ ذلكَ الحبيـبُ أحمـدُ بنُ زيْـنٍ الحبَشيُّ في «شرحِ العينيّة». ثم قـال: ولا شـكَّ ولا ارتيـابَ أن شيخَنـا عبدَ اللهِ بنَ عَلَـوي الحدّادَ رضِيَ اللّهُ عنـه مجدِّدُ الدِّينِ ومحيـي الإيمانِ في قلوبِ المسلميـنَ بإذنِ ربِّ العالَمين. انتهىٰ.

وقال النبيُّ ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ علىٰ الحقِّ ظاهِرينَ إلىٰ يوم القيامة، فيَنْزِلُ عيسىٰ ٱبنُ مريم، فيقولُ أميرُهُم: تَعالَ صَلِّ لنا، فيقول: لا، إنّ بعضَكُم علىٰ بعضٍ أمراءُ تكرِمةَ اللّهِ هذهِ الأُمَّـةَ»[١].

قالَ الإمامُ النوَوِيُّ في «شرحِ مسلمٍ» علىٰ الحديثِ المذكور: وأمّا هذهِ الطائفةُ فقالَ البخاريّ: هم أهـلُ العِلم. وقالَ أحمدُ بنُ حنبل: إن لم يكونوا أهـلَ الحديثِ فلا أدري مَن هـم؟ وقالَ القاضي عِياض: إنّما أرادَ أحمدُ أهـلَ السنّةِ والجماعةِ ومَن يعتقدُ مذهبَ أهلِ الحديث.

ثـم قالَ الإمامُ النَووِيّ: قلت: ويُحتمَلُ أنّ هذهِ الطائفةَ مُفرَّقـةٌ مِن أنواعِ المؤمنيـن، فمِنهم شُجعـانٌ مُقاتلـون، ومِنهم فقَهاءُ محدِّثون، ومِنهم زُهّـاد، وآمِرونَ بالمعروفِ وناهونَ عن المنكر، ومِنهم أهلُ أنواعٍ أُخَرَ منَ الخير. قال: ولا يلزَمُ أن يكونوا مجتمِعينَ، بل قـد يكونـون متفرِّقينَ في أقطارِ الأرض. ثم قالَ الإمامُ النَووِيُّ: وفي هذا الحديثِ يعني قولَهُ ﷺ: «لا تزالُ طائفةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرينَ علىٰ الحقّ»: معجِزةٌ ظاهرة ــ يعني للنبيِّ ﷺ ــ في أُمَّتِهِ إلىٰ الآن، ولا يزولُ حتّىٰ يأتيَ أمرُ اللّه، وهُوَ قيـامُ الساعـة. قـال: وفيهِ دليلٌ لكونِ الإجماعِ

= وتحرير عقيدة أهل السُّنة والجماعة، رضيَ اللّه تعالىٰ عنهما.

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (١٥٦) من حديث جابر بن عبد اللّه رضيَ اللّه عنه.

حُجّة. واللّه أعلَم.

وأمّـا قولُهُ ﷺ: «ظاهِرينَ علىٰ مَن ناوَأَهُـمْ» فهُـوَ بهمزةٍ بعدَ الواو: أي عاداهُم، وهُوَ مأخوذٌ مِن: نَأىٰ، ونأوا إليه؛ أي: نَهضوا للقتال[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) «شرح صحيح مسلم» للإمام النووي (١٣ : ٦٧).

الفصل الثاني
في آداب ينبغي أن تحلى بها الدّعاة إلى الله

ـــ **الإخلاصُ :**

فمِن آدابِهم الإخلاصُ وحُسنُ النيّة . قالَ سيّدُنا العارفُ باللّهِ والدالُّ عليهِ عبدُ اللّهِ بنُ مُحسِن العطّاسُ نفعَ اللّهُ به : الدّاعي إلىٰ اللّهِ إلىٰ طريقِ الهدايةِ لا تُقبَلُ مذاكرتُه وتخشَعُ لها القلوبُ إلا إذا كانَ مأذوناً له . والإذنُ له ثلاثُ علامات ، فإذا وُجدَتْ فهُوَ مأذونٌ له :

الأُولىٰ : النيّةُ الصالحة : «إنّ اللّهَ لا ينظُرُ إلىٰ صُورِكُم ولكِنْ ينظُرُ إلىٰ قلوبِكم ونيّاتِكم»(١) .

الثانيةُ : الخَشية ، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

الثالثةُ : الإخلاص : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] . انتهىٰ . مِن «مجموع كلامِهِ» للشيخِ عبدِ الرحمن بارجاء رحِمَهُ اللّه .

وفي «الحِكَمِ» لسيّدِنا الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا به : كلامُ أهلِ الإخلاصِ والصِّدقِ نورٌ وبرَكةٌ وإن كانَ غيرَ فصيح ،

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه ، بلفظ : «إن اللّه لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم» .

وكلامُ أهلِ التكلُّفِ والرِّياءِ ظُلمةٌ ووَحْشةٌ وإن كانَ فصيحاً. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: قيلَ: كلُّ كلامٍ يخرُجُ وعليهِ كُسوةُ القلبِ الذي خرَجَ مِنه، فإن كانَ القلبُ مُنوَّراً خرَجَ منهُ الكلامُ وعليهِ النُّور وإن كانَ الكلامُ مُظلِماً، وإن كانَ القلبُ مُظلِماً خرَجَ منهُ الكلامُ وعليهِ الظُّلمةُ وإن كانَ الكلامُ منوَّراً.

وذُكِرَ أنّ الشيخَ عبدَ القادرِ الجِيلانيَّ رضِيَ اللّهُ عنهُ إذا تكلَّمَ علىٰ الناسِ يُسمَعُ لهمُ الصِّياحُ والبُكاء، ويتوبُ كثيرٌ منَ النّاسِ ممّا هُم مُصِرُّونَ عليه، وكانَ في لِسانِهِ لُكْنَة؛ لأنّهُ كانَ أعجمياً[١]، فسافَرَ بعضُ بنيه ــ وهُوَ عبدُ الرزّاق [٢] ــ وطلَبَ العِلمَ واللّغةَ والنَّحوَ ونحوَ ذلك، حتىٰ أتقَنَ علومَ الآلات، فجاءَ وٱستأذنَ أباهُ أن يتكلَّمَ علىٰ الناسِ فأذِنَ له، فلمّا خرَجَ إليهِم جعَلَ يتكلَّمُ ويتفصَّحُ في الكلامِ ويجتهدُ في الإعراب، فصاحَ مِنهُ النّاسُ واستغاثوا بالشيخِ والدِه. انتهىٰ.

تنبيهٌ:

وقالَ الشيخُ الإمامُ أحمدُ بنُ زَينٍ الحَبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: ينبغي لمَن أرادَ تحذيرَ النّاسِ مِن مُعاملةِ مُسلمٍ ــ لكونِهِ ظالماً أو غادراً أو غيرَ ذلكَ ممّا يوجِبُ النُّصحَ ــ أن لا يقصِدَ تذميمَهُ وتنقيصَه، وهكذا ينبغي أن يفعَلَ فيما أشبَهَ هذا: أن يقصِدَ بهِ اللّهَ عزَّ وجَلَّ والنُّصحَ للمُسلمين، ودليلُ صِدقِهِ في ذلكَ أن يُحذِّرَ النّاسَ حتىٰ مِن أحبِّ الناسِ إليهِ كولدِهِ إذا كانَ بهذهِ المَثابة. انتهىٰ. مِن «قرة العين».

---

(١) أي: في لهجته، لأنه عاش في بلاد الأعاجم، وإلا فهو شريفٌ حسَني رضيَ اللّه عنه.

(٢) أبو بكر عبد الرزّاق بن عبد القادر الجيلاني الحنبلي البغدادي (٥٢٨ ــ ٦٠٣هـ). كان محدِّثاً ثقةً، فقيهاً ورعاً، كثير العبادة، سخياً مع قلة ذات اليد.

ــ الرِّفقُ واللِّين :

ومِن آدابِهِمُ ٱستعمالُ الرِّفقِ واللِّين، فإنّ ذلكَ أَدعىٰ إلىٰ القَبولِ، وأحسَمُ لموادِّ الفِتنة، وأسدُّ لأبوابِ الخصومةِ والشِّقاق، وقد ورَدَ في الحديث:

«إنّ الرِّفْقَ لا يكونُ في شيءٍ إلاّ زانَه، ولا يُنزَعُ مِنْ شيءٍ إلاّ شانَه»(١).

وورَدَ أيضاً: «إنّ اللّهَ رفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْق»(٢)، والرِّفْقُ خيرٌ كُلُّه.

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفعَ اللّهُ به: خَصلتانِ يحتاجُ إليهِما الداعي إلىٰ اللّهِ والقاضي: اللِّينُ والسياسة. والإلزامُ إذا كانَ بهاتَينِ الخَصلتَينِ لا يُثقِل، قالَ اللّهُ تعالىٰ لسيّدِنا موسىٰ عليه السلام: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤]. انتهىٰ.

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ إدريسَ المغْرِبيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: إذا أردْتَ أن تُرشِدَ أحداً أو تأمُرَهُ أو تَنهاهُ فٱبدَأْ بنفْسِكَ ثم بأهلِك، فإنّ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُ كانَ إذا أرادَ أن يأمُرَ بشيءٍ أو يَنهىٰ عنهُ لا يفعَلُ حتىٰ يبدَأَ بأهلِ بيتِه.

ثم لِنْ لمَنْ وعَظتَ ولا تُنفِّرْهُ بالتبكيت، فإنّ بعضَ العلماءِ دخَلَ علىٰ الرشيدِ فقالَ له: إنّي جئتُ لأَعظَك، فاصبِرْ لي، لأنّي أريدُ أنْ أَغلُظَ عليك، فقالَ الرشيد: لا تفعَلْ، فإنّ اللّهَ قد أرسَلَ مَن هُوَ خيرٌ منكَ إلىٰ مَن هُو شرٌّ مِنّي فقال: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾. فكانَ الرشيدُ أعلَمَ منه.

وإذا لِنْتَ في الخطابِ كنتَ مُقتدِياً بالكتابِ والسُّنة، وما عليكَ أن لا ينفَعَ أمرُكَ أو نهيُك. فإنّ الموعِظةَ كالرِّيح: تجمَعُ بينَ الضِّدَّين، تُطفىءُ

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٩٤)، من حديث السيّدة عائشةَ رضيَ اللّه عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢٤) ومسلمٌ (٢١٦٥)، من حديث السيّدة عائشةَ رضيَ اللّه عنها.

وتؤجّج، قالَ تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]. انتهىٰ.

ومِن كلامِ سيّدِنا الإمامِ عيدروسِ بنِ عمرَ الحبَشيِّ رضِيَ اللّهُ عنه: لا ينبغي لمُعلمِ النّاسِ الخيرَ العنفُ في الأمرِ والنّهي، ولا يُخصِّصُ أحداً دونَ أحد، بل يَعمُّهم ويُدخِلُ نفْسَهُ في الخطابِ بالأمرِ والنّهيِ كما فعَلَ مؤمنُ آلِ يسٓ في قولِه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يسٓ: ٢٢] وهُوَ يعبُدُ الذي فطَرَه، وإنّما أرادَ أن يتلطَّفَ معَ المُخاطَبينَ بالتعبير، ويتنزَّلَ معَهم، حتىٰ يُذعِنوا لهُ ويقبَلوا نُصحَه، فلو قالَ لهُم: وما لكم لا تفعَلون كذا ولا تترُكون كذا، لربَّما نفَرتْ نفوسُهم وأعرَضوا. وقد قيل: إنّ بعضَ المُذكِّرينَ ـ ممَّنْ لا يُحسِنُ التذكير ـ صَعِدَ مِنبَراً لِيذكِّرَ النّاسَ وٱستنْصَتَ النّاسَ وقالَ: ٱسمَعوا يا بقر! فقالوا له: قلْ يا ثور. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا قطبُ الإرشادِ الحبيبُ: عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: خُذْ معَ أهلِ الزمان بالرِّفقِ ما أمكنَكَ، ولا تُشدِّدْ عليهِم، فإنّ حِبالَهم رامّة، وما كنتَ تُعلِّمُهُ أحدَهم في يوم ٱجعَلْهُ في ثلاثةِ أيام؛ لأنّ قلوبَهم مائلةٌ ـ أو قالَ: مُنصرِفة ـ، وخصوصاً الصِّغار، ما معَكَ مِنهُم إلا التّرْقُوةُ واللُّطفُ بهِم والرِّفق.

ومثالُ أهلِ الزّمانِ كالبعيرِ الشارد، فلا تَضرِبْهُ فتزيدَهُ شروداً.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ حُسينِ بنِ طاهرٍ نفَعَ اللّهُ به: ينبغي لمَن أمَرَ بمعروفٍ أو نهىٰ عن مُنكَرٍ أن يكونَ برِفْقٍ وشفَقةٍ علىٰ الخَلْق، يأخذُهُم بالتدريج، فإذا رآهُم تاركينَ لأشياءَ منَ الواجباتِ فلْيأمُرْهم بالأهمِّ فالأهمّ، فإذا

فعَلُوا ما أمرَهُم بهِ ٱنتقَـلَ إلىٰ غيرِه، وأمرَهُم وخوَّفَهـم برِفْـقٍ وشفَقة، معَ عدَمِ النظَـرِ منهُ لمَدحِهم وذمِّهم وعطاهُم ومنعِهم، وإلا وقَعَتِ المُداهَنة، وكذا إذا ارتكَبـوا مَنْهِيّاتٍ كثيرةً ولم ينتَهوا بنَهْيِهِ عنها كلِّها، فلْيكُلِّمْهُم في بعضِها حتىٰ ينتَهـوا، ثم يتكلَّمُ في بعضِها حتىٰ ينتهوا، ثم يتكَلَّمُ في غيرِها وهكذا. انتهىٰ. مِن «مجموع كلامِهِ المنثور».

ـــ الدعوةُ بالترغيبِ والتشوِيق:

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: والدّعوةُ إلىٰ اللّهِ اليـومَ بالتشويقِ أَوْلىٰ، والتخويفُ لا يكونُ إلا لمَن في قلبِهِ خَشيةٌ وخوفٌ منَ اللّه، قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]. والدعاءُ بالتخويفِ والزَّجْرِ مذهبُ المُعتزلةِ لا مذهبُ الدُّعـاةِ إلىٰ اللّهِ إلا في بعضِ المَواطن، وما ذُكِرَ العِقابُ في القرآنِ إلا وأردَفَهُ الثوابُ وبالعكس، أو كما قال.

وقـال نفَعَ اللّهُ به: ٱدعـوا إلىٰ اللّهِ بالحِكمةِ والمَوعِظـةِ الحسَنـة، وهذا الوقتُ وقتُ تبشيرٍ لا وقتُ تنفير، إذا نصَحْتَ أحداً أو وعَظْتَهُ فقلْ: إذا أقبلْتَ إلىٰ اللّهِ فسيُعطيكَ كذا وسيقَعْ لكَ منَ الخير كذا، ولا تخوِّفْ أحداً وهُوَ ضائع، بلِ ٱستَجلِبْهُ بالرِّفقِ والترغيب. قالَ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦]، ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]، أي: في الوقتِ الذي يقبَلونَ فيهِ الذِّكرىٰ، وكانَ ﷺ يتخوَّلُهم بالمَوعِظة.

وإذا رأيتَ مِنهُم إعراضاً فأمسِكْ، ولا تكنْ عندَ مَلَلِهم سبباً في تكذيبِهمُ اللّهَ ورسولَـه أو إعراضِهم عنِ اللّهِ ورسولِـه. قـالَ تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] انتهىٰ. أو كما قال.

ـــ **التعريضُ في النُّصح دُونَ التصريح :**

وفي الحديث : كانَ النبيُّ ﷺ إذا بلَغَهُ عنِ الرجُلِ الشّيء ، لم يقُلْ : ما بالُ فلان ، ولكنْ يقول : «ما بالُ أقوامٍ يقولونَ كذا وكذا»[١] .

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زَينٍ الحبَشيُّ نفعَ اللّهُ به : التعريضُ في النُّصح لأهلِ الفهمِ نافعٌ جداً دونَ التصريح ، وفي التعريضِ فائدةٌ عظيمة ، وهُوَ أنّ النفْسَ إذا قوبِلتْ بالأمرِ الصّريحِ يثقُلُ عليها القيامُ به ، ويزيدُها تكاسُلاً ، والتعريضُ فيهِ تنشيطٌ لها وٱستِرْواح ، فهُوَ أجدَرُ بالقيامِ والامتِثالِ للأمر . انتهىٰ .

وقالَ تلميذُهُ الإمامُ محمّدُ بنُ زَينِ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ في مناقبِ شيخِهِ المذكور : إنّهُ كانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ أكثرُ دعوتِهِ وإنكارِ المُنكَراتِ الخاصّةِ إنّما هُوَ بالتعريضِ والتلويحِ والإشارةِ والتلميح ، وذلكَ أبلَغُ في الوعظِ وأنجَحُ لبُلوغِ المطلوبِ منَ المُصادَرةِ والتصريح ؛ لأنّ النفوسَ إمّا أن تكونَ كريمةً فلا تنقادُ إلاّ باللُّطفِ والرِّفق ، وإمّا أن تكونَ لئيمةً قدِ ٱستكَنَّ فيها الكِبْرُ والرِّياسة ، فربَّما قابَلتِ التصريحَ بالإباءِ والردِّ الصريحِ كما هُوَ الغالبُ في طبعِ أهلِ الزمان ، فإنّ الغالبَ عليهِم عدَمُ قَبولِ الحقِّ وردُّهُ علىٰ مَن جاءَ به ، فكانَ الأَوْلىٰ أن يكونَ بالإشارةِ والتعريضِ والتلويح . انتهىٰ . مِن «قُرّةِ العين» .

ـــ **الدعوةُ بكلامِ اللّهِ ورسولِه ﷺ :**

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفعَ اللّهُ به : والدعوةُ إلىٰ اللّهِ هِيَ أن تُصلِحَ بينَ العبادِ وبينَ ربِّهم ، فإذا أصلَحْتَ بينَهم وبينَ ربِّهم فذَكِّرْهُم بفرائضِ اللّه ، ولا تُشدِّدْ عليهِم قبلَ أن تُحبِّبَ ربَّهم إليهِم . وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه :

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٤٧٨٨) ، من حديث أم المؤمنين عائشة رضيَ اللّه عنها .

والناسُ الآنَ لمَّا ترَكوا الدعـوةَ بالقـرآنِ لم يجيئوا علىٰ شيءٍ ولم يُقبَلْ وعظُهم ولا دعوتُهم، ترَكوا الدعوةَ إلىٰ اللّهِ بكلامِهِ ودعَوْا إليهِ بكلامِهم وأقوالٍ مِن عندِ أنفُسِهِم ونمَّقوا العِبارات، ومثالُهم مثالُ مَن ترجَمَ القرآنَ إلىٰ غيرِ العربيّةِ ثم أتىٰ بهِ وقـال: هذا هُوَ القرآن لا غيرُه، وانظُـرْ ما هُوَ الحقّ، أن تدعُوا بِلسانِ الحقِّ وبِلسانِ رسولِ اللّهِ ﷺ أو بِلسانِ الآخرَين؟

وخُذ قاعدة: مَن دَعاكَ إلىٰ اللّهِ بكلامِ اللّهِ وكلامِ رسولِ اللّهِ ﷺ فإنّهُ لا يُنفِّرُ طبعَكَ مِنه. انتهىٰ. أو كما قال.

ـــ مخاطَبةُ الناسِ بما يعقلون:

عن عبدِ اللّهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللّه عنه قال: ما أنتَ بِمُحدِّثٍ قوماً حديثاً لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهم إلا كان لِبعضِهم فتنةً[١].

وعن عليٍّ كرَّمَ اللّهُ وجهَـهُ قال: حدِّثُوا النّاسَ بما يَعرِفون، أتحِبُّونَ أن يُكَذَّبَ اللّهُ ورسولُه؟[٢].

وعـن أبـي هريـرةَ رضِـيَ اللّهُ عنـهُ قـال: حفِظـتُ مِن رسـولِ اللّهِ ﷺ وِعـاءَينِ منَ العِلـم: فأمّا أحدُهمـا فبثَثْتُه، وأمّا الآخَرُ فلو بثَـثْـتُه لقُطِـعَ هذا البُلعوم[٣].

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينِ بنِ طاهرٍ نفَعَ اللّهُ به: لا ينبغي للعالِمِ أن يُذاكِـرَ العامَّةَ بشيءٍ منَ الحقائقِ التي لا يَفهَمونَها؛ لأنّهُ يَضُرُّهم ذلك. كما

---

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (١ : ٧٦ شرح النووي).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٢٠).

قالَ عليـهِ الصلاةُ والسلام: «أتُحِبُّونَ أن يُكَذَّبَ اللّهُ ورسـولُه؟»[١]. وما يُروىٰ عن بعضِ العارِفينَ مِن ذلكَ فهُوَ إمّا مغلوبٌ علىٰ ذلكَ أو يظُنُّ أنّهم يفهَمونَ ما يقولُه، وإلا فلا ينبغي لأحدٍ أن يُذاكِرَ العامَّةَ إلا بما يُفْتيـه لهُم ويعترِفُ لهُم مِن مُهمَّاتِ الدِّينِ التي يحتاجونَ إليها. انتهىٰ.

وكانَ الشيخُ الإمامُ أحمدُ بنُ زَينٍ الحبَشيُّ نفعَ اللّهُ بهِ يقول: إنّ إجمالَ العِلمِ للعامَّةِ أنفَـعُ لهُم منَ التفصيـل، والجُزئيُّ أنفَعُ لهُـم منَ الكُلِّـيّ. وينبغي للعالِـمِ أن يقتَصِرَ علىٰ حدِّ ما يفهَمونَهُ فقطْ وتُطِيقُهُ عقولُهم، وإلا صـارَ كلامُهُ فِتنةً، كالصّبيِّ إذا خاطَبتَهُ بخطاب، لا يقدِرُ علىٰ إدراكِ ذلك، بل تتنزَّلُ لهُ إلىٰ حدِّ فهمِهِ وقُصورِه.

وربَّما تكلَّمَ العالِمُ عندَ القاصِريـنَ بالحقيقة، فلا تقبَلُهُ عقولُهم ويَسمُجُ ذلكَ عندَهم، وهُوَ السببُ الذي هَدَفَهُم للإنكار. انتهىٰ.

وقالَ الشيخُ القُطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحـدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: أَمرانِ ينبغي أن لا يُذكَرا للعامَّةِ ولا يسمعوهما: دقائقُ العقائدِ ودقائقُ الأحكام، فإنَّكَ لو تتبَّعتَهم فيها لَمَا رأيتَ صَلاتَهم صالحةً علىٰ المذهبِ مِن إخراجِ الضّادِ وغيرِ ذلك، بل إذا حمَلَهُم مذهبٌ فاْترُكْهُم علىٰ ما هم عليهِ وإلا شدَّدتَ عليهِم ولا أمكَنَـكَ أن تحصِّلَ مِنهمُ المطلوب، وكذا في العقائـدِ: لا تَذكُرْ لهُم شيئاً منَ الخَفايـا فيها، بل ترىٰ أحدَهُم يقول: اللّهُ مَعنـا، اللّهُ ناظرٌ إلينـا ونحوَ ذلك، فاكتَفِ منهُم بذلك.

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: ما يتكلَّمُ في القضاءِ والقدَرِ وفي الرَّجاءِ معَ العامةِ في

---

(١) تقـدم تخريجـه وأنه في «البخاري» من كلام سيّدنـا علي كـرّم اللّه وجهـه، وليـس مرفوعاً.

هذا الزمانِ إلا أحمق. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

وقالَ الإمامُ الغزاليّ: لا ينبغي أن يُخاضَ معَ العَوامِّ في حقائقِ العلومِ الدقيقة، بل يُقتَصَرُ معَهُم علىٰ تعليمِ العِباداتِ وتعليمِ الأمانةِ في الصِّناعاتِ التي هُم بصَدِدِها، ويملأُ قلوبَهم منَ الرّغبةِ والرّهبةِ في الجنّةِ والنارِ كما نطَقَ بهِ القرآن.

قال: وبالجُملة، لا ينبغي أن يُفتَحَ للعَوامِّ بابُ البحثِ، فإنّهُ يعطِّلُ عليهِم صناعاتِهِمُ التي بها قَوامُ الخُلُق ودوامُ عيشِ الخَواصّ. انتهىٰ.

وفي الحِكَمِ الحدّاديّةِ ما نصُّه: ينبغي أن يدورَ كلامُ العالِمِ باللّهِ معَ عامّةِ المؤمنينَ علىٰ ثلاثةِ أمور:

أحدُها: التذكيرُ بالنِّعم.

الثاني: التزامُ الطاعة.

الثالثُ: اجتنابُ المَعصِية.

وكلُّ عالِمٍ أخَذَ يتكلّمُ معَ العامّةِ بغيرِ ما يدخُلُ تحتَ هذهِ الثلاثةِ فهُوَ فتّان. انتهىٰ.

وكانَ سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحَبشيُّ نفَعَ اللّهُ بهِ يقول: لا أنفَعَ لأهلِ هذا الزمانِ مِن ذكْرِ آلاءِ اللّهِ وذِكْرِ سِيَرِ السّلَف، ويفيدُ أنّ ذِكْرَ آلاءِ اللّهِ ونِعمِهِ يَحمِلُهم علىٰ الشُّكرِ لهُ تعالىٰ، وذِكْرُ سِيَرِ السّلَفِ يَحمِلُهم علىٰ ٱتّباعِهم والاقتداءِ بهِم. انتهىٰ.

تنبيهٌ:

قالَ الشيخُ الإمام أحمدُ بنُ زَينِ الحَبشيُّ نفَعَ اللّهُ به: العالِمُ إذا تكلّمَ بما يعلَمُ صحّتَهُ باطناً في نفْسِ الأمرِ وكونَهُ في معنىٰ ما يقولُ علىٰ بصيرةٍ مِن أمرِهِ

فهُوَ في نفْسِهِ صادق، ولكنّهُ أخطأَ مِن حيثُ تلفُّظُهُ بما يوهِمُ إشكالاً وإن لم يكنْ عندَهُ هُوَ ذلك إشكال، ولكنّهُ يوقِعُ الشُّبهةَ عندَ غيرِه، فيعصي بنُطقِهِ بذلكَ ويُمنَعُ منَ التلفّظ. وإن كانَ يعلَمُ صحّةَ ما يقول، ومَن أنكَرَ عليهِ تلفّظَهُ فلا بأسَ علىٰ المُنكِر. وإنِ ٱدَّعىٰ القائلُ أنّ مُرادِي كذا فيقالُ له: لمَ لا عبَّرتَ عمّا يصِحُّ النّطقُ بهِ شرعاً؟ ولا حُكمَ لنا إلا علىٰ ما تكلّمتَ لا علىٰ ما أضمَرت. انتهىٰ. مِن «قرةِ العين».

ـ تحسينُ الزِّيِّ والهيئة:

ينبغي للداعي إلىٰ اللّهِ تحسينُ زِيِّهِ وهيئتِهِ والتجمُّلُ في لِباسِهِ ونحوِهِ بما يُقرِّبُ الخَلْقَ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ حتى يكمُلَ بهِ الانتفاع، ويدُلُّ لذلك ما روَتْ عائشةُ رضِيَ اللّهُ عنها أنّهُ اجتمعَ قومٌ ببابِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فخَرَجَ إليهمْ، قالتْ: فرأيتُهُ يطَّلعُ في الإناءِ الذي فيه الماءُ يُسَوِّي مِن رأسِهِ ولِحيتِهِ الكريمة، فقلتُ: أوَ تفعَلُ ذلكَ يا رسولَ اللّه؟ قال: «نعمْ، إنّ اللّه يُحِبُّ منَ العبدِ أن يتجَمَّلَ لإخوانِهِ إذا خَرَجَ إليهِم». ذكَرَهُ الإمامُ الغزاليُّ في «الإحياء»[(١)]. ثم قال: كانَ ﷺ مأموراً بالدَّعوة، وكانَ مِن وظائفِهِ تعظيمُ أمْرِ نفْسِهِ في قلوبِهم لئلاّ تزدَريَه نفوسُهم، وتحسينُ صورتِهِ في أعيُنِهم كيلا تستصغِرَهُ أعيُنُهم فيُنفِّرَهُم ذلك، ويتعلَّقَ المُنافقُ في تنفيرِهم. وهذا القصْدُ واجبٌ علىٰ كلِّ عالِمٍ تصدّىٰ لدعوةِ الخَلْقِ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ، وهُو أن يراعيَ مِن ظاهرِهِ ما لا يوجبُ نفْرةَ النّاسِ عنه، والاعتمادُ في هذا علىٰ النيّة. انتهىٰ.

قالَ الشيخُ ٱبنُ حجرٍ الهَيْتَمِيُّ رحِمَهُ اللّهُ في «دَرِّ الغَمامة»[(٢)]: ينبغي أن

---

(١) قال العراقي في «تخريجه» (١ : ١٣٧): أخرجه ابن عدي وقال: حديث منكَر.

(٢) «درّ الغمامة في ذرّ الطيلسان والعَذَبة والعمامة»، أحد تآليف الإمام ابن حجر الهيتمي، لم يُطبَع بعد. =

يكونَ للعلماءِ شعارٌ ليُعرَفوا ويُوَقَّروا ويُسأَلوا ويُمتثَلَ أمرُهم ونهيُهم. والأصلُ في ذلكَ قولُهُ تعالىٰ في سورةِ الأحزاب: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ [الأحزاب: ٥٩]. ثم ذكَرَ عنِ ٱبنِ عبدِ السّلامِ أنّهُ أنكَرَ وهُوَ مُحرِمٌ علىٰ جماعةٍ مُحرِمينَ لا يعرِفونَه فلم يقبَلوا، فلمّا لبِسَ شِعارَ الفقهاءِ وأنكَرَ عليهِم سمِعُوا وأطاعوا. قال: فإذا لُبِسَ بهذا الغرضِ كانَ فيهِ أجر؛ لأنهُ سببُ امتِثالِ أمرِ اللّهِ والانتهاءِ عمّا نهىٰ اللّهُ عنه. انتهىٰ.

ـــ التطبيقُ لِمَا يدعو إليه:

ومِن آدابِ الدّاعي إلىٰ اللّهِ تعالىٰ أن لا يُخالِفَ قولُهُ فعلَهُ لئلاّ يدخُلَ في عمومِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقالَ الشاعر:

وغيرُ تقيٍّ يأمُرُ النّاسَ بالتُّقىٰ　　　طبيبٌ يداوي النّاسَ وهْوَ عَليلُ

قالَ الشيخُ الإمامُ يحيىٰ بنُ أبي بكرٍ العامريُّ[(١)] رحِمَهُ اللّهِ في كتابِهِ: «بهجةِ المَحافلِ» ما نصُّه: ومثَلُ مَن يأمُرُ بالاستقامةِ وينحرِفُ عنها كمَن يُكذِّبُ بعضُهُ بعضاً، ويُتْبِعُ إبرامَهُ نقضاً، ويُحِلُّ عليهِ مقتَ اللّهِ تعالىٰ. قالَ اللّهُ تعالىٰ:

---

(١) الشيخ المحدِّث يحيىٰ العامري الحَرَضي، ينسب إلىٰ (حَرَض) بلدة في شمال اليمن، ولد بها سنة (٨١٦هـ) وتوفي بها سنة (٨٩٣هـ). كان محدِّث اليمن في عصره. رحل إلىٰ مكةَ المكرمة وسمع من الحافظ ابن فهد والحافظ أبي الفتح المراغي العثماني. له مصنفاتٌ عديدةٌ انتفع بها الناس. أخذ عنه سيدُنا الإمام أبو بكر العيدروس العدني وذكره في «الجزء اللطيف»، وذكر له كرامةً صاحبُ «المشرع الروي»، وهي: أنه رأىٰ الرسول ﷺ في المنام ومسح علىٰ ظهره بيده الكريمة فأصبح وآثار المسح باقية يراها الناس، وممن رآها وتبرّك بها الإمام العدني.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]. قالَ ٱبنُ السَّمّاكِ[1]: وعظتُ الناسَ يوماً، فأعجبَني وعْظي، فسمِعْتُ هاتفاً يقول:

يـا أيُّهـا الـرجُـلُ المُعلِّـمُ غيـرَهُ	هـلاّ لنَفْسِـكَ كـانَ ذا التعليـمُ
ابـدَأْ بنَفْسِـكَ فـٱنهَهـا عـن غَيِّهـا	فـإذا انتهـتْ عنـهُ فـأنـتَ حكيـمُ
تصِفُ الدواءَ لذي السَّقامِ وذي الضَّنا	كيمـا يصِـحُّ بـهِ وأنـتَ سقيـمُ
لا تَنْـهَ عـن خُلُـقٍ وتـأتـيَ مِثْلَـهُ	عـارٌ عليـكَ إذا فعلْـتَ عظيـمُ

قال: وٱعلَمْ أنّ العالِمَ الذي تنجَعُ موعظتُهُ وتؤثّرُ كلمتُه، هُوَ الذي صلَحَتْ منهُ النيّةُ وحازَ الوِراثةَ النّبويّة. قالَ بعضُهم: إذا صدَرَتِ الموعِظةُ مِنَ القلبِ وقعَتْ في وسَطِ القلب، وإذا صدَرَتْ مِن ظاهِرِ اللِّسانِ لم تجاوِزِ الآذان.

وقيلَ لبعضِهم: ما بالُ علماءِ السَّلَفِ كانت تُؤثِّرُ مَوعظتُهم وليسَ كذلكَ علماءُ الوقت؟ فقالَ: سببُ ذلكَ أنّ علماءَ السَّلَفِ كانوا أَيْقاظاً والناسُ نيام، والمُستيقِظُ يوقِظُ النائم، وعلماءُ الوقتِ نيامٌ والنّاسُ موتىٰ، والنائمُ لا يوقِظُ الميّت. انتهىٰ.

وقالَ بعضُهم ما معناه: فيجبُ علىٰ المُذكِّرِ والمُذكَّرِ أن يعمَلا بمقتضىٰ التَّذكِرة، وأن يتحفَّظا مِن عدَمِ المُبالاةِ بها، لئلاّ يكونا حِمارَينِ مِن حُمُرِ جهنّم: أمّا المُذكِّرُ الذي لم يعمَلْ فلدِلالةِ السُّنَّةِ علىٰ ذلك.

---

(١) الزاهدُ القدوة سيّدُ الوعّاظ، أبو العبّاس محمد بن صَبيح العِجْلي مولاهم، الكوفي (ت ١٨٣هـ). من كلامه: كم من شيءٍ إذا لم ينفع لم يضرّ، لكن العلمَ إذا لم ينفع ضرَّ.

وهِيَ قولُـهُ ﷺ: «يُجَاءُ بالرجل يومَ القيامـة، فيُلقـىٰ في النّـار، فتَنْدَلِقُ أقْتابُـه، فيَدُورُ بها في النّـارِ كمـا يدُورُ الحمارُ بالرَّحـاء، فيَطُـوفُ بهِ أهلُ النّارِ فيقولون: أيْ فلانُ ما أصابَكَ؟ ألمْ تكنْ تأمُرُنا بالخيرِ وتنهانا عنِ الشَّرّ؟ فيقُول: كنتُ آمُرُكُم بالخيرِ ولا آتيه، وأنهاكُمْ عنِ الشَّرِّ وآتيه»[١].

وأمّا المُذكِّرُ المُعرِضُ فلِقولِهِ تعالىٰ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ ـ ٥١]. والعِبرةُ بعمُومِ الألفاظِ لا بخصوصِ الأسباب. انتهىٰ.

وعنِ ٱبنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما: أنّهُ جاءَهُ رجلٌ فقالَ له: يا ٱبنَ عباس، إنّـي أريدُ أن آمُـرَ بالمعـروفِ وأنهـىٰ عنِ المُنكَر. فقالَ ٱبنُ عبـاس: أوَ بلَغْتَ ذلك؟ فقالَ: أرجو. قال: فإن لم تَخْشَ أن تفتَضِحَ بثلاثةِ أحرُفٍ مِن كتـابِ اللّهِ فافعَـلْ. قال: وما هـيَ؟ قـالَ: قـولُـهُ تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] الآيـة. وقـولُـهُ تعـالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. الآية. وقولُهُ تعالىٰ عن العبدِ الصّالـح شُعيـبٍ عليـهِ السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨][٢].

* * *

---

(١) أخرجه البخـاري (٣٢٦٧) ومسلم (٢٩٨٩)، من حديـث أسامـة بن زيد رضيَ اللّه عنهما.

(٢) أخرجه البيهقي في «شُعب الإيمان» (٦: ٨٩).

الباب التاسع

في الحكمة

وفيه مقدِّمةٌ وستةُ فصول :

المقدمة : في معنىٰ الحكمة وفضلها .

الفصلُ الأول : في حِكَم لقمان الحكيم عليه السلام .

الفصلُ الثاني : في عيون الحكمة المأثورة من كَلِمِه ﷺ .

الفصلُ الثالث : مِنَ الحِكَم المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

الفصلُ الرابع : نوادِرُ من حِكَم الإمام الشافعي رضيَ اللّه عنه .

الفصلُ الخامس : نُبَذٌ من حِكَم السَّلَف رضيَ اللّه عنهم .

الفصلُ السادس : في بعض الحِكَم المأثورة عن جماعةٍ من السادة العلوية .

مقدّمة
في معنى الحكمة وفضلها

قالَ اللّهُ تبارَكَ وتعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما أَهدى مُسلِمٌ لأخيهِ هَدِيةً أفضَلَ مِن كَلِمةِ حِكمةٍ تَزيدُهُ هُدىً أو تَرُدُّهُ عن رَدَىٰ»[١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا حَسَدَ إلاّ في اثنتَين: رَجُلٌ آتاهُ اللّهُ مالاً فسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحَقّ، ورَجُلٌ آتاهُ اللّهُ حِكمةً فهُوَ يَقضِي بها ويُعلِّمُها»[٢].

قالَ الإمامُ النوَويُّ رحِمَهُ اللّه: معنىٰ الحديثِ: لا غِبْطَةَ محبُوبةٌ إلا في هاتَين الخَصلتَين وما في معناهُما. والحِكمةُ: كلُّ ما مَنَعَ مِن الجَهل وزَجَرَ عن القَبيح[٣]. وقال في موضعٍ آخَر: الحكمةُ: عبارةٌ عن العِلم المتَّصِفِ بالأحكام، المُشتَمِلِ علىٰ المعرفَةِ باللّهِ تبارَكَ وتعالىٰ، المَصحُوبِ بنَفاذِ

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢: ٢٨٠) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضيَ اللّه عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣) ومسلم (٢: ٨١٦)، من حديث عبد اللّه بن مسعود رضيَ اللّه عنه.

(٣) «شرح صحيح مسلم» للإمام النووي (٦: ٩٧ ـ ٩٨).

البَصِيـرةِ وتَهذِيبِ النفسِ وتَحقيـقِ الحـقِّ والعَملِ بهِ والصـدِّ عن اتّبـاعِ الهوىٰ والباطِلِ، والحكيمُ مَن لهُ ذلك.

وقـالَ أبو بكـرٍ ٱبنُ دُرَيد[١]: كلُّ كَلِمـةٍ وعظَتْـكَ وزَجَرتْكَ أو دَعَتْك إلىٰ مَكرُمـةٍ أو نَهَتْكَ عن قَبِيـحٍ فهيَ حِكمةٌ وحِكَـم، ومنـهُ قولُ النبيِّ ﷺ: «إنّ منَ الشّعرِ حِكمةً»[٢]، وفي بعضِ الرواياتِ: «حُكْماً»[٣]، واللّهُ أعلَم. انتهىٰ. من «شرحِ مُسلِم».

وقال ابنُ قُتَيبة[٤]: الحِكمةُ هيَ: العِلمُ والعَمَل، ولا يكونُ الرَّجُلُ حَكِيماً حتىٰ يجمَعَهُما.

ومِنَ الآثـارِ المَرْوِيّة عن الأئمّةِ في الحِكَـم مـا ذكَرَه الإمامُ الشَّعْرانيُّ في «تنبيـه المغتَرِّيـن» قال: كان أبو الحَسَنِ الهَـرَوِيُّ[٥] رحمَـهُ اللّهُ يقـول: تَهيجُ الحِكمـةُ مِن أربَـعِ خِصـال: النَدَمِ علىٰ الذنْب، والاستِعـدادِ للمَـوت، وخُلُوِّ

---

(١) العلاّمة أبو بكـر محمد بن الحسن بن دُرَيد الأزدي البصري (٢٢٣ ــ ٣٢١هـ)، من أئمة اللغة والأدب. كان يُقال: ابن دريد أشعـر العلمـاء وأعلم الشعراء. كان آيةً في الحفظ. من مصنفاته: «الجمهرة»، «المقصورة»، «المجتنىٰ»، وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٥)، من حديث أُبي بن كعب رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجها أبو داود (٥٠١١)، من حديث ابن عباس رضيَ اللّه عنه.

(٤) الإمام العلاّمة أبو محمد عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة الدِّيْنَوَري (٢١٣: ٢٧٦هـ)، من أئمـة الأدب، ومن المصنفيـن المكثرين. ولد ببغـداد وسكن الكوفة، ثم وليَ قضاء الدِّيْنَوَر مدةً فنُسِبَ إليها، وتوفـي ببغداد. من مؤلفاته: «تأويل مختلف الحديث»، «أدب الكاتب»، «المعارف»، «الشعر والشعراء»، «المسائل والأجوبة»، وغيرها.

(٥) لم نقـف علىٰ ترجمةٍ له فيما بيـن أيدينا من المصادر، سـوىٰ ترجمـةٍ لأبي الحسين ــ وليس الحسن ــ الحدّاد الهروي، من الصوفية المجاورين بمكة، له ترجمةٌ وحيدة في «نفحات الأنْس» للملاّ عبد الرحمٰن الجامي (١: ٣٩٨ ــ ٣٩٩).

البَطن، وصُحبةِ الزُّهّادِ في الدُّنيا.

وكانَ سُفيانُ الثوريُّ رحِمَهُ اللّهُ يقول: اشتغَلَ محمدُ بنُ يُوسُفَ[١] رحمه اللّهُ بالعِبادةِ فأورثَتْهُ الحِكمةَ، واشتغَلْنا بِكتابةِ العِلم، فأورثَتْنا الخُصُومات. يعني بذلكَ الجدَل.

وكانَ يحيىٰ بنُ مُعاذٍ يقول: تَهوِي الحِكمةُ مِنَ السَّماءِ فلا تَنزِلُ علىٰ قلبٍ فيهِ هذهِ الأربعُ الخِصال: الرُّكونُ إلىٰ الدنيا، وحمْلُ همِّ غدٍ، وحسَدٌ لأَخ، وحبُّ شرفٍ علىٰ الناس، فمَن كانَ فيهِ خَصلَةٌ مِن هذهِ فلا تَدخُلُ قلبَهُ حِكمة. انتهىٰ.

وقالَ أبو عثمانَ الحِيْرِيُّ رحِمَهُ اللّه: مَن أمَّرَ السُّنَّةَ علىٰ نفْسِهِ: قولاً وفعلاً، نطَقَ بالحِكمة، ومَن أمَّرَ الهَوىٰ علىٰ نفْسِهِ نطَقَ بالبِدعة.

وقالَ عيسىٰ عليهِ السّلامُ لأَصحابِه: أينَ تنبُتُ الحَبّة؟ قالوا: في الأَرض، قالَ: كذلكَ الحِكمةُ لا تنبُتُ إلا في قلبٍ مثلِ الأَرض. يعني متواضعٍ مُنكَسرٍ في غايةِ الذُّلِّ والافتقار.

حديثٌ وحِكايةٌ:

قالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ: «الحِكمةُ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرَفاً، وتَرفَعُ العبدَ المَملُوكَ حتّىٰ تُجلِسَهُ مَجالِسَ المُلُوك»[٢].

---

(١) الزاهد العابد القدوة أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن مَعْدان الأصبهاني (ت ١٨٤هـ). أدرك التابعين، ثم اشتغل بالتعبُّد والزهادة. كان عبد اللّه بن المبارك يسمّيه عروسَ الزهّاد. قال ابنُ مهدي: ما رأيتُ مثلَه. وكان لا يضع جنبه للنوم صيفاً ولا شتاءً. ومات ولم يُجاوز الأربعين سنةً، رحمه اللّه تعالىٰ.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦ : ١٧٣) وابن عدي في «الكامل» (٥ : ١٤٣)، من =

ذكـرَ الإمامُ الغزالـيُّ في «الإحيـاءِ» عـن سالـمِ بْنِ أبـي الجَعْدِ[١] قـال: اشتراني مَولايَ بثلاثِمئةِ دِرْهمٍ وأعتَقَني، فقلتُ: بأيِّ شيءٍ أحتَرِف؟ فاحترَفْتُ بالعِلم، فما تمّتْ سنةٌ حتىٰ أتاني أميرُ المدينةِ زائراً فلم آذَنْ له.

وذكـرَ الإمـامُ عليُّ بنُ حَسَنٍ العطّاسُ في كتابـهِ «القِرطاس»: أنّ الشيخَ ياقوتاً الحَبَشيَّ[٢] دخَلَ عليهِ شريفٌ بثِياب رَثّةٍ ووجَدَه بثياب عاليةٍ غالية، فقالَ الشريـفُ: أنتَ يا ثعلـبَ الشفائر، يا مُشقَّـقَ الحوافِـر، عبدٌ بهـذا الحـالِ وأنا شَريـفٌ بهذا الحال؟! فقالَ ياقـوت: لعلَّكَ نَهَجْـتَ منهـجَ آبائي فحَسِبُوكَ منهُم وأنزَلُوكَ منزِلتَهم، ونَهَجْتُ أنا منهجَ آبائكَ فحَسِبُوني منهُم وأنزَلُوني منزلتَهم. فبكىٰ الشريفُ وٱعتَذَرَ له.

ووَقعَ له أيضاً أنه دخلَ عليهِ شَريفٌ فرأىٰ الناسَ يقبِّلُونَ رِجْلَه ولا يَلتفِتونَ إليهِ هُو، فأخذَ في نفسه مِن ذلك، فقالَ له ياقُوت: يا سيّدِي، إنّ كَوارِعِي لو قُطِّعَت لا تُساوِي دِرْهَمَينِ في السُّوق، ولكنّي لَمّا تَبِعْتُ سَلفَكَ الطاهِرَ اكتسَبْتُ الشـرَفَ، وأنتَ لَمّا خالَـفْتَ سَلَفَكَ في أخلاقِهـم وتَخلَّقْـتَ بالرَّذائلِ أُهِنْـتَ. فسكتَ الشريفُ ولـم يَرُدَّ جواباً.

= حديث أنس رضيَ اللّه عنه.

(١) التابعي الفقيه، المحدِّث الثقة، سالم بن أبي الجعد الأشجَعي الغَطَفاني مولاهم، الكوفي (ت ١٠٠هـ). قال الحافظ الذهبي: كان من نبلاء الموالي وعلمائهم... وحديثُه مخرَّجٌ في الكتب الستة. رحمه اللّه تعالىٰ.

(٢) الولي العـارف أبو الدُّر ياقوت بن عبد اللّه العرشي الشاذلي (ت ٧٠٧هـ)، من كبار أصحـاب الإمام أبي العبّاس المرسي. كان صالحـاً عابداً ذا هيبـةٍ ووقار، من ذوي المكاشفـات وكان حَبَشيـاً. وفاتـه بالإسكندريـة، وله فيهـا مقامٌ مقصـودٌ بالزيارة والتبرُّك، قريبٌ من شيخه المرسي.

وكـانَ الشيـخُ ياقـوتٌ المَذكُـورُ مِن أكابـرِ تلامِـذةِ الشيخِ أبي العبّـاس المُرْسِي، وقد سَمّاه شيخُـه أبو العبّـاسِ بياقـوتٍ العَرْشيّ؛ لأنّ قلبَه كان دائماً ينظُرُ إلىٰ العَرْش، ليسَ في الأرضِ إلا بَدَنُه. مـاتَ الشيخُ ياقوتٌ بالإسكَندرِيةِ سنةَ سبعِمئةٍ وسَبْع. انتهىٰ، ذكرَ ذلك كلَّه في كتابِ «القِرطاس».

❊ ❊ ❊

الفصل الأوّل
في حكم لقمان الحكيم عليه السّلام

قال القُرطُبيُّ: كانَ لُقمانُ ٱبنَ أُختِ أيوبَ عليهِ السّلام، عاشَ ألفَ عام. واتَّفقَ العلماءُ أنّهُ غيرُ نبيّ، وقالَ عِكرِمةُ والشَّعبِيُّ: إنّهُ نبيّ. وقالَ ﷺ في حقه: «كانَ عبْداً كثيرَ التَّفكُّرِ حسَنَ اليقينِ، أَحَبَّ اللّهَ تعالىٰ فأحَبَّهُ، ومَنَّ عليهِ بالحِكْمة»[١]. ذكرَهُ في «نزهةِ المَجالس».

وقالَ في «حاشيةِ الجَملِ علىٰ الجَلالَين»: كانَ لُقمانُ الحكيمُ يؤازِرُ داودَ عليهِ السَّلامُ لحِكمتِه، وقيلَ: كانَ راعيَ غنَم. رُويَ أنّهُ لَقِيَهُ رجلٌ وهُوَ يتكلَّمُ بالحِكمةِ فقال: ألستَ فلاناً الراعي؟ قال: بلىٰ، قال: بمَ بلغْتَ ما بلغتَ؟ قال بصِدْقِ الحديثِ وأَداءِ الأَمانةِ وتَرْكِ ما لا يَعنيني.

ومِن حِكَمِهِ عليه السّلامُ وصيّتُهُ الجامِعةُ لابِنه، مِنها قولُه:

يا بُنيّ، اتّخِذْ تقوىٰ اللّهِ تعالىٰ تجارةً يأْتِكَ الرِّبحُ مِن غيرِ بضاعة.

يا بُنيّ، لا تكنْ أعجَزَ مِن هذا الدِّيكِ الذي يُصوِّتُ بالأَسْحارِ وأنتَ نائمٌ علىٰ فِراشِك.

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣: ٤٥٠)، من حديث ابن عمر رضيَ اللّه عنهما.

يا بُنيّ، لا تؤخِّرِ التوبة، فإنَّ الموتَ يأتي بَغْتة.

يا بُنيّ، ما نَدمِتُ علىٰ الصّمتِ قطّ، فإنّ الكلامَ إذا كانَ مِن فضّةٍ كانَ السُّكوتُ مِن ذهَب.

يا بُنيّ، اعتزِلِ الشرَّ كيما يعتزِلُك، فإنّ الشرَّ للشرِّ خلَف.

يا بُنيّ، عليكَ بمجالسِ العلماء، واستمعْ كلامَ الحُكماء، فإنّ اللّهَ تعالىٰ يُحيي القلبَ الميّتَ بنورِ الحِكْمةِ كما يُحيي الأَرضَ الميّتةَ بوابِلِ المطَر.

يا بُنيّ، لا يأكُلْ طَعامَكَ إلا الأتقياء، وشاوِرْ في أمرِكَ العلماء.

يا بُنيّ، إنّ الدنيا بحرٌ عميقٌ قد غرِقَ فيهِ ناسٌ كثير، فاجْعَلْ سَفينتَكَ فيها تقوىٰ اللّه، وحَشْوَها الإيمانَ به، وشِراعَها التوكّلَ علىٰ اللّه، لعلَّكَ تَنجو.

يا بُنيّ، إنّي حمَلْتُ الجَنْدَلَ والحديدَ فلم أحمِلْ شيئاً أثقلَ مِن جارِ السُّوء، وذُقتُ المَراراتِ كلَّها فلم أذُقْ أشدَّ منَ الفقر.

يا بُنيّ، إنّ الحِكْمةَ أجلسَتِ المَساكينَ مجالسَ الملوك.

يا بُنيّ، لا تتعلَّمْ ما لا تعلَمُ حتىٰ تعمَلَ بما تعلَم.

يا بُنيّ، إذا أردتَ أن تُؤاخِيَ رجلاً فأغضِبْهُ قبلَ ذلك، فإن أنصَفَكَ عندَ غضبِهِ وإلا فٱحذَرْه.

يا بُنيّ، عوِّدْ لِسانَكَ أن تقول: «اللّهُمَّ ٱغفِرْ لي»، فإنّ للّهِ ساعاتٍ لا تُرَدّ.

يا بُنيّ، إياكَ والدَّيْن، فإنّهُ ذُلٌّ في النّهارِ وهَمٌّ في اللّيل.

يا بُنيّ، أُرْجُ اللّهَ رجاءً لا يُجرِّئُكَ علىٰ مَعصِيتِه، وخَفِ اللّهَ خوفاً لا يؤيِّسُكَ مِن رحمتِه. انتهىٰ مُلخَّصاً من «حاشيةِ الجمَل».

ومنَ المأثورِ عنهُ قولُه: إذا ٱمتلأتِ المَعِدةُ نامَتِ الفِكرةُ وخَرِسَتِ

الحِكمةُ، وقعَدتِ الأعضاءُ عنِ العبادة.

ورُويَ أنّهُ دفَعَ إليهِ سيّدُهُ شاةً وقالَ له: اذبَحْها وائْتِني بأطيبِ ما فيها، فأتاهُ بالقلبِ واللِّسان، ثمَّ بعدَ أيام دفَعَ إليهِ شاةً أخرىٰ وقالَ له: اذْبَحْها وائْتِني بأخبَثِ ما فيها، فأتاهُ بالقلبِ واللِّسان، فسألَهُ عن ذلكَ فقال: هُما أطيبُ شيءٍ إذا طابا، وأخبَثُ شيءٍ إذا خَبُثا. انتهىٰ.

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني
في عيون الحكمة المأثورة من كلمه ﷺ

أوتِيَ نبيُّنا عليهِ أفضَلُ الصّلاةِ والسّلامِ مِن جَوامعِ الكلِمَ ما لم يُؤتَ أحدٌ منَ الأوّلينَ والآخِرينَ منَ الخلائقِ أجمَعين، وحَوَت كلماتُه ﷺ عُيُونَ الحِكمةِ ولُبابَ الفضائل، قال: «أُعْطِيتُ جَوامعَ الكَلِم، واخْتُصِرَ لي الكلامُ اختصاراً»(١).

قالَ الإمامُ ابنُ شِهابٍ الزُّهْريُّ رحمه اللّه في معنىٰ حديثِ: «بُعِثْتُ بجَوامعِ الكَلِم»(٢) قالَ: بلَغَني أنّ معنىٰ جَوامعِ الكلِمِ أنّ اللّهَ يجمَعُ لهُ الأمورَ الكثيرةَ التي كانتْ تُكتَبُ في الكتُبِ قبلَهُ في الأمرِ الواحدِ والأمرَينِ ونحوِ ذلك. انتهىٰ(٣).

***

---

(١) أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» من حديث عمر بن الخطّاب رضيَ اللّه عنه، كما في «مجمع الزوائد» (١ : ١٧٣)، وفي سنده راوٍ ضعيف. وأول الحديث بنحوه في الصحيحين كما سيأتي.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٣) ومسلمٌ (٥٢٣)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٣) نقله الإمام البخاري في «صحيحه» (١٢ : ٤٠١ فتح الباري).

قـالَ الإمامُ النّبهانيُّ[١] في «الأنوارِ المُحمّديّـة»[٢]: وممّـا عُدَّ مِن وُجُوهِ بلاغتِـهِ ﷺ أنّهُ جمَـعَ مُتفرِّقاتِ الشرائـعِ وقـواعدَ الإسلامِ في أربعـةِ أحاديثَ، وهي:

ـ حديثُ: «إنّما الأَعمالُ بالنِّـيَّات». رَواهُ الشّيخان[٣].

ـ وحديثُ: «الحَلالُ بَـيِّنٌ والحَرامُ بَـيِّن». رواهُ مسلم[٤].

ـ وحديثُ: «البَـيِّنةُ علىٰ المُدَّعِي واليَمِينُ علىٰ مَنْ أنكَر»[٥].

ـ وحديثُ: «لا يَكْمُلُ إيمانُ المرءِ حتىٰ يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لِنفْسِه». رواهما الشّيخان[٦].

فالحديـثُ الأوّلُ يشتمِلُ علىٰ رُبـعِ العبـادات، والحديثُ الثاني يشتمِلُ

---

(١) العلاّمـة الأديـب الشاعر القاضـي، الشيخ يوسـف بن إسماعيل بن يوسـف النبهاني (١٢٦٥ ــ ١٣٥٠هـ). مولده ونشأته بقرية (إجْزِم) بفلسطين، تعلم بالأزهر، وتنقل في الوظائـف إلىٰ أن استقرَّ رئيسـاً لمحكمـة الحقوق ببيروت دهـراً. وعند نشـوب الحرب العالمية الأولىٰ عاد إلىٰ قريته وتوفي بها. تفرَّد في العناية بمدح المصطفىٰ ﷺ حتىٰ حُقَّ أن يلقَّبَ: بوصيريَّ العصر. وله مصنفاتٌ كثيرة. رحمه اللّه تعالىٰ.

(٢) «الأنـوار المحمدية» اختصر فيه «المواهبَ اللدنية بالمِنَح المحمدية» للإمـام شهـاب الدين القسطلاني.

(٣) البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)، من حديث عمر بن الخطّاب رضيَ اللّه عنه. تقدم.

(٤) مسلم (١٥٩٩) وهو في البخاري أيضاً (٥٢)، من حديث النعمان بن بشير رضيَ اللّه عنه.

(٥) أخرجـه البيهقـي في «السنن الكبير» (١٠ : ٢٥٢)، من حديث ابن عباس رضيَ اللّه عنهما، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (٥ : ٢٨٣).

(٦) البخـاري (١٣) ومسلـم (٤٥)، من حديث أنـس رضيَ اللّه عنه، بلفظ: «لا يؤمـن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

على ربعِ المُعاملات، والحديثُ الثالثُ يشتمِلُ علىٰ ربعِ الحكوماتِ وفصْلِ الخصوماتِ، والحديثُ الرابعُ يشتمِلُ علىٰ ربعِ الآدابِ والمُناصَفات، ويدخُلُ تحتَهُ التحذيرُ منَ الجِنايات. قالَهُ ابنُ الأثير. انتهى.

* * *

وقالَ الإمامُ أبو محمّدٍ عبدُ اللّهِ بنُ أبي زَيدٍ[1] رحِمَهُ اللّه: جِماعُ آدابِ الخيرِ يتفرَّعُ مِن أربعةِ أحاديث:

قولِ النبيِّ ﷺ: «مَنْ كانَ يُؤمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خيراً أوْ لِيَصْمُتْ»[2].

وقولِهِ ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيه»[3].

وقولِهِ ﷺ للّذي اختصَرَ لهُ الوصِيّة: «لا تَغْضَبْ»[4].

وقولِهِ ﷺ: «لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حتّىٰ يُحِبَّ لأَخِيهِ ما يحِبُّ لِنفْسِه»[5]. واللّهُ أعلم. انتهىٰ. مِن «شرحِ مسلم» للنّوَويّ.

* * *

وقالَ الإمامُ أبو الحسنِ المَاوَرْدِيُّ[6] رحِمَهُ اللّه:

---

(١) الإمام الفقيه أبو محمد عبد اللّه بن أبي زيد القيرواني المالكي (٣١٠ ـ ٣٨٦هـ)، صاحبُ «الرسالةِ» المتنِ الشهير في فقه المالكية. أحدُ كبار أئمة المذهب ورُفَعائه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٣٦) ومسلمٌ (٤٧)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٧) وابن ماجَهْ (٣٩٧٦)، من حديث أبي هريرةَ رضي اللّه عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٦١١٦)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٥) تقدَّم تخريجه وأنه في الصحيحين.

(٦) الإمام الكبير أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي (ت ٤٥٠هـ). =

ـ مِن كلامِهِ ﷺ الذي لا يُشاكَلُ في إيجازِهِ:

قولُهُ ﷺ: «النّاسُ بزَمانِهِم أَشْبَهُ مِنْهُمْ بآبائِهِم»[1].

وقولُهُ ﷺ: «ما هَلَكَ امرؤٌ عرَفَ قَدْرَه»[2].

وقولُهُ ﷺ: «لو تكاشَفْتُم ما تَدافَنْتُم»[3].

وقولُهُ ﷺ: «السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيرِهِ»[4].

وقولُهُ ﷺ: «حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي ويُصِم»[5].

وقولُهُ ﷺ: «العِدَةُ عَطِيَّة»[6].

وقولُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ طَمَعٍ يَهْدِي إِلَى طَبْع»[7].

= قال تاج الدين السبكي فيه: كان إماماً جليلاً رفيع الشأن، له اليد الباسطة في المذهب، والتفنّن التام في سائر العلوم. من مصنفاته السائرة: «الحاوي» في الفقه، و«أدب الدنيا والدين»، و«الأحكام السلطانية»، وغيرها.

(١) إنما هو من قول عمرَ رضيَ اللّه عنه، وقيل: من قول عليّ كرّم اللّه وجهه، قال المُلاّ علي القاري: وهو الأشهر. «كشف الخفاء» (٢: ٤١٢).

(٢) لم نقف عليه مرفوعاً فيما بين أيدينا من المصادر.

(٣) لم نقف عليه مرفوعاً فيما بين أيدينا من المصادر.

(٤) أخرجه ابن ماجه(٤٦) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضيَ اللّه عنه، مرفوعاً، لكنّ مسلماً أخرجه في «صحيحه» (٢٦٤٥) من كلام ابن مسعود موقوفاً عليه.

(٥) أخرجه أبو داود (٥١٣٠) وأحمد (٥: ١٩٤)، من حديث أبي الدرداء رضيَ اللّه عنه.

(٦) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢: ٢٠٩) من حديث قَبَاث بنِ أَشْيَم رضي اللّه عنه.

(٧) أخرجه أحمد في «المسند» (٥: ٢٣٢)، من حديث معاذ بن جبل رضيَ اللّه عنه، بلفظ: «استعيذوا باللّه من...».

وقولُهُ ﷺ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ جُهْدُ المُقِلِّ»(١).

وقولُهُ ﷺ: «تَرْكُ الشَّرِّ صَدَقَةٌ»(٢).

وقولُهُ ﷺ: «الخَيرُ كثيرٌ وقليلٌ فاعِلُه»(٣).

وقولُهُ ﷺ: «نَزَلَتِ المَعُونةُ علىٰ قَدْرِ المَؤُونة»(٤).

وقولُهُ ﷺ: «أَدِّ الأَمَانَةَ إِلىٰ مَنِ ائْتَمَنَك، ولا تَخُنْ مَنْ خَانَك»(٥).

وقولُهُ ﷺ: «المُؤمِنُ غِرٌّ كريم، والفاجِرُ خِبٌّ لَئِيم»(٦).

وقولُهُ ﷺ: «الدُّنيا سِجْنُ المُؤمِنِ وبَلاؤُه، وجَنَّةُ الكافرِ ورِضاؤُه»(٧).

ـ ومِن كلامِهِ ﷺ الذي لا يُشاكَلُ في فَصاحتِهِ قولُهُ ﷺ: «ثَلاثٌ مُنْجِياتٌ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٤٩) والنسائي (٢٥٢٧)، من حديث عبد اللّه بن حبشي الخثعمي رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن حبّان في «المجروحين» (١: ١٥٥) من رواية وضّاع، لكنْ في البخاري (٦٠٢٢) ومسلم (١٠٠٨) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضيَ اللّه عنه: «يمسك عن الشر فإنها صدقة».

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣: ٢٨٢)، من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنهما.

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧: ١٩٠)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه، بلفظ: «أنزلَ اللّه عزّ وجلّ المعونةَ علىٰ قدر المؤونة».

(٥) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه. قال الترمذي: حسنٌ غريب.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٧٩٠) والترمذي (١٩٦٤)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه. قال الترمذي: حديثٌ غريب.

(٧) أخرجه مسلمٌ (٢٩٥٦)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه، بلفظ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

وثَلاثٌ مُهْلِكات: فأمَّا المُنْجِياتُ فخَشْيَةُ اللَّهِ تعالىٰ في السِّرِّ والعَلانِيَة، والاقْتِصادُ في الغِنَىٰ والفَقْر، والحُكْمُ بالعَدْلِ في الرِّضىٰ والغَضَب. وأمَّا المُهْلِكاتُ فَشُحٌّ مُطاع، وهوىً مُتَّبَع، وإعجابُ المَرْءِ بِنَفْسِه»[1].

وقولُهُ ﷺ في بعضِ خُطَبِه: «ألا إنَّ الأَيامَ تُطْوىٰ، والأَعمارَ تفْنىٰ، والأَبدانَ في الثَّرىٰ تَبْلىٰ، وإنَّ الليلَ والنَّهارَ يَتَراكَضانِ تَراكُضَ البَريد، يُقَرِّبانِ كُلَّ بعيدٍ، ويُخْلِقانِ كُلَّ جديدٍ، وفي ذلِكَ ــ عِبادَ اللَّهِ ــ ما أَلْهىٰ عنِ الشَّهَوات، ورغَّبَ في الباقياتِ الصَّالِحات»[2].

وقولُهُ ﷺ في بعضِ خُطَبِهِ وقد خافَ من أصحابِهِ فَترةً: «أيُّها الناسُ، كأَنَّ الموتَ فيها علىٰ غيرِنا كُتِب، وكأَنَّ الحقَّ فيها علىٰ غيرِنا وَجَب، وكأَنَّ الذي نُشَيِّعُ منَ الأَمواتِ سَفْرٌ عمَّا قليلٍ إلينا راجِعون. نُبوِّؤُهُمْ أَجْداثَهُمْ، ونأكُلُ تُراثَهُمْ كأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ، قَدْ نَسينا كُلَّ مَوْعِظة، وأَمِنَّا كُلَّ جائِحة. طُوبىٰ لِمَنْ شَغَلَتْهُ آخِرتُهُ عنْ دُنياهُ، وطُوبىٰ لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عنْ عُيُوبِ النّاس»[3]. انتهىٰ مُلخَّصاً. مِن «جواهرِ البحار»[4] للنَّبهانيِّ رحِمَهُ اللّه.

* * *

---

(١) سيأتي هذا الحديث قريباً بلفظه التام مع تخريجه.

(٢) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر الحديثية.

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعَب» (٧: ٣٥٥) من حديث أنس رضيَ اللّه عنه، دون جملة: «طوبىٰ لمَن شغلته آخرته. . . إلخ». وأخرجه البزّار كما في ترجمته من «سِيَر أعلام النبلاء» (١٣ : ٥٥٧). قال الحافظ الذهبي هناك: هذا حديثٌ واهي الإسناد. . . ولا يصح لهذا المتْن إسناد.

(٤) اسمُه كاملاً: «جواهر البحار في فضائل النبي المختار ﷺ»، في أربعة أجزاء، مطبوع.

ومِن جَوامعِ كلامِهِ ﷺ ما رَواهُ ابنُ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُما مرفوعاً:

«ثَلاثٌ مُهْلِكاتٌ وثَلاثٌ مُنْجِياتٌ وثَلاثٌ كَفَّاراتٌ وثَلاثٌ دَرَجاتٌ: فأمَّا المُهْلِكـاتُ فشُحٌّ مُطاع، وهوىً متَّبَـع، وإعجابُ المرءِ بنَفْسِه. وأمَّا المُنْجِياتُ فالعَـدْلُ في الغضَب والرِّضىٰ، والقَصْـدُ في الفَقْرِ والغِنىٰ، وخَشْيَةُ اللّهِ في السِّرِّ والعَلانِيَـة. وأمَّا الكَفَّاراتُ فانتِظارُ الصَّـلاةِ بعـدَ الصَّلاة، وإسْبـاغُ الوُضوءِ في السَّبَـراتِ[1]، ونقْلُ الأَقْدامِ إلىٰ الجماعـات. وأَمَّا الدَّرَجـاتُ فإطعامُ الطَّعام، وإفْشاءُ السَّلام، والصَّلاةُ باللَّيلِ والنَّاسُ نِيَام»[2].

* * *

قالَ الإمامُ الشِّبْليُّ رحِمَهُ اللّه: قرأتُ أربعةَ آلافِ حديث، ثم ٱختَرتُ مِنها حديثـاً واحـداً عمِلْـتُ بـه، وخلَّيْـتُ ما سِواه؛ لأنّي تأمَّلتُـهُ فوجَـدتُ خَلاصي ونَجاتي فيه، وكأنَّ عِلمَ الأوّلينَ والآخِرينَ كلُّهُ مندرِجٌ فيه، فاكتفَيْتُ به، وذلكَ أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قالَ لبعضِ أصحابِه:

«اِعْمَلْ لِدُنياكَ بقَـدْرِ مُقامِكَ فيها، واعمَـلْ لآخِرَتِـكَ بقَدْرِ مُقامِكَ فيها، واعمَلْ لِلجَنَّـةِ بقَدْرِ حاجَتِكَ إليهـا، واعمَـلْ لِلنَّارِ بقَدْرِ صَبْرِكَ عنها»[3]. ذكَرَ ذلكَ الإمامُ الغزاليُّ في رسالتِهِ: «أيّها الوَلَد».

كـانَ عبدُ اللّهِ ابنُ المُبارَكِ رحمَـهُ اللّهُ يقـول: أربعُ كلماتٍ انتُخِبتْ مِن أربعةِ آلافِ حديث: لا تَثِقَنَّ بٱمرأة، ولا تغْترَّنَّ بمال، ولا تُحمِّلَنَّ مَعِدتَكَ ما لا

---

(١) قال ابنُ الأثير في «النهاية» (٢: ٣٣٣): جمعٌ سَبْرة بسكون الباء، وهي شدّة البرد.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشُّعَب» (٥: ٤٥٢)، من حديث أبي هريرةَ، والبزّار (٨٠ كشف الأستار) من حديث أنس، والطبراني في «الأوسط» (٦: ٤٧) من حديث ابن عمر. قال في «الترغيب والترهيب» (١: ٣٦٢): «... وهو مرويٌّ عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيءٌ منها من مقال فهو بمجموعها حسنٌ إن شاء اللّه».

(٣) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر.

تُطيق، وتعلَّمْ منَ العِلمِ ما ينفَعُكَ فقطْ.

***

ومِن جَوامعِ كلمِهِ ﷺ هذهِ الأحاديثُ المُسمّاةُ «السلسلةَ الإبْريزيّةَ، المَرْوِيّةَ مِن طريقِ العِتْرةِ النبَويّةِ والشجَرةِ العَلَويّةِ»، رواها سيّدُنا الإمامُ العارفُ باللّهِ أحمدُ بنُ زينٍ الحَبشِيُّ، عنِ الإمامِ العلاّمةِ الوجيهِ عبدِ اللّهِ بنِ أحمدَ بلفقيه[1]، نَفَعَنا اللّهُ بِهما وبأسلافِهما الصّالحينَ، بسنَدِهمُ المتّصِلِ بجَدِّهم سيّدِ المرسَلينَ وأكرمِ الأَوّلِينَ والآخِرين، عليهِ أفضلُ صلاةِ المُصَلّينَ وأزكىٰ سلامِ المُسلِّمينَ إلىٰ يومِ الدِّين.

ولْنذكُرِ الأحاديثَ المذكورةَ مقتَصِرينَ علىٰ لفظِ النبوّة، وهيَ:

قولُه ﷺ: «ليسَ الخبَرُ كالمُعايَنة».

وقولُه ﷺ: «المجالسُ بالأَمانة».

وقولُه ﷺ: «الحرْبُ خُدْعة».

وقولُه ﷺ: «المسلِمُ مِرآةُ المسلِم».

وقولُه ﷺ: «الدَّالُّ علىٰ الخيرِ كفاعِلِه».

وقولُه ﷺ: «المُسْتَشارُ مؤتمَن».

---

(١) السيد الشريف العلاّمة الفقيه الصوفي عبد اللّه بن أحمد بلفقيه العلوي الحسيني، مولده بتريم سنةَ (١٠٤٣هـ) وبها توفي سنةَ (١١١٢هـ). كان من أقران الإمام الحداد وأعزّ أصدقائه، أخذ عن جمع من العلويين، وبالحجاز عن القشاشي وطبقته، أخذ عنه ابن عمه الحبيب عبد الرحمٰن بن عبد اللّه، والحبيب أحمد بن زين الحبشي، وغيرهما. له من المصنفات «وصلة السالكين بوصل البيعة والتلقين»، مخطوط، وغيره.

وقولُه ﷺ: «استَعِينوا علىٰ الحَوائجِ بالكِتْمانِ».

وقولُه ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تمْرة».

وقولُه ﷺ: «الدُّنيا سِجْنُ المؤمنِ وجَنَّةُ الكافر».

وقولُه ﷺ: «الحَياءُ خيرٌ كلُّه».

وقولُه ﷺ: «عِدَةُ المؤمنِ كأَخْذِ الكَفّ».

وقولُه ﷺ: «ليسَ مِنَّا مَنْ غشَّنا».

وقولُه ﷺ: «ما قلَّ وكَفىٰ خيرٌ مِمَّا كثُرَ وألْهىٰ».

وقولُه ﷺ: «البَلاءُ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِق».

وقولُه ﷺ: «النَّاسُ كأَسنانِ المِشْط».

وقولُه ﷺ: «الغِنىٰ غِنىٰ القلب».

وقولُه ﷺ: «السَّعيدُ منْ وُعِظَ بغيرِه».

وقولُه ﷺ: «إنّ منَ الشِّعْرِ لَحِكمَة».

وقولُه ﷺ: «عَفْوُ الملوكِ أَبقىٰ لِلمُلْك».

وقولُه ﷺ: «المرءُ معَ منْ أَحَبّ».

وقولُه ﷺ: «ما هَلَكَ امرؤٌ عرَفَ قَدْرَه».

وقولُه ﷺ: «الولدُ للفِراشِ، ولِلعاهرِ الحجَر».

وقولُه ﷺ: «اليَدُ العُلْيا خيرٌ منَ اليدِ السُّفلىٰ».

وقولُه ﷺ: «لا يشكُرُ اللَّهَ مَنْ لا يشكُرُ النَّاس».

وقولُه ﷺ: «حُبُّكَ الشيءَ يُعْمِي وَيُصِمّ».

وقولُه ﷺ: «جُبِلَتِ القلوبُ علىٰ حُبِّ منْ أحسَنَ إِليها وبُغْضِ منْ أساءَ إِليها».

وقولُه ﷺ: «التَّائِبُ منَ الذَّنبِ كمَنْ لا ذنبَ له».

وقولُه ﷺ: «الشَّاهِدُ يرىٰ ما لا يرىٰ الغائب».

وقولُه ﷺ: «إِذَا جاءَكُمْ كريمُ قوْمٍ فأكْرِمُوه».

وقولُه ﷺ: «اليَمِينُ الفاجرةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاقِـع».

وقولُه ﷺ: «منْ قُتِلَ دُونَ مالِهِ فهُوَ شَهِيد».

وقولُه ﷺ: «الأَعْمالُ بالنِّـيَّات».

وقولُه ﷺ: «سَيِّدُ القوْمِ خادِمُهُمْ».

وقولُه ﷺ: «خيْرُ الأُمورِ أَوْسَطُها».

وقولُه ﷺ: «اللَّهُمَّ بارِكْ لأُمَّتِي في بُكُورِها يومَ الخمِيس».

وقولُه ﷺ: «كادَ الفَقْرُ أنْ يكونَ كُفْراً».

وقولُه ﷺ: «السّفَرُ قِطْعَةٌ منَ العَذاب».

وقولُه ﷺ: «لا يَحِلُّ لِمسلمٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثةِ أَيامٍ».

وقولُه ﷺ: «الرَّاجِعُ في هِبَتِهِ كالرَّاجِعِ في قَيْئِه».

وقولُه ﷺ: «خيْرُ الزَّادِ التَّقْوىٰ»[1].

---

(١) هذه الأحاديث الأربعون هي المعروفة عند أهل الحديث بـ: المسلسلة بالأشراف، وهي صحيحةٌ حسنةٌ في غالبها، وفيها بعض المناكير. وقد اعتنىٰ بروايتها عددٌ من الحفاظ والمحدِّثين في مصنفاتهم، كالسخاوي في «الجواهر المكللة»، والسيوطي =

انتهتِ الأحاديثُ الشريفة، مَنقولةً مِن كتابِ «قرّةِ العين» للإمام مِحمّدِ بنِ زَينِ بنِ سُمَيطٍ رحِمَهُ اللّهُ ونفَعَنا به[(١)].

❊ ❊ ❊

= في «جياد المسلسلات»، وابن الطيب والنخلي وابن عقيلة، ومن المتأخرين اللكنوي في «المناهل المسلسلة»، والشيخ حمدان المحرسي، والفاداني في كثير من كتبه كـ: «إتحاف الإخوان بأسانيد عمر حمدان»، و«العجالة في الأحاديث المسلسلة»، وغيرها.

(١) وسند ساداتنا العلويين بهذه الأحاديث الشريفة مسلسلٌ بهم رضيَ اللّه عنهم علىٰ مقتضىٰ شرط أهل الحديث، فقد رواها الإمام محمد بن زين بن سميط عن الإمام أحمد بن زين الحبشي، وهو عن الإمام الحداد، وهو عن الإمام محمد بن علوي السقاف صاحب مكة، بأسانيدهم المتصلة.

الفصل الثالث
من الحكم المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام

فمِن حِكَـمِ الإمامِ عليٍّ بنِ أبي طالب رضِيَ اللّهُ عنه قولُهُ: احفَظوا عنّي خمساً، فلو ركِبتُمُ الإبِلَ في طلبِهنَّ لأَنْضَيْتُموهُـنَّ قبلَ أن تُدرِكوهُنّ: لا يَرجو عبدٌ إلا ربَّهُ ولا يخافُ إلا ذنبَه. ولا يَستَحِي جاهلٌ أن يسأَل، ولا يَسْتحِي عالِمٌ ـ إذا سُئِلَ عمّا لا يعلَمُ ـ أن يقـول: «اللّهُ أعلَم». والصّبرُ منَ الإيمانِ بمنزِلةِ الرأسِ منَ الجسد. ولا إيمانَ لمَن لا صبرَ له[١].

قالَ أبو عُبَيدٍ[٢] في «كتـابِ الأمثال»: ارتجَلَ الإمامُ عليٌّ رضِيَ اللّهُ عنهُ تسعَ كلماتٍ قطَعَ الأطمـاعَ عنِ اللَّحـاقِ بواحدةٍ منهُـنّ: ثلاثٌ في المُناجـاة، وثلاثٌ في العلمِ، وثلاثٌ في الأدب. فأمّا التي في المُناجاةِ فقولُه: كَفاني عِزّاً أن تكونَ لي ربّاً، وكَفاني فخْراً أن أكـونَ لكَ عبداً، أنتَ لي كما أحبُّ فوفِّقْني لمَا تُحـبّ. وأمّا التي في العِلـمِ فقولُـه: المرءُ مَخبوءٌ تحتَ لِسانِـه، تكلَّمـوا

(١) أخرجه عن الإمام علي: أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١ : ٧٦).

(٢) الإمـام الحافظ المجتهد ذو الفنـون أبو عبيـد القاسم بن سـلّام (١٥٧ ـ ٢٢٤هـ)، صاحب التصانيف الفائقة التي سارت بها الركبان، كـ«الأموال» و«الغريب» و«فضائل القرآن». وفي هامش «سِيَر النبلاء» (١٠ : ٤٩٤) تعريـفٌ بكتـاب «الأمثال» المنقول عنه هنا.

تُعرَفوا، ما ضاعَ امرؤٌ عرَفَ قدْرَه. وأمّا التي في الأدبِ فقولُه: أنعِمْ علىٰ مَن شئـتَ تكنْ أميرَه، واستَغْنِ عمّنْ شئتَ تكنُ نظيرَه، واحتَجْ إلىٰ مَن شئتَ تكنْ أَسيرَه. انتهىٰ.

ومِن كلامِهِ رضِيَ اللّهُ عنه: التقوىٰ: تَرْكُ الإصرارِ علىٰ المَعصِيةِ وتَرْكُ الاغتِـرارِ بالطاعة. إنّ للّهِ آنيةً في الأرض، وهِـيَ القلـوب، فخَيـرُها أصفـاها وأصلبُها وأرَقُّها: أصفاها في اليقينِ وأصلبُها في الدِّينِ وأرَقُّها علىٰ المؤمنين. الشريـفُ كلُّ الشريفِ مَن شرَّفَـهُ عِلْمُـه، والسُّـؤدُدُ حقُّ السُّؤددِ منِ اتقّىٰ ربَّـه، والكريمُ مَن أكرَمَ عن ذُلِّ النارِ وجهَه.

وقالَ نفع اللّهُ به: هَبْ أنّ اللّهَ قد تجاوَزَ عـنِ المُسيئين، أليسَ قد فاتَهُم ثوابُ المُحسنين؟! انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: ألا إنّ الدنيـا قد ترحّلَـتْ مُدبِرة، وإنّ الآخرةَ قد ترحّلَـتْ مُقبِلة، ولكلٍّ واحدةٍ منهُما بَنُون، فكونـوا مِن أبناءِ الآخرةِ ولا تكونوا مِن أبناءِ الدنيا، فإنّ اليومَ عمَلٌ ولا حِساب، وغداً حِسابٌ ولا عمَل. انتهىٰ[١].

* * *

ومِن ذلكَ ما يُـروىٰ عنِ الإمامِ الحسَـنِ بنِ علـيّ[٢] ــ سِبطِ رسولِ اللّهِ ﷺ ــ قالَ رضِيَ اللّهُ عنه: كنْ في الدنيا ببدَنِك، وفي الآخرةِ بقلبِك.

وكانَ يقـولُ لِبَنِيـهِ وبني أخيه: تعلَّمـوا العِلـم، فـإنْ لـم تستطيعوا حِفظَهُ

---

(١) ذكره أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١ : ٧٦).

(٢) سيدُنا الإمامُ السيّد، ريحانةُ رسول اللّه ﷺ وسِبطه والمشبَّه به ﷺ، وسيّد شباب أهل الجنّـة، أبو محمد القرشي الهاشمي المَدَنـيّ الشهيـد (٣ ــ ٤٩هـ)، رضـيَ اللّه عنه وأرضاه.

فاكتُبوهُ وضَعُوهُ في بيوتِكم.

***

وممّا يُروىٰ عن أخيهِ الإمـامِ الحُسينِ بنِ عليٍّ[١] رضِيَ اللّٰهُ عنهُما قولُه: اعلَمـوا أنّ حوائجَ الناسِ إليكُم مِن نِعَـمِ اللّٰهِ عزَّ وجَلَّ عليكُم، فلا تمَلُّوا النِّعمَ فتعـودَ نِقَمـاً، واعلَموا أنّ المعروفَ يُكسِبُ حمـداً ويُعقِـبُ أجـراً، فلو رأيتُمُ المعروفَ رجلاً لرأيتُموهُ رجلاً حسَناً جميلاً يَسرُّ الناظرينَ وَيفُوقُ العالَمين، ولو رأيتُمُ اللؤمَ رجلاً لرأيتُموهُ رجلاً مُسْتَمَجّاً مُشوَّهاً، تَنفِرُ منهُ القلوب وتُغَضُّ منهُ الأبصار. ومَن جادَ ساد، ومَن بخِلَ ذَلّ، ومَن تعجّلَ لأخيهِ خيراً وجدَهُ إذا قدِمَ عليهِ غداً. انتهىٰ. نقلاً مِن «عِقدِ اليواقيتِ الجَوهريّةِ» للإمامِ عيدروسِ بنِ عمرَ الحبشيِّ نفعَ اللّٰهُ به.

***

ومما يُروىٰ عنِ الإمـامِ محمّـدِ بنِ الحَنَفِيّةِ، ابنِ علـيٍّ بنِ أبـي طالبٍ[٢] رضِـيَ اللّٰهُ عنهُما قولُـه: ليـسَ بحكيمٍ مَن لم يُعاشِرْ بالمعروفِ مَن لا يجـدُ مِن معاشَرتِهِ بُدّاً حتىٰ يجعَلَ اللّٰهُ لهُ منهُ فرَجاً ومَخرَجاً.

وقيلَ له: إنّ أباكَ يضِنُّ بالحسَنِ والحُسينِ ويُقدِّمُكَ للجهاد، فقالَ رضِيَ

---

(١) سيّدنا الإمام الشريف الكامـل، سِبْـط رسول اللّٰه ﷺ وريحانتُه من الدنيا ومحبوبُه، والأشبَه به ﷺ من صدره إلىٰ قدَمَيه، أبو عبد اللّٰه الحسين الشهيد عليه السلام (٤ ــ ٦١هـ).

(٢) الإمام السيّـد أبو القاسم محمد بن علي بن أبي طالـب (٢١ ــ ٨١هـ)، أخو الحسن والحسيـن عليهما السلام، غير أنَّ أمهمـا فاطمـة الزهـراء، وأمه خولة بنت جعفـر الحنفية، فنُسِبَ إليهما تمييزاً له عنهما. كان واسعَ العلم، ورعاً، أسودَ اللون، أحدَ الأبطال الأشدّاء في صدر الإسلام، رضيَ اللّٰه عنه.

اللّٰهُ عنه: الحسنُ والحُسينُ بمثابةِ عينَيه، وأنا بمثابةِ يدَيه، فهُوَ يتّقي عينَيهِ بيدَيه.

وكتَبَ إليهِ الحجّاجُ[1] يتهدَّدُهُ ويتوعّدُه، فكتَبَ إليه: إنّ لِلّهِ عزَّ وجلَّ ثلاثَمِئةٍ وستينَ نظرةً إلىٰ خلْقِهِ كلَّ ليلة، وأنا أرجو أن ينظُرَ اللّٰهُ إليّ نظرةً يمنَعُني بها مِنك. انتهىٰ.

***

ومِن ذلكَ ما يُروىٰ عنِ الإمام عليٍّ زينِ العابدينَ ابنِ الحسينِ[2] رضِيَ اللّٰهُ عنهُ قال: لا تَصْحَبَنَّ خمسةً ولا تُرافِقْهُم في طريق: لا تصحَبْ فاسقاً، فإنّهُ يبيعُكَ بأكْلةٍ فما دونَها، قيل: وما دونَها؟ قال: يطمَعُ فيها ولا ينالُها. ولا بخيلاً، فإنّهُ يقطَعُ بكَ أحوجَ ما تكونُ إليه. ولا كذّاباً، فإنّهُ بمَنزِلةِ السَّراب: يبعِدُ منكَ القريبَ ويقرِّبُ منكَ البعيد. ولا أحمقَ، فإنّهُ يريدُ أن ينفَعَكَ فيضُرُّك، ولا قاطعَ رحِم، فإنّي وجدتُهُ ملعوناً في كتابِ اللّهِ في ثلاثةِ مَواضع.

ومِن كلامِهِ رضِيَ اللّٰهُ عنه: ضلَّ مَن ليسَ لهُ حكيمٌ يُرشِدُه، وذلَّ مَن ليسَ لهُ سفيهٌ يعضُدُه. ومنه: أربعٌ ذُلُّهن ذُلّ: البنتُ ولو مريم، والدَّينُ ولو درهم،

---

(١) الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ ــ ٩٥هـ)، والي بني أمية علىٰ العراق والحجاز عشرين عاماً. قال الحافظ الذهبي في «سِيَر النبلاء» (٤: ٣٤٣): كان ظلوماً، جباراً، ناصبياً، خبيثاً، سفّاكاً للدماء. . ، حتىٰ قال: فنَسُبُّه ولا نحبّه، بل نبغضه في اللّه، فإنَّ ذلك من أوثق عرىٰ الإيمان.

(٢) سيّدنا الإمام أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، الملقّب بزين العابدين (٣٨ ــ ٩٤هـ). أفضلُ أهل زمانه، وأحدُ مَن يُضرب بهم المثل في الحلم والورع، يُقال له: (عليٌّ الأصغر) تمييزاً له عن أخيه علي (الأكبر). مولده ووفاته بالمدينة، وليس للحسين السبط عليه السلام ذريةٌ إلاّ منه.

والغُربةُ ولو ليلة، والسؤال ولو «كيفَ الطريق؟».

وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: عجِبتُ للمُتكبِّرِ الفَخورِ الذي كانَ بالأمسِ نُطفةً مَذِرة، ثمّ يكونُ غداً جِيفةً قذِرَة. وعجِبتُ كلَّ العجَبِ لمَن شَكَّ في اللّهِ عزَّ وجَلّ وهُوَ يرىٰ خلْقَهُ وآياتِه. وعجِبتُ لمَن أنكَرَ النّشْأةَ الآخرةَ وهُوَ يرىٰ النّشأةَ الأُولىٰ. وعجِبتُ لمَن عمِلَ لدارِ الفناءِ وترَكَ دارَ البقاء. وعجِبتُ لمَن يحتَمي منَ الطّعامِ لِمَضرّتِه، كيفَ لا يحتَمي منَ الذّنبِ لمَعَرَّتِه!

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ اللّهَ خبَّأَ ثلاثاً في ثلاث: خبّأَ رِضاهُ في طاعتِه، فلا تَحقِروا مِن طاعتِهِ شيئاً، فلعلَّ رِضاهُ فيها. وخبّأَ سَخَطَهُ في مَعصيتِهِ، فلا تَحقِروا مِن مَعصيتِهِ شيئاً، فلعلَّ سَخَطَهُ فيها. وخبّأَ وِلايتَهُ في خلْقِه، فلا تحقِروا مِن عبادِهِ أحداً، فلعلّهُ وليٌّ للّه.

وقالَ، نفَعَ اللّهُ به: إنّ قوماً عبَدوا اللّهَ رَهْبة، فتِلكَ عبادةُ العبيد، وآخرينَ عبَدوهُ رَغْبة، فتِلكَ عبادةُ التُّجّار، وقوماً عبَدوا اللّهَ شُكراً، فتِلكَ عبادةُ الأحرار.

***

ومِن ذلكَ ما رُويَ عنِ الإمامِ محمّدٍ الباقرِ بنِ عليٍّ زينِ العابدينَ[1] رضِيَ اللّهُ عنهُما، كانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: ما دخَلَ قلبَ امرِئٍ شيءٌ مَن الكِبْرِ إلا نقَصَ مِن عقلِهِ مثْلُ ما دخَلَهُ منَ الكِبْرِ قَلَّ أو كثُر. بئسَ الأخُ أخٌ يَرعاكَ غنيّاً

---

(١) السيّد الإمام أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، القرشي الهاشمي (٥٦ ــ ١١٤هـ). عُرِف بالباقر من: بَقَرَ العلم، أي: شقَّه فعرَف أصلَه وخَفِيّه. قال الإمام الذهبي: كان أحدَ من جمَعَ بين العلم والعمل، والسؤدد والشرف، والثقة والرزانة، وكان أهلاً للخلافة. وقال: كان أبو جعفر إماماً مجتهداً، تالياً لكتاب الله، كبيرَ الشأن.

ويقطَعُكَ فقيراً. اعرفِ المَودَّةَ في قلبِ أخيكَ بما لَهُ في قلبِك. مَن دخَلَ قلبَهُ صافي خالصِ دِينِ اللّه، شغَلَهُ عمّا سواه.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: ما الدنيا، وما عسىٰ أن تكون؟ هل هِيَ إلاّ مركَبٌ رِكِبتَهُ أو ثوبٌ لبِستَهُ أوِ امرأةٌ أصَبْتَها أو أكلَةٌ أكلتَها؟

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه لابنِه: يا بُنيّ، إياكَ والكسَلَ والضَّجرَ، فإنّهُما مِفتاحُ كلِّ شرّ، فإنّكَ إذا كسِلتَ لم تؤدِّ حقّاً، وإذا ضَجِرتَ لم تصبرْ علىٰ حقّ.

ومِن كلامِهِ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ لي صاحب، وكانَ في عينِي عظيماً، وكانَ الذي عظَّمَهُ في عينِي صِغَرُ الدنيا في عينِه. ومنه: ما مِن عبادةٍ أفضَلُ مِن عِفّةِ بطْنٍ وفرْج.

* * *

ومِن ذلكَ ما رُويَ عنِ الإمامِ جعفرٍ الصّادقِ[1] ابنِ محمّدٍ الباقرِ رضِيَ اللّهُ عنهُما قال: إذا أنعَمَ اللّهُ عليكَ بنِعمة، وأردتَ دَوامَها فأكثِرْ منَ الشُّكر، فإنَّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ قالَ في كتابِهِ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وإذا استبطَأْتَ الرِّزقَ فأكثِرْ منَ الاستِغفار، فإنّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ قالَ في كتابِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ يعني في الدنيا ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ﴾ [نوح: ١٠ ــ ١٢] في الآخِرة.

ومِن كلامِهِ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن سَلَّ سيفَ البَغْي قُتِلَ به، ومَن حَفَرَ لأخيهِ بئراً سقَطَ فيها، ومَن داخَلَ السُّفهاءَ حُقِّر، ومَن خالَطَ العلماءَ وقِّر. ومنه: لا زادَ أفضلُ منَ التقوىٰ، ولا شيءَ أحسَنُ منَ الصّمت، ولا عدوَّ أضرُّ منَ الجَهلِ، ولا داءَ أدْوَأُ منَ الكذب. وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: أَدَّبَني أبي بثلاث:

---

(١) تقدمت ترجمتُه ص ٢١٣.

أدَّبَني أنّ مَن يصحَبْ صاحبَ السُّوءِ لا يسلَمْ، ومَن يدخُلْ مداخلَ السُّوءِ يُتَّهَمْ، ومَن لا يملِكْ لِسانَهُ يندَمْ. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إذا بلَغَكَ عن أخيكَ ما تكرَهُ فاطلُبْ لهُ عُذراً: مِن واحدٍ إلىٰ سبعينَ عُذراً، فإنْ لم تجدْ فقُلْ: لعلَّ لهُ عُذراً لا أعرِفُه.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: لا يتِمُّ المعروفُ إلا بثلاث: تصغيرِهِ وسَتْرِهِ وتعجيلِه، وذلكَ أنّكَ إذا صغَّرتَهُ عظُم، وإذا ستَرْتَهُ أتمَمْتَه، وإذا عجّلتَهُ هنَّيْتَه.

ومِن كلامِهِ رضِيَ اللّهُ عنه: أربعٌ لا ينبغي لشريفٍ أن يأنَفَ منها: قيامُهُ مِن مجلِسِهِ لأبيه، وخدمتُهُ لضيفِه، وقيامُهُ علىٰ دابّتِه، وخدمتُهُ لمَن يتعلَّمُ منه.

ومنه: إذا أذنَبتَ فاستغفِرِ اللّه، فإنّما هِيَ خَطايا مُطوَّقةٌ في أعناقِ الرجالِ قبلَ أن يُخلَقوا، وإنّ الهلاكَ كلَّ الهلاكِ في الإصرارِ عليها.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع
نوادر من حكم الإمام الشافعي رضي الله عنه

قال رضيَ اللّه عنه[١]: الناسُ في غفْلةٍ عن هذهِ السورة: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢]. ومِن كلامِه رضيَ اللّه عنه:

ـ ليسَ العِلمُ ما حُفِظ، العلمُ ما نفَع.

ـ فقرُ العلماءِ فقرُ اختيار، وفقرُ الجُهّالِ فقرُ اضطرار.

ـ المِرَاءُ في العِلمِ يُقسّي القلبَ ويُورِثُ الضَّغائن.

ـ مَن لم تُعِزَّهُ التقوىٰ فلا عِزَّ له، ومَن شهِدَ الضّعفَ مِن نفْسِهِ نالَ الاستقامة، ومَن غلَبَتْهُ شِدّةُ الشهوةِ للدنيا لَزِمَتْهُ العبوديّةُ لأهلِها، ومَن رضِيَ بالقُنوع زالَ عنهُ الخضوع.

ـ خيرُ الدنيا والآخرةِ خمسُ خِصال: غنىٰ النّفْسِ، وكَفُّ الأذىٰ، وكسْبُ الحلال، ولِباسُ التقوىٰ، والثقةُ باللّهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ حال.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ لربيعِ بنِ سُليمان: يا ربيع، لا تتكلَّمْ في ما لا

---

(١) يُنظر في ذلك: «مناقب الشافعي» للإمام البيهقي (٢: ١٨٥ ـ ٢١٩)، «تهذيب الأسماء واللغات» للإمام النووي (١: ٥٣ ـ ٥٧)، «سِيَر أعلام النبلاء» للحافظ الذهبي (١٠: ٤٠ وما بعدها)، وغيرها.

يَعنيك، فإنّكَ إذا تكلّمتَ بالكلمةِ مَلَكَتْك ولم تَملِكْها.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه:

ــ لا يَكمُلُ الرجالُ في الدنيا إلا بأربع: بالدّيانةِ، والأمانةِ، والصِّيانةِ، والرَّزانة.

ــ مَن بَرَّكَ فقد أَوثقَك، ومَن جَفاكَ فقد أطلَقك.

ــ مَن وعَظَ أخاهُ سرّاً فقد نصَحَهُ وزانَه، ومَن وَعَظَهُ عَلانيَةً فقد فضَحَهُ وشانَه.

ــ أرفَعُ الناسِ قدْراً مَن لا يرىٰ قَدْرَه، وأكثَرُهم فضلاً مَن لا يرىٰ فضلَه.

ــ الانقباضُ عنِ الناسِ مَكسَبةٌ للعَداوةِ، والانبساطُ إليهم مَجلَبةٌ لقُرناءِ السُّوء، فكنْ بينَ المُنقبضِ والمنبسِط.

ــ مَن نَمَّ لكَ نَمَّ بك، ومَن إذا أرضَيْتَهُ قالَ فيكَ ما ليسَ فيكَ: إذا أغضَبْتَهُ قال فيك ما ليس فيك.

ــ التوّاضُعُ مِن أخلاقِ الكرام، والتكبُّرُ مِن شيَمِ اللِّئام.

ــ إذا كثُرَتِ الحَوائجُ فٱبدَأْ بأهمِّها.

ــ مَن كانَ فيهِ ثلاثُ خِصالٍ فقد أكمَلَ الإيمان: مَن أمَرَ بالمعروفِ وائتمَرَ به، ونهىٰ عنِ المُنكرِ وانتهىٰ عنه، وحافَظَ علىٰ حدودِ اللّهِ تعالىٰ.

ــ مَن سمِعَ بأُذُنِهِ صارَ حاكياً، ومَن أصغىٰ بقلبِهِ كانَ واعياً، ومَن وَعَظَ بفِعلِهِ كانَ هادياً.

ومِن حِكَمِهِ رضِيَ اللّهُ عنهُ أيضاً قولُه:

ــ أقلُّ الناسِ في الدنيا راحةً الحَسودُ والحَقود. وأظلَمُ الظالمينَ لِنفْسِهِ

مَن تواضَعَ لِمَن لا يُكرِمُه، ورغِبَ في مودّةِ مَن لا ينفَعُه.

ـ إذا تـزوّجَ الرجلُ فقـد رَكِـبَ البحـر، فإنْ وُلِدَ لـهُ ولـدٌ فقـد كُسِرَتِ المركَب.

وقال رضيَ اللّه عنه:

ـ إذا وُلِّيَ أخوكَ وِلايةً فأرضَ منهُ بعُشرِ الودِّ الذي كانَ لكَ قبلَها.

ـ مَن وُلِّيَ القضاءَ ولم يفتقِرْ فهُوَ لصّ.

ـ مَن لم يصُنْ نفْسَهُ لم ينفَعْهُ عِلمُه.

ـ مَن أحـبَّ أن يُفتَحَ عليهِ بنـورِ القلبِ فعليهِ بالخَلوةِ وقلّةِ الأكلِ وترْكِ مخالَطةِ السفَهاءِ وبُغضِ مَن يريدُ بعِلمِهِ الدنيا.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: صَحِبتُ الصُّوفيّةَ فاستَفَدْتُ مِنهُم حرفَين: الوقتُ كالسيفِ إن لم تقْطَعْهُ قطَعَك، وأفضَلُ العِصْمةِ أن لا تجِد. انتهىٰ.

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس
نبذٌ من حكم السلف رضي الله عنهم

رَوىٰ الخطيبُ في «المتَّفِق والمُفترِق» عن سعيدِ بنِ المُسيِّبِ[1] قالَ: وضَعَ عمرُ بنُ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنهُ ثمانيَ عشْرَةَ كلمةً كلُّها حِكَم، وهِيَ:

١ ــ ما عاقبتَ مَن عصىٰ اللّهَ فيكَ بمِثلِ أن تُطيعَ اللّهَ فيه.

٢ ــ وضَعْ أَمرَ أخيكَ علىٰ أحسَنِهِ حتىٰ يجيئَكَ منهُ ما يغلِبُك.

٣ ــ ولا تظُنَّ بكلمةٍ خرَجَتْ مِن مسلمٍ شرّاً وأنتَ تجِدُ لها في الخيرِ محمَلاً.

٤ ــ ومَن عرَّضَ نفْسَهُ للتُّهمةِ فلا يلُومنَّ مَن أساءَ بهِ الظنّ.

٥ ــ ومَن كتَمَ سِرَّهُ كانتِ الخِيَرَةُ في يدِه.

٦ ــ وعليكَ بإِخوانِ الصِّدقِ تعِشْ في أكنافِهم، فإنّهُم زِينةٌ في الرَّخاءِ عُدَّةٌ في البَلاء.

---

(١) الإمام العَلَم أبو محمد سعيد بن المسيِّب القرشي المخزومي المَدَني (١٣ ــ ٩٤هـ)، سيّد التابعين في زمانه وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءً. وكان أحفظ الناس لأحكام سيّدنا عمر بن الخطّاب وأقضيته حتىٰ سُمِّيَ راويةَ عمر.

٧ ــ وعليكَ بالصِّدقِ وإن قتلَك .

٨ ــ ولا تَـعَـرَّضْ لِمَا لا يَعني .

٩ ــ ولا تسأَلْ عمّا لم يكنْ ، فإنَّ فيما كانَ شُغُلاً عمّا لم يكنْ .

١٠ ــ ولا تطلُبَنَّ حاجتَكَ إلىٰ مَن لا يحبُّ نجاحَها لك .

١١ ــ ولا تَهاوَنْ بالحَلِفِ الكاذبِ فيها فيُهلِكَكَ اللّه .

١٢ ــ ولا تَصحَبِ الفُجّارَ فتتَعلَّمَ مِن فجورِهم .

١٣ ــ واعتَزِلْ عدوَّكَ .

١٤ ــ واحذَرْ صديقَكَ إلا الأمين ، ولا أمينَ إلا مَن خشِيَ اللّه .

١٥ ــ وتخشَّعْ عندَ القبورِ .

١٦ ــ وذِلَّ عندَ الطاعة .

١٧ ــ واستعصِمْ عندَ المَعصِية .

١٨ ــ واستَشِرْ في أمرِكَ الذينَ يخشَوْنَ اللّه ، فإنّ اللّهَ تعالىٰ يقول : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] . انتهىٰ .

ومنهـا : قـولُ عبـدِ اللّهِ بنِ مسعـودٍ رضِـيَ اللّهُ عنـه : التـواضـعُ يرفَـعُ الخَسيس ، والكِبْرُ يضَعُ النّفيس ، ومَن طلَبَ الرئاسةَ أعيَتْهُ ، ومَن فَرَّ منها تبِعتْه .

وقولُه : لا تفرَحْ بكثرةِ العِيال ، فإنّ ذلكَ سُوسُ المالِ وفضيحةُ الرجال .

ومنها : قولُ عمّارِ بن ياسرٍ رضِيَ اللّهُ عنه : ثلاثٌ مَن جمَعَهُنَّ فقد جمَعَ الإيمان : الإنصـافُ مِن نفْسِك ، وبـذْلُ السّـلامِ للعالِم ، والإنفاقُ منَ الإقْتار . رواهُ البُخاريّ .

ومنها : قـولُ أبي أُمامةَ رحِمَهُ اللّه : مَن لم يُـنِلْكَ الخيرَ في حيـاتِه ، فلا

تبكِ عيناكَ علىٰ وفاتِه.

وقولُه: إذا رضِيَ الراعي بفِعْلِ الذئبِ لم ينبَحِ الكلبُ علىٰ الغريب.

وقولُه: الاعتراف يهدِمُ الاقتراف، ولم تَزلِ الأشراف تُبتَلىٰ بالأطراف.

ومِن جُملةِ حِكَمِهم رضِيَ اللّهُ عنهُم قولُ حاتمٍ الأصَمِّ(١) رحِمَهُ اللّه: لا تنظُرْ إلى مَن قال، وانظُرْ إلىٰ ما قال. وخُذِ الحِكمَةَ حيثُ وجدتَها، فإنّها ضالّةُ المؤمن، فإذا وجدتَها فقَيّدْها ثمّ ابتَغِ ضالّةً أخرىٰ.

ومنها قولُ الإمامِ أبي حنيفةَ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن رضِيَ بدُونِ قدْرِهِ رفَعَهُ اللّهُ إلىٰ فوقِ غايتِه.

وقولُه: عليكَ بالحِكمة، فإنّها تُجلِسُ المساكينَ مجالِسَ الملوك.

وقالَ رجلٌ للأحنفِ بنِ قيسٍ(٢) رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: إنّي أراكَ يا أحنفُ أعور، فبِمَ يُسوِّدُكَ قومُكَ عليهِم؟ فقال: لكَوْني لم أشتغِلْ إلا بما يعنيني فقط كما اشتَغلتَ أنتَ بما لا يعنيك.

وقالَ يحيىٰ بنُ مُعاذٍ رحِمَهُ اللّه: إذا ذَمَّكَ أبناءُ الدنيا، أو مدَحوك، فاصرِفْ ذلكَ الخُرافاتِ لكونِهم مطموسي البصائر.

---

(١) الإمام الزاهد القدوة الربّاني أبو عبد الرحمٰن حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي المعروف بالأصمّ (ت٢٣٧هـ)، الواعظ الناطق بالحكمة، له كلامٌ جليل في الزهد والمواعظ والحِكَم، كان يُقال له: لقمان هذه الأمّة.

(٢) الإمام الكبير، التابعي العالم النبيل، أبو بحر الأحنف بن قيس التميمي (٣ق.هـ ــ ٧٢هـ). سيّد تميم، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين، يُضربُ بحلمه وسؤدده المثل. أسلم زمن النبي ﷺ ووفد علىٰ عمر. شهد صفّين مع علي، وتوفي بالكوفة.

وكانَ رحِمَـهُ اللّهُ يقول: مَن سترَ عليكَ ذنوبَكَ ولم يفضَحْكَ فهُوَ أوْلىٰ بـكَ مِن سائـرِ الخلْـق، فإنّـكَ تُذنِـبُ ألْفَ ذنبٍ فيمـا بينَكَ وبيـنَ اللّهِ تعـالىٰ فيَستُـرُها عليك، ولو أنّ الخلـقَ ٱطّلعوا علىٰ عيبٍ واحـدٍ فيكَ لفَضَحـوكَ بينَ العباد.

ومنها: إذا كانَ القريبُ عدوّاً فهُوَ البعيد، وإذا كانَ البعيدُ وَدوداً فهُوَ القريب.

ومنها: قولُ أبي محمّدٍ الرذاماريِّ[1] رحِمَهُ اللّه: إذا جمَعْتَ المالَ فأنتَ وَكيل، فإذا أعطَيْتَهُ فأنتَ رَسول، فالوكيلُ لا يَخون، والرسولُ لا يمُنّ.

ومنها: قولُ أبي معاويةَ الأسودِ[2] رحِمَهُ اللّه: مَن طلَبَ مِنَ اللّهِ الخيرَ الجَزيل، فلا ينَمِ الليلَ ولا يَقِيل.

ومنها: قولُه: مَن طلَبَ الفضْلَ منَ اللِّئام فلا يَلومَنَّ إلا نفْسَهُ إذا أُهِين.

ومنها: قولُ الفُضَيلِ بنِ عِياضٍ رحِمَهُ اللّه: مَن كُثرَ عِتابُهُ قلَّ أصحابُه، ومَن أعطىٰ الفاجرَ فقد أعانَهُ علىٰ الفجور، ومَن علَّمَ الأبلَهَ فقد ضيَّعَ عُمرَهُ بلا فائدة، ومَن صنَعَ المعروفَ معَ كَفُورٍ فقد ضيّعَ النِّعمة.

ومنها: قولُ بِشـرٍ الحافي[3] رحِمَهُ اللّه: إذا أخَلّـتِ النـوافلُ بالفـرائضِ

---

(١) لم نقف علىٰ ترجمته بعد.

(٢) من كبار أولياء اللّه، صحبَ سفيانَ الثوري وإبراهيمَ بن أدهم وغيرهما، وكان يُعَدُّ من الأبـدال، وله مواعظُ وحِكَـم. وقيـل: إنه ذهبَ بصرُه، فكـان إذا أراد التلاوةَ في المصحف أبصرَ بإذن اللّه.

(٣) الإمام العالم الزاهد الربّاني القدوة الجبل، أبو نصر بِشْر بن الحارث المشهور بالحافي (١٥٢ ــ ٢٢٧هـ). كـان رأساً في الورع والإخـلاص. من كلامـه: لا تجدُ حلاوةَ العبادةِ حتىٰ تجعلَ بينك وبين الشهواتِ سدّاً.

فأَترُكِ النوافل.

وقولُه: مَن لم يستَحْسِنِ الحسَنَ لم يستَقبِحِ القبيح.

وقولُه: ليسَ معَ الاختلافِ ائتلاف.

ومنها: قولُ الإمامِ الحسَنِ البصْريِّ رحْمةُ اللّهِ عليه: أُصولُ الشرِّ ثلاثةٌ وفروعُهُ ستّة، فالأصول: الحسَدُ والحِرصُ وحُبُّ الدنيا. والفروع: حُبُّ الرِّياسةِ وحبُّ الفخْرِ وحبُّ الثَّناءِ وحُبُّ الشبَعِ وحُبُّ النّومِ وحُبُّ الراحة.

ومنها: مَن أحبَّ الدنيا ذهَبَ خوفُ الآخرةِ مِن قلبِه، ولا يفتَحُ عبدٌ علىٰ نفْسِهِ باباً منَ الدنيا إلا سَدَّ عليهِ عشَرةَ أبوابٍ مِن عمَلِ الآخرة. والعاملُ علىٰ غيرِ علمٍ كالسائرِ علىٰ غيرِ طريق، وما يُفسِدُهُ أكثرُ ممّا يُصلِحُه، ولا تزالُ كريماً علىٰ إخوانِكَ حتىٰ تحتاجَ إلىٰ ما في أيديهم.

ومنها: مِسكينٌ ابنُ آدم، رضِيَ بدارٍ حلالُها حِساب وحَرامُها عَذاب، يستَقِلُّ مالَهُ ولا يستَقِلُّ عمَلَه. انتهىٰ. ذكَرَهُ في «عِقدِ اليواقيت».

ومنها قولُه: فضَحَ الموتُ الدنيا، فلم يترُكْ لِذي لُبٍّ فيها فرَحاً.

ومنها قولُه: رحِمَ اللّهُ أمرءاً لبِسَ خَلِقاً، وأكَلَ كِسْرةً، ولَزِقَ بالأرض، وبكىٰ علىٰ الخَطيئة، ودأَبَ في العبادة.

ومنها: علىٰ الأسقامِ والأمراض أُسِّستْ هذهِ الدنيا، هبْكَ تَصِحَّ منَ الأسقامِ وتبرَأْ منَ الأمراض، هل تقدِرُ أن تنجُوَ منَ الموت؟! انتهىٰ. ذكَرَهُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ في «رسالةِ المُذاكَرة».

ومِن قولِ الحَسنِ البصريِّ أيضاً: مَن كانتْ ذنوبُهُ في شَهوتِهِ فأَرجو لهُ

التّوبة، ومَن كانتْ ذنوبُهُ في الكِبْرِ فلا تُرجىٰ لهُ توبة، دليلُ ذلكَ آدمُ عليهِ السلامُ وإبليس.

وقالَ الأحنَفُ بنُ قيسٍ: ٱختارَ الحُكَماءُ مِن كلامِ الحِكمةِ أربعةَ آلافِ كلمة، ثم ٱختاروا منها أربعَمئةِ كلمة، ثم ٱختاروا منها أربعينَ كلمة، ثم ٱختاروا منها أربعَ كلمات: الأُولىٰ: لا تَثِقَنَّ بالنِّساء، الثانية: لا تُحمِّلَنَّ مَعِدَتَكَ ما لا تُطيق، الثالثة: لا يغُرَّكَ المالُ وإن كثُر، الرابعة: يكفِيكَ منَ العِلمِ ما تنتَفِعُ به. انتهىٰ. من كتابِ «الرَّحمة في الطبّ».

لطيفة: في أحكَمِ ما قالَتْهُ العربُ وأوجَزِه:

حُكِيَ أنّ الإمامَ الشَّعْبِيَّ دخَلَ علىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ[1]، فقالَ له: أنشِدْني أحكَمَ ما قالَتْهُ العربُ وأوجَزَه، فقال:

قولُ امرىءِ القيس[2]:

صُبَّتْ عليهِ وما تنصَبُّ مِنْ أَمَمٍ ... إنّ الشّقاءَ علىٰ الأَشْقَينَ مصْبوبُ

---

(١) أبو الوليد عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي (٢٦ ــ ٨٦هـ)، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم وعلمائهم، استعمله معاوية علىٰ المدينة وهو ابن ١٦ سنة. ولمّا ولي الخلافة ضبط أمورها وظهر بمظهر القوة. في أيامه نُقلت الدواوين من الفارسية والرومية إلىٰ العربية، وضُبطت الحروف بالنقط والحركات، وهو أول من صك الدنانير في الإسلام، وأول من نقش بالعربية علىٰ الدراهم، وكان عمر بن الخطّاب قد صك الدراهم. توفي بدمشق.

(٢) امرؤ القيس بن حُجر بن الحارث الكِنْدي (نحو ١٣٠ ــ ٨٠ق.هـ)، أشهر شعراء العرب علىٰ الإطلاق وأحد أصحاب المعلّقات، والمعدود أمير الشعر في العصر القديم. أصله من «دمّون» بحضرموت، ومولده بنجد، وسُمّي بالملك الضلّيل لاضطراب أمره طول حياته، وكتُبُ الأدب مشحونة بأخباره.

وقولُ زهير[١]:

ومَن يجعَلِ المعروفَ مِن دُونِ عِرْضِهِ ... يفِرْهُ، ومَـن لا يَتقـي الشّتْـمَ يُشتَمِ

وقولُ النابغة[٢]:

ولســتَ بِمُستَبْــقٍ أخــاً لا تَلُمُّــهُ ... علىٰ شَعَثٍ، أيُّ الرجالِ المُهذَّبُ؟

وقولُ عَدِيِّ بنِ زيد[٣]:

عنِ المرْءِ لا تسأَلْ وسَلْ عن قَرِينِهِ ... فـإنَّ القَـرِيـنَ بـالمُقـارِنِ يَقتـدي

وقولُ طرَفةَ بنِ العبد[٤]:

ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيـكَ بالأخبـارِ مَن لـم تُـزوِّدِ

---

(١) زهير بنُ أبي سُلْمىٰ المُزني (ت ١٣ق. هـ)، من مُضَر، حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب مَن يُفضِّله علىٰ شعراء العرب كافة، وهو أحد أصحاب المعلقات السبع.

(٢) النابغة: أبو أُمامة زياد بن معاوية الذبياني (ت نحو ١٨ق. هـ)، شاعر جاهلي، من الطبقة الأولىٰ. كانت تُضرَب له قبة بسوق عكاظ فتقصده الشعراء لعرض شعرها عليه. وكان الأعشىٰ وحسّان والخنساء ممّن يعرض شعره عليه. عمِّر طويلاً وكان من الأشراف في الجاهلية. وهو من أصحاب المعلَّقات السبع.

(٣) عدي بن زيد بن حمّاد بن زيد العِبادي التميمي (ت نحو ٣٥ق. هـ)، شاعرٌ، من دهاة الجاهليين، كان فصيحاً يحسن العربية والفارسية والرمي بالنشاب، وهو أول من كتب بالعربية في ديوان كسرىٰ وكان ترجماناً بينه وبين العرب. قال ابن قتيبة: علماء العربية لا يرون شعره حجةً.

(٤) أبو عمرو طرفة بن العبد بن سفيان البكري الوائلي (نحو ٨٦ ــ ٦٠ق. هـ)، شاعرٌ جاهلي، من الطبقة الأولىٰ، قُتل شاباً وهو ابن ست وعشرين، وهو أحد أصحاب المعلَّقات. وكان هجّاءً غير فاحش القول، تفيضُ الحكمة علىٰ لسانه في أكثر شعره.

وقولُ الحُطَيئَة[1]:

من يفعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ　　　لا يَذهَبُ العُرْفُ بينَ اللّهِ والنّاسِ

ذكَرَ ذلكَ اليافعيُّ في «مرآةِ الجِنان».

❊ ❊ ❊

(١) الحُطَيئة: جَرْوَل بن أوس بن مالك العبسي (ت نحو ٤٥هـ)، شاعرٌ مخضرَم، أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجّاءً عنيفاً لم يكد يسلم من لسانه أحد، حتىٰ هجا أمَّه وأباه ونفسه!

الفصل السادس
في بعض الحكم المأثورة عن جماعة من أعيان السادة العلوية

فمِنها: عنِ الحبيبِ العارفِ باللّهِ القُطبِ عمرَ بنِ عبدِ الرحمنِ العطّاسِ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَ به. قال رضيَ اللّه عنه:

ـ ٱنظُرِ الحالَةَ التي تحِبُّ أن يأتيَكَ الموتُ وأنتَ عليها فٱلزَمْها، والحالَة التي تكرَهُ أن يأتيَكَ الموتُ وأنتَ عليها فٱجتَنِبْها.

ـ مَن رأيتَ فيهِ خَصلةً مَليحةً ـ يعني مِن خِصالِ الخير ـ فظُنَّ بهِ الدِّينَ كلَّه.

ـ مَن دعا للظالمِ سَلِمَ مِن شرِّه.

ـ إنها لم تَقِلَّ المَناهلُ علىٰ أهلِ تالي الزمان، ولكنّهم جاءوا بأوعيَتِهم مُخَرَّقة.

ـ الطاعةُ معَ أكلِ الحرامِ مثلُ نزْحِ الماءِ بالخِبرة.

ـ منَ الناسِ مَن يأتي بِسراجِهِ ودُهنِهِ وشمعَتِه، فيُسرِجُ لهُ الشيخُ فيه، واليومَ يأتونَ وليسَ معَهُم شيءٌ مِن ذلك.

ـ العاقلُ يُضَرُّ ولا يَضُرّ.

ـ لا أقلَّ مِن إقامةِ الظواهرِ واللّهُ يتولّىٰ السرائر.

ـ إذا أرَدتَ أن تخرُجَ إلىٰ مكانٍ فٱحمِلْ كتابَكَ معَك، إلا أن يكونَ عندَ أحدٍ منَ الإخوان.

ـ إنّ جَورَ الدولةِ في حقِّ الرعيّة، وأخذَ أموالِهم، إنّما هُوَ زيادةٌ للرعيّةِ في الدِّينِ والدنيا والآخِرة.

ـ وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ لمّا سمِعَ قولَه ﷺ: «والذي لا إلهَ غيرُه، إنّ أحدَكُم لَيعمَلُ بعمَلِ أهلِ الجنّة»... إلىٰ آخره[1]، قالَ نفَعَ اللّهُ به: إنّ الذي يعمَلُ بعمَلِ أهلِ الجنّةِ الغالبُ عليهِ دخولُ الجنّة؛ لأنَّ الظاهرَ عُنوانُ الباطن، وإن دخَلَ النارَ فإنّما هُوَ علىٰ الندور، وذلكَ مثْلُ مَن سقَطَ مِن مكانٍ قريب، فإنّ الغالبَ سلامتُه. وإنّ الذي يعمَلُ بعمَلِ أهلِ النارِ الغالبُ عليهِ دخولُ النار، وإن دخَلَ الجنّةَ فإنّما هُوَ علىٰ الندور، وذلكَ مثْلُ مَن يتردّىٰ مِن رأسِ جبَل، فإنّ الغالبَ هلاكُه.

ـ ولمّا ماتَ بعضُ أولادِهِ ـ رضِيَ اللّهُ عنهُ ـ أقبَلَ الناسُ عليهِ بالتّعزِيَة، فقالَ لهُم كالمُتعجِّبِ مِنهم: ما أهوَنَ مُصيبةَ الدِّينِ عندَكم! واللّهِ لو فاتَتْني صلاةُ جماعةٍ لم يُعزِّني منكُم أحَد. يعني أنّها لو فاتتْ كانَ فَواتُها أشدَّ مِن موتِ الولدِ الذي تُعَزُّونني بموتِه.

ـ وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: ما مِن صاحبِ طاعةٍ إلاّ وعليهِ نظَرٌ مِن ولِيٍّ للّه، إمّا منَ الأحياءِ أو منَ الأموات.

ـ وقال: الخُمولَ الخمول، الدَّفنَ الدَّفن. ما عادَ شيءٌ خالصاً للّه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٢) ومسلم (٢٦٤٣)، من حديث عبد اللّه بن مسعود رضيَ اللّه عنه.

ومنها ما نُقِلَ عنِ الحبيبِ الإمامِ قُطبِ الدَّعوةِ والإرشادِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفعَنا به. قالَ رضيَ اللّهُ عنه:

ـ الخَلقُ معَ الحقِّ، لا يَخلو أحدٌ منهُم أن يكونَ في إحدىٰ الدائرتَين: إمّا دائرةِ الرحمةِ أو دائرةِ الحِكمة، فمَن كانَ اليومَ في دائرةِ الرحمةِ كانَ غداً في دائرةِ الفضْل، ومَن كانَ اليومَ في دائرةِ الحِكمةِ كانَ غداً في دائرةِ العَدْل.

ـ قيمةُ الإنسانِ عندَ أهلِ الدنيا ما يأخُذُهُ منهُم.

ـ إذا أرَدتَ أن تستَشيرَ إنساناً فقدِّرْ أنّهُ يُشيرُ عليكَ بمُخالَفةِ ما تحبّ، فإن رأيتَ امتثالَهُ وإلا فدَع.

ـ رأيُ الإنسانِ فَرْعُ عِلمِهِ وعقْلِه، فلا ينبغي أن يضَعَهُ عندَ مَن لا يأخُذُ به.

ـ من سلَكَ ملَك، ومَن حادَ هلَك.

ـ من حفِظَ الفؤاد أمِنَ مِنَ الفساد، ومَن حفِظَ الجوارح أمِنَ مِنَ الجوائح.

ـ كادَ العاقلُ أن لا يكونَ لهُ عدوّ، وكادَ الأحمقُ أن لا يكونَ لهُ صديق.

ـ في أسفارِ الأرباح راحةُ الأرواحِ والأشباح، وفي أسفارِ الأخطار تعبُ الظّواهرِ والأسرار.

ـ مَن لم يدفَعْ عنهُ الفقرَ قليلُ المالِ لم يُحصِّلْ لهُ الغِنىٰ كثيرُه، كذلكَ مَن لم ينتفِعْ بقليلِ العِلمِ فهُوَ منَ الانتفاعِ بكثيرِهِ أبعَد.

ـ نازَعَ الأقدار منِ ٱستقبَحَ مِن أخيهِ ما لا يدخُلُ تحتَ الاختيار.

ـ الرِّضىٰ بالقضاءِ ينتفَي مَعَهُ الاعتراضُ علىٰ اللّه، ويبقىٰ معَهُ الطلَبُ لِمَا ينبغي أن يُطلَب، والهَربُ ممّا منهُ يُهرَب.

ـ الدنيا شيئانِ لا ثالثَ لهُما: أحدُهما حبُّ المالِ والآخَرُ حبُّ الجاه، فمَن زَهِدَ في المالِ والجاهِ فهُوَ صِدِّيق، ومَن زَهِدَ في المالِ دونَ الجاهِ فهُوَ مُرَاءٍ، ومَن زَهِدَ في الجاهِ وأحبَّ المالَ فهُوَ لئيم، ومَن أحبَّ الجاهَ والمالَ كانَ أصغرُ عقوبتِهِ حرمانَهما.

ـ تذهَبُ الدنيا شيئاً فشيئاً حتىٰ لا يبقىٰ منها شيء.

ـ كلامُ أهلِ الحقِّ والصِّدقِ نورٌ وبَرَكةٌ وإن كانَ غيرَ فصيح، وكلامُ أهلِ التكلُّفِ والرِّياءِ ظُلمةٌ ووَحْشةٌ وإن كانَ فصيحاً.

ـ مَن لم تكُن لهُ بَصيرةٌ تَهديه طالَ تعَبُ المُعلِّمينَ والمُؤدِّبينَ فيه.

ـ مَن تكبَّرَ علىٰ الحقِّ وأهلِهِ ٱبتَلاهُ اللّهُ بالذُّلِّ للباطلِ وأهلِه، فيجتمعُ عليهِ عندَ ذلكَ عقوبتانِ ومُصيبتان، وتَفوتُهُ مَنْقَبَتانِ ومَثُوبَتان.

ـ المؤمنُ يتجوَّزُ في العاداتِ ولا يتجوَّزُ في العبادات، والمنافقُ يتجوَّزُ في العباداتِ ولا يتجوَّزُ في العادات.

ـ مَن لم يتَّهِمْ نفْسَهُ في كلِّ وِرْدٍ وصَدَر، وقَعَ منها في البَلايا الكُبَر.

ـ رُبَّ داعٍ إلىٰ الهوىٰ والطّبيعة، وهُوَ يدَّعي أنّهُ يدعو إلىٰ الدِّينِ والشّريعة.

ـ العِلمُ عليكَ حتىٰ تعمَلَ به، فإذا عمِلْتَ بهِ كانَ العِلمُ لك.

ـ ما أظلَّتِ الخضراءُ أو أقَلَّتِ الغَبْراءُ أشدَّ جَراءةً ممّنْ يعلَمُ حُسنَ شيءٍ وهُوَ لهُ تارك، ويعلَمُ قُبحَ شيءٍ وهُوَ له فاعل.

ـ دبِّرْ ثم افعَلْ، فكِّرْ ثم قُل.

ـ كفىٰ أهلَ الآخرةِ شرفاً أنّ كلَّ أحدٍ يحبُّ أن يُنسَبَ إليهِم وإن لم يكنْ

منهُم، وكفىٰ أهلَ الدنيا ضَعَةً أنّ كلَّ أحدٍ يكرَهُ أن يُذكَرَ في جُملتِهم وإن كانَ مِن أكابرِهم.

ــ أكبرُ الكبائرِ: الظاهرةِ والباطنة، أن تلتمِسَ مِن أصحابِكَ الدنيا وهُم يلتَمِسونَ منكَ الآخرة.

❊ ❊ ❊

ومنها ما نُقِلَ عنِ الحبيبِ العارفِ باللّهِ عبدِ الرحمنِ بنِ مصطفىٰ العيدروس رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفعَنا به. قالَ رضِيَ اللّهُ عنه:

ــ لو كانتْ تنفَعُهُ طاعتُكَ لم يخلُقْ فيكَ سواها، ولو كانتْ تضُرُّهُ مَعصِيتُكَ لم يخلُقْها فيك، ولكنّ النفْعَ والضُّرَّ عائدانِ إليك.

ــ أفعالُ اللّهِ كلُّها حسَنة؛ لأنّها إمّا فضْلٌ وإمّا عَدْل.

ــ كلُّ ما في الوجودِ أفعالُه، معَ أنّهُ حرَّمَ الفواحِش، فسَلِّمْ ولا تُناقِشْ.

ــ كنْ في طاعتِكَ ناظراً إلىٰ مَن دُونَكَ وإلىٰ مَن فوقَكَ، لِتشهَدَ فضْلَ اللّهِ عليكَ وتسْلَمَ منَ العُجْب، وكنْ في أحوالِ الدنيا ناظراً إلىٰ مَن دُونَكَ تسترِحْ، ولا تكنْ ناظراً إلىٰ مَن فوقَكَ تتعَبْ.

ــ وافِقِ الكلَّ وخَلِّ النيّةَ معَ اللّه.

ــ اتّخذِ الناسَ كلَّهم أصدقاءَ بمحبّةِ المُوافِقينَ ومُداراةِ المُخالِفين.

ــ أنتَ لم تجِدْ مِن نفْسِكَ كلَّ ما تريد، فكيفَ تريدُ منَ الناسِ كلَّ ما تُريد؟!

ــ أعطِ مَن يستحِقُّ ومَن لا يستحِقّ، يُعطِكَ اللّهُ ما تستحِقُّ وما لا تستحِقّ.

ـ مجمَعُ الخيْراتِ صِدقٌ مَع الحقّ، وخُلُقٌ معَ الخَلْق.

ـ الطُّرقُ إلىٰ اللّهِ لا تُحصىٰ في الإكثار، وأقرَبُها إليهِ الذُّلُّ والانكِسارُ والافتِقار.

ـ كُنْ بينَ الخوفِ والرَّجاء، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ـ من طلَبَ ما لم يُخلَقْ تعِبَ ولم يُرزَقْ: وهُوَ الراحةُ في هذهِ الدنيا.

ـ «المرءُ معَ مَن أحَبّ»[(١)]: في هذا الكلام وعدٌ ووَعيد، فانظُرْ تحبُّ مَن حتىٰ تكونَ مَعه؟ اللّهُمَّ ٱرزُقْنا حبَّكَ وحبَّ مَن يُحبُّكَ إنّكَ علىٰ كلِّ شيءٍ قدير. انتهىٰ.

***

ومنهـا ما نُقِلَ عنِ الحبيبِ الإمامِ العلاّمةِ أحمدَ بنِ عمرَ الهِنْدوانِ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا به. قالَ رضِيَ اللّهُ عنه:

ـ مَن أزالَ منكراً بيدِهِ ولم يكْرَهْهُ بقلبِهِ لم يُكتَبْ لهُ عليهِ ثواب.

ـ إذا غرَبَتِ الشمسُ فكِّروا في عمَلِ اليومِ الماضي، فإن كانَ خيراً فاحمَدوا اللّهَ عليه، وإن كانَ شرّاً فاستَغفِروا اللّهَ منه.

ـ انظُرْ ـ في هذا الزمانِ ـ في الحقوقِ التي عليك، ولا تنظُرْ في الحقوقِ التي لك.

ـ إنْ لم تكنْ ذِيباً في هذا الزمانِ وإلاّ أكلَتْكَ الذياب.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٨) ومسلم (٢٦٤٠) وغيرهما، من حديث عبد اللّه بن مسعود رضيَ اللّه عنه.

ـ مَن عَبدَ اللّهَ لأجْلِ الثـواب حُـرِمَ ذلك، وَمن عبدَ اللّهَ لِينـالَ مَـراتبَ الأولياءِ حُرِمَ ذلك، ومَن عَبدَ اللّهَ امتِثـالاً لأمرِهِ نالَ الثوابَ في الآخرةِ وحصَلَ علىٰ مَراتبِ الأولياءِ في الدنيا.

ـ علامةُ الإخلاصِ أن ترىٰ الناسَ كالحجَر: لا ينفَعونَ ولا يضُرّون.

ـ إذا أردتُـم أن تقومـوا أو تقعُدوا فزِنوا كلامَكـم ومجالسَكـم بميـزانِ الشَّرع.

ـ العبدُ الزَّنجِيُّ إن كانَ يعلِّمُكُم أمرَ دينِكم فهُوَ صَديقُكم، والوالدُ إن لم يكنْ كذلكَ فهُوَ عدوّ.

ـ الإنسـانُ عبدُ هَمِّه، فإن كـانَ همُّهُ ظهوراً فهُوَ عبـدُه، وإن كـانَ همُّهُ خُمـولاً فهُوَ عبدُه، وإن كانَ همُّهُ مَعصِيةً أو شهوةً فهُوَ عبدُ الشيطان، وإن كانَ همُّهُ طاعـةَ اللّهِ فهُوَ عبدُ اللّهِ حقـاً. انتهىٰ. من كتـابِ «بهجـةِ الزمـان» لسيّدِنا الإمامِ محمّدِ بنِ زينِ بنِ سُمَيط.

❊ ❊ ❊

الباب العاشر

في فوائد منثورة



وفيه ستةُ فصولٍ وخاتمة :

الفصلُ الأول : في العقل والعقلاء .

الفصلُ الثاني : في المفاضلة بين شرف العلم وشرف النسَب .

الفصلُ الثالث : في الإشارةِ إلىٰ كثرة العلوم واتّساعها .

الفصلُ الرابع : في الإشارةِ إلىٰ علومِه عليه الصلاةُ والسلام .

الفصلُ الخامس : في ذكر علوم الصحابةِ والتابعين ومَنْ بعدهم من الأئمّة .

الفصلُ السادس : في مناقب الأئمّة الأربعة وحجّةِ الإسلام الغزالي .

خاتمة : في قبض العلم وموت العلماء .

الفصل الأوّل
في العقل والعُقلاء

ـ أقسامُ العَقل :

ذكرَ بعضُهم أنّ العَقلَ علىٰ خمسةِ أنواع :

١ ـ غَرِيزيّ : وهو غَرِيزةٌ يتهيّأُ بها لدَرْكِ العُلُوم النظرِية .

٢ ـ وكَسْبيّ : وهو ما يَكتسِبُه الإنسانُ مِن مُعاشَرةِ العقلاء .

٣ ـ وعَطائيّ : وهو ما يُعطِيه اللّهُ للمؤمنين لِيهتدُوا به إلىٰ الإيمان .

٤ ـ وعقلُ الزُّهّاد : وهو الذي يكونُ به الزُّهْد .

٥ ـ وشَرَفيّ : وهو عقلُ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ، لأنه أشرَفُ العُقُول . انتهىٰ .

قال وَهبُ بنُ مُنبِّهٍ[1] رحمَهُ اللّه : قرأتُ في إحدىٰ وسَبعِينَ كتاباً فوجدتُ في جمِيعِها أنّ اللّهَ تعالىٰ لم يُعطِ جميعَ الناسِ مِن بَدءِ الدنيا إلىٰ انقضائها مِنَ العَقل في جَنْبِ عقلِه ﷺ إلا كحَبّةِ رَمْلٍ مِن جَمِيع رِمالِ الدنيا ، وأنّ محمداً ﷺ

---

(١) أبو عبد اللّه وهب بن منبّه الصنعاني الذماري (٣٤ ـ ١١٤هـ)، مؤرّخ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة، عالمٌ بأساطير الأولين لاسيما الإسرائيليات. يُعدُّ في التابعين. ولد ومات بصنعاء وولاّه عمر بن عبد العزيز قضاءها. له من المؤلفات: «قصص الأنبياء» و«قصص الأخيار» وغيرهما.

أرجَحُ الناسِ عقلاً وأفضَلُهم رأياً[١].

وفي «عَوارفِ المَعارِف» عن بعضِهم قال: اللُّبُّ والعَقلُ مِئةُ جُزء، تسعةٌ وتسعونَ في النبيِّ ﷺ وجزءٌ في سائرِ المؤمِنين. انتهىٰ.

ونقلَ العلائيُّ[٢] في «تفسِيرِه» عن ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللّٰهُ عنهُما: خلقَ اللّٰهُ العقلَ علىٰ ألفِ جُزء، فقَسَمَه بينَ العِباد، فتِسعُمِئةٍ وتِسعةٌ وتِسعُونَ للنبيِّ ﷺ، وواحِدٌ لجمِيع الخَلْق، ثم قَسَمَ الواحِدَ عَشَرةَ أقسام، تِسعةٌ للأنبياء عليهم الصّلاةُ والسّلام والأولياء، وواحدٌ لسائرِ الخَلْق، ثم قَسَمَ الواحِدَ عَشَرةَ أقسام، تسعةٌ للرجال وواحدٌ للنساء. انتهىٰ. مِن «نُزهة المَجالِس» للصَّفُّوريّ.

قلتُ: ومِن كلام الحبيبِ العارفِ باللّٰهِ عبدِ اللّٰهِ بن مُحسِنٍ العطّاسِ نفَعَنا اللّٰهُ به: العقلُ يَنقسِمُ إلىٰ أقسام: قُشُورٍ، وهو عَقلُ العامةِ منَ الناس، ولُبٍّ، وهوَ عقلُ أُولي الأبصار، ولُبِّ اللُّبِّ، وهو عقلُ أُولي الألباب، وهناك رتبةٌ رابعةٌ للعقل وهيَ بمنزِلةِ دُهْنِ اللُّبِّ، للحبيبِ الأعظم ﷺ. انتهىٰ. مِن «مجمُوعِ كلامِه».

فائدة:

قالَ بعضُهم: لمّا هبَطَ آدمُ عليه السلام، جاءه جِبرِيلُ عليه السّلام بالدِّينِ والمُرُوءةِ والعَقل فقال: إنّ اللّٰهَ يُخَيِّرُك في واحدة، فاختارَ العقلَ، فقال جِبرِيلُ للدِّينِ والمُرُوءة: اِصعَدا، فقالا: إنّ اللّٰهَ تعالىٰ أمرَنا أنْ نكونَ معَ العَقلِ حيثُ

---

(١) أخرج هذا الأثرَ عن وهبٍ: أبو نُعيم في «الحلية» (٤ : ٢٦).

(٢) أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد الرحمٰن البخاري الملقَّب بالزاهد العلائي ــ أو: العلاء، كما في بعض المصادر ــ الحنفي (ت ٥٤٦هـ). كان فقيهاً فاضلاً، مفتياً، مذكّراً، أصولياً، متكلِّماً. قيل: صنّف تفسيره في أزيدَ من ألف جزء.

كان. انتهىٰ. مِن «نُزهةِ المَجالسِ».

وقـالَ بعضُهم: خلَقَ اللّهُ الخَلْـقَ ثلاثـةَ أصناف: صِنفٌ لهُم شَهوةٌ بلا عَقل، وهم البَهائمُ وما شاكَلَها، وصِنفٌ لهُم عَقـلٌ بلا شَهوة، وهمُ الملائكة، وصِنفٌ لهُم عقلٌ وشَهوةٌ، وهم بنُو آدم، فمَن غلبَ عَقلُهُ علىٰ شَهوتِه كان خيراً مِن المـلائكة؛ إذ هو يُجاهِدُ نفسَهُ بقَمعِ الشهوةِ ويَحمِلُهـا علىٰ الطاعة، ومَن غَلَبـت شَهوتُـهُ علىٰ عَقلِهِ كانَ شرّاً منَ البَهـائم. انتهـىٰ. منَ «الإرشادِ» لابنِ العِماد[١].

ــ أوصافُ العُقَلاءِ وثَمَراتُ العقل:

واعلَم أنّ الإنسانَ لا تَظهَـرُ مَرتَبَتُه إلا بمقـدارِ مـا أُوتيَ مِنَ العَقل، ولا يَستحِقُّ وَصفَه بذلكَ إلا بانطِباقِ أفعالِه علىٰ أفعالِ العُقلاء، كما يقولُ الشاعر:

المَرْءُ لا يُعـرَفُ مِقـدارُهُ ... ما لم تَبِنْ للناسِ أفعالُهُ

قـالَ الإمـامُ الشافعـيُّ رضِيَ اللّهُ عنـهُ: العاقـلُ مَن عَقَلَـهُ عَقْلُـهُ عن كـلِّ مذمُوم. وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: الكيِّسُ العاقلُ هو الفَطِنُ المُتغافِل.

---

(١) الإمـام شهاب الدين أبو العبّـاس أحمد بن عمـاد بن يوسـف الأقفهـسي (٧٥٠ ــ ٨٠٨هـ) أخذ عن الإسنـوي والبلقيني والباجي وآخرين، ومهر وتقدَّم في الفقه. قال فيه الحافظ ابن حجر: أحـد أئمة الشافعيـة في هذا العصر.. كان كثيـر الفوائد كثير الاطّـلاع والتصانيف، دَمِثَ الأخلاق. من مؤلفاته: «شرح المنهـاج»، و«التعقبات علىٰ المهمّات»، ومنظومات عدة منها: «التبيان في آداب حَملة القرآن» و«منظومة في العقـائـد» و«منظـومـة في المعفـوّات» و«منظومـة في آداب الأكـل والشـرب والنوم والدعاء» مع شرحها، وغير ذلك.

وممّن يُعرف بابن العماد: ابنُ المترجم، العلاّمة الفقيه شمس الدين محمد بن أحمد ابن عمـاد الأقفهسي (٧٨٠ ــ ٨٦٧هـ)، من أهـل القاهـرة مولداً ووفـاةً، لـه بعض التصانيف، ووالده أشهر.

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «الحِكَم»: أدلُّ دَليلٍ علىٰ كَمالِ عَقلِ الرَّجلِ ثناؤه علىٰ أقرانِه، وأدلُّ دليلٍ علىٰ تواضُعِه رِضاهُ بالتأخيرِ في مَوطِنٍ يَستحِقُّ فيه التقدِيم، وأدَلُّ دَليلٍ علىٰ إخلاصِه عدمُ مبالاتِه بسُخْطِ الخَلْقِ في جَنْبِ الحقّ. وقال رضيَ اللّه عنه: ليسَ العاقِلُ مَن يُميِّزُ بينَ الخَيرِ والشرّ، ولكنّ العاقِلَ مَن يُميِّزُ بينَ خَيرِ الخَيرَينِ وشَرِّ الشرَّين، فيَعرِفُ أيَّ الخَيرَينِ أرجَحُ فيَتبعَهُ، وأيَّ الشرَّينِ أقبَحُ فيَترُكَه. انتهىٰ.

ومِن كلامِ سيِّدِنا العارفِ باللّهِ الحبيبِ عمرَ بن عبدِ الرّحمنِ العطّاسِ نفَعَ اللّهُ به: العاقلُ يُضَرُّ ولا يَضُرّ. ذكرَه سيِّدُنا الإمامُ عليُّ بن حسَن العطّاس في كتابه «القِرطاس»، ثم قال: يعني بالعاقِلِ هو العاقِلَ نفسَهُ بحَبلِ الشرع المَتِين عن مَحارِمِ اللّهِ القَويِّ المتِين، وهو الذي تَمَّ عَقلُه ودِينُه وصارَ من وَرَثةِ الأنبياءِ الذينَ وَرَّثَهُم محمّدٌ ﷺ الذي لو وُزِنَ عَقلُه بعُقُول جَمِيع الخَلْق لرَجَحَهُم. ولا تَظُنَّ أنّ العقلَ هو المَحذَقةُ بتَدبيرِ أمُورِ الدُّنيا، فإنّ أهلَ النارِ حِينَ نَدِمُوا لَعَدم هِدايتِهِم لِمَصالح الدِّينِ مع مَحذَقَتِهِم في الدنيا فيما قصَّ اللّه عنهُم قالوا: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وانظُرْ ما قالَهُ العاقِلُ الكبيرُ نبيُّ اللّهِ هابيلُ ابنُ نبيِّ اللّهِ آدَمَ حينَ أرادَ أخُوه قابيلُ قتْلَه وضررَه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨].

وقالَ عيسىٰ عليه السلام: مَن ضرَبكَ في جَنبكَ الأيمَن فقَدِّم له جَنبَك الأيسرَ، ومَن سَخَّرَك مِيلاً سِرْ معَهُ مِيلَين، ومَن أخذَ رِداءك فأعطِهِ إزارَك، فإنّ القِصاصَ أمامَه. يعني: أنّ اللّهَ لا يُغادِرُ صَغِيرةً ولا كبِيرةً إلا أحصاها. انتهىٰ. مِن «القِرطاس».

قالَ سيِّدُنا الإمامُ أحمدُ بْنُ زَينِ الحَبَشيُّ رضيَ اللّهُ عنه: العاقِلُ يأخُذُ

بالعلاماتِ في الأشياءِ ولا يَقطَعُ بها، وغَيرُ العاقِلِ يَقطَعُ بها.

وفي «تثبيتِ الفُؤاد» عنِ الحبيبِ القُطبِ عبدِ اللّهِ بْنِ عَلَوي الحدّاد رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: إذا أردتَ أنْ تَعرِفَ عَقلَ الرَّجُلِ مِن حُمْقِه فاسألْهُ عن مسألة، فإنْ أجابَكَ عنها ولم يَزِدْ عليها فهوَ عاقلٌ، وإنْ أتىٰ بها وذكرَ كلَّ ما في نفسِه وتكلَّم به فهوَ أحمَق. والفرقُ بينَهما أنّ العاقِلَ صحيحُ القَصْدِ والعَمَل، والأحمَقَ صَحِيحُ القَصْد دونَ العَمَل، والمَجنُونَ فاسِدُ القَصْدِ والعَمَل. وإذا أردتَ أنْ تَعرِفَ أنه ثقةٌ أم لا فاسألْهُ وأتقِنْ جوابَه، ثم امكُثْ مدةً ثم اسألْهُ عمّا سألْتَه أولاً، فإن تكلَّمَ ثانياً مثلَ كلامِه الأوّلِ فهوَ ثِقةٌ، وإن زادَ أو نقصَ ولم يكُن علىٰ ترتيبِ الأوّل فليسَ بثقة. انتهىٰ. أو كما قال.

فائدة:

قالَ بعضُ الحُكماء: علامةُ العَقلِ عشرٌ، خمسةٌ منها في الظاهِر، وخمسةٌ منها في الباطِن، أما الظاهر: فالصمت، والتواضع، وحُسْنُ الخُلُق، وصِدقُ القول، والعمَلُ الصّالح، وأما الباطِن: فالتفكُّر، والاعتِبار، والخُشُوع، والخَوف، وذِكرُ المَوت. انتهىٰ.

ـ فصلٌ في المقارنةِ بينَ العلمِ والعقل:

اختلَفَ العُلماءُ في العِلم والعَقل أيُّهما أفضَلُ، فقال بعضُهم: العقلُ أفضَل؛ لأنه مَنبَعُ العِلمِ وأُسُّه، وقال آخَرون: العلمُ أفضَل؛ لاستِلزامِه له، ولأنّ اللّهَ تعالىٰ يُوصَفُ بالعِلم لا بالعَقل.

وقد سُئِلَ شيخُ الإسلام زكَريّا الأنصاريُّ رحمَهُ اللّهُ عن هذِه المسألةِ فأجابَ بقولِه: إنّ العقلَ أفضَلُ مِنَ العِلم؛ لأنه مَنْبَعُه وأساسُه وسَبَبُ إدراكِه، ولأنّ الغَريزيَّ منه مَحْضُ خَلْقِ اللّهِ تعالىٰ، وإلىٰ ذلكَ أشارَ الغزاليُّ رضيَ اللّهُ عنه بقولِه: والعَقلُ أشرَفُ صِفاتِ الإنسان، والعِلمُ يَجرِي منه مَجرىٰ الثمَرِ مِنَ

الشجَر، والنُّورِ مِنَ الشمْس، والرُّؤيةِ مِنَ العَين، والقولُ بأنّ العلمَ أفضَـلُ منه إنما يَصِـحُّ مِن حيثُ استِلزامُه لـه، وليـسَ الكلامُ فيه؛ بل في التفضِيـلِ بينَهما مجرَّدَينِ. علىٰ أنّ بعضَهُم قال: العِلمُ أفضَلُ، ولهذا جازَ وَصفُ اللّهِ تعالىٰ به ولم يَجُزْ وَصفُهُ بالعَقل، والكلامُ في ذلكَ طَوِيلٌ، ولكنْ هذا كافٍ في الجوابِ عن السؤال، واللّهُ أعلَم. انتهىٰ كلامُ الشيخ زكَريّا رحمَهُ اللّهُ مِن «فتاويه».

ومِن كلام الشيخِ أحمدَ الرِّفاعيِّ[1] قَـدَّسَ اللّهُ سِرَّه: لا يَتِمُّ شَرَفُ العِلم للمَخلُوقِ إلا بالعَقل. وقال أيضاً: قالَ جماعةٌ بإعلاءِ قَدرِ العِلم علىٰ العَقل، ولكـنّ ذلكَ بالنسبةِ إلىٰ اللّه، لأنّ العِلمَ صِفَتُـه تعالىٰ والعقلَ صِفةُ المَخلُوق، وأمّا بالنسبةِ إلىٰ عِلمِنا وعَقلِنا فعَقلُنا أجَلُّ مَرتَبةً وأرفَعُ مَنزِلةً مِن عِلمِنا؛ إذْ لولا العَقلُ لمَا تَمَّ لنا العِلم. انتهىٰ.

ومِن حِكَمِ سيِّدِنـا القُطبِ عبدِ اللّهِ بْنِ عَلَـويّ الحـدّاد رضـيَ اللّهُ عنه: العـاقلُ الذي لا عِلمَ عندَه كالرَّشِيدِ الذي لا مالَ له، والعالِمُ الـذي لا عَقلَ له كصاحِـبِ المالِ الذي لا رُشْـدَ له. وقال رضـيَ اللّه عنه: اِسمَـعْ مـا يُقالُ عن الأوَّلِينَ أنّ منَ الناسِ مَنْ هُوَ كَثِيرُ العَقلِ قَلِيلُ العِلم، ومِنْهم مَنْ هُـوَ كَثِيرُ العِلم قَلِيلُ العَقل، والأوّلُ أفضَل. انتهىٰ.

وقال سيِّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بْنُ حُسَينِ بْنِ طاهِرٍ نفعَ اللّهُ به: العَقلُ أشرَفُ مِنَ العِلم، والعِلمُ مَعَ قِلّةِ العَقلِ قد يُطغِـي بصاحِبِـه، وقد قالـوا فـي ابنِ تيميّـةَ المُبتدِع: إنه يعتَمِدُ فيما ينقُلُه ويُحَدِّثُ بِهِ عن غيرِه بحَدْسٍ وتَخمِين، وذلكَ لأنه

---

(١) الإمام القدوة الولي الكبير، سيدنا القطب أبو العبّاس أحمد بن علي الرفاعي (٥٠٠ ـ ٥٧٨هـ)، أحد أولياء اللّه العارفين الكبار، أهل الكرامات الباهرة. تفقّه علىٰ مذهب الشافعي، وكان كتابُه: «التنبيه». كان متواضعاً رحيماً، يجمع الحطبَ ويحمله إلىٰ بيوت الأرامل والمساكين، وربما كان يملأ الماء لهم. ومناقبه أكثر من أن تُحصَر.

اتَّسَعَ في العُلُومِ مَعَ قِلَّةِ العَقلِ والتَّدبِيرِ حتىٰ أطغىٰ به[١]. انتهىٰ.

ومِن كـلامِ سيِّدِنا القُطبِ عبدِ الرَّحمنِ السقّـافِ رضـيَ اللّهُ عنه: الناسُ كلُّهُم فُقَـراءُ إلىٰ العِلـم، والعِلمُ فَقِيرٌ إلىٰ العَمَل، والعَمَلُ مُحتـاجٌ إلىٰ العَقل، والعَقلُ فَقِيرٌ إلىٰ التوفيق. انتهىٰ.

ـــ فصْلٌ في فضل العقل:

ويُستحسَنُ هنا أن نَذكُرَ شيئاً ممّا وَرَدَ منَ الآثارِ في شَرَفِ العَقلِ وفَضْلِهِ، إذ هُوَ مِن أعظَـمِ نِعَمِ اللّهِ علىٰ الإنسانِ، وبه يَتميَّـزُ عن سائـر المخلوقات مِن الحَيـوان، وقد رُوِيَ أنّ اللّهَ تعالىٰ خَلَـقَ الملائكـةَ مِن عَقلٍ بلا شَهْوة، وخَلَقَ البَهائـمَ مِن شَهْوةٍ بلا عَقل، وخَلَقَ الإنسـانَ مِن عَقلٍ وشَهْوة، فمَن غَلَبَ عَقلُه شَهوتَه التَحقَ بالملائكة، ومَن غَلَبَتْ شَهوتُه عَقلَه التَحقَ بالبَهائم.

وعنِ الحسَنِ البَصْريِّ رضيَ اللّهُ عنـه قالَ: لمّا خلَقَ اللّهُ عزَّ وجلَّ العقلَ قـالَ له: أقبِلْ فأقبَلَ، ثم قالَ له: أدبِرْ فأدبَـرَ، وقالَ: ما خلَقْتُ خَلْقاً هوَ أحبَّ إليَّ مِنْك، إني بكَ أُعبَد، وبكَ أُعرَف، وبكَ آخُذُ، وبكَ أُعطِي.

وقال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ رحمَهُ اللّه: إنّ الرَّجُلَيـنِ ليَستَوِيـانِ في أعمالِ البرِّ ويَكـونُ بينَهما كما بينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ أو أبعَدَ إذا كانَ أحدُهمـا أعقلَ منَ الآخَر.

وقـال لُقمـانُ الحَكِيمُ عليهِ السّـلامُ لابنِـه: يا بُنَيّ، ما عُبِـدَ اللّهُ بشَيءٍ

---

(١) تقدّم النقـل لفتوىٰ الحافظ ولي الدين العـراقي في الشيخ ابن تيميـة. وهذه الكلمة: «علمُه أكبر من عقله» قالها غيرُ ما إمامٍ في ابن تيمية، أولهم شيخ الإسلام تقي الدين السُّبكي كما في فتوىٰ العراقـي المذكـورة، فالصلاح الصفدي (الغيث المُسْجَم ٢: ٢٥٤)، فالولي العراقي كما في فتواه، فزرُّوق (شرح حزب البحر ص٦)، وغيرهم.

أفضَلَ منَ العَقل.

وعن مُطَرِّفِ بْنِ عَبدِ اللّهِ رحمَهُ اللّهُ قال: ما أُوتِيَ عَبدٌ بعدَ الإيمانِ باللّهِ تعالىٰ أفضَلَ مِنَ العَقل.

وعن مُعاويةَ بْنِ قُرّةَ رحمَهُ اللّهُ أنه كان يقول: إنّ القَومَ لَيَحُجُّونَ ويَعتمِرُونَ ويُجاهِدُون ويُصَلُّونَ ويصُومُون، وما يُعطَونَ يومَ القِيامةِ إلا علىٰ قَدْرِ عُقُولِهم.

ولقد أحسَنَ مَن قال:

يَعِيشُ الفتىٰ بالعَقلِ في الناسِ، إنهُ ... علىٰ العَقلِ يَجري عِلمُهُ وتَجارِبُهْ
إذا أكمَلَ الرحمنُ للمَرءِ عَقلَهُ ... فقد كَمُلَت أخلاقُهُ ومآرِبُهْ
وأفضَلُ قَسْمِ اللّهِ للمَرءِ عَقلُهُ ... وليسَ منَ الأشياءِ شَيءٌ يُقارِبُهْ

ــ مسألةٌ في مَحَلِّ العقل وصفتِه:

اختَلَفَ العُلماءُ في مَحَلِّ العَقل وصِفَتِه، فقال أبو حَنيفةَ وأحمدُ رضيَ اللّهُ عنهُما: إنّ محَلَّه الدِّماغ، وذهبَ الإمامُ الشافعيُّ ومالكٌ رحمَهُما اللّهُ وجُمهُورُ المتكلِّمينَ أنّ محَلَّه القلبُ وله نُورٌ يتّصِلُ بالدِّماغ، واستَدلُّوا بقولِه تعالىٰ: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، وقولِه تعالىٰ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [قٓ: ٣٧]؛ أي: عقلٌ، فعبَّرَ بالقلبِ عنه لأنه محَلُّه.

وأما صِفتُه فقال أحمدُ بنُ الحَسَنِ الأنصاريُّ: سألتُ الحارثَ المُحاسِبيّ[1] عن العَقلِ فقال: هو نُورُ الغَرِيزة، معَ التَّجارِب يَزِيدُ، ويَقوىٰ

---

(١) الإمام الكبير أبو عبد اللّه الحارث بن أسد المحاسبي (ت٢٤٣هـ)، عَلَم العارفين في زمانه، وأستاذ السائرين، الجامع بينَ علمَي الظاهر والباطن، شيخ الجنيد. سُمِّيَ (المحاسبي) لكثرة محاسبته لنفسه. من تصانيفه: «الرعاية لحقوق اللّه»، و«رسالة =

بالعِلمِ والحِلم . وقال إمامُ الحَرَمَين[١] : إنه صفةٌ إذا ثبتَتْ يتأتّىٰ بها التوصُّلُ إلىٰ العلومِ النظَريةِ ومقدِّماتِها من الضروريات التي هيَ مِن مستَنَدِ النظريات . نقلَه ابنُ السُّبْكيّ في «الطبقاتِ» ثم قال : وهو مِن الإمامِ بناءٌ علىٰ أنّ العقلَ ليسَ بعِلم ، والمَعزُوُّ إلىٰ الشيخِ أبي الحسَنِ الأشعريِّ أنه العِلم . انتهى[٢] . وقال بعضُهم : هو نورٌ رُوحانيٌّ تُدرِكُ به النفسُ العُلُومَ النظريةَ بواسِطةِ الضرورية .

فائدة :

ذكرَ الحَنّاطِيُّ[٣] عن ابنِ عباس رضيَ اللّه عنهما قال : «يُميِّزُ الغُلامُ لِسَبْعِ سِنين ، ويَحتَلِمُ في أربعَ عشْرةَ ، ويَتِمُّ طولُه لأحدىٰ وعِشرين ، ويتِمُّ عَقلُه لثمانٍ وعِشرين ، ثم لا يَزدادُ بعدَ ذلكَ عقلُه إلا بكثرةِ التجارِب» . انتهىٰ . نقَلَه في «نُزهةِ المَجالِس» .

وأفادَ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَويّ الحدّادُ رضيَ اللّهُ عنه : أنّ الإنسانَ في أوّلِ أمرِه في حالِ صِغَرِه مَجبُولٌ علىٰ كَثرةِ الحَرَكةِ ضَرُورةً ، حتىٰ قال بعضُهم : لو أُمسِكَ الصبيُّ عن الحرَكةِ لتقطّعَتْ كَبِدُه ، فلم يَزَلْ في زيادةٍ مِن عقلِه ونَقصٍ

= المسترشدين» ، و«التوهُّم» ، و«شرح المعرفة» ، وغيرها ، وتصانيفه نفيسةٌ في بابها .

(١) الإمام الكبير إمام الحرَمين أبو المعالي عبد الملك بن الإمام أبي محمد عبد اللّه بن يوسف الجويني الشافعي (٤١٩ ــ ٤٧٨هـ) . قال السمعاني : كان أبو المعالي إمامَ الائمةِ علىٰ الإطلاق ، مُجمَعاً علىٰ إمامته شرقاً وغرباً ، لم ترَ العيونُ مثلَه .
من تصانيفه : «نهاية المطلب في دراية المذهب» ، و«الإرشاد» ، و«البرهان في أصول الفقه» ، و«غياث الأُمَم» ، وغيرها .

(٢) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (٢ : ٢٨١ ، ٢٨٣) .

(٣) الإمام أبو عبد اللّه الحسين بن محمد بن عبد اللّه الحَنّاطي الطبَري (ت حوالي ٤٠٠هـ) . إمامٌ جليل من أئمة المذهب ومن أصحاب الوجوه فيه ، له «فتاوىٰ» لا تزال مخطوطة .

مِن حَرَكتهِ، كُلّما ازدادَ عَقلُه ازدادَتْ حركتُه نَقْصاً، حتىٰ يَبلُغَ اثنتَينِ وعِشرِينَ سنةً، وهذا بُلُوغُ الأشُدّ، وهوَ آخِرُ ما تَنتهي إليهِ زيادةُ العَقل، ثمّ لَم يَبْقَ بعدَ ذلكَ إلا التجارِب، وهيَ مِن زيادةِ العَقل، فيَفهَمُ أنّ ما يَضُرُّه يَضُرُّ غيرَه، وما يَنفَعُهُ يَنفَعُ غيرَه، وما يَكرَهُه يَكرَهُهُ غيرُه، وعلىٰ هذا إلىٰ آخرِ العمُر. ثمّ إذا بلغَ الأربعِينَ فقدِ استَوىٰ. وأكثرُ الأنبياءِ لم يُرسَلْ إلا بعدَ بُلُوغ الأشُدِّ والاستواءِ إلا ثلاثةً: عيسىٰ ويحيىٰ، وأُوحِيَ إلىٰ يُوسُفَ بعدَ بلوغِ الأشُدِّ وقبلَ الاستِواء، ولذلك قال تعالىٰ في حقّه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [يوسف: ٢٢] ولم يقل: (واستوىٰ)، وقال ذلك في حقِّ موسىٰ عليهما السلام. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

وقِيلَ في مَنثُورِ الحِكَم: مَنْ طالَ عُمُرُه نَقَصَتْ قُوّةُ بَدَنِه وازدادَتْ قُوةُ عقلِه. قال الشاعرُ:

إذا طالَ عُمْرُ المَرْءِ مِن غيرِ آفةٍ أفادَتْ لهُ الأيامُ في كَرِّها عَقْلا

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني
في المفاضلة بين شرف العلم وشرف النسب

قَالَ الشيخُ العلاّمةُ عبدُ اللّهِ بنُ أحمدَ باسَوْدانَ[(١)] في كتابه «فَيضِ الأسرار»:

قال بعضُ العُلماء: واختَلَفَ الأئمّةُ أيُّهُما أفضَلُ: شَرَفُ العِلم أم شَرَفُ النسَبِ النبويّ؟ فذهبَ جَمعٌ إلىٰ تفضِيلِ الثاني، قالوا: لأنه ذاتيٌّ والثاني عَرَضيّ، ثم رجَّح الأولَ.

وقد وقَفتُ علىٰ نقلٍ معزُوٍّ إلىٰ سيّدي العارفِ باللّهِ تعالىٰ السيّدِ وَجيهِ الدِّينِ عبدِ الرَّحمنِ بْنِ مصطفىٰ العَيدَرُوس باعَلَوي قَدَّسَ اللّهُ روحَه يتضمَّنُ صورةَ مناظرةٍ بينَ القائلِ بتفضِيلِ شَرَفِ النَّسَبِ والقائلِ بتفضِيلِ شَرَفِ العِلم، ومِن جُملَتِها: أنّ القائلَ بتفضِيلِ شَرَفِ النَّسَبِ أوردَ علىٰ القائلِ بتفضِيلِ

---

(١) الإمام العلاّمة الفقيه المتفنن، الصوفي الذائق، الشيخ عبد اللّه بن أحمد بن عبد اللّه باسَوْدان الكِنْدي الحضرمي الشافعي (١١٧٨ ــ ١٢٦٦هـ). أحد كبار علماء حضرموت في عصره، وصاحبُ المصنفات المباركة النافعة، كـ«الأنوار اللامعة شرح الرسالة الجامعة»، و«ذخيرة المعاد بشرح راتب الحدّاد»، و«زيتونة الإلقاح في فقه النكاح»، و«فيض الأسرار»، و«عدة المسافر»، وغيرها. وترجمته بتوسُّع في مقدمة تحقيق «الأنوار اللامعة» له.

شَرَفِ العِلم أنه إذا جُنَّ الشريفُ هل يُسمّىٰ شَرِيفاً أم لا؟ فقال: نَعَم يُسمّىٰ شريفاً، قال: فالعالِمُ إذا جُنَّ لا يُسمّىٰ عالِماً، فحِينَئذٍ قامَت الحُجّةُ واتّضَحَ الفرقُ بينَ الشرفِ الذاتيِّ والعَرَضيّ، وهذا الخلافُ معَ فَرْضِ أنّ الشرَفَ الذاتيَّ عارٍ عن العَرَضيّ، والكلُّ فضْلُ اللّه. انتهىٰ.

وذكَرَ سيّدُنا وجيهُ الدِّينِ عبدُ الرحمنِ بْنُ مُصطفىٰ العَيدَرُوسُ قدَّسَ اللّهُ سرَّه في تَرجمتِه لسيِّدِنا رأسِ المكاشَفِينَ عبدِ اللّهِ باحُسَينٍ السقّافِ[1] رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: وقد أخبَرَني بعضُ الثقاتِ عنِ العلاّمة شيخِ المشايخِ أبي الحَسَنِ السِّنْدِيّ المَدَنيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ مُحشِّي الكتبِ السِّتةِ في الحديثِ وغيرِها[2] أنه سُئِلَ في دَرْسِه: مَن أفضَلُ: الشريفُ أو العالِم؟ فحَصَلَ له عندَها استغراقٌ وطَأطأَ رأسَه إلىٰ الأرضِ ما شاءَ اللّهُ تعالىٰ، ثم رفعَ رأسَه وقال: شَرِيفٌ جاهلٌ ــ أو قال: شريفٌ واحدٌ ــ أفضَلُ مِن سَبعِينَ عالماً. انتهىٰ.

* * *

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ حُجّةُ الإسلام الغزاليّ رحمَهُ اللّه: شَرَفُ النسَب مِن ثلاثِ جِهات:

أحدُها: الانتماءُ إلىٰ شَجَرةِ رسُولِ اللّهِ ﷺ، فهذا لا يُعادِلُه شيءٌ.

الثانية: الانتماءُ إلىٰ العُلماء، فإنهُم وَرَثةُ الأنبياءِ صَلَواتُ اللّهِ وسَلامُه عليهم.

---

(١) لعله الذي ترجم له في «السناء الباهر»، وكانت وفاته بتريم سنةَ ٩٩٥هـ.

(٢) العلاّمة المحدِّث أبو الحسن محمد عابد بن أحمد بن علي السندي الأنصاري الحنفي (ت ١٢٥٧هـ)، رئيس علماء المدينة المنورة، وأحد أئمة الحديث في عصره. له من المؤلفات: «حصر الشارد من أسانيد محمد عابد»، و«ترتيب مسند الإمام الشافعي»، وعددٌ من الحواشي الحديثية، وغير ذلك.

الثالثة: الانتماءُ إلىٰ أهلِ الصّلاحِ والتقوىٰ، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]. انتهىٰ.

* * *

قلت: وممّن أفتىٰ بترجيح شَرَفِ النسَبِ علىٰ شَرَفِ العِلم الشيخُ العلاّمةُ أحمدُ بنُ محمدِ بْنِ حَجَرِ الهَيْتَمِيّ رحمَه اللّه تعالىٰ، ونصُّ عبارتِه كما في «فتاوِيه» بعدَ أن سُئل: هل الشريفُ الجاهِلُ أم العالِمُ العامِلُ أفضَل، وأيُّهما أحقُّ بالتوقِير إذا اجتَمَعا، أو أرادَ شخصٌ التقبِيلَ فأيُّهما يَبدأُ به؟

فأجابَ بقولِهِ رضِيَ اللّهُ عنه: في كلٍّ منهُما فَضلٌ عَظِيم، أما الشريفُ فلِمَا فيه من البِضْعةِ الكَريمةِ التي لا يُعادِلُها شيءٌ، ومِن ثَمَّ قالَ بعضُ العُلماء: لا أُعادِلُ ببِضْعةِ رسولِ اللّه ﷺ أحداً. وأمّا العالِمُ العامِلُ فلِمَا فيه مِن نَفعِ المسلمِينَ وهِدايةِ الضالّين، فهُم خُلفاءُ الرُّسُلِ ووارِثُو عُلُومِهم ومعرفتِهم. فيتعَيّنُ علىٰ الموفَّقِ أنْ يَرىٰ للكُلِّ مِن العُلماءِ والأشرافِ حقَّهم مِن التوقِير والتعظِيم، والمَبدُوءُ به إذا اجتمَعا الشريفُ؛ لقوله ﷺ: «قَدِّمُوا قُرَيشاً»[1]، ولِمَا فيهِ مِن البِضْعةِ الشريفة. انتهىٰ.

* * *

---

(١) «قدِّموا قريشاً ولا تقدَّموها»: أخرجه البزّار في «مسنده» (٢: ١١٢)، من حديث عليّ رضِيَ اللّه عنه. قال الحافظ في «الفتح» (٦: ٥٣٠): أخرجه عبد الرزّاق بإسنادٍ صحيح لكنه مرسَل، وله شواهد.

الفصل الثالث
في الإشارة إلى كثرة العلوم واتساعها

اِعلَمْ أنّ العِلمَ بحرٌ متلاطمٌ لا آخِرَ له. قالَ ٱبنُ لُقمانَ لأبيه: مَن يحيطُ بكلِّ العِلم؟ قال: الخَلقُ كلُّهم. أي: مجموعُهم لا جميعُهم، هذا فيما أوتوا.

وقالَ بعضُ العارفين: الذي ظهَرَ منَ العِلمِ والذي سيظهَرُ هُوَ من القليلِ الذي أوتِيَهُ الخَلقُ المُشارُ إليهِ بقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وعن سعيدِ بنِ جُبيرٍ رحمَهُ اللّه، عن ٱبنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما ــ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦] ــ قال: يكونُ هذا أعلَمَ من هذا، وهذا أعلَمَ مِن هذا، واللّهُ فوقَ كلِّ عليم.

وروىٰ ٱبنُ عباسٍ، عن أُبيِّ بنِ كعبٍ قصّةَ الخَضِرِ معَ موسىٰ عليهِما السّلام، واقتصَّ الحديثَ إلىٰ أن قال: وجاءَ عصفورٌ علىٰ حرفِ السفينة، فَنقَرَ في البحرِ نقْرةً، فقال الخَضِرُ لموسىٰ عليهِما السّلام: ما نقَصَ عِلمي وعِلمُكَ مِن عِلمِ اللّهِ تعالىٰ إلا مثْلَ ما نقَصَ هذا العُصفورُ مِن هذا البحر[١].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٤٠١).

فائدة:

قالَ أحمـدُ بنُ إبراهيمَ الإسماعيلـيُّ[1] رحِمَهُ اللّهُ في معنىٰ قولِ الخَضِرِ عليهِ السّلام: «ما نقَصَ عِلمي وعِلمُك مِن عِلمِ اللّهِ. .» إلخ: هذا لهُ وَجهان: أحدُهما أنّ نقْر العصفورِ ليسَ بناقصٍ للبحر، فكذلكَ عِلمُنا لا ينقُصُ مِن عِلمِهِ شيئاً. وهذا كما قيل:

ولا عيبَ فينا غيرَ أنَّ سيوفَنا بِهِنَّ فلولٌ مِن قراعِ الكتائبِ

أي: ليس فينا عيبٌ. وعلىٰ هذا قولُ اللّهِ عزَّ وجَلّ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، أي لا يسمَعونَ فيها لغْواً ألبتَّة.

والوجـهُ الآخرُ أنّ قدْرَ ما أخَذناهُ جميعاً مِن العِلمِ إذا اعتُبِرَ بعلمِ اللّهِ عزَّ وجَلَّ الذي أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلماً لا يبلُغُ مِن عِلمِ معلوماتِهِ في المِقدارِ إلاّ كما يبلُغُ أخْذُ هذا العُصفورِ منَ البحر، فهُوَ جزءٌ يسيرٌ فيما لا يدرَكُ قدْرُه، فكذلكَ القَدْرُ الذي عَلَّمَناهُ اللّهُ تعالىٰ بالنسبةِ إلىٰ ما يعلَمُهُ عزَّ وجَلَّ كهذا القَدْرِ اليسيرِ مِن هذا البحر. واللّهُ وليُّ التوفيق. انتهىٰ. ذكَرَ ذلكَ الحافِظُ البَيْهقيُّ في كتابِهِ «الأسماءِ والصِّفات».

❊ ❊ ❊

---

(١) الإمام الحافظ الحجة الفقيه أبو بكر أحمد بن إبراهيم الجُرْجاني الإسماعيلي الشافعي (٢٧٧ ـ ٣٧١هـ). قال الإمام الحاكم: كان الإسماعيلي واحدَ عصره، وشيخَ المحدِّثين والفقهاء، وأجلَّهم في الرئاسة والمروءة والسخاء. انتهى. قال الحافظ الذهبي: صنَّف تصانيفَ تشهدُ له بالإمامةِ في الفقهِ والحديث، عمل «مسندَ عمر» رضيَ اللّه عنه في مجلَّدتين، و«المستخرج علىٰ الصحيح [للبخاري]» أربع مجلدات، وغير ذلك.

الفصل الرابع
في الإشارة إلىٰ علومه عليه الصّلاة والسّلام

عن أبـي زيدٍ الأنصاريِّ رضيَ اللّه عنـه قـال: صلَّىٰ بنا رسولُ اللّهِ ﷺ الصُّبْح، ثمّ صَعِدَ المِنْبَر، فخَطَبَنا حتىٰ حَضَـرَتِ الظُّهر، ثمّ نزلَ فصلَّىٰ الظُّهرَ، ثمّ صَعِدَ المِنبر، فخَطَبَنا حتىٰ حضَرتِ العَصر، ثمَّ نزلَ فصّلىٰ العصرَ، ثمَّ صَعِدَ المِنبـرَ، فخَطَبَنا حتّىٰ غابتِ الشّمـس، فحَدَّثَنا بما كانَ وما هُوَ كائنٌ، فأعْلَمُنا أحفَظُنا(١).

وقـالَ أبو ذرٍّ رضِيَ اللّهُ عنهُ: لقد تَرَكَنـا رسولُ اللّهِ ﷺ وما يُحرِّكُ طائرٌ جَناحَيهِ في السماءِ إلا أذْكَرَنا منهُ عِلماً(٢).

وعن عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قامَ فينا رسولُ اللّهِ ﷺ مَقاماً، فأخْبَرَنا عن بَدْءِ الخَلْق، حتّىٰ دخَلَ أهلُ الجنَّةِ منازلَهُم وأهلُ النّارِ منازلَهُم، حَفِظَ ذلكَ من حَفِظَهُ ونَسِيَهُ مَن نَسِيه(٣).

قـالَ الإمـامُ السُّيُـوطيُّ رحمَهُ اللّه في «الخصـائص»: أُوتِيَ ﷺ عِلمَ كلِّ شيءٍ إلا الخمسَ التي في آخرِ لُقمان، وقيل: إنّهُ أوتيَ عِلمَها في آخرِ الأمرِ لكنْ

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٨٩٢) وأحمد (٥: ٣٤١) واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد (٥: ١٥٣)، من حديث أبي ذر رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٩٢) تعليقاً جازماً من حديث عمر رضيَ اللّه عنه.

أُمِرَ فيها بالكِتمان، وهذا القِيلُ هُوَ الصحيح. ومعَ هذا فقد أَمَرَهُ اللّهُ تعالىٰ بأنْ يقولَ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، فبانَ بذلكَ أنّهُ لم يزلْ في نفْسِهِ مترقِّياً في الكَمالاتِ والعلومِ التي لا تتناهىٰ. انتهىٰ. مِن «جواهرِ البِحار»[١].

قال سيّدُنا الإمامُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضيَ اللّهُ عنهُ: لا يُقالُ في حقِّ النبيِّ ﷺ: إنه انتقَلَ مِن حالةِ نقْصٍ إلىٰ كمال، بل هُوَ في الكمالِ في جميعِ أحوالِه، ومَسيرُهُ كلُّهُ كمالٌ حتىٰ عندَ وِلادتِه، ولِدَ رافعاً بصرَهُ إلىٰ السّماءِ حتّىٰ ماتَ في الكمالِ ﷺ. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عبدِ اللّهِ بنُ مُحسِنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به: عُلومُهُ ﷺ أربعةُ أنواع: عِلمٌ أُمِرَ بالعمَلِ بمُقتضاهُ وإيجابِ العمَلِ بهِ علىٰ الأُمّةِ وهِيَ الفرائض، وعِلمٌ أُمِرَ بالعمَلِ بمقتضاهُ وأمَرَ أُمّتَهُ بالعمَلِ بهِ علىٰ سبيلِ النّدْبِ وهُوَ السُّنن، وعِلمٌ أُمِرَ بالعمَلِ بمقتضاهُ في خاصّتِهِ فقَطْ وهُوَ الخصائصُ النبَويّة، وعِلمٌ اُكتَتَمَ في سِرِّهِ ولم يؤمَرْ فيهِ بعمَل. انتهىٰ. مِن «مجموع كلامِه».

وقالَ السيّدُ أحمدُ بنُ إدريسَ المَغربيُّ رحِمَهُ اللّه: علَّمَ اللّهُ نبيّهُ ﷺ ليلةَ أُسرِيَ بهِ ثلاثةَ علوم: عِلمَ الشريعة، وعلمَ الخواصّ، وعِلمَ خَواصِّ الخَواصّ. فعِلمُ الشريعةِ في جميعِ الأُمّة، يعلَمُها الخاصُّ والعامّ. وعِلمٌ لا يعلَمُهُ إلا الخَواصّ، وعِلمٌ لا يعلَمُهُ إلا خَواصُّ الخَواصّ، وهُوَ معنىٰ قولِ عليٍّ كرَّمَ اللّهُ وجهَهُ ورضِيَ اللّهُ عنهُ: ههُنا علمٌ ــ وأشارَ إلىٰ صدرِهِ ــ ما وجَدْتُ لهُ حمَلَة، وقولِ أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: أخَذْتُ وعاءَينِ مِن عِلمٍ عن رسولِ اللّهِ ﷺ: أمّا أحدُهُما فبثَثْتُه، وأمّا الآخَرُ فلو بثَثْتُه لقُطِعَ منّي هذا البُلعوم[٢]. انتهىٰ. مِن «العِقدِ النّفيس».

---

(١) للعلاّمة الشيخ يوسف النبهاني، والشيخ يوسف تقدّمت ترجمتُه ص ٣٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٢٠)، وقد تقدّم ص ٣١٤.

الفصل الخامس
في ذكر علوم الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمّة

ــ علُومُ الصَّحابة :

قالَ مسـروق : شامَمْتُ أصحابَ محمّـدٍ ﷺ فوجَدتُ علمَهُمُ انتهىٰ إلىٰ ستةِ نفرٍ هم : عمرُ، وعليٌّ، وأُبيُّ بنُ كعبٍ، وأبو ذرٍّ الغِفاريُّ، وأبو الدَّرداءِ، وزيدُ بنُ ثابت، ثمّ شمَمْتُ هؤلاءِ الستةَ فوَجَدتُ عِلمَهُم انتهىٰ إلىٰ رجُلَين هما : عليٌّ وعبدُ اللّهِ بنُ مسعود. انتهىٰ.

وعن مسروقٍ رحِمَهُ اللّهُ أيضاً قال : انتهىٰ عِلمُ أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ إلىٰ أربعةٍ هم : عمرُ وعليٌّ وٱبنُ مسعودٍ وعبدُ اللّهِ بنُ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهم. انتهىٰ.

* * *

أقول : أمّا عمرُ بنُ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنهُ فيدُلُّ علىٰ كثرةِ عِلمِهِ قولُـهُ ﷺ : «بينَمـا أنا نائمٌ أُتيتُ بقَدَحِ لبنٍ فشَرِبْتُ حتَّىٰ أنّي لأَرَىٰ الرِّيَّ يخـرُجُ مِن أظفاري، ثمّ أعطيتُ فَضْلي عمرَ بنَ الخطاب». قالوا : فما أوَّلتَهُ يا رسولَ اللّهِ؟ قال : «العِلم»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٨٢) ومسلمٌ (٢٣٩١)، من حديث ابن عمر رضيَ اللّه عنهما.

وقالَ ٱبنُ مسعودٍ رضِيَ اللّهُ عنه: لو أنّ عِلمَ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُ وُضِعَ في كِفّةِ ميزانٍ ووُضِعَ عِلمُ أحياءِ الأرضِ في كِفّةٍ لَرَجَحَ عِلْمُ عمرَ علىٰ عِلمِهم، ولقد كانوا يرَوْنَ أنهُ ذهَبَ بتسعةِ أعشارِ العِلم[١].

قالَ الشَّعْبيُّ رحمَهُ اللّه: إذا اختَلَفتِ الصحابةُ رضيَ اللّهُ عنهم في شيءٍ فاتَّبِعْ وخُذْ بما قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللّهُ عنه، فإنَّهُ لا يُفتي إلاّ بعدَ كمالِ الاحتياطِ والتحرِّي.

وقالَ سعيدُ بنُ المُسيِّب: ما أعلَمُ أحداً بعدَ رسولِ اللّهِ ﷺ أعلَمَ مِن عمرَ ابنِ الخطاب.

***

وأمّا **الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ** فقد رُوِيَ عنهُ أنهُ قال: قُلت: يا رسولَ اللّهِ، أَوْصِني. قال: «قُلْ: ربِّيَ اللّه، ثمّ استَقِمْ»، فقُلت: ربِّيَ اللّه، وما توْفيقي إلا باللّه، عليهِ توكَّلتُ وإليهِ أُنيب. فقال: «وليَهْنَكَ العِلمُ أبا الحسَن، قد شربتَ العِلمَ شُرباً ونهلْتَهُ نَهْلاً»[٢].

وفي الحديثِ أنّ فاطمةَ رضِيَ اللّهُ عنها شكَتْ إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ الفاقةَ فقال: «أَوَما تَرْضَيْنَ أنّي زَوَّجتُكِ علىٰ أقْدَمِهِم سِلْماً وأكثرِهم عِلْماً وأعظَمِهِم حِلْماً؟!»[٣].

قالَ سيّدُنا القُطْبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: سمِعنا فيما بلَغَنا عنهُ أنّ سيّدَنا عليّاً كرَّمَ اللّهُ وجهَهُ لمّا ٱزدَحمَتِ العلومُ في قلبِه، وشَكا

---

(١) أخرجه ابنُ سعدٍ في «الطبقات الكبرىٰ» (٢ : ٣٣٦).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١ : ٦٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٥ : ٢٦).

مِن عدَمِ مَن يحمِلُها عنه، أتىٰ إلىٰ بئرٍ وتنفَّسَ فيها، ففاضَ الماءُ علىٰ جوانبِها، فنَبَتَ مِن ذلكَ شجرُ اليَراع.

وعن أبي الطُّفيلِ[1] قال: شهِدتُ علياً رضِيَ اللّهُ عنهُ يخطُبُ وهُوَ يقول: سَلوني، فواللّهِ لا تسألوني عن شيءٍ يكونُ إلىٰ يومِ القيامةِ إلا أخبَرتُكم به. سَلوني عن كتابِ اللّه، فواللّهِ ما مِن آيةٍ إلا وأنا أعلَمُ أَبليلٍ نزَلتْ أم بنهارٍ أم في سهلٍ أم في جبل. انتهىٰ.

وقالَ سعيدُ بنُ المُسيِّب: كانَ عمرُ بنُ الخطابِ يتعوَّذُ باللّهِ مِن مُعضِلةٍ ليسَ لها أبو الحسَن.

قلت: أبو الحسَن: عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ، والمُعضِلةُ: المسألةُ يشقُّ ويعسُرُ حلُّها.

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللّهُ عنهما: أُعطيَ عليٌّ رضيَ اللّهُ عنهُ تسعةَ أعشارِ العِلم، وواللّه، لقد شارَكَهُم في العُشرِ الباقي. قال: وإذا ثبت لنا الشيءُ عن عليٍّ لم نعدِلْ إلىٰ غيرِه.

وقالَ ابنُ المُسيِّب: ما كانَ أحدٌ يقول: «سَلوني» غيرَ عليٍّ كرَّمَ اللّهُ وجهَه. انتهىٰ. مِن «تهذيبِ الأسماءِ» للنّوَويّ.

يُروىٰ مِن عجائبِ الإمامِ عليٍّ كرَّمَ اللّهُ وجهَهُ أنهُ كانَ إذا سُئلَ عن مُعضِلاتِ المسائلِ أجابَ عنها بديهةً مِن غيرِ تأمُّل. مِن ذلكَ جوابُهُ رضِيَ اللّهُ

---

(١) أبو الطفيل عامر بن واثلةَ الليثي الحجازي الصحابي (ت ١١٠هـ)، آخرُ عينٍ رأتْ رسولَ اللّه ﷺ في هذه الدنيا، رأىٰ النبي ﷺ وهو في حجة الوداع وهو يستلمُ الركنَ بمِحْجَنِه ثم يقبِّلُ المِحْجَن. كان أبو الطفيل عالماً شاعراً فارساً، عمِّر دهراً طويلاً، وشهد معَ سيدنا عليٍّ حروبَه، وكان شديدَ الحبِّ له.

عنهُ في المسألةِ المِنبَريّةِ المشهورة، وهِيَ: زوجةٌ وبنتانِ وأمٌّ وأبٌ، فقد سُئلَ عنها وهُوَ يخطُبُ علىٰ مِنبَرِ الكوفة، فأجابَ علىٰ البديهة: صارَ ثُمُنُها تُسعاً.

ومنها أنّ امرأةً جاءَتهُ تشكو القاضيَ شُرَيحاً[١]، قالتْ له: ماتَ أخي عن سِتِّمِئةِ دينار، فأعطاني ديناراً واحداً. فقالَ كرَّمَ اللّهُ وجهَهُ علىٰ البديهة: لعلَّ أخاكِ خلَفَ سواك زوجةً وأُمّاً وابنتينِ واثني عشَرَ أخاً، فقالت: نعمْ. فقال: ذلكَ حقُّكِ.

***

وأمّا **عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ** فكانَ يقالُ له: وِعاءٌ حُشِيَ عِلماً.

وأخرَجَ ٱبنُ جريرٍ[٢] عن ٱبنِ مسعودٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: والذي لا إلهَ غيرُه، ما مِن آيةٍ مِن كتابِ اللّهِ إلا وأنا أعلَمُ فيمَن نزَلَتْ وأينَ نَزَلَت ومتىٰ نَزَلَت، ولو أعلَمُ مكانَ أحدٍ هُوَ أعلَمُ بكتابِ اللّهِ منّي تَنالُهُ المَطايا لأتيتُه.

وأخرَجَ السِّلَفيُّ[٣] في «المُختارِ منَ الطُّيوريّاتِ» عنِ الشَّعبيِّ قال: لَقِيَ

---

(١) شُريح القاضي: أبو أميّة شريح بن الحارث الكِنْدي (ت ٨٠هـ). أسلمَ في حياة النبي ﷺ، وانتقل مِنَ اليمن زمنَ الصدِّيق. ولي قضاءَ الكوفة ستينَ سنة. كان فقيهاً بارعاً من أعلم الناس بالقضاء.

(٢) الإمام العَلَم المجتهد، عالمُ عصره، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ ـ ٣١٠هـ). قال الحافظ الذهبي: أكثر الترحال، ولقيَ نبلاءَ الرجال، وكان من أفراد الدهر علماً وذكاءً وكثرةَ تصانيف، قلَّ أن ترىٰ العيون مثلَه... وكان من كبار أئمة الاجتهاد. انتهىٰ. وكان مع ذلك زاهداً في الدنيا، قانعاً بالقليل، لا تأخذه في الله لومةُ لائم. من تصانيفه الفائقة العظيمة: تفسيره «جامع البيان في تفسير القرآن»، و«تاريخ الأمم والملوك»، و«تهذيب الآثار»، وغيرها.

(٣) الإمام العلاّمة الحافظ الكبير أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني السِّلَفي (٤٧٥ ـ ٥٧٦هـ). قال التاج السبكي: كان حافظاً جليلاً، وإماماً كبيراً، واسعَ الرحلة، ديِّناً، =

عمرُ بنُ الخطابِ رضَيَ اللّهُ عنهُ ركْباً في سفَرٍ فيهِمُ ٱبنُ مسعودٍ رضِيَ اللّهُ عنه. فأمَرَ رجلاً يُناديهم: مِن أينَ القوم؟ قالوا: أقبَلْنا مِن الفجِّ العميقِ نريدُ البيتَ العتيق. فقالَ عمر: إنّ فيهم لعالِماً، وأمَرَ رجلاً أنّ يُناديَهم: أيُّ القرآنِ أعظَم؟ فأجابَـهُ عبدُ اللّه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: نادِهِم أيُّ القرآنِ أحكَـم؟ فقـال ٱبنُ مسعود: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠]، قـال: نادِهِـم أيُّ القـرآنِ أجمَـع؟ فقـال: ﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ﴾ [الزلـزلـة: ٧ ـ ٨]، قـال: نادِهْـم أيُّ القـرآنِ أحـزَن؟ فقـال: ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣]، قـال: نادِهْـم أيُّ القـرآنِ أرجـىٰ؟ قـال: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ .. ﴾ الآيةَ [الزمر: ٥٣]. فقـال: أفيكُـمُ ٱبنُ مسعـود؟ قالوا: نعمْ. انتهىٰ. نَقَلَهُ في «الإتقان».

قـالَ عبدُ اللّهِ بنُ بُرَيدة[١] في قـولِه تعـالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ ﴾ [محمد: ١٦]، قال: هُوَ عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ رضِيَ اللّهُ عنه. ذكَرَهُ ٱبنُ القَيّمِ في «أعلامِ المُوَقِّعين».

* * *

وأمّـا **عبدُ اللّهِ بنُ عبّاسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُمـا** فكـانَ يُقـالُ لـهُ: حَبْرُ الأُمّـةِ وتُرجمانُ القرآن.

= وَرِعاً، حجةً، ثبتاً، فقيهاً، لغوياً، انتهىٰ إليه علوُّ الإسناد، مع الحفظ والإتقان.

(١) أبو سهل عبد اللّه بن بُرَيدة بن الحُصَيْب الأسلمي المروزي (١٥ ــ ١١٥هـ)، الإمام الحافظ الثقة التابعي، شيخ مَرْو وقاضيها. حدَّث عن أبيه فأكثر، وعن السيدة عائشة وأبـي موسىٰ والسيدة أم سلمـة وأبي هريـرة وطائفةٍ من الصحـابة، وكـان من أوعية العلم.

قال مُجاهد: كانَ ابنُ عباسٍ يُسمّىٰ البحرَ لكثرةِ عِلمِه. ولمّا ماتَ ابنُ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما قالَ محمّدُ بنُ الحَنفيّة: ماتَ ربَّانيُّ هذهِ الأُمّة.

وقالَ عبيدُ اللّهِ بنُ عبدِ اللّهِ بنِ عُتبة[1]: ما رأيتُ أحداً أعلَمَ منَ ٱبنِ عباس بما سبَقَهُ مِن حديثِ رسولِ اللّهِ ﷺ وبقضاءِ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ رضِيَ اللّهُ عنهُم، ولا أفْقَهَ منهُ ولا أعلَمَ بتفسيرِ القرآنِ وبالعربيةِ والشِّعرِ والحِسابِ والفرائض، وكانَ يجلِسُ يوماً للفِقهِ ويوماً للتأويلِ ويوماً للمَغازي ويوماً للشِّعرِ ويوماً لأيامِ العرب. وما رأيتُ عالِماً قطُّ جلَسَ إليهِ إلا خضَعَ له، ولا سائلاً سألَهُ إلا وجدَ عندهُ عِلماً. انتهىٰ. ذكَرَهُ النّوَويُّ في «تهذيبِ الأسماء».

قالَ الأعمَش[2]: كانَ ٱبنُ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما إذا رأيتَهُ قلتَ: أجمَلُ الناس! فإذا تكلَّمَ قلت: أفصَحُ الناس! فإذا حدَّثَ قلت: أعلَمُ الناس!

رُوِيَ عنِ ٱبنِ عمر: أنّ رجلاً أتاهُ وسألَهُ عن قولِه تعالىٰ: ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فقال: اذهَبْ إلىٰ ابنِ عباسٍ فاسألْهُ ثمّ تعالَ أخبِرْني. فذهَبَ فسألَهُ فقال: كانتِ السمواتُ رتْقاً لا تُمطِر، وكانت الأرضُ رتْقاً لا تُنبت، ففتَقَ هذهِ بالمَطرِ وهذهِ بالنَّبات. فرجَعَ إلىٰ ٱبنِ عمرَ فأخبَرَهُ فقال: قد كنتُ أقول: ما يُعجِبُني جَراءةُ ٱبنِ عباسٍ علىٰ تفسيرِ القرآن، فالآنَ قد علِمتُ أنهُ أوتيَ عِلماً. انتهىٰ. ذكرَهُ السُّيوطيُّ في «الإتقان».

---

(١) الإمام الفقيه، مفتي المدينة المنوَّرة وعالمها، وأحد الفقهاء السبعة، أبو عبد اللّه الهُذَلي المَدَني الأعمىٰ (ت ٩٩هـ). قال الزهري: كان عبيد اللّه بن عبد اللّه بحراً من بحور العلم.

(٢) الإمام شيخ الإسلام أبو محمد سليمان بن مِهْران الكوفي (٦١ ــ ١٤٨هـ)، شيخ المقرئين والمحدِّثين. قال يحيىٰ القطّان: هو علّامة الإسلام. وقال وكيع بن الجرّاح: كان الأعمش، قريباً من سبعين سنةً، لم تفُتْه التكبيرة الأولىٰ. وقال آخر: ما خلَّف الأعمش أعبَدَ منه. رحمه اللّه تعالىٰ.

فائدة:

قالَ بعضُ التابعين: رأيتُ لابنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما مجلِساً يحِقُّ لِقُريشٍ أن تفاخِرَ بهِ العربَ والعجَم، وذلكَ أنهُ كانَ يقومُ قبلَ الفجرِ فيبقىٰ في المسجِدِ حتىٰ تطلُعَ الشمس، ثمّ يُصلِّي الضُّحىٰ ويرجِعُ إلىٰ بيتِه، فيُنادي مُنادٍ علىٰ بابِ بيتِه: ألَا مَن أرادَ التفسيرَ فلْيأتِ، فيدخُلُ الناسُ عليهِ أفواجاً فيُحدِّثُهم عن آياتِ القرآن، فما مِن آيةٍ إلا ويعرفُ أنها مكيّةٌ أو مَدَنيّةٌ وأينَ نزَلتْ ومتىٰ نزلتْ وفيمَن نَزَلَت. ثمّ يُنادي المُنادي: مَن أرادَ الفِقْهَ فلْيأت، فيأتونَ إليهِ بالمسائلِ العويصةِ ويَحُلُّها. ثمّ يُنادي: من أرادَ عِلمَ الأنسابِ فلْيأت، ثمّ يُنادي: من أراد الأدبَ فلْيأتِ، فيدخُلُ الناسُ عليهِ أفواجاً، وهُوَ في كلِّ ذلكَ بحرٌ يزخَرُ بالعلومِ لا يتوقَّفُ ولا يتلَكّأُ أبداً، ولا يزالُ كذلكَ حتىٰ يؤذَّنَ الظُّهرُ فيقول: قوموا بنا إلىٰ الصّلاة. قال: فهذا مجلِسٌ يحِقُّ لِقُريشٍ أن تُفاخِرَ بهِ العَربَ والعَجَم.

قالَ ٱبنُ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما لمَّا عَمِيَ في آخرِ عمُرِه:

إن يأخُذِ اللّهُ من عينيَّ نورَهُما ... ففي فؤادي وقلبي منهُما نورُ
قلبي ذكيٌّ وعقْلي غيرُ ذي دخَلٍ ... وفي فَمي صارمٌ كالسيفِ مشهورُ

ــ علُومُ التابِعِين:

قالَ عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلَم[1]: لمَّا ماتَ العبادِلة: عبدُ اللّهِ بنُ العباسِ وعبدُ اللّهِ بنُ عمرَ وعبدُ اللّهِ بنُ الزُّبيرِ وعبدُ اللّهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ،

---

(١) عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلَم العُمَريّ المَدني (ت١٨٢هـ). كان صاحبَ قرآنٍ وتفسير، جمع تفسيراً في مجلّد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ. وهو عند أهل الحديث ليّنٌ في روايته ليس بالقوي. =

صارَ الفِقهُ في جميعِ البلدانِ إلىٰ المَوالي :

ـ فقيهُ مكّةَ : عطاء[١] ،

ـ وفقيهُ اليمنِ : طاووس[٢] ،

ـ وفقيهُ اليَمامةِ : يحيىٰ بنُ أبي كثير[٣] ،

ـ وفقيهُ البصرةِ : الحَسَن[٤] ،

ـ وفقيهُ الكوفةِ : إبراهيمُ النَّخَعيّ[٥] ،

ـ وفقيهُ الشامِ : مَكحُول[٦] ،

ـ وفقيهُ خُراسانَ : عطاءٌ الخُراسانيّ[٧] ، إلا المدينةَ ، فإنّ اللّهَ تعالىٰ

---

(١) عطاء بن أبي رباح المكّي (ت١١٥هـ) ، تقدمت ترجمته ص ١٦٤ .

(٢) الإمام الحافظ القدوة ، عالم اليمن وفقيهها ، أبو عبد الرحمٰن طاووس بن كَيْسان الفارسي ثم اليمني الجَنَدي (ت١٠٦هـ) ، أحد كبار أصحاب ابن عبّاس وكان محبوباً لديه ، وكان ابن عبّاس رضي اللّه عنهما يقول : إني لأظن طاووساً من أهل الجنّة . انتهىٰ . وقد تقدمت ترجمة عبد اللّه ابن الإمام طاووس ص ٢٨٢ .

(٣) تقدمت ترجمته ص ١٣٥ .

(٤) البصري ، رضيَ اللّه عنه ، تقدَّمت ترجمته ص ٨٨ .

(٥) الإمام الحافظ فقيه العراق ، أبو عمران إبراهيم بن يزيد النخعي اليماني ثم الكوفي (ت٩٦هـ) ، أحد الأعلام ، كان بصيراً بعلم ابن مسعود ، واسعَ الرواية ، فقيه النفس ، كبير الشأن ، كثير المحاسن . من صغار التابعين .

(٦) الإمام الفقيه أبو عبد اللّه مكحول بن أبي مسلم الأعجمي الدمشقي (ت١١٢هـ) ، عالم أهل الشام . قال سعيد بن عبد العزيز : لم يكن في زمن مكحول أبصرُ بالفتيا منه .

(٧) عطاء بن أبي مسلم الخراسانيّ المحدِّث الواعظ العابد ، نزيل دمشق والقدس (ت١٣٥هـ) . قال يعقوب بن شيبة : ثقة معروف بالفتوىٰ والجهاد . =

خصَّها بقُرشيٍّ مِن غيرِ مُدافِعٍ: سعيدِ بنِ المُسيِّبِ، رضِيَ اللّهُ عنهم. ذكَرَهُ الشيخُ أبو إسحاقَ في «طبقاتِ الفُقَهاء».

قلت: سعيدُ بنُ المُسيِّب مِن الفقهاءِ السبعةِ الذينَ كانوا بالمدينةِ في عهدٍ واحدٍ، ومنهمُ ٱشتُهِرَ العِلمُ والفُتيا، وقيل: إنّ الفتوىٰ بعدَ الصّحابةِ صارتْ إليهِم وشُهِروا بها، وقد جمَعهُم بعضُ العلماءِ في بيتَينِ فقال:

ألا كلُّ مَنْ لا يَقتدي بأئمّةٍ
فقِسمَتُهُ ضِيْزَىٰ عنِ الحقِّ خارِجَهْ
فخُذْهُم: عُبيدُ اللّهِ، عروةُ، قاسمٌ
سعيدٌ، أبو بكرٍ، سليمانُ، خارِجه[1]

---

(١) وتراجم هؤلاء الأئمة السبعة هي:
١ ــ عبيد الله: هو ابن عبد اللّه بن عتبة، تقدمت ترجمته ص ٣٩٥.
٢ ــ عروة: هو الإمام الفقيه عالم المدينة أبو عبد اللّه عروة ابن حواريّ رسول اللّه ﷺ الزبير بن العوّام، القرشي المدني (٢٣ ــ ٩٤هـ). قال الزهري: رأيتُ عروةَ بحراً لا تكدِّره الدِّلاء.
٣ ــ قاسمٌ: هو الإمام الحجة أبو محمد القاسم بن محمد بن سيدنا أبي بكر الصديق، القرشي التيمي (ت١٠٧هـ)، عالم وقته بالمدينة مع سالمٍ وعكرمة. كان إماماً عالماً رفيعاً، فقيهاً ورعاً، ثقةً كثيرَ الحديث.
٤ ــ سعيد: هو ابن المسيب، تقدمت ترجمته ص ٣٥٤.
٥ ــ أبو بكر: هو الإمام أبو بكر بن عبد الرحمٰن المخزومي (ت٩٤هـ). كان عالماً فقيهاً، سخياً، كثير الحديث، كفيف البصر، وكان يُدعىٰ الراهبَ لكثرة صلاته، من سادات قريش. وبعضهم يَعُدُّ بدَله في السبعة: سالمَ بن عبد اللّه بن عمر بن الخطاب الآتية ترجمته ص ٦٥٥.
٦ ــ سليمان: هو الإمام الفقيه سليمان بن يسار المدني (ت١٠٧هـ). كان من أوعية العلم حتىٰ إنَّ بعضهم كان يُفضّله علىٰ سعيد بن المسيب.
٧ ــ خارجة: هو أبو زيد خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري المدني (ت٩٩هـ)، =

رویٰ حَرْمَلةُ بنُ يحيىٰ[١] عن الشافعيِّ رحِمَهُ اللّهُ قال: النّاسُ عيالٌ علىٰ هؤلاءِ الخمسة: مَن أرادَ أن يتبحَّرَ في الفِقهِ فهُوَ عِيالٌ علىٰ أبي حنيفة، ومَن أرادَ أن يتبحَّرَ في التفسيرِ فهُوَ عِيالٌ علىٰ مُقاتِلِ بن سُليمان، ومن أرادَ أن يتبحَّرَ في النَّحوِ فهُوَ عِيالٌ علىٰ الكِسائيّ، ومَن أرادَ أن يتبحَّرَ في الشِّعرِ فهُوَ عِيالٌ علىٰ زُهيرِ بنِ أبي سُلمىٰ، ومَن أرادَ أن يتبحَّرَ في المَغازي فهُوَ عِيالٌ علىٰ محمّدِ بن إسحاقَ. انتهىٰ. ذكَرَهُ اليافعيُّ في «مِرآةِ الجنان».

قال قَتادة: كانَ أعلَمُ التابعينَ أربعة: كانَ عطاءُ بنُ أبي رَباح أعلَمَهُم بالمَناسك. وكانَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ أعلَمَهُم بالتفسير. وكانَ عِكرمةُ أعلَمَهُم بالسِّيَر. وكانَ الحسَنُ أعلَمَهُم بالحَلالِ والحرام. ذكَرَهُ في «الإتقان»[٢].

قلت: كانَ الإمامُ الحسَنُ البصْريُّ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ مِن ساداتِ التابعينَ وكُبَرائهم. جمَعَ مِن كلِّ عِلمٍ وزُهدٍ ووَرَعٍ وعبادة. قالَ بعضُ أهلِ الطَّبقات: كانَ الحسَنُ جامعاً عالِماً، رفيعاً فقيهاً، حُجةً مأموناً، عابداً ناسكاً، كثيرَ العِلمِ، فصيحاً، جميلاً وسيماً. وكانتْ أُمُّه مولاةَ أمِّ سلَمةَ زوج النبيِّ ﷺ، وربما غابتْ أُمُّه في حاجةٍ فيبكي فتُعطِيهِ أمُّ سلَمةَ ثَديَها تُعلِّلُهُ بهِ إلىٰ أن تجيءَ أُمُّه فَتدِرَّ عليه، فيرَوْنَ تلكَ الحِكمةَ والفصاحةَ مِن بركَةِ ذلك. انتهىٰ.

= الإمام ابن الإمام، وأحد الفقهاء السبعة الأعلام. لمّا بلغت عمرَ بن عبد العزيز وفاته استرجع وصفق بإحدىٰ يديه علىٰ الأخرىٰ وقال: ثلمةٌ واللّه في الإسلام!

(١) أبو حفص حرملة بن يحيىٰ التُّجيبي المصري (١٦٦ ــ ٢٤٣هـ)، الإمام الفقيه، المحدِّث الصدوق، حدّث عن ابن وهب فأكثر جداً، وعن الشافعي ولزمه وتفقّه به.

(٢) تقدمت تراجم جميع الأعلام المذكورين في هذه الفقرة والتي قبلها، إلا قتادة، وهو الإمام الكبير أبو الخطّاب قتادة بن دِعامة السَّدُوسي البصري الضرير (٦٠ ــ ١١٨هـ). من كبار الحفّاظ والمفسّرين في عصره. كان من أوعية العلم وممّن يُضرب به المثَل في قوّة الحفظ.

مِن «مِرآةِ الجنان».

قالَ أبو بكرٍ الهُذليُّ: قالَ ليَ السَّفّاح: بأيِّ شيءٍ بلَغَ حَسَنُكم ما بلَغَ؟ يعني الحسَنَ البصْريّ، قلت: يا أميرَ المؤمنين، جمعَ كتابَ اللّهِ وهُوَ ٱبنُ ثِنتَيْ عشْرَةَ سنةً فلم يُجاوِزْ سورةً إلىٰ غيرِها حتىٰ يعرِفَ تأويلَها وفيمَ أُنزلت، ولم يقلِبْ درهماً في تجارة، ولم يَلِ للسلطانِ إمارة، ولم يأمُرْ بشيء فيهم حتىٰ يفعَلَه، ولا بِتَرْكِ شيءٍ حتىٰ يَدَعَه. فقال: بهذا بلَغَ الشيخُ ما بلَغ. انتهىٰ. مِن «مِرآةِ الجَنان».

وذُكِرَ فيه أيضاً عن بعضِهم أنهُ قال: كانَ أعلمَ التابعينَ بالطّلاقِ: سعيدُ ابنُ المُسيِّب، وبالحجِّ: عطاءٌ، وبالحَلالِ والحرام: طاووس، وبالتفسير: مُجاهد، وأجمَعُهم لذلكَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ رحمةُ اللّهِ عليهِم.

وقالَ الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل: قَتلَ الحجّاجُ سعيدَ بنَ جُبيرٍ وما علىٰ وجهِ الأرضِ أحدٌ إلا وهُوَ مُفتقِرٌ إلىٰ عِلمِه، ولم يسلِّطْهُ اللّهُ بعدَهُ علىٰ قتلِ أحد. انتهىٰ.

ـــ عُلُومُ مَنْ تَلاهم:

وعن أبي حنيفةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: ما رأيتُ أفقَهَ مِن جعفرِ بنِ محمّد، لمّا أقدَمَهُ المنصورُ الحِيرةَ بعَثَ إليَّ فقال: يا أبا حنيفة، إنّ النّاسَ قد فُتِنوا بجعفرِ بنِ محمّد فهيِّئْ لنا مِن مسائلِكَ الصِّعاب، فهيأتُ لهُ أربعينَ مسألة. ثمّ بعَثَ إليّ المنصورُ فأتيتُهُ وجعفرٌ جالسٌ عن يمينِه، فلمّا أبصَرتُهما داخَلَني منَ الهَيبةِ لجعفرٍ ما لم يُداخِلْني للمنصور، ثمّ قال: يا أبا عبدِ اللّه، أتعرِفُ هذا؟ قال: نعمْ، هذا أبو حنيفةَ قد أتانا. ثمّ قال: يا أبا حنيفة، تسأَلُ أبا عبد اللّه؟ فابتدأتُ أسألُهُ، فكانَ يقولُ لي في كلِّ مسألة: أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهلُ المدينةِ يقولون كذا وكذا، ونحنُ نقولُ كذا وكذا.

قالَ الإمامُ النّوويُّ رحِمَهُ اللّهُ في مقدّمةِ «شرحِ مسلم»: رُوِّينا عنِ الحسَنِ ابنِ عيسىٰ قال: اجتمعَ جماعةٌ مِن أصحابِ ٱبنِ المُبارَك فقالوا: تعالوا حتىٰ نعُدَّ خِصالَ ابنِ المُبارَكِ مِن أبوابِ الخير، فقالوا: جَمَعَ العِلمَ والفِقه، والأدبَ والنّحوَ واللغة، والزّهد، والشِّعرَ، والفصاحةَ، والورَع، والإنصات، وقيامَ الليلِ والعبادة، والشّدةَ في رأيِهِ، وقلّةَ الكلامِ فيما لا يَعنيه، وقلّةَ الخِلافِ علىٰ أصحابِه.

وقالَ العباسُ بنُ مُصعَب: جمَعَ ٱبنُ المُبارَكِ الحديثَ والفِقهَ والعربيّةَ وأيامَ الناس، والشجاعةَ والتجارةَ والسّخاءَ والمحبةَ عندَ الفِرَق. انتهىٰ.

حُكِيَ عن إمامِ الحَرَمينِ رحِمَهُ اللّهُ أنهُ كانَ يقول: ما تكلَّمتُ في عِلمِ الكلامِ كلمةً حتىٰ حفِظتُ مِن كلامِ القاضي أبي بكرٍ[1] وحدَهُ اثني عشرَ ألفَ ورقة. وقالَ يوماً لتلميذِهِ الإمامِ الغزاليّ: افتَحْ هذا البيت، ففتَحَ مكاناً، فوجَدَهُ مملوءاً بالكُتب، فقالَ له: ما قيلَ لي (يا فقيهُ) حتىٰ أتيْتُ علىٰ هذهِ الكُتبِ كلِّها، يعني حِفظاً.

وحُكِيَ عنِ الإمامِ السرخسيِّ[2] أنهُ كَتَبَ كتابَهُ «المبسُوطَ» ــ وهُوَ ثلاثونَ

---

(١) الإمام الجهبذ الأوحد، سيف السنة، إمام المتكلِّمين والأصوليين، القاضي أبو بكر محمد بن الطيِّب الباقلاني البصري ثم البغدادي (ت٤٠٣هـ)، مضربُ المثل في الفهم والذكاء، والركن المتين من أركان أهل السُّنة. كان شديد الورع قوي الدين، سيفاً باتراً علىٰ المعتزلة والرافضة والمشبّهة واليهود والنصارىٰ، وغيرهم من فرق المخالفين وأصحاب المِلَل.

(٢) شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل السرخسي (ت٤٨٣هـ). قاضٍ مجتهد، من كبار أئمة الحنفية. كان سبب سجنه كلمة نصح بها الخاقان، ولما أُطلق سكن فرغانة إلىٰ أن توفي.

جزءاً ــ وكـانَ إذ ذاكَ في السِّجـنِ ليـسَ لـهُ منَ المُراجَعـةِ إلا صَـدرُه. ونقَلَ مُترجمـوه: أنهُ كان يحفَظُ اثنَي عشَرَ ألفَ كُرّاس، أي أربعينَ ألفاً ومائتيْ ألفِ صحيفةٍ إذا كانَ الكُرّاسُ عشرَ ورَقات.

وقـالَ شيـخُ الإسلامِ أبـو زكريّـا رحِمَهُ اللّه: بلَغنـا أنّ محمّـدَ بنَ جريرٍ الطّبَريَّ ألّفَ تفسيراً ألفَ مجلَّدٍ ضخمـة، وكانَ محفوظُهُ مِن مُتونِ العلومِ نحوَ حِملِ مئةِ بعير.

وكـانَ ٱبنُ شاهيـنٍ[1] يقول: كتبـتُ منَ المؤلَّفـاتِ ما لا أُحصـي عدَّه، وحسَبْتُ الحِبرَ فبلَغَ ألفاً منَ القناطير.

ونقَلَ ٱبنُ السُّبكيِّ في «الطبقاتِ الوُسطىٰ» عن أبي القاسمِ الجُنيدِ رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ كانَ يقول: ما أنزَلَ اللّهُ منَ السماءِ عِلماً وجعَلَ للخلْقِ إليهِ سبيلاً إلا وجعَلَ لي فيها حظّاً ونصيباً. انتهىٰ. ذكَرَ ذلكَ الشَّعرانيُّ في «الأنوارِ القُدسية».

ويُحكىٰ عن أبي نُعيمٍ رحِمَهُ اللّهُ صاحبِ «حليةِ الأولياء» أنهُ صنّفَ كتابَهُ «الحِليـةَ» وهُـوَ ٱبنُ ثمانيـنَ سنة، وكـانَ يُمليهـا علىٰ الكُتّابِ مِن حفظـهِ وهُنَّ سبعونَ مجلَّـداً، المجلَّدُ ستونَ كُراسـاً في القَطعِ الكامل. انتهىٰ. ذكَرَهُ الإمامُ عليُّ بنُ محمّدٍ الحَبشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «كلامِه».

وقـالَ رضِـيَ اللّهُ عنـه: إنّ الشيـخَ ٱبنَ العرَبـيِّ شـرَعَ في تفسيـرِ القرآنِ الكريـم، فكتَـبَ تسعينَ مجلَّـداً حتىٰ وصلَ إلىٰ قولهِ تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، فكسَرَ الـدواةَ والأقلامَ وقـال: ينتهي العمُرُ ونحنُ نتكلَّمُ علىٰ العِلمِ اللَّدُنّيِّ ولا ينتهي.

---

(١) الحافظ العالم، شيخ العـراق، أبـو حفص عمر بن أحمد البغدادي الواعظ (٢٩٧ ــ ٣٨٥هـ). كان ثقةً أميناً، بلغت تصانيفه الثلاثمئة مصنَّـف، له تفسيرٌ مسنَد يقع في ألف جزء.

ورُوِيَ عنِ ٱبنِ الحـدّادِ الشـافعيِّ[١] أنهُ لمّـا ٱحترَقتْ خِزانـةُ كُتـبٍ علىٰ المَـلِكِ فاشتَغَلَ مِن أجلِها، قالوا له: لا تشتَغِـلْ، ابنُ الحدّادِ يُمليها عليكَ مِن حِفظِه! فأملاها مِن حِفظِه حتىٰ عادَتِ الخِزانةُ كما كانت. ذكَرَهُ الإمامُ أحمدُ بنُ عمرَ بنِ سميطٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «كلامِه».

ذكَرِ الخطيبُ في «تاريخِه» أنّ الإمـامَ أبا حنيفـةَ رضِـيَ اللّهُ عنهُ رأىٰ في المَنامِ أنهُ ينبُشُ قبرَ رسولِ اللّهِ ﷺ، فبَعَثَ مَن يسألُ محمدَ بنَ سِيرين، فقال ابنُ سِيرين: صاحبُ هذهِ الرؤيا يثورُ عِلماً لم يسبِقْهُ إليهِ أحد. انتهىٰ.

وكانَ الإمامُ ٱبنُ شهابٍ الزُّهريُّ رحِمَهُ اللّهُ قد حَفِـظَ عِلمَ الفقهاءِ السبعةِ وكـانَ يقـول: ما ٱستودعتُ قلبي عِلماً فنسيتُه. وكان إذا جلَـسَ في بيتِهِ وضَعَ كُتُـبَهُ حولَهُ، فيشتَغِلُ بها عن كلِّ شيءٍ مِن أمورِ الدنيا. فقالتْ لهُ ٱمرأتُه: واللّهِ لَهذهِ الكُتبِ أشدُّ عليَّ مِن ثلاثِ ضَرائر!

رُوِيَ عنِ الإمامِ إسحاقَ بنِ راهويهِ[٢] أنهُ كانَ يحفَظُ سبعينَ ألفَ حديثٍ ويُـذاكِرُ بمِئـةِ ألفِ ألفِ حديث، وقـال: ما سمِعـتُ شيئـاً قطُّ إلا حفِظتُه، ولا حفِظتُ شيئـاً فَنسيتُه. وجمَـعَ بينَ الحديـثِ والفِقـهِ والوَرَع. انتهىٰ. مِن «مِرآةِ الجَنان».

عنِ ٱبنِ عبدِ الحَكَمِ قال: لمّا حمَلَتْ أُمُّ الشافعيِّ بهِ رأتْ كأنّ المُشتريَ قد

---

(١) الإمـام الجليل محمـد بن أحمـد، أبو بكر بن الحدّاد المصري (٢٦٤ ــ ٣٤٥هـ). مولده يوم وفاة الإمام المزني. كان إمامَ عصره في الفقه، بحراً في اللغة، غوّاصاً علىٰ المعاني، عالماً بالسِّير والتاريخ والشعر والنسب، عابداً يختم كل يوم وليلة، وتولّىٰ القضاء وصنّف التصانيف الجياد.

(٢) أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي (١٦١ ــ ٢٣٨هـ)، إمامٌ جامعٌ بين الحديث والفقه والورَع، من كبار الحفّاظ النقّاد.

خَرَجَ مِن فرجِهـا حتىٰ ٱنقـضَّ بِمصـرَ ثمّ وقَعَ في كـلِّ بلـدٍ منـهُ شظِيّـة، فتأوّلَ أصحابُ الرؤيا أنهُ يخرُجُ منها عالِمٌ يخُصُّ عِلمُهُ أهلَ مصرَ ثمّ يتفـرَّقُ في سائرِ البُلدان.

ـــ عُلُومُ السّادةِ آلِ أبي عَلَوي:

قلت: وكانَ سيّـدُنا الشيخُ القُطـبُ عمـرُ المحضـار ابـنُ عبدِ الرحمنِ السقّـافِ رضِيَ اللّٰهُ عنهُما يقـول: لو شئتُ أن أُمليَ مِن تفسيـرِ قـولِهِ تعـالىٰ: ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، ما يُوقِرُ ألـفَ بعيـرٍ لَفعَلت. ولمَّا سأَلَـهُ السائـلُ عنِ الفـؤاد قالَ له: في الفـؤادِ ألـفُ واد، أتكلَّـمُ علـىٰ أيِّ وادٍ منها؟

وكانَ سيّدُنا القُطبُ عبدُ اللّٰهِ بنُ أبي بكرٍ العيدْروسُ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ يقول: لو شئـتُ أن أُصنّفَ علىٰ حرفِ الألفِ مِئةَ مجلَّدٍ لَفعَلـت. وكانَ يقول: آهٍ آه! ورَدَتْ علىٰ القلبِ علومٌ لا يُمكِنُ شَرحُها ولا إفشاؤها.

وكانَ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ إذا ورَدَتْ عليهِ الوارِداتُ الرَّبانيةُ حالةَ السَّماع يدورُ ويضرِبُ على صدرِهِ ويقول: يا أهلَ المشرقِ ويا أهلَ المَغرِبِ ويا أهلَ كذا ويا أهـلَ كذا، ويذكُرُ أهلَ الأقاليم، هل أحدٌ منكُم حَوىٰ ما حَوىٰ هذا المرطبان؟ ويشيـرُ إلىٰ صـدرِهِ الشريـف. ذَكَرَ ذلكَ سيّـدُنا الإمـامُ عيْـدروسُ بنُ عمـرَ في «كلامِه».

وذكَرَ سيّـدُنا الإمامُ محمّدُ بنُ زينِ بنِ سُميـطٍ أنّ شيخَهُ القُطبَ أحمدَ بنَ زَينٍ الحبَشيَّ نفَعَ اللّٰهُ بِهِ نَظَرَ يوماً إلىٰ نحوِ مئةِ كتابٍ حولَهُ وقال: إنّ هذه الكُتبَ لو تلِفَتْ لأخرَجْناها مِن صدورِنا.

ولمّا ألقىٰ السفينةَ الجامعةَ الكبيرةَ الواسعةَ قالَ لهُ قائل: كم جمَعتُم فيها منَ العلـومِ النافعـة؟ فقالَ لـه: إنّ ما في الصدورِ أكثرُ منها وأكبر. والسفينـةُ

المذكورةُ في نحوِ عشرينَ مجلَّداً جمَعَ فيها من كلِّ العلومِ وأحصىٰ فيها من كلِّ الفنون[١].

وقالَ السيّدُ محمدٌ المذكور: رأيتُ في بعضِ السنينِ كأنّ قائلاً يقول: اللّهُ كشفَ لسيّدِنا أحمدَ بنِ زينِ الحبَشيِّ بحراً مِن العِلمِ لم يُكشَفْ ذلكَ للإمامِ يحيىٰ بنِ زكريا النوَويّ.

قال: ورأيتُ أيضاً كأنّ سيّدَنا عبدَ اللّهِ الحدّادَ قال لسيّدِنا أحمدَ بنِ زينٍ الحبَشيّ: نرجُو أنكَ تفُوقُ الإمامَ محمّدَ بنَ إدريسَ الشافعيَّ في عِلمِ الظاهرِ فضلاً عن عِلمِ الباطن. انتهىٰ. ذكَرَ ذلكَ في كتابِ «بهجةِ الزمان».

كانَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: أكثرُ آلِ باعَلَوي تآليفَ: عبدُ القادر بنُ شيخِ العيدَروس. وكانَ يُثني عليهِ بجَودةِ التصانيفِ ووُسْعِ العِلم. ورُوِيَ أنّ أوّلَ كتابٍ ألّفَهُ وسنُّهُ دونَ العشرين: كتابُ «الحدائقِ الخَضِرة في سِيرةِ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ العشَرة». ذكَرَ ذلكَ في «شرحِ العَينيّة».

وقالَ الحبيبُ عليُّ بنُ محمّدٍ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: سألتُ الحبيبَ أبا بكرٍ العطّاسَ[٢] نفعَ اللّهُ بهِ عن معنىٰ قولِهِ تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ

---

(١) كانت هذه السفينة في عداد الضائع من تراث العلويين، ثم قيض اللّه أحد السادة آل الحبشي من طلاب العلم فقام بجمع أجزائها من أماكن شتىٰ وتحصل منها علىٰ ١٢ مجلداً جزاه اللّه خيراً ووفقه للصالحات.

(٢) السيد الشريف، الإمام العارف باللّه تعالىٰ، الولي الكبير، أبو بكر بن عبد اللّه بن طالب العطاس العلوي الحسيني الحريضي، مولده بحريضة سنة ١٢١٥هـ وبها توفي=

ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ . . ﴾ الآيةَ [الطلاق: ١٢]. فقال: لو تكلَّمتُ عليها لأعجَزْتُ كتَبَةَ الدنيا.

❊ ❊ ❊

= سنة ١٢٨١هـ، كان إماماً عارفاً قدوة. أخذ عن الأكابر واجتمع بالسيد أحمد بن إدريس العرائشي وغيره، أخذ عنه جمع وتخرّج به ابنه عبد اللّه وسالم والحبيب أحمد بن حسن والحبيب علي الحبشي والشيخ حسن مخدَّم وعلي الأدعج وغيرهم. =

الفصل السّادس
في مناقب الأئمة الأربعة وحجة الإسلام الغزالي

ـ الإمامُ الأعظَمُ أبو حنيفةَ النُّعمانُ بنُ ثابتٍ الكُوفي[(١)] :

كـانَ رضِيَ اللّهُ عنه فقيهاً معروفـاً بالإفضـال، صَبوراً علىٰ تعليمِ العِلمِ باللّيلِ والنهار، كثيرَ الصّمتِ قليلَ الكلام حتىٰ ترِدَ مسألةٌ في الحلالِ والحرام. وكـانَ شديدَ الورع، حتـىٰ إنهُ كانَ لا يجلِسُ في ظلِّ جدارِ غريمِهِ ويقول: كلُّ قرضٍ جرَّ نفعاً فهُوَ رباً.

قـالَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّه: النّاسُ في الفِقهِ عِيالٌ علىٰ أبي حنيفة.

---

(١) صنف عددٌ من الأئمة مؤلفاتٍ مستقلة في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي اللّه عنه، منهم أربعةٌ من كبار الشافعية، هم:
١ ـ الإمام شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ): «مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبَيه»، مطبوع.
٢ ـ الحافظ جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ): «تبييض الصحيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة»، مطبوع.
٣ ـ المحدِّث محمد بن يوسف الصالحي (ت٩٤٢هـ): «عقود الجمان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان»، مطبوع.
٤ ـ الفقيه ابن حجر الهيتمي (ت٩٧٤هـ): «الخيرات الحسان في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان»، مطبوع.

وقالَ عليُّ بنُ عاصم: لو وُزِنَ عقلُ أبي حنيفةَ بعْقلِ نصفِ أهلِ الأرضِ لرجَحَ بهِم.

وعنِ ابنِ المُباركِ أنّ الإمامَ أبا حنيفةَ صلّىٰ خمساً وأربعينَ سنةً الصّلواتِ الخمسَ بوُضوءٍ واحد. وضُرِبَ بالسِّياطِ علىٰ رأسِهِ حتىٰ انتفَخَ وجهُهُ لِيَلِيَ القضاءَ فلم يَلِ، وقالَ: الضربُ في الدنيا بالسياطِ أهونُ عليَّ مِن مواقعِ الحديدِ في الآخرة. وسُجِنَ علىٰ ذلكَ وماتَ في السّجن.

وختَمَ القرآنَ في المَوضعِ الذي ماتَ فيهِ سبعةَ آلافِ مرة، ولم يُفطِرْ ثلاثينَ سنة، وصلّىٰ الصبحَ بوُضوءِ العشاءِ أربعينَ سنة، وكانَ يُسمَعُ بكاؤهُ في جوفِ اللّيلِ حتىٰ يرحمَهُ جيرانُه. وقالَ بعضُهم: رأيتُ أبا حنيفةَ وقد ختَمَ القرآنَ في شهرِ رمضانَ ستّين خَتمةً باللّيلِ وستينَ خَتمةً بالنهار، ورُوِيَ أنهُ بنىٰ سبعينَ مسجداً كلُّها بالعراق.

وكانَ رضيَ اللّهُ عنهُ يقول: ما أتانا عنِ اللّهِ ورسولِهِ قبلناهُ علىٰ الرأسِ والعين، وما أتانا عنِ الصحابةِ اختَرْنا منهُ أحسَنَهُ ولم نخرُجْ عن أقوالِهم، وما أتانا عنِ التابعينَ فهُم رجالٌ ونحنُ رجال. ذُكِرَ ذلكَ كلُّهُ في «شرحِ العَينيّة».

ـ إمامُ دارِ الهجرةِ أبو عبدِ اللّهِ مالكُ بنُ أنس[١]:

كانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ ورِعاً زاهداً ذا وقارٍ وخَشية، مبالِغاً في تعظيمِ علمِ الدِّين. ذكَرَ القاضي عياضٌ في «الشفاءِ» عنِ ابنِ المُباركِ قال: كنتُ عندَ مالكٍ

---

(١) ممّن صنف في مناقبه رضيَ اللّه عنه كتاباً مفرداً: الحافظ ابن حِبّان البُسْتي، ومفتي المغرب أبو بكر ابن اللبّاد، وأبو بكر الدِّيْنَوري، وشيخ المالكية بمصر أبو إسحاق ابن شعبان، والإمام الذهبي، وابن الراعي الأندلسي، وغيرهم.

وهُوَ يحدِّثُنا، فلدَغَتْهُ عقربٌ ستَّ عشْرَةَ مرةً وهُوَ يتغيّـرُ لونُهُ ويصفرُّ ولم يقطَعِ الحديث، وقال: إنّما صبَرتُ إجلالاً لحديثِ رسولِ اللّهِ ﷺ.

وكـانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ إذا أرادَ أن يحـدِّثَ دخَـلَ مُغتَسَلَهُ واغتسَلَ وتطيّبَ ولبِـسَ ثياباً جديدةً وتعمَّمَ وجلَسَ علىٰ منصّةٍ وعليـهِ الخشوع، ولا يزالُ يُبَخَّرُ بالعُودِ حتىٰ يفرُغَ منَ الحديث. فقيل لهُ في ذلك، فقال: أحبُّ أن أُعظِّمَ حديثَ رسولِ اللّه ﷺ. انتهىٰ.

وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يمشي في أزِقّةِ المدينةِ حافياً ويقول: أنا أستَحي منَ اللّهِ تعالىٰ أن أطأَ تربةً فيها قبرُ رسولِ اللّهِ ﷺ بحافرِ دابة. وقيلَ لأُختِ مالك: ما كانَ شُغلُهُ في البيت؟ قالت: المُصحَفُ والتلاوة.

قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّه: إذا ذكَرتَ العلماءَ فمالكٌ النّجمُ الثاقب.

وقالَ أيضاً: لولا مالكٌ وابنُ عُيينةَ لذهَبَ عِلمُ أهلِ الحجاز.

ورُوِيَ أنّ الإمامَ مالكاً كَتَبَ بيدِهِ مئةَ ألفِ حديث، وجلَسَ للتدريسِ وهُوَ ابنُ تسْعَ عشْرَةَ سنة، وكانَ النّـاسُ يزدَحِمـونَ علىٰ بابـهِ لأخْذِ العِلمِ مِنَ الفِقهِ والحديثِ كازدِحامِهم علىٰ أبوبِ الأمراء.

روىٰ أبو هريرةَ رضيَ اللّه عنه مرفوعاً: «يُوشِكُ أن تُضرَبَ أكبادُ الإبلِ في طلَـبِ العِلم، فلا يجدونَ عالِمـاً أعلَمَ مِن عالِـمِ المدينـة»[١]. قالَ سفيانُ بنُ عُيينة: هُوَ مالكُ بنُ أنسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ. واللّهُ أعلم.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢: ٢٩٩)، والترمذي (٢٦٨٠)، وابن حبّان (٩: ٥٣)، من حديث أبي هريرة رضيَ اللّه عنه.

ـــ الإمامُ المُطَّلبِيُّ أبو عبدِ اللّهِ محمّدُ بنُ إدريسَ الشافعيُّ[١] :

حفِظَ القرآنَ الكريمَ وهُوَ ابنُ سبعِ سنين، وحفِظَ «مُوطأ مالكٍ» وهُوَ ابنُ عشْرِ سنين، وأفتىٰ وهُوَ ابنُ خمسَ عشرةَ سنة، وفتَحَ اللّهُ عليهِ ما لم يفتَحْ علىٰ غيـرِه. وقد جاءَ في الحديث أنّ: «عالِمَ قُريـشٍ يَملأُ طِباقَ الأرضِ علْماً»[٢]. وحمَلَهُ العلماءُ ـــ كالإمام أحمدَ ـــ علىٰ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ. وقالَ الإمامُ أحمـدُ رحِمَهُ اللّه: كانَ الشافعـيُّ كالشمسِ للدنيا وكالعافيةِ للنّاس، فانظُرْ هلْ لهذَينِ من عِوَضٍ أو خَلَف؟

وكانَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّهُ قد جزَّأَ اللّيلَ ثلاثةَ أجزاء: الثُلثُ الأوّلُ يكتُب، والثاني يُصلّـي، والثالثُ يَنام. وكانَ يختـمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ خَتمة، وفي رمضانَ يختمُ ستينَ خَتمةً كلُّها في الصلاة.

وكـانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: ما كذَبـتُ قطُّ ولا حلَفْـتُ باللّهِ صـادقاً ولا كاذباً، وما تَركتُ غُسْلَ الجُمعةِ في بردٍ ولا سفَرٍ ولا غيرِه، وما شبِعتُ منذ ستَّ عشرةَ سنةً إلا شبعةً طرحتُها من ساعتي.

قالَ الحُمَيديُّ[٣]: قدِم الشافعيُّ رحِمَهُ اللّهُ مِن صنعاءَ إلىٰ مكّةَ بعشرةِ آلافِ دينار، فضرَبَ خباءً خارجاً من مكّة، فكانَ النّاسَ يأتونَهُ، فما بَرِحَ مِن موضعِهِ

---

(١) وممّن صنَّف في مناقبه رضيَ اللّه عنه كتاباً مفرداً: الحفّاظُ: ابنُ أبي حاتم، والآبُري والحـاكـم، والبيهقـي، وابن حبّـان، والخطيـب، وابن الجـوزي، وابن النجّـار، والذهبي، وابن كثير، وغيرهم. وأيضاً: الإمام فخر الدين الرازي، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي (١ : ٣٩) وغيره، من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه.

(٣) الإمام الجليل، شيخُ الحرَم، أبو بكر عبد اللّه بن الزُّبير الحميدي المكي (ت ٢١٩هـ)، صاحب «المسنَد»، حافظ كبير، وأحد تلامذة الإمام الشافعي رضيَ اللّه عنهما.

حتىٰ فرَّقها كلَّها. ذكَرَ كلَّ ذلكَ النَوويُّ رحِمَهُ اللّٰهُ في «تهذيبه».

قالَ بعضُهم في حديث: «إنّ اللّهَ يبعثُ لهذهِ الأمَّةِ علىٰ رأسِ كلِّ مئةِ سنةٍ مَن يُجَدِّدُ لها أمْرَ دِينها»(١). فكانَ علىٰ رأسِ المئةِ الأوّلىٰ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وعلىٰ رأسِ المئةِ الثانيةِ محمّدُ بنُ إدريسَ الشافعيُّ نفعَ اللّهُ به. واللّهُ أعلَم.

ــ إمامُ المحدِّثينَ أبو عبدِ اللّهِ أحمدُ بنُ حنبل(٢):

كانَ رضِيَ اللّهُ عنه يحفَظُ ألفَ ألفِ حديث، وصنّفَ كتابَهُ «المُسنَد» وجمَعَ فيهِ من الحديثِ ما لم يتّفِقْ لغيرِه.

وكان يُصلِّي في كلِّ يومٍ وليلةٍ ثلاثَمِئةِ ركعة، فلمّا ضُرِبَ ضعُف، فكانَ يُصّلي مئةً وخمسينَ ركعة. وكانَ ينامُ نومةً خفيفةً بعدَ العشاءِ ثم يقومُ إلىٰ الصّباح يُصلّي ويدعو. وكانَ يختمُ القرآنَ في كلِّ سبعةِ أيامٍ خَتمة، وفي كلِّ سبع ليالٍ ختمةً. وكانَ يمكُثُ ثلاثاً لا يَطعَم، وقد يأخذُ الثمانيَ لا يأكل. وكانَ إذا جاعَ أخذَ كِسرةً يابسةً، فَنَفَضها مِن الغُبارِ ثم صبَّ عليها الماءَ حتىٰ تبتلَّ، ويأكُلُها بالمِلح. وكانَ أكثرُ إدامِهِ الخَلّ.

قالَ بِشْرُ بنُ الحارثِ(٣) رحِمَهُ اللّه: امتُحِنَ أحمدُ بعدَ أن أُدخلَ الكِيْر، فخرَجَ ذهباً أحمر. إشارةً إلىٰ ما حصَلَ لهُ منَ المِحنة؛ لأنهُ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ حُبِسَ ثمانيةً وعشرينَ شهراً كانَ فيها يُضرَبُ كلَّ قليلٍ بالسِّياطِ إلىٰ أن يُغمىٰ عليه، ويُنخَسُ بالسيفِ ثم يُرمىٰ علىٰ الأرضِ ويُداسُ عليه، ولم يزَلْ كذلكَ إلىٰ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩١) وغيره، من حديث أبي هريرة رضيَ اللّه عنه.

(٢) وممّن أفرد مناقبه رضيَ اللّه عنه: الحفّاظ: ابنُ أبي حاتم، والطبراني، وابن منده، والبيهقي، وعبد اللّه بن يوسف الجرجاني، وابن الجوزي، وغيرهم.

(٣) الحافي. تقدمت ترجمته ص ٣٥٧.

أن مـاتَ المعتصمُ وتولّىٰ بعدَهُ الواثـق، فاشتـدَّ الأمرُ علىٰ أحمد، ووليَ بعدَهُ المتوكلُ فرفَعَ المِحنةَ عن أحمدَ وأمرَ بإكرامِه.

فائدة:

عن بلالٍ الخوّاصِ رحِمَهُ اللّهُ قال: كنتُ في تيهِ بني إسرائيل، فإذا رجلٌ يُماشيني، فتعجّبتُ منهُ، ثم إنّي أُلهِمتُ أنهُ الخَضِرُ، فقلتُ له: بحقِّ الحقِّ من أنت؟ فقالَ: أخـوكَ الخَضِر، فقلتُ له: أُريدُ أن أسأَلك، فقال: سَلْ، فقلتُ: ما تقـولُ في الشافعـيّ؟ فقال: هُوَ منَ الأوتـاد. فقلت: ما تقولُ في مـالكِ بنِ أنس؟ فقال: هُوَ إمامُ الأئمّة. فقلت: ما تقولُ في أحمدَ بنِ حنبل؟ قال: رجلٌ صِدّيـق. فقلـت: بأيِّ وسيلةٍ رأيتُك؟ فقال: ببِرِّكَ لأمِّك. انتهىٰ. ذكَـرَ جميعَ ذلكَ في «شرحِ العَينيّة».

ـ حجّةُ الإسلامِ أبو حامدٍ محمّدُ بنُ محمّدٍ الغزاليُّ:

كـانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ أوحَدَ زمانِه، وارتفعَتْ منزِلتُهُ علىٰ أكابرِ وقتِهِ معَ ما خصَّهُ اللّهُ تعالـىٰ بهِ مِن حُسنِ السِّيرةِ وطهـارةِ السّريـرةِ وكمالِ الاستقامة، ولم يختلـفِ النقلُ أنهُ المُجدِّدُ للدِّينِ علىٰ رأسِ المئةِ الخـامسةِ منَ السنين، وأخذَ رضِيَ اللّهُ عنهُ في التصانيـفِ العظيمةِ التي لـم يُسبَقْ إليها مثلَ «الإحياء». وعنِ الإمـامِ النَوويِّ عن بعـضِ شيوخِـهِ المُعتمَدينَ قال: وُزّعتْ تصانيـفُ الإمامِ الغزاليِّ علىٰ أيامِ عمُرِهِ، فخُصَّ كلُّ يومٍ منها أربعةَ كراريس.

قالَ بعضُهم: لو بعـثَ اللّهُ نبياً بعدَ نبيِّنا محمّـدٍ ﷺ لبعثَ الإمامَ الغزاليَّ ولكانتْ معجزتُهُ في كتبِه، أي: لو جازَ ذلكَ ولكنّهُ غيرُ جائز. وكانَ الشيخُ أبو الحسَنِ الشـاذِليُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقـولُ لأصحـابِه: مَن كانـتْ لهُ إلىٰ اللهِ حاجةٌ فلْيتوسّلْ بالإمامِ الغزاليِّ رضِيَ اللّهُ عنه.

وروىٰ اليـافعـيُّ بإسنـادِه، عـنِ الشيـخِ الكبيـرِ أحمـدَ الصيّـادِ اليمنـيِّ الزَّبيديّ[١]، وهُوَ مُعاصِرٌ للغزاليِّ قال: بَيْنا أنا يومٌ قاعدٌ أنظُرُ إلىٰ أبوابِ السماءِ مُفتَّحةً وعُصبةٌ من الملائكـةِ نزَلوا ومعَهُم خِلَعٌ خضْـرٌ ومركوبٌ نفيس، فوقفوا علىٰ قبرٍ وأخرَجوا صاحبَه، وألبَسوهُ وأركبوهُ وصعِدوا بهِ من سماءٍ إلىٰ سماء، حتىٰ جـاوزَ السبـعَ السمواتِ وخرَقَ الحُجُب، ولا أعلَـمُ إلىٰ أينَ بلَغَ انتهاؤه، فسألتُ عنه، فقيل: هذا الإمامُ الغزاليّ. انتهىٰ.

قـالَ الشيـخُ القطـبُ عبدُ اللّهِ العيـدروسُ نفَعَ اللّهُ بـه: أجمَـعَ العلماءُ العـارفونَ باللهِ علىٰ أنهُ لا شـيءَ أنفَعُ للقلبِ وأقربُ إلىٰ رضـا اللّهِ مِـن مُتابَعةِ الغـزاليِّ ومحبةِ كُتبِه، وكتُبُ الغزاليِّ لُبـابُ الكتـابِ والسنّةِ ولُبابُ المعقـولِ والمنقول، واللّهُ ولِيٌّ علىٰ ما أقول. انتهىٰ.



(١) الشيـخ أحمد بن أبي الخير، عُرِف بالصيّـاد، عـارفٌ جليل القدر من أهل زبيد، كان حنفي المذهب، وفاته سنة ٥٧٩هـ. «طبقات الخواصّ» (ص٦٤ ـ ٦٩).

خاتمةٌ
في قبض العلم وموت العلماء

قالَ الإمامُ البغَويُّ في تفسيرِهِ «مَعالِمِ التنزيل» عندَ قولِهِ عزَّ وجَلّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]: قالَ عطاءٌ وجماعة: نُقصانُها موتُ العلماءِ وذهابُ الفقهاء.

قالَ النَّسَفيُّ[١] في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]: أقسمَ اللّٰهُ بالعالِمِ إذا مات.

وعن عمرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ قال: سمِعتُ رسولَ اللّٰهِ ﷺ يقول: «إنّ اللّٰهَ لا يقبِضُ العِلمَ انتزاعاً ينتزِعُهُ مِن العباد، ولكنْ يَقبِضُ العِلمَ بقَبْضِ العلماء، حتىٰ إذا لم يُبقِ عالِماً اتَّخَذَ النّاسُ رُؤساءَ جُهالاً، فسئلوا فأَفْتَوا بغيرِ عِلم، فضَلُّوا وأضَلُّوا»[٢].

وقالَ عبدُ اللّٰهِ بنُ مسعودٍ رضِيَ اللّٰهُ عنه: موتُ العالِمِ ثُلْمةٌ في الإسلامِ لا

---

(١) الإمام المفسِّر الفقيه حافظ الدين أبو البركات عبد اللّٰه بن أحمد النسفي الحنفي (ت٧١٠هـ)، صاحب التفسير الجليل: «مدارك التنزيل»، و«المنار» في الأصول، و«كنز الدقائق» في الفقه، وغيرها من المصنفات المتقنة.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٠) ومسلم(٢٦٧٣)، من حديث عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص رضيَ اللّٰه عنهما.

يسُدُّها شيءٌ ما اختلفَ اللّيلُ والنهار. وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: عليكُم بالعِلمِ قبلَ أن يُقبَض، وقبضُهُ ذَهابُ أهلِه.

وقالَ عليٌّ كرّمَ اللّهُ وجهَهُ: إنّما مثَلُ الفقهاءِ كمثَلِ الكفّ، إذا قُطِعتْ كفٌّ لم تَعُد. وقالَ سلمانُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: لا يزالُ النّاسُ بخيرٍ ما بقِيَ الأوّلُ حتىٰ يتعلَّمَ الآخِرُ، فإذا أُهلِكَ الأوّلُ قبلَ أنّ يتعلَّمَ الآخِرُ هلَكَ النّاس.

وقيلَ لسعيدِ بنِ جُبَير: ما علامةُ هلاكِ الناس؟ قال: هلاكُ علمائهم. انتهىٰ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهما قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «إذا ماتَ العالِمُ صَوَّرَ اللّهُ عِلمَهُ في قبرِهِ يؤنِسُهُ إلىٰ يوم القيامةِ ويدرأُ عنهُ هوامَّ الأرض»[1]. وقالَ عمرُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: موتُ ألفِ عابدٍ قائمٍ بالليلِ صائمٍ بالنهار أهونُ مِن موتِ عالِمٍ بصيرٍ بحلالِ اللّهِ وحرامِه. انتهىٰ. ذُكِرَت هذهِ الأخبارُ والآثارُ في خاتمةِ كتابِ «مجمَعِ البحرَين في مناقبِ الإمامِ محمّدِ بنِ زَينِ (بنِ سُمَيط)».

ومِن كلام الحبيبِ القُطبِ الإمام أحمدَ بنِ زينِ الحَبشيِّ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ الإنسانَ شفيقٌ علىٰ هذا البدَن، يشُقُّ عليهِ كلُّ ما أصابَهُ غايةَ المَشقّة، ويتعَبُ غايةَ التّعَب، ويجتهِدُ في إزالةِ ذلك بما أمكنَه، ولو كانَ مرَضُهُ في دِينه وقلبِهِ وهُوَ يعرِفُهُ قَطْعاً فلا يهتمُّ بهِ ولا يُلقي لهُ بالاً، هل لذلكَ سببٌ إلا أنّ جسمَهُ وبدَنَهُ أعزُّ عليهِ وأكبرُ مِن قلبِهِ ودِينه الذي بهِ حياتُهُ الأبديّة؟ وذلكَ إنّما يفوتُ بهِ الجسمُ الذي هُوَ للتُّراب. وأهلُ الزمانِ إذا لقُوا العالِمَ تراموْا وتَواثَبوا عليهِ يسألونَهُ عن أمورِ الطبِّ وما بهِ النفْعُ العاجل، ولا يسألونَهُ عن طبِّ القلوب! انتهىٰ.

---

(١) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر.

ولِلّهِ درُّ القائل:

قد ماتَ قومٌ وما ماتَتْ مكارِمُهمْ ... وماتَ قومٌ وهُم في النّاسِ أحياءُ
فالجاهلونَ مَوَاتَىٰ قبلَ موتِهِمُ ... والعالِمونَ وإن ماتُوا فأحياءُ

ولبعضِ الفُضلاء:

إذا شئتَ أن تبكي فقيداً منَ الورىٰ ... وتَندُبَهُ ندْبَ النبيِّ المكرّمِ
فلا تبكِ إلا علىٰ موتِ عالِمٍ ... يُبالِغُ في التعليمِ للمتعلِّمِ
وموْتِ إمامٍ عادِلٍ في رَعيّتِهْ ... بأحكامِ شرعِ اللّهِ لا بالتحكُّمِ
وموتِ كريمٍ لا يَمَلُّ منَ العَطا ... يُفرِّجُ جيشَ الهَمِّ عن كلِّ مُعدَمِ
وموتِ شجاعٍ صابرٍ في جهادِهِ ... قدِ انتشرَتْ أعلامُهُ في التقدُّمِ
وموتِ وليٍّ صالحٍ حافظِ الوَفىٰ ... مطيعٍ لربِّ العالمينَ معظِّمِ
فهُمْ خمسةٌ يُبكىٰ عليهِم، وغيرُهمْ ... «إلىٰ حيثُ ألقَتْ رَحْلَها أُمُّ قشْعَمِ»

وقالَ الشيخُ الإمامُ عبدُ العزيزِ الدِّيرِيْنِيّ الدَّمِيريّ[1]:

إذا ما ماتَ ذو علمٍ وتقوىٰ ... فقد ثُلِمَتْ في الإسلامِ ثُلمهْ
وموتُ العابدِ المَرْضِيِّ نقصٌ ... ففي مَرآهُ للأَسرارِ نَسمهْ
وموتُ العادلِ المَلِكِ المُولَّىٰ ... بحُكمِ الحقِّ منقصَةٌ وقِصمهْ
وموتُ الفارسِ الضِّرغامِ هَدْمٌ ... فكمْ شهِدَتْ لهُ بالنّصرِ عزْمهْ
وموتُ فتىً كثيرِ الجُودِ مَحْلٌ ... فإنّ بقاءَهُ خِصْبٌ ونِعمهْ

---

(١) الشيخ القدوة الزاهد العارف، صاحبُ الأحوال والكرامات، عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدَّميري الدِّيريني (٦١٣ ــ ٦٩٤هـ). كان متقشِّفاً مخشوشناً سليم الباطن، حسن الأخلاق، يتبرَّك به الناس. نَظَمَ كثيراً، وله كتابٌ حسنٌ في التصوّف، سمّاه: «طهارة القلوب في ذكر علاّم الغيوب»، مطبوع.

فحسبُكَ خمسةٌ يُبكىٰ عليهِم ومَوتُ الغيرِ تخفيفٌ ورحمه[١]

واعلَمْ أنّ العالِمَ العاملَ بعِلمِهِ منَ الذينَ لا تأكُلُ الأرضُ أجسامَهم بعدَ موتِهم. وهُم ـ علىٰ ما قالَهُ بعضُهم ـ خمسةٌ: الأنبياءُ، والعلماءُ، والشهداءُ، وحافظُ القرآن، والمؤذِّنُ المحتسِب. جمَعَهُم قولُ بعضِهم:

لا تأكُلُ الأرضُ جسماً للنبيِّ، ولا لعالِمٍ، وشهيدٍ قَتْلِ مُعتَرَكِ
ولا لقارئِ قُرآنٍ، ومُحتَسِبٍ أذانَهُ لإلٰهٍ مُجرِي الفَلَكِ

فائدة:

في بعضِ رسائلِ الشيخِ المُسنِدِ العلّامةِ حسَنٍ العُجَيميِّ[٢] ما معناه: مَن أرّخَ أحداً مِن أهلِ الفضلِ والكمالِ فهُو في شفاعتِه.

وفي كتابِ «تحقيقِ الصَّفا» لمُحبِّ الدِّينِ الطَّبريّ: إنّ مَن أرَّخَ مؤمناً فضلاً عن عالِمٍ عاملٍ فكأنّما أحياهُ، ومَن أحياهُ فكأنّما أحيا النّاسَ جميعاً. انتهىٰ. مِن كتابِ «النفَسِ اليمانيّ» للعلّامةِ عبدِ الرحمنِ بنِ سليمانَ الأهدَل.

❊ ❊ ❊

---

(١) الأبيات ذكرها التاج السبكي في «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (٨: ٢٠١).

(٢) المؤرّخ المحدِّث أبو البقاء حسن بن علي العُجَيمي المكي الحنفي (١٠٤٩ ـ ١١١٣هـ). يماني الأصل، مولده بمكة ووفاته بالطائف. له «خبايا الزوايا» ترجمَ فيه لمشايخه ومَن اجتمع بهم، و«إهداء اللطائف من أخبار الطائف»، وغيرها. وله ثبتٌ حافل.

حكاياتٌ في وَفَياتِ أهلِ العناياتِ ومرائيهم

ذُكِرَ في «صِفَة الصّفْوة»[١] أنهُ لمّا ماتَ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما بالطائفِ سنةَ ثمانٍ وستينَ منَ الهجرة، ووُضِعَ بالنعشِ للصلاةِ عليه، جاءَ طائرٌ أبيضُ ودخَلَ في كفَنِه، فلم يخرُجْ، فالتُمِسَ فلم يوجَد. ولمَّا سُوِّيَ عليهِ الترابُ سُمعَ صوتٌ لا يُرىٰ شخصُهُ يقول: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]. ولمّا مات قالَ محمدُ بنُ الحنَفية: اليومَ ماتَ ربّانيُّ هذهِ الأُمّة.

قالَ الربيعُ[٢]: رأيتُ في الشام أنّ آدمَ ماتَ، فسألتُ عن ذلكَ فقيل: هذا موتُ أعلَمِ أهلِ الأرض؛ لأنّ اللّهَ علَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها، فما كانَ إلا يسيراً فماتَ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّه.

ورأىٰ غيرُهُ ليلةَ ماتَ الشافعيُّ قائلاً يقول: الليلةَ ماتَ النبيُّ ﷺ. ذكَرَهُ النَووِيُّ في مقدِّمةِ «شرحِ المُهذّب»[٣].

وذَكَرَ الإمامُ اليافعيُّ في «نشرِ المَحاسِنِ»، عنِ الربيعِ بنِ سليمانَ رحِمَهُ اللّهُ أنهُ قال: رأيتُ الإمامَ الشافعيَّ بعدَ وفاتِهِ في المنام، فقلتُ له: يا أبا عبدِ اللّه، ما صنَعَ اللّهُ تعالىٰ بك؟ قال: أجلَسَني علىٰ كُرسيٍّ مِن ذهَبٍ ونشَرَ عليَّ اللؤلؤَ الرَّطب.

ورُؤيَ الشيخُ الإمامُ أبو إسحاقَ الشِّيرازِيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ في المنام بعدَ وفاتِهِ وعليهِ ثيابٌ بِيضٌ وعلىٰ رأسِهِ تاج، فقيلَ لهُ: ما هذا البَياض؟ فقال:

---

(١) للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، في تراجم السلف الصالحين منذ عهد الصحابة.
(٢) ابن سليمان المرادي، تلميذ الإمام الشافعي.
(٣) «المجموع شرح المهذَّب» (١ : ٨).

شرَفُ الطاعة. قيل: والتاج؟ قالَ: عزُّ العِلم. انتهىٰ.

وحُكِيَ عن بعضِ أصحابِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ رآهُ بعدَ موتِهِ وهُوَ يمشي ويتبَخْترُ في مِشيتِهِ، قال: فقلتُ لـه: يا أخي، أيُّ مِشيةٍ هذِه؟ قال: مِشيةُ الخُدّام في دارِ السلام. فقلتُ له: ما فعَلَ اللّهُ بك؟ قال: غفرَ لي وألبَسَني نَعْلَين مِن ذهَبٍ وقالَ لي: هذا جزاءُ قولِكَ: «القرآنُ كلامُ اللّهِ مُنزَّلٌ غيرُ مخلوق»، وقال: قمْ يا أحمدُ حيثُ شئت، فدخَلتُ الجنّة، فإذا بسفيانَ الثوريِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ، لهُ جَناحانِ أخضَرانِ يَطيرُ بهما مِن نخلةٍ إلىٰ نخلة، وهُوَ يقرأُ هذهِ الآية: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤]. انتهىٰ. ذكرَ ذلك في «نشر المَحاسِن».

ورُوِيَ أنّ الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلٍ لمّا تُوفّيَ حُزِرَ مَن حضَرَ جنازتَهُ منَ الرجالِ فكان ثمانَمِئةِ ألفٍ ومنَ النساءِ ستونَ ألفاً سوىٰ مَن كانَ في الطريقِ والسُّفُنِ والأسطِحة، فإنهم بذلكَ يكونونَ أكثرَ مِن ألفِ ألف. وفي رواية: فبَلَغوا: ألفيْ ألفٍ وخمسَمِئةِ ألف، وأسلَمَ يومَئذٍ عشرونَ ألفاً منَ اليهودِ والنّصارىٰ والمَجوس. انتهىٰ. مِن «شرحِ العَينيّة».

ذكَرَ النوَويُّ في «تهذيبِ الأسماءِ» عن بِشْرِ بن مُبَشِّرٍ قال: رأيتُ يحيىٰ بنَ مَعِينٍ[1] في المنامِ فقلت: ما فعَلَ اللّهُ بك؟ فقال: زوَّجني اللّهُ أربعَمِئةِ حَوْراءَ بِذَبّي الكذبَ عن رسولِ اللّهِ ﷺ. وتُوفّيَ رحِمَهُ اللّهُ بالمدينةِ وغُسِّلَ علىٰ السريرِ الذي غُسّلَ عليهِ رسولُ اللّه ﷺ وحُمِلَ عليه، ونُودِيَ عليه: هذهِ جِنازةُ يحيىٰ بنِ

---

(١) الإمام الحافظ الجهبذ أبو زكريا يحيىٰ بن معين البغدادي (١٥٨ ــ ٢٣٣هـ)، شيخ المحدِّثين، وأحد كبار أئمة الجرح والتعديل ومعرفة الرجال ونقد الحديث.

مَعِينٍ ذابٌّ الكذبِ عن رسولِ اللّهِ ﷺ والناسُ يَبكون، واجتَمَع علىٰ جِنازتِهِ خلائقُ لا يُحصَون. انتهىٰ[(١)].

وقدَّمْنا أنّ الإمامَ اليافعيَّ روىٰ بإسنادِهِ عنِ الشيخِ الكبيرِ أحمدَ الصيّادِ اليمَنيِّ الزَّبيديِّ رضِيَ اللّهُ عنه: أنهُ رأىٰ في بعضِ الأيامِ وهُوَ قاعدٌ أبوابَ السماءِ مُفتَّحة، وإذا بعُصبةٍ منَ الملائكةِ قد نزَلوا إلىٰ الأرضِ ومعَهم خِلَعٌ خُضْرٌ ودابةٌ مِن الدوابّ، فوقَفوا علىٰ رأسِ قبرٍ مِنَ القبور، وأخرجوا شخصاً مِن قبرِهِ وألبَسُوهُ الخِلَعَ وأركَبوهُ علىٰ الدابةِ وصَعِدوا بهِ إلىٰ السماء، ثم لم يزالوا يصعَدونَ بهِ مِن سماءٍ إلىٰ سماءٍ حتىٰ جاوَزَ السماواتِ السبعَ كلَّها وخرَقَ بعدَها سبعينَ حِجاباً، قال: فتعجّبتُ مِن ذاكَ وأردْتُ معرِفةَ ذلكَ الراكبِ فقيلَ لي: هذا الغزاليّ، ولا أعلَمُ إلىٰ أينَ بلغَ انتهاؤه. انتهىٰ.

قالَ أبو محمّدٍ الجُوينيُّ[(٢)] رحِمَهُ اللّه: رأيتُ إبراهيمَ الخليلَ عليهِ الصّلاةُ والسلامُ في المنام، فأردتُ تقبيلَ رِجلَيه، فمَنَعني مِن ذلك، فقبّلتُ عَقِبَه، فأوّلتُ ذلك أنّ البركةَ تكونُ في عَقِبي. قالَ ابنُ السُّبْكيّ: فأيُّ بَرَكةٍ مثلُ ولدِهِ إمامِ الحَرَمَينِ إمامِ الأئمّةِ علىٰ الإطلاقِ عَرَباً وعَجَماً[(٣)]؟

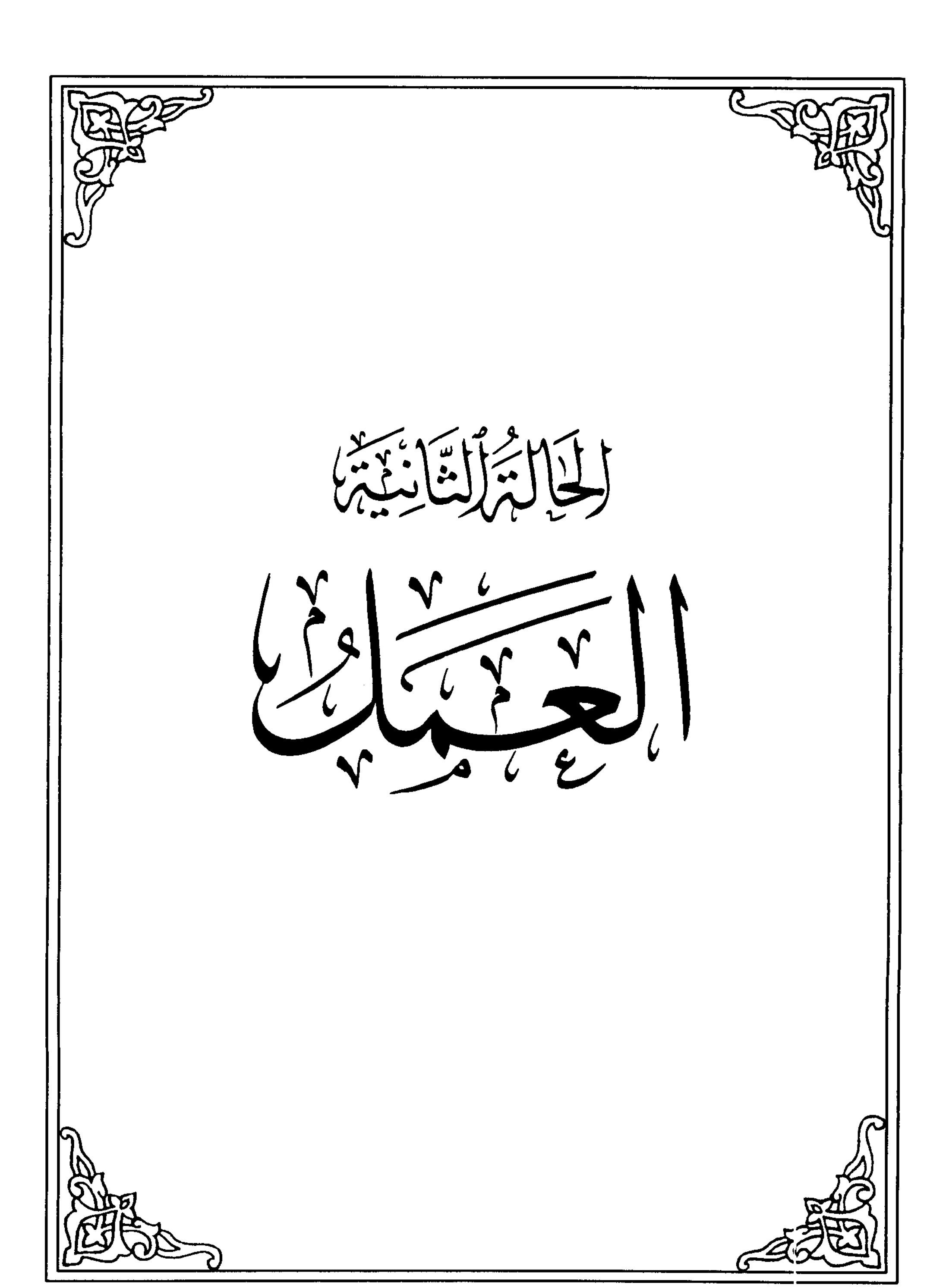
❊ ❊ ❊

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢: ١٥٧ ـ ١٥٨).

(٢) الإمام أبو محمد عبد اللّه بن يوسف الجويني الملقَّب بركن الإسلام (ت ٤٣٨هـ). والد إمام الحرمين، أوحد زمانه علماً وديناً وزهداً، له المعرفة التامة بالفقه والأصول، والنحو والتفسير والأدب، وكان لفرط الديانة مَهيباً لا يجري بين يديه إلاّ الجد وكلام الخير.

(٣) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (٥: ٧٥).



الحالة الثانية

العمل

وفيها ــ بعد المقدِّمة ــ عشَرةُ فصول :

الأول : في وجوب العملِ بالعِلم وما وردَ في ذلك منَ الأخبارِ والآثار .

الثاني : التقوىٰ معناها وفضائلُها .

الثالث : في أهميةِ العبادةِ وفَضْلِها .

الرابع : في ثمَراتِ الأعمالِ الصّالحات .

الخامس : في العِلْمِ اللُّدُنيِّ والتَّلَقّي عنِ اللّه .

السادس : في الحثِّ علىٰ البِدارِ بالعملِ الصّالحِ والاجتهادِ فيه .

السابع : في المجاهَدةِ ورياضةِ النفس .

الثامن : في التصوُّف .

التاسع : في أحبِّ الأعمالِ إلىٰ اللّه .

العاشر : في عملِ السَّلَفِ الصالحِ من آلِ أبي عَلَوي وعاداتِهمُ الحسَنة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمدُ للّه الذي جعلَ التقوىٰ أساسَ الخيرات، وسُلَّمَ السعادات، ورأسَ الدَرجات، وسَهَّلَها علىٰ أربابِ العِنايات، الذينَ أراهُمُ الحُسنىٰ في الحياةِ وبعدَ المَمات، فجاهَدوا أنفُسَهم في الطاعاتِ والعبادات. وصلَّىٰ اللّهُ علىٰ سيِّدِنا محمّدٍ أفضَلَ الصَّلَوات، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ الأئمةِ القَادات، وسلَّمَ تسليماً كثيراً إلىٰ يومِ المِيقات.

الحالةُ الثانيةُ مِن طريقِ السادةِ العَلَويةِ وسِيَرِهمُ المَرْضِيّة: العمَلُ بالعلومِ الدينيّة، وتقوىٰ اللّهِ في السرِّ والعَلانية.

قالَ سيّدُنا الإمامُ الحبيبُ عَيْدَروسُ بنُ عمرَ الحَبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: «**الحالةُ الثانيةُ: العمَلُ بالعِلم**، وهُوَ العبادةُ التي هِيَ ثمرَةُ العِلم، ومِن أجلِها خُلِقتِ السّمٰواتُ والأرض، بنصِّ قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وكفىٰ بهذهِ الآيةِ دليلاً علىٰ شَرَفِ العبادةِ ولُزومِ الإقبالِ عليها.

والعِلمُ والعبادةُ ــ كما قالَ الإمامُ الغزاليّ ــ جَوهَران، لأجلِهما كلُّ ما تَرىٰ وتسمَعُ مِن تصنيفِ المُصنِّفين، وتعليمِ المُعلِّمين، ووَعْظِ الواعِظين،

ونظَرِ الناظِرين، بل لأجلِهمـا أُنزِلَـتِ الكتُبُ وأُرسِلَتِ الرُّسُل. انتهىٰ.

فإذا عَلِمْتَ وخَبِرتَ سِيَرَهُم، تحقَّقْتَ أنّهُم أَخَذوا مِن ذلكَ بأقوىٰ سبب، وحازُوا قَصَبَ السَّبْقِ في معَالي الرُّتَب، وصاروا ــ كما قالَ السُّهْرَوَرْدِيّ ــ كَرُّ عَمَلِهِـم علىٰ العِلم، وعِلْمِهم علىٰ العمَـل، فتَناوَبَ العِلـمُ والعملُ فيهِم حتىٰ صفَتْ أعمالُهـم ولَطُفَتْ، فصـارَتْ مُسامراتٍ سَرِيّـة، ومحـاوراتٍ رُوحيّـه، فتَشكّلتِ الأعمالُ بالعُلُوم، وتشَكّلتِ العلومُ بالأعمال، لقوّةِ فعلِها وسِرايتِها إلىٰ الاستِعدادات». انتهىٰ.

ولْنَشرَعِ الآنَ في شـرحِ هذهِ الحالةِ وذِكْرِ الفضائـلِ المَرْوِيّـةِ؛ في فضْلِ العبادة وتقوىٰ اللّهِ ربِّ البَرِيّةِ، منَ الآياتِ القرآنية، والأحاديثِ النبَويّـة.



الفصل الأوّل
في وجوب العمل بالعلم
وما ورد في ذلك من الأخبار والآثار

ـــ اقتضاءُ العِلمِ العمَل :

عن معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللّه عنه قال : اِعلَمُوا ما شئتُم أن تَعْلَموا ، فلن يَأجُرَكُمُ اللّهُ بالعِلْمِ حتّىٰ تعمَلوا[1] .

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه :

معنىٰ العمَلِ بالعِلم هُوَ : أن يعمَلَ بما يَقدِرُ عليهِ منه ، ويتعلَّمَ منهُ ما يقدِرُ عليه ، ويعلِّمَ منهُ ما أمكَنَه وعلىٰ هذا ، وأمّا معرِفةُ كلِّ العِلمِ والعمَلُ بكلِّ العلمِ فمَن يقدِرُ عليه؟ ولكنْ معَ ذلك يعتقِدُ أنهُ ما بلَغَ تمامَ العِلمِ لا في العمَلِ ولا في المعرفةِ ولا في التعليم . انتهىٰ . مِن «تثبيت الفؤاد» .

وعن سُفيانَ الثـوريِّ رحِمَهُ اللّه : يَهتفُ العِلـمُ بالعمَـل ، فإن إجابَهُ وإلاّ

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (٢٦٤) ، وابنُ عبد البر في «جامـع بيـان العلـم وفضله» (٢ : ٦) ، وأبو نُعيم في «الحلية» (١ : ٢٣٦) ، وغيرهم ، من قول معاذ بن جبل رضي اللّه عنه .

ارتحَل. أي: يرتَحِلُ معناهُ وحقيقتُه، ويبقىٰ رسْمُهُ وصورتُهُ تقومُ بهِ الحُجّةُ علىٰ صاحبِه. انتهىٰ.

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: لو قرأتَ العِلمَ مئةَ سنة، وجمَعْتَ ألفَ كتاب، لا تكونُ مُستعداً لرحمةِ اللّهِ تعالىٰ إلاّ بالعَمَل، كما قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤]، ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٨٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]. ثم قال: ودليلُ الأعمالِ أكثرُ مِن أن يُحصىٰ، وإن كان العبدُ يبلُغُ الجنّةَ بفضلِ اللّهِ تعالىٰ وكرَمِهِ، ولكنْ بعدَ أن يستعِدَّ بطاعتِهِ وعبادتِه؛ لأنّ رحمةَ اللّهِ تعالىٰ قريبٌ منَ المُحسنينَ.. إلىٰ آخِرِ ما قالَ في «رسالتِهِ» لبعضِ تلامِذتِه.

ومِنْ كلام سيّدِنا الإمامِ أحمدَ بنِ حسَنٍ العطّاسِ نفَعَ اللّهُ به: العِلمُ في ذاتِهِ صناعةٌ يعرِفُها البَرُّ والفاجر، والمؤمنُ والكافر، وإنّما ثَمرتُهُ والمقصودُ منهُ العمَل، وهُوَ أخلاقٌ وآدابٌ ونياتٌ صالحات، وهُوَ ما عليهِ السلَفُ مما هُوَ مذكورٌ في كتُبِهم كـ«بدايةِ الهداية» و«الإحياءِ» للغزاليِّ و«الأذكارِ» للنوَوِيِّ وأشباهِها. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: لا يستقيمُ عِلمُ الإنسانِ ولا يُنتفَعُ بهِ إلا بالعمَل، وأهلُ هذا الزمانِ ترَكوا العمَلَ وراحوا قَفا العِلم[1]، والعِلمُ المُجرَّدُ عنِ النُّورِ وعنِ الفِعلِ كمِثلِ كتابٍ في رَفّ.

قالَ سيّدُنا الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينِ بنِ طاهرٍ رضِيَ اللّهُ عنه:

---

(١) راح قفاه: إذا اتّبعه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم﴾.

فالعلـمِ بالأعمالِ يَزكُـو وبالأحوالِ
وليسَ بـالأقـوالِ وكثـرةِ الجِـدالِ
العلمُ خَشْيهْ كلُّهْ يُعرَفْ بذاكَ أهلُهْ

ـ مُضاعَفةُ العذابِ للعاصي علىٰ عِلْم:

قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «يُجاءُ بالرَّجُلِ يومَ القيامةِ فيُلقىٰ في النّار، فتندَلِقُ أقْتابُه، فيدورُ بها كما يدورُ الحمارُ بالرَّحا، فيجتمِعُ أهلُ النّارِ عليهِ فيقولون: ما شَأْنُك؟ ألستَ كنتَ تأمُرُنا بالمعروفِ وتنهانا عنِ المُنكَر؟ فيقول: كنتُ آمُرُكُم بالمعروفِ ولا آتيه، وأنهاكُم عنِ المُنكَرِ وآتيه»[1].

عن ميمونَ بنِ مَهرانَ قال: قالَ أبو الدّرداءِ رضِيَ اللّهُ عنه: ويلٌ لمَن لا يعلَمُ مرة، وويلٌ لمَن يعلَمُ ولا يعمَلُ سبعَ مرات.

قال الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ في «الإحياء»: وإنّما يُضاعَفُ عذابُ العالِمِ في معصِية؛ لأنهُ عصىٰ عن عِلم، ولذلكَ قالَ اللّهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]؛ لأنّهـم جحَدوا بعـدَ العِلـم. وجُعِـلَ اليهودُ شرّاً منَ النّصارىٰ معَ أنّهم ما جعَلوا للّهِ سبحانَه ولداً ولا قالوا: إنّه ثالثُ ثلاثة، إلاّ أنّهم أنكَروا بعدَ المعرِفة، إذ قالَ اللّه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقالَ تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩]. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا القُطبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّه عنه: وقد عُلِمَ وتقرّرَ أنّ الأعمـالَ الصالحـةَ التي تصدُرُ منَ العـارف، يزيـدُ ثوابُهـا علىٰ أعمالِ غيـره

(١) أخرجـه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩)، وغيرهما، من حديث أسامةَ بن زيد رضيَ اللّه عنهما. وقد تقدّم ص ٣٢٠.

وتتضاعَفُ أضعافاً كثيرة، وكذلكَ ما يصدُرُ منهُ مِنَ السيّئات، تعظُمُ المُؤاخذةُ عليها وتفحُشُ المُعاقبةُ لها، وربّما عوقِبَ علىٰ الصغائرِ مُعاقبَةَ غيرِهِ علىٰ الكبائر، وذلكَ لأنهُ في حيّزِ القُرْب، ألم تسمَعْ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ [الأحزاب: ٣٠] الآية والتي تليها.

وقد بلَغَنا عنِ العارفِ ابنِ الجَلاّء[١] أنهُ نظَرَ إلى أمردَ جميل، فقيلَ له: لتجِدَنَّ غِبَّها ولو بعدَ حين، فنَسِيَ القرآنَ بعدَ ذلك. وخَطَرَ لبعضِهم خاطرُ المعصيةِ وهُوَ في الصلاةِ فاسوَدَّ جميعُ بدنِهِ وبَقِيَ مدةً كذلكَ حتّىٰ تشفّعَ فيهِ بعضُ المُحقّقين.

ورأىٰ الجُنَيدُ رحِمَهُ اللّهُ فقيراً يسأَلُ الناس، فقالَ في نفْسِه: لو اشتغَلَ هذا بالكسْبِ لكانَ أحسنَ له، فلما قامَ إلىٰ وِرْدِهِ منَ الليلِ لم يجِدْ نشاطاً ولا حَلاوة، وغَلَبَتْهُ عيناه، فرأىٰ الفقيرَ قد جيءَ به ممدوداً علىٰ خِوان، فقيلَ له: كُلْ لحمَه، فإنّكَ قدِ اغتبتَه. فقال: سبحانَ اللّه! إنّما كانتْ خَطرة، فقيلَ له: مِثلُكَ لا يُسمَحُ لهُ بمثلِ هذا. انتهىٰ. منَ «المكَاتَبة».

وقالَ الجُنيدُ رحِمَهُ اللّه: لو أقبَلَ المُريدُ علىٰ اللّهِ ألفَ سنة، ثم أعرَضَ عنهُ لحظة، لكانَ ما فاتَهُ في اللّحظةِ أكثرَ ممّا أدركَهُ في الألفِ سنة.

---

(١) الشيخ القدوة العارف باللّه، جُنَيدُ الشام، أبو عبد اللّه أحمد بن يحيىٰ الجلاّء (ت٣٠٦هـ). قال في سبب تسمية والده بالجلاّء: ما جلا أبي شيئاً قطّ، ولكنه كان يَعِظُ فيقع كلامُه في القلوب، فسُمّيَ جلاّءَ القلوب. انتهىٰ. صحب أبو عبد اللّه: والدَه وأبا تراب النخشبي، وذا النون المصري. لمّا مات ابن الجلاّء نظروا إليه فإذا هو يضحك، فقال الطبيب: إنه حيّ. ثم نظروا إلىٰ مِجسَّتِه فقال: إنه ميت. ثم كشف عن وجهه فقال: لا أدري أهو ميتٌ أم حي! رضيَ اللّه عنه.

كـانَ سيّدُنـا الإمامُ عَيْـدَروسُ بنُ عمـرَ الحبَشيُّ رضِـيَ اللّهُ عنـهُ يمثِّـلُ لذلكَ بمَـن يتَّجرُ في أَداني الأمتعةِ كالحطَبِ والحشيـش، فلا يـزالُ يتعلّىٰ مِن متاع إلىٰ متـاعٍ إلىٰ أعلـىٰ منهُ حتىٰ يتّجرَ في أعلاهـا كالجواهـرِ العـزيزةِ التي تكـونُ الواحـدَةُ مِنهـا أكثـرَ ثمنـاً مِن ثمـنِ جميـعِ الأمتعـةِ التـي قـد سبقَـت تجارتُهُ فيها منَ ابتدائِه إلىٰ انتهائه، ثم وقفَ عنِ التجارة. انتهىٰ. مـنَ «النهرِ المورود».

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّه: إنّ وِزْرَ العالِـمِ في معاصيهِ أكبرُ مِن وِزرِ الجاهل، إذ يزِلُّ بزَلّتِهِ عالَمٌ كثيرٌ ويقتدونَ به، ومَن سنَّ سُنةً سيئةً فعليهِ وِزرُها ووِزرُ مَن عمِـلَ بهـا، ولذلكَ قالَ عليٌّ رضِيَ اللّهُ عنه: قصَـمَ ظهْري رجُلان: عالِمٌ مُتهتِّك، وجاهـلٌ متنَسِّك. فالجاهلُ يغُرُّ الناسَ بتنسُّكِه، والعالِمُ يغرُّهم بتهتُّـكِه. انتهىٰ.

ـــ أحاديثُ أخرىٰ في الباب:

وعنِ أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ عالِمٌ لم يَنفَعْهُ اللّهُ بعِلْمِه»[١].

وقال ﷺ: «مَنِ ازدادَ عِلْمـاً ولم يَزْدَدْ هُدىً ـــ وفي روايـة: زُهـداً ـــ لم يَزْدَدْ منَ اللّهِ إلاّ بُعْداً»[٢].

قالَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: السّالكُ الصادقُ لا

---

(١) أخرجه البيهقي في «شُعب الإيمان» (٢ : ٢٨٥)، وغيره من حديث أبي هريرة رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه الديلمي في «الفردوس» من حديث علي كرّم اللّه وجهه، بسندٍ ضعيف كما قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (١ : ٥٩).

يزالُ في مزيدٍ منَ المعرفةِ والعبادةِ حتىٰ يخرُجَ منَ الدنيا، وذلكَ علامةُ صدقِهِ، فإذا ظهَرَ عليهِ أثرٌ منَ التقصيرِ دلَّ ذلكَ علىٰ وقوفِهِ أو علىٰ فتورِه، كما قالَ أبو سليمانَ رحِمَـهُ اللّٰه: لو وصَلـوا، ما رجَعوا، يعنـي: إلـىٰ الكسَـلِ والراحاتِ المُباحات.

* * *

وعنِ زيدِ بنِ أرقمَ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ قال: كانَ رسولُ اللّٰهِ ﷺ يقول: «اللّٰهُمَّ إنِّي أعوذُ بـكَ مِن عِلمٍ لا ينفَع، ومِن قلبٍ لا يخشَع، ومِن نفْسٍ لا تشْبَع، ومِن دعوةٍ لا يُسْتَجابُ لها»[١].

قالَ سيّدُنا العارفُ باللّٰه، أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّٰهُ به: العِلمُ إذا كانَ وصْفاً ــ أي: حديثاً مجرَّداً ــ ضرّ، وإذا كان عملاً نفَع.

ورُوِيَ في الحديث: «مثَلُ الذي يُعَلِّمُ النّاسَ الخيرَ وينسىٰ نَفْسَه كمثَلِ الفَتيلةِ تُضيءُ علىٰ النّاسِ وتُحرقُ نفْسَها»[٢].

وعن سُفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ رضيَ اللّٰه عنه قال: كان يُقال: أشدُّ الناسِ حَسْرةً يومَ القيامةِ ثلاثةٌ: رجلٌ كان له عبدٌ فجاء يومَ القيامةِ أفضَلَ عملاً منه، ورجلٌ له مالٌ فلم يتصدَّقْ منه فماتَ فورِثَهُ غيرُه فتصدَّقَ منه، ورجلٌ عالمٌ لم يَنتفِعْ بعلمِه فعَلِمَه غيرُه فانتفَعَ بِه[٣].

---

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (٢٧٢٢)، وغيره، من حديث زيد بن أرقم رضيَ اللّٰه عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢: ١٦٥ برقم ١٦١٨)، من حديث جندب بن عبد اللّٰه رضيَ اللّٰه عنه، لكـن بلفظ: «. . كمثل السراج. .». وحسَّنه الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣: ١٩١). أما لفظ المتن فقد أخرجه البزار في «مسنده» من حديث أبي برزة رضيَ اللّٰه عنه، كما في «الترغيب والترهيب» (١: ١٧٢).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧: ٢٨٨).

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه، بعدَ ذِكْرِهِ العمَلَ بالعِلم: إن لم يُمكنْكَ أن تعمَلَ بهِ، فتفعَلَ الطاعاتِ وتترُكَ المنهيّاتِ، فافعَلْ من الطاعةِ ما تيسّر، معَ العزْمِ علىٰ فعلِ الباقي، واترُكِ العمَلَ ببعضِ المَعاصي، معَ العزْمِ علىٰ تركِ الباقي، فانوِ ذلك، فقد يحصُلُ بالنيةِ ما لا يحصُلُ بالأعمالِ حتىٰ يقِلَّ تحسُّرُهُ في الآخرةِ إذا رأىٰ درَجاتِ العامِلين، إذ لو ترَكَ جميعَ ذلك لَطالَتْ حسرَتُه.

ومعلومٌ أنّ مَن تركَ العمَلَ وجَلَسَ عاطلاً باطلاً، طالَ حزنُهُ في الآخرة، ولا يكونُ فيهِ خيرٌ ولا برَكة، ولو أنكَرَ علىٰ أحدٍ في صلاةٍ أو زكاةٍ أو نحوِ ذلكَ وهُوَ مُتلبِّسٌ بما أنكرَهُ فماذا ينفعُهُ عِلمُه؟ فتكثرُ حسرتُه، سيما إنِ انتفَعَ بعِلمِهِ غيرُه. انتهىٰ. مِن «تثبيت الفؤاد».

وقالَ بعضُ العلماء: ليسَ في القيامةِ منَ الحسَراتِ أشدُّ مِن ثلاثة: رجلٌ ملَكَ عبداً فعلَّمَهُ الإسلامَ والشرائعَ فأطاعَ العبدُ ولم يُطعِ المولىٰ ربَّه، فذلكَ يُحمَلُ إلىٰ الجنّةِ ويُحمَلُ المَولىٰ إلىٰ النار. ورجلٌ كسَبَ مالاً مِن كلِّ وجهٍ فلم يُقدِّمْه، فورِثَهُ غيرُهُ فعَمِلَ فيهِ بالطاعةِ فقدَّمَهُ لنفْسِه، فهُوَ ناجٍ وصاحبُهُ مؤاخَذٌ به. ورجلٌ علَّمَ الناسَ عِلماً فعمِلوا بهِ ولم يعمَلْ به، ففازوا فكانَ هُوَ الهالك. انتهىٰ.

وعن أنس رضيَ اللّهُ عنه قال: قال رسولُ اللّهِ ﷺ: «مرَرْتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بأقوام تُقْرَضُ شِفاهُهُم بمَقاريضَ مِن نار، فقلت: مَنْ هؤلاءِ يا جبريل؟ قال: خُطباءُ أُمّتِكَ الذينَ يقولونَ ما لا يفعلون»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣: ١٢٠)، والبيهقي في «شُعَب الإيمان» (٢: ٢٨٣) واللفظ له، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه.

قالَ سيّدُنا الحبيبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: وهذا الوعيدُ إنّما يتحقّقُ في حقِّ مَن يدعو إلىٰ اللّهِ علىٰ نيةِ الدنيا، ويحُثُّ علىٰ الخيرِ وهُوَ مُصِرٌّ علىٰ ترْكِه، ويحذِّرُ منَ الشرِّ وهُوَ مُصِرٌّ علىٰ فعلِهِ رِياءً وسُمْعة، وأمّا من يدعو إلىٰ بابِ اللّه، وهُوَ ــ معَ ذلكَ ــ يلومُ نفْسَه وينهاها عن التقصير، ويحُثُّها علىٰ التشمير، فالنجاةُ مَرْجوَّةٌ له، وعلىٰ كلِّ حالٍ، فالذي يعلَمُ ولا يعمَلُ أحسنُ حالاً وأرشدُ طريقةً وأحمدُ عاقبةً منَ الذي لا يعمَلُ ولا يعلَم. انتهىٰ. مِن «رسالةِ المُعاوَنة».

ــ هل يُسمّىٰ مَن لا يعمَلُ بعلمِه (عالماً)؟

قالَ سيِّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ علَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: العالِمُ إذا لم يعمَلْ بعلمِهِ لا يُقالُ له عندَنا: عالمٌ، إلا أنْ يُقال: «عالِمٌ فاجر»، بأنْ يُوصَفَ بالفجور. والجَهلُ علىٰ هذا أسلمُ له، وتقريبُهُ معَ هذا الوصفِ فيهِ هدْمٌ للدِّينِ أكثر.

وقال رضِيَ اللّهُ عنهُ: إنّ العِلمَ ما نفَع، ومَن علِمَ وما عمِلَ فليسَ بينَهُ وبينَ الجاهلِ فرقٌ إلاّ مِن حيثُ أنّ حُجّةَ اللّهِ عليهِ آكَد، فعلىٰ هذا يكونُ الجاهلُ أحسنَ حالاً منه. ولذلكَ قيل: كلُّ عِلمٍ لا يعودُ عليكَ نفْعُهُ فالجهْلُ أعوَدُ عليكَ منه.

وعن سُفيانَ بنِ عُيَينةَ رضِيَ اللّهُ عنه: أجهلُ الناس مَن تركَ العملَ بما يعلَم، وأعلَمُ الناسِ مَن عمِلَ بما يعلَم، وأفضلُ الناسِ أخشَعُهم للّهِ تعالىٰ.

قالَ الإمامُ شِهابُ الدِّينِ السُّهْرَوَرْدِيُّ بعدَ نقلِ ذلك: وهذا قولٌ صحيحٌ يحكُمُ بأنّ العالِمَ إن لم يعمَلْ بعِلمِهِ فليسَ بعالِم. لا يغُرَّنَّكَ تَشدُّقُهُ واستِطالتُهُ وحَذاقتُهُ وقوّتُهُ في المُناظَرةِ والمُجادَلة، فإنه جاهلٌ وليسَ بعالِم، إلا أنْ يتوبَ اللّهُ عليه. انتهىٰ. نقَلَهُ الإمامُ اليافعيُّ في «نشرِ المحاسن».

تنبيه:

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: لا يَعرِفُ كونَ العالِمِ لم يعمَلْ بعِلمِهِ إلا عالِمٌ آخر؛ لأنّ القاصِرَ لا يعلَمُ حقيقةَ العِلمِ حتىٰ يحكُمَ بوجودِهِ وعدَمِه، فلا يصِحُّ ولا يُقبَلُ منهُ الإنكارُ بحال، وأيضاً فلا يصدُقُ عالِمٌ في عالمٍ آخرَ إلا إن كانَ وَرِعاً تقيّاً، ولم يكُنْ قصدُهُ إلا النّصحَ للّهِ وللمسلمين، فحينَئذٍ يُصدَّقُ في عالِمٍ آخر.

ـ التكليفُ بالأعمالِ لا يَسقُطُ إلاّ بالموت:

سئلَ الجُنَيدُ رحِمَهُ اللّه: هل يبلُغُ أهلُ المعرِفةِ إلىٰ حدٍّ تسقُطُ معَهُ الحرَكاتُ مِن أعمالِ البِرّ؟ فقال: إنّ هذا عظيم، والذي يسرِقُ ويزني أحسنُ حالاً ممّن يقولُ هذا، ولو عشتُ ألفَ سنةٍ لم أترُكْ ذرّةً ممّا أنا عليهِ مِن أعمالِ البِرّ.

وقيلَ لأبي عليٍّ الرُّوْذْباري[١]: إنّ أقواماً يترُكونَ التكاليف، ويزعُمونَ أنّهم وصَلوا. فقال: نعمْ، ولكنْ إلىٰ سَقَر!

وقالَ الإمامُ الغزاليُّ رحمَهُ اللّه: إنّ قتْلَ واحدٍ ممّن يقولُ هذهِ المقالةَ وما أشبهَها أنفَعُ للإسلامِ من قتْلِ ألفِ كافر.

قالَ بعضُ العارفين: مقامُ التكليفِ مقامٌ شريف، وبهِ يدخُلُ الإنسانُ الجنّة، ولا يُفارِقُ الإنسانَ مدّةَ حياتِه، وأمّا مقامُ التكلّفِ فهُوَ الذي يُفارِقُهُ

---

(١) الشيخ العارف باللّه أبو علي أحمد بن محمد الرُّوذْباري البغدادي (ت٣٢٣هـ)، أحد أئمة الصوفية، صحب الجنيد في التصوف، وابنَ سريج في الفقه، وثعلباً في النحو، وإبراهيم الحربي في الحديث. أقام بمصر وصار شيخها، وكان فقيهاً محدِّثاً. قال أبو علي ابن الكاتب: ما رأيتُ أحداً أجمع لعلم الشريعة والحقيقة من الروذباري.

الإنسانُ حينَ يفعَلُ الأعمالَ الصالحةَ مرتاحاً بها، أي: وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ ﷺ: «أرِحْنا بها يا بِلال»[١]، وهُوَ المُرادُ أيضاً بقولِ بعضِهم: سقَطَ عنّي التكليف، أي: كُلِّفَ الأعمالَ الخيريةَ وفعَلَها بثِقَلٍ؛ لأنهُ يصيرُ يفعلُها بارتياحٍ وانشراحِ صدر، أو كما قال. انتهىٰ.

وقال سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: لن يُفارِقَ السُّالكُ الواصلُ في شيءٍ منَ الأمورِ إلا في أمرَين، الأول: حصولِ الكشف، والثاني: القيام بالفرائضِ والنوافلِ مقروناً باللّذةِ والراحةِ كما قال ﷺ: «أرِحْنا بها يا بلال»[٢]، و«جُعِلتْ قرةُ عيني في الصلاة»[٣]. والسّالكُ يقومُ بوظائفِ العبوديّة معَ المَشقّةِ والمُجاهَدة، ومَن قالَ بغيرِ هذا فليسَ مِن أهلِ الطّريق، ولا عندَهُ خبرٌ منَ الذوقِ والتحقيق. انتهىٰ. منَ «المُكاتبة».

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينٍ الحبَشيُّ نفعَ اللّهُ به: لا يقومُ الباطنُ إلا بالظاهِر، ولا الحقيقةُ إلا بالشريعة، كما أنّ البناءَ لا يقومُ إلا علىٰ أساسٍ ولا يُبنىٰ إلا عليه، والظاهِرُ ضرورةُ الباطن، فمَن رامَ البناءَ قبلَ إحكامِ الأساسِ لم تسلَمْ لهُ دعوىٰ ذلكَ ولا قُبِلَ منه؛ لأنّ الظاهرَ للباطنِ كالشجرةِ لِلثَمَرة، وربّما اغترَّ بعضُ المُتصوّفةِ إذا ناداهُ الحقُّ بشيءٍ مِن ثمَراتِ سلوكه، وقال: هذا هُوَ المقصود، وقطَعَ شجرةَ الأعمالِ استغناءً بالثمَرةِ عن المُثمِر، فسوفَ يضمحِلُّ الثمَرُ بعدَ فوْتِ المُثمِر، فيموتُ صاحبُهُ جُوعاً. انتهىٰ. مِن «قرةِ العين».

ومِمّا قيلَ في تفسيرِ اليقينِ في قولِه تعالىٰ: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥) من حديث سالم بن أبي الجعد رضيَ اللّه عنه.

(٢) تقدم قريباً جداً.

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٣٩)، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه. قال الحافظ في «الفتح» (١١: ٣٤٥): سنده صحيح.

﴿ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] ما قاله الحبيبُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ نفعَ اللّه به: اختلفَ أهلُ الظاهرِ وأهلُ الباطنِ في معنىٰ هذه الآيـة: فأمّا أهلُ الظاهرِ والمُتقيّدونَ بظواهرِ الألفاظِ فقالوا: المُرادُ باليقينِ هنا الموت، وأهلُ اللّهِ يقولون: اليقينُ هنا الفتْحُ والمعرِفة، فقيلَ له: وإذا جاءَهُ اليقين؟ قال: عبَدَ اللّهَ علىٰ حقٍّ ويقينٍ وبصيرةٍ ونورٍ ومعرِفة. انتهىٰ.

حكاية:

حُكيَ عنِ الإمامِ سيّدي عبدِ القادرِ الجيلانيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ واقعةٌ وقعَتْ لهُ معَ الشيطان، وذلكَ أنهُ رأىٰ في بعضِ سياحتِهِ نُوراً قد ملأَ الأُفقَ وفيهِ صوتٌ يقول: يا عبدَ القادر، أنا ربُّك، قد أسقَطتُ عنكَ التكاليف. فقالَ الشيخ: كذَبتَ يا لَعين، وأعرَضَ عنه، فلم يزَلْ ذلكَ النورُ يَضمحِلُّ حتىٰ برَزَ منهُ الملعون، وقال لسيّدي الشيخ: إنّكَ قد نُجّيتَ، وقد فتَنتُ قبلَكَ سبعينَ مِن أهلِ الطريق.

نخْبةٌ مِن كلامِ أئمّةِ السَّلَف
في ذمِّ مَن لا يعمَلُ بعِلْمِه

عن كَلِيمِ اللّهِ عيسىٰ عليه السّلام: مَثَلُ الذي يتعلّمُ العِلمَ ولا يعمَلُ بهِ كمثَلِ امرأةٍ زنَتْ في السِّرِّ فحَمَلتْ، فظَهَرَ حَملُها فافتُضِحت، فكذلك مَن لا يعمَلُ بعِلمِه، يفضَحُهُ اللّهُ تعالىٰ يومَ القيامةِ علىٰ رؤوسِ الأشهاد. ذَكَرَهُ في «الإحياء».

ـــ ومِن كلامِ الصحابةِ رِضوانُ اللّهِ عليهم:

عنِ الإمامِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: يا حَمَلةَ القرآن،

اعمَلـوا به، فإنّ العالِمَ مَن عمِلَ بما علِـمَ ووافَـقَ عِلمُهُ عمَلَه، وسيكونُ أقوامٌ يحمِلونَ العلمَ لا يجاوزُ تراقِيَهم، يخالفُ عملُهم علمَهم، وتُخالِفُ سريرتُهم علانيتَهـم، يجلِسونَ حِلَقاً يُباهي بعضُهم بعضـاً، حتىٰ إنّ الرجلَ لَيَغضَبُ علىٰ جليسِهِ أن يجلِسَ إلىٰ غيرِه ويدَعَه، أولئك لا تصعَدُ أعمالُهم في مجالِسِهم تلكَ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ(١).

وعنه رضِـيَ اللّهُ عنهُ وكرّمَ وجهَـهُ أنهُ قـال: إذا لـم يعمَـلِ العالِمُ بعِلمِهِ يستنكِفُ الجاهلُ أن يتعلَّمَ منه.

ومِن كلامِ أبي الدرداءِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قولُه: إنّي لا أخافُ أن يُقالَ لي يومَ القيـامةِ: يا عُوَيمِر، ماذا عَلِمْـت؟ ولكنْ أخافُ أن يُقالَ لي يومَ القيامةِ: مـاذا عمِلت؟

قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللّهُ عنه: مَن تعلَّمَ عِلماً ولم يعمَلْ بهِ لم يزِدْهُ العِلمُ إلا كِبْراً.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما أنه جاءَهُ رجلٌ فقال: يا ابنَ عباس، إنّي أريدُ أن آمُرَ بالمعروفِ وأنهىٰ عنِ المُنكرِ، قال: أوَ بلَغْتَ ذلك؟ قال: أرجو، قـال: فإنْ لم تخْشَ أن تفتَضِـحَ بثلاثـةِ أحرُفٍ في كتابِ اللّهِ فافعَل؟ قال: وما هُنّ؟ قال: قولُهُ تعالىٰ: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]، أحْكمتَ هذهِ الآية؟ قال: لا، قال: فالحرفُ الثاني؟ قال: قولُهُ تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣]، أحكمـتَ هذهِ الآيـة؟ قـال: لا. قـال: فالحرفُ الثالـث؟ قال: قولُ العبدِ الصالحِ شُعيب: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ

---

(١) أخرجه عن علي كرّم اللّه وجهه: الدارمي في «سننه» (١: ١١٢ برقم ٣٨٨).

عَنۡهُۚ﴾ [هود: ٨٨]، أحكمتَ هذه الآية؟ قال: لا. قال: فابدَأْ بنَفْسِك. انتهىٰ.

ـ ومِن كلامِ التابِعِينَ ومَن بعدَهم رضيَ اللّهُ عنهم:

عن مالكِ بنِ دينارٍ رحِمَهُ اللّه: إذا طلَبَ العبدُ العِلمَ لِيعمَلَ بهِ كَسَرَهُ عِلمُه، وإذا طلَبَهُ لغيرِ العمَلِ بهِ زادَهُ كِبْراً. وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: قرأتُ في التوراة: إنّ العالِمَ إذا لم يعمَلَ بعِلمِهِ زلَّتْ موعِظتُهُ منَ القلوبِ كما يَزِلُّ القَطْرُ عنِ الصَّفاة.

قالَ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ المُباركِ رحِمَهُ اللّه: مِن عقْلِ الرجلِ أنْ لا يطلُبَ الزيادةَ منَ العِلمِ إلا إذا عَمِلَ بما عَلِم، فيتعلَّمُ العِلمَ كيما يعمَلُ به، إذِ العِلمُ إنّما يُطلَبُ للعمَل.

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ[1] رحِمَهُ اللّه: مررْتُ بمكّةَ بحَجَرٍ مكتوبٍ عليه: «اقلِبْني تعتَبِرْ»، فقَلبتُه، فإذا عليهِ مكتوب: أنتَ بما تعلَمُ لا تعمَل، فكيفَ تطلُبُ ما لا تعلَم؟

وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: أُطلُبوا العِلمَ للعمَل، فإنّ أكثرَ الناسِ قد غَلِطوا في ذلك، فصارَ عِلمُهم كالجبالِ وعَمَلُهم كالهَباء.

وعن معروفٍ الكَرْخِيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: إذا أرادَ اللّهُ بعبدٍ خيراً فتَحَ عليهِ بابَ العمَلِ وأغلَقَ عليهِ بابَ الجدَل، وإذا أرادَ اللّهُ بعبدٍ شرّاً أغلقَ عليهِ بابَ العمَلِ وفتَحَ عليهِ بابَ الجدَل. انتهىٰ.

وكانَ بِشْرُ بنُ الحارثِ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: يا طالبَ العلِم، إنّما أنتَ

---

(١) الإمام القدوة الربّاني، عَلَم الزهّاد، أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم العجلي الخراساني البَلْخي، نزيل الشام (١٠٠ ـ ١٦٢هـ). قال فيه الإمام سفيان الثوري: كان إبراهيم ابن أدهم يُشْبِه إبراهيمَ الخليل، ولو كان في الصحابةِ لكان رجلاً فاضلاً.

مُتلذِّذٌ مُتَفَكِّهٌ بالعِلم، تسمَعُ وتحكي لا غير، لو عمِلتَ بما علِمتَ لتجرّعتَ مرارةَ العِلم. ويْحَك! إنّما يُرادُ بالعِلمِ العمل، فٱسمَعْ يا أخي، وتعلَّمْ ثم ٱعمَلْ، وٱهرُبْ، فإنّ طلبَ العلمِ إنّما يدُلُّ على الهربِ منَ الدنيا لا على طلبِها. انتهى. نقَلَهُ في «شرحِ العَينيّة».

وعن منصورِ بنِ زاذان[1]: بلَغَنا أنّ العالِمَ إذا لم يعمَلْ بعِلمِهِ يَصيحُ أهلُ النارِ مِن نتَنِ رِيحِه، ويقولونَ له: ماذا كنتَ تفعَلُ يا خبيث؟ قد آذيْتَنا بنتَنِ ريحِك! أمَا يكفِيكَ ما نحنُ فيهِ منَ الأذى والشرّ؟ فيقولُ لهُم: كنتُ عالِماً فلم أنتَفعْ بعِلمي.

قالَ سفيانُ الثوريُّ رحِمَهُ اللّه: إذا رأيتُم طالبَ العِلمِ يخلِطُ في مَطعمِهِ ويأكُلُ كلَّ ما وجَدَ فلا تُعلِّموهُ العِلم، فإنّ مَن لا يعمَلُ بعِلمِهِ شبيهُ شجرِ الحنظَل: كلَّما ازدادَ رِيّاً ازدادَ مرارة.

ـ حِكايتانِ عن الإمامِ أحمد:

وحُكِيَ عنِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رحِمَهُ اللّهُ قال: كنتُ يوماً معَ جماعةٍ تجرَّدوا ودَخلوا الماء، فاستعمَلتُ الحديث: «مَن كانَ يؤمِنُ باللّهِ واليومِ الآخِرِ فلا يَدخُلِ الحمّامَ إلاّ بمِئزَر»[2]، ولم أتجرّدْ، فرأيتُ تلكَ الليلةَ قائلاً يقولُ لي: يا أحمد، أبشِرْ، فإنّ اللّهَ قد غفَرَ لكَ باستِعمالِكَ السُّنة، وجعَلَكَ إماماً يُقتدى

---

(١) الإمام التابعي الربّاني أبو المغيرة منصور بن زاذان الثقفي مولاهم الواسطي (ت١٣١هـ)، كان ثقةً حجّةً عابداً، سريع التلاوة، يختم في اليوم مرتين أو يزيد، ويصلي الليل كلّه، وكان يبُلُّ عمامتَه من دموع عينَيه، رضيَ اللّه عنه. قال الذهبي: قبره بواسط ظاهرٌ يُزار.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٠١)، والنسائي (٤٠١) واللفظ له، من حديث جابر بن عبد اللّه رضيَ اللّه عنه.

بك، فقلت: مَن أنت؟ قال: جبريل. ذكَرَهُ في «الشفاء».

وقالَ أبو عِصْمة: بِتُّ ليلةً عندَ الإمامِ أحمدَ أطلُبُ الحديث، فوضَعَ لي إناءً فيهِ ماءٌ للتهجُّد، فجاءَ إليَّ صلاةَ الصّبح، فوجَدَ الإناءَ بحالِه، فقال لي: لماذا جئت؟ فقلتُ: أطلُبُ الحديث، فقال: كيفَ أُعلِّمُكَ الحديثَ وليسَ لكَ تهجُّدٌ بالليل؟ اذهَبْ لحالِ سبيلِك. انتهىٰ. مِنَ «العهودِ المُحمّدية»[1].

ــ ومِن كلامِ قُطبِ الإرشاد الإمامِ الحدّاد:

قالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ اللّهَ يُبغِضُ العِلمَ الذي يمنَعُ منَ العمَل، ويُبغِضُ الجهلَ الذي يمنَعُ منَ العِلم المُهمّ، والعِلمُ بلا عملٍ عقيم، والعمَلُ بلا عِلمٍ سقيم، وفرقٌ بينَهما وإن كان كلٌّ منهُما آفة.

وقالَ: قلّةُ العِلمِ معَ العمَلِ يزكو علىٰ الكثيرِ بلا عمَل، إلاّ أنّ العاملَ قليل، فقد ذكَرَ الشعراويُّ أنهُ لم يزَلِ الناسُ سابقاً ولاحقاً كثيري العِلمِ قليلي العمَل. انتهىٰ.

ومِن كلامِه رضِيَ اللّهُ عنه: العِلمُ دليلُ الفِعل، فإنْ لم يكنْ فعلٌ فهُوَ خَسارةٌ علىٰ الطالبِ والمطلوب. وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: العِلمُ عليكَ حتىٰ تعمَلَ بهِ، فإذا عمِلتَ بهِ فهُوَ لك.

ومنه قولُه أيضاً: ما العِلمُ إلا مَعرِفتُهُ والعمَلُ بهِ وتعليمُه لمَن تأهّل، وإلاّ كانَ مُتلاعِباً بالدِّين، والدِّينُ أعمالٌ واتّصاف، فيُطالِبُ نفْسَه بالعمَل، فمَن لا يُنصَحُ م نصَحَه النّاس، خصوصاً في هذا الزمانِ المُبارك، لو رأَوْكَ تُسيءُ الصلاةَ و عرَفوا أنكَ لا تقبَل، ما كلَّمَكَ واحد.

---

(١) وهو: «لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية» للإمام عبد الوهّاب بن أحمد الشعراني (تقدمت ترجمته ص ١٧٧)، وهو من الكتب النافعة المباركة التي يوصي بمطالعتها الصالحون.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ في تائيّتِهِ شعراً:

عجِبتُ لمَنْ يوصي سِواهُ وإنهُ ... لأجدَرُ منهُ باتّباعِ الوصيّةِ
يقولُ بلا فِعلٍ ويعلَمُ عاملاً ... علىٰ ضدِّ عِلمٍ يا لها مِن خَسارةِ
علومٌ كأمثالِ البحارِ تلاطَمتْ ... وأعمالُهُ في جَنْبِها مثلُ قطرةِ

قالَ سيّدُنا الحبيبُ أحمدُ بنُ زَينِ الحَبَشيُّ نفعَ اللّهُ به: ينبغي أن تجعَلَ العِلمَ حُجّةً لكَ فقط، وهذهِ فائدتُهُ وسِرُّهُ ومقصُودُه، وكلُّ مَن رأيتَهُ يطلُبُ ما كان له، ويغيبُ عمّا كانَ عليه، فاعلَمْ أنّ العِلمَ حُجّةٌ عليه. انتهىٰ.

فائدة:

قال ﷺ: «إنكُم في زمانٍ مَن ترَكَ منكُم عُشْرَ ما أُمِرَ بهِ هلَك، ثم يأتي زمانٌ مَن عَمِلَ مِنهم بعُشرِ ما أُمِرَ بهِ نَجا»[١].

فقد حكَمَ ﷺ بالنَّجاةِ لمَن عَمِلَ بالعُشْرِ، وهيَ بِشارةٌ عظيمة، لكن ــ كما قالَ بعضُ العارفين ــ لِمَن سَلِمَ منَ الكُفرِ والشّركِ إلىٰ آخرِ الزمان، وقلَّ مَن يسلَمُ مِن ذلكَ في زمانِنا هذا مِن كثرةِ التِباسِ الحقِّ بالباطلِ علىٰ غيرِ أهلِ التوفيقِ والعِناية، فقد وُجِدَ في هذا الزمانِ مَن يعتقِدُ الطاعةَ معصيةً والمعصيةَ طاعةً من العلماءِ فضلاً عنِ العَوامِّ إلا مَن عصَمَهُ اللّه، ولهذا ورَدَ: «إنّ الإيمانَ لَيَخْلَقُ في جَوْفِ أحدِكُم كما يخْلَقُ الثَّوب، فاسألوا اللّهَ تعالىٰ أن يُجَدِّدَ الإيمانَ في قُلوبِكُم»[٢].

❋ ❋ ❋

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦٧)، وغيره، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرَك» (١ : ٤)، وغيره، من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضيَ اللّه عنهما.
=

الفصل الثاني
التقوىٰ
معناها وفضائلها

ـ معنىٰ التقوىٰ:

سُئلَ الإمـامُ عليُّ بنُ أبي طالـبٍ كرّمَ اللّهُ وجهَـهُ عنِ التقوىٰ فقال: هِيَ الخـوفُ منَ الجليـل، والعمَلُ بالتنزيـل، والقناعـةُ بالقليل، والاستعدادُ ليومِ الرَّحيل.

وقـالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحِمَهُ اللّه: ليـسَ التقوىٰ صيـامَ النهـارِ وقيامَ الليلِ والتخليطَ فيما بينَ ذلك، ولكنّ التقوىٰ ترْكُ ما حرَّمَ اللّهُ وأداءُ مـا افترَضَ اللّه، فما رزَقَ اللّهُ بعدَ ذلك فهُوَ خيرٌ إلىٰ خير.

وقـلَ بعضُهم: حقيقةُ التقوىٰ أنْ لا يَراكَ مَولاكَ حيثُ نَهاك، ولا يفقِدَك حيثُ أمرَك.

وقـالَ الأستاذُ أبو القاسـمِ القُشَيـريُّ رحِمَهُ اللّه: التقـوىٰ: التحـرُّزُ عنِ المَخـاوف، والتشميرُ للوظائـف، وحِفـظُ الحَواسّ، وعدُّ الأنفـاس، وتنـزيهُ الوقـت عن مُوجباتِ المَقْت، وحِفظُ البِرّ، وترْكُ الوِزْر، والاحتماءُ التـامّ عمّا يُسخِط المولىٰ العلاّم. انتهىٰ.

قالَ سيّدُنا الإمـامُ القطبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: جامعُ التقوىٰ فعلُ الطاعاتِ وتَرْكُ المعاصي خَشيةً منَ اللّهِ سبحانَهُ ورجاءَ ثوابِهِ وامتثالَ أمْرِه. انتهىٰ.

وقـالَ تلميذُه سيّدُنا الإمامُ الجليـلُ أحمـدُ بنُ زَينٍ الحبَشـيُّ نفعَ اللّهُ به: التقـوىٰ امتثالُ أمرِ اللّهِ واجتنـابُ نهْيِهِ مِن أجلِـهِ لا لمعنـىً آخرَ مـنَ المعاني. انتهىٰ.

* * *

وكـانَ ابنُ عمرَ يقول: التقـوىٰ أن لا ترىٰ نفْسَـكَ خيـراً مِن أحَد. وقالَ الحسَنُ: المُتّقي هُوَ الذي يقولُ لكلِّ مَن رآه: هذا خيرٌ منّي.

قـالَ بعضُ العارفِين: وقد جمَعَ اللّهُ خِصالَ التقوىٰ فـي قولِهِ سبحانَهُ في كتابِهِ المكنون: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن ثَـمّ رُوِيَ: «مَنْ عَمِلَ بهذهِ الآيةِ فقـدِ استَكْمَلَ الإيمان»[(١)]؛ وذلكَ لأنّ الكَمـالاتِ الإنسانيةَ مُندرِجةٌ في ضِمنِها، لأنهـا ــ مع اتّساعِها وتشعُّبِها ــ مُنحَصِـرةٌ في ثلاثةِ أقسام: الاعتقـاداتِ الدِّينيـةِ ــ وأشارَ إليها قولُه سبحـانَه: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ــ وحُسـنِ

---

(١) أخرجـه ابنُ أبي شَيبةَ في «المصنـف» (٧: ١٥٢)، من كـلام أبـي ميسرةَ الهمْداني الكوفي، التابعي، أحدِ العُبّاد الأولياء.

معاشرةِ الخَلْق ـ وأشارَ إليهِ قولُهُ سبحانَه: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ ـ وتهذيبِ أخلاقِ النّفس، وأشارَ إليهِ قولُهُ سبحانَه: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾. ثم قال جلَّ وعلا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: أهلُ هذهِ الأوصافِ هُمُ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ في إيمانِهم؛ لأنّ المنافقَ لا تُساعدُه نفسُهُ على جميعِ ذلكَ وإن تظاهرَ بظواهِرَ من الأعمال. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: الكاملونَ في التقوى، فكأنّهمُ المُتّقونَ حقيقةً وغيرُهم مَجازاً. انتهى.

قلتُ: وجاءَ في الأثَر: جميعُ التقوى في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ـ مِن فضائلِ التقوى وثمَراتِها:

جاءَ في الأثَرِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه أنه تلا قولَ اللّهِ عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، قال: إنّ اللّهَ يقولُ يومَ القيامة: يا أيها الناس، إني جعلْتُ نَسَباً وجعلْتُم نَسَباً، فجعلْتُ أكرمَكُم أتقاكم، وأبيتُمْ إلاّ أنْ تقولوا: فلانُ بنُ فُلانٍ أكرمُ مِنْ فُلانِ بنِ فُلان، وإني أرفَعُ اليومَ نَسَبي وأضَعُ أنسابَكم: أينَ المتّقون؟[1].

ولـمّا بعَثَ رسولُ اللّهِ ﷺ مُعاذاً إلى اليمن، خرَجَ معَهُ لِيوصيَهُ ومعاذٌ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢: ٤٦٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٧٧٦) و«الزهد الكبير» (٧٥٩)، موقوفاً، وقال البيهقي في «الشعب»: المحفوظ بهذا الإسناد موقوف. انتهى. قلت: ومع وقْفِه في سنده ضعيف، أمّا مرفوعاً فلا يصح.

راكبٌ ورسولُ اللّهِ ﷺ يمشي تحتَ راحلتِه، فلمّا فرغَ قال: يا مُعاذ، إنّكَ عسىٰ أنْ لا تَلْقاني بعدَ عامي هذا، ولعلَّكَ تمُرُّ بمسجدي وقبري». فبكىٰ مُعاذٌ خَشَعاً لِفراقِ رسولِ اللّهِ ﷺ. ثم ٱلتفَتَ ﷺ نحوَ المدينةِ وقال:

«إنّ أهـلَ بيتي هؤلاءِ يَرَوْنَ أنهـم أَولىٰ النـاسِ بي، وإنّ أَوْلىٰ النّاسِ بيَ المُتَّقون، مَن كانوا وحيثُ كانوا...»[١].

وفي «الإحياء»: يُقالُ: إن امـرأةَ العزيزِ قـالتْ ليـوسُفَ عليهِ السلام: يا يوسُـف، إنّ الحِرصَ والشهـوةَ صيَّـرا الملوكَ عبيداً، والصبـرَ والتقوىٰ صيَّرا العبيدَ ملوكاً، فقالَ يوسُف: قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

قالَ سَهْـلُ بنُ عبدِ اللّهِ رحِمَهُ اللّه: لا مُعينَ إلا اللّه، ولا دليلَ إلا رسولُ اللّه، ولا زادَ إلا التقوىٰ، ولا عمَلَ إلا الصبرُ عليها.

* * *

وقالَ اللّهُ تباركَ وتعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قالَ بعضُ العارفين: ومَن أحكَمَ مقامَ التقوىٰ صلَحَ وتأهّلَ لِعلمِ الوِراثة، وهُوَ العِلمُ اللَّدُنِّيُّ الذي يقذِفُهُ اللّهُ تعالىٰ في قلوبِ أوليائه، الذي لا تحويهِ الطُّرُوسُ ولا تُقيِّدُهُ الدّروس، وقد حرّمَهُ اللّهُ علىٰ أربابِ النفوس، المشغولينَ بإصلاحِ المطعـومِ والمنكوحِ والملبـوس، وإليـهِ الإشـارةُ بقولـهِ تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾، وبقـولـهِ ﷺ: «مَن عمِـلَ بمـا علِـمَ أورثَـهُ اللّهُ عِلمَ ما لمْ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥: ٢٣٥)، وابن حِبّان في «صحيحه» (٢: ٤١٥ برقم ٦٤٧)، والطبراني في «الكبير» (٢٠: (٢٤٢))، والبيهقي في «سننه» (١٠: ٨٦).
قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (١٠: ٢٣١ ــ ٢٣٢): إسناده جيّد.

يعلَم»(١)، فهُوَ ثمرةُ العمَلِ بالعِلمِ المُستَفادِ منَ الكتابِ والسُّنة، الخالصِ مِن شوائبِ الهوىٰ، المَصحُوبِ بالتقوىٰ معَ مُجانَبةِ الدعوىٰ. انتهىٰ.

وكانَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ يقول: أهلُ البيتِ النبَويِّ طريقتُهمُ العمَل، ولا يأخُذونَ منَ العِلمِ إلا ما يُرشِدُهم إلىٰ العمَلِ ويحفَظُهُ لهُم، وأمّا باقي الأشياءِ فيتلَقّوْنَها مِن حضرةِ الفيْضِ الإلهيّ، ويأخُذونَ العلومَ: المُطلَقةَ والمقيّدة، مِن حضرةِ التقوىٰ المُشارِ إليها بقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. انتهىٰ.

* * *

ومنَ الآياتِ الدّالةِ علىٰ التقوىٰ وما فيها منَ الفوائدِ والثمَرات: قولُ اللّهِ جَلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ الآية [الأنفال: ٢٩]. قالَ بعضُ الأئمّةِ في معنىٰ الآية: ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ أي: هدايةً في قلوبِكم ونوراً تَفْرُقونَ بهِ بينَ الحقِّ والباطل. ومَن أوتيَ هذا النورَ فهُوَ الذي قالَ فيهِ رسولُ اللّهِ ﷺ: «اسْتَفْتِ قلبَكَ وإن أفتَوْكَ وأفتَوْكَ»(٢)، وذلكَ القلبُ الخالي منَ الهوىٰ والمُتحلّي بالتقوىٰ، يَفْرُقُ بينَ الحقِّ والباطل، ويعرِفُ المُحِقَّ منَ المُبطِل، ويُرخِّصُ لمَن يرخِّصُ لهُ بحقّ، ويُشدِّدُ لمَن يُشدِّدُ لهُ بحقّ. أو كما قال.

* * *

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠: ١٥) من حديث أنس رضيَ اللّه عنه، وذكر هناك أنّه من قول بعض التابعين عن عيسىٰ ابن مريم عليهما السلام لا أنه من قول النبي ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤: ٢٢٨) وغيره، من حديث وابصة رضيَ اللّه عنه، بلفظ: «استفت قلبك... وإن أفتاك الناس وأفتوك».

وقـالَ اللّهُ عـزَّ وجـلّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ الآيَةَ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. رُوِيَ عـنِ ٱبـنِ عبّـاسٍ رضـيَ اللّهُ عنهمـا أنـه قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾: من شُبُهاتِ الدنيا، ومِن غَمَـراتِ الموت، ومِـن شـدائدِ يـومِ القيامة.

جاء في كتابِ «الفَرج بعدَ الشِّدةِ» عن أبي ذرٍّ رضيَ اللّهُ عنه، قال: كان النبيُّ ﷺ يتْلُو هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]، ثـم يقـول: «يا أبـا ذرّ، لو أنّ النّاسَ كلَّهُم أخذوا بهذِه الآيةِ لكَفتْهم»(١). انتهىٰ.

قـالَ سيّدُنا الإمامُ العـارفُ باللّه، محمّـدُ بنُ زَيـنِ بنِ سُميـطٍ فـي أثنـاءِ مُكـاتَبتِـه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ مَخرَجـاً: منَ الشـدائـدِ والمتـاعـبِ والكـروب، ومخرَجـاً: منَ الهُمـومِ والغُموم، ومَخـرَجـاً: مـنَ المُشكـلاتِ والشّبُهات، ومَخرَجاً: من ظُلُماتِ الجهلِ إلىٰ نورِ العِلم، ومَخرَجاً: منَ العجْزِ والكسَلِ إلىٰ الجدِّ والتشمير، ومَخرَجاً: منَ الغفلةِ إلىٰ اليقَظة، ومَخرَجاً: منَ الميـلِ إلىٰ الشّـرِّ إلىٰ محبّةِ الخيـر، ومَخرَجاً: من صُحبةِ الأشـرارِ إلىٰ صُحبةِ الأخيار، ومَخرَجاً: منَ الفقْرِ إلىٰ الغنىٰ، ومنَ الشّدّةِ إلىٰ الرخاء، ومنَ البلاءِ إلىٰ العافية، ومنَ الخوفِ إلىٰ الأمانِ، ومنَ الحُزنِ إلىٰ السرور. ثم قالَ نفعَ اللّهُ به: ولو عدَدْتُ هذهِ المَخارجَ التي تضمّنَتْها هذهِ الآيةُ الشريفةُ لانْقضىٰ الوقتُ ولم تُحصَـر، وقد قـالَ بعضُهم: إنّ تحتَ كلِّ كلمـةٍ مـنَ القرآنِ سبعَمِئـةِ ألفِ معنـىٰ، وما خفِيَ أكثر. جعَلَنا اللّهُ مِن أهلِ الفَهمِ عنهُ والعِلمِ بهِ وما ذلكَ علىٰ اللّهِ بعزيز. انتهىٰ. من كتابِ «مجمَعِ البحرين».

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥: ١٧٨)، من حديث أبي ذر رضيَ اللّه عنه.

حكاية:

حُكيَ أنّ زيادَ بنَ أبي سُفيانَ بعَثَ الحَكَمَ بنَ عُمرَ علىٰ خُراسان، ففتَحَ اللّهُ عزَّ وجَلَّ عليهِم وأصابوا أموالاً عظيمة، فكتَبَ إليه زياد:

«أما بعدُ، فإنّ أميرَ المؤمنين كتَبَ إليَّ أنِ: اصْطَفِ الصفراءَ والبيضاءَ ولا تَقسِمْ بينَ النّاسِ ذهباً ولا فضّة».

فكتبَ إليه:

«سلامٌ عليك. أمّا بعد، فإنّكَ كَتبتَ تذكُرُ كتابَ أميرِ المؤمنين، وإنّي وجَدتُ كتابَ اللّهِ قبلَ كتابِ أميرِ المؤمنين، وإنهُ ــ واللّه ــ لو كانتِ السمواتُ والأرضُ رَتْقاً علىٰ عبدٍ فاتقىٰ اللّهَ عزَّ وجَلّ، لجعَلَ اللّهُ لهُ منهُما فَرَجاً ومَخرَجاً، والسلامُ عليك». ثم قال للنّاس: أُغدُوا علىٰ فَيْئكم فاقسِموه. انتهىٰ.

فائدة:

أفادَ بعضُهم أنّ التقوىٰ علىٰ ثلاثِ مَراتب: عُليا ووُسطىٰ ودُنيا، فالعُليا: أن يتقيَ اللّهَ إجلالاً له، والوسطىٰ أن يعبُدَهِ تحقيقاً للنِّسبةِ بينَه وبينَ ربِّه، والدنيا: أن يعبُدَهُ طلَباً للثوابِ وخَوْفاً منَ العِقاب. انتهىٰ.

* * *

الفصل الثالث
في أهمية العبادة وفضلها

قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ذكَرَ اللّه تعالىٰ في هذهِ الآيـةِ الشريفةِ أنهُ ما خلَـقَ الخَلْـقَ إلا لعبادتِهِ وطـاعتِه. قـالَ بعضُ العارفيـن: فجميعُ الخَلْـقِ: بَرُّهُـم وفاجِـرُهم، مؤمِنُهم وكافِرُهم، ما خلقَهمُ اللّهُ إلا للعبادة، فكلُّهم يَعبدُون، لكنِ المؤمنونَ يعبُدونَ الرّحمن، والكفّارُ يعبدونَ الشيطان، فالذينَ يعبُدونَ الرّحمنَ هُم أهلُ الجنّة، والذينَ يعبُدونَ الشيطانَ هُم أهلُ النار، فبِهذا المعنىٰ كلُّهم في عِبادة. فقيلَ له: هل تُسمّىٰ عبادةً أعمالُ أهلِ الكفرِ والضلال؟ فأجاب: نعَم، ولذلكَ يقولُ أهلُ العِلم: التلبُّسُ بعبادةٍ فاسدةٍ حرام، سمَّوها عبادةً ولو كانتْ حراماً، كما يُقال: الرِّزقُ: ما ينفَعُ ولو كانَ حراماً. انتهىٰ.

قالَ إبراهيمُ الخَوّاصُ رحِمَهُ اللّه: العِلمُ كلُّهُ في كلمتَين: لا تتكلَّفْ ما كُفيت، ولا تضيِّعْ ما استُكفِيت. أشارَ بذلكَ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. ويعني بـ(ما كُفِيت): الرّزقَ الذي تكفَّلَ اللّهُ بِهِ لكلِّ دابّةٍ في الأرض، (ما استُكفِيـت) العبـادةَ التـي فرَضَها علىٰ كافّةِ العباد. انتهىٰ. مِن كتابِ «القِرطاس».

***

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: لا ينبغي للعالِمِ الداعي إلىٰ اللّهِ أن يَهجُرَ الأورادَ ويقَصِّرَ عن وظائِفِ العبادات، بل ينبغي لهُ أن يجعَلَ لها أوقاتاً تخُصُّها، ويُحسِنَ التضرُّعَ للعباداتِ فيها، خُصُوصاً بالليلِ وأوقاتِ النهارِ التي لا يَنشَطُ فيها لنشرِ العِلم، أو لا يحضُرُ فيها الطالبونَ المستَفيدون.

وقد قالَ الإمامُ مالكٌ رحِمَهُ اللّه: اطلُبوا هذا العِلمَ طلَباً لا يضُرُّ بالعبادة، واطلُبوا هذهِ العبادةَ طلَباً لا يضُرُّ بالعِلم.

وقالَ ذو النُّونِ المِصريُّ[1] رحِمَه اللّه: كيفَ يكونُ طالبُ العِلمِ عامِلاً بهِ وهُوَ ينامُ وقتَ الغنائمِ ووقتَ فتحِ الخزائنِ ووقتَ نشْرِ العُلومِ والمَواهبِ في الأسحارِ، لا يتهجّدُ منَ اللّيلِ ساعة؟ انتهىٰ.

وقد كانَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَه اللّهُ يَقسِمُ اللّيلَ أثلاثاً: ثُلثاً للصلاة، وثُلثاً لدِراسةِ العِلم، وثُلثاً للنّوم. انتهىٰ.

وكان رحِمَهُ اللّهُ يقول: ينبغي للعالِمِ أن يكونَ لهُ خَبيئةٌ منَ العمَلِ الصالحِ فيما بينَهُ وبينَ اللّهِ عزَّ وجَلّ، ولا يعتَمِدَ علىٰ العِلمِ فقطْ، فإنهُ قليلُ الجَدوىٰ في الآخرة.

وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: لولا مُذاكَرةُ الإخوانِ في العِلم، والتهجُّدُ في اللّيل، ما أحببتُ البقاءَ في هذهِ الدار. انتهىٰ. مِن مقدّمةِ «شرحِ المُهذّب».

---

(١) الإمام الزاهد العارف بالله، شيخ الديار المصرية، أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري الإخميمي المعروف بذي النون (ت٢٤٦هـ). أوحد وقته زهداً وورعاً وحالاً وأدباً. كان عالماً فصيحاً حكيماً، فائقاً في المعارف والأحوال. أفردَ سيرتَه الحافظُ السيوطي بكتابٍ سمّاه: «المكنون من مناقب ذي النون»، مطبوع.

قالَ الحبيبُ العارفُ باللّه، أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ السلَفُ العَلَويّونَ في حضرَموتَ يطلُبونَ العِلمَ سبعَ سنين، ثم يُدرِّسونَ سبعَ سنين، ثم يعقُبُهم مَن بعدَهم علىٰ هذهِ الحالة، وهُم يتجرّدونَ للعبادة. انتهىٰ.

رؤيا صالحة:

رُويَ أنّ الجُنَيدَ قدَّسَ اللّهُ رُوحَهُ رُؤيَ في المنامِ بعدَ موتِه، فقيلَ له: ما الخبرُ يا أبا القاسم؟ قال: طاحَتِ العبارات، وفنِيَتِ الإشارات، وما نفَعَنا إلاّ الرَّكَعاتُ التي ركعْناها في جوْفِ اللّيل. انتهىٰ.

ورُؤيَ رضِيَ اللّهُ عنهُ في حياتِهِ وفي يدِهِ سُبْحة، فقيلَ له: مِثلُكَ يحمِلُ السُّبحة؟ فقال: طريقٌ وصَلْنا بهِ إلىٰ اللّهِ لا نترُكُه.

لذا كانَ يقولُ رحمَه اللّه: العبادةُ علىٰ العارِفينَ أحسَنُ منَ التِّيجانِ علىٰ رؤوسِ الملوك. انتهىٰ.

لطيفة:

قيلَ: إنّ سبَبَ توبةِ إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحِمَهُ اللّهُ أنهُ اشترىٰ عبداً، فقال له: ما اسمُك؟ فقال: ما سمّيْتَني، فقال: ما شغُلُك؟ قال: ما شغَلْتَني، فقالَ له: ما لِباسُك؟ قال: ما ألبَسْتَني، قال: ما اختيارُك؟ قال: أوَ للعبدِ خِيَرةٌ معَ سيّدِه؟!

فهذِهِ موعِظةٌ جليلة، فإنّ قولَه: ما شغُلُك؟ فقال: ما شغَلْتَني، معناهُ أنّ اللّهَ تعالىٰ ما شغَلَهُ إلا بالطاعةِ والعبادة، حيثُ قالَ في كتابِهِ العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الآيةَ [الذاريات: ٥٦]. وقولُهُ: «ما لِباسُك؟ فقالَ: ما ألبَسْتَني»، فليسَ المُرادُ بهذا اللِّباسَ الظاهرَ منَ الثياب، ولكنْ أشارَ بذلكَ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وهُوَ امتثالُ

الأوامرِ واجتنابُ النّواهي. انتهىٰ.

ـــ **العُبُوديّة:**

سُئِلَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ عن العُبُوديّةِ فقال: هِيَ ثلاثةُ أشياء: أحدُها: المحافظةُ علىٰ أمْرِ الشّرع، وثانيها: الرِّضىٰ بالقضاءِ والقدَرِ وقِسمةِ اللّهِ تعالىٰ، وثالثُها: ترْكُ رِضاءِ نفْسِكَ في طلَبِ رضاءِ اللّهِ تعالىٰ. انتهىٰ.

قالَ العلماءُ نفعَ اللّهُ بهِم: مقامُ العبوديةِ أشرَفُ المقامات؛ إذ لأجلِها كانَ الإيجاد. قالَ الأستاذُ أبو عليٍّ الدّقّاقُ رحِمَهُ اللّه: ليسَ للمؤمنِ صفةٌ أتمُّ ولا أشرَفُ منَ العبوديّة، ولهذا أطلَقَها اللّهُ تعالىٰ علىٰ نبيِّه ﷺ في أشرَفِ المواطنِ بقولِهِ تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]. انتهىٰ.

ومِن كلام سيّدِنا الإمامِ القطبِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ نفَعَ اللّهُ به: وقد جعَلَ اللّهُ بِحكمتِهِ الأزليّةِ السّعادةَ الأبديّةَ في تحقيقِ العبوديّة، وهِيَ أن تُنزِلَ نفْسَكَ مِن ربِّكَ بمَنزِلةِ عبدِكَ منك.

وبحقٍّ أقول: لا يستطيعُ أحدٌ أن يتقرّبَ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ بمثلِ التحقُّقِ بأوصافِ عُبوديّتِهِ منَ الفقرِ والذِّلّةِ وإظهارِ المَسكَنةِ والتواضُعِ والانخِفاض، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِن أوصافِ العبد. انتهىٰ. مِن «مكاتَبتِه».

قالَ الشيخُ أحمدُ الرِّفاعيُّ رحِمَهُ اللّه: سلَكتُ كلَّ الطُّرقِ المُوصِلةِ إلىٰ اللّه، فما رأيتُ أقربَ ولا أسهلَ ولا أصلَحَ منَ الافتقارِ والذُّلِّ والانكِسار.

وقالَ في «الحِكَم العَطائية»: لا يُخْرِجُكَ مِن الوصفِ إلا شهودُ الوصْف.

يعني بالوصفِ الأوّلِ وصفَ العَبد، وبالثاني وصفَ الربّ، فإذا تحقَّقَ العبدُ بوَصفِـهِ منَ الضَّعـفِ والذُّلِّ والافتقـار، أمـدَّهُ الحـقُّ بوصفِهِ من القوّةِ والعزِّ والغَناء.

وعنِ الإمامِ القُطبِ عليِّ بنِ محمّدٍ الحبَشيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: رأيتُ الحبيبَ صالـحَ بنَ عبدِ اللّهِ العطّاسَ[1] فسألتُه: ما أساسُ طريقةِ القَوم؟ قال: شيئان، أحدُهما ظاهرٌ والآخَرُ باطن، فأمّا الظاهرُ فالاستغناءُ عنِ الناس، وأمّا الباطنُ فالعبوديّةُ المَحْضة، قلتُ له: فإن لم أقدِرْ عليهِما؟ قال: اطلُبْهُما منَ اللّه. انتهىٰ.

ـــ الفرقُ بينَ العِبادةِ والعُبُوديةِ والعُبُودة:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عَيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه:

العبادةُ: هِيَ الطاعةُ بفِعلِ المأموراتِ وتَرْكِ المنْهيّات.

والعُبُوديّة: هِيَ ما ذُكِرَ مقروناً بالإخلاصِ للّهِ تعالىٰ.

والعُبُودة: هِيَ الغَيْبـةُ عنِ النفْسِ وعـنْ كونـهِ يُنْسَـبُ إليهـا شـيءٌ منَ الطاعات، بلْ مَشهُـودُ صاحبِ العُبُـودةِ الحـقّ، وشهودُ المِنّةِ له: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ

---

(١) السيد الشريف، العارف باللّه، الولي الصالح، الحبيب صالح بن عبد اللّه بن أحمد العطاس العلوي الحسيني، مولده ببلدة (عَمْد) ــ بسكون الميم ــ سنة ١٢١١هـ، وبهـا وفاته سنة ١٢٧٩هـ. كان من الدعـاة إلـىٰ اللّه، أخـذ عن كثيـر من أهل العلم بحضرموت وزبيد والحجاز. وأخذ عنه كثير، منهم: ولداه الحبيب محمـد والحبيب عمر، والحبيب أحمد بن حسن العطاس، والحبيب علي الحبشي وغيرهم. أفرده بالترجمة ابن أخيه السيد محمد بن أحمد بن عبد اللّه العطاس، ووسعها وزاد عليها الشيء الكثير السيد العلامة علي بن حسين العطاس المتوفىٰ بجاكرتا سنة ١٣٩٦هـ، بكتاب ضخم في مجلدين كبيرين سماه «تاج الأعراس».

عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧٠]. انتهىٰ. مِن مجموعِ كلامِهِ «النهرِ المورود».

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: العبادةُ وظيفةُ أهلِ الإسلام، والعُبُوديّةُ لأهلِ الإيمان، والعُبُودةُ لأهلِ الإحسان. انتهىٰ.

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع
في ثمرات الأعمال الصالحة

فمِنْها:

ـ محبةُ اللّهِ تعالىٰ للعبد:

قال اللّهُ تعالىٰ في كتابهِ العزيز: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللّهُ عنه قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّ اللّهَ تعالىٰ قال: . . . ما تقرَّبَ إليَّ عبدِي بشيءٍ أَحَبَّ إليَّ ممّا افترَضْتُهُ عليه، ولا يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حتىٰ أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كنتُ سَمْعَه الذي يسمَعُ به، وبَصَرَه الذي يُبصِرُ به، ويَدَه التي يَبطِشُ بها، ورِجْلَه التي يمشي بها، ولئن سألَني لأُعطِيَنّه، ولئنِ استعاذَني لأُعِيذَنّه»[1].

وقالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ فيما يرويهِ عنِ اللّهِ عزَّ وجَلَّ أيضاً: «إذا تقرَّبَ إليَّ عبدي شِبْراً تقرَّبْتُ إليهِ ذراعاً، وإذا تقرَّبَ إليَّ ذراعاً تَقَرَّبْتُ منهُ باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيتُهُ هَرْوَلة»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلمٌ (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

وقالَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللّه التُّسْتَرِيُّ رحِمَهُ اللّه ــ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ ــ: علامةُ المَودّةِ: ترْكُ التدبيرِ والاختيارِ إلىٰ الرُّبوبية، والوقوفُ علىٰ مقامِ العُبُوديّة، وأن يطرَحَ كَلَّهُ علىٰ مَولاه، ويصبِرَ كُلَّهُ علىٰ بَلْواه، ولا يرجِعَ عنِ المَوَدّةِ حتىٰ يبلُغَ مُناه. انتهىٰ.

وقيلَ لبعضِ العارفين: متىٰ يبلُغُ العبدُ بُدُوَّ أحوالِ المحبة؟ قال: إذا لزِمَ خمسَ خِصالٍ ظاهرَها وباطنَها: الوفاءَ بالعهود، والحِفظَ للحدود، والرضىٰ بالموجود، والصبرَ عنِ المفقود، والمُوافقةَ للمَعبود. انتهىٰ.

وفي الحديثِ: «كانَ مِن دعاءِ داوودَ عليهِ السَّلام: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ حُبَّك، وحُبَّ مَن يُحِبُّك، والعمَلَ الذي يبَلِّغُني حُبَّك، اللَّهُمَّ اجعَلْ حُبَّكَ أحبَّ إليَّ مِن نفْسي وأهْلي ومالي، ومنَ الماءِ البارد»[١].

ومن ثمراتِ حبِّ اللّهِ تعالىٰ للعبد، ما قاله سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: مَن أحبّهُ اللّهُ وأرادَ بهِ خيراً يسّرهُ لِفعلِ الخيرِ شاءَ أم أبىٰ، ومَن أبغضَهُ اللّهُ وأرادَ بهِ شرّاً يسّرَهُ لِفعلِ الشرِّ شاءَ أم أبىٰ. انتهىٰ.

حكايتان:

قالَ أبو الفرَجِ الهَمْداني[٢]: دخلتُ جامعَ البصْرة، فرأيتُ فتىً يكتُبُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٩٠)، والحاكم في «المستدرك» (٢: ٤٣٣)، وغيرهما، من حديث أبي الدرداء رضيَ اللّه عنه. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

(٢) **فائدة:** (الهَمْداني) بسكون الميم: نسبة إلىٰ همدان، قبيلة باليمن. وجميعُ ما في الصحابة والرواة ومصنفات الحديث فهو نسبةٌ لهذه القبيلة. وأما همَذان البلد، فهي بالتحريك والذال المعجمة، وليس يُنسب إليها أحدٌ من الرواة، لا في الصحيحين ولا في غيرهما من كتب الحديث الستة. انتهىٰ منقولاً من «القاموس المحيط» =

شيئاً، فقلتُ لـه: أيَّ شيءٍ تكتُب؟ فقال: أسامـيَ المُحِبّيـنَ في هذهِ المدينة، فقلتُ له: باللّهِ يا فتىٰ، هل كتبتَ اسمي في المُحبّين؟ فقال: لا. فوقَعَ عليَّ منَ البكاءِ ما لم أُطِقْه، فقال: يا شيخ، ما لكَ تبكي؟ فقلت لهُ: سألتُكَ باللّه إلاّ ما كتَبـتَ اسمـي في المُحِبّينَ أو فيمَن يُحبُّ المُحبّين؟ قـال: فلمّا جَنَّ اللّيلُ إذا بهاتفٍ يهتِفُ بي: يا أبا الفرَج، قد غَفرْتُ لكَ بقولِك: اكتُبِ اسمي فيمَن يُحبُّ المُحبّين. انتهىٰ.

وحُكيَ أنهُ دخَلَ بيتَ رابعةَ العدَوِيّةِ[1] سارِقٌ وأخَذَ المَتاع، فلمّا أرادَ أن يخرُجَ لم يجِىءْ علىٰ الباب، فوضَعَ المَتاعَ فجاءَ علىٰ الباب، وهكذا.. كلما أخـذَ المَتاعَ لم يجِدِ الباب، وإذا طرَحَـهُ وجَدَ البـاب، حتـىٰ خـرَجَ منَ البيتِ خائباً، فلمّا خرَجَ سمعَ مُنادياً يُنادي: إنْ كانتْ رابعةُ نائمةً فمحبوبُها لا تأخُذُهُ سِنَةٌ ولا نوم. انتهىٰ.

ــ محبةُ المؤمنينَ له:

قالَ اللّهُ جلَّتْ قُدرتُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، أي: محبـةً في قلُـوبِ المؤمنيـنَ بشـرطَين: الإيمانِ والعَمَلِ الصالح، فلا يدخُلُ تحت حُكمِ هذه الآيةِ إلا مَن جمَعَ بينَهما، واللّهُ أعلَم.

= للفيروزآبادي ص٤١٩. (ط. مؤسسـة الرسالـة). وأبو الفرج المذكور لم نقف علىٰ ترجمته بعد.

(١) الزاهـدة العابدة الخاشعة، أم عمـرو رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية (١٠٠ ــ ١٨٠هـ)، حمل الناس عنها كثيراً من الحكمـة والكـلام في التألُّه والعبـودية. وفي عصرها رابعةٌ أخرىٰ عابدة، شامية، أصغر من العدوية، وقد تدخل حكايات هذه في حكايات تلك، رضيَ اللّه عنهما.

عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبـي ليلىٰ قـال: كتَبَ أبو الدرداءِ إلىٰ مَسلَمةَ بنِ مُخَلَّد[١]:

«سـلامٌ عليك، أمّا بعـد: فإنّ العبـدَ إذا عَمِـلَ بطاعـةِ اللّهِ أحبَّهُ اللّه، فـإذا أحبّـهُ اللّهُ حبّبَـهُ إلىٰ عبـادِه. وإنّ العبـدَ إذا عمِـلَ بمعصيـةِ اللّهِ أبغَضَـهُ اللّه، فإذا أبغضَـهُ اللّهُ بغّضَهُ إلىٰ عبـادِه. انتهـىٰ. ذكَرهُ البيهقـيُّ في «الأسماءِ والصّفات».

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن عرفَ اللّهَ أحَبّهُ، ومَن أحَبّهُ أطاعَه، ومَن أطاعَهُ استَوجَبَ المحبةَ منهُ سبحانَه، ومَن صحّتْ لهُ المحبّةُ منَ اللّهِ فهو المَلِكُ المُطاعُ في الوجود؛ لأنّ الأكوانَ معَكَ إن كنتَ معَ اللّه، وأيُّ مَعِيّةٍ أخصُّ من مَعِيةِ المحبّة؟ ومَن حصَلَ علىٰ هذا الإكسيرِ الخطيرِ فازَ بشَرَفِ الدنيا والآخرة. وإلىٰ ذلكَ الإشارةُ بقولِ الشيخِ عمرَ بنِ الفارضِ[٢] رحِمَهُ اللّه:

وفي سَكْـرةٍ منهـا ولـو عُمْـرَ ساعةٍ   ترىٰ الكونَ عبْداً طائعاً ولكَ الحُكْمُ

انتهىٰ.

* * *

---

(١) مسلمة بن مخَلَّد الأنصاري الزرقي (ت٦٢هـ)، صحابي، مولده بالمدينة حين قدمها النبي ﷺ. سكن مصر وكان والياً عليها أيام معاوية رضيَ اللّه عنهما.

(٢) سلطـان العاشقين، وبلبل المحبّة الإلهيـة، أشعـر الصوفيـة، الشيخ شرف الدين أبو حفـص عمر بن علي الحمـوي الأصـل، المصـري المولد والـدار والوفاة (٥٧٦ ـ ٦٣٢هـ). تفقه شافعياً وأخذ الحديث عن ابن عساكر، وأخذ عنه الحافظ المنذري وغيـره، ثم تزهَّد وتجرَّد، وصار من أعيان أهل العرفـان. قبـره معـروف بالمقطّم، يزار، وعليه مسجد، رضيَ اللّه عنه.

حكاية:

لمّا قَدِمَ هارونُ الرشيدُ[١] الرَّقّةَ ورَدَ عبدُ اللّهِ بنُ المُبارك فانتَقَلَ النّاسُ إليه، فانقطَعَتِ النِّعالُ وارتفَعتِ الغَبَرة، فأشرَفَتْ أمُّ ولَدِ أميرِ المؤمنينَ مِن بُرجِ قصْرِ الخليفـة، فلمَّـا رأتِ الناسَ وكثْرَتَهم قالت: مَن هذا؟ قيل: عالِمُ خُراسان. فقـالـت: واللّهِ هذا المُلْكُ لا مُلْكُ هـارون، يجمَـعُ الناسَ بالسَّـوطِ والشُّرَطِ والأعوان!

ــ ومِن ثمَراتِها:

ما قالَه ابنُ عباسٍ رضيَ اللّه عنهما: إنّ للحسَنةِ ضياءً في الوجه، ونوراً في القلـب، وقوةً في البدَن، وسَعَةً في الـرّزق، ومحبّةً في قلـوبِ الخَلْق. وإنّ للسيئـةِ سَواداً في الوجـه، وظُلْمـةً في القلـب، ووَهَناً في البـدَن، ونقصاً في الرّزق، وبُغضةً في قلوبِ الخَلْق. انتهىٰ. ومِنْها:

ــ الحياةُ الطّيِّبة:

وقالَ عزَّ مِن قائل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قـالَ سعيدُ بنُ جُبَيرٍ وعطـاء: الحيـاةُ الطيّبـةُ هِيَ الرِّزقُ الحلال. وقـالَ الحسَـن: هِـيَ القَناعة. وقـالَ مُجاهـدٌ وقَتـادة: هِيَ الجنّـة؛ لأنّهـا حياةٌ بلا موت، وغنىً بلا فقر، وصِحّةٌ بلا سُقم، ومُلْكٌ بلا هُلْك، وسعادةٌ بلا شَقاوة.

---

(١) هارون الرشيد (١٤٩ ــ ١٩٣هـ)، خامس خلفـاء العبـاسيين في العراق وأشهرهم، ازدهـرت الدولة في أيامه. كان عالمـاً بالأدب والحديـث والفقـه وأخبار العرب، فصيحـاً شاعـراً، شجاعاً كثير الغزوات، يحج سنةً ويغزو سنة، وكـان كثير الإكرام للعلماء والتواضع لهم.

ومِنْها:

ـــ دخولُ الجَنّة:

وقـالَ جَـلَّ ذِكْـرُه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وعنِ النبيِّ ﷺ: «يقولُ اللّهُ تعالىٰ: أعدَدْتُ لعبادِيَ الصّالحينَ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ علىٰ قلبِ بشَر. اقرَأُوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ..﴾ الآية»(١).

وعنه ﷺ: «ذَرِ النّاسَ يعمَلون، فإنّ الجنّةَ مئةُ درجة، ما بين كلِّ دَرَجتَين كما بينَ السّماءِ والأرض، والفِردَوْسُ أعلاها درَجةً وأوْسَطُها، وفوقَها عرشُ الرحمـن، ومنها تفَجَّرُ أنهارُ الجنّـة، فإذا سألتُـمُ اللّهَ فاسألوهُ الفِردَوْس»(٢). انتهىٰ. نسألُ اللّهَ الكريمَ أن يَجمَعنا وأحبابَنا في دارِ الفِردَوْس.

❊ ❊ ❊

وٱعلَـمْ أنّ دخولَ الجنّةِ بالإيمان، وتضاعُـفَ النعيـم، وكثرةَ المنازل، وارتفاعَ الدرَجات، بالأعمالِ الصالحةِ والأخلاقِ الحَسَنة.

وقد سُئلَ بعضُ العارفينَ عن الكافرِ الذي أسلَمَ وماتَ عُقَيبَ إسلامِه، فأجابَ بقولِه: هُوَ ــ لا شكَّ ــ يدخُلُ الجنّة، ولكنّهُ لم يعمَلْ عمَلاً يَستوجِبُ بهِ منـازلَ الكرامة، يعني أنّ لِصَفةِ الإسلامِ منزلةً مخصوصـة، وأمّا كثرةُ المنازلِ وتعدُّدُها فهُوَ ثمرةُ الأعمالِ الصالحة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٢٩) وأحمد (٥: ٢٤٠)، من حديث معاذ بن جبل رضيَ اللّه عنه.

تنبيه :

قالَ الإمامُ النوَوِيّ: قولُهُ تعالىٰ: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، ونحوُهما، منَ الآياتِ الدالّةِ علىٰ أن الأعمالَ يُدخَلُ بها الجنّة، فلا تعارُضَ بينَها وبينَ حديث: «ما منكُم أحَدٌ يدخُلُ الجنّةَ بعمَلِه»، قيل: ولا أنتَ يا رسولَ اللّه؟ قال: «ولا أنا، إلاّ أن يتغمَّدَنيَ اللّهُ برَحْمَتِه»[١] ونحوِه من الروايات، بل معنىٰ الآياتِ أنّ دخولَ الجنّةِ بسببِ الأعمال، ثم التوفيقُ للأعمالِ والهدايةُ للإخلاصِ فيها وقَبُولُها برحمةِ اللّهِ وفضْلِه، فيصِحُّ أنهُ لم يدخُلْ بمُجرَّدِ العمَل، وهُوَ مُرادُ الأحاديث، ويصحُّ أنهُ يدخُلُ بالأعمالِ، أي: بسببِها وهِيَ منَ الرحمةِ واللّهُ أعلَم. انتهىٰ. معَ بعضِ التصرُّف.

وسُئلَ سيّدُنا الإمامُ شيخُ الإسلام عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ عن الجنّةِ ودَرَجاتها، فأجابَ بقولِه: أمّا الجنّةُ فظاهرُ القرآنِ يقتضي أنّها في السّماءِ وأنّها درجات. وفي بعضِ الروايات: أنّها مئةُ درَجة، وفي بعضِها: أنّ درجاتِها بعَددِ آيِ القرآن، وهِيَ أكثرُ مِن ستةِ آلاف، وأمّا الجنانُ فثمان، في كلِّ جنّةٍ جناتٌ كثيرة، وأعلاها الفِردَوْسُ الأعلىٰ، وسقفُها عرشُ الرحمن. وأمّا أهلُها فهُمُ النبيّونَ والمُرسَلونَ وعبادُ اللّهِ الصالحونَ منَ المؤمنينَ والمسلمين، ودرجاتُهم فيها علىٰ حسَبِ إيمانِهم وأعمالِهم، فمِن رفيعٍ وأرفع، وعليٍّ وأعلىٰ، وليسَ فيهم وضيعٌ ولا دَنيٌّ ألبتّة. انتهىٰ. من أثناءِ «مُكاتبتِه».

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: ليستِ الجنّةُ درجةً واحدة، بل هِيَ درَجاتٌ مختلفةٌ لاختلافِ أعمالِ أهلِها، كما أنّ النّارَ درَكاتٌ لاختلافِ العُصاة؛ لأنّ مِنهُم مَن

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣) ومسلم (٢٨١٦)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

عصىٰ اللّهَ بالكُفر، ومِنهم بالنِّفاق، ومِنهم بالمَعاصي.

والدرجاتُ ارتقاء، من حينَ يدخُلُها يرتقي درَجاتِها إلىٰ أعلاها: الفِردَوس، والدّركاتُ نزولٌ مِن حينَ يدخُلُها ينزِلُ في دركاتِها إلىٰ أن ينتهيَ إلىٰ أسفلِها: الهاوية. انتهىٰ.

ومِن أثناءِ مكاتَبةٍ لسيّدِنا الإمامِ العارفِ باللّه، محمّدِ بنِ زَينِ بنِ سُميطٍ نفَعَ اللّهُ به: قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، والحَيَوانُ هُوَ: البقاءُ والدّوام، وعدَمُ الفَناءِ والانصرام. ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥].

فلو قُدِّرَ مثلاً أنهُ مَليءٌ: مِن العرشِ إلىٰ الفرْشِ خَرْدلاً، وقدِّرَ أنّ طائراً يأخُذُ في كلِّ ألفِ ألفِ سنةٍ خَرْدلةً من ذلكَ الخَرْدَل، لَنَفِدَ جميعُ ذلكَ الخَرْدلِ ولم ينقُصْ مِن مدّةِ الآخرةِ مثلُ خرْدَلةٍ واحدة، أهلُ الجنّةِ في النّعيم الدائم، وأهلُ النّارِ في العذابِ السَّرْمَد. اللّهُمَّ إنّا نسألُكَ رِضاكَ والجنّة، ونعوذُ بكَ مِن سخَطِكَ والنار. أو كما قال. انتهىٰ.



الفصل الخامس
في العلم اللدنّي والتلقي عن الله

كـانَ الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ رحِمَهُ اللّهُ يقـول: ليسَ العِلمُ بكثرةِ الرواية، وإنّما العِلمُ نورٌ يقذِفُهُ اللّهُ في القلب.

قالَ أبو يزيدَ البُسطاميُّ رضِيَ اللّهُ عنه: العِلمُ اللّدنيُّ هُوَ الذي ينفتحُ في سرِّ القلبِ من غيرِ سببٍ مألوفٍ مـن خارج. وقالَ نفَعَ اللّهُ به: ليسَ العالِمُ مَن يحفَظُ عِلمَهُ مِن كتابٍ فإذا نَسِيَ صارَ جاهلاً، بل: مَن يأخُذُ عِلمَهُ مِن ربِّه؛ أي: وقتَ شاءَ بلا حفظٍ ولا درْس، وهذا هُوَ العالِمُ الرّبانيّ.

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينٍ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: إذا عمِلَ العبدُ الخيرَ كان لهُ ذلكَ نوراً في القلب، فإنْ دامَ علىٰ ذلكَ وِفْقَ الاتّباعِ للمُصطفىٰ صلَواتُ اللّه عليهِ، لم يَخلِطْهُ بغيرِه من الشرّ، فتَحَ اللّهُ عليهِ مِن حضرةِ القُدسِ في أسرعِ وقـت، وإن دامَ علىٰ الشرِّ كـانَ ذلكَ في القلـبِ ظُلمةً حتىٰ يُظلِمَ القلبُ كلُّه، فإن كانَ ساعةُ خيرٍ وساعةُ شرٍّ فالخيرُ يَمحو الظُّلمةَ والشرُّ يَمحو النُّور، ويبقىٰ صاحبُهُ كذا لا يُفتَحُ له. انتهىٰ. مِن «قرةِ العين».

وقال شَيخُهُ الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «رسالةِ المُذاكَرة»: وقـد أكرَمَ اللّهُ عباداً أطاعوه، فحرَّرهُم مِن رِقِّ الشهَـوات، وطهَّرَ قلوبَهم مِن دَنَسِ الالتفاتِ إلىٰ الفانيات، وأجرىٰ علىٰ أيديهِم خوارقَ العادات، وعجائبَ

الكرامات، فأصبحَ النّاسُ يقتَبِسُونَ مِن أنوارِهم، ويقتَدونَ بآثارِهم، ويتوجّهونَ بِهِم إلىٰ ربِّهم في كشْفِ مُهِمّاتِهم، ويسألونَ بِهم في دفْعِ مُلِمّاتِهم، ويستَشفُونَ بمَواطىءِ أقدامِهم، ويتبرَّكونَ بتُربةِ ضرائحِهم. . . إلىٰ آخرِ ما قالَ رضِيَ اللّهُ عنه.

والحاصلُ ــ كما قال سيّدُنا الإمامُ عَيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به ــ أنهُ لا تتوالىٰ الألطاف إلاّ بالاتّصاف بما كانَ عليهِ الأسلاف، ولا تلُوحُ الأنوار إلا بدوامِ الأذكار، ولا تعُمُّ الأسرار إلا بالـذَّوْبِ في التفكُّرِ والاعتبار، ولا تُخرَقُ العاداتُ إلا بسَوابقِ الهِمَمِ إلىٰ الطاعات، ولا تظهَرُ الخصوصيّات إلا بالإقلاعِ عنِ الشهَواتِ والدَّنِيّاتِ منَ الصّفات. . إلىٰ آخرِ ما قالَه في كتابِهِ «العِقد».

حكاياتٌ:

جاءَ في كتابِ «النهرِ المورود» عنِ الحبيبِ الإمامِ عَيْدَروسِ بنِ عمرَ الحبَشيِّ نفَعَ اللّهُ بهِ أنّه كانَ يُحكىٰ أنّ بعضَ أكابرِ الفقهاءِ لَمّا بلَغَهُ شأنُ سيّدِ الطائفةِ أبي القاسم الجُنَيدِ وما يُبدِيهِ مِن علومِ الأسرار، قصَدَهُ لِيمتحنَه، فسألَهُ عن مسألةٍ فقهيّة، فأجابَهُ عنها أحسَنَ جوابٍ وأفادَهُ مِن عِلْمِها علماً لم يكنْ عندَ الفقيه، فعَجِبَ مِن ذلكَ وقال: أعِدْ عليَّ ما قلت، فأعادَهُ عليهِ بعبارةٍ أخرىٰ، ثم قال: أعِدْهُ عليّ، فأعادَهُ بعبارةٍ غيرِ الأُولىٰ والثانية، فلمّا رأىٰ الفقيهُ أنهُ لا طاقةَ لهُ بحِفظِ كلامِ الجُنَيدِ قال: أَمْلِهِ عليَّ حتىٰ أكتُبَه، فقال: إنْ كانَ أنا الذي أُبدِيهِ فأنا أُمليه. أشارَ إلىٰ أنهُ فتحٌ ربّانيٌّ لا تحتوي عليهِ بُطُونُ الدفاتر. فقامَ الفقيهُ وقد أذعَنَ للطائفةِ الصُّوفيةِ بعُلوِّ الرُّتبةِ وسَعَةِ العِلم. انتهىٰ بمعناه.

وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يروي أيضاً ما ذكَرَه الإمامُ ابنُ عَطاءِ اللّهِ السَّكَندريُّ في «لطائفِ المِنَن»: أنهُ اجتمَعَ جُملةٌ منَ العلماء، فيهم: أبو الحسَنِ الشاذليُّ

قدَّسَ اللّهُ سِرَّه، وعزُّ الدِّينِ سلطانُ العلماءِ ابنُ عبدِ السلام[١]، والشيخُ مُحيي الدِّينِ ابنُ سُراقة[٢]، وابنُ دقيقِ العيدِ[٣] وغيرُهم، فَتذاكَروا في العلوم، إلىٰ أنْ تكلَّمَ أبو الحسَنِ الشاذليُّ في العِلمِ الوهْبيِّ الإلهاميّ، فأتىٰ بما يُبهِرُ العقولَ منَ العلومِ الذوْقية، فنادىٰ عزُّ الدِّينِ ابنُ عبدِ السلامِ بأعلىٰ صوتِه: هَلُمّوا إلىٰ هذا العِلمِ الطَّرِيّ، القريبِ العهدِ بربِّه. انتهىٰ.

وحُكِيَ أنّ الشيخَ أحمدَ الرّمليَّ رحِمَهُ اللّه، سُئِلَ عن مسألةٍ وهُوَ راكبٌ علىٰ بَغلتِه، فأطرقَ وطأطأ رأسَهُ إلىٰ الأرض، والتفتَ يُمنةً ويُسرة، ثم رفَعَ رأسَهُ وأجابَ السائل، فسألَهُ ثانياً عمّا صنَع، فقال: لمّا سألْتَني عنها لم يكنْ لي عِلمٌ بها، فتصفّحتُ كتُبَ المشرِقِ والمَغرِب، فلم أظفَرْ بها، ثم نظَرتُ اللّوحَ المحفوظَ فلم أجِدْها، ثم أخبَرَني قلبي عن ربّي بها. انتهىٰ.

---

(١) الإمام الكبير، شيخ الإسلام والمسلمين، وأحد الأئمة الأعلام، عز الدين عبد العزيز ابن عبد السلام السُّلَمي (٥٧٧ ـ ٦٦٠هـ). إمام عصره بلا مدافعة، القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في زمانه، المطَّلعُ علىٰ حقائق الشريعة وغوامضها، ومُبرِز علم مقاصدها، كان آيةً في العلم والورع والشجاعة.

(٢) العالم الفاضل الديِّن المحدِّث، الشيخ أبو بكر محيي الدين محمد بن أحمد الأنصاري الشاطبي ـ الأندلسي الأصل ـ المعروف بابن سُراقة (٥٩٢ ـ ٦٦٢هـ)، شيخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة، سمع الحديث ببغداد وغيرها من البلاد، وولي مشيخة دار الحديث بحلب ثم الكاملية بمصر بعد الحافظ المنذري. له بعض التآليف في التصوُّف.

(٣) الإمام الكبير شيخ الإسلام، قاضي القضاة، أبو الفتح تقي الدين محمد بن علي بن وهب القشيري المعروف بابن دقيق العيد (٦٢٥ ـ ٧٠٢هـ)، الإمام في مذهبَي مالكٍ والشافعي، بل البالغُ درجةَ الاجتهاد، الموصوف بالتجديد علىٰ رأس المئة السابعة، رحمه اللّه تعالىٰ. وكان والده مجد الدين ابن دقيق العيد عالماً أيضاً، من فقهاء المالكية.

وذكَـرَ الشيـخُ عبدُ اللّهِ بنُ أحمدَ باسَودانَ في «فيض الأسرار» أنّ الشيخَ الكبيـرَ سعيدَ بنَ عيسـىٰ العَمُوديَّ[١] رضِيَ اللّهُ عنـهُ كانَ أُمّياً لا يقرَأُ القرآنَ ولا يعـرِفُ العِلم، فعلَّمَهُ اللّهُ ما لـم يعلَم، فكانَ يـرُدُّ علـىٰ العلمـاءِ فـي المسائلِ الغامضـة، وإذا استمَعَ إلىٰ القـارىءِ أرشدَهُ إلىٰ الصَّوابِ منَ اللَّحـنِ والغَلَط، وإذا أتىٰ إليهِ مَن اقترَفَ ذنباً ألزَمَهُ التوْبَةَ ممّا فرّط.

ورُوِيَ أنـهُ حجَّ سنةً منَ السنيـن، فبينَما هُوَ يطـوفُ ذاتَ يومٍ بالكعبةِ إذْ سقَطَ منَ الجُوعِ والضّعـف، فرأىٰ بعضُ الصالحينَ الكعبةَ تطوفُ به، فنادىٰ: «عليكُم بالأغبَر، عليكُم بالأغبَر». انتهىٰ.

❋ ❋ ❋

---

(١) الولـيُّ العارف باللّه، الذائـع الصِّيت ببلاد اليمـن، الشيخ سعيد بن عيسىٰ العمودي الحضـرمي، من نسل سيدنا أبي بكـر الصدِّيق رضـيَ اللّه عنـه. مـولده سنة ٦٠٠هـ بمدينة (قيدون) بوادي دوعن، وبها توفي سنة ٦٧١هـ، ودُفن بجانب مسجده.

الفصل السّادس
في الحثّ على البدار بالعمل الصّالح والاجتهاد فيه

ــ البِدارَ البِدار :

قال رسولُ اللّهِ ﷺ :

«اغتَنِمْ خمساً قبلَ خمس : شبابَكَ قبلَ هرَمِك ، وصِحّتَكَ قبلَ سَقَمِك ، وغِناكَ قبلَ فَقْرِك ، وفرَاغَكَ قبلَ شُغْلِك ، وحياتَكَ قبلَ مَوتِكَ»[١] .

وقال عليه أفضَلُ الصّلاةِ وأكمَلُ التسليم : «نِعمتانِ مَغبُونٌ فيهما كثيرٌ من الناس : الصِّحّةُ والفَراغ»[٢] .

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّه : أربعٌ لا يعرِفُ قدْرَها إلا أربعة : لا يعرِفُ قدْرَ الحيـاةِ إلا الموتىٰ ، ولا قدْرَ الصحّةِ إلا أهـلُ السُّقْم ، ولا قدْرَ الشبابِ إلا أهلُ الهرَم ، ولا قدْرَ الغِنىٰ إلا أهلُ الفقْر . انتهىٰ .

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه : اعلَموا أنّ كلَّ

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤ : ٣٠٦) من حديث ابن عبّاس رضيَ اللّه عنه ، وصحّحـه . وأخرجـه البيهقي في «الشُّعَب» (٧ : ٢٦٣) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٢) وغيره ، من حديث ابن عباس رضيَ اللّه عنهما .

وقتٍ يذهَبُ علىٰ الإنسانِ في غيرِ طاعةٍ أو مصلحةٍ دينيّةٍ أو دُنيويّةٍ خسارةٌ عليه، والأوقـاتُ ثلاثـة: وقتٌ لك، ووقتٌ عليـك، ووقـتٌ لا لكَ ولا عليك. فأمّا الوقـتُ الذي هُوَ لكَ فهُوَ الـذي تعمُـرُهُ بذِكْـرِ اللّهِ والدعـوةِ إلـىٰ اللّهِ وامتثالِ أوامـرِه، وأمّا الوقـتُ الذي هُـوَ عليكَ فالوقتُ الذي تعمُرُهُ بمُخالَفَـةِ أمرِ اللّه، وأمّا الوقتُ الذي لا لكَ ولا عليـكَ فهُوَ الوقتُ الذي لا تعمُرُهُ بشيءٍ لو تُصُوِّرَ خُلـوُّه عن ذلك، وللأعمالِ كلِّهـا زِمامٌ هُوَ النيةُ الصالحـةُ تُصيِّـرُ الأفعالَ كلَّها طاعة. انتهىٰ.

ولِلّهِ دَرُّ القائل:

إذا هبَّـتْ رِيـاحُـكَ فاغتَنِمْهـا ... فـإنّ لكـلِّ خافقـةٍ سُكـونُ[1]

إذا درَّتْ نِيـاقُـكَ فـاحتَلِبْهـا ... فما تدري الفَصِيلُ لمَن يكونُ

وقال آخر:

ما كلُّ مَن تلْقىٰ أخٌ مُنصفُ ... ولا الليـالـي كلُّهـا تُسعِـفُ

انْتِـفْ مـنَ الدّهرِ ولو ريشةً ... فـإنّمـا حظُّـكَ مـا تَنتِـفُ

ومـن نظْمِ سيّدِنا الإمـامِ الوجيهِ عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللّهِ بلفقيـهِ رحِمَهُ اللّه:

فيا ضَيعةَ الأعمارِ تَمضي سَبهلَلاً ... وذَرّتُهـا تعلُـو علـىٰ ألـفِ دُرّةِ

ومَنْ أشغلَ الأيامِ بالخيرِ أثمرَتْ ... بخيـرٍ وإلا أشغَلَتْـهُ بحَسْـرةِ

ومَن كانَ في أُولاهُ للشرِّ زارِعاً ... سيَحصُدُ في أُخراهُ شرَّ العُقوبةِ

***

---

(١) حقها أن تكون: (سكوناً)، بالنصب، لأنها اسم (إنَّ)، لكنها لبست الضمة ضرورةً.

قـالَ سيّدُنا الإمـامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ خزائنَهُ تعالـىٰ مملـوءةٌ مِن كلِّ شيء، مملوءةٌ بالرزقِ والأعمالِ والرحمة، وإنّما أرادَ سبحـانَهُ منَ العبـدِ أن يملأَ خزائنَهُ هُوَ مما ينفَعُـه، وهُـوَ الطاعـة، فإنّ أوقـاتَ الإنسـانِ التي تمُرُّ بهِ تُعرَضُ عليـهِ في الآخـرة: التـي مرّتْ في الطاعـةِ مملوءةٌ نـوراً، والتي مـرّتْ في المعصيـةِ ناراً أو ظُلمة، والتـي مرّتْ بلا شيءٍ فارغة، فتتقطّـعُ كبِدُهُ منَ التحسُّرِ علىٰ الفـارغةِ أنْ لو كانتْ مملوءةً نوراً، فكيـفَ بالتي فيها المعصِية؟ انتهىٰ المقصود. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

وقـالَ أبو الربيع[1] رحِمَهُ اللّه: سيـروا إلىٰ اللّهِ عُرْجـاً ومَكـاسِيـر، ولا تنتَظِروا الصحّة، فإنّ انتظارَ الصّحةِ بطالة.

وقالَ ابنُ عطاءِ اللّهِ في «الحِكَم»: إحالتُكَ العمَلَ علىٰ وجودِ الفراغِ مِن رُعُوناتِ النفوس.

قالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن لـم يتصدّقْ معَ القِلّةِ لم يتصدّقْ معَ الكثْرة، ومَن لـم يُجاهِدْ نفْسَه علىٰ قيامِ الليلِ وفِعلِ الخيرِ معَ التعبِ لم يفعَلْ ذلكَ معَ الصّحةِ والفراغ.

وقالَ سيّدُنا الحبيبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن لم يستطعْ أو لم ينشَطْ لِفعلِ الخيرِ كلِّـه فلا ينبغي لهُ أن يترُكَهُ كلَّه، بـل يفعَلُ منهُ ما يستطيعُ وما يتيَسّرُ عليه، فإنّ الخيرَ يدعو بعضُهُ إلىٰ بعـض، والصغيرُ منهُ يجُرُّ إلىٰ الكبير، والقليلُ منهُ يدعو إلىٰ الكثير، والخيرُ عادةٌ كما ورَد.

---

(١) الولـيُّ العارف أبو الربيع سليمـان بن عمر المالقي الكفيف، من مريـدي الإمام أبي العبّـاس ابن العَرِيف الأندلسـي (ت٥٢٦هـ). تـرجمتـه فـي «نفحـات الأُنْس» (٢: ٧٠٧هـ)، و«الطبقات الصغرىٰ» للمناوي ص١٣٣، وغيرها.

وإذا ابتُلِيَ العبدُ بالشرِّ والمعصيةِ فلا ينبغي لهُ أن يُدبِرَ عنِ اللّهِ وعن فعلِ الخيرِ والطاعـةِ بالكُليّة، فلا يبقىٰ بينَهُ وبينَ ربِّهِ طريقٌ إلىٰ المُصالَحةِ والرجوعِ إليه، ولْيعتَبِرْ بقصةِ اللّصِّ الذي كانَ يقطَعُ الطريقَ ويسفِكُ الدماءَ وينهَبُ أموالَ المسلمين، فرآهُ بعضُ الصالحينَ يفعَـلُ تلكَ المُحرّماتِ وهُوَ معَ ذلكَ صائم، فقالَ له: يا هذا، تفعَلُ ما تفعَلُ وتصوم؟ فقال: نعم، أَدَعُ للصُّلحِ موضِعاً ولا أقطَعُ الطرُقَ كلَّها بيني وبينَ ربّي. قال: فرأيتُهُ بعدَ مدّةٍ وهُوَ يطوفُ بالكعبةِ وقد تاب، فقالَ حينَ رأيتُه: إنّ ذلكَ الصومَ أوقَعَ الصّلحَ بيني وبينَ ربّي. هذا معنىٰ الحِكاية. انتهىٰ ملخَّصاً منَ «الفصولِ العِلميّة».

قـالَ عليٌّ كرَّمَ اللّهُ وجهَه: الدنيا دارُ عمَـلٍ ولا جزاءَ فيها، والآخرةُ دارُ جزاءٍ ولا عمَلَ فيها. فاعمَلوا في دارٍ لا جزاءَ فيها لدارٍ لا عمَلَ فيها.

وكـانَ الإمامُ العـارفُ باللّه، أحمـدُ بنُ حسَنٍ العطّـاسُ رضِـيَ اللّهُ عنه يقول: الدنيا دارُ تكْليفٍ وعمَـل، والبرزَخُ دارُ عمَلٍ ولا تكْليف، والآخرةُ دارُ جزاء، لا تكليفٍ ولا عمَل. انتهىٰ.

ـــ إيّاكم وأماني المغفِرة:

قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ:

«الكَيِّسُ مَن دانَ نفْسَهُ وعَمِلَ لِمَا بعـدَ المـوت، والعاجِزُ مَن أَتْبعَ نفْسَهُ هواها وتمَنَّىٰ علىٰ اللّهِ الأماني»[1].

أمـاني المغفِرةِ هِيَ ما يقولُهُ بعـضُ المَغـرُورينَ مِن قولِهم: إنّ اللّهَ غنيٌّ عنّا وعن أعمالِنـا، وخزائنُهُ مملوءةٌ بالخيـر، ورحمتُـهُ وسِعتْ كلَّ شيء، معَ

---

(١) أخرجـه الترمذي (٢٤٥٩)، من حديـث شدّاد بن أوس رضـيَ اللّه عنه، وقال: هذا حديثٌ حسن.

إصرارِهـم علىٰ فِعلِ المعاصـي وتـرْكِ الواجبـات، وهذهِ كلمةُ حـقٍّ أُريدَ بها باطل.

قالَ سيّدُنـا الحسَنُ البصْريُّ رحِمَـهُ اللّه: إياكُم وأمانيَّ المغفِرةِ مِن غيرِ سعيٍ لها، فإنها قد لعِبَتْ بأقوامٍ حتىٰ خرَجوا منَ الدّنيا مَفاليس. يعني منَ الأعمالِ الصالحة.

وقالَ أبو سعيدٍ الخرّاز[1] رحِمَهُ اللّه: مَن ظنَّ أنهُ بجهدِهِ يصِلُ فهُوَ مُتَعَنٍّ، ومَن ظنَّ أنهُ بدونِ الجهدِ يصِلُ فهُوَ مُتَمَنٍّ.

قالَ شَهرُ بنُ حَوْشبٍ[2]: طلَبُ الجنّةِ بلا عمَلٍ ذنبٌ منَ الذنوب، وانتظارُ الشفاعةِ بلا سببٍ نوعٌ منَ الغرور، وارتجاءُ الرحمةِ ممّنْ لا يُطاعُ حُمْقٌ وجَهالة.

وقالَ الشِّبليُّ رحِمَهُ اللّه: لا بدَّ منَ الجِدِّ والمُجاهدَة، ولكنّهُما لا يُوصِلانِ إلىٰ شيءٍ منَ الحقيقة؛ لأنها مُمتنعةٌ عن أن تُدرَكَ بجدٍّ واجتهاد، وإنّما هِيَ مَواهبُ يصِلُ العبدُ إليها بإيصالِ الحقِّ إياهُ لا غير.

---

(١) الإمام القـدوة الولي الكبير أبو سعيد أحمد بن عيسىٰ البغدادي الخرّاز (ت٢٧٧هـ)، أحد كبار العارفيـن، وأول من تكلم في الفنـاء والبقـاء. صحب السري السقطي وذا النون المصري والحافي وغيرهم. يُروىٰ عن الجنيد أنه قال: لو طالَبَنا اللّه بحقيقة ما عليـه أبو سعيد لهلكنا. فقيل لإبراهيم بن شيبان: ما كـان حاله؟ فقال: أقام سنين ما فاته الحق بين الخرزتَين.

(٢) أبو سعيد شَهْر بن حوشب الأشعري الشامي (ت١٠٠هـ)، مولىٰ الصحابية أسماء بنت يزيـد الأنصارية، كان من كبار علمـاء التابعيـن. قرأ القرآن علـىٰ ابن عبّاس مرات، وأخذ عن ابن عمر وجماعة من الصحابة.

ـــ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾:

يقولُ اللّهُ تباركَ وتعالىٰ في مُحكَم التنزيل: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢ ــ ٢٣].

قالَ بعضُهم: إنّ اللّهَ تعالىٰ ضمِنَ لنا الدنيا وطلَبَ منّا الآخرة، فليتَهُ ضمِنَ لنا الآخرةَ وطلَبَ منّا الدنيا. أشارَ بذلكَ إلىٰ الآيتين: الأُولىٰ قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]. والثانية: قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، فالذي ضمِنَهُ اللّهُ للعبدِ هُوَ رزقُهُ الذي لا تُمكِنُ العبادةُ وإقامةُ حقوقِ اللّهِ إلا به، والذي طلَبَهُ اللّهُ مِن العبدِ هُوَ العمَلُ الصالحُ الذي يُتوصَّلُ بهِ إلىٰ سعادةِ الآخرةِ والقُربِ منَ اللّهِ جَلَّ وعلا.

قالَ ابنُ عطاءِ اللّهِ في «التنويرِ» ــ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢] ــ أي: قُمْ بخدمتِنا ونحنُ نقومُ لكَ بقسْمتِنا، وهُما شيئانِ: شيءٌ ضمِنَهُ اللّهُ لكَ فلا تتّهِمْه، وشيءٌ طلبَهُ منكَ فلا تُهمِلْه، فمَنِ اشتَغَلَ بما ضُمِنَ لهُ عمّا طُلِبَ منهُ فقد عظُمَ جهلُه، واتسعَتْ غفلتُه، وقلَّ أن يتنبّهَ لِمَن يُوقظُه، بل حقيقٌ علىٰ العبدِ أن يشتغلَ بما طُلبَ منه عمّا ضُمِنَ له، وإذا كان اللّهُ سبحانَهُ وتعالىٰ قد رزقَ أهلَ الجُحود فكيفَ لا يرزقُ أهلَ الشهود؟ وإذا كان سبحانَهُ قد أجرىٰ رزقَهُ علىٰ أهلِ الكُفرانِ كيفَ لا يجري رزقَهُ علىٰ أهلِ الإيمان؟. انتهىٰ.

وقالَ بعضُ العارفين: مقامُ التجريدِ ومقامُ الأسبابِ متلازِمانِ لا يصلُحُ أحدُهما إلا بالثاني، فصاحبُ المسجدِ لا يصلُحُ إلا بصاحبِ السُّوق، وصاحبُ السُّوقِ لا يصلُحُ إلا بصاحبِ المسجد. انتهىٰ. أو كما قال.

ـــ الطاعةُ عزٌّ وكرامة :

قالَ سعيدُ بنُ المُسيِّبِ رحِمَهُ اللّه : ما أكرَمَتِ العبادُ أنفُسَها بمثْلِ طاعةِ اللّه ، ولا أهانَتْها بمِثلِ معصيةِ اللّه .

وقال سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه في قصيدتهِ :

وطاعتُهُ غِنىٰ الدّارَينِ فالزَمْ وفيها العِزُّ للعبدِ الذليلِ
وفي عصيانِهِ عارٌ ونارٌ وفيها البُعدُ معْ خِزيٍ وبيلِ

حكاية :

حُكِيَ أنّ جماعةً مِن أهلِ الغَفلةِ والتخليطِ اجتمَعوا في مَوضِع ، فبَعثوا شخصاً منهم بعشرينَ دِرهماً ليأخُذَ لهُم بها من الفواكِهِ والطِّيبِ ونحوِها ممّا يُصلِحُون به مجلسَهم ، فلمّا ذهبَ إلىٰ السُّوقِ ليَشتريَ لهم ذلك ، وجَدَ النّاسَ مُجتمِعينَ علىٰ بِطّيخة ، كلٌّ منهُم يريدُ أن يشتريَها ؛ لأنّ بِشْرَ بنَ الحارثِ رحِمَهُ اللّهُ ونفَعَ بهِ لمَسَها بيدِه ، فاشتراها ذلكَ الشخصُ بالذي معَهُ منَ الدراهمِ وذهَبَ بها إلىٰ أصحابِهِ بعدَ أن أبطأَ عليهِم .

فلمّا جاءَ إليهِم وليسَ معَهُ إلا تلكَ البِطّيخةُ قالوا له : قد أبطأْتَ ثمّ لمْ تجىءْ إلا بهذِهِ البِطّيخة . . ؟ فقالَ لهُم : إنّ في هذهِ البِطّيخةِ عجباً! قالوا : وما ذاك؟ قالَ لهُم : مسَّها بِشرُ بنُ الحارثِ بيدِه ، فنافَسْتُ عليها حتىٰ أخذتُها بالدراهم ، قالوا : وما يكونُ بِشرٌ هذا؟ فقالَ لهُم : هُوَ عبدٌ أطاعَ اللّهَ فأكرَمَهُ اللّه ، فرجَعَ بعضُهم إلىٰ بعضٍ وقالوا : إذا كانَ صاحبُ الطاعةِ تنتهي بهِ الكرامةُ عندَ اللّهِ تعالىٰ إلىٰ مثلِ هذا في الدنيا ، فكيفَ في الآخرة؟ فتابوا بأجمَعِهم وترَكوا ما كانوا عليهِ منَ اللّهوِ والباطل . انتهىٰ . منَ «الفصولِ العِلمّية» .

ـــ اِلزَمِ الباب :

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينٍ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به : ما علىٰ العبدِ إلا أن يقـومَ وينهَضَ وينتَدِب[1] لأمرِ اللّهِ جـلَّ وعـلا ، ولا عليهِ إلاّ ذاكَ ، واللّهُ تعالىٰ يأخُذُ بيدِهِ إذا أقبَلَ عليه ، وإن لم يقدِرْ علىٰ السّيرِ والسلوكِ فعلىٰ العبدِ الحركةُ وعلـىٰ المولـىٰ البَركة ، والحركةُ هي إجابـةُ الداعي وعدَمُ الإدبارِ ، والشرُّ كلُّ الشرِّ في الإدبارِ والإعراضِ عنِ اللّهِ عزّ وجَلّ . وحقُّ العبدِ أن يقومَ ببابِ ربِّهِ ولا يَحيدَ عنه ، وإن طُـرِدِ وأبعِدَ عن البابِ فلْيرجِعْ ويعُدْ إليـهِ ولا ينطرِدْ أبداً ، ولو قيلَ له : مِلْ عنّا ؛ فلا يميل ، بل يُرابِطُ بالبابِ إلىٰ أن ينفَتح .

وقال شيخُه قُطبُ الإرشاد الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّاد رضِيَ اللّهُ عنه :

السـرُّ كلُّ السرِّ في مُـلازَمةِ التوجُّهِ وإدمانِ قـرْعِ البـاب ، وفـي التحـلّي بالافتقـارِ والانكِسار بينَ يديِ المَلِكِ القهّار علىٰ دوامِ الأحوال ، ولا سيّمـا في جوفِ الليلِ وعندَ الأسحار . انتهىٰ .



---

(١) انتدب، له : استجاب مسرِعاً .

الفصل السابع
في المجاهدة ورياضة النفس

قال اللّهُ تباركَ وتعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قالَ الإمامُ الحدّادُ في كتابِهِ «آدابِ سُلوكِ المُريد»: اعلَمْ أنّ أوّلَ الطريقِ صبر وآخِرُها شكْر، وأوّلُها عَناء وآخرُها هَناء، وأوّلُها تعَبٌ ونصَب، وآخرُها فتْحٌ وكشْفٌ ووصولٌ إلىٰ نهايةِ الأرَب، وذلكَ معرِفةُ اللّهِ والوصولُ إليهِ والأُنسُ بهِ والوقوفُ في كريمِ حِضْرتِهِ معَ ملائكتِهِ بينَ يدَيه. انتهىٰ.

وقال مِن أثناءِ «مكاتبتِه» إلىٰ بعضِهم:

ولقدْ أجمَعَتْ هذهِ الطائفةُ المَرْضِيّة، الموسُومةُ بالصُّوفية، علىٰ أن لا يتأهّلَ للجلوسِ علىٰ بساطِ المُشاهَدة إلا مَن ذبَحَ نفْسَهُ بسِكّينِ المُجاهَدة، وأنهُ لا يصِلُ إلىٰ صريحِ الحرّية مَن بقِيتْ عليهِ مِن نفْسهِ بقيّة.

وقالَ الشيخُ فخْرُ الوجودِ أبو بكرٍ ابنُ سالمٍ[1] نفَعَ اللّهُ به: مَن لم يُجاهِدْ

---

(١) السيد الإمام، الولي الكبير، بركة وقته، الشيخ أبو بكر بن سالم بن عبد اللّه بن عبد الرحمٰن بن عبد اللّه بن عبد الرحمٰن السقاف. مولده بتريم سنة **٩١٩هـ**، بها نشأ وطلب فنون العلم، وصحب أكابر المشايخ، كالسيد أحمد بن علوي باجحدب، =

في البداياتِ لم يصِلْ إلىٰ النهايات.

وفـي «الحِكَمِ العطائية»: مَن لـم تكُنْ له بدايةٌ مُحرِقـة، لم تكُنْ له نهايةٌ مُشرِقة.

قالَ الحبيبُ العارفُ باللّه، عبدُ اللّهِ بنُ مُحْسِنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: الحِجـابُ الذي بينَ الإنسانِ وبينَ ربِّهِ وبينَهُ وبينَ الأنبياءِ والصالحِين: النفْس، فمتىٰ أبعدَها ارتفَعَ الحِجابُ بينَهُ وبينَ الكلّ، وقصورُ المشهدِ يُوقِعُ الإنسانَ في التعب.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: الجهادُ الأصغَرُ ما وقَعَ إلاّ مِنَ الجهادِ الأكبر؛ لأنّ الإنسـانَ لو ما جاهَدَ نفْسَهُ ما طاوَعتْـهُ علىٰ الخروجِ للجهادِ والتعرُّضِ للقتْل. انتهىٰ.

ومِن كلامِ سيّدِنا العَيدَروسِ الأكبرِ عبدِ اللّهِ بنِ أبي بكرٍ رضِيَ اللّهُ عنه: اِعصِرْ جِسمَكَ بالمُجاهَدةِ حتىٰ تستخرجَ منهُ دُهنَ الصَّفا. والكنوزُ كلُّ الكنوزِ في دعائمِ الاجتهادِ وتوزيعِ الأوقات، ومَن أرادَ الصَّفا الرّبانيَّ فعليهِ بالانكسارِ في جوْفِ الليل.

«فهَلُمَّ يا أخي ووَليِّي ــ حفِظَكَ اللّه ــ إلىٰ طيِّ المَفاوزِ النفْسانيّة، وقطْعِ الفَلَواتِ الظُّلمانيّة، بمُلازَمةِ الأوراد، ومُصاحَبةِ الجِدِّ والاجتهاد، إلىٰ أن يفتَحَ اللّهُ ربُّ البريّة، وتجيءَ المَواهبُ اللَّدُنيّة، والمُنُوحاتُ الإلهيّة، ممّا لا يخطُرُ علىٰ بال، ولا يُتصَوَّرُ في خيال» كما قال سيِّدُنا الإمامُ الحدّادُ رضيَ اللّهُ عنه.

= والفقيه عبد اللّه باقشير، والشيخ معروف باجمّال والشيخ عمر بامخرمة، وغيرهم. بلغ في الولاية أعظم المراتب، وكان عظيم الحلم والسخاء والتواضع، له الكرامات والخوارق العجيبة. توفي سنة **٩٩٢هـ** ببلدة عينات، وقبره فيها ظاهر يُزار.

ـــ صُوَرٌ من مجاهداتِ الأكابرِ من السَّلَفِ والخَلَفِ نفعَ اللّه بهم :

قـالَ الشيخُ الإمامُ القُطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في قصيدتِهِ العَينيّة، في وصُفِ أولئكَ السلَفِ الصالحِ ذوي الهِمَمِ العلّية :

قـومٌ إذا أَرخـىٰ الظَّـلامُ سُتـورَهُ ... لم تُلْفِهِمْ رهْنَ الوَطا والمَضْجَعِ

بـلْ تلقَهُـم عُمُـدَ المَحـاربِ قُـوَّماً ... للّـهِ، أَكـرِمْ بـالسُّجُـودِ الـرُّكَّـعِ

يتْلُـونَ آيــاتِ القُـرانِ تـدُّبـراً ... فيـهِ ولا كـالغـافـلِ المُتـوزِّعِ

ثَبَتوا علىٰ قدمِ الرسّولِ وصحْبِهِ ... والتـابعيـنَ لهُـم، فسَـلْ وتتبَّـعِ

ومضَوْا علىٰ قصْدِ السبيلِ إلىٰ العُلا ... قـدَمـاً علـىٰ قـدَمٍ بجِـدٍّ أوزَعِ

وقالَ الإمامُ محمّدُ بنُ زينِ بنِ سُميطٍ في وصْفِ هؤلاءِ الرجال :

عانَقوا الجِدَّ وأمْضَوا وامتَطَوْا ... نُجُبَ العزْمِ وساقوا الهِمَما

لم يَنُوءوا تحتَ أعباءِ السُّرىٰ ... لا تَـراهُـمْ بـالـدَّيـاجي نُـوَّما

بـلِ إذا جَـنَّ الـدُّجىٰ ألفيْتَهُـمْ ... سُجَّـداً أو رُكَّعـاً أو قُـوَّمـا

وإذا أضحىٰ الضُّحىٰ عاينْتَهُمْ ... خُمُصـاً أو عُطَّشـاً أو صُـوَّمـا

صبَروا شُكراً، وشكراً صبروا ... شَهِـدوا كـلَّ البَـلايـا نِعَمـا

بـالأمـانـي والهُـوَيْنـا لا ينَـلْ ... للمُنىٰ مَن لم يَسِيغَ العَلْقَما

يجِـدُوا المُـرَّ كحُلـوٍ بـاردٍ ... والشّـدائـدَ والمَتـاعـبَ غُنُمـا

* * *

كانَ عبدُ اللّهِ بنُ الزُّبيرِ رضِيَ اللّهُ عنهُما مِن عُبّادِ الصّحابة. قالَ مُجاهِد : ما كانَ بابٌ منَ العبادةِ يعجزُ عنهُ الناسُ إلا تكلّفَهُ عبدُ اللّهِ بنُ الزُّبير، ولقد جاءَ سيْلٌ طبّقَ[1] البيت، فجعَلَ ابنُ الزُّبيرِ يطُوفُ سِباحةً. وقالَ ابنُ وثّاب : كانَ ابنُ

---

(١) يقال : طبق السحاب الجو، وطبق الماء وجه الأرض : إذا عمّ وغشىٰ وغطّىٰ.

الزُّبيرِ يسجُدُ حتىٰ تنزِلَ العصافيرُ علىٰ ظهرِه، لا تحسَبُهُ إلا جِذْمَ حائط.

ورُوِيَ أنهُ كانَ يُحيـي الدّهرَ أجمَع، ليلةً قائماً حتىٰ يُصبِحَ وليلةً راكعاً حتـىٰ يُصبح وليلةً ساجداً حتـىٰ يُصبِح، وكانَ يواصِلُ الصّيـامَ سبعـاً، يصومُ الجمُعةَ فلا يُفطِرُ إلا ليلةَ الجمُعةِ الأخرىٰ، ويصومُ بالمدينةِ فلا يُفطِرُ إلا بمكّة، ويَصومُ بمكّةَ فلا يُفطِرُ إلا بالمدينة.

***

وكانَ سعيـدُ بنُ المُسيِّبِ رحِمَهُ اللّهُ يقـولُ إذا دخَـلَ اللّيـل[١]: قُومي يا مَأوىٰ كلِّ شرّ. فكانَ يُصبحُ وقدَماهُ مُنتَفِختان، فيقولُ لنفْسِهِ: بهذا أُمِرتِ ولهذا خُلقْـتِ. قالَ بُرْدٌ مولاه: ما نُـودِيَ للصّـلاةِ منذُ أربعيـنَ سنةً وإلا وسعيـدٌ في المسجد.

وقالَ أبو إدريس: صلّىٰ سعيدُ بنُ المُسيِّبِ الغَداةَ بوُضوءِ العتْمةِ خمسينَ سنة. وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: ما فاتتْني فريضةٌ في جماعةٍ منذُ أربعينَ سنة، وما فاتتْني تكبيرةُ الإحرامِ منذُ خمسينَ سنة، وما نظَرتُ إلىٰ قَفا رجلٍ في الصّلاةِ مِنذُ خمسينَ سنة. أي: لمُحافَظتِهِ علىٰ الصفِّ الأوّل.

***

حكىٰ الإمـامُ الشافعيُّ عنِ الإمامِ أبي حنيفـة: أنـهُ أحيا اللّيلَ كلَّهُ بِضعاً وأربعينَ سنةً يُصلّي الصبحَ بوضوءِ العِشاء، ويُحيي اللّيلَ كلَّه بركعةٍ أو ركعَتين يقرأُ فيها أو فيهما القرآنَ كُلَّه، وربُّما أحيا الليلَ كُلَّه بالآيةِ الواحدةِ يُكرِّرُها إلىٰ الفجر. انتهىٰ.

---

(١) مخاطباً نفسَه.

ورُويَ عـنِ الإمـامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رحِمَهُ اللّه: أنهُ كانَ يصلّي في اليومِ والليلةِ ثلاثَمئةِ ركعة، فلمّا مرضَ وتقدَّمتْ سِنُّهُ كانَ يصلّي مئةً وخمسينَ ركعة. وقالَ بعضُ مَن عاشَرَهُ: ما رأيتُهُ أفطَرَ إلا يوماً واحداً، أفطَرَ واحتَجَم. انتهىٰ.

＊＊＊

ورُويَ عنِ الجُنَيدِ بنِ محمّـدٍ سيّدِ الطائفةِ الصُّوفيـة: أنـهُ كـانَ وِرْدُهُ في سُوقِهِ كلَّ يومٍ ثلاثَمئةِ ركعةٍ وثلاثينَ ألفَ تسبيحة. وقال: ما نمتُ في فِراشٍ منذُ أربعينَ سنة. وكانَ لا يأكُلُ إلاّ من الأسبوعِ إلىٰ الأسبوع.

وحكىٰ أبو محمّدٍ الجَريريُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: كنتُ عندَ الجُنَيدِ رضِيَ اللّهُ عنهُ في حالِ نزْعِه ــ وكانَ يومَ جمُعة ــ وهُوَ يقرأُ القرآن، فختَمَ وشرَعَ مِن أوّلِه، فقلت: في هذهِ الحالةِ يا أبا القاسم؟ فقال: ومَن أَولىٰ منّي بذلكَ وهُوَ ذا تُطوىٰ صَحيفَتي؟

ــ ومِن مجاهداتِ الساداتِ آلِ أبي عَلَوي رضِيَ اللّهُ عنهم:

ما ذكرَهُ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ فقال: كانوا يملأُونَ الحِيضَـانَ حـقَّ المـاءِ باللّيلِ حتـىٰ لا يراهُـم أحد، ويقـومونَ اللّيـلَ بالصـلاةِ والتلاوة، ومُرادُهم بهـذهِ الأشياءِ كلِّها وجهُ اللّهِ تعالىٰ، فيُخْفونَها عنِ الخلْق. فقيلَ له: فما هذه الهِمّةُ التي كانتْ لهم؟ فقال: بهذا حصَلَ لهُم ما حصَل. لو أعطاهُم ذلكَ بلا تعبٍ أو يجلسونَ جالِسينَ ويطلُبونَ ذلك، كانَ سَوّىٰ اللّهُ بينَ النّاسِ ولم يتميّزْ أحدٌ مِنهم علىٰ أحَد. فقيلَ له: إنهُ قد أعطاهُمُ اللّهُ هذهِ الهِمّةَ العظيمة، فبِها سبَقوا غيرَهم، فقال: عرَفوا الحقَّ فطلبُوهُ، مَن عرَفَ ما يطلُبُ هانَ علَيهِ ما يَبذُل. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

قالَ الحبيـبُ الحسَـنُ بنُ صالح البحرُ نفَعَ اللّهُ به: إنّني البارحةَ سمِعْتُ السُّـراةَ مِن أهلِ السّناوةِ في الـزّرعِ يَحْدُون، فقلـتُ في نفْسي: هؤلاءِ يريدونَ

سهَرَ اللّيلِ كلِّهِ بتعَبٍ عظيمٍ لطلَبِ شيءٍ تافهٍ منَ القُوت، فكيفَ بمَن مُرادُهُ طلَبُ المنـازِلِ العليّةِ والمَراتـبِ السّامية؟ فقمتُ كلَّ الليلِ بسهولةٍ وفرَح. أو ما هذا معناه.

وقالَ الحبيبُ العارفُ باللّه، عَيدَرُوسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنـا بأسرارِهِ في مُقدّمةِ كتابِهِ «عِقدِ اليَواقِيت»: وقد بلَغَنا منَ اجتهادِ الأئمّةِ وتحصيلِهـم ما يُحيِّرُ الواقفَ عليهِ ويعُدُّه مِن معجـزاتِ مَتبُـوعِهم ﷺ، فإنّهـم رضِـيَ اللّهُ عنهُم لم يبلُغوا ما بَلَغُوهُ وينالوا ما نالوهُ حتىٰ استَلانوا ما استَوْعـرَهُ المُترَفون، وهجَروا للّهِ وفي اللّهِ ما هجَروه، واشتدَّ بنفوسِهمُ الاعتِناء، كما قالَ بعضُهم: «بلَغْنا المُنىٰ لمّا بلَغْنا بالنفوسِ ما شقّ»، ثم قال:

فقـد رُويَ عن إمامِ الأكابرِ الشيـخِ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ أنهُ قال: مكَثتُ خمساً وعشريـنَ سنةً مُتجرِّداً سائحاً في بـراري العراق، وأربعيـنَ سنـةً أُصلّي الصّبـحَ بوُضوءِ العشاء، وخمسَ عشْرةَ سنةً أُصلّـي العِشاء، ثم أستَفْتِحُ القرآنَ وأنا واقفٌ علىٰ رِجْلٍ واحدةٍ ويدي في وَتدٍ مضروبةٍ في حائط، خوفاً منَ النّوم، حتىٰ أنتهيَ إلىٰ آخرِ القرآنِ في السّحَر.

وكانَ الشيخُ عبدُ اللّهِ باعَلَوي[1] أيامَ إقامتِهِ بمكّةَ هُوَ وتلميذُهُ الشيخُ عليُّ بنُ سِلْمٍ ــ كما حكاهُ ابنُ سِلْم المذكور ــ إذا فرَغَ مِن صلاةِ التراويحِ في رمضانَ أحرَمَ كلٌّ منهُما بركعتَينِ يقرَأُ فيهِما القرآنَ كلَّه، ولا يتعشّىٰ إلاّ بعدَ الفراغِ منهُما

---

(١) السيد الشريف الشيخ الإمـام عبد اللّه بن علوي بن الفقيـه المقدم العلوي الحسيني، مولـده بتريـم سنة ٦٣٨ أو ٦٤٠ وبها وفاته سنة ٧٣١هـ، كـان إماماً عظيماً جليلاً ذا سيرة حميـدة وخصـال مجيـدة، ومجاهـدات عظيمة، تربىٰ بأبيـه وأعمامـه وجده، وجـاور بمكة ثماني سنـوات، واستسقىٰ بأهلهـا مرتين، وأثناء مجاورته كـان يختم ختمة بين العشاءيْن في ركعتين، ومناقبه شهيرة رضي اللّه عنه.

بجَرْعةِ مـاءٍ أو تمرة، قال: وكنتُ أدرُسُ معَـهُ القرآن، فما يذهَبُ كلٌّ منا حتىٰ يقرَأَ نِصفَ القرآن. انتهىٰ.

وحُكيَ عن الشيخِ محمّـدٍ مَولىٰ الدَّوِيلةِ[١] رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ مكَثَ نحوَ عشرينَ سنةً يصلّي الصّبحَ بوُضوءِ العشاء، وأنهُ صامَ أربعينَ يوماً مُتتابِعةً في أيامِ الصّيف.

وكانَ ابنُهُ الشيخُ عبدُ الرحمنِ السقّافُ يتعبّدُ في شِعْبِ التُّعَيرِ[٢] ثلُثَ اللّيلِ الأخيـر، وكانَ يقرأُ كلَّ يوم خَتْمَتينِ وكلَّ ليلـةٍ خَتْمَتيـن، ثم يقرأُ أربعَ خَتماتٍ باللّيلِ وأربعاً بالنهار: خَتْمتانِ مِن بعدِ الصّبحِ إلىٰ الظهرِ وخَتمةً فيما بينَ الظهرِ والعصـر، وخَتمةً بعدَ العصر، ومكثَ نحوَ ثلاثٍ وثـلاثين سنةً ما نام فيها، لا ليلاً ولا نهاراً، ويقول: كيفَ ينامُ مَن إذا رقَدَ علىٰ شِقِّهِ الأيمنِ رأىٰ الجنّة، أو علىٰ شِقِّـهِ الأيسَرِ رأىٰ النار؟ وكان يزُورُ القبـورَ كلَّ ليلـةً ويُصلّـي في مساجدِ (تريمَ) كلَّ ليلة.

وكان ٱبنُـه الشيخُ عمرُ المحضارُ مكَـثَ خمسَ سنينَ لا يأكلُ ممّا يعتادُهُ الآدَميّون، ومكَثَ نحوَ ثلاثينَ سنةً لا يأكُلُ التمر، ويقول: إنهُ أحبُّ الشهواتِ

---

(١) الشيـخ الإمـام العـارف باللّه محمد بن علي بن علـوي بن الفقيـه المقـدم العلـوي الحسيني، ولد بتريم وبها توفي سنة ٧٦٥هـ، كان عمه عبد اللّه باعلوي يسميه (بدوي الصوفية)، وكان علىٰ قدم كبيرة وثابتة في المجاهدات والرياضات، وفتح اللّه عليه في العلم وهباً. وهو والد الشيخ عبد الرحمٰن السقّاف الملقّب بالمقدَّم الثاني، رضيَ اللّه عنهم جميعاً.

(٢) التّعَيـر: من أوديـة تريـم وشِعابِهـا، وكـان متعبَّـدَ كثيـرٍ مـن الصالحيـن من السـادة والمشايـخ، كالأئمة المذكـورين أعلاه. يُنظر «إدام القـوت» لابن عبيد اللّه السقاف ص ٩٢٨.

إليَّ، فلذلكَ مَنعتهُ نفْسي. وأخَذَ في مسيرِهِ إلىٰ الحجِّ أربعينَ يوماً ما ذاقَ فيها لا طعاماً ولا شراباً، ولم تنقُصْ قوّتُهُ ولم تضعُفْ عنِ المشي.

وكانَ الشيخُ عبدُ اللّهِ العيْدَروسُ أقامَ مدةً لا يأكُلُ إلا ثمَرَ العِشْرِق[١]، ومكَثَ ثلاثَ سنينَ يرقُدُ على المزابلِ رياضةً لنفْسِه، ثمّ هجَرَ النّومَ أكثرَ مِن عشرينَ سنةً لم يرقُدْ فيها، لا ليلاً ولا نهاراً. وقال: كنتُ أوَدُّ أنْ أُفنيَ مُهْجَتي في الاجتهادِ وأهوىٰ ذلكَ وأحبُّهُ حبّاً ضرورياً.

وكانَ الشيخُ القطبُ أبو بكرٍ بنُ عبدِ اللّهِ العيدروسُ فيما حُكيَ مِن مُجاهَداتِهِ أنهُ هجَرَ النّومَ باللّيلِ أكثرَ مِن عشرينَ سنة، وكانَ يخرُجُ هُوَ وابنُ عمِّهِ الشيخُ عبدُ الرحمنِ بنُ عليٍّ في بدايتِهما إلىٰ شِعْبِ النُّعَيرِ بعدَ مُضيِّ ثلُثِ اللّيلِ الأوّل، فينفرِدُ كلٌّ واحدٍ في جانبٍ ويقرأُ ثلُثَ القرآنِ في الصلاة، ثم يرجِعانِ إلىٰ البلدِ قبلَ الفجر.

وكانَ الشيخُ أبو بكرٍ ابنُ سالمٍ فيما حُكيَ عنهُ أنهُ مكَثَ مُدّةً يصومُ ولا يُفطِرُ إلا علىٰ البُسْرِ الغاسي[٢]، وأنهُ مكَثَ أربعينَ سنةً يُصلّي الصّبحَ بوُضوءِ العشاءِ في مسجدِ باعيسىٰ بـ(اللِّسْك)، ثم يصعَدُ كلَّ ليلةٍ بعدَ ذلكَ يزورُ مقبرةَ (تريمَ) ويحضُرُ جماعةَ صلاةَ الصّبحِ في باعيسىٰ.

وكانَ سيّدُنا الشيخُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ فيما حُكيَ عنهُ أنهُ قال: كنتُ إذا رجَعتُ مِنَ المِعلامةِ[٣] ضُحىً آتي بعضَ المساجدِ فأتنفَّلُ فيهِ كلَّ يومٍ نحواً من

---

(١) وهو ثمرٌ تأكله الدوابّ في الصحراء.

(٢) البسر الغاسي: أولُ ما يخرج من التمر، فيكون كأبعار الفصال، ويكون مكتسباً للّون لكنه غير ناضج. وجاء في «الصِّحاح» للجوهري في عَدِّ مراحل التمر: أوله طَلْع ثم خَلال ثم بلَح ثم بُسْر ثم رُطَب ثم تمر.

(٣) بكسر ميمها الأولىٰ، وهي: الكُتّاب.

مئةِ ركعةٍ تطوعاً. وفي روايةٍ أو واقعةٍ أخرىٰ: كنتُ منَ الصّغَرِ أصلّي مئتي ركعةٍ في مسجِدِ بني عَلَوي. وأطلُبُ منَ اللّهِ مقامَ الشيخ عبدِ اللّهِ العيْدَروس. وكذلك السّيدُ عبدُ اللّهِ بنُ أحمدَ بلفقيهِ يفعَلُ ذلكَ ويطلبُ مقامَ السيّدِ عبدِ اللّهِ ابنِ محمّدٍ صاحبِ الشُّبَيكة.

وكانَ الشيخُ العارفُ باللّه، حسَنُ بنُ صالحِ البحر، مِن شِدّةِ التزامِهِ للطاعةِ ومُعانَقتِهِ للعبادة، أنهُ كثيراً ما يقرأُ القرآنَ في ركعتَين، وأنهُ في ليلةٍ واحدةٍ تلا نحوَ تسعينَ ألفاً مِن سورةِ الإخلاص، وأنهُ كثيراً ما يقرأُ سورة يٓس أربعينَ مرةً في مجلسٍ واحد، وأنهُ في بعضِ تنقّلاتِهِ للزيارةِ قرَأَ سورةَ يٓس أربعينَ مرةً في ركعةٍ أو ركعتَينِ معَ شِدّةِ مرَضٍ بهِ والزُّكامُ مؤلمٌ له.

وكانَ سيّدُنا إمامُ الأفرادِ والأكابر، عبدُ اللّهِ بنُ حسَينِ بنِ طاهر، يأتي كلَّ يومٍ مِن «لا إلهَ إلا اللّهُ» خمسة وعشرينَ ألفاً، ومِن «يا اللّه» ـ بياءِ النّداءِ علىٰ سبيلِ الدّعاءِ وقصْدِ الذِّكْرِ ـ خمسةً وعشرينَ ألفاً، ومِن الصلاةِ علىٰ النبيِّ ﷺ خمسةً وعشرينَ ألفاً. وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يغتسِلُ ويتطيّبُ لكلِّ فريضة. انتهىٰ كلامُ الحبيبِ عيدروسِ بنِ عمرَ مُلخَّصاً معَ حذْف.

قالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ حسنِ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ سيّدُنا عليٌّ زينُ العابدينَ بنُ الحُسينِ رضِيَ اللّهُ عنهُما يُصلّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعة، وغيرُهُ ممّن بعدَه، كسيّدِنا الفقيهِ المُقدَّمِ محمّدِ بنِ عليٍّ والشيخ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ والشيخِ أبي الحسَنِ الشاذِليِّ والشيخِ أحمدَ الرفاعيِّ والشيخِ أحمدَ البدَويِّ[١]

---

(١) الولي المعتَقَد، العارف المجذوب، صاحب الكرامات الشهيرة، سيّدي أحمد البدوي الحسيني المعروف بأبي الفتيان (ت٦٧٥هـ)، عُرِفَ بالبدوي لكثرة ما كان يتلثّم. قبره بمصر معروفٌ قبلة للزوّار.

والشيخِ أحمدَ بنِ عَلْوانَ[١]، وغيرِهم من أهلِ البيتِ نفعَنا اللّهُ بهِم، آمين.

كانَ سيّدُنا الإمامُ محمّدُ بنُ عمرَ أبو مُرَيِّم[٢] رضِيَ اللّهُ عنهُ منَ الفقهاءِ المجتهِدين، قالَ الشيخُ عبدُ الرحمنِ السقّاف: لو وقَعَ اجتهادُ الفقيهِ محمّدِ بنِ عمرَ في العبادةِ علىٰ جبلٍ لَدَكَّه، فإنهُ كانَ يقومُ اللّيلَ ويقرَأُ كلَّ ليلةٍ ثلُثَي القرآن. وكانَ يمكُثُ في المسجدِ مِن وقتِ تهجُّدِهِ حتىٰ يُصليَ الضُّحىٰ، ويذهَبُ بعدَ ذلكَ إلىٰ المِعلامةِ يُعلِّمُ القرآنَ في سبيلِ اللّهِ ورِضاه، فإذا خرَجَ ذهَبَ إلىٰ دارِهِ ونامَ القَيْلولة، ثم يُصلّي الظّهرَ ويُعلِّمُ القرآنَ إلىٰ قريبِ المَغرِب، واعتكفَ في المسجدِ إلىٰ أن يُصلّيَ العِشاءَ ويُصلّي بعدَها ما قدَّرَ اللّهُ تعالىٰ، ثم يخرُجُ إلىٰ بيتِهِ ويُفطِرُ أوانَ الإفطارِ بما هُوَ سُنّة؛ لأنّ عادتَهُ صيامُ أيامِ البِيض والاثنينِ والخميسِ والجُمُعةِ ورجَب. ختَمَ علىٰ يدِهِ ثلاثُمئةِ شخص، وكلُّ مَن ختَمَ منهم قرَأَ عليهِ رُبعَ «التنبيه». انتهىٰ مُلخَّصاً مِن «شرحِ العَينيّة».

***

(١) الشيخ الكبير، الولي العارف، شيخ الطريقة العلوانية، أبو العبّاس أحمد بن علوان اليمني الأحمدي (ت٦٦٥هـ)، أحد أصحاب السيّد أحمد البدوي. له الكلام الحسن في الوعظ والتصوف والشعر الحسن، وكراماته مشهورة، وقبره قرب (تعز) مقصودٌ للتبرُّك.

(٢) الشيخ الإمام، العابد العلاّمة، السيّد محمد بن عمر بن محمد بن أحمد بن الفقيه المقدَّم العلوي الحسيني، ولد بتريم وتوفي بها سنة ٨٢٢هـ، عرف بأبي مُرَيِّم (تصغير مريم اسم ابنته)، وهو صاحب مسجد المَصَفّ بـ(قَسَم). قال الشيخ محمد جمل الليل: صحبته أربعين سنة فما رأيته غضب قط، وهو صاحب (العُلمة) الشهيرة بتريم التي خرّجت مئات الألوف من حفّاظ القرآن الكريم من عهد مؤسسها إلىٰ هذا اليوم، ولا تزال أبوابها مفتوحة.

وكـانَ سيّدُنـا الإمامُ شيـخُ بنُ عبدِ اللّهِ بنِ شيـخِ العَيـدَروس صـاحـبُ «العِقدِ»[١] كثيرَ المُجاهَدة، وحُكيَ مِن مُجاهَداتِهِ أنهُ كانَ يَعتمِرُ في رمضانَ أربعَ عُمَرٍ باللّيلِ وأربعَ عُمَرٍ بالنهار. وعن بعضِهم قال: وتيسيرُ ذلكَ منَ الكراماتِ الخارقة، إذ لم يُنقَلْ مثلُهُ عن أحد. ذكَرَهُ في «المَشْرَع».

وكانَ سيّدُنا الإمامُ عمرُ بنُ عبدِ الرحمنِ العطّاسُ نفعَ اللّهُ به، ربّما يُحيي اللّيلَ كلَّهُ بالمُذاكَرةِ في العلومِ النافعة، وربّما طلَعَ الفجرُ وهُوَ كذلكَ معَ بعضِ أصحابِه، ولقد باتَ ليلةً يكرِّرُ دُعاءَ القُنوت: «اللّهُمَّ اهدِنا فيمَن هدَيْتَ. . » إلخ مِن حينِ صلاةِ العشاءِ إلىٰ أن طلَعَ الفجر.

وحُكـيَ عن سيّـدِنا الإمامِ أحمدَ بنِ محمّـدٍ الحبَشيِّ صاحبِ «الشِّعْبِ» رضِـيَ اللّهُ عنهُ أنهُ يأكُلُ منَ التّمرِ إلىٰ أن يتـوارىٰ قدمـاهُ منَ النّوىٰ، ثم يُصلّي بعدَدِ النّوىٰ ركعات.

وكانَ سيّدُنا الإمامُ الحسَنُ ابنُ سيّدِنا القطبِ عبدِ اللّهِ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُما، مِن عظيمِ مُكابَداتِهِ في اللّه، ما مسَّتْ يدُهُ يدَ امرأةٍ أجنبيّة، ولا تَجاسَرَ علىٰ شيءٍ يكرَهُ ربُّ البريّة، وما تَرَكَ سنّةً أصلاً، وما صلّىٰ الفرضَ منفرداً أبداً، وما ركِـبَ دابّةً وهُوَ ساعٍ إلىٰ طاعةِ ربِّه، حتىٰ في آخرِ وقتِهِ يخرُجُ إلى مَدْرَسِ

---

(١) الإمـام الولي، العارف الجليـل القدْر، السيد شيـخ بن عبد اللّه بن شيـخ بن الشيخ عبد اللّه العيدروس، مولده بتريم سنة ٩١٩هـ. أخذ عن والده والشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الرحمٰـن والفقيه عبد اللّه باقشير، ثم دخـل الحجاز وحج، وأخذ عن أبي الحسـن البكـري، وابن حجر، وعبد القادر الفاكهي وأخيـه عبد اللّه وغيرهم. رحـل إلىٰ أحمد آباد بالهند وأقـام بها ٣٢ سنة، وبها توفـي سنـة ٩٩٠هـ. وهو والد السيـد عبد القادر صاحـب «النـور السـافر». من مصنفـاته: «العقـد النبـوي والسر المصطفوي»، و«نفحات الحِكَم علىٰ لامية العَجَم»، وغير ذلك.

السُّبَير ــ وهُـوَ بعيدٌ مِن مكانِهِ يزيدُ علىٰ ثلُثي مِيل ــ يخرُجُ يسير، وكانَ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ لم يستَدبرِ القِبلةَ إلا في الحضْرةِ المُحمّدية.

عنِ الإمامِ محمّدِ بنِ زينِ بنِ سُميطٍ قال: إنّ سيّدَنا عبدَ اللّٰهِ الحدّادَ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ قد عمِلَ بجميعِ السنَنِ النبويّة، ولم يُغادِرْ منها شيئاً، حتىٰ توفيرَ الشّعرِ كما كان يفعَلُـهُ ﷺ، فإنهُ آخرَ الأمرِ لمّا مرِضَ مرَضَ موتِهِ أخذَ أربعينَ يوماً لم يحلِقْ رأسَهُ حتىٰ توفّي، فحصَّلَ بذلكَ أصلَ السُّنة. انتهىٰ.

قالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّٰهُ عنه: كنتُ أيامَ المُجاهَدةِ أجعَلُ اللّيلَ نهـاراً والنهارَ ليلاً، وقد أُصلّي الصُّبحَ بوضوءِ العشاء، وقد أُصلّي الظُّهرَ بوضوءِ العشاء، وقد صليتُ المَغرِبَ بوضوءِ العشاء.

وقالَ أيضاً: كنتُ أقرَأُ القرآنَ كلَّهُ في ثلاثِ ساعاتٍ بإنصاتِ مَن يستمعُ لي في المصحف، وكانَ مِن أورادي خمسةٌ وعشرونَ ألفاً مِن «لا إلهَ إلا اللّٰهُ» قبلَ الغداء، ونصفٌ منَ القرآنِ في صلاةِ الضُّحىٰ، فقيلَ له: هذا من بابِ خرْقِ العادة؟ قال: لا، بل هُوَ مِن بابِ التعوُّدِ اللِّسانيّ. انتهىٰ. مِن «مجموعِ» كلامِه.

وكـانَ يحكي عن الحبيبِ أحمدَ بنِ محمّدٍ المِحضارِ[1] أنهُ قال: مضَتْ لي أربعونَ سنةً أقرَأُ في اللّيلِ خَتمة، وفي النهار خَتمة. ذَكر ذلكَ الحبيبُ سالِمُ ابنُ حفيظٍ[2] في «مِنحةِ الإلٰه».

---

(١) السيد الشريف، الحبيب أحمد بن محمد بن علوي بن محمد بن طالب المحضار ابن الشيخ أبي بكر بن سالم. كان عالماً فاضلاً صالحاً كثير العبادة، ولد سنة ١٢٣٧هـ، وتوفي سنة ١٣٠٤هـ بالقويرة (قرب حلبون) التي توطّنها وذريته. ترجم له تلميذه الحبيب عيدروس بن عمر في «عقد اليواقيت» (٢: ٢٩).

(٢) السيد الشريف، العالم المسند الصالح، الحبيب سالم بن حفيظ بن عبد اللّٰه بن عيدروس بن الشيخ أبي بكر بن سالم العلوي الحسيني. مولده بجاوه بـ(ندواسة) سنة =

وذكَـرَ فيها أيضاً: أنّ مِن أورادِ الحبيـبِ عبدِ القادرِ بنِ أحمـدَ قطبان[١] اليوميـةِ قراءةَ «دلائـلِ الخيراتِ» كلَّ يوم خمـسَ مرات، كانَ يقرأُهـا بعـدَ كلِّ فريضـةٍ بأجمَعِهـا. وكانَ لا يزالُ يلهَجُ بذكْرِ اللّهِ تعالىٰ لا يفترُ لِسانُهُ عن ذلك، حتىٰ أنهُ قد يُشاهَدُ مُرتفِعاً بالهواءِ عندَ استغراقِه في الذِّكر.

وذُكرَ عنِ الحبيبِ شيخـانَ بنِ محمّدٍ الحبَشيِّ[٢] رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ كانَ يقـرأُ في رمضانَ سبعينَ خَتمـةً منَ القرآنِ العظيـم، وأنـهُ يحيـي بينَ العشاءَينِ بعشرينَ ركعةً بقراءةِ القرآنِ مِن قيام.

وعنِ الحبيبِ أبي بكرِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ حسَينِ بنِ طاهرٍ[٣] أنهُ كـانَ في أيـامِ رياضتِهِ يَطوي الأسبـوعَ والأسبوعَينِ والثلاثة، وأنهُ قـد يأتي بالسبعينَ الألفَ مِن (لا إلٰهَ إلا اللّه) في المجلسِ الواحد. انتهىٰ.

وعنِ الحبيبِ عليِّ بنِ محمّدٍ الحَبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: كانَ مِن وِردِ الحبيـبِ أبي بكرِ بنِ عبدِ اللّهِ العطّـاسِ كلَّ ليلةٍ ألفُ مرةٍ مِن سورةِ يٓس إلىٰ أنِ انتهىٰ إلىٰ مئتَينِ وخمسينَ منها.

= ١٢٨٨هـ، ووفاته بـ(مِشْطة) بحضـرموت سنة ١٣٧٩هـ. كان معمَّـراً صالحاً مسنِداً ألحـق الأحفاد بالأجـداد والأواخر بالأوائل، وصنف كتابه «منحة الإلـه في الاتصال ببعض أولياه» فسدَّ فراغاً كبيراً في تراجم شيوخه.

(١) من ذريـة عمر قطبـان بن أحمد بن عقيـل بن أحمـد بن الشيخ علـي السكـران، ولد بسيـؤون سنة ١٢٤٥هـ، وبها توفـي سنـة ١٣٣١هـ، أخذ عن الأكابـر، وأخـذ عنـه جماعة منهم الحبيب سالم بن حفيظ وغيره.

(٢) مولده بالغُرفة سنة ١٢٥٩هـ، وتوفي بسيؤون سنة ١٣١٣هـ، ويعرف الحي الذي به ضريحه باسمه. كان من كبار العبّاد الزهّاد.

(٣) ولد بالمَسِيلة سنة ١٢٨٠هـ، وبها توفي سنة ١٣٣٠هـ، كان فاضلاً كريماً سخياً.

الفصل الثامن
في التصوّف

ـــ معنىٰ التصوُّفِ والصُّوفي :

سُئِلَ سيِّدُنا الإمامُ قطبُ الإرشاد الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّاد نفَعَنا اللّهُ به، عن الصُّوفيِّ والتصوُّف، وما الذي إذا فعَلَهُ الإنسانُ سُمِّيَ صوفياً؟ فأجابَ رضِيَ اللّهُ عنهُ بقولِهِ:

الصُّوفيُّ هُوَ كما قالَ بعضُ العارِفين: الصوفيُّ: مَن صَفا منَ الكَدَر، وامتلأ منَ العِبَر، واستغنىٰ باللّهِ عن البَشَر، واستوىٰ عندَهُ الذهَبُ والمَدَر[1].

وأما التصوُّفُ فهُوَ كما قالَ بعضُهم أيضاً: التصوُّفُ هُوَ: الخروجُ مِن كلِّ خلُقٍ دَنِيّ، والدخولُ في كلِّ خلُقٍ سَنِيّ.

وقد وقَعَ خلافٌ كثيرٌ مِن أهلِ الطريقِ في التصوُّف: ما هُوَ والصُّوفي؟ وهذا الذي ذكرْناهُ مِن أحسنِهِ وأجمَعِه.

فمَن صفّىٰ أعمالَهُ وأقوالَهُ ونياتِهِ وأخلاقَهُ مِن شوائبِ الرِّياء، وخلَّصَها عن كلِّ شيءٍ يُسخِطُ المولىٰ، وأقبَلَ بباطِنِهِ وظاهِرِهِ علىٰ اللّهِ وعلىٰ طاعتِه، معَ الإعراضِ عن سِواه، وقطْعِ العوائقِ الشاغلةِ عنِ التجرُّدِ لهذا الأمرِ مِن أهلٍ

---

(١) المدَر: الطين.

ومالٍ وشهوةٍ وحظٍّ وهوىٰ نفس، وكانَ جميعُ ذلكَ مقروناً بالعِلمِ واتّباعِ الكتابِ والسنّةِ وهدْيِ السلَفِ الصّالح، فهُوَ الصوفيُّ الكاملُ واللّهُ أعلَم. انتهىٰ ملخَّصاً مِن «مجموعِ» مكاتَبتِه.

قالَ بعضُ المحقِّقينَ نفعَ اللّهُ تعالىٰ بهم: الصُّوفيُّ هُوَ العالِمُ العاملُ بعِلمِهِ علىٰ وجهِ الإخلاص، فأورثَهُ اللّهُ عِلمَ ما لا يعلَمُ وأكرَمَهُ بالاطّلاعِ علىٰ دقائقِ الشريعةِ وأسرارِها، حتىٰ صارَ أحدُهم مجتَهداً في الطريقِ كما هُوَ شأنُ الأئمّةِ المُجتَهدينَ في الأصولِ والفروعِ الشرعيّة، والأخلاقِ والصِّفاتِ القلبيّة، والأحوالِ والمَقاماتِ الحقيقيّة. انتهىٰ.

ـ التصوُّفُ حُسْنُ الخُلُق:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عليُّ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفعَ اللّهُ به، في كتابِهِ «القِرطاسِ» عندَ ذِكْرِهِ معنىٰ التصوُّفِ قال: وحقيقتُهُ في أمرَينِ وهما: سلامةُ الصّدرِ وسخاوةُ النفْس. ما نالَ الأولياءُ ما نالوهُ بكثرةِ صلاةٍ ولا صيام، وإنّما نالوهُ بسلامةِ الصّدورِ وسَخاوةِ النفوس.

ومِلاكُهُ ـ يعني التصوُّف ـ في أمرٍ واحدٍ وهُوَ حُسنُ الخُلُق. وقد قالوا: التصوفُ كلُّهُ خُلُقٌ حسَن، فمَن زادَ عليكَ في حُسنِ الخلُقِ زادَ عليكَ في التصوُّف. وحُسنُ الخلُقِ مجموعٌ في ثلاثةِ أشياءَ وهِيَ: كفُّ الأذىٰ، وبذْلُ النّدىٰ، وطلاقةُ الوجْه. انتهىٰ.

ثم نُقِلَ عن سيّدِ الطائفةِ الجُنَيدِ بنِ محمّدٍ رحِمَهُ اللّهُ أنهُ قال: مَبنىٰ التصوُّفِ علىٰ أخلاقٍ ثمانيةٍ تخلَّقَ بها منَ الأنبياءِ ثمانية، وهِيَ: السَّخاءُ لإبراهيم، والرِّضىٰ لإسحاق، والصّبرُ لأيّوب، والإشارةُ لزكريّا، والغُربةُ ليحيىٰ، ولُبسُ الصوفِ لموسىٰ، والسّياحةُ لعيسىٰ، والفقرُ لمحمّدٍ صلّىٰ اللّهُ عليهِ وعليهِم وسلَّم. انتهىٰ.

وقالَ الجُنَيدُ أيضاً: أربعٌ تَرفَعُ العبدَ إلىٰ أعلىٰ الدَّرجاتِ وإنْ قلَّ عمَلُهُ وعِلمُه: الحِلمُ والتواضُع والسَّخاءُ وحُسنُ الخلُق. انتهىٰ.

ـ التصوُّف: وِجْهةٌ إلىٰ الحقّ، ووِجْهةٌ إلىٰ الخَلْق:

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّه: اعلَمْ أنّ التصوُّفَ لهُ خَصلتان: الاستقامةُ معَ اللّهِ والسُّكونُ معَ الخلْق، فمَنِ استقامَ معَ اللّه، وأحسَنَ خُلُقَهُ بالنّاسِ وعامَلَهم بالحِلْمِ فهُوَ صُوفيّ. والاستقامةُ معَ اللّه: أن يَفديَ حظَّ نفْسِهِ لنفْسِ غيرِه، وحُسنُ الخلُقِ بالناسِ: أن لا تحمِلَ الناسَ علىٰ مُرادِ نفْسِكَ بل تحمِلُ نفْسَكَ علىٰ مُرادِهم ما لم يُخالفوا الشّرع. انتهىٰ.

قالَ معروفٌ الكَرْخِيُّ[١] رحِمَهُ اللّه: التصوّفُ: الأخذُ بالحقائق، والإياسُ ممّا في أيدي الخلائق. قالَ الشيخُ زكريّا الأنصاريُّ نفَعَ اللّهُ به في «شرحِ الرسالة»: لأنَّ مَن عرَفَ اللّهَ تعالىٰ وعلِمَ أنْ لا ضارَّ ولا نافعَ ولا مُعطيَ ولا مانعَ غيرُه، واشتغَلَ بما يقرّبُهُ منَ الحقائق، فيلزَمُ مِن ذلكَ الإياسُ ممّا في أيدي الخلائق، حتىٰ لا يعتمِدَ إلا علىٰ اللّهِ تعالىٰ.

ـ الطّريقة:

قالَ سيّدُنا القطبُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّاد في «تثبيتِ الفؤاد»: طرُقُ التصوّفِ ـ وإن تعدّدَتْ ـ فهِيَ طريقةٌ واحدة، وهِيَ مُجاهَدةُ النفْسِ والخروجُ مِن كلِّ ما تدعو إليه، وهذا أمرٌ عَسِر. انتهىٰ.

وقالَ الشيخُ أبو الحسَنِ الشاذِليُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ: ليستِ الطريقةُ بالرَّهبانيّةِ ولا بأكْلِ الشعيرِ والنّخالة، وإنّما هِيَ بالصّبرِ واليقينِ والهداية: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ

---

(١) عَلَم الزهّاد، بركة عصره، أبو محفوظ معروف الكرخي البغدادي (ت٢٠٠هـ). قال إبراهيم الحربي: «قبرُ معروفٍ الترياقُ المجرَّب»، أي: في إجابة الدعاء عنده.

أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. انتهىٰ.

ـــ وممّا قِيلَ في التصوُّف:

قالَ الشيخُ الإمامُ السُّهرَوَرْدِيُّ رحِمَهُ اللّه: التصوُّفُ أوّلُهُ عِلم، وأوسَطُهُ عمَل، وآخرُهُ موهِبة. فالعِلمُ يكشِفُ عنِ المُراد، والعمَلُ يُعِينُ علىٰ الطلَب، والمَوهِبةُ تُبلِغُ غايةَ الأمل. انتهىٰ. نقَلَه في «القِرطاس».

وقالَ بعضُ الأئمّة: إنّما التصوّفُ عِلمُ الحالِ لا عِلمُ المَقال، وهُوَ أن يتحلّىٰ بمحاسنِ الأخلاقِ التي ورَدَتْ بها السُّنَنُ النبويّة. ولهذا قالوا: التصوّفُ: ارتكابُ كلِّ خلُقٍ سَنِيّ واجتنابُ كلِّ خُلُقٍ دَنيّ. ألا ترىٰ أنّ بعضَهم امتَنَعَ عن أكلِ البِطّيخ لأنهُ لم يثبُتْ عندَهُ كيفيةُ أكلِهِ عنهُ ﷺ وإن ثبَتَ أصلُ أكلِهِ له؟ انتهىٰ، أو كما قال. ذكره في «المَشْرعِ الروِي».

وقالَ الجُنَيدُ بنُ محمّدٍ رحِمَهُ اللّه: ما أخَذْنا التصوّفَ عنِ القِيلِ والقال، ولكنْ عنِ الجُوعِ والسهَرِ وترْكِ الدنيا وقطعِ المألوفاتِ والمُستَحسَنات. انتهىٰ.

❊ ❊ ❊

الفصل التاسع
في أحب الأعمال إلى الله

ـــ الصّلاة:

عن عبدِ اللّه بنِ مسعودٍ رضِيَ اللّهُ عنه، قال: سألتُ رسولَ اللّهِ ﷺ: أيُّ العمَلِ أفضَلِ؟ قال: «الصّلاةُ لِوقْتِها»، قال: قلتُ: ثم أيّ؟ قالَ: «بِرُّ الوالدَيْن»، قال: قُلتُ: ثُم أيّ؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ اللّه»[١].

قالَ الإمامُ النوَويُّ رحِمَهُ اللّهُ في «شرحِ المُهذَّب»: المَذهَبُ الصّحيحُ المشهورُ أنّ الصلاةَ أفضَلُ منَ الصّومِ وسائرِ عباداتِ البدَن.

وقالَ صاحبُ «المُستَظْهِرِيّ»[٢]: اختُلِفَ في الصّلاةِ والصّوم، وأيُّهما أفضَل؟ فقالَ قوم: الصّلاةُ أفضَل، وقالَ آخرون: الصّلاةُ بمكّةَ أفضَل والصّومُ بالمدينةِ أفضَل، والأوّلُ أصَحّ. ثمّ قال: وأمّا الدليلُ لترجيحِ الصّلاةِ فأحاديثُ كثيرةٌ في «الصّحيحِ» مشهورة، منها: حديثُ ابنِ مسعودٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧٠)، ومسلمٌ (٨٥)، من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه.

(٢) وهو الإمام العلّامة الفقيه الكبير، شيخ الشافعية، فخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد الشاشي (٤٢٩ ــ ٥٠٧هـ)، تلميذ أبي إسحاق الشيرازي وابن الصبّاغ صاحب «الشامل» وغيرهما. انتهت إليه رئاسة المذهب وتخرّج به الأصحاب. وكتابه «المستظهري» هو: «حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء»، مطبوع.

سألتُ رسولَ اللّهِ ﷺ: أيُّ العمَلِ أحَبُّ إلىٰ اللّه ـ وفي رواية: أفضَل؟ ـ فقال: «الصَّلاةُ لوقتِها»[١].

وعنه أنّ رجلاً أصابَ منَ امرأةٍ قُبلة، فأتىٰ النبيَّ ﷺ فأخبرَه، فأنزَل اللّه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود: ١١٤]، فقال الرّجل: أَلِي هذا يا رسولَ اللّه؟ قال: «لِجميعِ أُمتي»[٢].

وعن أبي هريرةَ رضيَ اللّهُ عنه أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «أرأيتُم لو أنّ نهَراً ببابِ أحَدِكُم يغتَسِلُ منهُ كلَّ يومٍ خمسَ مرّات، هل يبقىٰ مِن درَنِه شيء؟» قالوا: لا يبقىٰ مِن دَرَنِـهِ شيء. قال: «فذلكَ مثَلُ الصّلواتِ الخمس، يَمْحو اللّهُ بهنَّ الخطايا»[٣].

وقال ﷺ: «استَقيموا ولن تُحْصوا، واعلَمُوا أنّ خيرَ أعمالِكُمُ الصّلاة، ولا يُحافِظُ علىٰ الوُضوءِ إلا مؤمن»[٤].

ويُستدَلُّ أيضاً بترجيحِ الصّلاةِ كونُها تجمَعُ العباداتِ منَ الطهارةِ والقراءةِ وذِكْرِ اللّهِ تعـالىٰ وغيرِ ذلك، ولأنهُ يُقتَـلُ بتَرْكِهـا، بخـلافِ غيرِها، ولأنّها لا تسقُطُ في حالٍ منَ الأحوالِ ما دامَ مُكلَّفاً إلاّ في حقِّ الحائض، واللّهُ أعلَم.

ـ مِن فوائدِ الصّلاة:

قالَ ابنُ القيِّم في «زادِ المَعادِ» عندَ ذِكْرِ فوائدِ الصّلاةِ ما نصُّه: والصلاةُ مَجلَبَةٌ للرّزقِ، حافِظَةٌ للصّحة، دافعةٌ للأذىٰ، مَطرَدةٌ للأدواء، مُقَوّيةٌ للقلبِ،

---

(١) تقدم قريباً جداً.

(٢) أخرجـه البخاري (٥٢٦)، ومسلمٌ (٢٧٦٣)، من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلمٌ (٦٦٧)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧)، وأحمد (٥: ٢٧٦)، من حديث ثوبان رضيَ اللّه عنه.

مُبيِّضةٌ للوجه، مَفرَحةٌ للنفْس، مَذهَبةٌ للكسَل، مَنشَطةٌ للجَوارح، مُمِدّةٌ للقُوىٰ، شارِحةٌ للصّدر، مُغذِّيةٌ للرُّوح، مُنوِّرةٌ للقلب، حافظةٌ للنِّعمة، دافعةٌ للنِّقمة، جالبةٌ للبَرَكة، مُبعِدةٌ للشيطان، مُقرِّبةٌ للرّحمن.

وبالجُملة، فلها تأثيرٌ عجيبٌ في حفظِ صحّةِ البَدنِ والقلبِ وقُواهُما ودفعِ المَوادِّ الرديئةِ عنهُما، وما ابتُليَ رجُلانِ بعاهةٍ أو داءٍ أو مِحنةٍ أو بَليةٍ إلاّ كانَ حظُّ المُصلّي منهُما أقلّ، وعاقبتُهُ أسلَم. انتهىٰ.

قالَ الحبيبُ العارفُ بالله، عبدُ اللّهِ بنُ مُحسِنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: غالبُ فُتوحِ العَلَويّينَ في الصّلاةِ وراثةٌ مِن جدِّهِمُ الأعظمِ ﷺ، كما قال: «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيني في الصَّلاة»[1]، فهِيَ أفضَلُ الأعمال، وفيها فوائدُ عظيمةٌ حتىٰ للجِسم، فهِيَ رياضةٌ رُوحيةٌ وجِسميّة. انتهىٰ من «مجموعِ» كلامِه.

وقالَ عبدُ اللّهِ بنُ مسعودٍ رضِيَ اللّهُ عنه: ما دُمتَ في الصَّلاةِ فأنتَ تقرَعُ بابَ المَلِك، ومَن قرَعَ بابَ المَلِكِ يُفتَحُ له. وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ كثيرَ الصّلاةِ قليلَ الصّوم، فقيلَ لهُ في ذلكَ فقال: إنّي إذا صُمتُ ضعُفتُ عنِ الصّلاة، والصّلاةُ عندي أهمّ.

ــــ تلاوةُ القرآن:

قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أفضَلُ عِبادةِ أُمّتي قِراءةُ القرآن»[2].

وحُكِيَ عنِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رحِمَهُ اللّهُ قال: رأيتُ ربَّ العزَّةِ في المنام، فقلت: يا ربّ، ما أفضَلُ ما تقرَّبَ بهِ المُتقرِّبونَ إليك؟ قال: بكلامي يا

---

(١) تقدّم تخريجُه.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشُّعَب» (٢: ٣٥٤)، من حديث النعمان بن بشير رضيَ الله عنه.

أحمد، فقلت: بفَهْمٍ أو بغيرِ فهْم؟ قال: بفهْمٍ وبغيرِ فهْم.

قالَ الإمامُ الحافظُ أبو عمرٍو ابنُ الصّلاحِ[١] في «فتاويه»: قراءةُ القرآنِ كرامةٌ أكرَمَ اللّهُ بها البشَر، فقد ورَدَ أنّ الملائكةَ لم يُعطَوا ذلك، وأنّها حريصةٌ لذلكَ علىٰ استماعِهِ منَ الإنس. انتهىٰ. من «الإتقان».

قال سيِّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه في بعضِ قصائدِه:

واتلُ القُرَانَ بقلبٍ حاضرٍ وَجِلٍ ... علىٰ الدَّوامِ ولا تذهَلْ ولا تَغبِ
فإنّ فيهِ الهُدىٰ والعِلمَ فيهِ معاً ... والنورَ والفتْحَ أعني الكشْفَ للحُجُبِ

وقالَ في قصيدةٍ أخرىٰ:

وواظِبْ علىٰ درْسِ القُرَانِ فإنَّ في ... تِلاوَتِهِ الإكْسيرَ والشَّرحَ للصّدرِ
الا إنّهُ البحرُ المُحيطُ وغيرُهُ ... منَ الكتْبِ أنهارٌ تُمَدُّ منَ البحرِ
تدبَّرْ معانِيهِ ورتِّلْهُ خاشعاً ... تفوزُ منَ الأسرارِ بالكَنْزِ والذُّخرِ

* * *

رُوِيَ عنِ ابنِ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُما قالَ: القرآنُ ألفُ ألفِ حرفٍ وسبعةٌ وعشرونَ ألفَ حرف، فمَن قرأَ القرآنَ فلهُ بكلِّ حرفٍ زوجةٌ منَ الحُورِ العِين. انتهىٰ.

* * *

(١) الإمام الحافظ الفقيه المتفنن أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمٰن الشهرزوري الكردي، المعروف بابن الصلاح (٥٧٧ ــ ٦٤٣هـ)، أحد أئمة المسلمين علماً وديناً. له المقدمة الشهيرة في علوم الحديث المعروفة بـ«مقدمة ابن الصلاح»، و«شرح الوسيط»، و«فتاوىٰ»، و«أدب المفتي والمستفتي»، وغيرها. قبره بدمشق.

فائدة:

جاءَ في الأثر: «إنّ مَن قرأَ القرآنَ قائماً في الصّلاةِ كانَ لهُ بكلِّ حرفٍ مئةُ حسَنـة، وإن كانَ قاعداً خمسُون، وإن كانَ في غيـرِ صلاةٍ علـىٰ طهارةٍ خمسٌ وعِشرون، وإن كانَ علىٰ غيرِ طهارةٍ عشرُ حسَنات».

وجـاء في أثرٍ آخر: «مَن قرَأَ القرآنَ وهُوَ يعلَمُ لِمَ رُفِـعَ ولِمَ نُصِبَ كان لهُ بكلِّ حـرفٍ سبعُمئةِ حسَنة»[١]. هذا لمَن قرأَ في غيرِ الصّلاة، وإذا صلّىٰ قائماً فلَـهُ مئـةُ حسَنـةٍ كما تقدَّمَ في المَراتـب، فيَضرِبُ السبعَمئـةِ في المئـةِ فيكـونُ حاصِلُهما سبعينَ ألفاً.

ــ الذِّكرُ:

عن أبـي الدّرداءِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قـال: قـالَ رسـولُ اللّهِ ﷺ: «ألا أُنبِّئُكُم بخيرِ أعمالِكُم، وأزكاها عندَ مليكِكُم، وأرفَعِها في درَجاتِكُم، وخَيرٍ لكُم مِن إعطـاءِ الذّهَـبِ والوَرِق، وخَيرٍ لكُـم مِن أن تَلْقَـوا عدوَّكُـم فتضرِبوا أعناقَهُم ويضرِبوا أعناقَكم؟» قالوا: وما ذاكَ يا رسولَ اللّه؟ قالَ: «ذِكْرُ اللّه عزَّ وجلّ»، فقالَ معاذُ بنُ جَبَلٍ رضيَ اللّهُ عنه: ما شيءٌ أنْجىٰ مِنْ عذابِ اللّهِ مِنْ ذكر اللّه[٢].

قيلَ لسلمانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: أيُّ الأعمالِ أفضَل؟ فقال: أمَا تقرَأُ القرآن: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؟ قيـلَ: معنـاهُ: ولَذِكْرُ اللّهِ تعالىٰ إيّاكُم أكبـرُ مِن ذكرِكـم إيّاهُ. وهذا يُروىٰ عنِ ابنِ عباس. وقـالَ ابنُ زَيـدٍ[٣] وقَتادةُ:

---

(١) لم نقف علىٰ هذا الأثر والذي قبله أو قائلهما فيما بين أيدينا من مصادر.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (٥: ١٩٥)، والحاكم في «المستدرك» (١: ٤٩٦) وصحّحه، كلُّهم من حديث أبي الدرداء رضيَ اللّه عنه.

(٣) كذا في الأصل المنقول منه، ولعله أبو زيد، أي: الأنصاري سعيـد بن أوس بن ثابت (١١٩ ــ ٢١٥هـ)، أحـد أئمة اللغة والأدب.

معناه: ولذِكْرُ اللّهِ أكبرُ مِن كلِّ شيء.

وذكَرَ ابنُ أبي الدُّنيا[١] عنِ ابنِ عباسٍ أنهُ سُئل: أيُّ العمَلِ أفضَل؟ قال: ذِكْرُ اللّه.

وذَكَرَ ابنُ أبي الدّنيا حديثاً مرسَلاً أنّ النبيَّ ﷺ سُئل: أيُّ أهلِ المسجدِ خير؟ قال: «أكثرُهُم ذِكراً للّهِ عزَّ وجلّ»، قيل: أيُّ الجنازةِ خير؟ قال: أكثرُهُم ذِكراً للّهِ عَزَّ وجَلّ»، قيل: فأيُّ المجاهدِينَ خير؟ قال: «أكثرُهم ذِكراً للّهِ عزَّ وجَلّ»، قيل: فأيُّ الحُجّاجِ خير؟ قال: «أكثرُهُم ذِكراً للّهِ عَزَّ وجَلّ»، قيل: وأيُّ العُبّادِ خير؟ قال: «أكثرُهُم ذِكراً للّهِ عَزَّ وجَلّ».

قال أبو بكرٍ رضِيَ اللّهُ عنه: ذهَبَ الذّاكرونَ بالخيرِ كلِّه.

وقالَ عُبيدُ بنُ عُمَيرٍ[٢] رحِمَهُ اللّه: إنْ أعْظَمَكُم هذا اللّيلُ أنْ تُكابِدُوه، وبَخِلتُم علىٰ المالِ أن تُنفِقوه، وجبُنتُم عنِ العدوِّ أن تُقاتلوه؛ فأكثِروا مِن ذِكرِ اللّهِ عزَّ وجَلّ. انتهىٰ منقولاً منَ «الكَلِمِ الطيّبِ» لابنِ القيّم.

قالَ سيّدُنا الإمامُ القطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحّدادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ شِعراً:

واذكُرْ إلٰهَكَ ذكْراً لا تُفارِقُهُ ... فإنّما الذِّكرُ كالسُّلطانِ في القُرَبِ

---

(١) المحدِّث عبد اللّه بن محمد بن عُبَيد القرشي مولاهم، البغدادي المعروف بابن أبي الدنيا (٢٠٨ ـ ٢٨١هـ). صاحب التصانيف الكثيرة السائرة، ومؤدِّب أبناء الخلفاء. كان متوسِّعاً في العلم والأخبار حتىٰ قيل: إذا جالس أحداً إن شاء أضحكه وإن شاء أبكاه في آنٍ واحد، لاتساع محفوظه.

(٢) عُبيد بن عمير الليثي المكي (ت ٧٤هـ)، الواعظ المفسِّر، من ثقات التابعين وأئمتهم بمكة، وكان يذكّر الناس فيحضر ابنُ عمر رضيَ اللّه عنهما مجلسَه. وهو أول من قَصَّ، وذلك علىٰ عهد عمر رضيَ اللّه عنه.

وقالَ في قصيدتِهِ العَينيّة:

والـذِّكـرَ لازِمْـهُ وواظِبْـهُ علـىٰ ... مرِّ الزمـانِ مَعَ الحُضُـورِ الأجمَعِ
فهْـوَ الغِـذاءُ لكـلِّ قلـبٍ مُهْتـدٍ ... وهْـوَ الـدَّواءُ لكـلِّ قلـبٍ مُوجَعِ

عن مُعاذِ بنِ جبلٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: آخرُ كلمةٍ فارقْتُ عليها رسولَ اللّهِ ﷺ، قلـتُ: يا رسولَ اللّه، أخْبِـرْني بأحَبِّ الأعمالِ إلىٰ اللّهِ عَزَّ وجَلّ، قال: «أنْ تَموتَ ولِسانُكَ رَطْبٌ مِن ذِكْرِ اللّهِ عَزَّ وجَلّ»[1].

ـ الدُّعاء:

عن أبي هريرةَ رضـيَ اللّهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: «ليسَ شيءٌ أكرمَ علىٰ اللّهِ منَ الدُّعاء»[2].

كانَ سيّدُنا أحمـدُ بنُ زَينٍ الحبَشيُّ نفعَ اللّهُ بهِ يُعظِّمُ شأنَ الدُّعاءِ فيقول: إنـهُ رُوحُ العباداتِ ومقصـودُها. ويقول: لو لم يكُنْ للدّاعـي إلا أنـهُ ذكَرَ اللّهَ تعـالىٰ، هذا إذا لم يظهَـرْ لـهُ أثرُ الإجابـةِ وحصـولُ التلذُّذِ بمُناجاةِ اللّهِ تعـالىٰ والتملُّقِ بينَ يدَيهِ ووجودِ الافتقارِ والانكسار، إلـى غيرِ ذلكَ مِن: وجودِ الرقّةِ والخشوعِ، وتنويرِ القلبِ وصفائه، وتهيُّئِهِ لنزولِ الأسرارِ والأنوار، لكانَ ذلكَ أعظَمَ منَ الإجابة، وأينَ ذلكَ مِن حصولِ الحاجةِ المطلوبةِ بالدُّعاء؟

قال: ويكونُ ذلكَ بمثابةِ موسىٰ عليهِ السلام، جاءَ لطلبِ قبَسٍ أو جَذوةٍ

(١) أخرجه ابن حبّان في «صحيحه» (٣: ٩٩ ــ ١٠٠ برقم ٨١٨)، وابن السُّنّي في «عمل اليوم والليلة» (٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٠: ١٠٧ برقم ٢١٢)، وغيرهم. وهو حديثٌ حسن. ويُنظر «مجمع الزوائد» (١٠: ٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢: ٣٦٢)، والترمذي (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وغيرهم.

منَ النّار للاصطِلاء، فوجَدَ النُّور، هذا هو الثوابُ المحبُوبُ الحَظِيُّ عندَ ربِّه، جاءَ لطلبِ النار، فوجَدَ النُّور!

قال: فإذا كانَ الحالُ هذا فلا ينبغي للداعي أن يمَلَّ الدُّعاءَ ويترُكَهُ لعدَمِ ظهورِ أثرِ الإجابةِ عليهِ في العاجل، وقد حصَلَ علىٰ الفوائدِ والعوائدِ التي أشَرْنا إليها معَ رجاءِ الثوابِ في الدارِ الآخرةِ، ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٧]، ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]. انتهىٰ ملخَّصاً من «قُرّة العين» مع حذفٍ يسير.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ محمّدُ بنُ زَينِ بنِ سُمَيط: إنّ الفيضَ والجُودَ الإلٰهيَّ قد يكونُ بَغْتةً ومُفاجَأةً كما حصَلَ لسائرِ الأنبياءِ عليهِمُ السّلامُ وأهلِ الجَذَباتِ الربّانيةِ مِن خُصُوصِ الأولياء، وقد يكونُ ذلكَ بسابقةِ عمَلٍ وتهيئةِ محَلٍّ وصحّةِ استعداد، وهُوَ الأغلَبُ والأكثر. بذلكَ جرَتْ عادةُ اللّهِ وسنّتُه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ومن العمَلِ والتهيئةِ والاستِعداد: التوجّهُ إلىٰ اللّهِ بالدعاءِ بكُليّةِ القلبِ معَ كمالِ الأدب، ووُفورِ حُسنِ الظنّ، وعِظَمِ الرّغبةِ فيما عندَه، وقوةِ العزم في الطّلبِ وجزْمِ المسألة. ولا يَستبطِئُ الإجابة، ويرجو الإجابةَ بمَحضِ الفَضْلِ والكرَمِ لا باستحقاقٍ بعمَلٍ ولا سببٍ من جهةِ الداعي، ورؤيةِ أنّ جميعَ ما يطلُبُهُ العبدُ وفَوقَه ممّا لا عينٌ رأتْ ولا أذُنٌ سمِعَتْ ولا خطَرَ علىٰ قلبِ بشَر، حاضرٌ عندَهُ وموجودٌ علىٰ الدَّوامِ وأضعافَ أضعافِ ذلكَ إلىٰ ما لا نهايةَ له، ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي . . .﴾ الآية [الكهف: ١٠٩]. غيرَ أنهُ سبحانَهُ حكيم، يضَعُ كلَّ شيءٍ في مَوضِعِه، فكذلكَ لا يُنزِلُهُ إلاّ بقَدَرٍ معلوم. ومَن أُعطِيَ الدّعاءَ فقد أُعطِيَ الإجابة. قالَ الشاعر:

لو لم تُرِدْ نيلَ ما أَرجو وأَطلُبُهُ ... مِن فيضِ جُودِكَ ما ألهمْتَني الطّلَبا

قالَ سيّدُنا الإمـامُ عليُّ بنُ أبي بكـرٍ السّكرانُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «مَعارجِ الهداية»: اِعلَمْ يا أخي أنّ الدعاءَ بالمغفِـرةِ أفضَلُ الأدعِية، وينبغي إذا دعَوتَ بهـا أو بغيـرِها أن تعُـمَّ ولا تخُـصَّ نفْسَـك. روىٰ المُستغفِـريُّ فـي «دعَواتِـهِ» مرفـوعاً: «ما مِن دُعاءٍ أحَـبُّ إلىٰ اللّهِ تعـالى مِن قولِ العبْدِ: اللّهُمَّ اغفِرْ لأُمّـةِ محمّـدٍ رحمةً عامّة»[1]. وعن أبي بَرْزة: أنّهُ عليـهِ الصّلاةُ والسّـلامُ سَمِعَ رجلاً يقـول: اللّهُمَّ اغفِرْ لي، فقال له: «وَيحَك! لو عَمَّمْتَ لاستُجيـبَ لك». وعن عمرِو بنِ شُعيب: أنّهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ خرَجَ منَ الصّلاةِ وعمرُ رَضِيَ اللّهُ عنهُ يدعو، فقال: اللّهُمَّ اغفِرْ لي وارحَمْني، فضَرَبَ مَنْكِبَيهِ ثمَّ قال: «عَمِّمْ في دُعائك، فإنّ بينَ الدُّعاءِ العامِّ والخاصِّ كما بينَ السّماءِ والأرض»[2].

فقد ظهَرَ أنّ الدعاءَ العامَّ فضيلتُهُ عظيمةٌ ومنزِلتُهُ شريفة، وهُوَ أقربُ إلىٰ الإجابة. انتهىٰ.

فائدة:

قـالَ عـوْنُ بنُ عبدِ اللّهِ بنِ عُتبـة: اجعَلـوا حوائجَكُـمُ التـي تُهِمُّكـم في الفـريضة، فـإنّ الـدُّعـاءَ فيها فضلُـهُ كفضلِهـا علـىٰ النافلـة. وعـن عُمـرَ بنِ عبدِ العزيز، يَرفَعُـهُ إلىٰ رسُولِ اللّهِ ﷺ: «بارَكَ اللّهُ لرجُلٍ في حاجةٍ أكثَـرَ فيها الدُّعاءَ أُعْطِيَها أو مُنِعَها»[3].

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٤ : ٣١٣)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه. قال الحافظ الذهبي في «الميزان» (٢ : ٥٩٧): كأنه موضوع. وعدَّه ابنُ عدي منكراً.

(٢) هذا الحديث والذي قبله لم نقف عليهما فيما بين أيدينا من المصادر الحديثية.

(٣) أخرجه البيهقـي في «شُعَب الإيمان» (٢ : ٥٠)، من حديث جابر بن عبد اللّه رضيَ اللّه عنه.

ومـرَّ رضِيَ اللّهُ عنهُ برجُلٍ في يدِهِ حَصـاةٌ يلعَـبُ بهـا وهُوَ يقول: اللّهُمَّ زوِّجْنـي منَ الحُـورِ العيـن، فقـال: بئـسَ الخاطِبُ أنت! ألا ألقيـتَ الحَصـاةَ وأخلَصْتَ إلىٰ اللّهِ الدعاء؟ انتهىٰ.

تنبيه:

يُستحَبُّ أن يجتَهدَ المَرْءُ في العبادةِ في عشرِ ذي الحِجّة، وأن يتعرَّضَ لنفحـاتِ اللّهِ سبحانَه، لعلَّها تُصِيبُـهُ ويحظىٰ بها، ولقد وردَتْ أحاديثُ كثيرةٌ تحُـثُّ علىٰ العمَـلِ الصالحِ فـي عشرِ ذي الحِجّـة، فمِن ذلك: عنِ ابنِ عباسٍ رضِـيَ اللّهُ عنهُمـا قـال: قـالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما مِن أيـامٍ العمَلُ الصّالحُ فيها أحَبُّ إلىٰ اللّهِ عَزَّ وجَـلَّ مِن هذهِ الأيام»، يعني: أيـامَ العَشر، قالوا: يا رسولَ اللّه، ولا الجهـادُ في سبيـلِ اللّه؟ قال: «ولا الجهـادُ في سبيلِ اللّه، إلاّ رجلٌ خرَجَ بنفْسِهِ ومالِهِ ثمّ لم يَرجِعْ مِن ذلِكَ بشيء»[1].

وعن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «ما مِن أيامٍ أحَبُّ إلىٰ اللّهِ أن يُتَعَبَّدَ فيها مِن عشْـرِ ذي الحِجَّة: يَعْدِلُ صِيـامُ كلِّ يومٍ منها بصِيامِ سنة، وقيامُ كلِّ ليلةٍ منها بقيامِ ليلةِ القَدْر»[2].

فائدة:

ذَكَرَ الشيخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «الغُنية»: أنّ سيّدَنا الإمامَ عليَّ بنَ أبي طالبٍ كرَّمَ اللّهُ وجهَهُ كانَ يُفرِّغُ نفْسَهُ للعبادةِ في أربعِ ليالٍ

---

(١) أخرجه البخاري (٩٦٩)، والترمذي (٧٥٧)، واللفظ له من حديث ابن عبّاس رضيَ اللّه عنهما.

(٢) أخرجـه الترمذي (٧٥٨)، وابن ماجـه (١٧٢٨)، من حـديـث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

منَ السَّنـة، وهِيَ: أوّلُ ليلـةٍ مِن رجَـب، وليلتـا العيـدَين، وليلـةُ النِّصفِ مِن شعبان.

وكـانَ مِن دُعائِه فيهـا كرَّمَ اللّهُ وجهَه: «اللّهُـمَّ صلِّ علـىٰ سيّدِنـا محمّـدٍ وآلِهِ مَصابيحِ الحِكمـة، ومَوالـي النِّعمة، ومَعادِنِ العِصمة، واعصِمْني بهِم مِن كـلِّ سُوء، ولا تأخُـذْني علىٰ غِـرّةٍ ولا علىٰ غفْلة، ولا تجعَـلْ عواقـبَ أمري حسْـرةً ونَدامـة، وارضَ عنّي، فإنّ مَغفِرتَـكَ للظالميـن، وأنا مـنَ الظالمين. اللّهُمَّ اغفِرْ لي ما لا يضُـرُّك، وأعطِني ما لا ينفَعُك، فإنّكَ الواسِعةُ رحمتُـك، البديعةُ حِكمتُك، فأَعطِني السَّعةَ والدَّعةَ والأمنَ والصّحـة، والشكـرَ والمُعافاةَ والتقوىٰ، وأفرغِ الصّبرَ والصِّدقَ عليَّ وعلىٰ أوليائي فيك، وأَعطِني اليُسرَ ولا تجعَلْ معَهُ العُسْر، واعمُـمْ بذلكَ أهلي ووَلَـدَي وإخـواني فيـكَ ومَـن ولَدَني، مـنَ المسلميـنَ والمسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمنات». انتهىٰ.



الفصل العاشر
في عمل السلف الصالح من آل باعلوي وعاداتهم الحسنة

ــ الخيرُ كلُّه في اتّباعِ السَّلَف :

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَـنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه : الخيرُ في اتّباعِ السّلَفِ الصّالح والتزامِ ما حثُّوا عليهِ مِن عادةٍ وعبادةٍ وكتابٍ وخُلُقٍ وفعلٍ وترْكٍ ، وهُوَ مشروحٌ في كتُبِهِمُ الموضوعةِ بنيّةِ العمَلِ مِن فقهٍ وغيرِه ، ومنِ اتّبعَ السّلَفَ ما يغلَط ولا يتعَب .

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه : الشأنُ كلُّ الشأنِ في تقييدِ أعمالِ السّلَفِ وحِفظِ ما لهُم مِن الأخلاقِ المحمـودةِ والأعمالِ الصالحة ، ليقتَـديَ بهِم مَن بعدَهم ، لا جمْـعِ الكراماتِ ونحوِها . وأحوالُ السّلَفِ كلُّها نور : العادةُ والعبادة ؛ لأنّها تصدُرُ عن نيّاتٍ صالحةٍ ومقاصِدَ حسَنة . انتهىٰ .

وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنه : لنا ثلاثةُ مَيازيـن : ميـزانٌ للعِلمِ المُطلَق ، ومِيزانٌ للعِلـمِ المُقيَّـد ، وميزانٌ للعمَل . فالعِلمُ المُطلَقُ نجعَلُـهُ في صُدُورِنا ، والعِلمُ المُقيَّدُ نتقيَّدُ به ، وهُوَ مذهَبُ الإمامِ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ عنه ، وفي العمَلِ نختارُ ما ذهَبَ إليهِ السّلَفُ العَلَويونَ نفَعَنا اللّهُ بهِم . انتهىٰ .

قـالَ سيّـدُنا الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحـدّادُ رضِـيَ اللّهُ عنه : عاداتُ السّلَفِ أحسَنُ مِن عاداتِنا بل مِن سُنَنِنا ، وقد أسّسَ لنا سلَفُنا ــ يعني آلَ

باعَلَوي ــ الأمور، فلا نقتدي إلا بهِم. انتهىٰ.

ــ اتّباعُ السُّنةِ سرُّ أعمالِ السَّلَف:

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّٰهُ عنه: بالمتابَعةِ للسّلَفِ عن قريبٍ يرتقي الشخصُ إلىٰ مقام الكُمَّلِ منَ الرجال؛ لأنّ سِيَرَهُم علىٰ بِساطِ المُتابَعةِ لهُ ﷺ، ولم تكنْ لهُم نيّةٌ في حركاتِهم وسكَناتِهم إلاّ المُتابعةَ لهُ ﷺ.

وقالَ رضِيَ اللّٰهُ عنه: كلُّ عملٍ من أعمالِ سَلفِنا العَلَويينَ أجدُ لهُ دليلاً منَ السُّنةِ النبويّة. فعاداتُهم مُلحَقةٌ عندَنا بالعبادات، وإذا بلَغَني عنهُم عمَلٌ ليسَ لهُ دليلٌ لا أُسارِعُ إلىٰ إنكارِه، بل أبحثُ في كتُبِ السّنةِ حتىٰ أظفَرَ بدليلِهِ، وكنتُ متعجّباً مِن عمَلِهم في دخولِ الزَّوجِ علىٰ زوجتِهِ ليلةَ الزفافِ مِن كونِهِ في بيتِ أهلِها، حتىٰ وقفتُ في كتُبِ الحديثِ علىٰ بناءِ النبيِّ ﷺ بزوجتِهِ سيّدتِنا عائشةَ رضِيَ اللّٰهُ عنها في بيتِ أبيها الصدِّيقِ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ.

وقالَ رضِيَ اللّٰهُ عنه: سَلفُنا العَلَويونَ لا يضَعونَ العوائدَ إلا بِنيّاتٍ صالحة، فصارتِ العوائدُ ببرَكاتِ النيّاتِ عبادات، وما رأيتُ عملاً مِن أعمالِهم ولا مِن عاداتِهم إلا ولهُ أصلٌ ومُستنَدٌ في السُّنة. والذي لم يطّلعْ علىٰ السّنةِ يضيقُ خُلُقُهُ وعِلمُهُ ومَعلومُه. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّٰهُ عنه: السّلَفُ يقيّدونَ العمَلَ في المذاهِبِ بعمَلِهِ ﷺ، فإذا كانَ في المسألةِ قولانِ قَبِلُوهُما وعمِلوا بما استقرَّ عليهِ فعلُه ﷺ.

فمِن عاداتِهِمُ الحسَنةِ رضيَ اللّٰهُ عنهم في:

ــ تربيةِ الأولاد:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ نفَعَ اللّٰهُ به: إنّ مِن عادةِ

السلَفِ حمْلَ أولادِهمُ الصّغارِ إلىٰ حضرةِ الأكابرِ، ليُبَرِّكوا عليهم ويدعوا لهُم، ويعُدُّونَ ذلكَ مِن الأخذِ عنهُم، وهُوَ أخذُ تبرُّك، وإن كانَ نازلاً عنِ رُتبةِ الأخذِ التـام، ولكنّـهُ إذا كـانَ عن مشاهيـرِ الأكابـرِ، أو صـارَ الصبـيُّ بعـدَ ذلكَ مِن مشاهِيرِهم، فإنها تكونُ له مزيّة. انتهىٰ.

ومِن كلامِ نورِ الدِّينِ الحبيبِ عليِّ بنِ عبدِ الرحمنِ المشهورِ نفَعَ اللّهُ به: كـانَ السَّلَـفُ رِضـوانُ اللّهِ عنهُـم أوّلَ ما يعلِّمـونَ أولادَهـمُ الصّغـارَ بالنطـقِ بـ«رضِيـتُ باللّهِ ربّاً وبالإسـلام دينـاً وبمحمّدٍ ﷺ نبيّاً ورسـولاً». وهُوَ أوّلُ ما يجبُ علىٰ الإنسانِ كما قالَ صاحبُ «الزُّبَد»:

أوّلُ واجبٍ علىٰ الإنسانِ مَعـرِفـةُ الإلٰـهِ بـٱستِيقـانِ

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به: السَّلَفُ يُشمِّتُونَ الأولادَ الصِّغارَ بقولِهم: «بارَكَ اللّهُ فيك» إلىٰ سِنِّ البلوغ.

وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ السَّلَفُ يعلِّمونَ أولادَهمُ العمَلَ قبلَ العِلم، فإذا تعلَّمـوا العمَلَ علَّمُـوهُم العِلم، وقالوا لهم: هذا حقٌّ فالزَموهُ وهذا باطلٌ فاجتَنِبوه. وكانوا لا يُلبِسونَهمُ العِمامةَ إلا بعدَ أن يحفَظوا «بدايةَ الهداية» حِفْظَ إتقانٍ وعمَل.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عَلَوي بنُ محمّدِ بنِ طاهرٍ الحدّادُ نفَعَ اللّهُ به: سلَفُنا رِضـوانُ اللّهِ عليهِـم يعتَنـونَ ويهتمّـونَ بتربيةِ أولادِهـم قبـلَ تعليمِهـمُ العِلم، لِيَرْسَخوا علىٰ العمَلِ فيجـيءُ العِلمُ وقد صارَ الخيرُ والطاعةُ عادةً لهم، ولهذا كانوا يوقِظونَ أولادَهُمُ الصّغارَ آخِرَ اللّيلِ ليألَفوا قيامَ الليل.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: عادةُ السّلَفِ رِضوانُ اللّهِ عليهِم يُفرِّغونَ أولادَهم لطلـبِ العِلـمِ الشريفِ وتحصيلِـهِ إلىٰ أنْ يبلُغَ الولَدُ عشرينَ سنة، ثمّ يأمُرونَه بالتـدريسِ إلىٰ أن يبلُـغَ الأربعيـن، وبعـدَ ذلكَ يدَعُ التـدريـسَ ويُقبِـلُ علىٰ

الأعمالِ الصالحةِ والعبادة.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ سلَفُنا رِضوانُ اللّهِ عليهِم يُقدِّمونَ الأكبرَ سنّاً: في المْشـيِ وفي المجلِسِ وفي ترتيبِ الفاتحـةِ ونحـوِ ذلك، لا في نحوِ إمامةٍ وتدريسِ عِلم، فإنّهم يُقدِّمونَ مَن فيهِ أهليّةٌ وإن كانَ أصغَرَ سنّاً.

وقـالَ سيِّدُنـا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّـاسُ نفَعَ اللّهُ به: إنّ مِن قواعدِ السَّلَفِ أن لا يتقدّمَ الصِّغارُ علىٰ الكبارِ إلا في ثلاثةِ مَواضِع: في الإمامةِ إذا كانَ أهلاً، وفي التدريس، وفي الفتوىٰ. انتهىٰ.

وقالَ رضِـيَ اللّهُ عنه: كانَ السّلَـفُ مثـلَ: الحبيبِ أبي بكرٍ بنِ عبدِ اللّهِ العطّـاسِ والحبيـبِ صـالحِ بنِ عبدِ اللّهِ العطّـاس، يُصلُّـونَ خلـفَ تلامـذتِهم ويُقدِّمونَهم للصلاةِ في بعضِ الأحيان، ويُراعونَ حركاتِهم في الصلاة، فإن رأَوْا خَلَلاً أرشَدوهم.

ومِن عاداتِهم رضيَ اللّهُ عنهم في:

ـ بعضِ القضايا الاجتماعيّة:

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به: إنّ أهلَنا وسَلَفنا مِن عادتِهم يجعَلُونَ منزلاً خاصاً أو خزانةً خاصةً لأنفُسِهم لِيضَعوا فيها ما أرادوا منَ النّفقة، ولا يفتَحُها ولا يطّلعُ علىٰ ما فيها أحدٌ سَتْراً للحال، وقد تخلو بعضَ الأحيـانِ مِن كلِّ شيء، ولا يضَعـونَ المِفتـاحَ مِن أيديهِـم، وتحـتَ ذلكَ سرٌّ وحِكمة.

وقالَ رضيَ اللّهُ عنه: عادةُ السَّلَفِ الصالحِ أنهم يَصرِفونَ ثُلُثَ أموالِهم في حَرْثِ الأرض، وثُلُثَها فيما يُكرِمُونَ به، وثُلُثَها فيما يأكلونَه.

وقـالَ رضيَ اللّهُ عنه: عادةُ أغنيـاءِ أسلافِنـا أن لا يمنَعـوا زواجَ بناتِهم

للفقراءِ منهُم، مثلَ الحبيبِ مُحسنِ بنِ حسَينِ بنِ عمرَ العطّاسِ والحبيبِ أحمدَ ابنِ محمّدٍ المحضار، ثم هُم ينفِقونَ عليهنَّ وعلىٰ أزواجِهنّ.

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: مِن عادةِ السّلَفِ أنهُم لا يُعزِّرونَ الشريفَ إذا فعلَ ما يُوجِبُ التعزير. ولا يضرِبونَ الزّوجةَ إذا فَعَلَتْ ما يوجبُ ذلك، ولا يعمَلونَ بفَسْخِ النِّكاحِ إذا حصَلَ ما يُجوِّزُ ذلك، وإن كانَ مقرَّراً في الشرعِ فهُم يقرِّرونَهُ ولا يفعَلونه. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ السَّلَفُ يُرتِّبونَ أوقاتَهُم: فوقتٌ يذكُرونَ اللّهَ فيهِ في الجبالِ والمَواضعِ الخالية، ووقتٌ يصرِفونَهُ في طلَبِ الحلالِ والسَّعيِ وراءَ ما يُعينُهم علىٰ آخِرتِهم، ووقتٌ في تأنيسِهم أهلَهم وغيرَهم.

قالَ سيّدُنا الحبيبُ عبدُ الباري بنُ شيخِ العَيْدروسُ[1] نفَعَ اللّهُ به: كانَ أهلُنا يُعظِّمونَ خَتْمَ القرآن، ويفعَلونَ ضيافةً لأهلِ البلدِ كضيافةِ العُرس مِن: رُزٍّ وهَريسٍ ولحْم. قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، والقرآنُ منَ الشعائر.

ومِن عاداتِهم رضيَ اللّهُ عنهُم في:

ـ تعَلُّمِ العِلْمِ وتعليمِه:

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: سلَفُنا يأخذونَ مِن كلِّ فنٍّ أيسَرَهُ وأخْصَرَهُ وأحسَنَهُ وأجمَلَهُ وأكمَلَه، ولهُم يدٌ في كلِّ شيء، في الفِقهِ والنحوِ والأدبِ وغيرِ ذلك، وإنّما لهُم في كلِّ فنٍّ كتُبٌ

---

(١) السيد الشريف، الولي الصالح، الحبيب عبد الباري بن شيخ بن عيدروس العيدروس، مولده بتريم وبها وفاته سنة (١٣٥٧هـ)، جمع بعض تلامذته شيئاً من مواعظه وكلامه في مجلد.

مخصـوصةٌ يقـرَأونَهـا، فمِـن فـنِّ النّحوِ: كتـبُ ابنِ هشـام، وفـي التفسيـر: «البَغَويّ»، وفي الأدبِ: «المقامات»، وفي الفِقهِ: كتُبُ الغزاليِّ وأبي إسحاقَ الشيـرازي، وفـي التصوُّفِ: «الإحيـاءُ» و«القُـوتُ» و«العـوارفُ» و«الرسالةُ» و«شرحُ الحِكَم» و«الأربعينَ الأصل». ومن باقي العلومِ ما يُقوِّمُ ألسِنَتَهم ويرفَعُ عنهُم سَماجةَ الطّبع.

وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنه: السّلفُ أهلُ حضرَمَوتَ ما يشتغلونَ ويعتَنونَ إلا بأربعةٍ منَ العلـوم: التفسيرِ والحديثِ والفقـهِ والتصـوّف، ومنَ النحـوِ بقدْرِ الحاجـة، ومنَ الأدب: «المَقامـاتُ» ونحوُهـا. والعِلمُ صناعةٌ يُحسِنُهـا البَرُّ والفاجر، والعمَلُ الصالحُ لا يُحسِنُهُ إلا الرجلُ الصالح.

لذا قالَ رضِيَ اللّهُ عنه في موضعٍ آخَر: كـانَ السَّلَفُ يُقدِّمونَ العمَلَ علىٰ العِلـم، ويجعَلـونَ العِلمَ حارساً يحرُسُهم لئلاّ يميلـوا، وأما غيرُهم فيقدِّمون العلم، والعملُ عندَهم برَكة، ما جاءَ منه يكفي.

وقال رضيَ اللّهُ عنه: من عاداتِ السّلفِ أنهم لا يخوضونَ في الفُضُول، ولا فـي الذي لـم تدْعُ الحاجةُ إليه، معَ التحفُّـظِ ممّا يُزيـغُ القلبَ عـنِ اعتقادِ الحقّ.

وقالَ أيضاً رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ مِن عادةِ السّلَفِ إذا ابتدأَ طالبُ العُلمِ في الطَّلَـبِ يأمرونَهُ بالقراءةِ في الكُتُبِ المُختصَرةِ السّهلةِ الجامعةِ للعِلمِ والعمَل، مثلَ: «الحِلية» لبَحْرَق و«بدايةِ الهدايةِ» وما أشبهَ ذلك، وإذا مرَّ علىٰ ذِكْرٍ نَبويٍّ يأمرونَهُ بحِفظِـهِ ويستعيـدونَ قراءتَهُ منهُ بعدَ أن يحفَظَه، هكذا كانوا رضِيَ اللّهُ عنهـم. والآنَ يمُرُّ الطالـبُ علىٰ الكتابِ مِن أوّلِهِ إلىٰ آخِـرِه ولا يُحدِّثُ نفْسَـهُ بحفـظِ ما قرأَهُ مِن أذكارِ العمَل، ولا أحدَ يأمُرُهُ بحِفظِ ذلك، فلْيحرِصِ الكُـلُّ علىٰ المُعاوَنةِ علىٰ البِرِّ والتقوىٰ.

وقالَ نفَعَ اللّهُ به: إنّ مِن عـادةِ السَّلَفِ إذا ابتَـدأوا فـي كتاب أو ختَموهُ يقرأونَ الفاتحةَ لمؤلِّفِه، وكانوا لا يقرأونَ كتاباً في الفِقهِ إلا ويقرأونَ معَهُ كتاباً في التصوّف.

وقالَ أيضاً: إنّ سلَفَنـا ينهَونَ عن مُطالَعةِ الكُتـبِ التي فيها ذِكْرُ ما جرىٰ بينَ الصحـابةِ رضِيَ اللّهُ عنهُم إلا لضرورة، وكانَ إذا جـاءَ ذِكرُ ما جرىٰ بينَهُم يقرَأُ قولَهُ تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ . .﴾ [الحشر: ١٠]، ويأمُرُ الحاضرينَ بقراءتِها. انتهىٰ.

وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنـه: كـانَ مِن عمَـلِ السلَـفِ المُـواظَبـةُ علىٰ قـراءةِ «المُهـذّبِ» كلَّ يوم، وجزَّأوهُ أحـداً وأربعيـنَ جزءاً، يقـرأونَ كـلَّ يـومٍ جزءاً مُدارَسةً كمُدارَسةِ القرآن، وإذا ختَموهُ أعادوه، فوصَلوا إلىٰ ما وصَلوا إليه منَ العِلمِ وبرَكتِهِ والعمَلِ ونورِهِ والإحاطةِ بالدليلِ والتعليلِ وما استُنبِطَ مِن ذلك وما قيسَ عليه.

ومِن:

ـــ اختياراتِهِمُ الفِقهية:

ما حكاه الحبيبُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العَطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه، بقولِه:

مِن عمَـلِ السّلَفِ الصالح أنّهـم ما يحتاطونَ إلا في اثنتَين: في أَبضاع[1] النساءِ وفي أموالِ الناس، فيَأخذونَ في جميـع ذلك بالأحوَط، وأمّا غيرُ ذلكَ فيترُكـونَ كُلاًّ وما أرادَ منَ العمَل، ولا يُثبِّطـونَ أحـداً منَ العمَلِ إذا كانَ مُتَّبِعاً للكتابِ والسّنةِ ولم يخرُجْ عن مذاهِبِ العلماءِ الذينَ قلّدَهُمُ الخاصّةُ والعامّة. انتهىٰ.

---

(١) مفردها بُضْع، بضمّ الباء وسكون بعده، ومعناه الفرج.

وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنـه: كـانَ مِن عـادةِ السَّلَفِ إذا تنجَّـسَ المـاءُ القليلُ بنجاسةِ مأكولِ اللحم، يُقلِّدونَ القولَ بطهارتِه، وإذا كانَ بنجاسةِ غيرِهِ يُفيضونَ الماءَ عليهِ ثمّ يستعمِلونَه كما هُوَ وجهٌ للأصحابِ في مذهبِنا.

وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنه: كـانَ السَّلَفُ إذا أرادوا إجارةَ أحدٍ لوظيفةِ مسجدٍ يؤجِّـروُنَه بهـذهِ الصِّيغـةِ وهِيَ: «آجَرْتُـك لعَلَـقِ السُّرُجِ[١] وإطفـائها وتقـريبِ المُصحَـفِ وصُعـودِ المَنارة» ونحوِ ذلك، لا نحوِ قراءةٍ وأذان؛ لأنّ أعمالَهـم مبنيةٌ علىٰ الإخلاصِ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ سلَفُنا لا يتكلَّفونَ المُبادَرةَ والإسراعَ بالصّلاةِ في أوّلِ الوقتِ ولا يقصِدونَ التأخير.

وقـالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ السلَـفَ إذا لـم يتمكّنوا مِن ركعتَـيِ الفجرِ لم يُصلُّوهمـا بعدَ الفريضـةِ إلىٰ أن تطلُـعَ الشمس، فإن أرادوا فِعلَها فعَلوهـا بعدَ طلوعِ الشمس؛ لأنّ النهيَّ عندَهم متعلِّقٌ بالوقت.

وقـالَ رضِـيَ اللّهُ عنه: مِن عـادةِ السّلَفِ أنّهـم لا يتنفَّلـونَ بيـنَ العصرِ والمَغـرِبِ وباقي الأوقـاتِ المكروهـة، ولا يُعيدونَ العصْـرَ والصُّبح، لِمَا في هذَينِ الوقتَينِ من الكراهة، وقد نبّهَ علىٰ ذلكَ الإمامُ الغزاليُّ في «الإحياء» وإن قرّرَ الفقهاءُ أنّ ذواتِ الأسبابِ مُستَثْنَيات.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: عمَلُ كثيرٍ منَ السّلَفِ الجمْعُ في السّفَرِ القصيرِ بينَ الصّلاتَين، والإتمامُ في السّفَرِ الطويل، حتىٰ يُجاوِزوا ثلاثَ مراحل.

---

(١) مفردها سراج: وهو المصباح الذي يُسرج بالليل، ويكون فيه فتيلة ودهن، وعَلَقُها: تعليقها.

قالَ سيِّدُنا الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عيدروس العيدروسُ[(١)] نفعَ اللّهُ به: إنّ أشمَلَ الأدعيةِ وأحسنَها دعاءُ القنوت، ولهذا خصَّ بهِ النبيُّ ﷺ سيّدَنا الحسَنَ ابنَ عليٍّ بنِ أبي طالب. وكانَ سيّدُنا عمرُ بنُ عبدِ الرحمنِ العطّاسُ يُكرِّرُهُ طولَ ليلِهِ، وكانَ السلَفُ يقْنُتونَ بهِ في الوِتْرِ في سائرِ السنة. انتهىٰ.

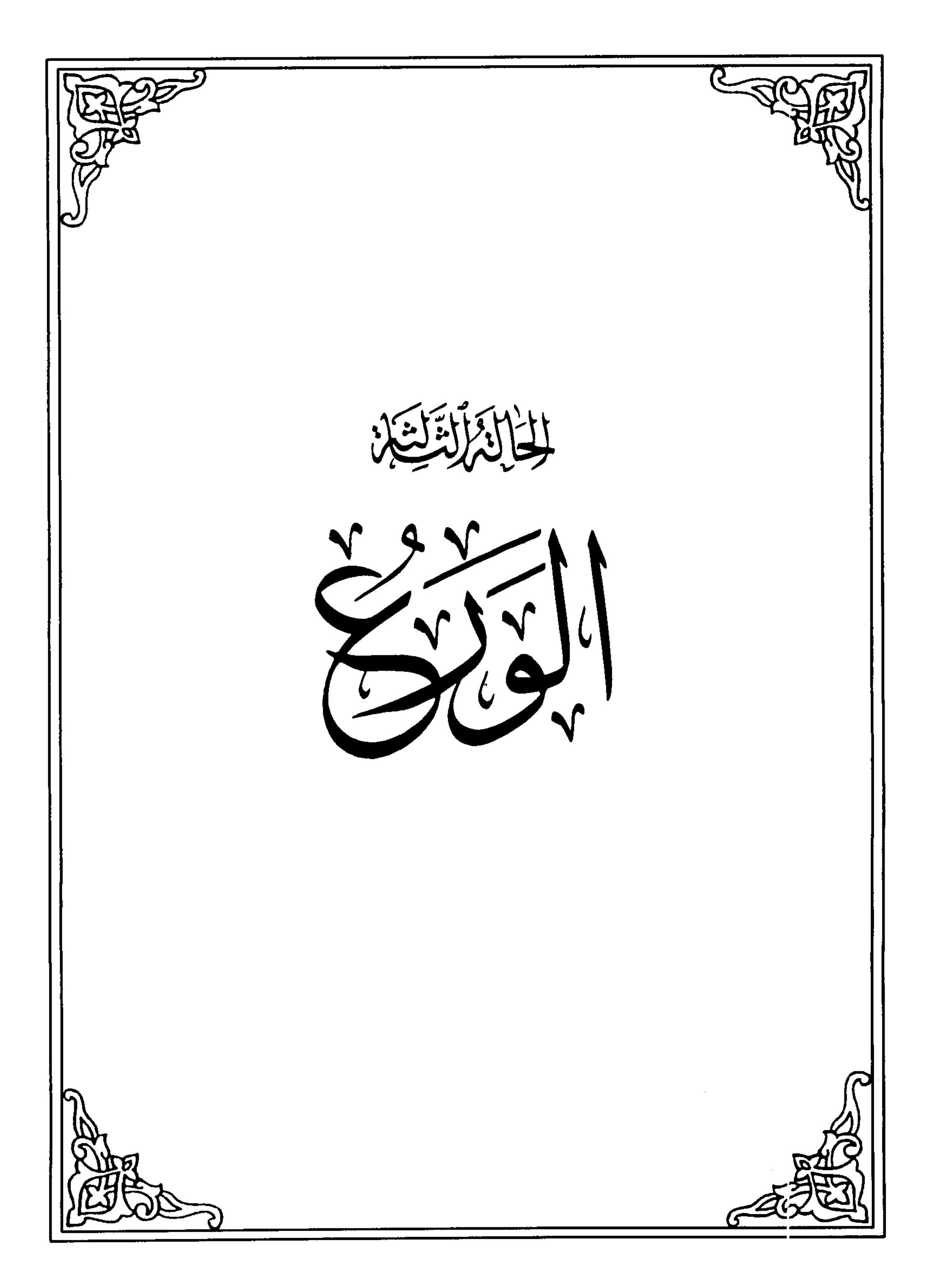
وقالَ سيِّدُنا الحبيبُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: عمَلُ سلَفِنا بجِهتِنا أنّهم يُخرِجونَ العُشرَ مِن كلِّ ما أنبتَتِ الأرض، ولا يعتبرونَ النِّصاب، امتثالاً لقولِهِ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧] وخروجاً من خلافِ أبي حنيفة.

وقالَ نفعَ اللّهُ به: عمَلُ السَّلَفِ أنّهم لا يعتبرونَ النِّصابَ في زكاةِ الحبوبِ والثمار، بل يُخرِجونَ العُشرَ مِن كلِّ قليلٍ أو كثير، وأنّهم يُخرِجونَ ما يطلبُهُ الفقراءُ منَ الزكاةِ رَطْباً قبلَ جَفافِه، ثم يُخرِجونَ ما بقِيَ بعدَ الجفاف.

❋ ❋ ❋

---

(١) السيد الولي العارف باللّه، الحبيب عبد اللّه بن عيدروس العيدروس، مولده بتريم سنة ١٢٨٤هـ، وبها وفاته سنة ١٣٤٧هـ. من شيوخه: الحبيب علي الحبشي، والحبيب عيدروس بن عمر، والحبيب عبد الرحمٰن المشهور، وغيرهم من الأعلام.


الحالة الثالثة
الورع

وفيها ــ المقدِّمة ــ ستةُ فصول :

الأول : شَواهدُ الورَعِ وأصُولُه الشرعيّـة .

الثاني : في طائفـةٍ مِن كـلامِ العلماءِ والعارفيـن في الـوَرَعِ ومكانتهِ منَ الدِّين .

الثالث : في حكاياتِ الورِعينَ من أئمةِ السَّلَفِ والخَلَف .

الرابع : في فوائدِ أكلِ الحلال وثمَراتِه في الحالِ والمَآل .

الخامس : في الحثِّ علىٰ العمَلِ لاكتسابِ الحلال .

السادس : في النهيِ عن تناوُلِ المحرَّماتِ والمَظالم وما ورَدَ فيها منَ الوَعِيدِ الشدِيد .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمدُ للّهِ ربِّ العالَمينَ حمداً يفُوقُ حمدَ الحامدين، يكونُ لنا ذُخراً ليومِ الدِّين، وبهِ نستعينُ علىٰ كلِّ حاجةٍ مِن أمورِ الدنيا والدِّين. وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللّهُ وحدَهُ لا شريكَ له، أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ بهِ المُرسَلين، فقالَ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] وقالَ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأشهدُ أنّ سيّدَنا محمّداً عبدُهُ ورسولُه، بعثَهُ إلىٰ جميعِ الخلْقِ لهدايتِهم ولتكميلِ مَعاشِهم ومَعادِهم، ووصَفَهُ في كتابِهِ بقولِهِ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. صلّىٰ اللّهُ وسلَّمَ عليه وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ صلاةً وسلاماً دائمَينِ بدوامِ مُلْكِ اللّهِ ربِّ العالَمين.

قالَ سيّدُنا الإمامُ الحبيبُ عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ نفعَنا اللّهُ به: **الحالةُ الثالثة: الورَع**، وهُوَ عبارةٌ عنِ الاحترازِ عن كلِّ ما فيهِ شرٌّ وانحرافٌ شرعيٌّ أو شُبهةٌ مُضِرّة، بالوقوفِ علىٰ حدِّ العِلمِ مِن غيرِ تأويل. انتهىٰ.

ونقَلَ في «النهرِ المورود» عنِ الحبيبِ عَيْدَروسٍ المذكورِ أنهُ كانَ يقول:

ليسَ الورَعُ مقصوراً علىٰ المَطعَمِ والمَلبَسِ فقطْ كما قد يتوَهَّمُهُ القاصر، بل هُوَ في كـلِّ شيءٍ حتىٰ في الخواطـر، فلا يخطُرُ ببالِكَ وتعتقِدُ سُوءَ ظنٍّ بمسلمٍ إلا لعـدَمِ الورَعِ عندَك، بلِ الورَعُ عنِ المَعـاصي القلْبيّةِ أهمُّ منَ الورَعِ عن مَعاصي الجَـوارح، فالورَعُ عامّ: في الأفعـالِ والأقـوالِ والاعتقـادِ والخواطـر، فهُـوَ مطلـوبٌ في جميعِ ذلك، فعُلِمَ أنهُ لا يصِحُّ الورَعُ إلا لمَنْ حَفِظَ منَ المَعاصـي جوارحَهُ ـ كاللِّسـانِ والسَّمعِ والبصَرِ وغيرِهـا ـ وقلبَهُ منَ المَعاصي القلبيّةِ: كالكِبْـرِ والعُجبِ والحسَدِ والرِّيـاء، وإضمـارِ العَداوةِ لأحـدٍ منَ المسلميـن، وسوءِ الظنِّ بهِ وغيرِ ذلك. انتهىٰ.

قلت: ومِن كلامِ سيّدِنا الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ حُسَينِ بنِ طاهرٍ نفَعَنا اللّهُ به: الورَعُ أمرٌ مهمٌّ جداً، وليسَ هُوَ مطلوباً في المُعامَلاتِ وتناوُلِ الشّبُهاتِ فقطْ، بل هُوَ مطلوبٌ حتىٰ في الجَوارح، ينبغي للإنسانِ ألا ينظُرَ ولا يسمَعَ ولا يفعَلَ كـلَّ ما قيلَ بتحريمِ نظَرِهِ أو استِماعِـهِ أو فِعلِـه، أو قيلَ بكراهتِـه. انتهـىٰ. من «مجموعِ كلامِه».

وهـذا أَوانُ الشُّـروعِ فـي ذِكْـرِ الشواهـد، ومـا يتعلَّقُ بهـا منَ النفـائسِ والفوائد، مُستعيناً باللّهِ الأَحَدِ الصّمدِ المَلِكِ الواحد.



الفصل الأوّل
شواهد الورع وأصوله الشرعيّة

فمِنها ما وردَ مِن أنّ:

ـ إطابةَ المَطْعَم مُقدَّمةٌ علىٰ عمَلِ الصّالحات:

قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، قدَّمَ الأكلَ منَ الطيّبِ ـ الذي هُوَ الحلالُ ـ علىٰ العمَلِ الصالح اهتماماً به؛ لأنّ العمَلَ لا ينفَعُ ولا يُرفَعُ إلاّ مع أكلِ الحلال، فهُوَ أساسُ العباداتِ ورأسُ القرُبات. فلا يقبَلُ اللّهُ شيئاً منَ الطاعاتِ إلاّ بالأكلِ منَ الطيّبات. وفي الحديثِ: «إنّ اللّهَ طيِّبٌ لا يقبَلُ إلاّ طيِّباً، وإنّ اللّهَ أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ بهِ المُرسَلين، فقالَ تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكَرَ الرجلَ يُطيلَ السّفَر، أشْعَثَ أغبَر، يَمُدُّ يدَيه إلىٰ السّماء: يا ربِّ يا ربّ، ومَطْعَمُهُ حرام، ومَشْرَبُهُ حرام، ومَلبَسُهُ حرام، وغُذِّيَ بالحرام، فأنّىٰ يُسْتَجابُ له؟!»[1].

قالَ الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ هذهِ المذكوراتِ في الحديثِ كلُّها ممّا يقتَضي إجابةَ الدعاء، إذْ ورَدَ أنّ دعاءَ

---

(١) أخرجه مسلمٌ في «صحيحه» (١٠١٥)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

المُسافِرِ مُستَجابٌ. وكم مِن أشعَثَ أغبرَ ذي طِمْرَينِ لا يؤبَهُ له، لو أقسَمَ على اللّهِ لأبرَّ قسَمَه. ولكنْ، معَ أكلِ الحرامِ لم تنفَعْ تلكَ الأشياءُ في حصولِ الإجابة، وإذا لم يُستَجَبْ دعاؤهُ لذلكَ فكَذلكَ صلاتُه: (أي: وسائرُ عمَلِه). انتهى. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

وعنِ ابنِ عباسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما قال: تُلِيَتْ هذهِ الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] عندَ النبيِّ ﷺ، فقامَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ فقال: يا رسولَ اللّه، أُدْعُ اللّهَ أن يجعَلَني مُستَجابَ الدّعوة، فقال: «يا سعدُ، أَطِبْ مَطْعَمَكَ تكُنْ مُستَجابَ الدّعوة، والذي نفْسُ محمّدٍ بيدِه، إنّ الرجلَ لَيقذِفُ اللُّقْمةَ الحرامَ في جَوفِه، فما يُتَقَبَّلُ منه أربعينَ يوماً، وأيُّما عبدٍ نَبَتَ لحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ والرِّبا فالنّارُ أَوْلىٰ به»[١].

وقالَ وُهَيبُ بنُ الوَرْدِ[٢] رحِمَهُ اللّه: لو قمتَ قيامَ السّاريةِ ما نفَعَكَ حتىٰ تَنظُرَ ما يدخُلُ بطنَكَ.

وقال ابنُ أسْباطٍ[٣] رحِمَهُ اللّه: إذا تَعبّدَ الشابُّ قالَ الشيطانُ لأعوانِه: أُنظُروا مِن أينَ مطعَمُه؟ فإن كانَ مطعَمُه مطعَمَ سَوْءٍ يقول: دَعُوهُ يتعَبْ ويجتهدْ، فقدْ كَفاكُم نفْسَه.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦: ٣١١)، من حديث ابن عبّاس رضيَ اللّه عنهما.

(٢) العابد الربّاني أبو أُميّة وُهَيْب بن الورد المكّي (ت١٥٣هـ). قيل له: يجد طعم العبادة مَنْ يعصي؟ فقال: ولا مَنْ يَهُمُّ بالمعصية. يُقال: إنه حلف أنْ لا يضحك حتّىٰ تُعلِمَه الملائكة بمنزلته إذا احتُضِر.

(٣) يوسف بن أسباط الشيباني (ت١٩٥هـ)، الزاهد الواعظ، من سادات المشايخ، له حِكَم ومواعظ بليغة. كان من عُبّاد أهل الشام وقرّائهم، نزل الثغور مرابطاً، وكان لا يأكل إلاّ الحلال المحض، فإنْ لم يجده استفَّ التراب، وكان من خيار أهل زمانه.

ومِن كـلامِ الحبيـبِ القُطبِ عمرَ بنِ عبدِ الرحمنِ العطّاسِ نفَعَ اللّهُ به: الطاعةُ معَ أكلِ الحرامِ مثلُ نزْحِ الماءِ بالخِبَرة[١]. انتهىٰ.

قال ابنُ رَسْلانَ[٢] في «زُبَدِهِ»:

وطاعـةٌ ممّـنْ حرامـاً يأكُـلُ   مثلُ البناءِ فوقَ موجٍ يُجعَلُ

ومِن شواهِدِ الورَعِ وأصولِهِ في الشرْعِ:

ـ اتّقاءُ الشُّبُهات:

وعن أبي عبدِ اللّهِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: سمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقـول: «إنّ الحَلالَ بَـيِّنٌ والحـرامَ بَـيِّن، وبينَهُمـا أمورٌ مشتَبِهـاتٌ لا يعلَمُهُـنَّ كثيرٌ منَ النّاس. فمَنِ اتَّقىٰ الشُّبُهاتِ فقدِ استَبْرَأَ لِدينِهِ وعِرْضِه، ومَن وقَعَ في الشُّبُهاتِ وقَعَ في الحرام، كالرَّاعي يرعىٰ حولَ الحِمىٰ يُوشِكُ أن يرتَعَ فيه، ألا وإنَّ لكلِّ مَلِكٍ حِمَىٰ، ألا وإنَّ حِمَىٰ اللّهِ مَحارِمُه، ألا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كلُّه، وإذا فسَدَتْ فسَدَ الجسَدُ كلُّه، ألا وهِيَ القلب»[٣].

---

(١) الخِبَـرة ـ كعِنَبة ـ: القاع يُنبت الشجـر. ونـزح المـاء: تفريغـه حتّىٰ يقل وينفد، والمقصود الهلاك.

(٢) الإمام الفقيه الزاهـد العارف باللّه شهاب الدين أحمد بن الحسين بن رسلان الرملي الشافعي (٧٥٣ ـ ٨٤٤هـ). كان في الزهـد والورع والتقشـف واتبـاع السّنة وصحة العقيدة: كلمةَ إجماع، كما قال الحافظ السخاوي. وقال: لا أعلم في وقته من يدانيه في ذلك، وانتشر ذكره، وبَعُد صيته، وشهد بخيره كل من رآه. من مؤلفاته: «نظم الزبد» و«شرحها»، و«شرح سنن أبي داود»، و«شرح جمع الجوامع»، وغيرها.

(٣) أخرجـه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رضي اللّه عنه.

وقـالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحـدّادُ رضِيَ اللّهُ عنـه: الشُّبهةُ أشدُّ علىٰ المُتنسِّـكِ منَ الحرام؛ لأنّ الحرامَ يَعرِفُ أنهُ حرامٌ فيجتَنبُـه، وإن وقَعَ فيهِ تابَ منه، والشّبهةُ أمرُها عسِر، فربّما اعتَقَدَ حراماً أنهُ حلالٌ أو بالعكس. انتهىٰ. مِن «تثبيت الفؤاد».

قالَ الشيخُ أبو سُليمانَ الخَطّابيُّ[1] رحِمَهُ اللّهُ في «معالِمِ السُّنَنِ» في شرحِ الحديثِ المتقدِّم:

«قولُـه: «الحلالُ بَـيِّنٌ والحرامُ بَـيِّن» أصلٌ كبيـرٌ فـي كثيـرٍ منَ الأمـورِ والأحكـامِ إذا وقَعتْ فيها شُبْهةٌ أو عَرَضَ فيهـا الشـكّ، ومهما كانَ ذلكَ فإنّ الواجبَ أن تنظُرَ.

فإذا كانَ للشيءِ أصلٌ في التحريمِ أو التحليلِ فإنهُ يَتمسّكُ به، ولا يفارِقُهُ باعتراضِ الشكِّ حتىٰ يُزيلَهُ عنهُ يقينُ العِلم، فالمثالُ في الحلال: الزّوجةُ تكونُ للرجُلِ والجاريةُ تكونُ عندَهُ يتَسرّىٰ بها ويطأُها، فيَشكُّ: هل طلّقَ تلكَ أو أعتقَ هذه؟ فهُما عندَهُ علىٰ أصلِ التحليلِ حتىٰ يتيقّنَ وقوعَ الطلاقِ أو العِتق. وكذلكَ الماءُ عندَهُ، وأصلُهُ الطهارة، فَيشُكّ: هلْ وقعتْ فيهِ نجاسةٌ أم لا؟ فهُوَ علىٰ أصـلِ الطهـارةِ حتىٰ يتيقّنَ أنْ قد حلَّتْهُ نجاسـة. وكالرجـلِ يتطهّرُ للصلاة، ثم يشُكُّ في الحدَث، فهُوَ يُصلّي ما لم يعلَمِ الحدَثَ يقيناً، وعلىٰ هذا المثال.

وأمّا الشيءُ إذا كانَ أصلُهُ الحَظْر، فإنّما يُستَباحُ علىٰ شرائطَ وعلىٰ هيئاتٍ معلـومات، كالفُرُوج: لا تحِلُّ إلا بعدَ نِكاحٍ أو مُلكِ يمين، وكالشّاةِ لا يحِلُّ

---

(١) الإمام البارع، الحافظ الفقيه اللغوي، أبو سليمان حَمْد بن محمد الخطّابي البُسْتي الشافعي (٣١٩ ــ ٣٨٨هـ). من تصانيفه: «غريب الحديث»، و«معالم السنن» شرح سنن أبي داود، و«العزلة»، وغيرها.

لحمُها إلا بذَكاة، فإنهُ مهما شكَّ في وجودِ تلكَ الشرائطِ وحصولِها يقيناً علىٰ الصّفةِ الي جُعِلَتْ عِلْماً للتحليل، كانَ باقياً علىٰ أصلِ الحظْرِ والتحريم. وعلىٰ هذا المثال، فلوِ اختلَطتِ امرأتُهُ بنساءٍ أجنبيّات، أو اختلَطتْ مُذَكّاتُهُ بمِيْتاتٍ ولم يُميِّزْها بعينِها، وجَبَ عليهِ أن يجتنبَها كلَّها ولا يقْرَبَها.

وهنا قسمٌ ثالث، وهُوَ: أن يُوجَدَ الشيءُ ولا يُعرَفُ لهُ أصلٌ متقدِّمٌ في التحريمِ ولا في التحليل، وقدِ استوىٰ وجْهُ الإمكانِ فيهِ حِلاًّ وحُرمة، فإنّ الورَعَ في هذا سبيلُهُ التركُ والاجتِناب، وهُوَ غيرُ واجبٍ وجوبَ النّوعِ الأوّل.

وهذا لِمَا رُويَ أنّ النبيَّ ﷺ مرَّ بتمرةٍ مُلقاةٍ في الطّريق، فقال: «لولا أنّي أخافُ أن تكونَ صَدَقةً لأكلتُها»[1]. وقُدِّمَ لهُ الضَّبُّ فلم يأكُلْهُ وقال: «إنَّ أُمَّةً مُسِخَتْ، فلا أدري لعلَّهُ منها»، أو كما قال[2]، ثمّ إنّ خالدَ بنَ الوليدِ أكَلَهُ بحضْرتِهِ فلم يُنكِرْه[3].

ويدخُلُ في هذا البابِ مُعاملةُ من كان في مالِهِ شُبهةٌ أو خالَطَهُ رِباً، فإنّ الاختيارَ ترْكُها إلىٰ غيرِها، وليسَ بمُحرَّم عليكَ ذلكَ ما لم تتيقّنْ أنْ عينَهُ حرامٌ أو مَخرَجُهُ مِن حرام، وقد رَهَنَ رسولُ اللّهِ ﷺ دِرعَهُ عندَ يهوديٍّ علىٰ أصْوُعٍ مِن شعيرٍ أخذَها لقُوتِ أهلِه[4]، ومعلومٌ أنهم يُرْبُونَ في تجارتِهم ويَستحِلّونَ أثمانَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٥٥)، ومسلم (١٠٧١)، وأبو داود (١٦٥٢) واللفظ له، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه.

(٢) لفظُه كما أخرجه أبو داود (٣٧٩٥): «إنّ أمّةً من بني إسرائيلَ مُسِخَتْ دَوَابَّ في الأرض، وإني لا أدري أي الدوابِّ هي». وأخرجه النسائي (٤٣٢١)، كلاهما من حديث ثابت بن وديعة رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٧٩٤)، وغيره، من حديث عبد اللّه بن عبّاس رضيَ اللّه عنهما.

(٤) أخرجه النسائي (٧: ٢٨٨)، وابن ماجه (٢٤٣٧)، وغيرهما، من حديث أنس. =

الخمور، ووصَفَهمُ اللّهُ تعالىٰ بأنّهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، فعلىٰ هذهِ الوجوهِ الثلاثةِ يجري الأمرُ فيما ذكْرتُه. انتهىٰ.

قالَ الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: ظاهرُ اليدِ والإسلامِ سببانِ كافيانِ في حِلِّ المال، خصوصاً في هذا الزمانِ إذا لم يكنْ لهُما مُدافِع. وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «رسالةِ المُعاوَنة»: النّاسُ بالنسبةِ إليكَ ثلاثةُ أشخاص:

الأوّلُ: شخصٌ معروفٌ عندَكَ بالخيرِ والصّلاح، فكُلْ مِن طعامِهِ وعامِلْهُ إذا شئتَ ولا تسأَل.

والثاني: شخصٌ مجهولٌ عندَكَ ولا تعرِفُهُ بخيرٍ ولا بشرّ، فإذا أردتَ أن تعامِلَ هذا أو تقبَلَ هديّتَهُ فمنَ الورَعِ أن تسأَلَ ولكنْ برِفْق، حتىٰ لو أنّكَ لو عَرفتَ أنهُ ينكسِرُ قلبُهُ لذلكَ فالسكوتُ أفضل.

والثالثُ: شخصٌ معروفٌ عندَكَ بالظُّلم، يُعامِلُ بالرِّبا، ويُجازِفُ في بيعِهِ وشرائِه، فلا يُبالي مِن أيِّ جهةٍ يصِلُ إليهِ المال، فينبغي أن لا تُعامِلَ هذا رأساً، وإن كانَ ولا بدَّ فقَدِّمِ التفتيشَ والسؤال، وهذا كلُّهُ منَ الورَع، حتىٰ تعلَمَ أنّ الحلالَ في يدِهِ نادرٌ عزيز، فعندَ ذلكَ يجبُ عليكَ الاحتِراز. انتهىٰ.

مسَائلُ في الأموالِ التي فيها شُبْهة

الأُولىٰ:

سُئلَ شيخُ الإسلامِ زكريّا رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ عن أموالِ الظّلَمةِ التي يتصدّقونَ بها مثلاً: فهل يجوزُ لأحدٍ التناوُلُ منها أو لا؟ وهل ثَمَّ فرْقٌ بينَ الغنيِّ والفقيرِ أم لا؟

فأجابَ بأنهُ إنْ علِمَ أنهُ حرامٌ حرُمَ عليهِ تناوُلُهُ لنفْسِهِ لا للردِّ علىٰ مالِكِه ما

لم يكنْ مُفتياً أو حاكماً أو شاهداً، فإنْ كانَ أحدَ هؤلاءِ فلا بدَّ منَ التصريحِ بأنهُ تناوَلَهُ للردِّ علىٰ مالكِه، لِمَا في ذلكَ مِن فسادِ اعتقادِ النّاسِ في صِدْقِهِ ودِينِه، فلا يقبَلونَ لهُ فُتيا ولا حُكماً ولا شَهادة، ولا فرْقَ في ذلكَ بينَ الغنيِّ والفقير. وإن لم يُعلَمْ أنهُ حرامٌ جازَ لهُ تناوُلُه، والأَولىٰ تركُه، وهذا إذا كانَ بغيرِ سؤال، فإذا كانَ بسؤالٍ، معَ إظهارِ فقر، حَرُمَ علىٰ الغنيِّ دونَ الفقير، واللّهُ أعلَم. انتهىٰ. مِن «فتاويه».

الثانيةُ:

سُئِلَ سيّدُنا الحبيبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ نفعَ اللّهُ بهِ عن حُكمِ الأكْلِ مِن طعام مَن مُعامَلتُهُ فاسدة، وحُكمِ مُعامَلتِه؟ فقالَ رضِيَ اللّهُ عنه في **جوابِه**: أمّا الأكلُ مِن طعامِ إنسانٍ لهُ شيءٌ من المُعامَلاتِ الفاسدة، وكذلكَ مُعاملتُه، فإنْ كانَ لهُ مُعامَلاتٌ صحيحةٌ أيضاً ولهُ شيءٌ منَ الأثمارِ الصحيحِ مُلكُهُ لها، وكانَ الحلالُ مِن مالِهِ أكثرَ منَ الشُّبُهاتِ والحرامِ الذي في يدِهِ، فقد قالَ العُلماءُ رحِمَهُمُ اللّهُ تعالىٰ: يجوزُ أكْلُ طعامِ ومُعامَلةِ مَن هذا وصفُه. والورَعُ اجتِنابُ ذلكَ ما أمكَن، واللّهُ أعلم.

الثالثة:

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ في «مُختصَرِ الإحياء»: ومِن جُملةِ الشبُهاتِ أن لا يكونَ الشيءُ ممّا قدِ اشتُريَ في الذمّةِ ولكنْ قضىٰ ثمنَه مِن حرام، إلا أن يكونَ تسليمُ الطعامِ قبلَ قبْضِ الثمَنِ بطِيبِ قلبٍ فأكلَهُ قبلَ قضاءِ الثمَن، فهُوَ حَلالٌ بالإجماع، ولا ينقَلبُ ـ بأداءِ المالِ في مُقابَلتِهِ منَ الحرام ـ حراماً، بل غايتُهُ أنْ لا تَبرأَ ذمّتُه، فكأنّهُ لم يقضِ الثمَن، ولا يحرُمُ ما أكَلَ وإن أبرَأَ ذِمّتَهُ معَ العِلمِ بكونِ الثمَنِ حراماً، فهو يوجبُ براءةَ الذمّةِ والحِلّ، واللّهُ أعلَم.

الرابعة:

ذكَرَ الإمامُ السُّيوطيُّ رحِمَهُ اللّهُ في «الأشباهِ والنظائرِ» أنهُ: لو عمَّ الحرامُ قُطْراً، بحيثُ لا يوجَدُ فيهِ الحلالُ إلا نادراً، فإنهُ يجوزُ استعمالُ ما يُحتاجُ إليه، ولا يُقتصَرُ علىٰ الضرورة. قالَ الإمام[1]: ولا يُرتقىٰ إلىٰ التبسُّطِ وأكْلِ المَلاذِّ، بل يُقتصَرُ علىٰ قدْرِ الحاجة. قالَ ابنُ عبدِ السّلام: وفرْضُ المسألةِ أن يَتوقَّعَ معرِفةَ صاحبِ المالِ في المستقبَل، فأمّا عندَ اليأسِ فالمالُ حينَئذٍ للمَصالح؛ لأنّ مِن جُملةِ أموالِ بيتِ المالِ ما جُهِلَ مالكُه. انتهىٰ.

تنبيه:

ذكَرَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: أنهُ متىٰ أرادَ الإنسانُ التورُّعَ مِن مالِ مُسلمٍ توَهّمَ أو ظَنَّ فيهِ الحرامَ والشُّبهة، وترتَّبَ علىٰ ذلكَ إيذاءٌ لهُ وسُوءُ ظنٍّ فيهِ وهُما حرامٌ، وتورُّعُهُ إنّما هُوَ سُنّة، فلْيتَنبّهْ له، ومتىٰ ظَنَّ الحُرمةَ أو الشُّبهةَ في مالِ مُسلمٍ فالذي ينبغي أن يُجانِبَهُ ولا يُعامِلَه، ومعَ ذلكَ لا يُسيءُ الظّنَّ بهِ باعتقادِ كونِ مالِهِ حراماً أو شُبْهة، ويترُكُ التجسُّسَ المذموم، وإذا بلَغَكَ عن أحدٍ أنّ مالَهُ حرامٌ فلا يجوزُ لكَ تصديقُ الناقلِ إليكَ وإساءةُ الظّنِّ بهِ بقولِ القائل، فإنّ ذلكَ نَميمةٌ، إذْ قد حصَلَ بهِ الإفسادُ وسُوءُ الظّن.

وأيضاً فتكذيبُكَ للناقلِ مِن سُوءِ الظنِّ بالمسلمِ الذي نهاكَ اللّهُ عزَّ وجَلَّ عنه، فاجتَنِبْهُ واعذُرِ الناقلَ إليكَ ولو بكونِهِ جاهلاً أنَّ نقْلَ هذا الكلام محرَّمٌ وأنتَ عالِمٌ بحُرمتِه، فما بقيَ إلا أن ترجعَ إلىٰ نفْسِكَ باللومِ بقبولِها وتصديقِها

(١) يعني به إمام الحرمين الجويني، وقد تقدمت ترجمته ص ٣٨١.

بالشرِّ في المسلم، واعرِفْ بذلكَ خَساسةَ نفْسِكَ وأنّها لم تَطهُر، ولو طَهُرتْ لَمَا قبلتِ الشّرَّ ولم يَعلَقْ بها، ولا يُصدِّقُ الإنسانُ بِشَرٍّ في مُسلمٍ إلا وذلكَ الشرُّ موجـودٌ فيه، ولولا وجودُهُ فيهِ لـم يُصدِّقْ بهِ في غيرِه، فمتىٰ رجعَ علـىٰ نفْسِهِ باللّـومِ وبرّأَ الناقلَ والمنقولَ عنهُ مـنَ الشّرِّ سلِمَ بذلكَ منَ الضّرر. انتهىٰ. مِن «قرةِ العين».

ـ قاعدةٌ في معنىٰ الشَّكّ:

عن الحسنِ بنِ عليٍّ رضِيَ اللّهُ عنهُما قال: حفِظتُ مِن رسولِ اللّهِ ﷺ: «دَعْ ما يَرِيبُكَ إلىٰ ما لا يَريبُك»[1]. ومعنىٰ الحديث: أُترُكْ ما تشُكُّ فيهِ إلىٰ ما لا تشُكُّ فيه.

قـالَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِـيَ اللّهُ عنه: إنّ الشّـكَّ: ما لهُ سَبَبٌ أو قرينةٌ وهُوَ الشُّبْهة، ولا ينبغي أن تُقدِمَ عليهِ حتىٰ يتَّضح، فإنْ لم يكنْ عن سببٍ أو قرينةٍ فهُوَ وَسْواسٌ وخواطرُ لا عمَلَ عليها. انتهىٰ.

قالَ الشيخُ أبو حامدٍ الإسفَرايِنيُّ: الشكُّ علىٰ ثلاثةِ أضْرُب:

١ ـ شكٌّ طرَأَ علىٰ أصلٍ حرام.

٢ ـ وشكٌّ طرَأَ علىٰ أصلٍ مُباح.

٣ ـ وشكٌّ لا يُعرَفُ أصلُه.

فالأوّل: مِثلَ أن يجِدَ شاةً في بلدٍ فيها مسلمونَ ومَجوس، فلا تحِلُّ حتىٰ يعلَمَ أنّها ذَكاةُ مسلم؛ لأنّ أصلَهـا حرامٌ وشكَكْنا في الدِّلالةِ المُبيحة، فلو كانَ الغالِبُ فيها المسلمين جاز الأكْل، عمَلاً بالغالبِ المُفيدِ للظُّهور.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٨)، من حديث الحسن بن علي رضيَ اللّه عنهما.

والثاني: أن يجِدَ ماءً متغيِّراً واحتُمِلَ تغيُّرُهُ بنجاسةٍ أو بطولِ المُكثِ، فيجوزُ التطهُّرُ بهِ عملاً بأصلِ الطهارة.

والثالث: مِثلُ مُعامَلةِ مَن أكثرُ مالِهِ حرامٌ ولم يتحقّقْ أنّ المأخوذَ مِن مالِهِ عينُ الحرام، فلا يحرُمُ مُبايَعتُه، لإمكانِ الحلالِ وعدَمِ تحقّقِ التحريم، ولكنْ يُكرَهُ خوفاً منَ الوقوعِ في الحرام. انتهىٰ. مِنَ «الأشباهِ والنظائر» للسُّيوطيّ.

وقالَ النّوَوِيُّ في «المجموع»: لو وجَدْنا شاةً مذبوحةً ولم ندْرِ مَن ذَبَحَها، فإنْ كانَ في بلدٍ فيهِ مَن لا يحِلُّ ذَكاتُهُ كالمَجوسِ لم يحِلّ، سواءٌ تمحّضُوا أو كانوا مُختلِطينَ بالمسلمين، للشكِّ في الذَّكاةِ المُبيحة، والأصلُ التحريم، وإن لم يكنْ فيهِ أحدٌ منهُم حلَّتْ. انتهىٰ.

وعن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّي لأنقلِبُ إلىٰ أهْلي، فأَجِدُ التّمرةَ ساقِطةً علىٰ فِراشي، أو في بَيتي، فأرفَعُها لآكُلَها، ثمّ أخشىٰ أن تكونَ منَ الصَّدَقةِ فألْقِيها»[1]. قال النّوويُّ رحِمَهُ اللّه: وفيهِ استعمالُ الورَع؛ لأنّ هذهِ التَّمرةَ لا تحرُمُ بمُجرَّدِ الاحتمال، لكنّ الورَعَ ترْكُها. انتهىٰ.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢٤٣٣) ومسلمٌ (١٠٧٠)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

مطلَبٌ

في حكمِ الزّكاةِ والصَّدَقةِ لآلِ بيتِ النبيِّ ﷺ

قالَ العلماء: لمّا كانتِ الصّدَقةُ أوساخَ النّاس، نُزِّهَ منصِبُهُ الشّريفُ ﷺ عن ذلك، وانجـرَّ إلىٰ آلِهِ بسببِه، وأيضاً فالصّدَقـةُ تُعطـىٰ علـىٰ سبيلِ الترحُّمِ المبنـيِّ علىٰ ذُلِّ الآخذ، فأُبدِلُوا عنها بالغَنيمةِ المأخوذةِ بطريقِ العِزِّ والشَّرَفِ المبنيِّ علىٰ عزِّ الآخذِ وذُلِّ المأخوذِ منه.

وقدِ اختلَـفَ علماءُ السّلَفِ: هلْ تُشارِكُهُ في ذلكَ الأنبياءُ أمِ اختصَّ بهِ دونَهـم؟ فقالَ بالأوّلِ: الحسَنُ البصْريّ، والثاني: سفيانُ بنُ عُيَينة.

ثمّ الزّكاةُ وصَدَقَةُ التطوُّعِ بالنّسبةِ إليه ﷺ سَواء، وأمّا آلُهُ فمَذهَبُنا أنهُ لا يحرُمُ عليهِم سِوىٰ الزكاة، وأمّا صدقةُ التطوُّعِ فتحِلُّ لهُم في الأصَحّ، وفي وجهٍ عندَنـا ـ وهُـوَ مذهبُ المالكيّة ـ أنّها تحرُمُ عليهِم أيضـاً، وفي وجـهٍ ثالث: تحرُمُ عليهِمُ الخاصّةُ دونَ العامّةِ كالمساجدِ ومياهِ الآبار. وحكىٰ ابنُ الصّلاحِ عن أبي الفرَجِ السَّرْخَسيِّ[١] أنّ في صرْفِ الزّكاةِ والنّـذرِ إلىٰ الهاشِميِّ قولَين، وفي جوازِ كونِهم عُمّالاً علىٰ الزّكاةِ وجهان، أصَحُّهما أيضاً المَنْع. انتهىٰ. من «الخصائصِ الكُبرىٰ» للسُّيوطيِّ رحِمَهُ اللّه.

وفي «بُغيـةِ المُستَرشدينَ» نقْلاً عنِ الحبيبِ العلاّمةِ عبدِ اللّهِ بنِ حسينٍ بلفَقِيه ما نصُّه: اتّفـقَ جمهورُ الشافعيةِ علىٰ منْع إعطاءِ أهلِ البيتِ النّبويِّ منَ

---

(١) هو الإمام البارع، الصالح الزاهد الوَرِع، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أحمد السرخسي التبريزي المعـروف بالزاز ـ بزايين، وهو من تلامذة القاضي حسين. قال أبو سعد السمعاني: هو أحد أئمة الإسلام. اهـ. ملخَّصاً من «تهذيب الأسماء واللغات» (٢: ٢٦٣).

الزّكـاةِ ككُلِّ واجبٍ ــ كنَذْرٍ وكفّـارةٍ ــ وإن مُنِعوا حقَّهم مِن خُمسِ الخُمس، وكذا مَوالِيهِم علىٰ الأصَحّ.

واختارَ كثيرونَ مُتقدِّمـونَ ومتأخّرونَ الجوازَ، حيثُ انقطَعَ عنهُم خُمسُ الخُمس، منهم: الإصْطَخْريُّ[1] والهَرَويُّ[2] وابنُ يحيىٰ[3] وابنُ أبي هريرة[4]، وعمِلَ بهِ وأفتىٰ بهِ الفخْرُ الرّازيُّ والقاضي حُسينٌ[5] وابنُ شُكَيلٍ[6] وابنُ زيادٍ[7]

---

(١) الإمـام الجليل قاضي قُمّ أبو سعيـد الحسن بن أحمد بن يزيد الإصطخري (٢٤٤ ــ ٣٢٨هـ)، أحد الرفعاء من أصحاب الوجوه، كان ورعاً زاهداً متقللاً.

(٢) وهو القاضي أبو منصور محمد بن محمد الهروي (٤١٠هـ)، أحد أئمة الأصحاب، الجامعين بين الفقه والحديث، ومن أجلِّ تلامذة الشيخ أبي زيد المروزي. ويحتمل أن يكـون (الهروي): أبا سعد بن أحمـد الهروي تلميـذ أبي عاصم العبّادي.

(٣) الإمام الشهيد أبو سعيد محمد بن يحيىٰ النيسابوري (٤٧٦ ــ ٥٤٨هـ)، تلميذ الغزالي والخوافـي وبهمـا تفقه. برع في المذهب وصنف، مع الديانة والزهد وسعة العلم. قتله الغُزّ.

(٤) الإمام الجليل أبو علي الحسن بن الحسين البغدادي (ت٣٤٥هـ)، انتهت إليه رئاسة المذهب في وقته.

(٥) القاضي أبو علي الحسين بن محمد المَرُّوذِي (ت ٤٦٢هـ)، شيخ الشافعية بخراسان، وأحد أصحاب الوجوه في المذهب. كان من أوعية العلم، يُلقَّب بحَبْر الأمّة. له: «التعليقة الكبرىٰ» و«الفتاوىٰ»، وغير ذلك.

(٦) العلامة الفقيه القاضي المفتي محمد بن سعد الأنصاري الخزرجي اليمني المعروف بأبـي شُكيـل (٦٦٤ ــ ٧٤٠هـ تقديـراً). له شـرح مطوّل علـىٰ «الوسيـط» للغزالي، وفتـاوىٰ مشهورة، ونبـذة في النسـب. تولّـىٰ قضاء زبيد مـدة. ومن ذريته: الإمامُ القاضي مسعود بن سعد بن أحمد، وولدُه القاضي جمال الدين، المعروف كلٌّ منهما بأبي شكيل أيضاً، عالمان فقيهان. يُنظر: «عقود الألماس» للعلاّمة علوي بن طاهر الحدّاد، ص٢٠٨ ــ ٢١١.

(٧) الإمـام أبو الضياء عبد الرحمٰـن بن عبد الكريم الغَيْثي المقصري الزَّبيدي المعروف =

والناشريُّ[١] وابنُ مُطَير[٢].

قالَ الأشْخَـر[٣]: فهؤلاءِ أئمةٌ كبـار، في كلامِهم قوة، ويجوزُ تقليدُهم تقليداً صحيحاً بشَرطِهِ للضـرورةِ وتبرَأُ بهِ الذّمةُ حينَئذ، لكنْ في عمَلِ النفْسِ لا الإفتاءِ والحُكمِ به. انتهىٰ.

وفي «مجموع» كلامِ الإمامِ العارفِ باللّهِ أحمدَ بنِ حسنٍ العطّاس:

سُئلَ رضِيَ اللّهُ عنه: هلْ يجوزُ إعطاءُ آلِ البيتِ النّبويِّ شيئاً مِن الزكاة؟

فأجاب: يجوز، سواءٌ سألوهُ بلسانِ حالِهم أو مَقالِهم للضّرورةِ الواقعةِ في الزّمانِ والمكان، وقد أفتىٰ بذلكَ كثيرٌ منَ العلماء. انتهىٰ.

وسُئلَ أيضاً سيّدُنـا العارفُ باللّه، الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ مُحسْنٍ العطّاسُ نفَـعَ اللّهُ به، **فأجاب**: إن عَمَلَهـم يُعطون أهلَ البيتِ منها، ولكنّهم لا يأمُرونَ أحداً بذلكَ ولا ينهَوْنَهُ عنه. انتهىٰ. مِن «مجموعِ كلامِه».

= بابن زياد (٩٠٠ ــ ٩٧٥هـ)، مفتي الديار اليمنية في وقته ومن أكابر فقهاء الشافعية بها، وفتاواه من أصح الفتاوىٰ، لخّصها الإمام عبد الرحمٰن المشهور باعلوي.

(١) العـلامة الفقيه المشـارك عفيف الدين عثمـان بن عمر بن أبي بكر الناشـري اليماني الشافعي (٨٠٤ ــ ٨٤٨هـ)، له مشاركةٌ في الأدب والشعر. درّس بمدارس زبيد، ثم انتقل إلىٰ (إبّ) فتصدّر للفتوىٰ والإقراء، فلم يلبث أن مات بالطاعون. من مؤلفاته: «البستان الزاهر في طبقات علماء بني ناشر»، وغيره.

(٢) العلاّمـة الشيـخ علي بن محمـد بن إبراهيـم، ابن مُطَيـر الحَكَمي اليمنـي (٩٥٠ ــ ١٠٤١هـ)، فقيه شافعي، له معرفةٌ بالتفسير واللغة والأدب، وله نظم. من مؤلفاته: «الإتحاف» مختصـرٌ لتحفة ابن حجر، و«الديبـاج علىٰ المنهاج» للنووي، و«كشف النقب بشرح ملحة الإعراب» للحريري، وغير ذلك.

(٣) العلاّمة الفقيه المفتي جمال الدين محمد بن أبي بكر الأشخر اليمني الشافعي (٩٤٥ ــ ٩٩١هـ). مولده ووفاته ببلدة (بيت الشيخ) قريباً من الضِّحِي (بمحافظة الحُدَيدة)، وهناك قبره. له شرحٌ علىٰ «بهجة المحافل» للعامري، وفتاوىٰ فقهية، وغير ذلك.

مسألة :

أفتىٰ بعضُ العلماء : أنهُ إذا دفَعَ الزّكاةَ إلىٰ أحدٍ مِن أهلِ البيتِ وجَبَ عليهِ إعلامُـهُ بأنّهـا زكاةٌ إن كانَ ممّن يرىٰ تحريمَ أخْذِ الآلِ للزّكاة، ليُقلِّدَ الآخِذُ مَن يُجوِّزُ أو يردَّها، وإن كانَ ممَّن يعتقدُ الحِلَّ لم يجبْ إعلامُه . انتهىٰ .

ـــ معنىٰ حديث : «استفتِ قلبك» :

عن وابِصـةَ بنِ مَعْبدٍ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ قال : أتَيتُ رسولَ اللّٰهِ ﷺ، فقال : «جئـتَ تسألُ عن البِـرِّ والإثْـم»؟ قلـتُ : نعـمْ، فقال : «استَفْـتِ قلبَـك، البِرُّ ما اطمَأنَّتْ بهِ النّفْسُ واطمأنَّ إليهِ القلب، والإثمُ ما حاكَ في النفْسِ وترَدَّدَ في الصّدْرِ وإن أفتاكَ النّاسُ وأفْتَوا»[١] .

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينٍ الحبَشيُّ عندَ قولِهِ في الحديثِ : «استَفْتِ قلبَك» : المُرادُ بهِ الخَلِيُّ عنِ الطّمَعِ والرغبةِ في الدنيا، فمَن كانَ هذا وصفَه، أعنـي الرغبةَ والطّمـع، فلا يَستفتي، لأنهُ يحمِـلُ الشـيءَ بحسْبِ هَواه، وكذا كلُّ مَن مـالَ إلىٰ شيءٍ يهواه، لا يُفـوَّضُ إليهِ الحُكـمُ فيه؛ لأنهُ يظُـنُّ أنهُ علىٰ الصواب . والظّنُّ الصّادقُ لا بدَّ أن يستَنـدَ إلىٰ دليلٍ صحيح، وكلُّ ظَنٍّ لا يُبنىٰ علىٰ أصلٍ صحيحٍ فمردودٌ علىٰ صاحبِه .

وقولُهُ : «الإثمُ ما حـاكَ في الصّدْر» اختلَجَتِ الخـواطرُ عندَهُ بكونِ هذا صحيحـاً أو فاسداً، فالورَعُ : ترْكُ ما حصَلَ فيهِ التردُّد، والوَسْـوَسةُ الشيطانيةُ علامتُها أن ترىٰ صاحِبَها يتحرّىٰ عندَ المياهِ في الطّهارةِ ونحوها التحرّيَ البالغ، فيوسـوِسُ في النجاسـاتِ ولا يتحـرّىٰ ولا يتـورّعُ عـنِ الشُّبُهـاتِ وارتكـابِ

---

(١) أخرجه أحمد (٤ : ٢٢٧)، والدارمي (٢٥٣٣)، من حديث وابصة بن معبَد رضيَ اللّٰه عنه .

الفواحشِ ولا يُلقي لها بالاً، فمَـن هذا وصْفُهُ فوَسوَستُهُ حرامٌ وليسَ لهُ بها مِن سلطان. انتهىٰ. مِن «قرّةِ العين».

قـالَ السيّدُ العارفُ باللّهِ أحمـدُ بنُ إدريسَ المَغربيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن تحـرّىٰ الطهـارةَ وتورّعَ عنِ النجاسـاتِ وهُـوَ يأكُلُ حرامـاً فـورَعُ ذلكَ كـورَعِ الكلـب: يأكُلُ النجاسـاتِ والقاذورات، وإذا أرادَ أن يَبـولَ رفَعَ رِجلَهُ لكيـلا يُصيبَها شيءٌ منَ البول! انتهىٰ.

ـ ردُّ ما لا يَحِلُّ علىٰ أهلِه:

كـانَ عبدُ اللّهِ بنُ المُبارَكِ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ يقول: لأَنْ أرُدَّ دِرهماً مِن شُبْهةٍ أحبُّ إليَّ مِن أن أتصدّقَ بمئةِ ألفٍ ومئةِ ألفٍ. . . إلىٰ أن عَدَّ إلىٰ سبعِمئةِ ألف. انتهىٰ.

ـ لا يتمُّ الوَرَعُ إلاّ بعَشَرة:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «الغُنية»:

ولا يتِمُّ الوَرَعُ إلا أن يرىٰ عشرةَ أشياءَ فريضةً علىٰ نفْسِه:

أوّلُها: حِفظُ اللِّسانِ منَ الغِيبة، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

والثاني: الاجتِنابُ عن سُوءِ الظنّ، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ﴾ [الحجرات: ١٢].

والثالثُ: الاجتِنابُ عنِ السُّخْرِية، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١].

والرابعُ: غَضُّ البصَرِ عنِ المَحارم، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠].

والخامسُ: صِدقُ اللّسـان، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، يعني: فاصدُقوا.

والسادسُ: أن يعرِفَ مِنّةَ اللّهِ تعالىٰ عليهِ لكيلا يُعجَبَ بنفْسه، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧].

والسابعُ: أن يُنفقَ مالَهُ في الحقِّ ولا يُنفِقَه في الباطلِ، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان: ٦٧]، يعني: لم يُنفِقوا في مَعصِيةٍ ولم يَمنَعوا منَ الطاعة.

والثامنُ: أن لا يطلُبَ لنفْسِهِ العُلوَّ والكِبْر، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

والتاسعُ: المُحافظةُ علىٰ الصّلَواتِ الخمْسِ في مواقيتِها: برُكوعِها وسُجودِها، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

والعاشرُ: الاستقامةُ علىٰ السنّةِ والجماعة، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. انتهىٰ.

ــ وممّا وردَ في الوَرَعِ أيضاً:

قولُ النبيِّ ﷺ: «لا يبلُغُ العبدُ أن يكونَ منَ المُتّقينَ حتّىٰ يَدَعَ ما لا بأسَ بهِ حذَراً لِمَا بِهِ البأس»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥)، والحاكم (٤: ٣١٩)، وغيرهم، من حديث عطية السعدي رضي اللّه عنه. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن غريب...

عن عمرَ بنِ الخطـابِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: كنّا ندَعُ تسعةَ أعشارِ الحلالِ مَخافةً منَ الوقوعِ في الحرام.

وقالَ بعضُ الصحابة: كنّا ندَعُ سبعينَ باباً منَ الحلالِ مَخافةَ أن نقَعَ في بابٍ منَ الحرام.

وعن أبي هريـرةَ رضيَ اللّهُ عنه أنّ النبيَّ ﷺ قالَ له: «يا أبا هريرة، كُنْ وَرِعـاً تكُنْ أعبَـدَ النّـاس...»[1]. وفي روايـةٍ أخـرىٰ عن أبـي هريـرةَ أيضاً مرفوعاً: «اتَّقِ المَحارمَ تكُنْ أعبَدَ النّاس، وارْضَ بما قَسَـمَ اللّهُ لكَ تكُنْ أغنىٰ النّاس...»[2].

* * *

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧)، من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وأحمد (٢: ٣١٠).

الفصل الثاني
في طائفة من كلام العلماء والعارفين في الورع ومكانته من الدين

عن عبدِ اللّهِ بنِ عمرَ بنِ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنهُما قال: لو صلّيتُم حتىٰ تكونوا كالحَنايا، وصُمتُم حتىٰ تكونوا كالأوتار، لم يَتَقبّلِ اللّهُ ذلكَ منكُم إلا بورَعٍ حاجز.

وقالَ الإمامُ محمّدٌ الباقرُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: ما مِن عبادةٍ أفضَلُ مِن عِفّةِ بطنٍ وفرج.

وعن بعضِ العارفينَ قال: ما قطَعَ الخلْقَ عنِ الحقِّ وأخرَجَهُم مِن دائرةِ الولايةِ إلا عدَمُ تفتيشِهم عن هذهِ اللُّقمة. وكانَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ يقولُ: أطِبْ مَطعَمَكَ وما عليكَ أن لا تقومَ اللّيلَ ولا تصومَ النهار.

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللّه: مَن لم يكنْ مَطعمُهُ منَ الحلالِ لم يُكشَفْ عن قلبِهِ حجاب، وتسارَعتْ إليه العُقوبات، ولا تنفَعُهُ صلاتُهُ ولا صيامُهُ ولا صدَقتُه، وإنّما حجْبُ القلبِ عنِ الملكوتِ بسُوءِ المَطعَم. انتهىٰ. مِن «شرحِ العَينيّة».

وقالَ الإمامُ بِشْرُ بنُ الحارثِ رضِيَ اللّهُ عنه: أربعةٌ رفَعَهُمُ اللّهُ تعالىٰ

بطِيـبِ المَطعَم: وُهيبُ بنُ الورْد، وإبراهيـمُ بنُ أدهم، ويوسُفُ بنُ أسباط، وسَلْمٌ الخَوّاصُ[١]، رضِيَ اللّهُ عنهُم ونفعَنا بهِم. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفعَ به: إنّ الورَعَ مُهِـمّ، ولا طريقَ إلىٰ اللّهِ بدونِـه، ولا يستَطيعُـهُ إلا مَن وطّنَ نفْسَهُ علىٰ الصّبرِ علىٰ القِلّة، وراضَها حتىٰ تقنَعَ بالميسور، مِن غيرِ ٱلتفاتٍ إلىٰ الشّهوات، ولا تعريـجٍ علىٰ اللّذات، ولا ميلٍ إلىٰ الراحـات، هذا حُكمُ من أرادَ الوصولَ إلىٰ رفيعِ الدرَجات، ومُجاوَرةَ الحبيبِ عليهِ السّـلامُ في فَسيحِ الجنّات. ومَن لعِبتْ بهِ الأهواءُ ومالَتْ بهِ زِينةُ الدنيا فلا كلامَ معَه، ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. انتهىٰ. أو كما قال. مِن «مُكاتَبتِهِ» نفَعَ اللّهُ به.

وفي الأثر: «الحـرامُ يأتِيـكَ جُزَافاً، والحـلالُ لا يأتِيـكَ إلا قُوْتاً»[٢]، وإليهِ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ: ﴿إِذۡ تَـأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وحُكيَ أنّ الإمامَ الحسَنَ البصْريَّ رحِمَهُ اللّهُ زارَ أميرَ المؤمنينَ عمرَ بنَ عبدِ العزيـزِ رضِيَ اللّهُ عنه، فأخرَجَ لهُ عمرُ كِسرةً يابسةً ونِصفَ خِيارة، وقالَ له: كُلْ يا حسَن، فإنّ هذا الزمانَ لا يحتمِلُ الحَلالُ فيهِ الإسراف.

فعُلِمَ أنهُ لا يتيسّرُ للإنسانِ تحصيلُ الورَعِ وتحرّي الحلالِ إلا بالقَناعةِ

---

(١) سَلْم بن ميمون الخوّاص الـرازي (ت بعد ٢١٣هـ)، من كبـار عبّاد أهل الشام. قال إسماعيـل بن مَسْلَمة القعنبي: رأيتُ كأنَّ القيامة قد قامت، وكـأنّ منادياً ينادي، ألا لِيَقُمِ السابقـون. فقـام سفيـان الثوري، ثم نـادىٰ: ألا لِيَقُـم السابقـون. فقام سَلْمٌ الخـوّاص، ثم قام إبراهيم بن أدهـم. رضيَ اللّه عنهم جميعاً وألحقنا بهم في مستقر رحمته، آمين.

(٢) لم نقف علىٰ هذا الأثر أو قائله فيما بين أيدينا من المصادر.

والتّقليلِ منَ الدنيا وشَهَواتِها، فيقتصِرُ منَ الملبوسِ والمأكولِ والنّوم والكلام علىٰ ما لا بدَّ منه، خُصوصاً في هذا الزمـانِ الذي كثُـرَ فيهِ الحرامُ والشُّبُهات، وقلَّ الحلالُ والنيّاتُ الصالحات، إذِ الحلالُ لا يَحتمِلُ السَّرَفَ كما ورَد.

وقـد قالَ الإمامُ الغـزاليُّ رحمةُ اللّهِ عليه: لو كانـتِ الدنيا دماً عَبيطاً لم يأكُلِ المؤمنُ منها إلا حلالاً، إذ لا يأخُذُ منها إلا قدْرَ الحاجةِ والضّرورة، وقد أُبيحَ لهُ ذلكَ حتىٰ منَ المَيْتة. انتهىٰ.

وقـالَ في «شـرحِ العَينيّة»: قد وقَـعَ الإجماعُ علىٰ ثـلاثِ خِصـال، إذا صحّتْ كانتْ فيها النّجاة، ولا يتِمُّ بعضُها إلا ببعض، وهِيَ: الإسلامُ الخالي عنِ البِدْعةِ والهوىٰ، والصّدقُ في الأعمالِ للّهِ تعالىٰ، وطِيبُ المَطعَم. انتهىٰ.

ومن كلامِ سيّدِنا القُطبِ الشيخِ عبدِ الرحمنِ بنِ محمّدٍ السقّافِ نفَعَنا اللّهُ به: كلُّ عِلـمٍ بلا عَملٍ باطل، وكلُّ عِلـمٍ وعمَلٍ بلا نيّةٍ هَباء، وكلُّ عِلمٍ وعمَلٍ ونيّةٍ بلا سُنّةٍ مردود، وكلُّ عِلمٍ وعمَـلٍ ونيّةٍ وسُنّةٍ بلا وَرَعٍ خُسرانٌ يُخافُ علىٰ صاحبِهِ ــ عندَ المُوازَنةِ والقِصاصِ ــ ذهابُه. انتهىٰ. نقَلَهُ في «شرحِ العَينيّة».

وقـالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زَيـنٍ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: أصلُ كلِّ نقصٍ ومضَرّةٍ في الدِّينِ الشُّحُّ وقِلّةُ الورَع، وهذا هُوَ الحاملُ علىٰ تعاطي المُحرّماتِ في المُعامَلات.

وقالَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ الحدّادُ نفَعَ اللّهُ به: منَ الطاعاتِ ما يَقِيكَ النّار، ومنها ما يطرُقُ لكَ الجنّة، والوَرَعُ ممّا يَقِيكَ النار، فاستَـكثِرْ منهُ ما استَطعت، واستَقْلِلِ الكثيرَ منهُ ولا تَستكْثرِ القليل، والوَرَعُ هُوَ التقوىٰ. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

وحُكِيَ أنهُ دخَلَ الحسَنُ البصْريُّ رحِمَهُ اللّهُ مكّة، فرأىٰ غُلاماً مِن أولادِ علـيِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللّهُ عنـهُ وقد أسنَدَ ظهْـرَهُ إلىٰ الكعبةِ يعِظُ النّاس،

فوقفَ عليهِ الحسَنُ وقالَ له: ما مِلاكُ الدِّين؟ فقال: الورَع. فقال: ما آفةُ الدِّين؟ فقال: الطّمَع. فتعجَّبَ الحسَنُ منه.

ورُئِيَ سفيانُ الثوريُّ رحِمَهُ اللّهُ في المَنامِ ولهُ جناحانِ يطيرُ بهِما في الجنّةِ مِن شجَرةٍ إلىٰ شجَرة، فقيلَ له: بمَ نِلتَ هذا؟ قال: بالورَع. انتهىٰ. ذكَرَ ذلكَ في «الغُنية».

وعنِ الفُضَيلِ بنِ عِياضٍ قال: سُئلَ سفيانُ الثوريُّ عن فضلِ الصفِّ الأول، فقال: انظُرْ كِسْرتَكَ التي تأكُلُ مِن أينَ تأكُلُها وصَلِّ في الصفِّ الأخير.



الفصل الثالث
في حكايات الورعين من أئمة السلف والخلف

عن زيدِ بنِ أرقمَ قال: كانَ لأبي بكرٍ الصِّدّيقِ رضِيَ اللّهُ عنهُ مملوكٌ يُغِلُّ عليه[(١)]، فأتاهُ ليلةً بطعـامٍ، فتنـاوَلَ منهُ لُقمةً، فقالَ لهُ المملوك: ما لكَ كنتَ تسألُني كلَّ ليلةٍ ولم تسألْني الليلة؟ قال: حمَلَني علىٰ ذلكَ الجُوع. من أينَ جئتَ بهذا؟ قـال: مررْتُ بقومٍ في الجاهليّة، فرَقَيْـتُ لهُم فوعَدُونـي، فلمّـا أنْ كانَ اليومُ مررْتُ بهم، فإذا عرسٌ لهُم فأعطَوْني. قال: إنْ كدّتَ أن تُهلِكَني. فأدخَلَ يدَهُ في حَلْقِـه، فجعَلَ يتقيّأُ وجعَلَـتْ لا تخـرُج، فقيلَ له: إنّ هـذهِ لا تخرُجُ إلا بالمـاء، فدعا بطَسْتٍ مِن ماء، فجعَلَ يشرَبُ ويتقيّـأُ حتىٰ رمـىٰ بها. فقيلَ له: يرحَمُـكَ الله! كلُّ هذا مِن أجلِ هذهِ اللّقمـة؟ قال: لو لم تخرُجْ إلا معَ نفْسي لأخرجتُها، سمعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقـول: «كلُّ جسَدٍ نبتَ مِن سُحتٍ فالنّارُ أَوْلىٰ به»[(٢)]، فخَشِيـتُ أن ينبُتَ شيءٌ مِن جسَدي مِن هذهِ اللّقمة[(٣)]. وزادَ في «الإحياءِ» أنهُ قالَ بعدَه: اللّهُمَّ إني أستَغفِرُكَ وأعتَذِرُ إليكَ ممّا حمَلَتِ العروقُ وخالَطَتِ الأمعاء. وأنهُ ﷺ أُخبرَ بذلكَ فقال: «أَوَما علِمْتُم أنّ الصِّدِّيقَ لا يدخُلُ

---

(١) أي: يأتيه بالغَلّة، يقال: أغَلَّ علىٰ عياله. «المعجم الوسيط» (غ ل ل).

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث بنحوه ص ٥٢٠.

(٣) أخرج القصة أبو نعيم في «الحلية» (١ : ٣١).

جوفَهُ إلا طيّب؟»[١].

كانَ الشيخُ العارفُ باللّه الحارثُ المُحاسِبيُّ مِن كبارِ الورَعين، ومِن دقيقِ ورَعِهِ أنهُ ورِثَ مِن أبيهِ سبعينَ ألفَ دِرهم، فلم يأخُذْ منها شيئاً؛ لأنّ أباهُ كانَ يقولُ بالقَدَر، قال: وقد صحّتِ الروايةُ عن رسولِ اللّهِ ﷺ أنهُ قال: «لا يتوارَثُ أهلُ مِلّتَين»[٢]. وماتَ وهُوَ محتاجٌ إلىٰ درهم. ومِنَ المشهورِ أنهُ كانَ محفوظاً، إذا مدَّ يدَهُ إلىٰ طعامٍ فيهِ شُبهةٌ يتحرَّكُ في إصْبعِهِ عِرقٌ فيمتَنعُ مِن تناولِه، وهُوَ أحدُ شيوخِ الجُنَيدِ بنِ محمّد، وقيلَ لهُ: (المُحَاسِبيُّ) لكثرةِ مُحاسَبتِهِ لنفْسِه.

مسألة:

سئلَ سيّدُنا عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ عمّا كانَ يُحكىٰ عنِ الحارثِ المُحاسِبيّ، أنهُ كانَ إذا مدَّ يدَهُ إلىٰ طعامٍ فيهِ شُبهةٌ تحرّكَ عِرقٌ في أصبعِه، وقد كانَ الصّدّيقُ رضِيَ اللّهُ عنهُ شربَ اللبنَ الذي أعطاهُ غُلامُهُ مِن ثمنِ كَهانةٍ ولم يتحرّكْ فيهِ عِرق، وأينَ المُحاسِبيُّ مِن مقام الصدّيقِ رضِيَ اللّهُ عنه؟ فأجابَ بأنّ أبا بكرٍ الصدّيقَ رضِيَ اللّهُ عنهُ خليفةٌ مُشرِّعٌ للعبادِ حتىٰ يقتديَ بهِ مَن أكلَ طعاماً فيهِ شبهةٌ فيتقيأَه، والحارثُ المُحاسِبيُّ لم يكنْ كذلك، وإنّما يعمَلُ بقصدِ نفْعِ نفْسِه. انتهىٰ. منَ «النهرِ المورود».

مسألةٌ أخرىٰ:

قالَ الإمامُ الشافعيُّ في «الأُمّ»: لو أُسِرَ رجل فحُمِلَ علىٰ شُربِ محرَّمٍ أو

---

(١) لم نقف علىٰ هذه الزيادة فيما بين أيدينا من مصادر.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٩١١)، وابنُ ماجه (٢٧٣١)، من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضيَ اللّه عنهما.

أكلِ مُحرَّم، وخافَ إنْ لم يفعَلْه، فعليهِ أنْ يتقيأَه إنْ قدَرَ عليه.

قالَ النّوويُّ رحِمَهُ اللّه: وبهذا قالَ أكثرُ الأصحاب، وفي وجهٍ أنهُ لا يجب، بل يُستحَبّ، وصححّهُ القاضي أبو الطيّب[1]، ولا فرقَ بينَ المعذورِ وغيرِه. انتهىٰ. مِن «شرحِ المُهذب».

* * *

وحُكِيَ أنّ الشيخَ أبا إسحاقَ الشِّيرازيَّ رحِمَهُ اللّهُ دخَلَ يوماً مسجداً ليأكلَ طعاماً علىٰ عادتِه، فنَسِيَ فيهِ ديناراً، فذكَرَهُ في الطريق، فرجَعَ فوجَدَه، ففكّرَ ساعةً وقال: ربّما وقَعَ هذا الدينارُ مِن غيري، فترَكَهُ ولم يمَسَّه. ذكَرَهُ في مُقدّمةِ «شرحِ المُهذَّب».

وذكَرَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ الحدّادُ نفعَ اللّهُ بهِ في بعضِ مُكاتَباتِه: أنّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ رحِمَهُ اللّه كانَ يحرُسُ بستاناً لبعضِ الأغنياء، فخرَجَ صاحبُ البستانِ إليهِ وقالَ له: هاتِ بشيءٍ منَ الفواكهِ الحُلوة، فجاءَ بشيءٍ حامض، فقالَ له: أنتَ في البستانِ منذُ زمانٍ ولا تفرِّقُ بينَ الحُلوِ والحامض؟ فقالَ له: يا هذا، إنّي لم أذُقْ مِن فاكهةِ بُستانِكَ شيئاً.

قالَ في «الإحياء»: وحُكيَ أنّ ذا النُّونِ المِصريَّ حُبِسَ ولم يأكُلْ أياماً في السّجن، فكانتْ لهُ أُختٌ في اللّه، فبعثَتْ إليهِ طعاماً مِن مَغزِلِها علىٰ يدِ السجّان، فامتنَعَ فلم يأكُلْه، فعاتَبَتْهُ المرأةُ بعدَ ذلك. فقال: كانَ حلالاً، ولكنْ جاءَني علىٰ طبقِ ظالم، وأشارَ بهِ إلىٰ يدِ السجّان، وهذا غايةٌ في الورَع. انتهىٰ.

---

(١) الإمام الجليل القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد اللّه بن طاهر الطبري (٣٤٨ ـ ٤٥٠هـ)، من أئمة المذهب ورفعائه. قيل له وقد عُمِّر: لقد مُتِّعتَ بجوارحك! فقال: لِمَ لا وما عصيتُ اللّه بواحدةٍ منها قط.

قالَ الشيخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ في «الغُنية»: رُوِيَ عنِ ابنِ المُباركِ رحِمَهُ اللّه أنهُ كانَ بالشامِ يكتُبُ الحديث، فانكسَرَ قلمُه، فاستعارَ قلماً، فلمّا فرَغَ منَ الكتابةِ نسِي، فجعَلَ القلمَ في مِقلمتِه، فلمّا رجَعَ إلىٰ مروٍ رأىٰ القلَمَ وعرَفَه، فتجهّزَ للقدومِ إلىٰ الشامِ لِردِّ القلمِ إلىٰ صاحبِه.

ورُوِيَ أنّ أُختَ بِشرٍ الحافي جاءتْ إلىٰ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رحِمَهُمُ اللّهُ وقالت: يا إمام، إنّا نغزِلُ علىٰ سُطوحِنا فتمُرُّ بنا مشاعلُ الظاهريّةِ ويقعُ علينا، فهل يجوزُ الغزْلُ في شُعاعِها؟ فقال: مَن أنتِ عافاكِ اللّه؟ قالت: أنا أُختُ بِشرِ بنِ الحارث، فبكىٰ الإمامُ أحمدُ رحِمَهُ اللّهُ وقال: مِن بيتِكُم يخرُجُ الورَع! لا تغزِلي في شُعاعِها.

ومِن دقائقِ الورَعِ ما نُقِلَ عن الكهمسِ بنِ الحسَنِ[١] رحِمَهُ اللّهُ أنهُ قال: أذنبتُ ذنباً، وأنا أبكي عليهِ منذُ أربعينَ سنة، وذلكَ أنهُ زارَني أخٌ لي، فاشتريتُ بدانِقٍ سمكةً مشويّة، فلمّا فرَغَ مِن أكلِها أخذتُ قطعةً مِن طينِ جاري حتىٰ غسَلَ ولم أستحِلَّ له. انتهىٰ.

وذكَرَ النوويُّ رحِمَهُ اللّهُ في «تهذيبِ الأسماء»، عن المَدائنيِّ[٢] أنّ ابنَ سِيرينَ اشترىٰ بأربعينَ ألفَ درهمٍ زيتاً، فوجَدَ في زِقٍّ منهُ فأرةً فقال: ربّما كانتِ الفأرةُ ماتت في المِعصرة، فصبَّ الزيتَ كلَّه.

---

(١) أبو الحسن كَهْمَس بن الحسن التميمي البصري (ت١٤٩هـ)، المحدِّث الثقة، العابد الورع. كان باراً بأمّه، فلما ماتت حجَّ وأقام بمكةَ حتىٰ مات.

(٢) العلاّمة الحافظ الأخباري أبو الحسن علي بن محمد المدائني (١٣٢ ــ ٢٢٤هـ). نزل بغداد، وصنف التصانيف، وكان عجباً في معرفة السِّيَر والمغازي والأنساب وأيام العرب والشعر، ثقةً مصدَّقاً فيما ينقله، عاليَ الإسناد. من مؤلفاته: «سيرة ابن سيرين»، لعله الذي نقل عنه الإمام النووي هنا.

ولمّا حُبِسَ رضِيَ اللّهُ عنهِ في السّجنِ بسببِ دَيْنٍ عليهِ لغريمٍ لهُ قالَ لهُ السجّان: إذا كانَ اللّيلُ اْذهَبْ إلىٰ أهلِك، وإذا أصبحتَ فتعال، قال: لا واللّه، لا أُعينُكَ علىٰ خيانةِ السلطان. انتهىٰ.

ورُوِيَ أنّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ رحِمَهُ اللّهُ أخذَ يُغَطّي أنفَهُ حذَراً مِن ريحِ المِسكِ ببيتِ المالِ كانَ يوزَنُ بينَ يدَيه، وقال: وهلْ يُنتفَعُ مِنَ المِسكِ إلا بريحِه؟

وحُكيَ عن إبراهيمَ بنِ أدهمَ رحِمَهُ اللّه، أنهُ ردَّ تمرةً: منَ القدسِ إلىٰ البصْرةِ سقطت في تمرٍ اشتراهُ حالَ الوزنِ وغفَلَ عن ردِّها حينَئذ.

قالَ الجُنيدُ رحِمَهُ اللّه: كانَ الحارثُ المُحاسِبيُّ كثيرَ الضُّرّ، فاجتازَ بي يوماً وأنا جالسٌ علىٰ بابِنا، فرأيتُ علىٰ وجهِهِ زيادَةَ الضُّرِّ منَ الجُوع، فقلتُ له: يا عمّ، لو دخَلتَ إلينا نِلتَ مِن شيءٍ مِن عندِنا! وعمَدتُ إلىٰ بيتِ عمّي ــ وكانَ أوسعَ مِن بيتِنا لا يخلو مِن أطعمةٍ فاخرةٍ لا يكونُ مِثلُها في بيتِنا ــ فجئتُ بأنواعٍ كثيرةٍ منَ الطعام، فوضَعتُهُ بينَ يدَيه، فمَدّ يدَه، فأخذَ لُقمةً فرفَعَها إلىٰ فيهِ، فرأيتُهُ يعلُكُها، ثمّ ردَّها، ثمّ وثَبَ وخرَجَ وما كلّمَني، فلمّا كانَ الغَدُ لقِيتُهُ فقلتُ له: يا عمّ، سرَرْتَني ثمّ نغّصْتَ عليّ! قال: يا بُنيّ، أمّا الفاقةُ فكانتْ شديدة، وقدِ اجتهدتُ في أن أنالَ منَ الطعامِ الذي قدّمتَهُ إليّ، ولكنّ بيني وبينَ اللّهِ علامة، إذا لم يكنِ الطعامُ مَرْضيّاً ارتفعَ إليّ منهُ زفرةٌ فلم تقبَلْهُ نفْسي، فقد رَميتُ بتلكَ اللّقمةِ في دِهليزِكم[1]. انتهىٰ.

وفي «تثبيتِ الفؤاد»، عن سيّدِنا عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: حُكيَ أنّ حجّاماً دعا جماعةً منَ الصّالحينَ علىٰ طعامٍ حرام، فلم تمتدَّ

---

(١) الدِّهليز: ما بين البيت والباب، ساحة البيت وفِناؤه.

أيديهِم إليه، فعالَجوا[١] أن يأكُلوا منهُ فلم يستطيعوا، فخرَجوا، فقالَ بعضُهم لبعض: رأيتُهُ دماً عبيطاً، وقالَ آخرُ منهم: رأيتُه ناراً. وهذا أكمَلُ منَ الأوّل، إذ رآهُ علىٰ حقيقتِهِ وهِيَ النّار. انتهىٰ.

وحُكِيَ أنهُ سألَ بعضُهمُ الحسَنَ البصْريَّ عنِ الورَع، فقالَ له: ليسَ عندي منهُ شيء، وإنّما أدُلُّكَ علىٰ حرَّاثٍ يعرِفُ الورَعَ ويتّصفُ به، فدلَّهُ عليه. وسارَ إلىٰ ذلكَ الحرّاث وقالَ له: إنّ الحسَنَ دلَّني عليك، فقال: يرحَمُ اللّهُ الحَسَن، كانَ عهدُهُ بنا نعرِفُ الورَع، وأمّا الآنَ فقد ذهَبَ الورَع، لأنّ لي بقرةً خرجتْ مِن أرضي إلىٰ أرضِ غيري وأظلافُها رطبة، ثم رجعَتْ إلىٰ أرضي فوضعَتْ فيها مِن تُرابِ الغير. انتهىٰ.

وحُكيَ عنِ الإمامِ الشيخِ أبي محمّدٍ الجُوَينيِّ أنهُ دخَلَ بيتَه، فوجَدَ ابنَهُ إمامَ الحرَمين يرتَضعُ ثديَ غيرِ أُمِّه، فاختطفَهُ منها، ثم نكَسَ رأسَهُ ومسَحَ بطنَهُ وأدخَلَ أصبعَهُ في فِيه، ولم يزَلْ يفعَلُ ذلكَ حتىٰ خرَجَ ذلكَ اللّبنُ قائلاً: يسهُلُ عليَّ موتُهُ ولا تفسُدُ طِباعُهُ بشُربِ لبنِ غيرِ أُمِّه، ثم لمّا كبِرَ الإمامُ كانَ إذا حصَلتْ لهُ كَبْوة ــ أي: ثِقَلٌ في اللّسانِ في المُناظَرة ــ يقول: هذهِ مِن بقايا تلكَ الرّضعة. انتهىٰ.

وقد ورَدَ في الخبر: «الرّضاعُ يُغيِّرُ الطِّباع»[٢]. قالَ الإمامُ الدِّيرينيُّ: العادةُ جاريةٌ أنّ مَنِ ارتضَعَ منَ امرأة، فالغالبُ عليه أخلاقُها إنْ خيراً أو شرّاً، ولذا جاءَ في الحديث: «تخيَّروا لِنُطَفِكُم»[٣]. ذكَرَ ذلكَ في «كشفِ الخَفاء».

---

(١) أي: غالبوا المنْع ودافعوه، حاولوا.

(٢) أخرجه القضاعي من حديث ابن عبّاس رضيَ اللّه عنهما، وأخرجه أبو الشيخ من حديث ابن عمر رضي اللّه عنهما. يُنظر «كشف الخفاء» (١: ٥١٩ ــ ٥٢٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٩٦٨)، من حديث السيدة عائشة رضيَ اللّه عنها.

حكاياتٌ عن أهلِ الوَرَعِ منَ السادةِ العَلَويين

وأمّا الحكاياتُ المروِيّةُ عنِ السّلَفِ العَلَويّينَ رضِيَ اللّهُ عنهُم في الورَعِ فكثيرةٌ مشهورة، وقد قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ نفعَ اللّهُ به: السّلَفُ العَلَويّونَ لهُمُ ورَعان: ورَعٌ يختَصُّونَ به، ووَرَعٌ يشارِكُهم فيهِ غيرُهم. أمّا الورَعُ الذي يختَصّونَ بهِ فالورَعُ في أموالِ النّاسِ وفي أَبضاعِ[1] النساءِ يحتاطُونَ فيهِما، وغيرُهم يتبَعُ كلامَ العلماء.. إلىٰ آخِرِ ما قال.

فمِن ذلكَ ما ذكَرَهُ الحبيبُ عليُّ بنُ حسنٍ العطّاس، عنِ الإمامِ القُطبِ عمرَ بنِ عبدِ الرحمنِ العطّاسِ نفعَ اللّهُ بهِما، قال: روىٰ الفقيهُ عبدُ اللّهِ بنُ عمرَ باعبّاد أنّ بعضَ الوُلاةِ المُباركِينَ مِن آلِ الكثيريِّ، وهُوَ السلطانُ بدرُ بنُ عبدِ اللّهِ الكثيريّ[2]، أتىٰ إلىٰ سيّدِنا عمرَ نفعَ اللّهُ به، زائراً لهُ قاصداً قريةَ (حُريضة)، وقدِمَ لهُ رسولٌ يستأذِنُهُ في الدّخولِ إلىٰ بلدِهِ المذكورة، وكانَ السلطانُ وجنودُهُ نازلينَ بمكانٍ قريبٍ منَ البلد، وكانَ معهُ جندٌ عظيمٌ وأتباع، فقال سيّدُنا عمرُ للرسول: قُل للسلطان: نحنُ نأتِيهِ إلىٰ المكانِ الذي هُوَ نازلٌ فيه، ولا يأتي هُوَ إلينا أبداً؛ لأنّا أحقُّ بذلك، ولأنّهُ إذا قَدِمَ علينا البلدَ يكلِّفُ أهلَها أشياءَ كثيرةً شاقّة، ونكونُ نحنُ سبباً لذلك، بلْ قُلْ له: يقِفْ مكانَهُ حتىٰ نأتيَهُ إن كانَ مُمتثِلاً لنا.

---

(١) الأبضاع: الفروج.

(٢) سلطان حضرموت بدر بن عبد اللّه بن جعفر، أبو طويرق الكثيري (٩٠٢ ـ ٩٧٧هـ). مولده وسلطنته ووفاته بسيؤون. تولىٰ صغيراً بعد وفاة والده، ونشأ موفّقاً في سياسته، طيّب السيرة، وافرَ العقل، جواداً. أول من عمل علىٰ توحيد مناطق حضرموت. صدّ غارات البرتغاليين مراراً، وأطفأ كثيراً من الفتن الداخلية في بلاده، وطالت مدة حكمه.

فأتىٰ الرسولُ وأعلَمَهُ بما قالَ لهُ السيّد، فقالَ السلطان: السّمعُ والطاعة. ثم إنهُ خرَجَ بعدَ أن أمَرَ بعضَ الأخدام يفعَلُ لهُ قهوةً علىٰ عادةِ الجهة، واحتَملَ الخدّامُ القهوة، وأمَرَهُ أيضاً أن يحمِلَ الجَمْرةَ بنارِها للبَخورِ بعدَ القهوة، فقيلَ لهُ: إنّ عندَ السلطانِ ناراً، فقال: نحنُ لا نستعمِلُ نارَ السلطانِ أبداً.

فبعدَ أن وصَلَ السيّدُ المذكورُ إلىٰ عندِ السلطان، حصَلتْ بينَهما مُحاوَرةٌ في الكلام، وصدَرَ منهُ لهُ نصائحُ ومَواعظُ وإشارات: في دِينِهِ ودنياه، وشرِبوا القهوةَ التي مِنه.

ثم إنّ السلطانَ قالَ لبعضِ غِلمانِهِ أن يفعَلَ قهوةَ عسَلٍ إكراماً للسيّد، وحيلةً لطولِ المجلسِ المُباركِ ــ وكانَ السيّدُ المذكورُ مكفوفَ البصَرِ الظاهر ــ فامتثَلَ الغُلامُ إشارةَ السّلطانِ وبادَرَ لذلك، وقرّبَ طَسْتاً كبيراً وفَشَطَ[1] فيهِ قربةَ ماء، وجعَلَ فيهِ عسلاً كثيراً وحُقْبةً منَ البُنّ[2]، وجعَلَ يُوقِدُ عليه، فأبطَأَ الفوْر، فنَدَبَ إليهِ السلطانُ رسولاً: أنْ هاتِ ما معَك، فنظَرَ في الوِعاءِ فلم يجدْ فيهِ قطرةَ ماء، ولا وجَدَ فيه شيئاً ممّا طرَحَهَ فيه! فقامَ مبهوتاً بعدَ أن رأىٰ الطَّستَ كأنّهُ رَضْفة[3]، وأعلَمَ السلطانَ بذلك، فعرَفَ السلطانُ ما عندَ ذلكَ الإمامِ مِن الورَعِ الدقيقِ والكراماتِ الظّاهرة، واعتَذَرَ إليه، وقال: يا سيّدي، قلَّيْنا عليكَ الأدبَ! وقال: يا سبحانَ اللّه، تتورّعونَ حتىٰ مِن نارِنا؟ فقالَ لهُ السيّد: نعمْ، لو لم نكنْ هكذا ما كنّا هكذا. فافهَمْ هذهِ الإشارةَ وما انطَوتْ عليهِ منَ العلومِ الخَفيّاتِ والأسرارِ الفائقات. انتهىٰ مُلخَّصاً منَ المُجلّدِ الأوّلِ مِن كتابِ «القِرطاس».

---

(١) فشط: قطع، وزناً ومعنىٰ.

(٢) حُقبة البن: كميةٌ منه مطحوناً.

(٣) الرضفة: الحجر المحمّىٰ بالنّار أو الشمس.

وممّا يُحكىٰ مِن ورَع الإمام قطبِ العارفينَ وإمام المُرشِدينَ الحبيبِ عمرَ ابنِ حسنٍ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفعَنا به، أنهُ اشترىٰ يوماً سَمْناً منَ السُّوق، ولمّا كان بالطريقِ طلَبَ منهُ بعضُ مَن لاقاهُ أن يحمِلَهُ إلىٰ البيت، فدفَعَهُ إليه، فلمّا أنّ بلّغَهُ إلىٰ البيتِ قيلَ له: إنّ الذي حمَلَ لكَ السمْنَ جنديٌّ مِن جنودِ الدولة، فتصدّقَ بالسّمْنِ وقال: لا آكُلُ شيئاً حمَلَهُ ظالم، أو ما هذا معناه. انتهىٰ. ذكَرَهُ الحبيبُ سالمُ بنُ حفيظٍ في «مِنحةِ الإلٰه».

وعن الحبيبِ العلّامةِ عبدِ الرحمنِ بنِ محمّدٍ المشهورِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قالَ في الحبيبِ طالبِ بنِ عبدِ اللّهِ العَطّاس[1]: إنهُ خرَجَ يتنزّهُ بعدَ سيْلٍ إلىٰ (الحُجَيل)[2]، فوجَدَ حُفَرَ النّخلِ مَلآنةً بالماء، فهمَّ أن يغرِفَ مِن إحداها ثمّ امتنَع، فقيلَ لهُ في ذلك، فقالَ: إنّ النّخلةَ قدِ استحقّتْ ذلك. وإنهُ كانَ يأتي بحجَرِ استِنجاءٍ مِن جِرْبٍ كانَ لهُ من آبائِهِ خارجَ البلدِ، وغنمُهُ ترعىٰ في الجِرْبِ المذكورِ وتخرُجُ منَ الدارِ مُقَدَّمةً خوْفَ الأكْلِ مِن أموالِ النّاس. انتهىٰ. مِن خطِّ الحبيبِ سالمِ بنِ حفيظ.

قالَ الحبيبُ الإمامُ عليُّ بنُ محمّدٍ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: كانَ الحبيبُ محمّدُ بنُ حسينٍ الحبَشيُّ[3] صاحبَ (عَنَق)[4] كثيرَ الورَع، بلَغَ مِن ورَعِهِ أنهُ لا

---

(١) طالب بن عبد اللّه بن طالب العطاس، أخذ عن الحبيب أبي بكر بن عبد اللّه العطاس. توفي بحريضة سنة (١٢٩٦هـ)، كان من الصالحين العارفين.

(٢) موضعٌ قريبٌ من تريم، كثير النخل والظل، حسنٌ للنزهة. يُنظر: «إدام القوت» ص٩٧٠.

(٣) السيّد العارف الورع، الحبيب محمد بن حسين الحبشي، أخذ عن الحبيب صالح العطّاس، والحبيب محسن بن حسين العطّاس، وغيرهما. وكان من أهل الورع. حكيَ أن بقرةً له ندّت وأكلت من أرض بعض الناس، فلم يشرب لبنها أربعين يوماً، وكان يحلبه في تلك الأرض. حاشية «إدام القوت» ص٢٧٨.

(٤) يُنظر: «إدام القوت» ص٢٧٨.

يشرَبُ مِـن ماءِ السبيلِ إذا استقـرَّ في حُفرةِ النّخلةِ التي في مُلكِه، ويقولُ: إنّ النّخلةَ قدِ استحقّتْه. انتهىٰ.

وحُكـيَ أنّ الحبيـبَ محمّدَ بنَ أبي بكـرِ بنِ محمّـدِ العَيْدروسَ[١] رضِيَ اللّهُ عنـهُ وَرَدوا عليـهِ ضِيفـانٌ ولا معَـهُ شيءٌ في الدار، واستقـرَضَ قرشاً من بعضِ مُحبّيه، وأوصىٰ خادمَهُ يأخُذُ لهُ مـنَ السُّوقِ ما يحتاجُهُ للضِّيفان، وأبطأَ عليـهِ جدّاً، فلمّـا وصَلَ إليهِ قـالَ له: أبطأتَ علينا، قال: يا حبيـب، القِـرش زايـف، ما نفَـق، ولكنّـي قَمَـرْت البانيان يومه كافر[٢]، فقالَ لـهُ: رُدّ قِرشي. البـانيـان بايغِـشّ به مسلـم. وجـاءَ البانيـان إلىٰ عنـدِ الحبيبِ محمّـدٍ وقـالَ له: خُـذِ الحـوائجَ وأنـا راضـي بالقِرش، فقـالَ لـه: ما لي حاجةٌ فـي حقِّك، إن كنـتَ صـادقـاً اِكسِر القِـرش، حتىٰ جـاؤوا بالقـرشِ وكسَـروه. انتهـىٰ. ذكَـرَ ذلك الحبيـبُ أحمـدُ بـنُ علـيٍّ الـجُنَيـدُ[٣] فـي «شرحِـهِ» علـىٰ قصيدةِ

---

(١) السيد الحبيب محمد بن أبـي بكر بن محمد بن عبـد الرحمٰن بن محمد بن أحمد بن الحسين بن الشيخ عبد اللّه العيدروس، توفي بتريم سنة (١٢٠٤هـ)، كان إماماً ورعاً شديد الـورع والاحتيـاط، وله أخبار غريبـة فـي ذلك. ويشتبـه باسمه عَلَـمٌ آخر هو محمـد بن أبي بكر بن عبد اللّه بن أحمد بن الحسيـن بن عبد اللّه العيدروس، توفي بتريم سنة ١٠٩٢هـ. كان ولياً عظيماً، وهو المعروف بـ(صاحب المدفع).

(٢) (البانيـان): هم الهنود، كذا كان المتقـدمون يسمونهم، وقد يطلقونه علىٰ الأعاجم عموماً. (قَمَرْت): بمعنىٰ خدَعْت. (يومه): بمعنىٰ لأنَّهُ.

(٣) الحبيب الولـي، العالم العارف، السيـد أحمد بن علي بن هارون الجنيد جمل الليل العلوي الحسيني، مولده بتريم سنـة (١١٩٥هـ)، وبها وفاته سنة (١٢٧٥هـ). أخذ عنه أكابر عصره كالحبيب عبد الرحمٰـن صاحب البطيحاء، والحبيب عمر بن أحمد الحداد، والحبيب عبد الرحمٰن بن حامد وغيرهم، قال بعض عارفيه: منذ عرفته ما أظنـه تركَ قيـام الليل. أحيا علم التجويـد في حضرموت بعـد أن درسه وتلقـاه في الحرمين وصنعاء.

مُذْهِر[١]. وفي روايةٍ أنهُ قال: ونحنُ بانطوي هذه الليلة من العِشاء، والضِّيفانُ سواءٌ بِهم إنْ بايجلِسون وإنْ بايسهَرون.

***

وفي كتابِ «الفوائدِ السَّنيّةِ» للإمامِ أحمدَ بن حسنٍ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنه، عندَ ذِكْرِ مناقبِ أهلِ (تَرِيم)، قال: وممّا رُوِّينا من وَرَعِهم أنّ فقراءَهم وأبناءَ دِينِهم لا يأكُلونَ طعامَ الرعيّةِ وأبناءِ الدنيا أصلاً، وأنّ رعيّتَهم وأبناءَ دنياهُم لا يأكلونَ طعامَ سلاطِينِهم.

وعن محمّدِ بنِ الشيخِ عبدِ الرحمنِ الخطيب[٢]، قالَ: ما كنّا نعرِفُ في (تريمَ) حراماً أصلاً في ذُبُورِها[٣] ونخيلِها سوىٰ بئرِ (بني تَميم)، يُسمُّونَها النّاسُ (بئرَ الغيْب)، بالمُعجَمةِ والمُثنّاةِ التّحْتية. قال: وليسَ أجِدُ منَ النّاسِ يزرَعُها إلا النّادرُ مِن أعوانِ السَّلطنة. قال: وبُستانٌ آخرُ فيهِ نُخَيلاتٌ يتجنّبُ الناسُ ثمرَها، حتىٰ الصِّبيانُ الصّغارُ لا يأكلونَ ما يتساقطُ منها قبلَ بدُوِّ الصّلاح، معَ أنهُ مباحٌ عندَ الناسِ في العادة، وإنْ أكَلَ منهُ أحدٌ منَ الصّغارِ عيَّرَهُ أصحابُهُ حتىٰ لا يعود.

ورُوِّينا أنّ السلطانَ المُباركَ عبدَ اللّهِ بنَ راشدٍ[٤] كانَ يقول: في بلادي

---

(١) واسم هذا الشرح: «النَّوْر المُزْهِر شرح قصيدة مُذْهِر»، في علم النسَب. ومُذْهِر هو: الإمام السيّد عبد اللّه بن جعفر مُذْهِر العَلَوي.

(٢) لم نقف علىٰ ترجمته بعد.

(٣) الذبور: القطع المزروعة من الأرض.

(٤) السلطان الصالح العالم عبد اللّه بن راشد القحطاني الحِمْيَري (٥٥٣ ـ ٦١٦هـ)، كان فقيهاً محدِّثاً عالماً، طلب العلم بمكة وغيرها، وسمع الحديث علىٰ ابن أبي الصيف وابن عساكر والحافظ عبد الغني المقدسي وغيرهم. كان عصره من أحسن =

ثلاثُ خِصالٍ أفتخِرُ بها علىٰ السّلاطين: الأُولىٰ: لا يوجَدُ فيها حرام، الثانية: لا يوجَـدُ فيهـا سارق، الثالثـة: لا يوجَـدُ فيها مُحتـاج، وذلكَ لِمُـواصَلتِهِـم وتعاطُفِهم. انتهىٰ معَ بعضِ حذْف.

ونقَلَ في «تثبيتِ الفؤادِ» عنِ القُطبِ عبدِ اللّهِ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: كانتْ لأهلِ (تريمَ) مناقبُ حسَنة، وذكَروا مِن جُملتِها أنهُ دخَلَ رجلٌ مِن (بيتِ جُبَيرٍ) في سابقِ الزمانِ إلىٰ (تريمَ) حاملاً زِمالةً مملوءةً بَلَحاً، وأرادَ بيعَه، فلم يَنفُقْ لهُ ولا أحدَ ساوَمَه، فضَجِرَ منهُ فطرحَهُ عندَ بابِ بعضِ المخازنِ علىٰ دَكّة، ورآهُ صاحبُ الدُّكّان، فلمّا انصرفَ أخذَهُ وباعَه، وميَّزَ ثمنَه، وبقِيَ يتسبّبُ فيهِ ببيعٍ وشراءٍ حتىٰ ربَا وزاد. وبعدَ عِدّةِ سنينَ جاءَ ذلكَ الرجلُ صاحبُ الزِّمالةِ عندَ صاحبِ المَخزن، وجعَلَ يتحدّثُ معَه، وقال: كنتُ أتيْتُ سنةً مِن السّنينَ إلىٰ هذا المَوضعِ بزمالةٍ فيها بلَح، ورمَيتُ بها هُنا، فقالَ له: أنتَ صاحبُها؟ قالَ: نعمْ. قال: أُدخلِ المخزن، خُذْ هذا المالَ فإنّهُ حقُّك، وحكىٰ لهُ بما فعَلَ بها، فأخذَهُ وانصرف، أو كما قال.

وقالَ سيّدُنا الحبيبُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: تولّىٰ بعضُ القضـاةِ القضـاءَ بِـ(حضرَموْتَ) ثمانيَ عشْرةَ سنة، وما رُفِعـتْ إليـهِ إلا قضيةٌ واحدةٌ حكَمَ فيها.

اشتـرىٰ رجـلٌ مِن آخَرَ قطعةَ أرضٍ في (صوح)، فوجَدَ فيها كَنْزاً، فقالَ المُشتري للبائع: هذا كَنْزُكَ فخُذْهُ. فقال: أنا بِعتُكَ الأرضَ بما فيها، قال: لا،

= عصور حضرمـوت التاريخية. مات مقتولاً، اغتاله أحد رجال القبائل. إليه ينسب وادي حضرموت فيقـال: وادي ابن راشد. مدفنـه بتربـة مَرْيَمـة. رحمه اللّه رحمةً واسعة.

إنّمـا اشتريتُ منكَ الأرضَ وحدَها. فترافعَا إلىٰ القاضي فسألَهُما: هل لكُما أولاد؟ فقـال أحدُهمـا: لي بِنـت، وقالَ الآخـر: لي ولَد، فحكَمَ بينَهما بأنْ يتـزوّجَ الابنُ البنـتَ ويُنفَـقَ عليهِمـا مِن ذلكَ الكَنْـز. انتهـىٰ. مِن «مجمـوعِ كلامِه».



الفصل الرابع
في فوائد أكل الحلال وثمراته في الحال والمآل

فمِنْها:

ـــ الإنهاضُ للطّاعةِ والعِبادة:

ففي الأثَر: «مَن أكـلَ الحلالَ أطاعَـتْ جوارِحُـهُ شاءَ أم أبىٰ، ومَن أكلَ الحرامَ عَصَتْ جوارِحُهُ شاءَ أم أبىٰ»(١).

قـالَ سيّدُنـا الإمـامُ عبدُ اللّهِ بنُ حسيـنِ بنِ طاهـرٍ رضِـيَ اللّهُ عنه: أكْلُ الحلالِ أصلٌ كبير، ولا تزْكو العبادةُ ويظهَرُ أثرُها إلا إذا كانتِ اللُّقمةُ طيّبةً مِن غيـرِ شُبَه، فالحـلالُ كالأصلِ للعبادة، والشيءُ لا يستقيمُ إلا إذا صلَحَ أصلُه، وردُّ درهمٍ مِن شُبهةٍ خيرٌ مِن ألفِ درهمٍ يُتَصدَّقُ به. انتهىٰ. أو كما قال.

ومِنْها:

ـــ استجابةُ الدُّعاء:

رُويَ أنّ سعدَ بنَ أبي وقّاصٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ سأَلَ رسولَ اللّهِ ﷺ أن يسأَلَ اللّهَ تعالىٰ أن يجعَلَهُ مُستَجابَ الدّعوة، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلام: «يا سعد،

---

(١) لم نجده بعد لا مرفوعاً ولا غيره.

أطِبْ مَطْعَمَكَ تكُنْ مُسْتَجابَ الدّعوة»[١].

ومِنْها:

ــ صلاحُ الذُّرّية:

قالَ سيّدي الشيخُ عبدُ القادرِ الجيلانيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «الغُنية»: وإذا ظهرَتْ أمارةُ حبَلِ المرأةِ فلْيُصَفِّ غذاءَها منَ الحرامِ والشُّبهة، ليُخلَقَ الولدُ علىٰ أساسٍ لا يكونُ للشيطانِ عليهِ سبيل، والأَوْلىٰ أن يكونَ مِن حينِ الزّفاف، ويدومُ علىٰ ذلكَ ليخلُصَ هُوَ وأهلُهُ وولدُهُ منَ الشيطانِ في الدنيا ومنَ النارِ في العُقبىٰ. قالَ اللّهُ عزَّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، ومعَ ذلكَ يخرُجُ الولدُ صالحاً باراً بأبَويهِ طائعاً لربِّه، كلُّ ذلكَ ببركَةِ تصفيةِ الغِذاء. انتهىٰ. مِن كتابِ «آدابِ النّكاح».

ومِنْها:

ــ الحِكمةُ وتَنوِيرُ القَلْب:

يُروىٰ: «مَن أكلَ الحلالَ أربعينَ يوماً نوّرَ اللّهُ قلبَه، وأجْرىٰ ينابيعَ الحكمةِ مِن قلبِهِ علىٰ لِسانِه»، وفي رواية: «زَهَّدَهُ اللّهُ منَ الدُّنيا»، ذكَرَ ذلكَ في «الإحياء»[٢].

وعن سهلِ بنِ عبدِ اللّهِ رحِمَهُ اللّهُ قال: مَن أرادَ أن يُكاشَفَ بأحوالِ

---

(١) تقدَّم تخريجه ص ٥٢٠ بلفظه التام.

(٢) قال الحافظ العراقي في «تخريجه» (٢: ٨٩): أخرجه أبو نعيم في «الحلية» من حديث أبي أيوب [بلفظ]: «من أخلص للّه أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه» [يأتي هذا اللفظ مخرَّجاً بتوسع في ص ٦٣٤ ــ ٦٣٥]، ولابن عدي نحوه من حديث أبي موسىٰ، وقال: حديث منكر.

الصِّدِّيقينَ فلا يأكُلْ إلا حلالاً طيباً، ولا يعمَلْ إلا في سُنّةٍ أو ضرورة. انتهىٰ.

قالَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ مِن أثناءِ «المُكاتَبة»: ثمّ إنّ صلاحَ القلبِ يدورُ بعدَ أخْذِ ما لا بدَّ منهُ منَ العِلمِ علىٰ ثلاثةِ أمور:

أحدُها: التقلُّلُ منَ المطعومِ وكونُهُ مِن حلال.

الثاني: ترْكُ مُخالَطةِ أبناءِ الزمانِ بكلِّ حال.

الثالث: استِشعارُ الموتِ القاطعِ للآمال.

فعنِ الأوّلِ تكونُ استِنارةُ الجَنان، وعنِ الثاني تحصُلُ السّلامةُ للإنسان، وبالثالثِ يستقيمُ الأمرُ ويصلُحُ الشان. انتهىٰ.

ومِنْها:

ـ التداوي منَ الأمراض:

كانَ يونُسُ بنُ عُبيدٍ[1] رحِمَهُ اللّهُ يقول: لو أنّا نجدُ درهماً مِن حلالٍ لكُنّا نشتري بهِ قمحاً ونطحَنُهُ ونحوزُهُ عندَنا، فكلُّ مَن عجَزَ الأطباءُ عن مُداواتِهِ داوَيناهُ بهِ فخلَصَ مِن مرَضِهِ لوقتِه. انتهىٰ. من «تنبيهِ المغترّين» للشّعراني.

ومِنْها:

ـ ما رُوِيَ عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ وكرَّمَ وجهَه:

أنه قال: مَن جعَلَ الحلالَ قُوتاً أُجيبَتْ دعوتُه، وكَمُلَتْ مُروءتُه، وحسُنَتْ سريرتُه، ورقّتْ دمعتُه، وعلَتْ كلمتُه، وحصَلَتْ أُمنِيتُه، وطابتْ مَنِيَّتُه، وطهُرتْ ذُرِيّتُه، وتنَوّرتْ نُطفتُه، وظهَرتْ حِكمتُه، وقلَّ غضَبُه، ورَقَّ

---

(١) الإمام القدوة الحجة أبو عبد الله يونس بن عبيد البصري (ت١٤٠هـ)، من صغار التابعين وفضلائهم، كان ثقةً ورعاً، كثير الاستغفار، مقيماً للحقوق.

قلبُـه، وخفَّ ذنبُـه. وردُّ درهمٍ حرامٍ أفضَـلُ عندَ اللّهِ مِـن أربعـةِ آلافِ حَجّةٍ مقبولة. انتهىٰ. منَ «الحديقةِ الأنيقة» للإمامِ بَحْرَق.

تنبيهٌ: في ذمِّ الشِّبَعِ منَ الحلال:

اِعلَمْ أنّ كثرةَ الشِّبَعِ منَ الحـلالِ مذمـومٌ جداً، وفيه قَساوةُ القلبِ وفتورٌ عنِ العبادةِ ونشاطٌ في الانجـرارِ معَ قبائحِ العـادة. قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّه: ما شبِعتُ منذُ ستَّ عشْـرةَ سنةً إلا شبْعةً طرحتُها مِن ساعتي؛ لأنّ الشِّبَعَ يُثقِلُ البدَنَ ويُقسّي القلب، ويُزيلُ الفِطنةَ ويجلِبُ النّوم، ويُضعِفُ صاحبَهُ عنِ العبادة.

ومِن كلامِ لُقمـانَ الحكيمِ عليهِ السـلام: يا بُنـيّ، إذا امتلأَتِ المَعِـدة، نامتِ الفِكرة، وخرِسَتِ الحِكمة، وقَعَدتِ الأعضاءُ عنِ العبادة.

وعن الإمـامِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ كرَّمَ اللّهُ وجهَهُ قال: ما شبِعتُ قطّ، إلاّ عصَيْتُ أو همَمْتُ بالمعصية.

قـالَ الإمـامُ الغزاليُّ رحمَـه اللّه: وقـد قيل: إنّ أولَ بِدْعـةٍ حدثَـتْ في الإسلامِ: الشِّبَع، إنّ القومَ لمّا شَبِعَتْ بُطُونُهم جَمَحَتْ نفوسُهم. انتهىٰ.

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس
في الحثّ على العمل لاكتساب الحلال

قالَ النبيُّ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: «مَن أمسىٰ كالاً مِن عمَلِ يدِه، أمسىٰ مغفوراً له»(١).

وقـال ﷺ: «مَن طلَبَ الدُّنيا حـلالاً، وتعفُّفاً عنِ المسألـة، وسَعْياً علىٰ عِيالِه، وتعَطُّفاً علىٰ جارِه، لَقِيَ اللّهَ ووَجْهُهُ كالقمرِ ليلةَ البدْر»(٢).

وكانَ ﷺ جالساً معَ أصحابِهِ ذاتَ يوم، فنَظَروا إلىٰ شابٍّ ذي جَلَدٍ وقوةٍ وقد بَـكَّرَ يسعىٰ، فقالوا: ويْحَ هذا! لو كانَ شبابُهُ وجَلَدُهُ في سبيـلِ اللّه! فقالَ ﷺ: «لا تقولُوا هذا، فإنّهُ إن كانَ يسعىٰ علىٰ نفْسِهِ ليَكُفَّها عنِ المَسألةِ ويُغْنِيَها عنِ النّـاس فهُوَ في سبيلِ اللّه، وإن كـانَ يسعـىٰ علىٰ أبوَينِ ضَعيفَينِ أو ذُرِّيَـةٍ ضِعافٍ ليُغْنِيَهُم ويكفِيَهُم فهُوَ في سبيلِ اللّه، وإن كانَ يسعىٰ تفاخُراً وتكاثُراً فهُوَ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧: ٢٨٩)، من حديث ابن عبّاس رضيَ اللّه عنهما. قال الهيثمي في «المجمع» (٤ : ٦٣): فيه جماعةٌ لم أعرفهم. انتهىٰ. قال العراقي في تخريج «الإحياء» (٢ : ٩٠): فيه ضعف.

(٢) أخرجـه البيهقي في «الشُّعَب» (٧: ٢٩٨)، وأبـو نعيم فـي «الحليـة» (٨: ٢١٥)، وغيرهما، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

في سَبيلِ الشَّيطان»[١].

وعن المِقدام رضيَ اللّه عنه، مرفوعاً: «ما كَسَبَ الرجلُ كَسْباً أطْيَبَ مِن عمَلِ يدِه، وما أنفَقَ الرجلُ علىٰ نَفْسِهِ وأهلِهِ وولَدِهِ وخادِمِهِ فهُوَ صَدَقة»[٢].

وسئلَ رسولُ اللّهِ ﷺ: أيُّ الكَسْبِ أطيَبُ؟ قال: «عمَلُ الرجلِ بيدِه، وكلُّ بَيعٍ مبرور»[٣].

قالَ أبو عُبيدة[٤]: المَبرور: الذي لا يُخالِطُه كذِبٌ ولا شيءٌ منَ المآثم، أي: لا شُبهةَ ولا خِيانةَ ولا خديعة.

وقالَ لقمانُ لابنِه: استَغْنِ بالكَسْبِ الحلالِ عنِ الفقْر، فإنهُ ما افتقَرَ أحدٌ قطُّ إلاّ أصابَهُ ثلاثُ خِصال: رِقّةٌ في دِينِه، وضعفٌ في عقْلِه، وذهابُ مروءتِه. وأعظمُ مِن هذهِ الثلاثِ استخفافُ النّاسِ به.

وسُئلَ بعضُهم عنِ التاجرِ الصَّدوقِ: أهُوَ أحبُّ إليكَ أم المتفرِّغُ للعبادة؟ فقال: التاجرُ الصَّدوقُ أحبُّ إليّ؛ لأنهُ في جهاد، يأتيهِ الشيطانُ مِن طريقِ المِكْيالِ والميزانِ ومِن قِبلِ الأخْذِ والعطاء، فيُجاهِدُه، أي: ولا يُطاوِعُهُ فيما يأمُرُهُ بهِ منَ المحرَّمات.

وقيلَ للإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رضِيَ اللّه عنهُ: ما تقولُ فيمَن جلَسَ في بيتِهِ

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (٢: ١٤٨)، من حديث كعب بن عجرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٣٨) وغيره من حديث المقدام بن معدي كرب رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٤: ١٤١)، وغيره، من حديث رافع بن خَدِيج رضيَ اللّه عنه.

(٤) الإمام العلاّمة البحر، أبو عبيدة مَعْمَر بن المثنّىٰ البصري (ت٢١٠هـ)، من أئمة النحو واللغة والتاريخ، وتصانيفه تقارب المئتين.

أو مسجدِهِ وقالَ: لا أعمَلُ شيئاً حتىٰ يأتيَنـي رِزْقي؟ فقـالَ الإمامُ أحمد: هذا رجلٌ لم يسمعِ العِلم، أمَا سمعَ قولَ النبيِّ ﷺ: «إنّ اللّهَ جعَلَ رِزْقي تحتَ ظلِّ رُمْحي»(١)؟ وكانَ أصحابُ رسولِ اللّهِ ﷺ يتّجرونَ في البَرِّ والبحر، ويعمَلونَ في نَخِيلِهم، والقدوةُ بِهِم. انتهىٰ.

قالَ الحُبَيْشِيُّ في كتابِ «البرَكة»: وقد كانَ لكلِّ واحدٍ منَ الأنبياءِ عليهمُ الصّلاةُ والسّلامُ حِرفةٌ يعيشُ بها، فكـانَ آدمُ حرّاثاً وحائكـاً، وكانتْ حـوّاءُ غزّالـة، وكـانَ إدريسُ خيّاطاً وخطّاطـاً، وكـانَ نوحٌ وزكـريا نجارَيْن، وهـودٌ وصالحٌ تاجرَيْن، وكانَ إبراهيمُ زرّاعاً ونجاراً، وكانَ أيوبُ زرّاعاً، وكانَ داودُ زرّاداً، أي: حـدّاداً يصنَعُ الزّرْد، وهُوَ الـدِّرع، وكانَ سليمانُ خوّاصاً، وكانَ موسىٰ وشعيبٌ ومحمّدٌ ﷺ وسائرُ الأنبياءِ عليهِمُ السّلامُ رُعاةً. انتهىٰ.

وعن عليٍّ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: جُعتُ مرةً جوعاً شديداً، فخرَجتُ لطَلبِ العمَلِ في عَوالي المدينة، فإذا أنا بٱمـرأةٍ قد جمَعَتْ مدَراً، فظننتُها تريدُ بلَّه، فقاطعتُها: كلُّ ذَنوبٍ علىٰ تمرة، فمدَدْتُ ستةَ عشَرَ ذَنوباً حتىٰ مجَلَتْ يداي(٢)، ثم أَتيتُها فَعدَّتْ لي ستَّ عشرةَ تمرة، فأتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرتُه، فأكَلَ معي(٣).

قالَ الإمامُ الشَّعرانيُّ رحِمَهُ اللّهُ في «الأنوارِ القدُسيّة»: أُخِذَ علينا العهدُ العـامُّ مِن رسولِ اللّهِ ﷺ أن نجتهدَ فـي طلبِ الحلال، لنأكُـلَ منهُ ونلبَسَ منهُ ونُنفـقَ علىٰ عيالِنا منهُ وإخوانِنا منه، فإنهُ موجودٌ ما دامَ المكلَّفـونَ في الدنيا، وإذا صدَقَ العبدُ في طلبِ الحلالِ استخرَجَهُ اللّهُ مِن بَينِ الحرامِ والشُّبهاتِ كما يستخرِجُ اللّبنَ مِن بينِ فرْثٍ ودم. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢: ٥٠)، من حديث ابن عمر رضيَ اللّه عنهما.

(٢) أي: تقرّحت من شدّة العمل.

(٣) أخرجه أحمد (١: ١٣٥)، من حديث علي عليه السلام.

مطلبٌ

في المُفاضَلةِ بينَ أنواعِ المكاسِب:

(الزِّراعة، التجارة، الصِّناعة)

قالَ المَاوَرْدِي: أصولُ المكاسبِ: الزّراعةُ والتجارةُ والصّناعة، وأيُّها أطيبُ؟ فيهِ ثلاثةُ مذاهبَ للنّاس: أصَحُّها بمذهبِ الشافعيّ: أنّ التجارةَ أطيَب. قال: والأصَحُّ عندي أنّ الزّراعةَ أطيَب؛ لأنّها أقربُ إلىٰ التوكُّل.

وذكَرَ الشّاشي وصاحبُ «التّبيانِ»[1] وآخرونَ نحوَ ما ذكَرَهُ المَاوَرْدِي، وأخَذُوهُ عنه.

قال النّوَويّ: في «صحيحِ البُخاريِّ» عنِ المِقدام بنِ مَعْدِيْ كَرِبَ رضِيَ اللّهُ عنه، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «ما أكلَ أحَدٌ طعاماً قطُّ خيراً مِن أن يأكُلَ مِن عمَلِ يدِه، وإنّ نَبِيَّ اللّهِ داودَ ﷺ كانَ يأكُلُ مِن عمَلِ يدِه»[2]. فالصّوابُ ما نصَّ عليهِ رسولُ اللّهِ ﷺ، وهُوَ عمَلُ اليد، فإن كانَ زرّاعاً فهُوَ أطيَبُ المَكاسبِ وأفضَلُها؛ لأنهُ عمَلُ يدِه، ولأنّ فيهِ توكُّلاً كما ذكَرَهُ المَاوَرْدِي، ولأن فيهِ نفْعاً عامّاً للمسلمينَ والدوابّ، ولأنهُ لا بدَّ في العادةِ أن يؤكَلَ منهُ بغَيرِ عِوَض، فيحصُلُ لهُ أجرُه. وإنْ لم يكنْ ممّن يعمَلُ بيدِهِ بل يعمَلُ لهُ غِلمانُهُ وأُجَراؤهُ فاكتسابُهُ بالزِّراعةِ أفضَلُ لِمَا ذكَرْناه.

وقد ثبَتَ عن جابر رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّه ﷺ: «ما مِن مسلمٍ يغرِسُ غرْساً إلا كانَ ما أُكِلَ مِنهُ لهُ صَدَقة، وما سُرِقَ منهُ فهُوَ صَدَقة، ولا يَرْزَؤهُ

---

(١) كذا في الأصل المنقول عنه، ولعلها: «البيان» ومؤلفه هو الإمام العمراني، وقد طبع.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٧٢)، من حديث المقدام رضيَ اللّه عنه.

أحدٌ إلا كانَ لهُ صَدَقة». رواهُ مسلمٌ في «صحيحِه»[١]. ومعنىٰ يزرؤه: ينقُصُه. وفي روايةٍ لمسلم أيضاً: «لا يَغْرِسُ المسلمُ غَرْساً، فيأكُلُ منهُ إنسانٌ ولا دابّةٌ ولا طيـر، إلاّ كانَ لهُ صَدَقةً إلىٰ يوم القيامة»[٢]. وفي رواية: «لا يَغْرِسُ مسلمٌ غَرْساً ولا يـزْرَعُ زَرْعاً، فيأكُلُ منـهُ إنسانٌ ولا دابّـةٌ ولا شـيء، إلاّ كـانتْ لهُ صَدَقة». رواهُ البُخاريُّ ومسلمٌ مِن روايةِ أنس[٣]. انتهىٰ. مِن «شرحِ المُهذّب» للنوَوي.

وقالَ النوَويّ: إذا ماتَ الغارسُ فلهُ ثوابٌ مستمرٌّ: مِن حينِ الغرسِ إلىٰ فناءِ المغـروس، وللوارثِ أيضاً ثوابُ ما أُكِـلَ مِن ثمَـرِهِ مِن غيرِ مُعاوَضةِ مدةِ استحقاقِه. انتهىٰ.

ورجّحَ الشيخُ ابنُ حجَرِ الهَيْتَميُّ في «فتاويهِ الحَديثيّةِ» أنّ التجارةَ أفضَلُ منَ الزراعة. قالَ رحِمَهُ اللّهُ بعدَ إيرادِهِ أحاديثَ تدُلُّ علىٰ فضلِ التجارة:

وبهذهِ الأحاديثِ يُستدَلُّ علىٰ ما قالهُ جماعةٌ مِن أصحابِ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ عنه، مِن أنّ التجارةَ أفضَلُ منَ الزراعةِ وأفضَلُ منَ الصّناعة، ويدُلُّ لهُ أيضاً أنهُ ﷺ اتّجَرَ مرّاتٍ ولـم يثبُتْ عنهُ أنهُ زرَعَ ولا أنهُ كانتْ لهُ صنْعة. واللّهُ سبحانَهُ لا يختارُ لنبيِّهِ ﷺ إلاّ الأفضَل، وقدِ اختارَ لهُ مِن أصولِ المَكاسِبِ، التي هِيَ: التجـارةُ والزّراعةُ والصّناعة، التجارةَ دونَ الزّراعةِ والصّناعة، فهذا يدُلُّ علىٰ فضْلِها. انتهىٰ.

ومِن أثناءِ «المُكاتَبةِ» لسيّدِنا القُطبِ عبدِ اللّهِ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال:

---

(١) «صحيح مسلم» (١٥٥٢)، من حديث جابر بن عبد اللّه رضيَ اللّه عنه.
(٢) «صحيح مسلم» (١٥٥٢)، من حديث جابر رضيَ اللّه عنه.
(٣) «صحيح البخاري» (٢٣٢٠)، «صحيح مسلم» (١٥٥٣).

وأمّا الأخْذُ في الأسبابِ المَعاشيّةِ منَ الحرثِ والغرْس، والأخذُ في التجارة، فالتجارةُ فيها خطَر، سيّما في هذهِ الأزمنة، والحرثُ والغرْسُ أقلُّ خطراً وأكثرُ نفعاً لصاحبِهِ ولغيرِه، وفيهِ أخبارٌ وآثارٌ مذكورةٌ تدُلُّ علىٰ البرَكةِ ودوامِ المَثُوبة، فخذوا في ذلكَ بالمُتيسِّرِ والأقلِّ شغلاً لئلاّ يفرُقَ القلبُ ويكثُرَ الاشتغالُ بالأمورِ الدنيويّة. انتهىٰ.

وقالَ رضِـيَ اللّهُ عنه: حرْثُ السمـاءِ يُضاهي التجـارةَ في برَكتِه، وهُوَ أقربُ إلىٰ الحِلّ. وقيلَ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾: التجارة، ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]: الحرْث. انتهىٰ.

وقالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّـاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: التجـارةُ تبغي ثلاثَ خِصال: الهِمّة، والنيّة، والتوكّلَ علىٰ اللّهِ تعالىٰ.

مطْلَب

الحلالُ هو علىٰ ما في اعتقادِ الكاسِب لا علىٰ ما في نَفْسِ الأمر

قـالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَـهُ اللّه: اعلَـمْ أنّ الحـلالَ بيِّن، والحـرامَ بيِّنٌ وبينَهمـا أمورٌ متشابهـات، كذلكَ كانَ في عصرِ رسولِ اللّهِ ﷺ، وكـذلكَ أبدَ الدّهر. فاستمِدَّ منَ السّرِّ الذي ذكَرناه، فإنّكَ غيرُ متعبِّدٍ بما هُوَ في نفْسِهِ حلال، بل بمـا هُوَ في اعتقادِكَ حـلال، لا تعرِفُ سبباً ظاهراً في تحريمِه، فقد توضّأَ رسولُ اللّهِ ﷺ مِن مَزادةِ مُشركة، وتوضّأَ عمرُ رضِيَ اللّهُ عنهُ مِن جرّةِ نصرانيّـة، ولو عطِشـوا لشَربوا منه. وشرْبُ الماءِ النّجِسِ حرام، ولكنِ استصحَبوا يقينَ الطّهارةِ ولم يترُكوها لِتوَهُّمِ النّجاسة.

وقال رحِمَهُ اللّهُ أيضاً: اِعلَمْ علىٰ الجُملةِ أنّ المحذورَ منَ الحرامِ إظلامُ

القلب، والمطلوبُ منَ الحلالِ تنويرُه، وذلكَ يتشعّبُ منَ اعتقادِكَ لا مِن نفْسِ المعتقَـد، فمَن وطىءَ امرأةً علىٰ ظنِّ أنها أجنبيـة، فإذا هِـيَ منكوحَتُه، حصَلَ إظلامُ القلب، ولو وطىءَ أجنبيةً علىٰ ظنِّ أنها زوجتُهُ لم يحصُلْ. انتهىٰ. منَ «الأربعينَ الأصل».

وقالَ سيّدُنا الإمامُ محمّدُ بنُ زين بنِ سُميطٍ نفعَ اللّهُ به ــ في معنىٰ قولِ أبي عبدِ اللّهِ القُرشيّ: «الوليُّ لا يأكُلُ إلاّ حلالاً» ــ: معناهُ أنّ حالَ الوليِّ حُسنُ الظنِّ بسائرِ عبادِ اللّه، فلا يُقدِّرُ في العالَمِ أحداً بعينِهِ أنهُ يسرِقُ أو يظلِمُ أو يَزيغُ أو يَحيـفُ أو يُعامِلُ بالجَوْرِ قطّ؛ لأنّ سجيتَـهُ تتقاضـىٰ منهُ عـدَمَ تقديرِ ذلكَ، لكونِهِ ما لابَسَهُ واتّصفَ به، ولا يقدِرُ الإنسانُ أن يُقدِّرَ في الإنسـانِ ما ليسَ في مقدورِه، وهكذا هِيَ عادةُ أهلِ اللّهِ جرتْ: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣]. وليسَ العبدُ مُتعبَّداً بحقيقةِ الأمر، بل هُوَ متعبَّدٌ بما يعلَم، وهُوَ لم يعلَمْ بحُرمةِ ذلكَ الشيءِ لحُسنِ ظنّه. انتهىٰ. مِن «مجمَعِ البحرَين».

فائدة:

قالَ الإمامُ الشَّعرانيُّ رحِمَهُ اللّه: سمعَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضِيَ اللّهُ عنهُما شخصاً يقول: اللَّهُمَّ ارزُقْني حلالاً صافياً، فقالَ له: يا هذا، سَلْ ربَّكَ رِزْقاً لا يُعذّبُكَ عليه، فإنّ الحلالَ الصافيَ إنّما هُوَ رزْقُ الأنبياءِ عليهِمُ الصّلاةُ والسّلام. انتهىٰ.

وعنِ الحبيبِ أحمـدَ بنِ حسَـنٍ العطّاسِ نفعَ اللّهُ بهِ قال: هذا دعاءُ أهلِ البيت، ويُسمُّونَه الدعاءَ الرّطب:

«اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ صحّةً في تقوىٰ، وطولَ عمُرٍ في حُسنِ عمَل، ورزقاً واسعاً لا تُعَذِّبُني عليه». انتهىٰ.

مسألة :

مَذهبُنا أنّ الأصلَ في الأشياءِ الإباحةُ حتىٰ يدُلَّ الدليلُ علىٰ التحريم، لقولِهِ ﷺ: «ما أحَلَّ اللّهُ فهُوَ حلال، وما حرَّمَ فهُوَ حرام، وما سَكَتَ عنهُ فهُوَ عَفْـو، فاقبَلوا منَ اللّهِ عافيتَـه، فإنّ اللّهَ لـم يكنْ لِيَنْسىٰ شيئـاً»[1]. وعنـدَ أبي حنيفة: الأصلُ فيها التحريمُ حتىٰ يدُلَّ الدليلُ علىٰ الإباحة، ويظهَرَ أثَرُ الخلافِ في المسكوتِ عنه.



(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» والبزّار (برقم ١٢٣)، من حديث أبي الدرداء رضيَ اللّه عنـه، بإسنادٍ حسنٍ رجاله موثقـون، كمـا قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١ : ١٧١). قال البزّار: إسناده صالح.

الفصل السّادس
في النهي عن تناول المحرّمات والمظالم
وما ورد فيه من الوعيد الشديد

ــ الحرامُ نوعان:

اعلَمْ أنّ الحرامَ: إمّا لِعينِهِ وإمّا لِعارِض. فأمّا المُحرَّمُ لِعيْنِهِ فكالمَيْتةِ والخمر، والمُحرّمُ لعارضٍ فكأخْذِ أموالِ النّاسِ بالباطل، قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]. وقالَ اللّهُ عزَّ وجَلّ: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

ــ مِن عُقُوباتِ آكِلِ الحرام:

١) زوالُ حسَناتِه:

عن سالـمٍ مَولىٰ أبي حُذيفةَ رضِيَ اللّهُ عنـهُ قـال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لَيُجاءَنَّ بأقوامٍ يومَ القيامةِ مَعَهُم منَ الحسَناتِ مِثلُ جبالِ تِهامة، حتىٰ إذا جيءَ بهِمْ جعَلَ اللّهُ أعمالَهم هَباء، ثمّ قذَفَهُم في النّار». فقالَ سالم: يا رسولَ اللّه،

بأبي أنـتَ وأُمِّي، حَلِّ لنا هؤلاءِ القومَ[١] حتىٰ نعرِفَهُم، فوالذي بعَثَكَ بالحقّ، إنِّـي أتخـوّفُ أن أكـونَ مِنهُـم. فقـال: «يا سالـم، أمَا إنّهُـم كانوا يَصُـومـونَ ويُصَلُّـون، ولكنّهُم إذا عرَضَ لهُمْ شيءٌ مِن الحرام وثَبُوا عليه، فأدحَـضَ اللّهُ تعالىٰ أعمالَهُم». قال مالكُ بنُ دينارٍ رحِمَهُ اللّه: هذا واللّهِ النِّفاق[٢].

٢) استِحقاقُه دخولَ النار:

جاءَ في الحديثِ المرفوع: «يأتي علىٰ النّاسِ زمانٌ لا يُبالي المَرْءُ ما أخَذَ منه: أَمِنَ الحلالِ أم منَ الحرام»[٣].

كانَ الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ رحِمَهُ اللّهُ يقول: اكتسِبوا منَ الحلالِ وتصدَّقوا منه، فإنّ رسولَ اللّه ﷺ قال: «مَن لم يُبَالِ مِن أينَ اكتَسَبَ المالَ لم يُبالِ اللّهُ بهِ مِن أينَ يُدْخِلُهُ النّار»[٤]. ذكَرَهُ الشَّعرانيُّ في «تنبيهِ المُغترّين».

وقال ﷺ: «والذي نفْسي بيدِه، لأنْ يأخُذَ أحدُكُم حَبْلَه فيَحتطِبَ ثمَّ يأتيَ به يَحمِلُـه علىٰ ظَهْرِه، فيبيعَه فيأكلَ، خيرٌ له مِنْ أنْ يسألَ الناس، ولأَنْ يأخُذَ تراباً، فيجعَلَهُ في فيه، خيرٌ لهُ مِن أن يجعَلَ في فيهِ ما حَرَّمَ اللّهُ عليه»[٥].

٣) شِدّةُ حسابِهِ يومَ القيامة:

نقَلَ التـاجُ السُّبكـيُّ في «طبَقاتِه»، عن الإمامِ الغزاليِّ مِن أثناءِ وصيّةٍ لهُ لبعضِ أهلِ عصْرِه، أنهُ رُوِيَ:

---

(١) أي: صِفْهُم.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١: ١٧١)، من حديث سالم مولىٰ أبي حذيفة رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٥٩)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٤) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر الحديثية.

(٥) أخرجه أحمد (٢: ٢٥٧)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

«شرُّ الأغنياءِ يومَ القيامةِ أربعُ فرَق: رجلٌ جَمَعَ مالاً مِن حرامٍ وأنفقَهُ في حرام، فيُقال: اذهَبُوا بهِ في النّار. ورجلٌ جَمَعَ مالاً مِن حرامٍ وأنفَقَهُ في حلال، فيُقال: اذهَبُوا بهِ في النّار، ورجلٌ جَمَعَ مالاً مِن حلالٍ وأنفَقَهُ في حرام، فيُقال: اذهَبُوا بهِ في النّار، ورجلٌ جَمَعَ مالاً مِن حلالٍ وأنفقَهُ في حلال، فيُقال: قِفوا هذا واسألوه، لعلَّهُ ضَيَّعَ بسببِ غِناهُ فيما فَرَضْنا عليه، أو قَصَّرَ في الصّلاة، أو في وُضوئها أو ركُوعِها أو خُشوعِها، أو ضَيَّعَ شيئاً مِن فُروضِ الزّكاةِ أو الحجّ، فيقول: جَمَعْتُ المالَ مِن حلالٍ وأنفقْتُهُ في حلال، وما ضَيَّعْتُ شيئاً مِن حُدودِ الفرائض، أتَيتُها بتمامِها، فيقول: لعلّكَ باهَيْتَ واخْتَلْتَ في شيءٍ مِن ثيابِك، فيقول: يا ربّ، ما باهَيْتُ ولا اختَلْتُ في ثيابي، فيقول: لعلَّكَ فرَّطتَ فيما أمَرْناكَ بهِ مِن صِلَةِ الرَّحِمِ وحَقِّ الجيرانِ والمساكين، وقَصَّرْتَ في التقديمِ والتأخيرِ والتفضيلِ والتعديل. ويُحيطُ هؤلاءِ به، فيقولون: ربَّنا، أغنَيْتَهُ بينَ أظْهُرِنا، وأحوَجْتَنا إليه، فقَصَّرَ في حقِّنا. فإنْ ظهَرَ التقصيرُ ذُهِبَ بهِ إلىٰ النّار، وإلاّ قيلَ له: قفْ هاتِ الآنَ شُكْرَ كلِّ لُقْمةٍ وكلِّ شَرْبةٍ وكلِّ أكْلةٍ وكلِّ لَذَّة، فلا يزالُ يُسأَل»[1].

فهذا حالُ الأغنياءِ الصّالحين، القائمينَ بحقوقِ اللّهِ تعالىٰ: أن يطُولَ وقوفُهم في العَرَصات! فكيفَ حالُ المُفرِّطينَ المُنهمِكينَ في الحرامِ والشّبُهات، المُتكاثِرينَ به، المُتنعِّمينَ بشهواتِهم، الذين قالَ اللّهُ تعالىٰ فيهم: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾؟ انتهىٰ المقصُودُ منه.

٤) عدمُ قبولِ أعمالِهِ وصَلاتِه:

قال عليهِ الصّلاةُ والسّلام: «إنّ للّهِ ملَكاً علىٰ بيتِ المَقْدِسِ يُنادي كلَّ ليلة: مَن أكَلَ حراماً لم يُقْبَلْ منهُ صَرْفٌ ولا عَدْل»؛ قيل: الصَّرْف: النافلة.

(١) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر الحديثية.

والعدْل: الفريضة. ذكَرَهُ الإمامُ الغزاليُّ في «الإحياء»[١].

وقالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللّهُ عنهُما: لا يقبَلُ اللّهُ صلاةَ العبدِ وفي جوفِهِ شيءٌ مِن حرام.

٥) لا يُوفَّقُ لعمَلِ الصّالحات:

قالَ سيّدُنا القُطبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: واعلَمْ أنّ الذي يتناولُ الحرامَ والشبُهاتِ قَلَّ أن يوفَّقَ للعمَلِ الصالح، وإن وُفّقَ لهُ ظاهراً فلا بدَّ أن يعرِضَ لهُ منَ الآفاتِ الباطنةِ ما يُفسِدُهُ عليه، كالعُجبِ والرِّياء، وعلىٰ كلِّ حالٍ فالذي يأكُلُ الحرامَ عمَلُهُ مردودٌ عليه؛ لأنّ اللّهَ طيّبٌ لا يقبَلُ إلا طيّباً. انتهىٰ.

٦) ما اكتُسِبَ من حرامٍ فلا يُصرَفُ إلا في مِثلِه:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: والأموالُ الحرامُ ما تَروحُ إلا في الحرام.

ومرةً قال: إذا أردْتَ أن تعرِفَ مالاً: هلْ هُوَ حلالٌ أم حرامٌ فانظُرْ فيما يُصرَفُ: في حلالٍ أم حرام؟ فإنّ المالَ الحرامَ يأبىٰ أن يُصرَفَ إلا فيما هُوَ أصلُه.

وشبَّهَ رضِيَ اللّهُ عنهُ أموالَ أهلِ الزمانِ بالنار، لكونِهم في غيرِ الطريقِ يسهُلُ عليهِم إخراجُه، وفي الطريقِ يعسُرُ عليهِم ذلك. انتهىٰ. مِن «تثبيت الفؤاد».

ـ التحذيرُ مِن مَظالِمِ العِباد:

عن حُذيفةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّ اللّهَ أوحىٰ إليّ: يا أخا المُرسَلينَ ويا أخا المُنذِرين، أَنذِرْ قومَكَ أنْ لا يدْخُلوا بيتاً مِن بُيوتي

---

(١) ولم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر الحديثية.

ولأحـدٍ عندَهُم مَظْلَمة، فإنّي ألْعَنُهُ ما دامَ قائماً بينَ يدَيَّ يُصلّـي حتىٰ يرُدَّ تلك الظُّلامةَ إلىٰ أهْلِها، فأكونَ سَمْعَهُ الذي يسْمَعُ به، وأكونَ بصَرَهُ الذي يُبْصِرُ به، ويكونَ مِن أوليائي وأَصْفِيائي، ويكونَ جاري معَ النّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ في الجنّة»[١].

وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أوْحىٰ اللّهُ إلىٰ بعضِ أنبيائِه: أنْ قلْ لِلظَّلَمةِ: لا يذكُرُوني، فإنِّي أذْكُرُ مَن ذكَرني، وإنّ ذِكْري إيّاهُم أن أَلْعَنَهُم»[٢].

وعن سفيـانَ الثوريِّ قال: قُحِطَ بنو إسرائيـلَ سبعَ سنيـن، حتـىٰ أكَلوا الميْتةَ والأطفال، فكانوا يخرُجونَ إلىٰ الجبالِ يتضرّعونَ فلا يُجابُون، فأوحىٰ اللّهُ إلىٰ موسـىٰ: أنْ قُـلْ لهُم: لو عبَدتُّموني حتىٰ صِرتُم كالسَّوطِ البالـي، ما قبِلتُ لكمُ دعاءً حتىٰ ترُدّوا المظالمَ إلىٰ أهلِها.

وورَدَ في بعـضِ الآثـارِ أنّ الفَلْـسَ الواحدَ مِن مظالِـمِ العبادِ تؤخَـذُ فيهِ سبعُمِئةِ صلاةٍ مقبولة.

وظُلمُ العبادِ هُوَ الظّلمُ الذي لا يُترَك، قال اللّهُ تعالىٰ في بعضِ ما أنزَل: «أنا الظّالمُ إن لم أنتقِمْ منَ الظالم»، وجاءَ أيضاً أنهُ تعالىٰ قال: «لو كانَ الظّلمُ حجَراً مُلقىً في الجنّةِ لخَرَّبْتُ الجنّةَ بسببِه». انتهىٰ.

ـ حُرمةُ الأكلِ بالدِّينِ أو العِلْمِ أو النَّسَب:

رُوِيَ مرفوعاً: «مَن أكَلَ بالعِلْمِ طمَسَ اللّهُ علىٰ وجهِهِ، ورَدَّهُ علىٰ عَقِبَيه، وكانتِ النّارُ أوْلىٰ بهِ»[٣].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦: ١١٦)، من حديث حذيفة رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجـه البيهقـي في «الشُّعَب» (٦: ٥٥)، من حديث ابن عبّاس رضيَ اللّه عنهما، وأوله: «أوحىٰ اللّه عزَّ وجل إلىٰ داود: يا داود قل للظلمة. . . »إلخ.

(٣) أخرجه الشيرازي في «الألقاب»، والديلمي وأبو نعيم، من حديث أبي هريرةَ رضيَ =

وعن عطيّةَ بنِ بسرٍ مرفوعاً في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]، قال: علّمَ اللّهُ آدمَ عليهِ السّلامُ ألفَ حِرفةٍ منَ الحِرَفِ وقالَ له: قلْ لأولادِك وذُريتِك: إن لم يصبِروا عن الدنيا فاطلُبوها بهذهِ الحِرفِ ولا تطلُبوها بالدِّين، فإنّ الدِّينَ لي وحدي خالصاً. ويلٌ لمَن طلَبَ الدنيا بالدِّين، ويلٌ له! انتهىٰ(١).

وقالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ في معنىٰ الأكلِ بالدِّين: مِثلَ أن يُعطيَكَ لظنِّـهِ أنكَ ورعٌ تقِيّ، ويكون مِن شـرطِ حلِّهِ أنْ لا يكونَ في باطِنِكَ ما لو اِطّلعَ عليـهِ المُعطي لامتنَعَ منَ الإعطاء، فـلا فرقَ بينَ مَن يأخُذُ بالتصوّفِ والتقوىٰ وليسَ هُوَ متّصِفاً بذلك وبينَ مَن يزعُمُ أنهُ عَلَويٌّ ليُعطىٰ وهُوَ كاذب، وكلُّ ذلكَ حرامٌ عند ذوي البصائر، وإن أفتىٰ الفقيهُ بالحِلِّ بناءً علىٰ الظاهر.

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: لو أعطىٰ أحدٌ شيئاً علىٰ ظنِّ صَلاحِهِ وهُوَ يعلَمُ خُلُوَّهُ عنِ المظنونِ فيه، فتناوُلُهُ لهُ حرام، ومَن خافَ العدَّ ــ كلِصٍّ ونحوِهِ وقال: إنّي شريفٌ أو: صالح ــ فلا يضُرُّهُ ذلك، إلا إن فعَلَ ذلكَ علىٰ وجهِ التلبُّسِ أو لجلْبِ مصلحةٍ دونَ دفْعِ مضَرّة. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ شِهابُ الدِّيـنِ أحمدُ بنُ عَلَوي باحَسَنٍ جَمَلُ اللّيلِ(٢)

= اللّه عنه، كما في «فيض القدير» (٦: ٨٤) ورمز السيوطي له بالضعف.

(١) أخرجـه الديلمي في «الفردوس» (٣: ٤٢ برقم ٤١٠٥)، وعـزاه فـي «كنز العمّال» (٢٩٠٩١) إلىٰ الحاكم في «تاريخه»، وعزاه الشوكاني في «تفسيره» إلىٰ الديلمي وابن عساكر.

(٢) السيد الشريف، العلاّمة المحدِّث المسند، مفتي الشافعية بمدينة رسول اللّه ﷺ، وتوفي بها سنة (١٢١٦هـ). كان إماماً واسع الاطلاع، وأسرته من مدينة (الشِّحْر)، وهاجـر والده وجده إلىٰ الحجاز. أفـاض في ذكر أعيـان أسرته وأصولهـا المؤرخ =

نفَعَ اللّهُ بهِ في «ذخيرةِ الخير»[1]: إنّ الإنسانَ في هذهِ العصورِ الحديثةِ لا يستفيدُ شيئاً مِن أهلِ الدنيا إلا بأمور: أحدُها: بالتلبيسِ وإظهارِ زِيِّ الصّلاحِ والزُّهدِ ونحوِهما وهُوَ علىٰ خلافِ هذا في نفْسِ الأَمر؛ لأنهُ لو كانَ صادقاً فيما تزيّا بهِ لمَا صنَعَ ذلك، فما حصَلَ بذلكَ مُندرجٌ في شرِّ أبوابِ الغصْبِ وأقبحِ وجوهِ أكْلِ أموالِ النّاسِ بالباطل، ولا يحِلُّ أخذُهُ ولا التصرُّفُ فيه بوجهٍ منَ الوجوهِ، بل هُوَ باقٍ علىٰ مُلكِ أصحابهِ المأخوذِ منهُم كما صرَّحَ بهِ في «التّحفةِ» في بابِ الغصْبِ وصدقةِ التطوُّع، فيجبُ عليهِ ردُّه بعينِه إن كانَ باقياً، ومِثلُهُ إن كان مِثْليّاً وتلِف، أو ردُّ أقصىٰ قيمةٍ إن كان مُتقوَّماً. ويجبُ عليهِ التوبةُ الصادقةُ وإلا كانَ ظالماً فاسقاً مُندرِجاً فيمَن لعَنَهُمُ اللّهُ في كتابِهِ العزيزِ بقولِه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]. وهذا حرامٌ بإجماعِ أئمّتِنا الشافعيّةِ وغيرِهم.

ـ ذمُّ سؤالِ الناسِ وحُكمُ المأخُوذِ به:

عن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «مَن سَأَلَ النّاسَ أموالَهُم تكَثُّراً، فإنّما يَسأَلُ جَمْراً، فلْيسْتَقِلَّ أو لِيَسْتكْثِرْ»[2]. وفي رواية: أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تزالُ المَسْألةُ بأحَدِكُم حتىٰ يلقىٰ اللّهَ وليسَ في وجهِهِ مُزْعةُ لحم»[3]. قالَ القاضي عِياض: قيلَ: معناهُ يأتي يومَ القيامةِ ذليلاً ساقطاً لا وجهَ

= الأديب السيد محمد بن عبد اللّه باحسن في كتابه: «نشر النفحات المسكية في تاريخ الشحر المحمية»، مخطوط في جزأين.

(١) واسمه كاملاً «ذخيرة الخير فيما سأل عنه محمد باقيس وعمر باجسير» مخطوط.

(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٠٤١).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٥)، ومسلم (١٠٤٠)، من حديث ابن عمر رضيَ اللّه عنهما. =

لهُ عندَ اللّه، وقيلَ: هُوَ علىٰ ظاهِرِه، فيُحشَرُ ووجهُهُ عظْمٌ لا لحمَ عليهِ عقوبةً لهُ وعلامةً لهُ بذنبِهِ حينَ طلَبَ وسألَ بوجهِه، وهذا فيمَن سألَ لغيرِ ضرورةٍ سؤالاً منْهيّاً عنهُ وأكثرَ منهُ كما في الروايةِ الأخرىٰ: «مَن سألَ تكثُّراً»، واللّهُ أعلم. انتهىٰ. مِن «شرحِ مسلم» للنوَوِي.

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ السؤالَ منَ الفَواحش: كالزّنا والسّرقة، وما أُبيحَ منَ الفواحشِ إلاّ هُوَ عندَ الضرورة. ذكَرَهُ في «تثبيت الفؤاد».

وفي «ذخيرةِ الخير» لسيّدِنا الإمامِ أحمدَ بنِ عَلَوي باحسن رضِيَ اللّه عنه ما نصُّه:

حُكمُ المؤخوذِ بالسؤالِ كما صرَّحَ بهِ أئمتُنا، إن كانَ الباعثُ عليهِ الحياءَ واتقاءَ الفُحشِ والرغبةَ في جاهِ السائل، فهُوَ منَ الغصْبِ المحْضِ والحرام السُّحت، وإن كانَ من غيرِ الزكاة، فإن وجَدَ عشاءَ يومِهِ وغداهُ لا يحِلُّ لهُ السؤالُ علىٰ الراجح، سواءٌ أكانَ مِن أهلِ البيتِ أم مِن غيرِهم، وإن لم يجدْ ما ذكَرَ ساغَ لهُ السؤالُ ويكونُ خِلافَ الأَوْلىٰ، بشرطِ عدَمِ إذلالِ نفْسِهِ ولَحِّهِ في السؤالِ وأذىٰ المسؤول، وإلاّ كانَ السؤالُ حراماً اتفاقاً. ويُباحُ السؤالُ لحاجةٍ مهمّة، كمَن لا جُبّةَ لهُ ويتأذىٰ بالبرد، بخِلافِ السؤالِ لثوبٍ يتجمّلُ به، فإنهُ مكروهٌ بالشروطِ الثلاثةِ المذكورة، ومتىٰ فُقِدَ واحدٌ منها كانَ حراماً لا يملِكُ السائلُ ما أخَذَهُ كما نصّوا عليه.

قال: وبالجُملة، فالسائلُ علىٰ خطَرٍ عظيم، إذ شروطُ الجَوازِ قَلَّ أن تتوفَّرَ في هذا الزمان، والاقتصارُ علىٰ القدْرِ الذي أباحَ الشارعُ يعِزُّ علىٰ غالبِ النفوسِ الوقوفُ عندَهُ، فيكونُ مَن جاوَزَهُ مُرتكِباً في الإثمِ العظيم، داخلاً في الوعيدِ الشديدِ الذي ورَدَ في ذلك. انتهىٰ.

قالَ الحبيبُ العلاّمةُ أحمدُ بنُ عليٍّ الجُنَيدُ رضِيَ اللّهُ عنه: رأيتُ بعضَ النـاس يأخُذُ بوجهِ الحَياءِ ويرىٰ بأنهُ مِن أهـلِ الصّلاحِ والفقـر، وربّما يعتقدُهُ المُعطَـي أنهُ كذلكَ ويكـونُ ما أخَذَهُ مِن هذا القبيلِ كالمأخـوذِ بالسيف. قال: وسمِعْتُ مِن أهلِ (شِبامَ) أنّ الحبيبَ أحمدَ بنَ عمرَ بنِ سُميطٍ رحِمَهُ اللّه، أيامَ حصـارِ (شِبامَ) وعدَمِ الطعّامِ فيها، إذا وصّـىٰ أحدَ أخـدامِهِ يُحذِّرُهُ أن يقـول: مُرادي بهُ للحبيبِ أحمد، لئلاّ يُعطىٰ بوجهِ الحَياء. فاعتبِروا يا أُولي الأبصار. انتهىٰ.

ـ حِكاياتٌ ذاتُ عِبْرة:

يُروىٰ أنّ رجُلاً كانَ يَسكُنُ في بيتٍ بكِرَاء[١]، فكتَبَ رُقعةً وأرادَ أن يُتَرِّبَها مِن جـدارِ البيت، فخَطَرَ ببالِهِ أنّ البيتَ بالكِـرَاء، ثـمّ إنهُ خطَـرَ ببالِهِ أنْ لا خطَرَ لهذا، فتـرَّبَ الكتاب، فسَمعَ هاتفاً يقـول: سيَعلَمُ المُستخِفُّ بالترابِ ما يَلقىٰ غداً مِن طُولِ الحساب.

ومرَّ عيسىٰ عليهِ السّلامُ بمَقبرة، فنادىٰ رجلاً منهُم، فأحياهُ اللّهُ تعالىٰ، فقال: مَن أنت؟ فقال: كنـتُ حمّالاً أنقُلُ للنّاس، فنَقلْتُ يوماً لإنسانٍ حطباً، فكسَّرتُ منهُ خِلالاً[٢] تخلّلْتُ به، فأنا مُطالَبٌ منذُ مُتّ. انتهىٰ. منَ «الغُنية».

وقالَ الإمامُ الشّعرانيُّ رحِمَـهُ اللّه: حكـىٰ لي شخصٌ منَ الفقراءِ أنهُ مرَّ علىٰ مارِسِ قمحٍ في سُنبُلِه[٣]، فرأىٰ سُنبُلةً أعجبتْه، فأخذَها وفَرَكَها، فلمّا أرادَ أن يأكُلَهـا تذكّرَ الحسـابَ عنها يومَ القيامة، فرماهـا في المـارس، فنامَ تلكَ

---

(١) أي: بأجرة.

(٢) الخـلال، بالكسر، العود الذي يتخلل به المرء بعد الأكل، ليخرج ما بين أسنانه من بقية الطعام.

(٣) المارس: حقل القمح، قطعة الأرض التي يُزرع فيها.

الليلـة، فرأىٰ القِيامةَ قد قامَت، وجـاءَ صاحـبُ السُّنبُلَةِ فادّعىٰ عليهِ بسُنبُلَتِه، فقـال: يا ربّ، خِفتُ منَ الحسـابِ في هـذا اليومِ فرميتُهـا في مارِسِه، فقال: صـدَقَ يا ربّ، ولكـنْ لـم يصِـلْ إلى تِبْنِ البُـرجِ لأنـهُ طارَ فـي الريـح، قال: فأعجزَنـي في تحصيلِـه. ثـم استيقظْتُ فزِعـاً مرعوبـاً. انتهىٰ. مِـن «لواقـحِ الأنوار».

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ في «الإحياء» في كتابِ ذمِّ الغُرور:

روىٰ أبو نَصْرٍ التمّارُ رضِيَ اللّهُ عنه، أنّ رجلاً جاءَ يودِّعُ بِشرَ بنَ الحارثِ وقال: قد عزَمتُ علىٰ الحجّ، أفتأمُرُني بشيء؟ فقال: كم أعدَدتَ منَ النّفقة؟ فقال: ألفَي درهم، قالَ بِشر: فأيُّ شيءٍ تبتغي بحَجِّك، تنزُّهاً أوِ اشتياقاً إلىٰ بيتِ اللّهِ أو ابتِغاءَ مرضاةِ اللّه؟ قال: ابتِغاءَ مرضاةِ اللّه. قال: فإنْ أحبَبْتَ رِضاءَ اللّهِ وأنـتَ في منزِلِك، وتُنفِقُ ألفيْ درهـم، وتكونُ علىٰ يقيـنٍ مِن رِضاءِ اللّهِ تعالـىٰ، أتفعَلُ ذلك؟ قـال: نعـم، قال: اذهَبْ فأعطِها عشـرةَ أنفُس: مديوناً يقضي ديْنَه، وفقيراً يَلُمُّ شَعَثَـه، ومُعيلاً يُحيي عيالَه، ومربّيَ يتيمٍ يُفرِحُه، وإن قـوِيَ قلبُـكَ تُعطيها واحداً فافعَـلْ، فإنّ إدخالَكَ السـرورَ علىٰ قلبِ المسلم، وإغاثةَ اللّهفـان، وكشْفَ الضَّرر، وإعانةَ الضعيـف، أفضَلُ مِن مئةِ حجّةٍ بعد حَجّةِ الإسلام، فقُمْ فأَخرِجْها كما أمرْناكَ وإلاّ فقُلْ لنا ما في قلبِك. فقال: يا أبا نصـر، سفَري أقوىٰ في قلبي. فتبسَّمَ بِشرٌ وأقبَلَ عليهِ فقالَ له: المالُ إذا جُمِـعَ مِن وسَـخِ التجاراتِ والشبُهاتِ اقتضَتِ النفْـسُ أن تقضيَ بِهِ وطَراً، فأظهَرتِ الأعمـالَ الصالحـات، وقـد آلىٰ اللّهُ تعـالىٰ علـىٰ نفْسِهِ أن لا يقبَـلَ إلاّ عمَـلَ المُتّقين. انتهىٰ.

* * *



الحالة الرابعة

الخوف



وفيها ــ بعد المقدِّمة ــ ستةُ فصول :

الأول : دلائلُ الكتابِ المُبيــن علىٰ فضلِ الخَوفِ ومَدْحِ الخائِفين .

الثاني : دلائلُ السُّنةِ المُطهَّرة علىٰ فَضْلِ الخوفِ ومَدْحِ الخائِفين .

الثالث : في ثمارِ الخَوفِ والخَشيةِ منَ اللّهِ تعالىٰ .

الرابع : في الخوفِ والرَّجاء .

الخامس : في البكاءِ من خَشيةِ اللّهِ تعالىٰ .

السادس : فـي بعـضِ أحوالِ السَّلَـفِ الصّالِحيـن في خوفِهـم مِـن ربِّ العالَمين .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمتّقين، ولا عُدوانَ إلاّ على الظالمين، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللّهُ وحدَهُ لا شريكَ له، الذي وصفَ عبادَهُ المتقين، في كتابِهِ بقولِه: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وأشهدُ أنَّ سيدَنا محمداً عبدُهُ ورسولُهُ المخاطَبُ بقولِه تعالىٰ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۞ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٨ ـ ٩٩]. صلىٰ اللّهُ وسلَّمَ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلىٰ يومِ الدِّين.

قالَ سيّدُنا الإمامُ عَيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفعَنا به:

الحالةُ الرابعة: الخوْف، وهُوَ ضدُّ الأمان، وحقيقتُهُ ـ كما قالَ الإمامُ الغزاليّ ـ: تألُّمُ القلبِ واحتراقُهُ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في الاستقبال. وهُوَ ثمرةُ المعرفةِ باللّهِ تعالىٰ وعلامتُها، قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨]. انتهىٰ.

واعلَمْ أن دلائلَ الخوفِ ومدحَ الخائفين، مِن كتابِ اللّهِ وسُنّةِ رسولِهِ ﷺ، وكلامِ السّلَفِ الصالحين، كثيرةٌ، فلْنشرَعْ ـ بعَونِ اللّهِ تعالىٰ ـ في بيانِها وتفصيلِها:

الفصل الأوّل
دلائل الكتاب المبين
على فضل الخوف ومدح الخائفين

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ في كتابِهِ «الأربعين»: قد جمَعَ اللّهُ للخائفينَ: الهُدىٰ والرحمةَ والعِلمَ والرِّضوان، وناهيكَ بذلكَ فضلاً. فقال اللّه تعالىٰ: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقالَ تعالىٰ: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٨]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، يعني العلماءَ باللّهِ عزَّ وجَلّ.

وفي الحديث: «أعلَمُهُم باللّهِ أشَدُّهُم لهُ خَشْية»[(١)]. فالعالِمُ: مَن خافَ اللّهَ تعالىٰ، ومَن لم يخْشَ فليسَ بعالِم، وللّهِ درُّ القائلِ حيثُ يقول:

علىٰ قدْرِ عِلمِ المرءِ يعظُمُ خوفُهُ	فلا عالِمٌ إلا منَ اللّهِ خائفُ
فآمِنُ مكْرِ اللّهِ باللّهِ جاهلٌ	وخائفُ مكرِ اللّهِ باللّهِ عارفُ

قالَ بعضُ العارفين: الخَشيةُ لا تأتي مِن جهةِ الكَسْب، بل منَ الفضلِ والفَيضِ الإلٰهيّ، ومتىٰ وُجِدَتِ الخَشيةُ في القلبِ فاضَ نورُها علىٰ الظاهر، والعِلمُ باللّهِ مقرونٌ بالخَشية، وكلُّ مَن لم تظهَرْ عليهِ الخَشيةُ فليسَ هوَ مِن

---

(١) لم نقف عليه.

علمـاءِ الآخِرة، فالخَشيةُ شرْطٌ في العِلـمِ النافـع، فإذا وُجِـدَ العِلمُ ولم توجَدِ الخَشيةُ فليسَ صاحبُهُ مِن أهلِ العِلمِ النافع. انتهىٰ. أو كما قال.

***

وقالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. قالَ مجاهدٌ رحِمَـهُ اللّهُ في هذهِ الآية: هُوَ الذي يَهُمُّ بالمعصيـة، فيذكـرُ اللّهَ فيَدَعُها خوفاً وحياءً منَ اللّهِ تعالىٰ.

حكاية:

رُويَ أنّ شاباً تقيّاً عابداً مُلازماً للمسجدِ في زمنِ عمرَ بنِ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنه، أحبَّـتْهُ امرأةٌ فدَعتْهُ إلىٰ نفسِها حتىٰ اختلىٰ بها، ثم ذكَرَ وقوفَهُ بينَ يديْ ربِّه، فخَرَّ مَغْشيّاً عليه، فأخرَجتْه وألقَتْه علىٰ بابِها، فجاءَ أبوهُ وحمَلَهُ إلىٰ بيتِه، فاصفَرَّ وارتعَدَ حتىٰ مات، فجُهِّزَ ودُفِن، فوقَفَ عمرُ رضِيَ اللّهُ عنهُ علىٰ شَفِيرِ قبرِهِ وقرأ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، فنُودِيَ مِن قبرِهِ: إنّ اللّهَ قد أعطانيهما يا عُمـر، وأعطاني الرِّضـا وفوقَ الرِّضا. انتهـىٰ. ذكَـرَها الشيخُ ابنُ حجَرٍ في مُقدِّمةِ كتابِهِ «الزواجر».

حكايةٌ أخرىٰ:

كانَ هارونُ الرشيدُ قد حَلَفَ أنهُ مِن أهلِ الجنّة، فاستفتىٰ العلماء، فلم يُفْتِـهِ أحدٌ أنه مِن أهلِ الجنّة. فقيـلَ لـه: سَلْ عنـهُ ابنَ السَّمّـاك، فاستحضَـرَهُ وسألَـه، فقالَ له: هلْ قدَرَ أميرُ المؤمنيـنَ علىٰ معصيـةٍ فترَكَهـا خوفـاً منَ اللّه تعالىٰ؟ فقـال: نعمْ. كانَ لبعضِ النّاسِ جارية، فهَوَيْتُها وأنا إذ ذاكَ شابٌ، ثم إني ظفِرتُ بها مرةً وعزمتُ علىٰ ارتكابِ الفاحشةِ منها، ثم إنّي فكّرتُ في النّارِ وهَوْلِها، وأنّ الزّنا منَ الكبائر، فأشفقْتُ مِن ذلكَ وكففْتُ عنِ الجاريةِ مخافةَ

منَ اللّهِ تعالىٰ. قالَ ابنُ السَّمّاك: قالَ اللّهُ عزَّ وجَلّ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠ ــ ٤١]، فسَّرَ هارونُ بذلك. انتهىٰ.

ذكَرَهُ الإمامُ اليافعيُّ في «مرآةِ الجَنان»، ثم قال: وهذا الاستدلالُ فيهِ ما فيه، فإنّ الظاهرَ أنّ المرادَ بذلكَ استمرارُ الخوفِ منَ اللّه، والنّهيُ للنفْسِ عنِ ارتكابِ الكبائرِ إلىٰ الموت. فأمّا إذا وقَعَ ذلك، ثمّ أعقبَهُ الوقوعُ في الكبائر، ولَقِيَ اللّهَ تعالىٰ عاصياً، فهُوَ في خطَرِ المشيئةِ[1]: معَ المَوتِ علىٰ الإسلام، فإن لم يمُتْ علىٰ الإسلامِ ــ والعياذُ باللّه ــ فهُوَ مِن أهلِ النار قطْعاً، وعليهِ يُحمَلُ أوّلُ الآية: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٧] إلىٰ آخرِها. نسألُ اللّهَ التوفيقَ والغُفران، ونعوذُ بهِ منَ الزَّيغِ والخِذْلان.

فائدة:

قالَ بعضُهُم في الآيةِ المذكورة: الجنّةُ الأُولىٰ في الدنيا، وهِيَ النعيمُ والتلذّذُ بالأعمالِ الصالحة، وعدَمُ تكديرِ الشيطانِ حالَهُ فيها. انتهىٰ.

ومِن كلامِ سيّدِنا الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ مُحسنِ العطّاسِ رضِيَ اللّهُ عنه: وأهلُ الجنّةِ جنّتُهم معَهم وهُم في الدنيا، ويخرُجونَ بها معَهم إذا ماتوا، فأهلُ الخيرِ في جنّةٍ معنويّة، وهذهِ الجنّةُ المعنويّةُ هِيَ رُوحُ الجنّةِ الحِسّيةِ التي أعدَّ اللّهُ لهم في الدارِ الآخرة، فإذا دَخَلوها انتعشَتْ بهم وارتعشت؛ لأنهم رُوحُها وحياتُها. وهكذا أهلُ النّار، وهُمُ الكفارُ والمنافقون: نارُهم معَهم في الدنيا، ويخرُجونَ بها معَهم إذا ماتوا، فهُم في الدنيا في نارٍ معنويّةٍ وهِيَ رُوحُ النّارِ الحِسّيةِ المُعَدّةِ لهُم في الدارِ الآخرة، فإذا دخلوها اشتَبَّتْ والتهَبَتْ، فهِيَ

(١) أي: إنْ شاء عذّبه وإنْ شاء عفا عنه.

خامدةٌ إلىٰ أنْ دخَلوها، فتُحمىٰ بهـم؛ لأنهـم رُوحُها. فأهلُ الجنّةِ وأهلُ النارِ هم هـؤلاءِ الذينَ في الدنيـا ما أحـدٌ غيرُهم، فالعاملـونَ بعمَلِ أهلِ الجنّةِ هم أهلُ الجنّـة، والعاملونَ بعمَلِ أهلِ النـارِ هم أهلُ النار. انتهـىٰ. من «مجموعِ كلامِه».



الفصل الثاني
دلائل السنة المطهّرة
على فضل الخوف ومدح الخائفين

والأحاديثُ المرْويّةُ في هذا البابِ كثيرة، فمِنها: قولُ النبيِّ ﷺ: «ثلاثٌ مُنجِيات: العَدْلُ في الغَضَبِ والرِّضىٰ، والقَصْدُ في الفقرِ والغِنىٰ، وخَشْيةُ اللّهِ في السِّرِّ والعلانيَة»[١].

وكانَ ﷺ يُكثـرُ مِن قولِ: «يا مُقلِّـبَ القلوب، ثَبِّتْ قلبي علىٰ دِينِك»، قالوا: وتَخافُ يا رسولَ اللّه؟ قال: «وما يؤمِنُني والقلبُ بينَ أُصْبُعَينِ من أصابعِ الرّحمٰنِ يُقَلِّبُهُ كيفَ يَشاء؟»[٢]. وفي لفْظ: «إنْ شاءَ أن يُقيمَهُ أقامَه، وإنْ شاءَ أنْ يُزِيغَهُ أزاغَه»[٣].

وعن عائشةَ رضِيَ اللّهُ عنها: أنّها ذكَرَتِ النّارَ فبَكَتْ. فقال رسولُ اللّهِ ﷺ: «ما يُبْكِيك؟» قالـت: ذكَرْتُ النّارَ فبَـكَيت، فهـلْ تذْكُرونَ أهْليكُـم يومَ

---

(١) جزءٌ من حديث تقدم تخريجه مفصَّلاً ص ٣٣٩.

(٢) أخرجه أحمد (٦ : ٢٥٠)، من حديث السيدة عائشةَ رضيَ اللّه عنها.

(٣) أخرجه أحمد أيضاً (٤ : ١٨٢)، من حديث النوّاس بن سمعان رضيَ اللّه عنه.

القيامة؟ فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أمّا في ثلاثةِ مَواطِنَ فلا يذْكُرُ أحدٌ أحَداً: عندَ الميزانِ حتّىٰ يعلَمَ: أيَخِفُّ ميزانُهُ أم يَثْقُل؟ وعندَ تَطايرِ الصُّحُفِ، حتىٰ يعلَمَ أينَ يقَعُ كتابُه، في يمينِهِ أو شمالِهِ أو وراءَ ظهْرِه، وعندَ الصِّراطِ، إذا وُضِعَ بينَ ظَهْرانَيْ جهنَّمَ حتىٰ يجُوزَه»[١].

وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «كانَ رجلٌ مُسرِفٌ علىٰ نفْسِه، فلمَّا حَضَرَهُ الموتُ قالَ لِبنيه: إذا أنا مِتُّ فاحرِقُوني واسْحَقُوني، ثم ذُرُّوني في الرِّيح. فواللّه، لئن قدَرَ اللّهُ عليَّ لَيُعَذِّبَنّني عذاباً ما عذَّبَهُ أحداً.

فلمّا ماتَ فعَلَ بهِ بَنُوهُ ذلك، فأمَرَ اللّهُ الأرْضَ: أنِ اجمَعي ما فيكِ، ففَعَلَتْ، فإذا هُوَ قائم، فقال: ما حمَلَكَ علىٰ ما صَنَعْتَ؟ قال: خَشيتُكَ يا ربِّ، فغَفَرَ اللّهُ له»[٢].

وعن أبي ذرٍّ رضِيَ اللّهُ عنه، أنّ النبيَّ ﷺ كانَ يقول: «أرىٰ ما لا تَرَوْن، وأسمَعُ ما لا تسمَعُون. أَطَّتِ السّماءُ وحُقَّ لها أن تَئِطّ، ما فيها مَوضِعُ أربعِ أصابعَ إلا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهتَهُ ساجداً للّه. واللّه، لو تعلَمونَ ما أعلَمُ لَضَحِكْتُم قليلاً ولَبَكَيتُم كثيراً، ولَمَا تلَذَّذْتُم بالنِّساءِ علىٰ الفُرُش، ولَخَرَجتُم إلىٰ الصُّعُداتِ تجْأَرُونَ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ»[٣].

ورُوِيَ أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ مرَّ بقومٍ وهُم يضحَكون، فقال: «تضحَكونَ وذِكْرُ الجنَّةِ والنّارِ بينَ أَظْهُرِكُم؟»، قالَ ابنُ الزُّبير: فما رُؤِيَ أحدٌ منهُم ضاحكاً

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٥)، من حديث أم المؤمنين عائشةَ رضيَ اللّه عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٨١)، ومسلمٌ (٢٧٥٦)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠)، من حديث أبي ذر رضيَ اللّه عنه.

حتىٰ مات، ونزلَتْ فيهم: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩][1].

وجاءَ أنّ النبيَّ ﷺ قالَ لجبريل: «ما لي لا أرىٰ ميكائيلَ ضاحكاً قطّ؟ فقال: ما ضحِكَ ميكائيلُ منذُ خُلِقَتِ النّار»[2].

وعنِ كعبِ الأحبارِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: إنّ جهّنمَ لَتزفِرُ يومَ القيامةِ زَفْرةً لا يبقىٰ ملَكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسَل، إلا خَرَّ جاثياً علىٰ رُكبَتيهِ ويقول: «ربّي نفْسِي نفْسِي، لا أسأَلُكَ اليومَ غيرَ نفْسِي».

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البزّار في «مسنده» (٦: ١٧٤)، من حديث عبد اللّه بن الزبير رضيَ اللّه عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٣: ٢٢٤)، من حديث أنس بن مالك رضيَ اللّه عنه.

الفصل الثالث
في ثمار الخوف والخشية من الله تعالى

فمِن ثمارِ الخوفِ اليانعة، وأنوارِهِ اللامِعة:

ـ مغفِرةُ الذنُوب:

قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إذا اقشعَرَّ جلْدُ العبدِ مِن خَشيةِ اللّه، تحاتَّتْ عنهُ ذُنوبُهُ كما يَتحاتُّ عنِ الشَّجرةِ اليابسةِ وَرَقُها»[1].

ـ الأمنُ في الآخِرة:

قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ فيما يرويهِ عن ربِّهِ تباركَ وتعالىٰ أنهُ قال: «وعِزَّتي وجلالي، لا أجمَعُ علىٰ عبْدي خَوفَينِ ولا أمْنَينِ، فإذا خافَني في الدُّنيا أمَّنْتُهُ يومَ القيامة، وإذا أمِنَني في الدّنيا أخَفْتُهُ يومَ القيامة»[2].

قالَ الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ علىٰ الحديثِ المذكور: أمّا خوفُه في الدنيا فِبأنْ يجتنِبَ ما نُهِيَ عنهُ مِن: حرامٍ ومكروهٍ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشُّعَب» (١ : ٤٩١)، من حديث العبّاس بن عبد المطَّلب رضيَ اللّه عنه، وأخرجه أبو الشيخ ابن حيّان في كتاب «الثواب».

(٢) أخرجه ابن حبّان (٢ : ٤٠٦ برقم ٦٤٠)، والبزّار (برقم ٣٢٣٣)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

وفضـولٍ ونحوِ ذلك، وأمنُـهُ بالغفْلةِ عنِ اللّهِ وتضييعِ ما ذُكِر، ويتناولُ كلَّ ما يشتهيهِ ويقولُ كلَّ ما أرادَ ولا يمتنعُ ممّا يذُمّ. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

رُوِيَ أنّ الشيـخَ فضلَ بنَ عبدِ اللّهِ التَّريمـيَّ شكا إلىٰ الشيخِ عبدِ اللّهِ بنِ أسعـدَ اليافعـيِّ رضِيَ اللّهُ تعالىٰ عنهُما ما يجدُهُ مِن شـدّةِ غلَبةِ الخوفِ وعظيمِ الهيْبة، فقالَ له: يُخيفُكَ حتىٰ لا تأمَنَهُ خيرٌ لكَ وأحسَنُ مِن أن يؤمّنَكَ حتىٰ لا تخافَه. انتهىٰ. نقَلَهُ في «عِقدِ اليواقيتِ الجَوهَريّة».

ـــ يُظِلُّه اللّهُ يومَ القِيامةِ في ظِلِّه:

قالَ ﷺ: «سبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللّهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه..» وذكَرَ منهم: «رجلٌ دَعَتْـهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصبٍ وجَمالٍ فقالَ: إنِّي أخافُ اللّه»[١].

ورُوِيَ في الحديـثِ أنهُ كانَ في بني إسرائيـلَ رجُـلٌ يقالُ له: (الكِفْل)، وكـانَ لا يتـورّعُ عن ذنب، وأنهُ دعا امرأةً وراوَدَها عن نفْسِهـا وأعطاها ستينَ ديناراً علىٰ أن يطأَهـا، فلمّا جلسَ مجلِسَ الرجـلِ منَ امرأتِهِ ارتعدَتْ وبكَتْ. قـال: ما يُبكيكِ؟ قالـت: لأنّ هـذا عمَلٌ ما عمِلتُهُ قـطّ، وما حمَلَنـي عليهِ إلاّ الحاجـة، فقـال: أوَ تفعَليـنَ هذا مِن مخافـةِ اللّه؟ فأنا أحـرىٰ بـذلكَ ولكِ ما أعطيتُـك، فمـاتَ مِن ليلتِه، فأصبحَ مكتوبـاً علىٰ بابِـه: إنّ اللّهَ تعالىٰ قد غفَرَ للكِفْل. فعَجِبَ النّاسُ مِن ذلك[٢].

ـــ مَن خافَ اللّهَ خافَه كلُّ شيء:

قـال سيِّدُنا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رَضِيَ اللّهُ عنه: مَن خـافَ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٠٦)، ومسلمٌ (١٠٣١)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجـه الترمذي (٢٤٩٦)، وأحمـد (٢: ٢٣)، والحـاكـم (٤: ٢٥٤ ـ ٢٥٥)، وغيرهم، من حديث عبد اللّه بن عمرَ رضيَ اللّه عنهما.

أخافَ اللّهُ منهُ كلَّ شيء. ومَن لم يَخَفِ اللّهَ، خافَ مِن كلِّ شيء.

وقالَ سَرِيُّ بنُ المُغَلِّس: سمعتُ الفُضَيلَ بنَ عياضٍ يقول: مَنْ خافَ اللّه لم يضرَّه أحد، ومَنْ خافَ غيرَ اللّه لم ينفعْهُ أحد[1].

ـ السّلامةُ مِنَ الاغتِرار:

نظَرَ بعضُهم إلىٰ بعضِ العارِفينَ وهُوَ يُصلّي بكمالِ الأدبِ مِن إتمامِ الركوعِ والسجودِ وغيرِ ذلكَ منَ السُّننِ والمُستحَبّات، فاستَحسَنَ ذلكَ منه، وأطالَ النظرَ إليه، فقالَ له: لا يغُرَّكَ طُولُ قيامي ولا كمالُ رُكوعي وسجودي، فإنّ إبليسَ عبَدَ اللّهَ ثمانينَ ألفَ سنةٍ وما أفادَهُ ذلك، أي: وصارَ إلىٰ ما صارَ منَ الخِزيِ واللّعنةِ والشَّقاوةِ المؤبَّدة، وذلكَ أنهُ كانَ جالساً علىٰ سجّادتِهِ في عبادتِه، فنوديَ: أنِ ﴿ ٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤ ـ ٣٥]، نعوذُ باللّهِ مِن مكْرِهِ وغضَبِه.

قالَ السيّدُ الإمامُ أحمدُ بنُ إدريسَ نفَعَ اللّهُ به: قصّةُ آدمَ معَ إبليسَ أدَّبَ اللّهُ بها الأكابر، فإنّ إبليسَ عبَدَ اللّهَ سبحانَهُ بمُدّةِ عمُرِ الدنيا أضعافاً مُضاعَفة، ثم أُخرِجَ منَ النورِ إلىٰ الظّلُمات، ومنَ القُربِ إلىٰ البُعد، بسببِ عدَمِ سجْدةٍ واحدة، وسببُ عدَمِ سجودِهِ هُوَ اشتغالُهُ بغيرِ اللّهِ تعالىٰ؛ لأنهُ قد كانَ ثَبتَ عندَ الملائكةِ أنّ واحداً منهُم لا يَسجُد، فكلُّ واحدٍ منهُم ـ عندَ أمرِ اللّهِ تعالىٰ بالسجود ـ بادَرَ إليه، خَشيةَ أن يكونَ هُوَ الذي لم يسجدْ مِنهم، وإبليسُ لم يُبادِرْ إلىٰ السجود، بل بقِيَ يفتِّشُ مَن هُوَ الذي لم يسجُدْ مِنهم، فلمّا اشتغَلَ

---

(١) روىٰ هٰذين الأثرين عن عُمرَ والفضيل: البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (٢: ٣٠٤ ـ ٣٠٥ برقم ٩٤٣، ٩٤٥)، وأشار هناك أنّ لفظ كلمة عمر وردَ في المرفوع لكن بسندٍ مجهول، وتُنظر: «المقاصد الحسنة» للحافظ السخاوي ص٤٨١.

بغيرِ اللّهِ كـانَ هـو. ومِن حينئذٍ صارتِ الملائكةُ جميعُهم في خوف، وكذلكَ الأنبياء.

وقيل: لمّا ظهَـرَ علىٰ إبليـسَ ما ظهَـر، طفِقَ جبريلُ وميكائيلُ يبكِيان، فأوحىٰ اللّهُ سبحانَهُ إليهِما: «ما لَـكُما تبكيان؟» قالا: يا ربّ، ما نأمَنُ مكْرَك، فقالَ اللّهُ تعالىٰ: «هكذا كونا، لا تأمَنا مكْري»، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

موعظة:

في قصّةِ بلعامَ بنِ باعوراءَ وبرصيصا العابدِ عبرةٌ لأُولي الألباب: فالأوّلُ عبَدَ اللّهَ أربعَمئةِ عام، ثم مَكَرَ اللّهُ به، فحوّلَ وجهَهُ إلىٰ عبادةِ الشمس. والثاني عبَدَ اللّهَ مئةَ عام، فأرسَلَ إليهِ مَلِكُ زمانِهِ ابنتَهُ ليدعوَ لها، فقالَ إبليس: أترُكْها عنـدَكَ اللّيلـة، فلمّا جاءَ اللّيـلُ وسوَسَ لـهُ حتىٰ زنا بهـا، فقـال: اُقتلْهـا وإلا فضَحَتْـكَ بينَ النّاس، فقتلَها، فأخبرَ إبليسُ المَلِكَ بذلك، فأمَرَ بصلْبِه، فجاءَ إبليسُ فقال: مَن فعَلَ هذا بك؟ فقال: أنت. قال: فمَن يُخلِّصُك؟ قال: أنت، قـال: فاسجُدْ لي سَجدة، فسجَدَ لهُ بالإشـارةِ فماتَ كافراً والعياذُ باللّه. ذكَرَ ذلكَ في «نزهةِ المجالس».

مطلَبٌ

في التحذِيرِ منَ الاغتِرارِ بالنَّسَب

ثبَتَ في «الصّحيحَينِ» أنهُ قامَ رسولُ اللّهِ ﷺ حينَ أنزَلَ اللّهُ عليهِ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فقـال: «يا معشـرَ قُريش، اشتَروا أنفُسَكُم منَ اللّه، لا أُغْني عنكُم منَ اللّهِ شيئاً. يا بِني عبْدِ مَنَاف، لا أُغْني عنكُمْ منَ اللّهِ شيئـاً. يا عبّاسُ عَمَّ رسولِ اللّه، لا أُغْنـي عنكَ منَ اللّهِ شيئـاً، ويا صَفِيّـةُ عمّةَ

رسولِ اللّه، لا أُغْني عنكِ منَ اللّهِ شيئاً، يا فاطمةُ بنتَ محمّد، سَلِيني مِن مالي ما شِئْتِ، لا أُغْني عنكِ منَ اللّهِ شيئاً»[1].

وقالَ سيّدُنا الإمامُ شيخُ الإسلامِ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا به: وكيفَ يغترُّ أحدٌ بنسَبٍ مجرَّدٍ عنِ التقوىٰ أو يعتمِدُ عليهِ بعدَ قولِ رسولِ اللّهِ ﷺ: «يا فاطمةُ بنتَ محمّد، لا أُغْني عنكِ منَ اللّهِ شيئاً». الحديث الصحيح؟ وفيه: «يا بَني عبدِ المُطّلب، ويا فلان»: مِن قَرابتِهِ عليهِ السّلام، يعُمُّ ثم يخُصّ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: وفي كتابِ اللّهِ العزيزِ ما يدُلُّ علىٰ أنّ أهلَ البيتِ يتضاعَفُ لهمُ الثّوابُ علىٰ الحسَناتِ والعقابُ علىٰ السيّئات، وذلكَ قولُهُ تعالىٰ: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ . . ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، الآيةُ والآيةُ التي بعدَها، ونساؤهُ مِن أهلِ بيتِهِ ﷺ. ومَن قالَ أو ظَنَّ أن ترْكَ الطاعاتِ وفعلَ المعاصي لا يضُرُّ أحداً، لِشَرفِ نسبِهِ أو صلاحِ آبائه، فقدِ افترىٰ علىٰ اللّهِ الكذِبَ وخالَفَ إجماعَ المُسلمين. . إلىٰ آخرِ ما قالَ في «الفصولِ العِلميّة».

وقالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ عَلَوي باحَسَن جَمَلُ اللّيلِ نفَعَ اللّهُ بهِ ورضِيَ اللّهُ عنهُ وعنّا به، في كتابِهِ «ذخيرةِ الخَير»:

منِ اعتقدَ أنهُ ﷺ حازَ القِدْحَ المُعلّىٰ والحظَّ الأوفرَ مِن معرفةِ حقِّ الرُّبوبيّةِ والقيامِ بما استحقّهُ منَ المَهابةِ والاحترام، لم يكنْ لديهِ اغترارٌ علىٰ نسَبٍ ولا تعويلٌ علىٰ قرابةٍ أصلاً بوجهٍ من الوجوه، والاغترارُ علىٰ ذلكَ إنّما نشَأَ مِن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧١)، ومسلمٌ (٢٠٦)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

كمالِ الجهلِ بمِقدارِ النبيِّ ﷺ وعِظَمِ مَرتبتِه، ومِن فرْطِ البَلادةِ والغباوة، وذلكَ لأنهُ لا نِسبةَ بينَ مقامِ السيِّدةِ فاطمةَ رضِيَ اللّهُ عنها، التي هِيَ فلذةُ كبدِهِ الطاهرة، ومقامِ الربِّ عزَّ وجَلَّ عندَهُ ﷺ، فيُحِبُّ ما يُحِبُّهُ مولاه، ويُسخِطُهُ ما يُسخِطُهُ وإن صدَرَ مِن أحَبِّ الناس عندَه، بل يكونُ ذلكَ سبباً لانسلاخِ محبّتِهِ إياه؛ لأنّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ أحبُّ وأعزُّ وأجَلُّ وأكبرُ مِن كلِّ شيء.

وفي انصرافِهِ ﷺ وعدَمِ مُوالاتِهِ لمَن لم يمتثِلْ ما جاءَ بهِ منَ اللّهِ عزَّ وجَلَّ ـ وإن كانَ أخَصَّ أقاربهِ وأشفَقَهم وأرعاهُم ـ أكبرُ شاهدٍ علىٰ ذلك، فكيفَ يظُنُّ أحدٌ مِن ذوي النّسَب، إذا انتهَكَ حرُماتِ اللّهِ عزَّ وجَلّ، وأصرَّ علىٰ مُخالَفتِهِ ومَعاصيه، أن تبقىٰ لهُ حُرمةٌ ومُراعاةٌ عندَهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام؟ أيزعُمُ الغبيُّ أنهُ أعظَمُ حُرمةً منَ اللّهِ عندَ نبيِّه ﷺ؟ كلاّ واللّه! فمَنِ اعتقدَ ذلكَ يُخشىٰ عليهِ سُوءُ الخاتمةِ والعياذُ باللّه. انتهىٰ ملخَّصاً.

ومِن كلامِ سيّدِنا الحَسنِ المُثنّىٰ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّي أخافُ أن يُضاعَفَ للعاصي منّا العقابُ ضِعفَين، فواللّهِ إنّي لأرجو أن يُؤتىٰ المُحسِنُ منّا أجرَهُ مرّتَين.

فعُلِمَ ممّا تقدّمَ أنهُ ينبغي لأهلِ البيتِ أن لا يغترّوا بما خصَّهمُ اللّهُ تعالىٰ منَ الفضْلِ والشّرف، وأن لا يعتمِدوا علىٰ ذلك، بل يُسارعونَ إلىٰ الخيراتِ ويجتهِدونَ في الأعمالِ الصالحاتِ كسَلَفِهِمُ الطاهرينَ رضِيَ اللّهُ عنهم أجمَعين.

فما أحسنَ قولَ الشاعر:

لسْنا وإنْ أحْسابُنا كرُمَتْ ... يوماً علىٰ الأحسابِ نَتَّكِلُ

نبْني كما كانتْ أوائلُنا ... تَبْني، ونفعَلْ مثلَ ما فعَلوا

وقالَ آخَر ، وهُوَ الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه :

ثــمَّ لا تغتَــرَّ بــالنّسَــبِ　　لا ، ولا تقنَعْ بكـانَ أبـي
واتّبِـعْ في الهَدْيِ خيرَ نبيْ　　أحمدَ الهادي إلىٰ السُّنَنِ

❊ ❊ ❊

الفصل الرابع
في الخوف والرّجاء

ـــ معنىٰ الخوفِ والرجاء:

قالَ سيّدُنا الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: أصلُ الخـوفِ: معرِفـةُ القلـبِ بجَلالِ اللّهِ تعـالىٰ، وقهـرِه وغِنـاهُ عن جميعِ خلْقِه، وشديدِ عقابِهِ وأليمِ عذابِهِ اللّذيْنِ توعّدَ بهِما مَن عصاهُ وخالَفَ أمرَه، فيتولّدُ مِن هذه المعرفةِ حالةٌ تُسمىٰ (الخوف)، وثمرتُهُ المقصودةُ منهُ ترْكُ المعاصي وشِدّةُ الاحترازِ منها، فإنّ المعصِيةَ هِيَ الطريقُ الموصِلةُ إلىٰ سخَطِ اللّهِ ودارِ عقوبتِه. انتهىٰ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: اعلَمْ أنّ الخوفَ زاجرٌ يزجُرُ الإنسانَ عنِ المعاصي والمُخالَفـات، والرجـاءُ قائدٌ يقودُ العبدَ إلىٰ الطاعـاتِ والمُوافقَات، فمَن لم يزجُـرْهُ خوفُـهُ عن معصِيـةِ اللّه، ولم يقُدْهُ رجـاؤُهُ إلىٰ طاعـةِ اللّه، كانَ خـوفُهُ ورجـاؤهُ حديثَ نفْسٍ لا يُعتَدُّ بهِما ولا يُعـوَّلُ عليهِما، لخلُوِّهِمـا عن ثمَرتِهما المقصودةِ وفائدتِهما المطلوبة.

قالَ الحسَنُ البَصْريُّ رحِمَـهُ اللّه: إنّ المؤمنَ جمَعَ إحساناً وخوفاً، وإنّ المُنافقَ جمَعَ إساءةً وأمْناً. فالمؤمـنُ لا يصبحُ إلا خائفاً ولا يمسي إلا خائفاً، يعمَـلُ ويقول: لا أنجو لا أنجو. والمُنـافقُ يترُكُ العمَلَ ويقول: سوادُ الناسِ

كثيرٌ وسوفَ يُغفَرُ لي .

وسئلَ سعيدُ بنُ جُبيرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ عنِ الخَشيةِ فقال : هِيَ : أن تخشىٰ اللّهَ تعالىٰ حتىٰ تحُولَ خَشيتُهُ بينَكَ وبينَ معاصِيه ، فهذهِ هِي خَشيتُه .

ـــ الجمعُ بينَ الخَوفِ والرَّجاء :

واعلَمْ أنّ اللّهَ تعالىٰ قد جمَعَ بينَ الخوفِ والرجاءِ في آياتٍ كثيرة ، قالَ تعالىٰ : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٨] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾ [غافر : ٣] ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ـــ ٥٠] .

وقد وصَفَ اللّهُ عبادَهُ السابقينَ بالخوفِ والرجاء ، فقالَ جلَّ وعلا : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٧] .

وجاءَ أنهُ ﷺ دخَلَ علىٰ شابٍّ وهُوَ في النَّزْعِ وقال : «كيفَ تَجدُك؟» ، فقال : أجِدُني أخافُ ذُنوبي وأرجو رحمةَ ربّي . فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ : «ما اجتمَعا في قلبِ عبدٍ في هذا المَوْطِنِ إلاّ أعطاهُ اللّهُ تعالىٰ ما يرجو ، وآمَنَهُ ممّا يَخاف»(١) .

قالَ أبو عليٍّ الرُّوْذْباريُّ رحمةُ اللّهِ عليه : الخوفُ والرجاءُ كجناحَيِ الطائر : إذا ٱستوَيا استوىٰ الطّيرُ وتمَّ طيَرانُه .

قالَ في «العوارف» : رُوِيَ عن لقمانَ أنهُ قالَ لابنِه : خَفِ اللّهَ تعالىٰ خوفاً

---

(١) أخرجه الترمذي (٩٨٣) ، وابن ماجه (٤٢٦١) ، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٦٢) ، وغيرهم ، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه .

لا تأمَـنُ فيهِ مكْرَه، وارجُهُ رجاءً أشدَّ مِن خوفِـك. قـال: وكيفَ أستطيعُ ذلكَ وإنّما لي قلبٌ واحد؟ قال: أمَا علِمْتَ أنّ المؤمنَ كذي قلبَين: يخافُ بأحدِهما ويرجو بالآخر؟ انتهىٰ.

قالَ الإمامُ الغزالـيُّ رحِمَهُ اللّه: لو قالَ قائـلٌ: أيُّما أفضَـل: الخوفُ أو الرّجاء؟ فهُوَ سؤالٌ فاسد، كقولِ القائل: هل الخبزُ أفضَلُ أمِ الماء؟ فالجواب: الخبـزُ للجيعـانِ أفضَلُ والماءُ للعطْشـانِ أفضَل، فإنِ اجتَمَـعَ الجُـوعُ والعطَشُ فضَّلْنا الأغلبَ منهُما، فإن تَساوَيا تَساوَيا في الفضيلة. وهذا الخلافُ يأتي في الخوفِ والرجاء: فإنْ كانَ الأغلبُ علىٰ العبدِ الأمنَ فالخوفُ أفضَل، أوِ اليأسَ مِن رحمةِ اللّهِ فالرجاءُ أفضَل. انتهىٰ.

وأفـادَ نحوَه سيّدُنا القطـبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحـدّادُ نفَعَ اللّهُ به حِينَ سُئِل: أيُّمـا أفضَل: الخوفُ أوِ الرجاء؟ فأجابَ بأنّ الخوفَ أفضَلُ لمنْ قويتْ نفْسُهُ وعظُمَ ميْلُها إلىٰ المعاصي حتىٰ يستقيم، والرجاءُ أفضَلُ لمَن أشرَفَ علىٰ المـوت، حتىٰ يمـوتَ علىٰ حُسنِ الظنِّ باللّهِ تعالىٰ، وأمّا الصحيـحُ في جسمِهِ المستقيـمُ في دِينِه، فالأفضَلُ لهُ استواءُ الخـوفِ والرجاءِ حتىٰ يكونا كجناحَي الطائر. انتهىٰ. منَ «النفائسِ العَلَوية».

وكانَ سيّدُنا عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشـيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: إنّ خوفَ المؤمـنِ ورجاءَهُ لو وُزِنا لاعتَدَلا، فهُما كجناحَي الطائـرِ في اعتدالِهما، وهذا أكمَـلُ أحوالِ المؤمنِ إذا اعتـدَلَ خوفُـهُ ورجـاؤه. وقـد كـانَ سيّدُنـا عمرُ بنُ الخطـابِ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: لو نادىٰ مُنادٍ يومَ القيامة: لِيَدخُـلِ الناسُ كلُّهمُ الجنّةَ إلا رجُلاً واحداً، لَخَشيتُ أن أكونَ أنا ذلكَ الواحد. وإن نادىٰ: لِيدخُلِ النـاسُ كلُّهمُ النارَ إلا رجلاً واحداً، لَرَجَـوتُ أن أكونَ أنا ذلكَ الواحد. قال: ويُستثنـىٰ من ذلكَ حالةُ توقّعِ نزولِ المـوتِ والقدومِ علـىٰ اللّهِ والمصيـرِ إلىٰ

الآخرة، فالأَوْلىٰ ترجيحُ الرجاءِ وغلَبَتُه، ويُستثنىٰ أيضاً حالةُ الاستِهانةِ بأوامرِ اللّهِ ونَواهيهِ وتعدِّي حدودِه، فالأَوْلىٰ ترجيحُ الخوفِ وغلَبَتُه. انتهىٰ. منَ «النهرِ المورود».

ـ أصنافُ العامِلِينَ للّه: خَوفاً، ورجاءً، وامتِثالاً:

سُئلَ سيّدُنا القطبُ الغَوْثُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ عن حُكمِ مَن يعمَلُ علىٰ رجاءِ الثواب، فقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: الجوابُ ـ واللّهُ المُوفِّقُ للصّواب ـ: أنّ ذلكَ رجاءٌ محمودٌ وسعيٌ مُبارَكٌ مشكور، وعليهِ يعمَلُ السلَفُ والخَلَفُ مِن صالحي المؤمنين، فإنّ العبدَ خُلِقَ ضعيفاً فقيراً لا غِنىٰ لهُ عن فضْلِ ربِّهِ الغنيِّ الكبير. هذا جُملةُ الجواب، والكلامُ يَطولُ تفصيلُه، ولكنّا نذكُرُ مِن ذلكَ طرَفاً يسيراً، فنقول:

العاملونَ للّهِ علىٰ ثلاثةِ أقسام، فمنهُم:

ـ مَن يعمَلُ خَشيةَ العِقابِ وهُم الخائفون.

ـ ومنهُم مَن يعمَلُ رجاءَ الثوابِ وهمُ الراجُون.

ـ ومنهُم مَن يعمَلُ امتثالاً للأمر، وهمُ العارفون.

ولا بدَّ للعارفينَ منَ الرجاءِ والخوف، وللخائفينَ منَ الرجاءِ والمعرفة، وللرّاجينَ منَ الخوفِ والمعرِفة، ولكنْ يُنسَبُ العبدُ إلىٰ ما هُوَ الغالبُ عليهِ منَ المقاماتِ والأحوال.

وما وقَعَ في كلامِ بعضِ أهلِ التصوّف، مما يُوهِمُ نقْصاً وانحطاطاً في حالِ مَن يعمَلُ علىٰ رجاءِ الثوابِ أو خوفِ العقاب، فذلكَ محمولٌ علىٰ قصدِ التنبيهِ به، علىٰ أنّ الذي يَعمَلُ لمجرَّدِ امتثالِ الأمرِ أفضلُ مِنَ الراجي والخائف، والأمرُ كذلك، ولكنّها مقاماتٌ بعضُها فوقَ بعض. وليسَ للعبدِ أن يُقيمَ مَن

يشاءُ في الذي يختارُ منها، بلِ الأمرُ للّه، يُقيمُ مَن يشاءُ مِن عبادِهِ حيثُ يشاء. ولا بـدَّ أن يُقيـمَ الحقُّ تعـالىٰ في كلِّ مقـام منَ المقـاماتِ الثـلاثِ طائفـةً منَ المؤمنيـنَ لا تصلُـحُ أحوالُهم، ولا تستقيمُ قلوبُهـم، إلا بالعمَـلِ علىٰ وفْقِ ما أُقيموا فيه.

وربّما أشـارَ بعضُ أهلِ المعرِفةِ في تنزيلِ مقـام مَن يعمَـلُ علـىٰ الرجاءِ والثوابِ إلىٰ حالِ مَن لو لـم يُرغَّبْ بثوابٍ ويُخوَّفْ بعقابٍ لكانَ لا يعمَلُ أصلاً، وليسَ في قلبهِ مِن تعظيمِ اللّهِ ما يحمِلُهُ علىٰ امتثالِ أمرِه.

ثم أقول: العمَلُ علىٰ امتثالِ الأمرِ وابتغاءِ الرضا والقُرب، حسَنٌ جميل، والعمَلُ علىٰ رجاءِ الثوابِ والرهْبةِ منَ العقاب، حسَنٌ جميل، والجامعُ مِن أهلِ اللّهِ هُوَ: الذي يعمَلُ علىٰ المقاماتِ الثلاثِ بالتمامِ والكمال، ولكنّهُ عزيز.

فلْيعرِفِ الإنسانُ ما أُقيمَ فيه، ولْيعمَلْ عليهِ ولا يكنْ كالأجيرِ السُّوء: إن لم يُعـطَ الأجرةَ لم يعمَلْ، ولا كالعبدِ السُّـوء: لولا خَشيـةُ الضربِ لـم يتأدّب، ولكنْ يعمَلُ للّه؛ لأنهُ سيّدُهُ ومَولاه، ولأنهُ أمرَهُ ونهاه، ويرجو الثوابَ مِن بابِ الفضْلِ والمِنّة، ويخافُ العقابَ لسُوءِ أدبهِ وتقصيرِهِ في عبادةِ ربِّه.

فهذهِ هِيَ الطريقةُ السمْحاء، والمَحَجّةُ البيضاء، وعليها مضىٰ الصالحونَ والعلمـاء، ومَـن تأمّلَ في كلامِهم وسِيَرِهـم، وكانَ ذا بصيرة، عَلِمَ ما ذكَرناهُ وعرَفَهُ تحقيقاً. انتهىٰ. مِن «مُكاتَبتِهِ» رحِمَهُ اللّهُ ونفَعَ به.

فائدة:

قالَ سيّدُنا أحمدُ بنُ زينٍ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: إذا سمعَ الإنسانُ شيئاً منَ الفضْلِ وعمِلَ بهِ ولو مرة، يرجو منَ اللّهِ أن يكونَ مِن أهلِ العمَلِ به، ويخافُ أن لا يكونَ منَ القائمينَ بالعمَلِ بهِ كذا كذا مرّة، ويكونُ هكذا في كلِّ عمَلٍ بينَ الخوفِ والرجاء. انتهىٰ. مِن «قرةِ العين».

ـ **آياتٌ زلْزَلتْ قلوبَ المؤمنين، وأخرىٰ آنَسَتْها:**

قـالَ الإمامُ السُّيوطيُّ في «الإتقان»: قالَ بعضُهـم: أشدُّ آيةٍ في القرآن: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فما منّـا أحدٌ يعمَـلُ سُوءاً إلا يُجزىٰ به. وعنِ الحسَنِ قال: سألتُ أبا بَرْزَةَ الأسلميَّ عن أشدِّ آيةٍ في كتابِ اللّهِ تعالىٰ علىٰ أهلِ النار، فقال: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]. وفي «صحيحِ البُخاريّ»(١) عن سفيانَ قال: ما في القرآنِ آيةٌ أشدُّ عَلَيَّ مِن: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

وأخرَجَ ابنُ منذرٍ عنِ ابنِ سيرين: لم يكنْ شيءٌ أخوفَ عندَهم مِن هذهِ الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، وعـن أبي حنيفة: أخوفُ آيةٍ في القرآن: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وقـالَ غيـرُه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، ولهذا قالَ بعضُهم: لو سمِعتُ هذهِ الكلمةَ مِن خَفيرِ الحارةِ لم أنَمْ.

ومن آياتِ الخوفِ قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، شَرَطَ للمغفِرةِ أربعةَ شروطٍ قَلَّ مَن يقومُ بها وهِيَ: التوبة، والإيمان، والعمَلُ الصالح، والاهتداء. ومِثلُ ذلك: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ١ ـ ٢]، إلىٰ آخـر السورة: استثنـىٰ منَ الخُسْـرِ مَن آمَنَ وعَمِلَ صالحاً وتواصىٰ بالحقِّ وبالصبر.

وقد غُشِيَ علىٰ بعضِ العلماءِ عندَ سَماعِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩] الآيـة، وعلـىٰ آخرَ عنـدَ قولِـهِ تعـالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ

---

(١) في كتاب الرِّقاق منه، باب الرجاء مع الخوف، (١١: ٣٠٠ فتح الباري).

﴿ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٦] الآية، ثم ماتَ عندَ إعادتِها ثانياً. وعلىٰ بعضِهم عندَ قولِهِ: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ . . .﴾ [الأحزاب: ٦٦] الآية، ثم قُرِىءَ عليه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]، فمات. وماتَ الآخَرُ عندَ سَماعِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، وبعضُهم صُعِقَ عندَ سَماعِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وآخَرُ عند: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١] الآية. . ذكَرَ ذلكَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ في «شرحِ العَينيّة».

قالَ الإمامُ السُّيوطيُّ في «الإتقان»: وقدِ اختُلِفَ في أرجىٰ آيةٍ في القرآن، أخرَجَ أبو نعيمٍ في «الحِليةِ»[1] عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ أنهُ قال: إنكُم يا معشَرَ أهلِ العِراقِ تقولون: أرجىٰ آيةٍ في القرآن: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]. . الآية، لكنّا أهلَ البيتِ نقول: إن أرجىٰ آيةٍ في كتابِ الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحىٰ: ٥]، وهِيَ الشَّفاعة. وأخرَجَ الواحديُّ[2] عن عليٍّ بنِ الحُسينِ قال: أشدُّ آيةٍ علىٰ أهلِ النار: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، وأرجىٰ آيةٍ في القرآنِ لأهلِ التوحيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] الآية.

وأخرجَ مسلمٌ في «صحيحِهِ»[3] عنِ ابنِ المُباركِ: أنّ أرجىٰ آيةٍ في القرآنِ قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إلىٰ قولِهِ:

---

(١) في ترجمة محمد بن الحنفية (٣: ١٧٩).

(٢) الإمام المفسِّر اللغوي العلاّمة أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي الشافعي (ت٤٦٨هـ)، صاحب التفاسير: «الوجيز»، و«الوسيط»، و«البسيط».

(٣) في كتاب التوبة، باب حديث الإفك وقبول توبة القاذف، (١٧: ١١٣ بشرح النووي).

﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢].

وروىٰ الهَرَوِيُّ[١] عنِ ابنِ عبدِ الحَكَمِ[٢] قال: سألتُ الشافعيّ: أيُّ آيةٍ أرجىٰ؟ قال: قولُهُ: ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد: ١٦]. قال: وسألتُهُ عن أرجىٰ حديثٍ للمؤمن، قال: «إذا كانَ يومُ القيامة، يُدفَعُ إلىٰ كلِّ مسلمٍ رجلٌ منَ الكُفَّارِ فِداؤه»[٣].

وعن عليٍّ رضِيَ اللّهُ عنه، قال: ألا أُخْبِرُكُم بأفضَلِ آيةٍ في كتابِ اللّهِ تعالىٰ حدَّثنا بها رسولُ اللّهِ ﷺ؟ ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورىٰ: ٣٠]، واللّهُ أكرَمُ مِن أنْ يُثَنّيَ العقوبةَ وما عفا اللّهُ عنهُ في الدُنيا. فاللّهُ أحكَمُ مِن أن يعودَ بعدَ عَفْوِهِ[٤].

وقالَ بعضُهم: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال: ٣٨]، قالَ الشِّبْليّ: إنْ كانَ اللّهُ أذِنَ للكافرِ بدخولِ البابِ إذا أتىٰ بالتوحيدِ والشهادة، أفتَرىٰ يُخرِجُ الداخلَ فيها والمُقيمَ عليها؟

---

(١) الإمام العلاّمة اللغوي المحدِّث أبو عُبَيد أحمد بن محمد بن عبد الرحمٰن الهَرَوي (ت٤٠١هـ)، صاحب «الغريبين» في لغة القرآن ولغة الحديث، وهو من تلامذة الأزهري.

(٢) أبو محمد عبد اللّه بن عبد الحَكَم بن أَعْيَن المصري (١٥٥ ــ ٢١٤هـ)، الإمام الفقيه الحجة، سمع مالكاً ــ وكان أعلمَ أصحابه بمختَلِف قوله ــ والليثَ، وأفضت إليه الرئاسة بمصر بعد أشهب، وهو جدُّ عائلة بني عبد الحكم المصرية المشهورة. وفي بيته نزل الإمام الشافعي لمّا حلَّ مصر.

(٣) أخرجه مسلمٌ (٢٧٦٧)، من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضيَ اللّه عنه، مرفوعاً، بلفظ؛ «.. دفع اللّه عز وجل إلىٰ كل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقول: هذا فكاكك من النار».

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١: ١٥٨ برقم ١٣٦٩).

وأخرَجَ ابنُ أبي حاتمٍ عن عِكرمة، قال: سُئلَ ابنُ عباس: أيُّ آيةٍ أرجىٰ في كتابِ اللّٰه؟ قال: قولُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ . .﴾ [فصلت: ٣٠] علىٰ شهادةِ أنْ لا إلٰهَ إلا اللّٰه. انتهىٰ معَ بعضِ حذْف.

وعن أبـي سيفٍ الزاهدِ أنه قالَ: ما نُحبُّ أنْ يَلِيَ حسابَنا غيرُ اللّٰه، لأنّ الكريمَ يُجاوز. وعن سفيانَ الثوري قال: ما أُحبُّ أنّ حسابي جُعِلَ إلىٰ والدي، ربي خيرٌ لي مِن والدي.

حكايتانِ:

حُكيَ أنّ رجلاً ٱستأذَنَ علىٰ طاووسٍ اليمنيّ، فخرَجَ لهُ شيخٌ فقالَ له: أنتَ طاووس؟ قال: لا، أنا ابنُه. فقال: لقد خرِفَ أبوك! فقال: إنّ العالِمَ لا يخـرَف. ثم قال: إذا دخَلْتَ عليهِ فأوجِـزْ. فدخَـلَ فقال: إذا سألْـتَ فأوجِز. فقـال: لئنْ أوجَزَ لي أوجزْتُ. فقـال: إنّـي مُعلِّمُـكَ في مجلِسي هـذا التوراةَ والإنجيلَ والقرآن. فقال: لئنْ علّمتَني هذهِ الثلاثةَ لا أسألُكَ عن شيء. فقال: خَفِ اللّٰهَ مَخافةً لا يكونُ شيءٌ أخوفَ عندَك منه، وٱرجُهُ رجاءً أشدَّ مِن خَوفِكَ إياه، وأحِبَّ للناسِ ما تُحبُّ لنفْسِك.

قالَ الإمامُ ابنُ حَجَرٍ الهَيْتَمِيُّ رحِمَهُ اللّٰهُ تعالىٰ: ويؤيّدُ قولَه: «إنّ العالِمَ لا يخرَف» قولُ عِكرمةَ ــ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥] ــ: من قرَأَ القرآنَ ــ أي: بحقِّه ــ لا يَصِلُ لهذِه الحالة. فالمُرادُ بكونِ العالِمِ لا يخرَفُ أنهُ لا يصِـلُ إلىٰ خرَفِ العوامِّ ومِن عَوْدِ الكبيرِ كالطّفلِ في سائرِ أحوالِهِ بل أقبحَ منه، فهذا الذي تُصانُ عنهُ العلماءُ باللّٰه. انتهىٰ. مِنَ «الزَّواجِر».

وذكَـرَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّٰهُ في «الإحيـاء» أنهُ رُئِيَ يحيىٰ بنُ أكثمَ[1]

---

(١) الفقيـه العلاّمة، قاضي القضاة، أبو محمـد يحيىٰ بن أكثـم التميمـي المروزي ثم =

بعدَ موتِـهِ في النوم، فقيلَ لـه: ما فعَـلَ اللّهُ بك؟ فقال: أوقفَني اللّهُ بينَ يدْيهِ وقال؛ يا شيخَ السَّوْء، فعلْتَ وفعلْتَ! قال: فأخَذَني منَ الرّعبِ ما يعلَمُ اللّه، ثم قلـتُ: يا ربّ، ما هكـذا حُدِّثْـتُ عنـك. فقال: وما حُدِّثْتَ عنّي؟ فقلت: حدّثني عبدُ الرزاق، عن مَعْمَر، عنِ الزُّهْريّ، عن أنس، عن نبيِّكَ محمّدٍ ﷺ، عـن جبريـلَ عليـهِ السلام، أنكَ قلـتَ: «أنا عندَ ظـنِّ عبـدي، فلْيَظُـنَّ بـي ما شـاء»[1]، وكنتُ أظنُّ بكَ أنْ لا تُعذّبَنـي. فقـالَ اللّهُ عزَّ وجَلّ: صدَقَ جبريـلُ وصـدَقَ نبيِّي وصدَقَ أنسٌ وصدَقَ معْمَرٌ وصـدَقَ الزُّهْرِيُّ وصدَقَ عبدُ الرزّاقِ وصدقْتَ. قال: فأُلبِستُ، ومشىٰ بينَ يديَّ الوِلدانُ إلىٰ الجنّة. فقلت: يا لها مِن فرحة! انتهىٰ.

❊ ❊ ❊

= البغـدادي (ت٢٤٢هـ). كان واسع العلم بالفقـه، كثير الأدب، من أئمة الاجتهاد، صنّف في الفقه كتباً جليلة تركها الناس لطولها. رحمه اللّه تعالىٰ.

(١) أخرجه أحمد(٣: ٤٩١)، وابن حبّان (٢: ٤٠١ برقم ٦٣٣)، وغيرهما، من حديث واثلـة بن الأسقع رضيَ اللّه عنه. وشطره الأول في الصحيحيـن: البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

الفصل الخامس
في البكاء من خشية الله تعالى

عن أبي أُمامةَ رضِيَ اللّهُ عنه، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «ليسَ شيءٌ أحبَّ إلىٰ اللّهِ من قَطْرتَينِ وأثَرَين: قطْرةِ دمْعٍ مِن خَشيةِ اللّه، وقطْرةِ دَمٍ تُهْراقُ في سبيلِ اللّه، وأثَرٍ في سبيلِ اللّه، وأثَرٍ في فريضةٍ مِن فرائضِ اللّه»[١].

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلام: «كلُّ عينٍ باكِيةٌ يومَ القيامة، إلاّ عيْناً غضَّتْ عن مَحارِمِ اللّه، وعيْناً سهِرَتْ في سبيلِ اللّه، وعيْناً بكَتْ مِن خَشيةِ اللّه»[٢].

وقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «لا يلِجُ النّارَ رجلٌ بكَىٰ مِن خَشيةِ اللّه، حتّىٰ يعودَ اللّبَنُ في الضَّرْع»[٣].

وفي «تفسيرِ القُرطبيّ»، في قولِهِ تعالىٰ: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧]، أي: قرُبتِ القيامة. ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦١]، أي: غافلونَ في لهْو. لمّا نزلَتْ هذهِ الآية، وسمِعَها أهلُ

---

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (١٦٦٩)، من حديث أبي أمامة رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣: ١٦٣)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٣٣)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

الصُّفّة، بكَوْا بكـاءً كثيراً، فبكىٰ النبيُّ ﷺ وقال: «لا يلِـجُ النّارَ مَن بكىٰ مِن خَشيةِ اللّه، ولا يدخُلُ الجنّةَ مُصِرٌّ علىٰ معصيتِه»[١]. وقال ﷺ: «دَمْعةُ العاصي تُطفِىءُ غضَبَ الرّبّ»[٢].

فإن قيل: قد بكىٰ إبليسُ لعنَهُ اللّه، فما أفادَهُ بكاؤه؟ فالجواب: أنهُ قال: «دمعةُ العاصي»، ولم يقُل: دمعةُ الكافر. فالمعاصي سُمومٌ والدمعةُ تِرياقُها. ذكَرَ ذلكَ في «أُنسِ المجالِس».

وعن عُقبةَ بنِ عامرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قلتُ: يا رسولَ اللّه، ما النّجاةُ؟ قال: «أمسِكْ عليكَ لِسانَك، ولْيَسَعْكَ بَيتُك، وَٱبْكِ علىٰ خَطيئتِك»[٣].

ــ أنواعُ البُكاء:

قالَ ابنُ القيّم رحِمَهُ اللّهُ في «زادِ المَعاد»: البكاءُ علىٰ أنواع:

أحدُها: بكاءُ الرحمةِ والرِّقة.

والثاني: بكاءُ الخوفِ والخَشية.

والثالث: بكاءُ المَحبّةِ والشوق.

والرابع: بكاءُ الفرَحِ والسرور.

والخامس: بكاءُ الجزَعِ مِن ورودِ المؤلمِ وعدَمِ احتمالِه.

والسادس: بكاءُ الحزَن. والفرقُ بينَهُ وبينَ بكاءِ الخوفِ أنّ بكاءَ الحزَنِ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشُّعَب» (٢: ٢٣٣ برقم ٧٧٧) من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر الحديثية.

(٣) أخرجـه الترمذي (٢٤٠٦)، وأحمد (٤: ١٤٨، ٥: ٢٥٩)، وغيرهما، من حديث عقبةَ بن عامر رضيَ اللّه عنه. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن.

يكونُ علىٰ ما مضىٰ مِن حصولِ مكروهٍ أو فَواتِ محبوب. وبكاءُ الخوفِ يكونُ لِمَا يُتوقَّعُ في المستقبلِ مِن ذلك. والفرقُ بينَ بكاءِ السرورِ والفَرَحِ وبكاءِ الحزَنِ أنّ دمعةَ السرورِ باردةٌ والقلبُ فرحان، ودمعةُ الحزنِ حارّةٌ والقلبُ حزين، ولهذا يقالُ لِمَا يُفرَحُ به: هُوَ قُرّةُ عين، وأقَرَّ اللّهُ بهِ عينَه، ولِمَا يُحزِنُ: هُوَ سُخْنةُ عينٍ وأسخَنَ اللّهُ عينَهُ به.

والسابع: بكاءُ الخوَرِ والضّعف.

والثامن: بكاءُ النفاق، وهُوَ: أن تدمَعَ العينُ والقلبُ قاس، فيُظهِرُ صاحبُهُ الخشوعَ وهُوَ مِن أقسىٰ قلوبِ الناسِ قلباً.

والتاسع: البكاءُ المُستعارُ والمُستأجَرُ عليه، كبكاءِ النائحةِ بالأُجرة، فإنها ــ كما قالَ عمرُ بنُ الخطاب ــ تبيعُ عبرَتَها وتبكي بشجْوِ غيرِها.

والعاشر: بكاءُ المُوافقَة، وهُوَ أن يرىٰ الرجلُ الناسَ يبكُونَ لأمرٍ ورَدَ عليهِم، فيبكيَ معَهم ولا يدري لأيِّ شيءٍ يبكونَ ولكنْ يراهمُ يبكونَ فبكىٰ.

قال: وما كانَ مِن ذلك دمعاً بلا صوتٍ فهُوَ (بُكىً) مقصور، وما كانَ معَهُ صوتٌ فهُوَ (بُكاءٌ) ممدودٌ علىٰ بناءِ الأصوات، وقال الشاعر:

بكتْ عيني وحُقَّ لها بُكاها   وما يُغني البكاءُ ولا العَويلُ

وما كانَ منهُ مُستَدْعىً متكلَّفاً فهُوَ **التباكي**، وهُوَ **نوعان**: محمودٌ ومذموم. فالمحمودُ: أن يُستجلَبَ لرِقّةِ القلبِ ولخَشيةِ اللّه لا للرِّياءِ والسُّمعة. والمذمومُ: أن يُجتلَبَ لأجلِ الخَلْق، وقد قالَ عمرُ بنُ الخطابِ للنبيِّ ﷺ وقد رآهُ يبكي هُوَ وأبو بكرٍ في شأنِ أُسارىٰ بدر: أخبِرْني ما يُبكيكَ يا رسولَ اللّه، فإنْ وجَدتُ بكاءً بكيْتُ وإلا تباكيْت، ولم يُنكِرْ عليهِ

ﷺ[١]. وقالَ بعضُ السلَف: ابكوا مِن خَشيةِ اللّه، فإنْ لم تبكُوا فتباكُوا. انتهىٰ كلامُ ابنِ القيّم.

قالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواريِّ[٢] رحِمَهُ اللّه: أفضَلُ البكاءِ بكاءُ العبدِ علىٰ ما فاتَهُ مِن أوقاتِهِ علىٰ غيرِ المُوافَقة.

قال سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: البكاءُ نورٌ للقلب. قالَ عليهِ السلام: «لو بكَىٰ باكٍ في أُمّةٍ لَرَحِمَهُمُ اللّه»[٣]، لكنْ مِن خوفِ الخالق. وأمّا البكاءُ للتصنُّع للخَلْقِ وإن لم يُرِدْ منهُم شيئاً، مِن جاهٍ أو مال، لكنْ ليُرىٰ أنهُ خاضعٌ، أوِ استحياءً منهُم بأن يظُنّوهُ يبكي وقد رأَوْهُ بكىٰ مرةً فتباكىٰ للحياء، [فليس كذلك]. والبكاءُ للخشوعِ إنّما هُوَ قد يعرِض، فإن كثُرَ وتعدَّدَ صار عادة. وينبغي كِتمانُ البكاءِ في القلبِ ومنْعُ الدموعِ أن تخرُج، فإنّ ذلكَ يزيدُ في تنويرِ القلب ويؤثّرُ فيهِ أكثرَ ممّا لو ظهرَتْ؛ لأنّ في ظهورِها تنفيساً، ففي الخبرِ أو الأثر: «إنّ للّهِ عِباداً يضحَكونَ مِن سَعَةِ رحمةِ اللّهِ جَهْراً، ويبْكونَ مِن خَشيةِ اللّهِ سِرّاً»[٤]. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١: ٣٨ برقم ٢٠٩)، وغيره من حديث ابن عبّاس عن عمر، رضيَ اللّه عنهم.

(٢) الإمام الوليُّ القدوة، الحافظ المحدِّث الثقة، شيخ أهل الشام، أبو الحسن أحمد بن أبي الحواري الدمشقي الزاهد (١٦٤ ــ ٢٤٦هـ)، صاحب الإمام أبي سليمان الداراني. قال ابن مَعِين: أهل الشام به يُمطَرون. وقال الإمام الجنيد: أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام.

(٣) هذا الحديث لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣: ١٧)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٢: ٢١٤ برقم ٧٤٩)، من حديث عياض بن سليمان الصحابي. وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١: ١٦). ضعّفه الحافظ الذهبي وأنكره في تعليقه علىٰ «المستدرك».

ـ بُكاءُ الأنبياءِ والصَّالِحين :

رويَ أنّ آدمَ عليهِ السّلامُ لمّا أُهبِطَ إلىٰ الأرض، مكَثَ ثلاثَمئةِ سنةٍ لا يرفَعُ رأسَهُ إلىٰ السماءِ حياءً منَ اللّه. قالَ ابنُ عباس: بكىٰ آدمُ وحواءُ علىٰ ما فاتَهُما مِن نعيمِ الجنّةِ مئتيْ سَنة، ولم يأكُلا ولم يشرَبا أربعينَ يوماً، ولم يقرَبْ آدمُ حواءَ مئةَ سنة. وقيل: لو أنّ دموعَ أهلِ الأرضِ جُمِعتْ لكانتْ دموعُ داودَ أكثر، حيثُ أصابَ الخطيئة[1]، ولو أنّ دموعَ داودَ ودموعَ أهلِ الأرضِ جُمِعتْ لكانتْ دموعُ آدمَ أكثر، حيثُ أخرَجَهُ اللّهُ منَ الجنّة. ذُكِرَ ذلك في «تفسيرِ البغَويّ».

وفي «الشفاءِ» للقاضي عِياض: كانَ نبيُّ اللّهِ داودُ عليهِ السّلامُ يمزُجُ شرابَهُ بالدموع، ولم يُرَ ضاحكاً بعدَ الخطيئةِ ولا شاخصاً ببصَرِهِ إلىٰ السماءِ حياءً مِن ربِّهِ عزَّ وجَلّ، ولم يزَلْ باكياً حياتَهُ كلَّها. وقيل: بكىٰ حتىٰ نبَتَ العُشبُ مِن دموعِه، وحتىٰ اتخذتِ الدموعُ في خدِّهِ أُخدوداً. انتهىٰ.

وكانَ محمّدُ بنُ واسعٍ[2] رحِمَهُ اللّهُ يقول: أدركْنا الناسَ وهم ينامونَ معَ

---

(١) هذه الخطيئة إمّا أن تكونَ صغيرةً وقعت قبل النبوّة، أو حُكمَه عليه السلام بين الخصمين الذي ذكره القرآن الكريم، وفيه قوله تعالىٰ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [صٓ: ٢٤]. أما ما يُذكر في بعض كتب التفسير من كونه عشق زوجة (أوريا) أحد قوّاده فأرسل به للحرب ليُقتل فيتمكن من زوجته، فمن الإسرائيليات المكذوبة التي يتنزّه عنها أفراد الناس فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام، فينبغي الحذر والتحذير منها كما نبّه العلماء. ولمحدِّث المغرب السيّد عبد اللّه الغماري في ذلك كتاب: «داود عليه السلام».

(٢) الإمام التقي، الربّاني القدوة، أبو بكر محمد بن واسع البصري (ت١٢٧هـ) من صغار التابعين وشامات السلف الصالحين، كان آيةً في الخشوع والخشية.

نسائهم علىٰ وسادةٍ واحدة، ويبكونَ حتىٰ تبتلَّ الوِسادةُ مِن دُموعِهم، عشرينَ سنةً لا تشعُرُ امرأتُهُ بذلك! نقَلَهُ الشَّعرانيُّ في «الأنوارِ القُدسيّة».

ورُوِيَ عنِ الأصمعيِّ[1] رحِمَهُ اللّه، أنهُ رأىٰ عليَّ بنَ الحسينِ رضِيَ اللّهُ عنهُما باكياً مِن شِدّةِ خوفِهِ مِن اللّهِ تعالىٰ، فقال: يا سيّدي، ما هذا البكاءُ وما هذا الجزَعُ وأنتَ مِن أهلِ البيتِ وقد قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]؟ قال: يا أصمعيّ، هيهات! إنّ اللّهَ خلَقَ الجنّةَ لمَن أطاعَهُ ولو كانَ عبداً حبَشِياً، وخلَقَ النارَ لمَن عصاهُ ولو كانَ مَلِكاً قُرشِياً.

وعن مُفْلحٍ مَولىٰ محمّدِ بنِ عليٍّ الباقرِ قال: خرَجتُ معَ محمّدِ بنِ عليٍّ حاجّاً، فلمّا دخلَ المسجدَ الحرامَ نظَرَ إلىٰ البيت، فبكىٰ حتىٰ علا صوتُه، فقلتُ: بأبي أنتَ وأُمّي! إنّ الناسَ ينظُرونَ إليك، فلو رَفَقْتَ صوتَكَ قليلاً. فقال: ويحَكَ يا أفلح! ولِمَ لا أبكي؟ لعلَّ اللّهَ عزَّ وجَلَّ أن ينظُرَ إليّ برحمَتِهِ فأفوزَ بها عندَهُ غداً! قالَ: ثمّ طافَ بالبيت، ثم جاءَ حتىٰ ركَعَ عندَ المقام، فرفَعَ رأسَهُ مِن سُجودِه، فإذا مَوضعُ سجودِهِ يَسيلُ مِن دموعِ عينَيه. انتهىٰ.

وفي «الإحياء» عن يزيدَ بنِ مذعورٍ رحِمَهُ اللّهُ قال: رأيتُ الأوزاعيَّ[2]

---

(١) الإمام العلاّمة الحافظ اللغوي، لسان العرب وحجة الأدب، أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصمعي البصري (١٢٨ ـ ٢١٦هـ). قال الشافعي: ما عبَّر أحدٌ عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي. وقال ابن الأعرابي ـ وكان من أئمة اللغة ـ: شهدتُ الأصمعي وقد أنشد نحواً من مئتي بيت، ما فيها بيتٌ عرفناه!

(٢) شيخ الإسلام، عالم أهل الشام، أبو عمرو عبد الرحمٰن بن عمرو بن يُحْمَد الأوزاعي (٨٨ ـ ١٥٧هـ) من كبار الأئمة المجتهدين، وكان له مذهبٌ مستقلٌّ مشهور، عمل به فقهاء الشام مدةً وفقهاءُ الأندلس، ثم فنِي.

في المنام، فقلتُ: يا أبا عمرو، دُلَّني علىٰ عمَلٍ أتقرَّبُ بهِ إلىٰ اللّهِ عزَّ وجَلّ، فقال: ما رأيتُ درجةً أرفَعَ مِن درجاتِ العلماءِ ثمّ درَجةِ المحزونين. وكانَ يزيدُ شيخاً كبيراً، فلم يزلْ يبكي حتىٰ أظلمَتْ عيناه. انتهىٰ.



الفصل السّادس
في بعض أحوال السلف الصالحين
في خوفهم من ربّ العالمين

قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧] الآية.

قالَ سيّدُنا الإمامُ عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشـيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ العشَرةَ منَ الصحابـةِ المُبشَّرينَ بالجنّةِ رضِيَ اللّهُ عنهـم كانوا علـىٰ غايـةٍ منَ الخوف، وكانَ سيّدُنـا عمرُ بنُ الخطابِ مِن أجَلِّهـم وأشدِّهم خوفـاً، فقيـلَ له: لمَ هذا الخوفُ وقد بشَّرَكُمُ الصّادقُ الأمينُ الذي لا ينطِقُ عن الهوىٰ بالجنّة؟ فقال: إنّا نخـافُ أن تكونَ البِشارةُ مُتوقِّفةً علىٰ شـروط، ولا نأمَنُ مِن أنفُسِنا، فلعلّنا قد أخلَلْنا بشيءٍ مِن تلكَ الشروط. انتهىٰ.

وأخرَجَ البيهقيُّ في «شُعَبِ الإيمان»[1] عنِ الضحّاك، قالَ أبو بكرٍ رضِيَ اللّهُ عنه: واللّه، لَودِدْتُ أني شجـرةٌ إلىٰ جنبِ الطريق! فمرَّ عليَّ بعيرٌ فأخَذَني فأدخَلَني فاهُ فلاكَني ثم ازدرَدَني، ثم أخرَجَني بعْراً ولم أكنْ بشراً! انتهىٰ.

وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ رضِيَ اللّهُ عنهُ كثيرَ الخوفِ منَ اللّهِ تعالىٰ، حتىٰ

---

(١) في الحاديَ عشر منه، وهو باب في الخوف من اللّه تعالىٰ، (٢: ٢٢٧ برقم ٧٦٨).

أنهُ كان يُرىٰ في وجهِهِ خطّانِ أسوَدانِ مثلَ الشِّراكِ[1] منَ البكاء، وكانَ يمُرُّ بالآيةِ في وِردِهِ فتخنُقُهُ العَبْرة، فيبكي حتىٰ يُعاد، يحسَبونَهُ مريضاً. وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: ليتَني كنتُ كبْشاً لأهلي، سمَّنوني ما بدا لهُم، ثم ذبَحوني فأكَلوني، وأخرَجوني عَذِرة، ولم أكنْ بشراً.

ولمّا مرِضَ كانَ رأسُهُ في حِجْرِ ولدِهِ عبدِ اللّه، فقالَ له: يا ولدي، ضَعْ رأسي علىٰ الأرض، فقالَ عبدُ اللّه: وما عليكَ إن كنتَ علىٰ فخِذي أو علىٰ الأرض؟ فقال: ضَعْهُ علىٰ الأرض، فوضَعَ عبدُ اللّهِ رأسَهُ علىٰ الأرض، فقال: ويْلي وويْلَ أُمّي إن لم يرحَمْني ربّي! يا ليتَني لم أُخلَقْ! ليتَ أُمّي لم تلِدْني!

وكانَ عثمانُ رضِيَ اللّهُ عنه إذا مرَّ علىٰ المقبرةِ يبكي حتىٰ يبُلَّ لحيتَه، وكانَ إذا رأىٰ قبراً تمثَّلَ بهذا البيتِ شِعراً:

فإنْ تنْجُ منها تنْجُ مِن ذي عظيمةٍ ... وإلا، فإنّي لا إخالُكَ ناجيا

وقالَ ابنُ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُما ــ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] ــ: هُوَ عثمانُ بنُ عفّانَ رضِيَ اللّهُ عنه.

أمّا عليٌّ رحِمهُ اللّهُ فقد رُويَ أنّ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ قالَ لضرارِ بنِ ضمْرة: يا ضِرار، صِفْ لي عليّاً، قال: أَعفِني يا أميرَ المؤمنين، قال: لا أُعفِيك. قال: فأمّا إذا لم تُعفِني فكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ بعيدَ المدىٰ، شديدَ القُوىٰ، يقولُ فصْلاً، ويحكُمُ عدْلاً، يتفجّرُ العِلمُ مِن جوانبه، وتنطِقُ الحِكمةُ مِن نَواحيه. يُعجِبُهُ منَ الطّعامِ ما خشُن، ومنَ اللِّباسِ ما قصُر. يستَوحِشُ منَ الدنيا

---

(١) الشراك: أحد سُيُور النعل التي تكون علىٰ وجهها. والسُّيُور: جمع سَيْر، وهو ما يُمزَعُ من الجلد طولاً.

وزهْرتِهـا ويستَأنِـسُ باللّيـلِ وظُلمتِه. كـانَ ــ واللّه ــ غزيـرَ الدّمعـة، طـويلَ الفِكرة، يقلِّبُ كفَّهُ ويخاطِبُ نفْسَه، يُعظِّمُ أهلَ الدِّين، ويُحبُّ المساكين، ولا يطمَعُ القويُّ في باطلِه، ولا ييأسُ الضعيفُ مِن عدلِه.

وأشهَدُ باللّه، لقد رأيتُهُ في بعضِ مَواقفِهِ وقد أرخىٰ اللّيلُ سُدولَهُ وغارتْ نجومُه، قائماً في مِحرابِـهِ شِبْهَ الملذوع، يتمَلْمَلُ تمَلمُلَ السّليم، ويبكي بكاءَ الحزين، قابضاً علىٰ لِحيتِهِ وهُوَ يقول: يا دُنيا غُرِّي غيري، إليَّ تَشوَّفْتِ أم إليَّ تعرَّضْتِ؟ قد أبَنْتُكِ ثلاثاً لا رجْعةَ فيها، فعمُرُكِ قصير، وقدْرُكِ حقير، وخطَرُكِ عظيم. آهِ مِن قلّةِ الزّاد، وبُعدِ الطّريق، ووَحْشةِ السّفر!

فبكـىٰ معاوية، وجعَلَ كمَّـهُ علىٰ وجهِهِ يستبِقُ دمعَهُ ما يَملِكُه، ثم قال: رحِـمَ اللّهُ أبا الحسَن! كانَ ــ واللّهِ ــ كـذلك. فكيفَ حُزنُـكَ عليـهِ يا ضِرار؟ قـال: حُزنَ من ذُبحَ ولدُها في حِجْرِها، فلا تَرقـأُ عَبْرتُهـا ولا يسكُـنُ حُزنُها. انتهىٰ.

قالَ الإمـامُ الغزاليُّ في «الإحياء»: كانَ الإمامُ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ وكـرَّمَ وجهَه، إذا حضَـرَ وقتُ الصلاةِ يتزَلزَلُ ويتلوّنُ وجهُه، فقيلَ له: ما لكَ يا أميرَ المؤمنين؟ فيقـول: جاءَ وقتُ أمانـةٍ عرَضَها اللّهُ علىٰ السماواتِ والأرضِ والجبال، فأبَيْنَ أن يحمِلْنَها، وأشفَقْنَ منها وحمَلتُها أنا. انتهىٰ.

* * *

وقالَ ﷺ لمُعاذِ بنِ جبلٍ الأنصاريِّ رضِيَ اللّهُ عنه، حينَ دخَلَ عليهِ وهُوَ يبكـي: «كيفَ أصبحتَ يا معاذ؟» فقال: أصبحتُ باللّهِ مؤمِناً. فقال ﷺ: «إنّ لكلِّ قولٍ مِصداقاً، ولكلِّ حقٍّ حقيقة، فما مِصداقُ ما تقول؟» فقال: يا رسولَ اللّه، ما أصبحـتُ صباحاً قطُّ إلاّ ظنَنتُ أنّي لا أُمسِي، وما أمْسَيتُ مساءً قطُّ إلاّ ظنَنتُ أنّي لا أُصبح، ولا خَطَوتُ خُطوةً قطُّ إلاّ ظنَنتُ أنّي لا أُتبِعُها الأخرىٰ،

وكأنّي أنظُرُ إلىٰ كلِّ أُمَّةٍ جاثيةً تُدعىٰ إلىٰ كتابِها، معَها نبيُّها وأوثانُها التي كانتْ تعبُدُ مِن دونِ اللّهِ تعالىٰ، وكأنّي أنظُرُ إلىٰ عقوبةِ أهلِ النّارِ وثوابِ أهلِ الجنّة، فقالَ النّبيُّ ﷺ: «عرفتَ فالزَمْ»(١). انتهىٰ. نقَلَهُ في كتابِ «القرطاس».

وقالَ ﷺ لحارثةَ بنِ النعمان رضيَ اللّهُ عنه: «كيفَ أصبحتَ يا حارثة؟» قال: أصبحتُ مؤمناً باللّهِ حقاً، فقال: «انظُرْ ما تقول، فإنّ لكلِّ حقٍّ حقيقة، فما حقيقةُ إيمانِك؟» فقال: عزَفَتْ نفْسي عنِ الدنيا فٱستوىٰ عندي ذهبُها وحَجَرُها وشِدّتُها ورَخاؤها، فأسهَرتُ ليلي وأظمَأْتُ نَهاري، وكأنّي بعرشِ ربّي بارزاً، وكأنّي أنظُرُ إلىٰ أهلِ الجنّةِ في الجنّةِ يتزاوَرونَ ويتنَعّمون، وكأنّي أنظُرُ إلىٰ أهلِ النّارِ في النّارِ يتَعاوَوْن ويُعذَّبون. فقال ﷺ: «حارِثةُ عبدٌ نوَّرَ اللّهُ قلبَه، أَبْصَرتَ فالزَمْ». قال: يا رسولَ اللّه، أُدعُ اللّهَ لي بالشّهادة، فدعا لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ، فكانَ أوّلَ منِ استُشهدَ يومَ أُحُد، فلمّا بلَغَ أُمَّهُ ذلكَ جاءتْ إلىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ فقالت: يا رسولَ اللّه، أخبِرْني عنِ ابني حارثة، فإنْ يَكُ في الجنّةِ فلن أبكيَ ولن أجزَع، وإن يكنْ غيرَ ذلكَ بكَيْتُ ما عِشتُ في الدنيا. فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أَهَبِلْتِ يا أُمَّ حارِثة؟ إنّها جِنانٌ كثيرة، وإنَّ ابنَكِ أَصابَ الفِرْدَوسَ الأعلىٰ». فرجعَتْ وهِيَ تضحَكُ وتقول: بخٍ بخٍ لكَ يا حارثة(٢). انتهىٰ.

رُويَ عن شدّادِ بنِ أوسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ كانَ إذا دخَلَ الفِراشَ يتقلَّبُ عليهِ لا يأتيهِ النوم، فيقول: اللّهُمَّ إنّ النارَ أذهبَتْ منّي النوم. فيقومُ فيصلّي حتىٰ يُصبح. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١ : ٢٤٢)، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في «الشُّعَب» (٧ : ٣٦٣)، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه.

وعن بَهْزِ بنِ حكيم قال: كانَ زُرارةُ بنُ أوْفىٰ قاضيَ البصرة، وكانَ يؤُمُّ في بني قُشَير، فقرَأَ يوماً في صلاةِ الصّبح: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۞ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٨ ــ ٩]، خرَّ ميّتاً، فكنتُ فيمَنِ احتمَلَهُ إلىٰ دارِه[1].

قالَ سلمانُ الفارسيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: ثلاثٌ أحزَنَّني حتّىٰ أبكيْنَني: فِراقُ محمّدٍ سيّدِ الأوّلينَ والآخِرينَ وحزبِه، وهوْلُ المَطلِعِ، والوقوفُ بينَ يديِ اللّهِ عزَّ وجَلَّ ولا أدري: أيُنصرَفُ بي إلىٰ الجنةِ أم إلىٰ النار.

وكانَ الإمامُ عليٌّ كرَّمَ اللّهُ وجهَهُ يقول: لقد رأيتُ أصحابَ محمّدٍ ﷺ، فما أرىٰ اليومَ شيئاً يُشبِهُهم، لقد كانوا يُصبِحونَ شُعْثاً صُفْراً غُبْراً، بينَ أعيُنِهم أمثالُ رُكَبِ المَعْز، قد باتوا للّهِ سُجّداً وقياماً، يتْلونَ كتابَ اللّه، يُراوِحونَ بينَ جباهِهم وأقدامِهم، فإذا أصبحوا فذكَروا اللّهَ مادوا كما يَميدُ الشّجرُ في يومِ الرّيح، وهَمَلَتْ[2] أعينُهم حتىٰ تبُلَّ ثيابَهم. انتهىٰ.

* * *

كانَ عليٌّ زينُ العابدينَ ابنُ الحسينِ رضِيَ اللّهُ عنه، إذا توضّأَ اصفَرَّ وجهُه، فيقولُ لهُ أهلُه: ما هذا الذي يعتادُكَ عندَ الوضوء؟ فيقول: أتَدرونَ بينَ يديْ مَن أريدُ أن أقوم؟ وكانَ إذا قامَ إلىٰ الصلاةِ أخذَتْهُ رِعدة، فقيلَ له: ما لك؟ فقال: أتَدرونَ بينَ يديْ مَن أقومُ ومَن أُناجي؟

وقالَ أبو نُوح: وقَعَ حريقٌ في بيتٍ فيهِ عليُّ بنُ الحسينِ وهُوَ ساجد، فجَعَلوا يقولونَ له: النّارَ يا ابنَ بنتِ رسولِ اللّه! النّارَ يا ابنَ بنتِ رسولِ اللّه! فما رفَعَ رأسَهُ حتىٰ أُطفئت، فقيلَ لهُ في ذلك، فقال: لم أشعُرْ بها، فقيلَ له: ما

---

(١) أخرجه الترمذي (٤٤٥).

(٢) أي: فاضت وسالت.

الذي أَلهاكَ عنها؟ قال: ألهاني عنها النّارُ الكبرىٰ. انتهىٰ. ذُكِرَ ذلكَ في «مَجمع الأحبابِ» للشريفِ محمّدِ بنِ الحسَنِ[١] رحِمَهُ اللّه، وقالَ فيهِ أيضاً: قالَ طاووس: رأيتُ عليَّ بنَ الحسينِ ساجداً بالحِجْر، فقلت: رجلٌ صالحٌ مِن أهلِ البيتِ الطيّب، لأسمَعنَّ ما يقول، فأصغيْتُ إليه، فسمِعتُه يقول: عُبَيدُك يا ربِّ نزَلَ بفنائك، فقيرُكَ يا ربِّ نزَلَ بفنائك، مسكينُكَ يا ربِّ نزَلَ بفنائك، سائلُكَ يا ربِّ نزَلَ بفنائك. فواللّهِ ما دَعوْتُ بهِنَّ في كرْبٍ إلا كُشِفَ عنّي. انتهىٰ.

وسُئِلَتْ فاطمةُ بنتُ عبدِ المَلِك، زوجُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ عن عبادتِهِ فقالت: لم يكنْ بأكثرِ النّاسِ صلاةً ولا صياماً، ولكنْ ــ واللّه ــ ما رأيتُ مَن يخافُ اللّهَ مثلَه، لقد كانَ يذكُرُ اللّهَ في فِراشِهِ فينتفِضُ انتفاضَ العُصفورِ مِن شِدّةِ الخوف، حتىٰ لَنقول: لَيُصبِحَنَّ الناسُ ولا خليفةَ لهُم. انتهىٰ.

وحُكِيَ عن إبراهيمَ النّخعيِّ رحِمَهُ اللّه، أنهُ لمّا حضرَتْهُ الوفاةُ جزِعَ جزَعاً شديداً، فقيلَ لهُ في ذلكَ فقال: وأيُّ خطَرٍ أعظمُ ممّا أنا فيه؟ أتوقّعُ رسولاً يرُدُّ عليَّ: إمّا بالجنّةِ وإمّا بالنار، واللّهِ لَوددتُ أنها تَجلجَلُ في حلْقي إلىٰ يومِ القيامة، يعني نفْسَه. انتهىٰ. ذُكِرَ في «مرآةِ الجنان».

وكانَ عطاءٌ السَّلِيْمِيّ[٢] رحِمَهُ اللّهُ منَ الخائفين، ولم يكنْ يسأَلُ اللّهَ

---

(١) العلاّمة الفقيه المتفنن الورِع، السيّد شمس الدين محمد بن الحسن الحسيني الواسطي الشافعي (٧١٧ ــ ٧٧٦هـ). من مؤلفاته: «مجمع الأحباب وتذكرة أولي الألباب» مختصرٌ لـ«حلية الأولياء» لأبي نعيم، طبع مؤخراً في ستة مجلدات، و«مختصر شفاء السقام» للسبكي، و«شرح مختصر ابن الحاجب»، وغيرها.

(٢) عطاء السَّلِيمي البصري العابد الخاشع الخائف، من صغار التابعين (ت بعد ١٤٠هـ)، كان ممن أرعبه فرطُ الخوف من اللّه تعالىٰ، كان يقول في دعائه: اللهم ارحم غربتي في الدنيا، وارحم مصرعي عند الموت، وارحم قيامي بين يديك.

الجنّةَ أبداً، وإنّما كانَ يسأَلُ العفْو، فقيلَ لهُ في مرَضِه: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: إنّ خـوفَ جهنّمَ لم يدَعْ في قلبـي مَوضِعاً للشهوة. وكان إذا أصابتْهـم ريحٌ أو بـرق، أو غـلا طعـامٌ قال: هذا مِن أجلـي يُصيبُهـم، لو ماتَ عطـاءٌ لاستراحَ النّاس.

وقالَ الإمامُ الشّعراني: رأىٰ شخصٌ في المنامِ مالكَ بنَ دينارٍ في الجنّة، فأتاهُ يُبشِّرُهُ بذلك، فقالَ مالك: أمَا وجَدَ إبليسُ أحداً يسخَرُ بهِ غيري وغيرَك؟ وكانـتِ السّحابةُ إذا مرّتْ عليهِ وهُوَ يُملـي الحديـثَ يسكُتُ ويرتعِـدُ ويقـول: اصبِروا حتىٰ تمُرّ، فإنّي أخافُ أن تكونَ فيها حِجارةٌ ترجُمُنا بها. وسألوهُ مرّةً أن يخـرُجَ معَهم للاستِسقاءِ فقال: باللّهِ عليكُـمُ اترُكونـي، فإنّـي أخافُ أن لا تُسقَوْا بسببي.

وكانَ معروفٌ الكَرْخِيُّ رحِمَهُ اللّهُ إذا استيقظَ مِن مَنامِهِ يمسَحُ علىٰ وجهِهِ بيدِه ويقـول: الحمدُ للّهِ الذي لم يغيِّرْ صورتي في صورةِ كلبٍ أو خِنزيرٍ لسُوءِ أدَبي.

وكـانَ السَّريُّ السَّقَطيُّ[1] ينظُرُ إلىٰ أنفِهِ في اليومِ كذا وكذا مرةً مَخافةَ أن يكونَ قدِ اسودَّ وجهُه.

وكانتْ رابعـةُ العدَويّةُ رضِيَ اللّهُ عنها لا تنـامُ الليـلَ وتقول: أخافُ أن أؤخَـذَ علىٰ بَيـات، وكانتْ تنـامُ وهِيَ تمشي في الدار، فإذا قيـلَ لها في ذلكَ تُنشِد:

---

(١) الإمـام الوليُّ الكبيـر، أبو الحسن السري بن المغلِّس السقطـي البغـدادي (١٦٠ ـ ٢٥٣هـ). صحب معروفـاً الكرخي، وهو أجلُّ أصحابه، وهو خال الإمام الجنيد. قـال الجنيـد: ما رأيت أعبد للّه من السـري، أتت عليه ثمان وتسعـون سنـة ما رُئي مضطجعاً إلا في علة الموت.

وكيفَ تنامُ اللّيلَ وهْيَ قريرةٌ　　　ولم تدْرِ في أيِّ المنازِلِ تنزلُ

انتهىٰ. منَ «الأنوارِ القُدسيّةِ» للشَّعرانيّ.

ورُويَ عنِ الإمامِ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ عنه، أنهُ سمعَ حديثاً في الرقائق، فأغمِيَ عليه حتىٰ قيلَ: مات، وسمعَ قارئاً يقرَأُ قولَهُ تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥ ــ ٣٦]، فتغيّرَ لونُهُ واقشعَرَّ جلدُهُ واضطربَ اضطراباً، وخرَّ مَغشِيّاً عليه، فلمّا أفاقَ جعَلَ يقول: أعوذُ بكَ مِن مقامِ الكاذبينَ وإعراضِ الغافلين. اللّهُمَّ خضَعَتْ لكَ قلوبُ العارفين، وذلَّتْ لك رِقابُ المُشتاقين. إلٰهي، هَبْ لي جُودَكَ وجلِّلْني بسَتْرِك، واعفُ عن تقصيري بكرمِ وجهِك. انتهىٰ. ذكَرَهُ مصطفىٰ أبو سيفٍ الحمّاميُّ[1] في «غوثِ العباد».

ورُويَ عنِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ رضِيَ اللّهُ عنه، أنهُ بالَ في طَسْتٍ وهُوَ مريضٌ مرَضَ الموتِ دماً عَبيطاً[2]، فرأىٰ ذلكَ الدّمَ طبيبٌ فقال: هذا رجلٌ فتَّتَ الحزَنُ كبِدَه.

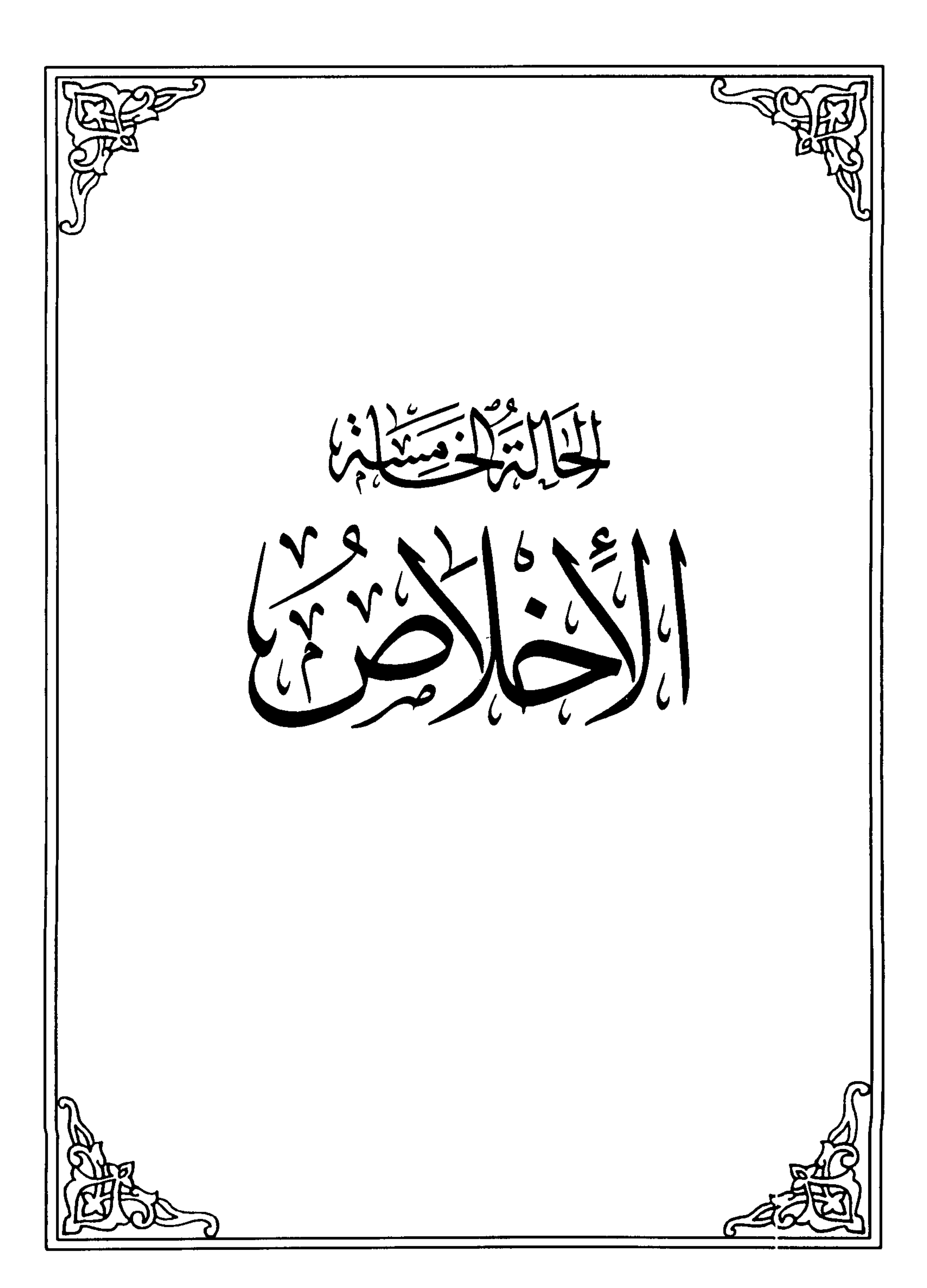
وكانَ الفُضَيلُ بنُ عياضٍ رحِمَهُ اللّهُ يقول: إنّي لا أغبِطُ نبيّاً مُرسَلاً، ولا مَلَكاً مُقرَّباً، ولا عبداً صالحاً، أليس هؤلاءِ يُعاتَبونَ يومَ القيامة؟ إنّما أغبِطُ مَن لم يُخلَق.

وكانَ الشيخُ عمرُ المحضارُ بنُ عبدِ الرحمنِ السّقافِ شديدَ الخوفِ للّهِ تعالىٰ، وكانَ يقول: ودِدتُ أنّي شاةٌ تُذبَحُ فيؤكَلُ لحمُها، أو كلب، فيموتُ فيصيرُ تراباً. وكانَ يقول: إنّي أخافُ إذا خرَجَ منّي نَفَسٌ أن يُحالَ بيني وبينَ الآخَر، ولا آكُلُ لقمةً إلا وأظنُّ أنّي لا أَسيغُها.

---

(١) عالمٌ مصريّ، فاضل غيور. كان خطيب مسجد السيّدة زينب بالقاهرة. له كتبٌ مطبوعة، منها: «منتهىٰ آمالِ الخطباء»، «شجاعة رسول اللّه ﷺ»، «غوث العباد»، وغيرها. وفاته بمصر سنةَ ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م.

(٢) أي: طرياً.



الحالة الخامسة

الإخلاص



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

الحمدُ للّهِ ذِي الكرَمِ والجُودِ والإفضال، وأسألُه سبحانَهُ التوفيقَ والإخلاصَ في سائرِ الأعمال، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللّهُ الذي جعلَ الإخلاصَ في جميعِ الأحوال؛ سبباً للوصولِ إلىٰ مراتبِ أهلِ الكمال، وأشهدُ أنّ سيِّدَنا محمداً عبدُهُ ورسولُهُ الهادي إلىٰ الرشادِ والمنقذُ من الضَّلال، صلواتُ اللّهِ وسلامُهُ عليه وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وتابعِيْهمُ السالكينَ في طريقِهِ علىٰ أحسنِ مِنْوال.

قالَ سيِّدُنا الإمامُ عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا بهِ في الدّارَين:

الحالةُ الخامسة: الإخلاص، وهُوَ: تصفِيةُ كلِّ عمَلٍ قلبيٍّ مِن كلِّ شَوْب. انتهىٰ.

وقالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ في «الأربعينَ الأصْل»:

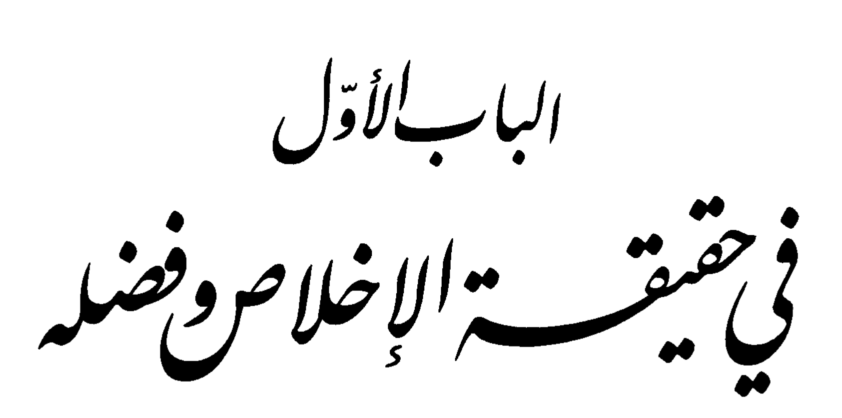
اِعلَمْ أنّ للإخلاصِ حقيقةً وأصلاً وكمالاً، فهذهِ ثلاثةُ أركان:

ـ فأصلُه: **النِّيّةُ**، إذْ فيها الإخلاص،

ـ وحقيقتُه: نَفْيُ الشَّوْبِ عن النِّيّة،

ـ وكمالُهُ: **الصِّدْق**. انتهىٰ.




الباب الأوّل
في حقيقة الإخلاص وفضله

وفيه فصلان:

الأول: في معنىٰ الإخلاصِ وحقيقتِه.

الثاني: في فَضْلِ الإخلاصِ وما ورَدَ في الحثِّ عليه.



الفصل الأوّل
في معنى الإخلاص وحقيقته

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ في «النصائح»: معنىٰ **الإخلاصِ**: أن يكونَ قصدُ الإنسانِ في جميعِ طاعاته وأعمالِهِ مجرّدَ التقرُّبِ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ وإرادةَ قُربِهِ ورِضاه، دونَ غرَضٍ آخرَ مِن مُراءاةِ الناسِ وطلَبِ مَحمَدةٍ منهُم أو طمَع.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفعَنا به: واعلَمْ أنّ العبادةَ لا تصِحُّ بدونِ العِلم، والعِلمُ والعبادةُ لا ينفَعانِ إلاّ معَ الإخلاص، فعليكَ به، فإنهُ القطبُ الذي عليهِ المَدارُ والأصلُ الذي عليهِ المُعوَّل، وهُوَ كما قالَ أبو القاسمِ القُشَيريُّ رحِمَهُ اللّه: **الإخلاصُ**: إفرادُ الحقِّ في الطاعةِ بالقصْد، وهُوَ: أن يُريدَ بطاعتِهِ التقرُّبَ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ، دونَ شيءٍ آخرَ مِن تصنُّعٍ لمخلوقٍ أو اكتسابِ مَحمَدةٍ عندَ الناسِ ومحبّةِ مدحٍ منَ الخلْقِ أو شيءٍ سوىٰ التقرُّبِ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ. قال: ويصِحُّ أن يُقال: **الإخلاصُ**: تصفِيةُ العمَلِ عن مُلاحَظةِ المخلوقين. انتهىٰ.

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ رحِمَهُ اللّه: **الإخلاصُ**: تمييزُ العمَلِ منَ العيوب. كتمييزِ اللبَنِ منَ الفرْثِ والدّم.

وعن حُذيفةَ المرعَشِيِّ[١] رحِمَهُ اللّه: **الإخلاصُ**: استواءُ أفعالِ العبدِ في الظاهرِ والباطن.

وعن أبـي عليٍّ الفُضَيـلِ بنِ عِياضٍ رحِمَهُ اللّهُ قال: ترْكُ العمَلِ لأجْلِ الناسِ رِياء، والعمَلُ لأجلِ الناسِ شِرك، **والإخلاصُ**: أن يُعافيَكَ اللّهُ منهُما. انتهىٰ.

قالَ سيّدُنا عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في معنىٰ قولِ الفُضَيل: «تركُ العمَلِ لأجلِ الناسِ رياء»، أي: أنّ الشيطانَ مُرادُهُ منكَ بُطلانُ العمَلِ بالرِّياءِ أو العُجْـبِ أو غيرِ ذلك، حتىٰ لا يحصُلَ لكَ منهُ نفـع، فـإذا تركتَهُ بالكُليّـةِ فذاكَ مُرادُه مِنك. انتهىٰ.

قالَ بعضُ العُلَماءِ رَحِمَهُمُ اللّه: مِن مَكايدِ الشيطانِ ترْكُ العمَلِ خوفاً مِن أن يقـولَ النـاس: إنهُ مرائي، لأنّ تطهيـرَ العمَلِ مِن نزْعـاتِ الشيطانِ بالكُليّةِ مُتعذِّر، فلو وقَفْنـا العبـادةَ علىٰ الكمالِ لَتعذّرَ الإشغالُ بشيءٍ منَ العبادات، وذلكَ يوجبُ البطالةَ التي هِيَ أقصىٰ غرَضِ الشيطان. انتهىٰ.

وقـالَ سيّدُنا الإمامُ العارفُ باللّه، أحمـدُ بنُ حسـنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن قدّمَ الإخلاصَ علىٰ العمَل، ما تيسَّرَ لهُ العمَل، ولْيبتَدىءْ بالعمَلِ أوّلاً ثم يُطالبْ نفْسَهُ بالإخلاص، ولا يطلُبِ الإنسانُ الكمـالَ: لا مِن نفْسِهِ ولا مِن غيرِه، فإنهُ إذا طلبَهُ مِن نفْسِهِ ما عَمِل، وإن طلبَهُ مِن غيرِهِ ما كبُرَ أحدٌ في عَينه، واستحقَرَ الناسَ كلَّهم. انتهىٰ.

---

(١) حذيفـة بن قتادة المرعشي، أحد أوليـاء الأمّـة، صحب سفيان الثوري (ت١٦١هـ) وروىٰ عنه. من كلامه: إنْ لم تخْشَ أن يعذِّبك اللّه علىٰ أفضل عملك، فأنت هالك. وقال: جِماعُ الخير في حرفَين: حِلُّ الكِسْرة، وإخلاص العمل للّه.

ولذا قالَ أبو سليمـانَ الـدارانيُّ رحِمَهُ اللّه: طُوبىٰ لمَن صحّتْ لهُ خُطوةٌ واحدةٌ لا يريدُ بها إلا اللّهَ عزَّ وجَلّ.

ـــ مِن علاماتِ الإخلاص:

عن ذي النُّونِ المِصريِّ رحِمَهُ اللّهُ قال: ثلاثةٌ مِن علاماتِ الإخلاص: استواءُ المدْحِ والذمِّ منَ العامّة، ونِسيانُ رؤيةِ الأعمالِ في الأعمال، واقتضاءُ ثوابِ العمَلِ في الآخِرة.

وقالَ بعضُهم: المُخلِصُ هُوَ الذي يكتُمُ حسَناتِهِ كما يكتمُ سيئاتِه.

روىٰ الحافظُ أبو نُعيمٍ عن السيّـدةِ عائشـةَ أمِّ المؤمِنينَ رضِيَ اللّهُ عنها، أنّهـا كانتْ تقول: مَن رأىٰ نفْسَهُ منَ المُخلِصيـنَ كانَ منَ المُرائين، ومَن رأىٰ نفْسَهُ منَ المُرائين كانَ منَ المُخلِصين. انتهىٰ.

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «الحِكَم»: أدلُّ دليلٍ علىٰ كمالِ عقْلِ الرجُل: ثناؤهُ علىٰ أقرانِه، وأدلُّ دليلٍ علىٰ تواضعِهِ رضاؤهُ بالتأخيرِ في مَوطِنٍ يستحقُّ فيهِ التقديم، وأدلُّ دليلٍ علىٰ إخلاصِهِ عدَمُ المُبالاةِ بإسخاطِ الخَلْقِ في جنْبِ الحقّ. انتهىٰ.

ومِن كـلامِهِ رضِـيَ اللّهُ عنـه: مَن عمِـلَ شيئاً مِـن الطاعـات، وظنَّ أنهُ مُخلِصٌ في ذلك، فلْيجرِّبْ نفْسَهُ، فإن عرَضَ لهُ ما منعَهُ عن ذلكَ وتأسّفَ علىٰ عدَمِ فعلِهِ فهُوَ مُخلِص، وإلاّ فلا.

وذكَرَ الشيخُ أحمدُ الحسَاويُّ[1] رحِمَهُ اللّهُ في «تثبيتِ الفؤاد»، أنهُ جاءَ

---

(١) الشيخ الصالح أحمد بن عبد الكريـم الشجّار الأحسائي. هاجر من الأحساء ولازم الإمـام عبد اللّه الحدّاد سبع عشرة سنـة لا يكاد يفارق مجلسه. وكان يكتب كل ما يتكـم به الإمام في حضوره، حتىٰ جمع سِفْراً كبيراً من كلامه اسمه «تثبيت الفؤاد». =

إلىٰ سيّدِنا الإمامِ عبدِ اللّهِ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ رجلٌ يستأذِنُ في بناءِ مسجد، فقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إن كانتْ نِيتُكَ في بنائِهِ خالصةً للّهِ ما نرُدُّكَ عن بنائه، وإن كانتْ نِيتُكَ ما هِيَ خالصةٌ فلا تَبْنِه، قال: بلىٰ، إنّ نيتي خالصة. قال: أُنظُرْ لو بنيتَهُ وتعِبْتَ في بنائهِ وصرَفْتَ فيهِ مالاً كثيراً، فلمّا تمَّ لم يُنسَبْ إليكَ إنّما نُسِبَ لغيرِكَ فقيل: مسجدُ فلانٍ واشتُهِرَ بذلكَ وأنتَ ما نُسِبَ إليكَ ولم تُذكَرْ بهِ في شيء، هل ترىٰ نفْسَكَ مُطيعةً لذلك؟ ففكّرَ قليلاً ثم قال: ما أرىٰ نفْسي مُطيعةً لذلك، فقالَ سيّدُنا له: أُتْرُكْه، فإنّ نيتَكَ غيرُ صالحة. انتهىٰ.

ــ ومن أقوالِ المخلِصِينَ وأحوالِهم:

ما صحَّ عنِ الإمامِ الشافعيِّ رضِيَ اللّهُ عنهُ أنهُ قال: ودِدْتُ أنّ الخلْقَ تعلَّموا هذا العِلم ــ يعني عِلمَهُ وكتُبَه ــ ولا يُنسَبُ إليَّ حرفٌ منه. ذكَرَهُ النوَوِيُّ رحِمَهُ اللّهُ في «التبيان».

قالَ سيّدُنا الإمامُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: لا أحدَ يدّعي الإخلاص، بل يلزَمُ حدَّهُ ولا يتعدّىٰ طورَه ويعتقدُ في نفْسِهِ الرياء، فإنهُ إن كان كذلكَ فقد وقَفَ عندَ حدِّهِ وعرَفَ قدْرَهُ ولم يتعَدَّ طورَه، وإن لم يكنْ كذلكَ لم يزِدْهُ ذلكَ إلا رِفعةً وقدْراً عندَ اللّهِ تعالىٰ، وأينَ الإخلاصُ اليوم؟ وممّا يَدلُّكَ علىٰ أنهُ عزيزٌ لا يكادُ يوجَدُ قولُ الشافعيِّ رحِمَهُ اللّه: «ودِدْتُ أنْ لوِ انتفَعَ النّاسُ بهذا العِلم ــ يعني علمَه ــ ولا يُنسَبُ إليّ حرفٌ منه». فكم أعجَبَنا كلامُهُ هذا! ولو قلتَ لمُصنِّفِ كتاب: أُمحُ اسمَكَ منه، أو: اكتُبْ عليهِ اسمَ آخر، أو: لا تكتُبْ عليه؛ لأنّ الأجْرَ حاصلٌ لكَ فلا حاجةَ إلىٰ نِسبتِهِ، لأبىٰ، وهذا يدُلُّ علىٰ

= وكان عليه مدة إقامته عند الإمام وظيفة الأذان وحمْل السجادة والحَبْوة. سافر إلىٰ الحرمين بعد وفاة شيخه، ثم إلىٰ الأحساء وتوفي بها. ترجمته في «بهجة الزمان» للإمام محمد بن زين بن سميط، ص٢٩٤.

عدَمِ إخلاصِه. أو كما قال. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

قالَ الإمامُ الشّعرانيُّ رحِمَهُ اللّه: لمَّا ترَكَ بِشرٌ الحافي الجلوسَ لإملاءِ الحديثِ قالوا له: ماذا تقولُ لربِّكَ إذا قالَ لكَ يومَ القيامة: لمَ لا تُعلِّمُ عبادي العِلم؟ فقال: أقولُ له: يا ربّ، قد أمَرتَني فيهِ بالإخلاصِ ولم أجِدْ في نفْسي إخلاصاً.

وكانَ معروفٌ الكرْخِيُّ رحِمَهُ اللّهُ يضرِبُ نفْسَهُ ويقول: يا نفْسي، أخلِصي تتخلَّصي.

تذكِرةٌ:

قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّه، ليونُسَ بنِ عبدِ الأعلىٰ[1]: لوِ اجتهَدتَ كلَّ الجُهدِ علىٰ أن تُرضيَ الناسَ كلَّهم فلا سبيل، فأخلِصْ عمَلَكَ ونيّتَكَ للّهِ عَزَّ وجَلّ. أشارَ رضِيَ اللّهُ عنهُ بذلكَ إلىٰ أنّ رضىٰ الناسِ غايةٌ لا تُدرَك، فإذا أرضيتَ واحداً سخِطَ عليكَ عشَرة، وإذا أرضيتَ عشَرةً سخِطَ عليكَ مئة، وإذا أرضيتَ مئةً سخِطَ عليكَ ألف، وإذا تركتَهُم كلَّهم، وأرضَيتَ ربَّكَ جَلَّ وعلا، كفاكَ مؤنتَهم.

قالتْ رابعةُ العَدَويةُ رضِيَ اللّهُ عنها تُناجي ربَّها:

فليتَكَ تحلُو والحياةُ مريرةٌ ... وليتَكَ ترْضىٰ والأَنامُ غِضابُ
وليتَ الذي بيني وبينَكَ عامرٌ ... وبيني وبينَ العالَمينَ خَرابُ
إذا صحَّ منكَ الوُدُّ فالكُلُّ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ الترابِ تُرابُ

---

(١) الإمام الحافظ المقرىء، شيخ الإسلام أبو موسىٰ يونس بن عبد الأعلىٰ الصدفي المصري (١٧٠ ــ ٢٦٤هـ)، كبير علماء مصر في زمانه، وأحد العقلاء الكبار المقدَّمين في العلم والخير والثقة.

الفصل الثاني
في فضل الإخلاص وما ورد في الحثّ عليه

قالَ اللّهُ تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢ ـ ٣].

قال الإمامُ النَّسَفيُّ رحِمَه اللّهُ تعالىٰ: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾: مُمَحِّضاً له الدِّينَ مِنَ الشِّركِ والرِّياء، بالتوحيدِ وتصفيةِ السِّرّ، ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ أي: هوَ الذي وجَبَ اختصاصُه بأنْ تُخْلَصَ له الطاعةُ مِن كلِّ شائبةِ كَدَر، لاطِّلاعِه علىٰ الغُيُوبِ والأسرار. انتهىٰ.

وقال جلَّت قدرتُه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

وقال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩].

وقال جلّ ذِكْرُه: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

عن مُجاهدٍ رحِمَهُ اللّهُ قالَ في هذهِ الآية: جاءَ رجلٌ إلىٰ النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللّه، إنّي أتصدّقُ بصَدقة، فألتمِسُ بها وجهَ اللّهِ تعالىٰ، وأُحِبُّ أن

يُقالَ لي خير، فنزَلَ قولُهُ تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1].

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينِ بنِ طاهرٍ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّ الإنسانَ إذا تصدّقَ بصَدَقة، أو فعَلَ معروفاً معَ أحد، لا ينظُرُ إلىٰ ذلكَ الشخصِ المُحْسَنِ إليه ولا يرجو منهُ مكافأة، بل ينظُرُ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ ومحبتِهِ لذلك، ويطلُبُ الثوابَ منه، ومَنْ صدَقَ معَ اللّهِ في جميعِ أفعالِهِ لم يضُرَّهُ مدحُ الخلْقِ ولا ذمُّهم، بل يستوي عندَه. انتهىٰ.

وعن أبي أُمامةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّ اللّهَ لا يقبَلُ منَ الأعمالِ إلاّ ما كانَ خالصاً وابتُغِيَ بهِ وجهُه»[2].

وعن حُذيفةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: أسنَدتُ النبيَّ ﷺ إلىٰ صَدري فقال: «مَن قالَ: (لا إلٰهَ إلاّ اللّهُ) ابتغاءَ وَجْهِ اللّه، خُتِمَ لهُ بها، دخَلَ الجنّة، ومَن صامَ يوماً ابتغاءَ وَجْهِ اللّه، خُتِمَ لهُ به، دخَلَ الجنّة، ومَن تصَدَّقَ بصدَقةٍ ابتغاءَ وَجْهِ اللّه، خُتِمَ لهُ بها، دخَلَ الجنّة»[3].

وعن مُعاذِ بنِ جبلٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: يا رسولَ اللّه، أوْصِني! قال: «أخلِصْ نيّتَكَ يكْفِكَ العمَلُ القليل»[4].

أفادَ هذا الحديثُ الشريف: أنّ القليلَ منَ العمَل، معَ إعطاءِ حقوقِهِ اللازمةِ والإحكامِ لمَعانيهِ الباطنة، منَ الإخلاصِ للّهِ والحضورِ معَ اللّه، كثيرٌ

---

(١) أخرجه هنّاد بن السَّرِيّ في كتابه «الزهد» (٢: ٤٣٥)، من حديث مجاهد مرسلاً.

(٢) أخرجه النسائي (٣١٤٠)، من حديث أبي أمامةَ رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه أحمد (٥: ٣٩١ برقم ٢٣٣٨٦)، من حديث حذيفةَ رضيَ اللّه عنه.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤: ٣٠٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩: ١٧٤ برقم ٦٤٤٣، ٦٤٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١: ٢٤٤)، وغيرهم، وهو ضعيف.

عندَ اللّهِ جلَّ وعـلا، وأنّ الكثيرَ منَ العمَلِ بدونِ إقامةِ حقوقِهِ والمُحافَظةِ علىٰ آدابِهِ لا طائلَ تحتَهُ كما أشارَ إليهِ قولُهُ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: «كَم مِن قائمٍ ليسَ لهُ مِن قيـامِهِ إلاّ السّهَـرُ والتّعب، وكم مِن صائـمٍ ليسَ لهُ مِن صِيامِهِ إلاّ الجُوعُ والعَطَش»(١).

وقد قيلَ: إنّ فاعلَ الطاعـاتِ معَ عدَمِ الإحسـانِ أحبُّ إلىٰ الشيطانِ منَ التـارِكِ لها أصلاً؛ لأنّ التـاركَ أمرُهُ ظاهرٌ وسلِمَ منَ التعَـبِ فيها، والفاعِلُ بلا إحسانٍ أتعَبَ نفْسَهُ وأُعجِبَ لِظنِّهِ أنهُ فعَلَ طاعة.

وقـالَ سيّـدُنا الإمـامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنـه: العمَلُ القليلُ معَ الإحسـانِ خيـرٌ منَ الكثيرِ بلا إحسـان. قـالَ اللّه: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ أي: حـالَ العمَـل، فينظُرُ كيـفَ عملُكـم لـهُ للمُطالبـةِ بالإحسـانِ، ﴿وَسَتُرَدُّونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، للمُجـازاةِ بمـا وعدَكُـم بـهِ إن أحسَنتُـم فيه. انتهىٰ.

❊ ❊ ❊

رُويَ في الأثَر: «مَن أخْلَصَ للّهِ أربعينَ يوماً، ظهَرَتْ ينابيعُ الحِكْمةِ مِن قلبِهِ علىٰ لِسانِه»(٢).

---

(١) أخـرجـه أحمـد (٢: ٣٧٣)، وابن مـاجـه (١٦٩٠)، وابن حبّـان (٨: ٢٥٨ بـرقم ٣٤٨١)، وغيرهم، من حديث أبي هريرة رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥: ١٨٩) ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (٣: ٣٨٧ برقم ١٦٢٨)، من حديث أبي أيوب الأنصاري رضيَ اللّه عنه مرفوعاً. وفيه انقطاعٌ ورجلٌ ضعيف، فالحديث ضعيف لا موضوع، لذا اقتصر الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤: ٢٢١) علىٰ تضعيفه. وقد رُوي عن مكحول مرسَلاً كما في «الحلية» (٥: ١٨٩) و«الزهد» لهنّاد بن السَّري (٢: ٣٥٧ برقم ٦٧٨)، و«المصنَّف»=

وقالَ ﷺ: «إذا كانَ آخِرُ الزّمانِ صارتْ أُمّتي ثلاثَ فِرَق: فرْقةٌ يَعبُدُونَ اللّهَ خالصاً، وفرْقةٌ يعبُدُونَ اللّهَ رياءً، وفرْقةٌ يَعبُدُونَ اللّهَ تعالىٰ لِيَسْتأكِلوا بهِ النّاس. فيقولُ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ للمُخلِصِين: اذهَبوا إلىٰ الجنّة، ويقولُ للآخَرين: اذهَبُوا بهِمْ إلىٰ النّار»(١).

* * *

قالَ سهلُ بنُ عبدِ اللّهِ التُّسْتَريُّ رحِمَهُ اللّه: أصولُ مذهبِنا ثلاثة: الاقتداءُ بالنبيِّ ﷺ في الأخلاقِ والأفعال، والأكلُ منَ الحلال، وإخلاصُ النيةِ في جميعِ الأعمال. نقَلَهُ القاضي عِياضٌ في «الشفا».

وقالَ الحارثُ بنُ أسَدٍ المُحاسِبِيُّ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: مَن زَيَّنَ باطنَهُ بالمُراقَبةِ والإخلاص، زيّنَ اللّهُ ظاهرَهُ بالمُجاهَدةِ واتّباعِ السُّنّة، لقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

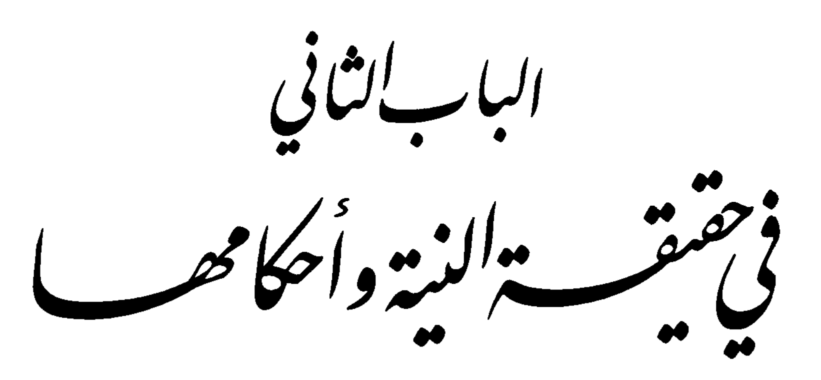
وممّا يُحكىٰ في صِدقِ الإخلاصِ والتثبُّتِ في الإقدامِ علىٰ الأمورِ حتىٰ تصِحَّ النية، ما يُروىٰ عن سيّدِنا الإمامِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ كرّمَ اللّهُ وجهَه: أنهُ لمّا أهوىٰ بسيفِهِ ليضرِبَ بهِ مُشرِكاً حينَ تمكّنَ منه، فتَفَلَ ذلكَ المُشرِكُ في وجهِهِ رضِيَ اللّهُ عنه، فرفَعَ السيفَ عنه، حتىٰ جدّدَ نيتَه، خشيةَ أن يضرِبَهُ

= لابن أبي شيبة (١٣: ٢٣١)، وفيه الراوي الضعيف نفسه. وكأن المرسل أشبَهُ بالصواب.

(١) أخرجه الطبراني مطوّلاً في «الأوسط»، وكذا البيهقي في «الشعب» (٥: ٣٢٧)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي سنده عبيد بن إسحاق العطّار، ضعّفه الجمهور ورضيه أبو حاتم الرازي ووثقه ابن حبّان، وبقية رجاله ثقات. قاله الحافظ الهيثمي في «المجمع» (١٠: ٣٥٠).

انتقاماً لنفْسِهِ لِمَا فعَلَ في وجهِه، ليكونَ ضربُهُ للمُشرِكِ خالصاً للّهِ مِن غيرِ شائبةِ هوىً وانتقامٍ للنفس. انتهىٰ. ذكَرَهُ سيّدُنا عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ في «كلامِه».





الباب الثاني
في حقيقة النية وأحكامها



وفيه خمسة فصول:

الأول: لا عملَ إلاّ بِنيّـة.

الثاني: النِّـيّـةُ مَناطُ الجَزاء.

الثالث: فيمـا جاء في فضْـلِ النِّيـةِ الصالحة مِنْ كـلامِ العارِفين والسَّلَفِ الصالِحين.

الرابع: في قَلْبِ المُباحاتِ إلىٰ طاعات باقترانِها بالنيّـاتِ الصّالحات.

الخامس: في فَضْلِ تكثيرِ النيّاتِ الصّالحاتِ وتعدِيدِها.



الفصل الأوّل
لا عمل إلاّ بنيّة

اِعلَمْ ـ رحِمَك اللّه ـ أنّ النيـةَ هيَ أساسُ الأعمـال، وبها تزكُو جميعُ الأفعـال، ولا يُرفَـعُ عملٌ إلىٰ اللّهِ تعالىٰ إلاّ بالنيّـة. قالَ ابنُ عبّاسٍ رضيَ اللّهُ عنهُما ـ في قولِه تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحجّ: ٣٧] ـ قال: ولكنْ ينالُه النيّات.

وعن عمرَ بنِ الخطابِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: سمِعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: «إنّما الأعمالُ بالنِّيّات، وإنّما لكلِّ أمرِىءٍ ما نوىٰ، فمَنْ كانتْ هِجرَتُهُ إلىٰ اللّهِ ورسـولِهِ فهِجرَتُهُ إلىٰ اللّهِ ورسولِه، ومَن كـانتْ هِجْرتُـهُ لدُنيا يُصيبُها أوِ ٱمرأةٍ ينكِحُها فهِجْرتُهُ إلىٰ ما هاجَرَ إليه»(١).

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي رضِيَ اللّهُ عنه: وخصَّ الهجرةَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ مِن بينِ سائرِ الأعمال، تنبيهاً علىٰ الكلِّ بالبعض؛ لأنّ المعلومَ عندَ أُولي الأَفهامِ أنّ الإخبارَ ليس خاصّاً بالهِجرة، بل هُوَ عامٌّ في جميعِ شرائعِ الإسلام. انتهىٰ.

قالَ الإمامُ النوَويُّ رحِمَهُ اللّه: وهذا الحديثُ مِن أصولِ الإسلام، مُجمَعٌ

---

(١) تقدم تخريجه وأنه في الصحيحين.

علىٰ عظيمِ مَوقعِهِ وجَلالتِه، وهُوَ إحدىٰ قواعدِ الإيمانِ وأوّلُ دعائمِه. قالَ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّه: يدخُلُ في هذا الحديثِ سبعونَ باباً منَ الفِقه، وقالَ أيضاً: هُوَ ثلُثُ العِلم. وقدِ ابتَدأَ بهِ إمامُ أهلِ الحديثِ بلا مُدافعةٍ: أبو عبدِ اللّهِ البُخاريُّ في «صحيحِه»، ونقَلَ جماعةٌ أنّ السلَفَ كانوا يستحِبّونَ افتتاحَ الكتُبِ بهذا الحديث، تنبيهاً للطّالبِ علىٰ حُسنِ النيّةِ وإرادتِهِ وجْهَ اللّهِ تعالىٰ في جميعِ أعمالِهِ: البارزةِ والخفيّة. انتهىٰ.

وقالَ الإمامُ السُّيوطيُّ رحِمَهُ اللّهُ في «الأشباهِ والنظائر»: اِعلَمْ أنهُ قد تواتَرَ النقْلُ عنِ الأئمةِ في تعظيمِ قدرِ حديثِ النيّة. قالَ أبو عُبَيدة: ليسَ في أخبارِ النبيِّ ﷺ شيءٌ أجمَعُ وأغنىٰ وأكثرُ فائدةً منه. واتّفقَ الشافعيُّ وأحمدُ بنُ حنبلٍ وابنُ مَهْدِيٍّ وابنُ المَدِينيِّ وأبو داودَ والدارَقُطْنيُّ وغيرُهم علىٰ أنهُ ثلُثُ العِلم، ووجَّهَ البيهقيُّ كونَهُ ثلُثَ العِلمِ بأنّ كسْبَ العبدِ يقَعُ بقلبِه ولسانِهِ وجوارِحِه، فالنيةُ أحدُ أقسامِها الثلاثةِ وأرجحُها؛ لأنها قد تكونُ عبادةً مستقلةً وغيرُها محتاجٌ إليها، ومِن ثَمَّ ورَد: «نيّةُ المؤمنِ خيرٌ مِن عمَلِه»[1].

وقالَ رحِمَهُ اللّهُ في مَوضعٍ آخرَ منَ الكتابِ المذكور: وقد قيلَ في قولِهِ ﷺ: «نيّةُ المؤمنِ خيرٌ مِن عمَلِه»: إنّ المؤمنَ يخلُدُ في الجنّةِ وإنْ أطاعَ اللّهَ مدةَ حياتِهِ فقط؛ لأنّ نيّتَهُ أنهُ لو بقِيَ أبدَ الآبادِ لاستمرَّ علىٰ الإيمان، فجُوزِيَ علىٰ ذلكَ بالخلودِ في الجنّة، كما أنّ الكافرَ يخلُدُ في النارِ وإن لم يعْصِ اللّهَ إلا مدةَ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦: ١٨٥ برقم ٥٩٢٤)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رضيَ اللّه عنه، وأخرجه البيهقي في «الشُّعَب» (٥: ٣٤٣)، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه. وأخرجه غيرهم عن غيرهم من الصحابة. قال الحافظ السخاوي: وهي وإن كانت ضعيفة فبمجموعها يتقوّىٰ الحديث. «المقاصد الحسنة» ص٥٢٧ (برقم ١٢٦٠).

حياتِهِ فقط؛ لأنّ نيتَهُ الكفرُ ما عاش. وعنِ الحَسنِ البصْريّ: إنّما خُلِّدَ أهلُ الجنّةِ في الجنّةِ وأهلُ النارِ في النارِ بالنيّات. انتهىٰ كلامُ السُّيوطيّ.

وأفادَ سيّدُنا الإمامُ العارفُ باللّهِ عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ ـ علىٰ قولِهِ ﷺ: «نيّةُ المؤمنِ خيرٌ مِن عمَلِه» ـ: أنّ النيةَ مِن أعمالِ القلب، وأعمالُ القلبِ أتمُّ وأكمَلُ مِن أعمالِ الجَوارح، وتكونُ هذه المُخايَرةُ عندَ اجتماعِ العمَلِ والنية، أمّا معَ خُلوِّ العمَلِ عنِ النيةِ فهُوَ لا شيء، والنيةُ بلا عمَلٍ ـ وإن كانَ لها فضل ـ فهُوَ بالنسبةِ إلىٰ مَن لم يكنْ لهُ نيةٌ ولا عمَل، وأمّا العمَلُ المقرونُ بالنيةِ فلا لُحُوقَ للنيةِ المُفرَدةِ به، فضلاً عن أن تكونَ خيراً منه، والاستشهادُ بهذا الحديثِ ـ عندَ فَواتِ العمَلِ بهذا الاعتبارِ ـ في غيرِ محلِّه. انتهىٰ. منَ «النهرِ المورود».

فائدة:

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ زينٍ الحبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: قد كثُرَ كلامُ العلماءِ واختلافُهم في تحقيقِ معرفةِ النيّةِ وما هي، ولم يحصُلْ مِن كثرةِ ذلكَ إلا تشويشٌ علىٰ أهلِ القُصور، فحقيقةُ النيّةِ في نفْسِها: خاطرٌ يخطُرُ في القلبِ في أسرعِ وقت، وليستِ النيّةُ في نفْسِها اختياريةً وإنّما في اختيارِ العبدِ مُقدّماتِها: كالعِلمِ بفضيلةِ المنْويّ. انتهىٰ. مِن «قرّةِ العين».

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني
النيّة مناط الجزاء

ـ يُثابُ العبدُ بنيّتِه ولو لم يفعَلْها :

قال رسـولُ اللّهِ ﷺ : «مَن أتىٰ فِراشَـهُ وهُوَ ينـوي أنْ يقـومَ فيُصلّـيَ منَ اللّيل ، فغلَبَتْـهُ عينُهُ حتّىٰ يُصْبح ، كُتِبَ لـهُ ما نـوىٰ ، وكان نومُه صَدَقةً عليه مِنْ ربِّه»(١) .

وقالَ عليهِ الصّلاةُ والسلام : «أكثرُ شُهداءِ أُمتي أصحابُ الفُرُش ، ورُبَّ قتيلٍ بينَ الصَّفَّينِ اللّهُ أعلَمُ بِنيّتِه»(٢) .

وورَدَ أيضاً : «مَن غزا وهُوَ لا ينوي إلاّ عِقالاً فلهُ ما نوىٰ»(٣) .

وعن أبـي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قـال : قـالَ رسولُ اللّهِ ﷺ : «مَن توضَّأ فأحسَنَ وضوءَه ، ثمّ راحَ فوجَدَ النّاسَ قد صَلُّوا ، أعطاهُ اللّهُ عزَّ وجَلَّ مِثْلَ أجْرِ مَن صلاَّها وحضَرَها ، لا ينْقُصُ ذلكَ مِن أَجْرِهِمْ شيئاً»(٤) .

---

(١) أخرجـه النسائـي (١٧٨٧) ، وابنُ ماجه(١٣٤٤) ، من حديث أبي الدرداء رضيَ اللّه عنه .

(٢) أخرجه أحمد (١ : ٣٩٧) ، من حديث ابن مسعودٍ رضيَ اللّه عنه .

(٣) أخرجه النسائي (٣١٣٨) ، من حديث عُبادةَ بن الصامت رضيَ اللّه عنه .

(٤) أخرجه أبو داود (٥٦٤) ، والنسائي (٨٥٥) ، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه .

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «وأُحدِّثُكم حديثاً فاحفَظُوه، إنّما الدّنيا لأربعةِ نفَر: عبدٌ رزَقَهُ اللّهُ تعالىٰ مالاً وعِلْماً، فهُوَ يتّقي فيهِ ربَّه، ويصِلُ بهِ رحِمَه، ويعلَمُ أنَّ للّهِ فيهِ حقّاً، فهذا بأفضَلِ المنازل. وعبدٌ رزَقَهُ اللّهُ عِلْماً ولم يرزُقْهُ مالاً، فهُوَ صادقُ النِّيّة، يقول: لو أنّ لي مالاً لَعَمِلْتُ مِثْلَ عمَلِ فُلان. فهُوَ بِنِيَّتِه، وأجْرُهُما سَواء. وعبدٌ رزَقَهُ اللّهُ مالاً ولم يرزُقْهُ علْماً، فهُوَ يتَخَبَّطُ في مالِهِ بغيرِ عِلْم، ولا يتّقي فيهِ ربَّه، ولا يصِلُ بهِ رحِمَه، ولا يعلَمُ للّهِ فيهِ حقّاً، فهذا بأخبثِ المنازل. وعبدٌ لم يرزُقْهُ اللّهُ مالاً ولا عِلْماً، فهُوَ يقول: لو أنّ لي مالاً مِثْلَ فُلانٍ لَعَمِلْتُ مِثْلَه، فهُوَ بِنِيّتِه، ووِزْرُهُما سَواء»[١].

إرشادٌ:

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في كتابِهِ «الفصولِ العِلميّة»: مهما سمِعْتَ بفضيلةٍ منَ الفضائلِ أو عمَلٍ مِن أعمالِ الخير، لا تستطيعُ العمَلَ به، أو تستطيعُهُ لكنْ لا تتمكّنُ منهُ إلا بتَرْكِ ما أنتَ قائمٌ بهِ ومُلابِسٌ لهُ مِن خيرٍ آخرَ هُوَ أوْلىٰ لكَ وأصلَحَ في حقِّك، فينبغي لكَ أن تنويَ ذلكَ الخيرَ وتعزِمَ علىٰ فعلِ ذلكَ الفضلِ أو العمَلِ الصالحِ مهما تمكّنتَ منهُ وفرَغْتَ له، فتكونَ بنيتِكَ الصالحةِ في جُملةِ العاملينَ والمُقيمينَ له. ونيةُ المؤمنِ خيرٌ مِن عملِه، ويبلُغُ بها ما لا يبلُغُ بالعمَل. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ مُحسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: وقد ينُوبُ عن فعلٍ عُذرٌ شرعيّ، فيحصُلُ الثوابُ بلا فعل، فإذا نوَيْتَ فعلَ شيءٍ منَ الخيرِ ومنَعَكَ منهُ مانعٌ شرعيّ، فإنهُ يحصُلُ لكَ ثوابُ ما نَويتَ فِعلَه؛ لأنّ النية

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٥)، وأحمد (٤: ٢٣١)، وغيرهما، من حديث أبي كبْشةَ الأنماري رضيَ اللّه عنه. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

قد برزَتْ وصارَتْ في حُكمِ الظاهرِ فتعلّقتْ بهِ الأحكامُ الخمسة. أو كما قال.

***

يُروىٰ أنّ رجلاً في بني إسرائيلَ مرَّ بكُثبانِ رمْلٍ في أيامِ قحْط، فقالَ في نفسِه: لو كانَ لي هذا الرملُ طعاماً لَقسمْتُهُ بينَ الناس: فأوحىٰ اللّهُ إلىٰ نبيِّهِم: قُلْ لهُ: إنّ اللّهَ تعالىٰ قد قبِلَ صدَقتَكَ وشكَرَ حُسنَ نيتِك، وأعطاكَ ثوابَ ما لو كانَ طعاماً فتصدّقتَ به. انتهىٰ.

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: سمِعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: «مَن كانتِ الدّنيا هَمَّهُ فرّقَ اللّهُ عليهِ أمْرَه، وجعلَ فقْرَهُ بينَ عينَيه، ولم يأْتِهِ منَ الدّنيا إلاّ ما كُتِبَ لهُ منها، ومَن كانتِ الآخِرةُ نيّتَه جمَعَ اللّهُ تعالىٰ أمْرَه، وجعلَ غِناهُ في قلبِه، وأتتْهُ الدُّنيا وهِيَ راغِمة»[1].

فائدةٌ فقهية:

المُنقطعُ عنِ الجماعةِ لِعُذرٍ من أعذارِها، إذا كانتْ نيتُهُ حضورَها لولا العُذر، يحصُلُ لهُ ثوابُها كما اختارَهُ في «الكفاية»[2]، ونقلَهُ عن «التلخيصِ» للرُّويانيّ. قالَ في «المُهمّات»[3]: ونقَلَهُ في «البحرِ» عنِ القفّالِ وارتضاه، وجزَمَ بهِ الماوَردِيُّ في «الحاوي»، والغزاليُّ في «الخُلاصة»، قال: هُوَ الحقّ. انتهىٰ. واختارَ السُّبكيُّ أنّ معتادَ الجماعةِ إذا ترَكَها لعُذرٍ يحصُلُ لهُ أجْرُها، قالَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه(٤١٠٥)، من حديث زيد بن ثابت رضيَ اللّه عنه، وهو بنحوه عند الترمذي (٢٤٦٥)، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه.

(٢) «الكفايـة» هي: «كفاية النبيه في شـرح التنبيه» للإمـام الفقيـه نجم الديـن أحمد بن محمد بن علي، المعروف بابن الرِّفعة (ت٧١٠هـ)، رحمه اللّه.

(٣) «المهمّات» للإمام جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن الإسنوي (ت٧٧٢هـ)، رحمه اللّه.

ابنُهُ في «التوشيح»: هذا أبلَغُ مِن قولِ الرُّويانيِّ مِن وجه، ودونَهُ من وجه، فأبلَغُ مِن جهـةِ أنهُ لم يَشترِطْ فيهِ القصـد، بلِ اكتفىٰ بالعادةِ السابقة، ودونَهُ من جهةِ أنهُ اشترَطَ فيه العادة. وممّن اختارَ ذلكَ البُلقينيُّ أيضاً. والمُصحَّحُ في «شرحِ المُهـذَّب»: أنـهُ لا يحصُـلُ لـهُ الأجْر، ولكـنّ المُختـارَ الأوّلُ، والأحـاديثُ الصحيحةُ تدُلُّ لذلك. انتهىٰ. مِن كتابِ «الأشباهِ والنظائر» للإمامِ السُّيُوطيّ.

ـــ يُؤاخَذُ الإنسانُ علىٰ سُوءِ قَصدِه وخُبْثِ نيّتِه:

عن أبي بكْرةَ رضِيَ اللّهُ عنـه، أنّ النبـيَّ ﷺ قال: «إذا ٱلتقـىٰ المُسلمانِ بسَيْفَيْهِما فالقاتِلُ والمَقتولُ في النَّار»، قلنا: يا رسولَ اللّه، هذا القَاتِل، فما بالُ المقتـول؟ قال: «إنّهُ كانَ حَريصـاً علىٰ قتْـلِ صاحِبـه»[1]. والمعنـىٰ أنّ القاتلَ يدخُلُ النّارَ بالنيةِ والعمَل، والمقتولُ يدخُلُها بالنيةِ فقطْ، بخلافِ ما إذا استَسلمَ أحدُهمـا فقتَلَـهُ الآخر، أو لم يكُنْ قصْدُ المقتولِ إلاّ الدفـعَ عن نفسِه دونَ قتلِ صاحِبه؛ فإنّهُ يسْلَم، ويبُوءُ القاتلُ بالإثمِ كما قصَّ اللّهُ في ابنَيْ آدم.

وعن صُهيبٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ مرفوعاً: «أيُّما رجلٍ تزوّجَ امرأة، فنوىٰ أنْ لا يُعْطِيَها مِن صَدَاقِها شيئاً، ماتَ يومَ يموتُ وهُوَ زانٍ. وأيُّما رجلٍ اشترىٰ بَيْعاً، فنوىٰ أن لا يُعْطِيَهُ مِن ثَمَنِهِ شيئاً، ماتَ يومَ يموتُ وهُوَ خائن»[2].

وفيه أيضاً من حديثِ ميمونٍ الكرديّ، عن أبيه قال: سَمِعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ يقول: «أيُّما رجُلٍ تَزوَّجَ امرأةً علىٰ ما قَلَّ مِنَ المَهْرِ أو كَثُرَ ليسَ في نفسِه أنْ يُؤَدِّيَ إليها حقَّها خدَعَها، فماتَ ولم يُؤَدِّ إليها حقَّها لَقِيَ اللّهَ يومَ القيامةِ وهوَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)، من حديث أبي بكرةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨: ٣٥ برقم ٧٣٠٢)، من حديث صهيب رضيَ اللّه عنه.

زانٍ، وأيُّما رجُلٍ استدانَ دَيْناً وهوَ لا يُرِيدُ أنْ يُؤدِّيَ إلىٰ صاحبِهِ حقَّه، خدَعَه، أخذَ مالَه، فماتَ ولم يُؤَدِّهِ لَقِيَ اللّهَ وهوَ سارقٌ»(١).

قالَ الإمامُ شيخُ الإسلامِ تقيُّ الدِّينِ السُّبكيُّ رحِمَهُ اللّه في جوابِ المسألةِ السابعةِ مِنَ الفتاوىٰ الحَلَبيّات، المُسمّاةِ «قضاءَ الأرَب في أسئلةِ حَلَب»:

الذي يقَعُ في النفْسِ مِن قصْدِ المعصيةِ علىٰ خمسِ مراتب:

ـ الأُولىٰ: الهاجِس، وهُوَ ما يُلقىٰ فيها.

ـ ثم جرَيانُهُ فيها، وهُوَ الخاطر.

ـ ثم حديثُ النفْس، وهُوَ ما يقعُ فيها منَ التردُّد: هل يفعَلُ أم لا.

ـ ثم الهَمّ، وهُوَ ترجيحُ قصدِ الفعل.

ـ ثم العَزْم، وهُوَ قوةُ ذلكَ القصدِ والجزمُ به.

فالهاجِسُ لا يُؤاخَذُ بهِ إجماعاً؛ لأنهُ ليسَ مِن فعلِه، وإنّما هُوَ شيءٌ ورَدَ عليهِ لا قدرةَ لهُ عليهِ ولا صُنع، والخاطرُ الذي بعدَهُ كانَ قادراً علىٰ دفعِهِ بصرفِ الهاجِسِ أوّلَ ورودِه، ولكنّهُ هوَ وما بعدَهُ مِن حديثِ النفْس، مرفوعانِ بالحديثِ الصحيح، وإذا ارتفَعَ حديثُ النفْسِ ارتفَعَ ما قبلَهُ بطريقِ الأَوْلىٰ.

وهذهِ المَراتبُ الثلاثةُ أيضاً لو كانتْ في الحسَناتِ لم يُكتَبْ لهُ بها أجرٌ. أمّا الأوّلُ فظاهرٌ وأمّا الثاني والثالثُ فلِعدَمِ القصْد.

وأمّا الهمُّ فقد ثبَتَ في الحديثِ الصحيحِ(٢) أنّ الهمَّ بالحسَنةِ يُكتَبُ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (برقم ١٨٧٢)، و«الصغير» (برقم ١١١). قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٤ : ١٣٢): رجاله ثقات.

(٢) الذي أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١)، من حديث ابن عباس رضيَ اللّه عنهما.

=

حسَنة، والهمُّ بالسيئةِ لا يُكتَبُ سيئة، ويُنظَر، فإن تركَها للّهِ كُتِبتْ حسَنة، وإن فعَلَها كُتِبتْ سيئةً واحدة، والأصحُّ في معناه أن يُكتَبَ عليهِ الفِعلُ وحدَه، وهُوَ معنىٰ قولِه: «واحدة»، وأنّ الهمَّ مرفوع.

ومِن هذا، يُعلَمُ أن قولَهُ ــ في حديثِ النفْس: «ما لم يتكلَّمْ أو يعمَلْ» ــ ليسَ لهُ مفهومٌ حتىٰ يُقال: إنها إذا تكلّمتْ أو عمِلَتْ يُكتَبُ عليها حديثُ النفْس؛ لأنهُ إذا كانَ الهمُّ لا يُكتَبُ فحديثُ النفْسِ أَوْلىٰ.

وأمّا العزْمُ فالمُحقِّقونَ علىٰ أنهُ يؤاخَذُ به، وخالَفَ بعضُهم، وقالَ: إنهُ منَ الهمِّ المرفوع، وربما تمسَّكَ بقولِ أهلِ اللغة: هَمَّ بشيء: عَزَم عليه، والتمسُّكُ بهذا غيرُ سديد؛ لأنّ اللُّغويَّ لا يتنزَّلُ إلىٰ هذه الدقائق، واحتجَّ الأوّلونَ بحديث: «إذا التقىٰ المُسلمانِ بسَيْفَيْهِما فالقاتِلُ والمقتولُ في النَّار»، قلنا: يا رسولَ اللّه، هذا القاتل، فما بالُ المقتول؟ قال: «إنّهُ كانَ حريصاً علىٰ قتْلِ صاحبِه»[١]. فعلّلَ بالحرص.

واحتجّوا أيضاً بالإجماعِ علىٰ المُؤاخَذةِ بأعمالِ القلوب، كالحسَدِ ونحوِه، وبقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]، علىٰ تفسيرِ الإلحادِ بالمَعصِية. ثم قال آخَر: جوابُهُ: والعَزْمُ علىٰ الكبيرةِ وإن كانَ سيّئةً فهُوَ دونَ الكبيرةِ المعزومِ عليها. انتهىٰ.

وفي «شرحِ المِنهاج» للإمامِ السُّبكيِّ أيضاً ما يُخالِفُ ما تقدّمَ في مسألةِ الهمّ، قال: إنهُ ظهَرَ لهُ المُؤاخَذَةُ مِن إطلاقِ قولِهِ ﷺ: «أو تعمَل» ولم يقل: أو تعمَلْه. قال: فيؤخَذُ منهُ تحريمُ المشي إلىٰ معصيةٍ وإن كان المشيُ في نفْسِهِ مباحاً، لكنْ لانضمامِ قصدِ الحرامِ إليه، فكلُّ واحدٍ منَ المشيِ والقصْدِ لا يحرُمُ

---

(١) تقدم تخريجه، وهو حديث أبي بكرةَ رضيَ اللّه عنه في الصحيحين.

عندَ انفرادِه، أمّا إذا اجتَمَعا فإنَّ معَ الهمِّ عمَلاً لِمَا هُوَ مِن أسبابِ المَهمُوم به، فاقتضىٰ إطلاقُ «أو يعمَل» المؤاخَذةَ بـه. قال: فاشـدُدْ بهذهِ الفائـدةِ يدَيْك، واتّخِذْهُ أصلاً يعودُ نفْعُهُ عليك. نقَلَهُ الإمامُ السُّيوطيُّ في «الأشباهِ والنظائر» معَ بعضِ تصرُّف.

وقالَ الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتح الباري»: والحاصلُ أنّ المراتبَ ثلاثٌ: الهَمُّ المجرَّد، وهُوَ يُثابُ عليه ولا يُؤاخَذُ به، واقترانُ الفِعلِ بالهَمِّ أو بالعزْم، ولا نِزاعَ بالمؤاخَذةِ به، والعزْم، وهُوَ أقوىٰ منَ الهمّ، ففيهِ النّزاع. انتهىٰ.

فائدة:

مِن كلامِ الإمامِ أحمدَ بنِ زينِ الحبَشيِّ نفَعَنا اللّهُ بهِ قولُه: إنّ اللّهَ ــ ولهُ الحمْد ــ لا يؤاخِذُ العَبدَ بالخواطرِ وحديثِ النفْسِ فقطْ، ولكنْ بالعزْمِ والجَزْمِ علىٰ فِعلِ الشرّ، فإنْ كانَ ترْكُهُ للذنبِ لعدَمِ القُدرةِ علىٰ فعلِهِ معَ وجودِ شهوتِهِ له وقصدِهِ فلا يسلَمُ بذلكَ عنِ الإثم؛ لأنهُ عازمٌ علىٰ الفِعل، وإنّما منَعَهُ العجزُ لا الخوفُ منَ اللّهِ عزَّ وجَلّ. انتهىٰ. مِن «قرّةِ العين».

تنبيه:

ذكَرَ الفقهاءُ رحِمَهمُ اللّه: لو تعاطىٰ الإنسانُ فعلَ شيءٍ مُباحٍ لهُ في نفْسِ الأمرِ وهُوَ يعتقدُ عدَمَ حِلِّهِ فهُوَ آثم، وذلكَ كمَن وَطِئَ امرأةً ويعتقدُ أنها أجنبيةٌ وأنهُ زانٍ بها، فإذا هِيَ حليلتُه، أو قتَلَ مَن يعتقِدُهُ معصوماً فبانَ أنهُ يستحِقُّ دَمَه، أو أتلَفَ مالاً لغيرِهِ فبانَ مُلكَه.

قـالَ الشيخُ عزُّ الدين[١]: يجري عليهِ حكمُ الفاسِق، لجُرأتِهِ علىٰ اللّه؛ لأنّ العدالةَ إنّما شُرِطَتْ ــ لتحصيلِ الثقة ــ بصدقِهِ وأداءِ الأمانة، وقدِ انخرَمتِ

---

(١) ابن عبد السلام، سلطان العلماء، تقدمت ترجمته.

الثقـةُ بذلكَ لجُرأتِهِ بارتكابِ ما يعتقِـدُهُ كبيرة. قـال: وأمّا مفـاسِدُ الآخرةِ فلا يُعذَّبُ تعذيبَ زانٍ ولا قاتلٍ ولا آكلٍ مالاً حراماً؛ لأنّ عذابَ الآخرةِ مرتَّبٌ علىٰ ترتُّـبِ المفاسِدِ في الغالـب، كمـا أنّ ثوابَهـا مرتَّـبٌ على ترتُّبِ المصـالح في الغالـب، قال: والظاهـرُ أنهُ لا يُعذَّبُ تعذيبَ مـنِ ارتكبَ كبيرةً لأجْلِ جُرأتِهِ وانتهـاكِ الحُرمة، بل عذابـاً متوسّطـاً بينَ الكبيرةِ والصغيـرة. وعكـسُ هذا لو وَطِـىءَ أجنبيـةً وهُوَ يظُنُّهـا حليلةً لـه، لا يترتّـبُ عليـهِ شيءٌ مـنَ العقـوبـاتِ والمُؤاخَـذاتِ المُرتّبةِ علىٰ الزاني اعتبـاراً بنيّتِـهِ وقصْدِه. انتهىٰ. منَ «الأشباهِ والنظائر».

ــ حُسْنُ الأعمالِ مِنْ حُسْنِ النِّيّاتِ والأحوال:

قـالَ السيّدُ العلاّمةُ أحمـدُ بنُ زَيني دَحْلانَ رحِمَهُ اللّهُ في كتابِهِ «تقريبِ الأصول»: واعلَمْ أنّ العـارِفينَ باللّهِ تختلِـفُ نياتُهـم ومَقاصـدُهم فيمـا يأتونَ ويذَرون، فلا يأتونَ شيئاً إلا بنيةٍ صالحةٍ تُقرِّبُهم إلىٰ اللّهِ تعالىٰ، ولا يترُكونَ إلا كذلك، فمِنهُم مَن كانَ يؤْثِرُ البَذاذةَ وخُشونةَ العيشِ واللِّباسِ إذا كانتْ نفْسُهُ لها حـظٌّ في خِلافِهِ ولم يجِـدْ لهُ فيهِ نيةً صالحـة، ومنهُم مَن يجِـدُ له نيّةً صالحة، والأعمالُ بالنيّة.

وممّـا يَستنِدُ إليه مَن يُؤْثِرُ البـذاذةَ وخشونـةَ العيشِ واللِّبـاس قولُهُ ﷺ: «البَـذاذَةُ منَ الإيمـان»[1]، وقولُـهُ ﷺ في الحديثِ الحسَن: «مَن تَـرَكَ اللِّباسَ تواضُعـاً للّهِ تعالىٰ وهُوَ يَقْدِرُ عليـهِ دَعـاهُ اللّهُ تعالـىٰ يومَ القيامـةِ علـىٰ رؤوسِ الأشهـادِ حتىٰ يخَيِّرَهُ مِن أيِّ حُلَلِ الجنّـةِ شاءَ يلبَسُها»[2]، ثم قال: وأمّا الذينَ

---

(١) أخرجـه أبـو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)، من حديث أبي أُمامةَ رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجـه الترمـذي (٢٤٨١)، وأحمد (٣: ٤٣٨، ٤٣٩)، والحاكم (١: ٦١، ٤: =

فعَلوا خِلافَ ذلكَ وحسُنَتْ نياتُهم فإنهُم أرادوا إظهارَ الشّكرِ للّهِ تعالىٰ، لقولِهِ ﷺ: «إنّ اللّهَ يُحبُّ أن يرىٰ أثَرَ نِعمتِهِ علىٰ عبدِه»[١]، وقالَ ﷺ: «إنّ اللّهَ جميلٌ يُحبُّ الجَمال»[٢]، وفي رواية: «إنّ اللّهَ نظيفٌ يُحبُّ النّظافة»[٣].

وحاصِلُهُ: أنّ الأوّلَ محمولٌ علىٰ مَن آثرَ ذلكَ للتواضُعِ والاقتداءِ بالسلَف، والثاني علىٰ مَن قصَدَ بهِ إظهارَ نعمةِ اللّهِ تعالىٰ عليه، وكلا الأمرَينِ إذا كانَ بِنيةٍ حسَنةٍ فهُوَ حسَنٌ والأعمالُ بالنية. انتهىٰ.

وقالَ ابنُ القيّمِ في «الهَدْي»: قالَ بعضُ السلَف: كانوا يكرَهونَ الشُّهْرتَيْنِ منَ الثياب: العالي والمنخفض. وفي «السنن»، عن ٱبنِ عمر، يرفَعُه إلىٰ النبيِّ ﷺ: «مَنْ لبِسَ ثوبَ شُهرةٍ ألبَسَه اللّهُ يومَ القيامةِ ثوبَ مَذَلّةٍ ثم يلتهبُ فيه في النّار»[٤]. وهذا لمَن قصَدَ بهِ الاختيالَ والفخْر، فعاقَبَهُ اللّهُ بنقيضِ ذلكَ فأذَلَّه، كما عاقبَ مَن أطالَ ثيابَهُ خُيَلاءَ بأنْ خسَفَ بهِ الأرض، فهُوَ يتجَلجَلُ فيها إلىٰ يومِ القيامة.

وفي «الصحيحينِ» عنِ ابنِ عمرَ قال: قالَ رسولُ اللّه ﷺ: «مَن جَر ثوبَهُ

= ١٨٣)، وغيرهم، من حديث معاذ بن أنس رضيَ اللّه عنه.

(١) أخرجه الترمذي (٢٨١٩)، والنسائي (٥: ٧٩)، وابن ماجه (٣٦٠٥)، وأحمد (٢: ١٨١، ١٨٢)، وغيرهم، من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضيَ اللّه عنهما. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن.

(٢) أخرجه مسلمٌ (٩١)، من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩)، والبزّار (١١١٤)، وأبو يعلىٰ (٧٩١)، وغيرهم، من حديث سعد بن أبي وقاص رضيَ اللّه عنه. وفيه ضعف.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٠٢٩)، وابن ماجه (٣٦٠٧)، من حديث ابن عمر رضيَ اللّه عنهما. ولفظ أبي داود: «ثم تُلهَبُ فيه النار».

خُيَـلاءَ لم ينظُرِ اللّهُ إليهِ يومَ القيامة»[١]. قال: وكذلكَ لُبْسُ الدَّنيِّ منَ الثياب، يُذَمُّ في مَوضعٍ ويُحمَدُ في مَوضع، فيُذَمُّ إذا كانَ شُهرةً وخُيَلاء، ويُمدَحُ إذا كانَ تواضُعـاً واستكانة، كما أنّ لُبسَ الرفيعِ منَ الثيـابِ يُذَمُّ إذا كـانَ تكبُّـراً وفخراً وخُيَـلاء، ويُمدَحُ إذا كانَ تجمُّـلاً وإظهاراً لِنعمـةِ اللّه، ففـي «صحيحِ مسلمٍ» مرفوعاً: «لا يدخُلُ الجنَّةَ مَن كانَ بقلبِهِ مِثْقالُ حبَّةِ خَرْدَلٍ مِن كِبْر»، فقال رجُل: يا رسولَ اللّه: إنِّي أُحِبُّ أن يكونَ ثَوبِي حسَناً ونَعْلي حسَنة، أفمِنَ الكِبْرِ ذاك؟ فقـال: «لا، إنّ اللّهَ جميلٌ يُحبُّ الجَمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحَـقِّ وغَمْطُ النّاس»[٢]. انتهىٰ.

قلت: فعُلِمَ ممّا مَـرَّ أنّ الإنسانَ حسْبَ ما نوىٰ يُثابُ ويُجزىٰ: إنْ خيراً فخيـراً وإنْ شرّاً فشرّاً، فمَـن حسُنَتْ نيتُهُ حسُنَ عملُـه، ومَن خبُثَتْ نيتُهُ خبُـثَ عملُه، فاعلَمْ ذلكَ وافهَم.

ومِـن حِكَـمِ سيّـدِنا الإمامِ القُطـبِ عبدِ اللّهِ الحـدّادِ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن أصلَحَ نِيّتَه بلَغَ أُمنِيّتَه، وإذا صلَحتِ المقاصدُ لم يخِبِ القاصد.

ـــ حكاياتٌ في أنّ حكمَ العملِ الواحِدِ يختلفُ باختلافِ النِّيّةِ فيه:

جاءَ في «تثبيتِ الفؤادِ» عن الإمامِ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: جاءَ أنّ آدمَ عليهِ السلامُ لمّا هبَطَ منَ الجنّةِ إلىٰ الأَرض، نزَلَ معَهُ بأوراقٍ مِن شجرِ الطِّيبِ ولها مِن الرائحةِ الطيّبةِ شيءٌ كثير، فأتتْهُ الظَّبْيةُ زائرة، فأعطاها مِن ذلك، فظهَرَ عليها رِيحُه، فلمّا شَمَّ ذلكَ منها سائرُ الدوابِّ جاؤوا لآدم، فلم يُعطِهم؛ لأنّها

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٦٥)، و«صحيح مسلم» (٢٠٨٥)، من حديث ابن عمر رضيَ اللّه عنهما.

(٢) «صحيح مسلم» (٩١)، من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه.

أتتْهُ زائرةً وهُنّ أتَوْهُ لطلَبِ ذلك.

قال: ويُشبهُ هذهِ الحكايةَ ما سمِعْنا:

يُذكَرُ أنّ رجلَينِ أتَيا إلىٰ سيّدِنا الشيخِ القُطبِ عبدِ اللّهِ بنِ أبي بكرٍ العيْدَروسِ رضِيَ اللّهُ عنه، وأحدُهما نيتُهُ الزيارةُ والتبرُّكُ بالشيخ، والآخَرُ نيتُهُ حصولُ شيءٍ يأكلُه، فلمّا وقَفا تحتَ البابِ وكلٌّ منهُما مُضمِرٌ ما قصَدَه، أمَرَ الشيخُ الخادمَ أن ينزِلَ بما أرادَ ذلكَ الرجلُ فيعطيَهُ إياهُ ويصرِفَهُ مِن تحتِ الباب، وأمَرَ بالآخَرِ فيطلُعَ إلىٰ عندِ الشيخ، فأكرَمَهُ وحصَلَ لهُ ـ بحُسنِ قصْدِهِ منَ الشيخ ـ الإقبالُ والقَبولُ وأضعافُ ما حصَلَ لذلكَ مِن مُرادِه، معَ ما حصَلَ لهُ منَ الخيرِ الدينيِّ والمنزلةِ عندَ اللّه، بحصولِها لهُ عندَ أولياءِ اللّه، فسُبحانَ المُتفضِّلِ المنّانِ بما شاءَ علىٰ مَن شاء! ثم قال: وهذا سِرُّ حديثِ: «الأعمالُ بالنيّات»[1]. انتهىٰ. أو كما قال.

ويُروىٰ أنّ بعضَهُم مرَّ بجدارٍ في مَوضعٍ ينتَفعُ النّاسُ به، فجعَلَ في ذلكَ الجِدارِ وَتِداً وقال: لعلّ أنّ أحداً يحتاجُ إليهِ لِيُعلِّقَ مَتاعَه. ثم مرَّ آخر، فأخرَجَ ذلكَ الوتدَ وقال: ربّما يمرُّ بهِ غافلٌ أو أعمىٰ فيجرَحُه. فلكلٍّ من الرجُلَينِ أجر؛ لأنه نوىٰ خيراً، ولكنّ الذي أخرجَهُ أفضَل، لموافقتِهِ لقاعدةِ: «درءُ المفاسدِ أوْلىٰ مِن جلبِ المصالح». ذكَرَهُ في «النهرِ المورود».

❊ ❊ ❊

---

(١) تقدم تخريجه وأنه في الصحيحين.

الفصل الثالث
فيما جاء في فضل النية الصّالحة من كلام العارفين والسلف الصّالحين

عن عمرَ بنِ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنه: أفضَلُ الأعمالِ أداءُ ما افتَرَضَ اللّه، والورَعُ عمّا حرّمَ اللّه، وصِدقُ النيةِ فيما عندَ اللّه.

وكتَبَ سالمُ بنُ عبدِ اللّهِ[١] إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيز: اِعلَمْ أنّ عونَ اللّهِ تعالىٰ للعبدِ علىٰ قدرِ النية، فمَن تمّتْ نيتُهُ تَمَّ عونُ اللّهِ له، وإنْ نقَصَتْ نقصَ بقدْرِه. انتهىٰ.

قالَ سيّدُ الطائفة، الجُنَيدُ بنُ محمّدٍ رحِمَه اللّه: مَن فتَحَ علىٰ نفْسِهِ بابَ نيةٍ حسَنةٍ فتَحَ اللّهُ عليهِ سبعينَ باباً مِن أبوابِ التوفيق، ومَن فتَحَ علىٰ نفْسِهِ بابَ نيةٍ سيئةٍ فتَحَ اللّهُ عليهِ سبعينَ باباً من أبوابِ الخِذْلان. انتهىٰ.

وقالَ بعضُ السلَف: إني لأستحِبُّ أن تكونَ لي في كلِّ شيءٍ نية، حتىٰ

---

(١) سالم بن سيدنا عبد اللّه بن عمر بن الخطّاب رضيَ اللّه عنهما. كان أشبه أولاد عبد اللّه به، وأشبه الناس في زمانه بمن مضىٰ من الصحابة في الزهد والفضل. كان إماماً حافظاً مفتياً زاهداً. عدّه ابن المبارك في فقهاء المدينة السبعة، وبعضهم يعدُّ بدَله أبا بكر بن عبد الرحمن المخزومي كما تقدم ص ٣٩٨. رضيَ اللّه عنهم جميعاً.

في أكْلي وشُربي ونوْمي ودخولي للخَلاء.

قالَ الإمامُ حُجّةُ الإسلامِ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ في «الأربعينَ الأصْل»: رُويَ أن محمّدَ بنَ سيرينَ لم يُصَلِّ علىٰ جِنازةِ الحسَنِ البصْريِّ وقال: ليسَ تحضُرُني النية. وقيلَ لطاووس: اُدعُ لنا، فقال: حتىٰ أجِدَ لهُ نيةً. وقالَ بعضُهم: أنا في طلَبِ نيةٍ لعيادةِ رجلٍ منذُ شهر، فما صَحّتْ لي نية.

***

قالَ سيّدُنا الإمامُ الحبيبُ محمّدُ بنُ زينِ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ مِن أثناءِ «مُكاتَبةٍ» له: وإذا صدقَتَ النيةَ في الخيرِ فقْدُها أكبر أُمنِية، ونيةُ المؤمنِ خيرٌ مِن عملِهِ في بعضِ الأحوالِ لا مُطلقاً.

قالَ الشيخُ أحمدُ بنُ أبي الحَواريِّ لشيخِهِ أبي سليمانَ الدارانيِّ رحِمَهُما اللّهُ ونفَعَ بهِما، آمينَ: غبَطْتُ بني إسرائيلَ: يُعَمَّرُ أحدُهم خمسَمئةِ سنةٍ في عبادةِ اللّهِ تعالىٰ حتىٰ يكونوا كالشِّنانِ البالية[1]، فقالَ أبو سليمان: واللّهِ ما يريدُ اللّهُ منّا أن تيبَسَ جلودُنا علىٰ عظامِنا منَ العبادة، وإنّما يريدُ صِدقَ النيةِ فيما عندَه.

فانظُرْ هذهِ المَقالة، فما أحسَنَها وما أطيَبَها وما أعذبَها وما ألذَّها وما أسلسَها وأقربَها! وفّقَنا اللّهُ وإياكم لذلك، ويسّرَ لنا ما هنالك، بفضلِهِ وهُوَ ذو الفضْلِ العظيم. انتهىٰ.

وقالَ سيّدُنا العارفُ بالله، الحبيبُ أحمدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: خَصلَتانِ يبلُغُ الإنسانُ بهِما مُرادَهُ ويَنالُ بهِما خيرَ الدنيا والآخرة: حُسنُ

---

(١) الشِّنان، مفردها شِنّ، وهي القربة الصغيرة.

الظـنِّ الأكسيرُ الذي ما وُضِعَ علىٰ شـيءٍ إلا أصلَحَه، وصلاحُ النية. والعُتُومُ ـ أي: المجاري اليابسة ـ ما يندُبُها إلا النياتُ الصالحة.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: الإنسانُ ما يحمِلُهُ إلاّ خَصلَتان: هِمّتُهُ ونيّته، وأمّا الأرجُلُ والجِسمُ فهِيَ تابعة، كالفُلْكِ في البحرِ: ما يحمِلُهُ إلا الرّيحُ والشّراع، فالرِّيـحُ بمنزلةِ الهِمّـة، والشّراعُ بمنزِلةِ النية. قـال: وروحُ الأعمالِ الصّدق، وروحُ الصّـدقِ الإخـلاص. قالَ ﷺ: «نيّةُ المـؤمنِ خيرٌ مِن عمَلِـه»[1]. وقالَ رضِـيَ اللّهُ عنه: قالَ العارفونَ: النيةُ الصالحةُ كالذَّرِيِّ[2] المدفـونِ في القاع، فإن ظهَرَ نباتُهُ علىٰ يدَيكَ وإلا فيظهَرُ في أولادِك، فانوِ أن تكونَ عالِماً وطائعاً، وأن تكونَ غنياً تنفِقُ مالَكَ في حبِّ اللّه. انتهىٰ. أو كما قال.

وفي الأثـر: «رُبَّ قليلٍ كثَّرَتْهُ النيّة، ورُبَّ كثيرٍ قَلَّلَتْهُ النِّيَّة»، يعني: رُبَّ قليلٍ منَ العمَلِ كثّرتْهُ النيةُ الصالحة، ورُبَّ كثيرٍ منهُ قلّلتْهُ النيةُ الفاسدة، وفيهِ أيضاً: «إنّما يُعطىٰ النّاسُ علىٰ قَدْرِ نيّاتِهِم». انتهىٰ.

ومِن كلامِ سيّدِنا الإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ: اعمَلْ للّهِ علـىٰ قـدْرِ همّتِـك ونيتِك، فإنّ الأجْـرَ علىٰ قـدْرِ الهِمّةِ والنيـةِ لا علىٰ قدْرِ العمَلِ، فإنّ خزائنَهُ تعالىٰ مملوءةٌ عبادة، فإذا كانَ المَلَكُ الواحِدُ منَ الملائكةِ مِن قبلِ خلْقِ الدنيـا إلىٰ يومِ القيامةِ في سجْدةٍ وآخرُ في ركعة، ونعَّمَهُم بذكْرِهِ كما هُوَ معلومٌ مِن أحـوالِهِم، فما قدْرُ عمَلِك؟ فإنّما هُوَ بالنية، فإنّ اللّهَ تعالىٰ شكَرَ للضُّفدعِ حيثُ حمَلَتْ في فيها ماءً لتطفىءَ نارَ النُّمرودِ عن إبراهيمَ عليهِ السلام، فقيلَ لها: أتقدِرينَ علىٰ طَفْئها؟ قالت: هذا قَدْري، فنهىٰ الشارعُ عن قتلِهـا. والوزَغُ حيثُ جعَلَ ينفُخُ فيها، وقال: أردْتُ أن أُظهِرَ لهُ الشّماتة، ذمَّهُ

---

(١) تقدم تخريجه ص ٦٤٢.

(٢) الذري: الحبّ يُذرىٰ في الأرض، يُلقىٰ ويُنثر.

اللّهُ جداً حتى رغَّبَ الشّرعُ في قتلِه. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

حكىٰ الإمامُ أبو القاسمِ القُشَيريُّ رحِمَهُ اللّه: أنّ عمْرَو بنَ اللّيثِ أحدَ ملوكِ خُراسانَ ومشاهيرِ الثوّارِ المعروفَ بالصّفّار[1]، رُؤيَ في النوم، فقيلَ له: ما فعَلَ اللّهُ بك؟ فقال: غفَرَ لي. فقيل: بماذا؟ فقال: صعِدْتُ ذَروةَ جبلٍ يوماً، فأشرَفتُ علىٰ جنودي، فأعجبَني كثرتُهم، فتمنّيتُ أني حضَرتُ رسولَ اللّه ﷺ فأعنتُهُ ونصرتُهُ، فشكرَ اللّهُ لي ذلكَ وغفَرَ لي. ذكَرَهُ القاضي عياضٌ في كتابِهِ «الشفا».

ويُروىٰ أنّ الإمامَ الغزاليَّ رضِيَ اللّهُ عنهُ رُؤيَ بعدَ موتِه، فقيلَ له: ما فعَلَ اللّهُ بك؟ فقال: غفَرَ لي، فقيل: بِمَ ذلك؟ قال: بذُبابٍ برِحَ علىٰ القلَمِ وأنا أكتُب، فتركْتُهُ حتىٰ رَوِي، بهذا غفَرَ اللّهُ لي.

فانظُرْ ــ رحِمَكَ اللّه ــ إلىٰ هذهِ الحكاية، فإنهُ لم يقُلْ: بعلومي ولا تصانيفي، تعرِفْ أنّ الشأنَ كلَّه في حُسنِ النية؛ لأنّ الأعمالَ الظاهرةَ التي تراها النفْسُ وتعُدُّها شيئاً، تحتاجُ إلىٰ تحريرِ النيّات، بخِلافِ التي تراها النفْسُ ولا تَعتَدُّ بها، فلا يتطرقُ إليها البُطلان. اللّهمَّ أصلحْ نِيّاتِنا ومَقاصدَنا. آمين.

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: لمّا نوىٰ أهلُ الطاعةِ طاعةَ ربِّهم أعانهم عليها، وأهلُ المعصيةِ لمّا نوَوُا المعصِية، وأقبَلوا عليها، هيّأَها لهُم ويسَّرَها عليهِم، إنّ اللّهَ هُوَ المُعين، يُعينُ المُجيدَ علىٰ إجادتِه، والفَسْلَ على فَسالَتِه[2]، والطائعَ علىٰ طاعتِه، والعاصيَ علىٰ معصِيتِه. أو كما قال.

---

(١) ترجمته في: «الكامل» لابن الأثير (٧: ٥٠٠)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (٦: ٤١٥)، و«سير النبلاء» للذهبي (١٢: ٥١٦)، وغيرها.

(٢) الفسل: الرديء.

الفصل الرابع
في قلب المباحات إلىٰ طاعات
باقترانها بالنيّات الصّالحات

ذكَرَ العلماءُ أنّ النيةَ الصالحةَ تقْلِبُ العادةَ إلىٰ عِبادة، فإذا احترَفَ الإنسانُ حِرفةً بقصْدِ التعفُّفِ عنِ الحرام، والإنفاقِ علىٰ أهلِهِ وعيالِه، أو أكَلَ أو شرِبَ بقصْدِ التقوِّي علىٰ طاعةِ اللّه، كان عمَلُهُ عبادةً يُثابُ عليها. والأصلُ في ذلكَ قولُهُ ﷺ: «إنّكَ لن تُنْفِقَ نفَقةً تبتغي بها وجْهَ اللّهِ إلاّ أُجِرْتَ عليها، حتّىٰ اللُّقْمةُ تَضَعُها في في امرأتِك»[1]، وقولُهُ ﷺ: «وفي بُضْعِ أحدِكُم صَدَقة..» إلخ[2].

سُئلَ سيّدُنا العارفُ باللّه، عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه، عن قولِ بعضِ السلَفِ الصالح: إنّي لم أفعَلْ مُباحاً مدةَ عمُري، أو نحوِ هذا، وهُوَ معَ ذلكَ لا بـدَّ لهُ ممّا هُوَ مِن لـوازمِ البشَر: من أكـلٍ أو شُـربٍ ونحوِ ذلكَ مِن ضروريّاتِ الإنسانِ ما بقِيَ في هذه الحياة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٩)، ومسلمٌ (١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٠٠٦)، من حديث أبي ذر رضيَ اللّه عنه.

فأجاب: بأنهُ يتناوَلُ منَ الأمورِ البشريّةِ ما يتناولُهُ غيرُه، ولكنّهُ يَقلِبُ ذلكَ بالنيةِ الصالحةِ إلىٰ حيّزِ القرُباتِ، ويُخرِجُهُ مِن قسمِ المُباحاتِ إلىٰ الطاعات، فقد قلَبَ عينَ المُباحاتِ طاعاتٍ وقرُبات، فهذا هُوَ القلْبُ للأعيانِ الذي تتفاخَرُ بهِ أكابرُ الأعيان، لا قلبُ الحجَرِ ذهباً أو فضّة. تكونُ الدنيا بأسرِها لو صارتْ ذهباً وفضةً فهِيَ فانيةٌ وما عليها فانٍ، وأمّا مَن منَحَهُ اللّهُ هذهِ العطيّة، والموهِبةَ الكبرىٰ السَّنِية، وهُوَ قلْبُ المباحاتِ طاعات، فذلكَ منَ الباقياتِ الصالحات، ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]. أو كما قال.

وقالَ سيّدُنا القطبُ الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: الأمورُ المُباحةُ ينبغي أن يتحرّىٰ لها الإنسانُ نيّة، فإنْ لم يجدْها مِن نفْسِهِ فلْيسألْ عنها أهلَ العِلمِ المأمونين، وأخبِرْهُ بأمْرِكَ الذي تُريدُ فِعلَهُ: مِن بناءِ دارٍ أو خلْعِ نخلٍ وغيرِ ذلك، وكانوا يتحرَّوْنَ النيةَ ويتعلّمونَها كما يتعلّمُ الصّغارُ القرآن. انتهىٰ.

قالَ سيّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حَسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: ينبغي لمَن أرادَ أن يُباشِرَ أمراً دنيوياً، كحِراثةِ أرضٍ أو سفرٍ لطلبِ مَعيشةٍ أو بناء، أن ينويَ بهِ العوْنَ علىٰ الطاعةِ والخير، ليُثابَ عليها وتتيسّرَ أمورُهُ ويدخُلَ في جُملةِ القرُباتِ لا مجرّدِ التلذُّذِ والراحةِ ونحوِهما، والعادةُ تنقلبُ عبادةً بالنية. انتهىٰ.

ومِن كلامِ سيّدِنا الإمامِ الحبيبِ محمّدِ بنِ زينِ بنِ سُميطٍ نفَعَ اللّهُ به: حقيقةُ الدُّنيا: كلُّ شيءٍ لم يُرَدْ بهِ وجْهُ اللّهِ تعالىٰ والدارُ الآخرة، وإن كانتْ صورتُهُ عبادةً فهِيَ بالحقيقةِ دنيا، حيثُ لم يُقصَدْ بهِ وجهُ اللّهِ عزَّ وجَلّ. قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ

ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧]. وقالَ تعالىٰ في الآيةِ الأُخرىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. ثم قالَ رضِيَ اللّهُ عنه: فمَن صحَّ قصدُهُ في كلِّ ما يتناولُهُ ويتعاطاهُ مِن أمرِ الدنيا التقوّيَ بهِ علىٰ طاعةِ اللّهِ سبحانَهُ والاستعانةَ علىٰ مَحابِّهِ ومَراضِيه، فقدِ انتفىٰ عن طلبِ الدنيا المذمومةِ شرعاً، وانقلَبَ ذلكَ بنيتِه آخرةً، فقد عُلِمَ بذلكَ أنّ الدنيا والآخرةَ هما قصْدُ الإنسانِ فقطْ، فقصدُهُ بما يتعاطاهُ للّهِ تعالىٰ هِيَ الآخرةُ كائناً ذلكَ ما كان، وقصْدُهُ بذلكَ التمتُّعَ مِن غيرِ اللّهِ عزَّ وجَلَّ هِيَ الدنيا. انتهىٰ، أو كما قال.

قالَ سيِّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حَسَنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به: للإنسانِ في اليومِ واللّيلةِ أربعةٌ وعشرونَ ألفَ نفَس، في كلِّ ساعةٍ ألفُ نفَس، فإذا نوىٰ أن يطيعَ اللّهَ فيهـ صارتْ أعمالُهُ كلُّها صالحةً، وإذا نوىٰ أن يعصيَ اللّهَ فيها صارتْ أعمالُهُ كلُّها فاسدةً.

وقالَ سيِّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوِي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: الناسُ في طلبِ الدنيا علىٰ أربعةِ أقسام: طالبٌ يطلُبُها علىٰ نيةِ الخيرِ والاستعانةِ بها عليه، وطالبٌ يطلبُها للتمتّعِ بالمُباحاتِ والشهَوات، وطالبٌ يطلبُها للتوصّلِ بها للمعاصي، إمّا علىٰ الانفرادِ وإمّا معَ غيرِها، وطالبٌ يطلبُها لذاتِها، وهذا منَ الشياطين. انتهىٰ.

حكاية:

حكىٰ سيِّدُنا الإمامُ أحمدُ بنُ حسَنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه: أنّ الحبيبَ عبدَ اللّهِ بنَ عمرَ بنِ يحيىٰ أرسَلَ مرةً مئةَ رِيالٍ إلىٰ الحبيبِ حسنِ بنِ صالح البحر، والتمَسَ منهُ أن يُفرِّقَها علىٰ المُستحقّينَ علىٰ نظَرِه، فردَّها الحبيبُ حسنٌ إليه وقال: فرِّقوها أنتم؛ لأنّ لكُم نيّاتٍ كثيرة. فأرجَعَها إليهِ ثانياً وقالَ

له: رَضِينا بما تفعَلونَهُ ولو رمَيْتُموها في بئر، فقبَضَها الحبيبُ حسنٌ وسارَ مِن (ذي أصبَحَ) وعبرَ علىٰ بلدِ (الغرفة)، فاشترىٰ أربعينَ طاقةً منَ السوادِ بأربعينَ ريالاً، فكسا أربعينَ أرملةً في (تريس)، واشترىٰ بستّينَ ريالاً ستةَ آلافِ رِطْلٍ منَ التمر، وأمَرَ بتَفْرِقتِهِ علىٰ مساكينِ (سيئون): لكلِّ شخصٍ رِطل، فأطعَمَ بها ستةَ آلافِ مسكين. هكـذا كانتْ نيّاتُهم وأعمالُهم وعِظَمُ هِمَمِهم. انتهىٰ. مِن «مجموعِ كلامِه».

تنبيه:

ذكَرَ الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِـيَ اللّهُ عنهُ البنـاءَ فقال: كلُّ عمَلٍ يثابُ عليهِ إلا البناء. والذي ورَدَ النّهيُ عنهُ منهُ تعلِيةُ البُنيانِ دونَ التوسِعة. وقد جاءَ أنهُ تعـالىٰ يقولُ إذا أطالَـه: «إلـىٰ أينَ يا أفسقَ الفاسقيـن؟». وهذهِ الأمورُ من المُباحـاتِ إنّما هِيَ بالنيةِ والاقتصـارِ علىٰ قدْرِ الحاجةِ منها، وأهلُ الزمانِ لم تصِحَّ لهُمُ النيةُ في العباداتِ فضلاً عنِ العادات. قال: وقد أدرَكْنا جماعةً بنَوْا غُرَفـاً بقدْرِ حاجتِهم إليها، يبنُونَ قـدْرَ ما يُحتاجُ إليهِ في الحالِ الحاضـر، فإذا تزوّجَ أحـدٌ منَ العِيـالِ واحتـاجَ إلىٰ منزِلٍ وحـدَهُ بنـىٰ ذلك، فإذا تـزوّجَ آخرُ فكذلك، وعلىٰ هذا، حتىٰ تصيرَ الدارُ كبيرةً بتكرُّرِ الاحتياج. انتهىٰ. ذكَرَ ذلكَ في «تثبيت الفؤاد».

❊ ❊ ❊

الفصل الخامس
في فضل تكثير النيّات الصّالحات وتعديدها

قالَ سيّدُنا الحبيبُ القُطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «رسالةِ المُعاوَنة»:

اعلَمْ أنهُ يُتَصوَّرُ أن يجتمعَ في العمَلِ الواحدِ نياتٌ كثيرة، ويكونَ للعاملِ بكلِّ نيةٍ ثوابٌ تامّ.

مثالُهُ منَ الطاعات: أن ينويَ بقراءةِ القرآنِ مُناجاةَ اللّهِ تعالىٰ، فإنّ القارىءَ مُناجٍ ربَّه، وينويَ استخراجَ العلومِ منَ القرآن، فإنهُ معدِنُها، وينويَ نفْعَ نفْسِهِ والسامعين، إلىٰ غيرِ ذلكَ منَ النياتِ الصالحاتِ الحسَنة.

ومثالُهُ منَ المُباحاتِ: أن تنويَ بالأكْلِ امتثالَ أمرِ ربِّكَ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢] وتنويَ بهِ التقوّيَ علىٰ طاعةِ اللّهِ تعالىٰ، وتنويَ التسبّبَ في استخراجِ الشكرِ منكَ لربِّك. إذ يقولُ سبحانَه: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥]، فقِسْ علىٰ هذَينِ المثالين. انتهىٰ.

أمثلةٌ علىٰ تكثيرِ النيّات

ـــ دخولُ المسجدِ والقعودُ فيه:

قالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّه: يُمكنُ أن تنويَ فيهِ ثمانيةَ أمور:

أولُها: أن تعتـقدَ أنهُ بيتُ اللّهِ عزَّ وجَـلّ، وأن داخلَـهُ زائـرُ اللّهِ تعالىٰ، فتنويَ ذلك، قالَ عليهِ السلام: «مَن قعَدَ في المسجدِ فقد زارَ اللّهَ تعالىٰ، وحَقٌّ المَزُورِ إكرامُ زائرِه»[1].

ثانيها: نيةُ المُرابَطة، لقولِ اللّهِ تعالىٰ: ﴿وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، وقيل: معناهُ انتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاة.

ثالثُها: الاعتكاف، ومعناهُ: كفُّ السمعِ والبصَرِ والأعضاءِ عنِ الحركاتِ المُعتـادة، فإنهُ نـوعُ صـوْم، قالَ ﷺ: «رَهْبانِيّـةُ أُمّتي القعودُ في المساجد»[2].

رابعُها: الخَلـوةُ ودفْعُ الشواغلِ للـزومِ السرِّ للفِكرِ في الآخرة، وكيفيةِ الاستعدادِ لها.

خامسُها: التجرّدُ للذّكْرِ وسماعُهُ أو إسماعُه، لقولِهِ ﷺ: «مَن غدا إلىٰ المسجدِ يذْكُرُ اللّهَ تعالىٰ أو يُذَكِّرُ بهِ كانَ كالمُجاهدِ في سبيلِ اللّهِ تعالىٰ»[3].

سادسُها: أن يقصِدَ إفادةَ عِلم، وتنبيهَ من يُسيءُ الصلاة، ونهْياً عن مُنكَرٍ وأمراً بمعروف، حتىٰ يتيسّرَ بسببِهِ خيرات، ويكونَ شريكاً فيها.

---

(١) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من المصادر الحديثية.

(٢) قال العـلاّمة القاري في «المصنوع» ص١٠٦: لم يوجد. انتهىٰ. ولم نقف عليه في غيره.

(٣) لم نقف عليه مرفوعاً، لكن في «الحلية» (٦: ١٦) من قول كعب الأحبار: «أجد في كتاب اللّه: ما من عبد مؤمن يغدو ويروح إلىٰ المساجد...».

وسابعُها: أن يترُكَ الذنوبَ حياءً منَ اللّهِ عزَّ وجَلّ، بأن يُحسِنَ نيتَهُ في نفْسِهِ وقولِهِ وعملِه، حتىٰ يستحييَ منهُ مَن زارَهُ أن يُقارِفَ ذنباً.

ثامنُها: أن تستفيدَ أخاً في اللّه، فإنّ ذلكَ غنيمةٌ وذخيرةٌ لدارِ الآخرةِ، والمسجدُ مُعَشْعَشُ أهلِ الدِّينِ المُحبّينَ للّهِ وفي اللّه. وقِسْ علىٰ هذا سائرَ الأعمال، فباجتماع هذهِ النياتِ تزكو الأعمالُ وتلتحقُ بأعمالِ المقرَّبين، كما أنّ بنقيضِها يُلتحَقُ بأعمالِ الشياطين. انتهىٰ.

ـ التطيُّب:

وقالَ الشيخُ الإمامُ أحمدُ بنُ زينِ الحبَشيُّ في «شرحِ العَينيّة» علىٰ قولِ الناظم:

ولصالِحِ النيّاتِ كُنْ مُتَحرِّياً مُستكثراً منها، وراقِبْ واخشَعِ

قال: وأمّا كثرةُ النياتِ فذلكَ علىٰ قدرِ جدِّ العبدِ في طلبِ الخيرِ وسَعَةِ علمِه، وبذلكَ تزكو الأعمالُ ويتضاعَفُ فضلُها. والمعصيةُ لا تنقلِبُ بالنيةِ مِن كونِها معصيةً، كمَن نوىٰ مراعاةَ قلبِ إنسانٍ بغِيبةِ إنسانٍ آخَر، فهُوَ معصيةٌ ولا تنفَعُهُ هذهِ النيةُ، وأمّا المُباحاتُ فتصيرُ بالنيةِ الصادقةِ ومِن أهلِ الصّدقِ مِن محاسنِ القرُبات، فقد ورَدَ: «مَن تَطَيَّبَ للّهِ تعالىٰ جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أطيَبُ مِن رِيحِ المِسْك»[1]. مثلَ أن ينويَ بالطِّيبِ:

ـ اتّباعَ سُنةِ رسولِ اللّهِ ﷺ في يومِ الجمُعة.

ـ وتعظيمَ المسجدِ بالريحِ الطيّب.

---

(١) أخرجه عبد الرزّاق في «المصنّف» (٤: ٣١٩)، عن إسحاق بن أبي طلحة مرفوعاً، لكنه مرسَل.

ـ وتعظيمَ شعائرِ اللّهِ وسُكانِ المسجد.

ـ وترويحَ مَن جلَسَ عندَهُ أو مرَّ بهِ برائحتِه.

ـ ودفعَ الروائحِ الكريهةِ المؤْذيةِ لغيرِه.

ـ وحسْمَهُ بابَ غِيبةِ الغَيرِ لهُ بذِكْرِ ريحِهِ الكريهة.

ـ ومِن نيةِ الطِّيب: قصدُ تقويةِ الدّماغ به، لتزدادَ بقوتِه فِطنتُهُ في الدِّينِ وقوةُ فِكرِه. قالَ الشافعيُّ رضِيَ اللّهُ عنه: مَن طابَ ريحُهُ زادَ عقلُه.

فهذِهِ النياتُ تحصُلُ منَ الطِّيب، لكنْ لمَن غلَبَ علىٰ قلبِهِ تجارةُ الآخرةِ أكثرَ مِن نِعَمِ الدنيا وصارتِ الآخرةُ أغلَبَ همِّه، فمَن غلَبَ علىٰ قلبِهِ أمرُ العاجلةِ لم تُتَصوَّرْ منهُ هذهِ النياتُ الصالحة، فإنِ ادّعىٰ شيئاً منها فهُوَ حديثُ نفْسٍ لا نيةٌ محمودةٌ شرعاً؛ لأنّ النيةَ تَجرُّدُ باعثِ الدِّينِ فقطْ، فلْيتفقّدِ المسكينُ سائرَ أعمالِهِ وقصورَه، ولْيُراقِبْ قلبَه. انتهىٰ. معَ حذفٍ يسير.

ـ الصَّدَقة:

قالَ سيّدُنا الإمامُ العارفُ باللّه، محمدُ بنُ زَينِ بنِ سُميطٍ نفَعَنا اللّهُ به، في تَعدادِ النياتِ في الصّدَقةِ وفوائدِها العاجلةِ والآجِلة: ينبغي أن ينويَ المُتصدِّقُ بصدَقتِه:

ـ ابتغاءَ وجهِ اللّهِ ورِضاه.

ـ وأن يُرحَمَ برحمتِهِ لمَن أعطاه.

ـ وينويَ إطفاءَ غضَبِ اللّه، سيّما صدقةُ السرِّ كما ورَد.

ـ وينويَ امتثالَ أمرِ اللّهِ لهُ بالصّدقةِ واتباعَ نبيِّهِ ﷺ وأصحابِهِ والتابعينَ والصالحينَ في تصدُّقِهم علىٰ المُحتاجين.

ــ وينويَ إزالةَ رذيلةِ البُخلِ مِن قلبِهِ بمُفارقةِ المال .

ــ وينويَ أداءَ حقِّ أخيهِ المسلمِ في الجُملة .

ــ وينويَ صِلةَ رحِمِه ؛ لأنّ الإسلامَ رحِمٌ متّصلةٌ بينَ المسلمين .

ــ وينويَ إدخالَ السرورِ علىٰ قلبِ أخيهِ المسلمِ وجبرَ خاطِرِه ، فإنهُ ما عُبِدَ اللّهُ بأفضَلَ مِن جبرِ الخاطر .

ــ وينويَ جبرَ قلبِ الفقيرِ الكسِيرِ بسببِ فقرِه .

ــ وينويَ أن يُخلِصَ له الدُّعاءَ بقولِهِ أو بحالِهِ ويرجوَ قبولَه ؛ لأنهُ يخرُجُ مِن صَمِيمِ قلبِه .

ــ وينويَ لَمَّ شعْثةِ الفقيرِ بصدَقتِه ؛ لأنّ حاجتَهُ تُشتِّتُ عليهِ أمرَهُ غالباً .

ــ وينويَ جمْعَ هَمِّهِ علىٰ الطاعةِ إن كانَ مِن أهلِها ؛ لأنهُ قلَّ أن تَصفوَ لعبْدٍ عبادتُهُ ونفْسُهُ تطالبُهُ بشيء .

ــ وينويَ جمْعَ قلبِهِ علىٰ اللّهِ بكفايةِ مُهمِّهِ إن كانَ مِن أهلِ القلُوب . قالَ الشافعيُّ رحِمَهُ اللّه : لو اِحتَجنا لبصَلة ، ما عرفْنا مسألة .

ــ وينويَ أنّ اللّهَ يرحَمُهُ برحمتِهِ للفقير ، فإنّ لهُم دولةً يومَ القيامة .

ــ وينويَ عسىٰ يُشفَعُ لهُ يومَ القيامة ؛ لأنهُ جاءَ أنّ لكلِّ مؤمنٍ شفاعةً يحسُنُ الظنُّ به ، والراجي لا يَخيب .

ــ وينويَ سْترَ عورتِهِ يومَ القيامة . قالَ ﷺ : «مَن سَتَرَ عن أخيهِ المسلمِ عَورتَهُ سَتَرَ اللّهُ عَورتَهُ يومَ القيامة»[1] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٦)، من حديث ابن عباس رضيَ اللّه عنهما . وعند مسلم (٢٥٨٠) من حديث ابن عمر رضيَ اللّه عنهما مرفوعاً : «ومَن ستر مسلماً ستره =

ـ وينويَ إغراسَ حبِّهِ في قلبِهِ بالعطاءِ، وحبُّهُ ينفعُه عندَ اللّهِ من حيثُ إنهُ أحبَّ مسلماً.

ـ وينـويَ إزالـةَ الخبَثِ مِن قلبِهِ عليـهِ إن كان؛ لأنّ فقـراءَ الزمـانِ ربّما حسَدوا الأغنياءَ لِضعْفِ الإيمان، وعدَمِ الثقةِ بالمَنّان، وتلكَ إعانةٌ علىٰ الخيرِ وسلامةٌ لهُ منَ الشرّ.

ـ وينـويَ شُكـرَ نعمـةِ اللّهِ عليـهِ بالكِفـايـةِ وعـدَمِ الحاجـةِ إلىٰ النـاسِ والتصدُّق، قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣].

ـ وينويَ أداءَ حقِّ الفقيرِ عليه، قالَ بعضُ العلماء: إنّ للفقيرِ حقاً في مالِ الغنيِّ غيرَ حقِّ الزكاة.

ـ وينويَ بإعطائـهِ الزيادة؛ لأنهُ جاء: «ما نقَصَ مالٌ مِن صَدَقة»[1]، بل يـزداد: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ [سبأ: ٣٩]، «اللّهُمَّ أعْطِ مُنفِقاً خلَفاً، وأعْطِ مُمْسِكاً تلَفاً»[2].

ـ وينويَ تطهيرَ قلبِهِ منَ البُخلِ ومالِهِ منَ الشُّبهة.

ـ وينويَ جبرَ خـللِ المالِ بتقصيرِهِ في جهـةِ كسْبِهِ كجبْـرِ سجودِ السّهوِ خللَ الصلاة.

ـ وينويَ ثـوابَ اللّهِ وغُفرانَ الذنب؛ لأنهُ ورَدَ أنها تُطفىءُ الخطيئةَ كما

= اللّه يوم القيامة».

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٨٨)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنـه، بلفظ: «ما نقصت صدقةٌ من مال».

(٢) أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلمٌ (١٠١٠)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

يطفىءُ الماءُ النار[١].

ـ وينويَ ـ ببركةِ الصّدقةِ ـ أنّ اللّهَ يُحسِنُ عاقبتَهُ في أهلِهِ ومالِه، لقولِه ﷺ: «ما أحسَنَ عبدٌ الصّدقةَ إلاّ أحسَنَ اللّهُ الخلافةَ علىٰ تَرِكَتِه»[٢].

ـ وينويَ بصدقتِهِ دفعَ البلاء، لِمَا ورَدَ [مِن قولِ أنسٍ رضيَ اللّه عنه]: «البَلاءُ لا يَتَخطَّىٰ الصّدَقة»[٣]، و[في الحديث]: «إنّ الصَّدَقةَ تَسُدُّ سبعينَ باباً منَ الشَّرِّ والبَلاء»[٤]. والشرُّ علىٰ أنواعٍ لا تُحصىٰ، فمِن ذلك: البلاءُ في الجِسمِ: كالأمراضِ والأسقامِ جميعِها، وفي القلبِ كالشكِّ والكِبْرِ والحسَدِ ومحبّةِ الدنيا وسُوءِ الظنِّ وغيرِ ذلكَ من الخبائثِ والمُهلِكات، ومِن أعظَمِ الشرورِ تسلُّطُ الناسِ والنفْسِ والشيطانِ والهمومِ والغمومِ والعَينِ وكلِّ شيء، وجميعُ ذلكَ تدفَعُهُ الصّدَقةُ لوجهِ اللّهِ تعالىٰ.

ـ وينويَ حِفظَ الفقيرِ مِن غِيبتِهِ وطُولِ اللسانِ فيهِ إذا لم يُعطِه، فإنّ ذلكَ مِن ضروراتِ المنْعِ غالباً.

ـ وينويَ أن يقتديَ بهِ الغيرُ إذا رآهُ تصدّقَ إن أمِنَ الرِّياءَ، والعمدةُ: الصِّدقُ وعدَمُ المَنِّ والأذىٰ ورؤيةِ المِنّةِ للفقير، حيثُ استفادَ بسببِهِ هذهِ الفوائدَ العظيمةَ والعوائدَ الجسيمة، ولو عدِمَ الفقيرَ لعَدِمَ هذهِ الخيرات.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٥: ٢٣١)، وغيرهم، من حديث معاذ بن جبل رضيَ اللّه عنه. قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح.

(٢) أخرجه ابنُ المبارك في «الزهد» ص٢٢٧، من حديث الزهري مرسَلاً. قال العراقي: بإسنادٍ صحيح. «فيض القدير» (٥: ٤١٣).

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن» (٤: ١٨٩) موقوفاً علىٰ أنس رضيَ اللّه عنه. وأخرجه في «الشعب» (٣: ٢١٤) مرفوعاً. وذكر في «السنن» أن المرفوع وهمٌ.

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤: ٢٧٤ برقم ٤٤٠٢)، من حديث رافع بن خديج رضيَ اللّه عنه، بلفظ: «.. سبعين باباً من السوء..».

وإذا استحضرَ جميعَ هذهِ النياتِ عندَ التصدُّق، أثابَهُ بكلِّ نيةٍ ثواباً آخَر. ولعلّ هذا إن شاءَ اللّهُ مِن معنىٰ قولِهِ ﷺ: «درْهَمٌ سبقَ مئةَ ألفِ درْهم»[1]. وفضلُ اللّهِ واسع، ووراءَ هذهِ النياتِ نياتٌ كثيرةٌ تتيسَّرُ لأهلِ القلوبِ لا تُحصىٰ، وهذهِ تيسّرتْ لي في الوقتِ الحاضرِ مِن فضلِ اللّه، عسىٰ اللّهُ أن ينفَعَ بها مَن وفّقَهُ اللّه، والتوفيقُ بيدِ اللّه. انتهىٰ. مِن كتابِ «مجمَعِ البحرَين».

ـ تعليمُ العِلمِ والدعوةُ إلىٰ اللّه:

جاءَ في «تثبيتِ الفؤاد» عنِ الحبيبِ القُطبِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفعَنا به، فيما ينويهِ الدّاعي إلىٰ اللّهِ ويقالُ عندَ الدّرس، قال: ينوي بقلبِهِ التعلُّم، والتعليمَ والمُذاكَرةَ والتذكير، والنّفعَ والانتفاع والاستفادةَ والإفادة، والحثَّ علىٰ التمسُّكِ بكتابِ اللّه تعالىٰ وسُنّةِ رسولِهِ ﷺ، والدعاءَ إلىٰ الهُدىٰ، والدِّلالةَ علىٰ الخيرِ ابتغاءَ وجهِهِ ومَرْضاتِهِ وقُربِهِ وثوابِهِ سبحانَهُ وتعالىٰ.

قلت: وعن بعضِ العارفينَ رضِيَ اللّهُ عنهُم قال: ينبغي للعالِمِ أن يكونَ تعليمُهُ لوجهِ اللّهِ تعالىٰ لا يريدُ بذلك: رياءً ولا سمعةً ولا رسْماً ولا عادةً ولا زيادةَ جاهٍ ولا حُرمة، وإنما يريدُ نشْرَ العِلم، وتكثيرَ الفقهاء، وتقليلَ الجهَلة، وإظهارَ دِينِ اللّه، وإقامتَهُ سُنةَ رسولِ اللّهِ ﷺ، وتشييدَ قواعِدِ الإسلام والفرقَ بينَ الحلالِ والحرام، ويكونُ مُخلِصاً في ذلكَ راغباً في الآخرةِ ومُتيقناً لِمَا وعَدَ اللّهُ العلماءَ العاملينَ منَ الثوابِ في الآخرة، وراجياً ثوابَهُ وخائفاً مِن عقابِه.

وذكَرَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّه، أنهُ ينبغي للداعي إلىٰ اللّهِ أن يكونَ عزمُهُ وهِمتُهُ أن يدعوَ الناسَ منَ الدنيا إلىٰ الآخرة، ومنَ المعصيةِ إلىٰ الطاعة، ومِن

---

(١) أخرجه النسائي (٢٥٢٧)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

الحِـرصِ إلىٰ الزّهد، ومنَ البُخلِ إلىٰ السّخـاء، ومنَ الشكِّ إلىٰ اليقين، ومنَ الغفلةِ إلىٰ اليقَظة، ومِنَ الغرورِ إلىٰ التقوىٰ. انتهىٰ.

ـ الصّلاةُ علىٰ النبيِّ ﷺ وعلىٰ آلِه:

قالَ الإمامُ الشيخُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ نفعَ اللّهُ به: يُستحَبُّ أن يبدَأَ المُصلّي علىٰ النبيِّ ﷺ بهذا الدّعاء، فإن لهُ فضلاً عظيماً، وهُوَ هذا:

«اللّهُمَّ إنّي نَويْتُ بصلاتي هـذهِ علىٰ النبيِّ ﷺ محبّـةً فيـه، وشوقاً إليه، وتعظيماً لحقِّه، وتشريفاً لهُ ولكونِهِ أهلاً لذلك، فتقبّلْها اللّهُمَّ بفضلِكَ وجُودِكَ وكرمِـكَ وإحسانِك، وأزِلْ حِجـابَ الغفلـةِ عن قلبـي، واجعَلْنـي مِن عبادِكَ الصالحيـن. اللّهُمَّ زِدْهُ شرفاً علىٰ شرَفِهِ الـذي أوليْتَـهُ، وعـزّاً علىٰ عـزِّهِ الذي أعطيتَـه، ونـوراً علىٰ نـورِهِ الذي منـهُ خلقتَـه، وأَعـلِ مقـاماتِـهِ في مقـامـاتِ المُرسَلين، ودرجتَهُ في درَجاتِ النبيين. وأسألُكَ رِضاكَ والجنّةَ ورِضاهُ يا ربَّ العالَميـن، معَ العافيةِ الدائمـة، في الدِّيـنِ والدنيا والآخـرة، والمـوتَ علىٰ الكتـابِ والسُّنةِ والجماعـة، وكلمةِ الشهـادة، علىٰ تحقيقِهـا مِـن غيرِ تبـديلٍ وتغييـر. واغفِرْ لي ما ارتكبتُهُ بفضـلِكَ وإحسانِـكَ علـيّ، إنـكَ أنـت التوابُ الرحيـم. وصلّىٰ اللّهُ علىٰ سيِّدِنـا محمّـدٍ وآلِـهِ وصحبِـهِ والتابعينَ أجمعيـن، والحمدُ للّهِ ربِّ العالَمين». انتهىٰ. من «شـرحِ راتبِ الإمامِ الحدّادِ» للحبيبِ عَلَوي بنِ أحمدَ بنِ حسنِ بنِ عبدِ اللّهِ بنِ عَلَوي الحدّاد.

ـ الزَّواج:

ذَكَرَ الفقهاءُ رحِمَهمُ اللّهُ أنهُ يُستحَبُّ أن ينويَ المتزوِّجُ بالنِّـكاحِ: إقامةَ السُّنّـة، وغَضَّ البصَر، وطلَبَ الولَـدِ ليُـكثِّرَ بهِ أهلَ الإسلام، ولموافقتِهِ محبّةَ اللّه، بالسَّعيِ في تحصيلِهِ لبقاءِ جنسِ الإنسان، ولطلَبِ محبّةِ رسولِ اللّهِ ﷺ في تكثيرِ مَن بهِ مُباهاتُه، وطلَبِ التبرُّكِ بدعـائه، وطلَبِ شفاعتِهِ إن ماتَ صغيراً،

وعفافَ الزواجِ وقضاءَ حقِّهِ مِن حيثُ الجُملة، والقيامَ بنفقةِ الأهلِ والأولاد، ونحوَ ذلكَ مِنَ المقاصِدِ الشرعيّة؛ لأنّ النِّكاحَ يكونُ عبادةً بهذهِ المقاصدِ وأشباهِها، فيُثابُ عليهِ ثوابَ العبادات، وإلا فهُوَ مِنَ المُباحاتِ التي لا ثوابَ فيها، كأنْ يكونَ قصدُهُ مجرَّدَ اللّهْوِ والتمتّعِ أو تحصيلِ مالٍ أو نحوِه. انتهىٰ.

ومثالُ النيةِ في التزويجِ أن يقول:

ـ نَويتُ بهذا التزويجِ محبّةَ اللّهِ عزَّ وجَلّ، والسعيَ في تحصيلِ الولَدِ لبقاءِ جنسِ الإنسان.

ـ ونويتُ محبّةَ رسولِ اللّهِ ﷺ في تكثيرِ مَن بهِ مُباهاتُه، لقولِهِ ﷺ: «تناكَحُوا تكْثُروا، فإنِّي مُباهٍ بكُمُ الأُممَ يومَ القيامة»[1].

ـ ونويتُ بهِ التبرُّكَ بدُعاءِ الولدِ الصالحِ بعدي، وطلبَ الشفاعةِ بموتِهِ صغيراً إذا ماتَ قبلي.

ـ ونويتُ بهِ التحصُّنَ منَ الشيطان، وكسرَ التّوَقان[2]، ودفْعَ غوائلِ الشرّ، وغضَّ البصَر، وقلّةَ الوَسواس.

ـ ونويتُ بِهِ حفْظَ الفرْجِ مِنَ الفواحِش.

ـ ونويتُ بِهِ تَروِيحَ النفْسِ وإيناسَها بالمُجالَسةِ والنّظَرِ والمُلاعَبة، إراحةً للقلبِ وتقويةً لهُ علىٰ العبادة.

---

(١) أخرجه الشافعي في «الأم» (٥: ١٤٤) بلاغاً، وعبد الرزّاق في «المصنَّف» (٦: ١٧٣) مرسلاً. وعند ابن ماجه (١٨٤٦) من حديث أبي هريرةَ مرفوعاً: «تزوّجوا فإني مكاثرٌ بكم». ولأبي داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٦: ٦٥ ـ ٦٦)، وغيرهما من حديث معقل بن يسار مرفوعاً: «تزوجوا الولود الودود، فإني مكاثرٌ بكم الأمم».

(٢) أي: شدة الشوق والتطلُّب للوقاع.

ـ ونويتُ بهِ تفريغَ القلبِ عن تدبيرِ المنزل، والتكفُّلِ بشُغُلِ الطّبخِ والكنْسِ والفرْشِ وتنظيفِ الأواني وتهيئةِ أسبابِ المعيشة.

ـ ونويتُ بهِ مُجاهدةَ النفْسِ ورياضتَها بالرِّياسةِ والوِلاية، والقيامَ بحقوقِ الأهلِ والصبرَ علىٰ أخلاقِهنَّ واحتمالَ الأذىٰ منهُنّ، والسعيَ في إصلاحِهنَّ وإرشادَهنَّ إلىٰ طريقِ الخير، والاجتهادَ في طلبِ الحلالِ لأجلِهنّ، والأمرَ بتربيةِ الأولاد، وطلبَ الرّعايةِ منَ اللّهِ علىٰ ذلك.

ـ ونويتُ هذا وغيرَهُ ـ مِن جميعِ ما أتصرَّفُ وأقولُهُ وأفعَلُهُ في هذا التزويجِ ـ للّهِ تعالىٰ.

ـ ونويتُ بهذا التزويجِ ما نواهُ عبادُ اللّهِ الصالحونَ والعلماءُ العاملون. اللّهُمَّ وفِّقْنا كما وفّقتَهم، وأعِنَّا كما أعنتَهم. انتهىٰ. أفادَ ذلكَ الإمامُ عيْدَروسُ ابنُ حسينٍ العيدروسُ[1] نفعَ اللّهُ به، في كتابِهِ «الكواكبِ الدُّرّية».

وفي «تثبيتِ الفؤاد»، عنِ الحبيبِ عبدِ اللّهِ الحدّادِ رضِيَ اللّهُ عنه: أنهُ ذكَرَ الجُدَرِيَّ الذي حصَلَ في حضرَموْتَ وقد ماتَ كثيرٌ منَ الصّغار. فقال: ولعلّ هذا الموتَ الحاصلَ منهُ بسببِ أمور، كشُبهةٍ إن لم يكنْ زناً أو عدَم تنزُّهٍ في الوِقاعِ أو عدَم ذكْرِ اللّهِ عندَه، وأينَ الناسُ اليومَ؟ قد غفَلوا جدّاً، أقلُّ الحالِ أنهُ لم يقصِدْ بالنِّكاحِ السُّنةَ أو العفافَ أو كفَّ بصَرِه، وإنّما مُرادُهُ مجرّدُ الشهوة، واشتغلوا بأولادِهم عنِ اللّه. وقد ذُكِرَ أنهُ حصَلَ مرةً في مصرَ موتٌ

---

(١) الحبيب المعمَّر العارف باللّه بقية السَّلف، عيدروس بن حسين بن أحمد بن عمر بن أحمد العيدروس، ولد بـ(الحَزْم) سنةَ ١٢٤٤هـ، وتوفي بالهند سنةَ ١٣٤٦هـ. طلب العلم علىٰ والده وعمّه وعلىٰ علماء شبام ودوعن. كان من كبار أهل عصره، صاحب جاهٍ وحشمة وصدارة، عاقلاً قوي الجنان ذا هيئة وهيبة. وله في «صلة الأخيار» للحبيب عمر بافقيه ص٨٩ ـ ١٣٩ ترجمة واسعة ومكاتبات كثيرة.

ذَرِيعٌ وفيها الشيخُ أبو عبدِ اللّهِ القُرشـيّ، وكانَ منَ الأكابر، فدَعا اللّهَ في رفْعِ ذلكَ وتشفَّـعَ لهُم، فسَمِعَ صوتَ قائلٍ يقـول: لا تأسَفْ علىٰ هؤلاء، فكلُّ مَن رأيتَهُ ماتَ هُوَ ولدُ زِناً، فخرَجَ مِن مصرَ قاصداً إلىٰ الخليل، فلمّا قرُبَ منهُ تلقّاهُ الخليلُ عليهِ السـلامُ فقال: يا نبيَّ اللّه، واللّهِ ما أريـدُ قِرائي منكَ إلا أن تشفَعَ لأهلِ مصر، فشفَعَ فيهِم فشفّعَهُ اللّهُ ورُفِعَ عنهُم ذلك. انتهىٰ.

ـ اكتِسابُ المال:

هذهِ أبياتٌ لسيّدِنا الإمامِ أحمدَ بنِ عمرَ بنِ سُميطٍ رضِيَ اللّهُ عنه، في عَدِّ الوجـوهِ والمَقاصِدِ الحسَنةِ التي يكونُ اكتسابُ المالِ مِن أجلِها قُربة. قالَ نفَعَ اللّهُ به:

لِمَنْ نطلُـبُ الدُّنيـا إذا لـم نُرِدْ بها ... سُرورَ شفيعِ الخَلْقِ في حِينِ نُحشَرُ

لِمَنْ نطلُـبُ الدُّنيـا إذا لم نُـرِدْ بها ... رضـا اللّـهِ عنّـا والشريعـةَ نَنْصُرُ

لِمَنْ نطلُـبُ الدُّنيـا إذا لم نُـرِدْ بها ... مـواصلـةَ الأرحـام والهَجْـرَ نَهجُرُ

لِمَنْ نطلُـبُ الدُّنيا إذا لم نُـرِدْ بها أنْـ ... ـتِعـاشَ عِمـادِ الـدِّيـنِ فِينـا ونَنْشُـرُ

لِـذَلِكَ فـي أهـلِ السَّـوادِ جميعِـهـمْ ... وأهـلِ بَـوادِينـا الحُمُـومُ وصَيْعَـرُ

لِمَنْ نطلُبُ الدُّنيا إذا لـم نَجُدْ بها ... لتعليـمِ أحكـامِ الْوُضُـو مَـنْ يُغيِّرُ

وأحـكـامِ غُسـلٍ مـعَ حكـمِ تيـمُّـمٍ ... وأحكامِ حَيْضٍ كالنجاساتِ تُقْذَرُ

لِمَنْ نطلُبُ الدُّنيـا إذا لم نُعِنْ بها الّـ ... ـذينَ لِمَـا بيـنَ العشـاءينِ يَعمُـرُوا

بمَجلسِ عِلـمٍ أو بـدرسِ قـرانٍ اوْ ... صـلاةٍ بـآدابٍ لهـا ليـس تُهْجَـرُ

لِمَنْ نطلُبُ الدُّنيا إذا لم نَـكُنْ بها ... نُطيِّـبُ بيـتَ اللّـهِ بـل وتُـنَـوِّرُ

لِمَنْ نطلُـبُ الدُّنيا إذا لـم نَجُـدْ بها ... لتأديـبِ أطفـالٍ إلىٰ حيـنَ يَـكبُرُوا

لِيُهْـدَوا إلـىٰ مـا فيـهْ سلامـةُ دِينِهـم ... وذلـكَ فخـرٌ لا يُـدانيـهِ مَفْخَـرُ

لِمَـنْ نطلُـبُ الدُّنيا إذا لـم نَجُـدْ بها ... إذا أقبلَـتْ وقتـاً وإذْ هـيَ تُـدبِـرُ

فلا الجـودُ يُفْنِيهـا إذا هِـيَ أقبلَتْ ولا البُخْـلُ يُبقِيْهـا إذا هـيَ تَنفِـرُ

انتهتِ الأبياتُ المُبارَكَة، نفَعَنا اللّهُ بقائلِها في الدنيا والآخِرة[1].

وفي «مجموع كلام» الحبيبِ العارفِ باللّهِ عبدِ اللّهِ بنِ حسينِ بنِ طاهرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قـال: مَن با يطلُبِ الدنيا يُصلِـحْ نيتَهُ أولاً في طلبِهـا؛ لأنّ النيةَ صلاحُها رأسُ الأمرِ كلِّهِ في كلِّ شيء.

قالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ زينٍ الحبَشيُّ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: أنا با أطلب الدنيا بأربعةِ شروط:

الأوّلُ: أن تُيسَّرَ لي مِن وجهٍ حلال، بأنْ لا أرتكبَ حراماً ولا شُبهة.

الثاني: أن يُوفّقَني اللّهُ لإخراجِ الحقوقِ الواجبةِ منها إذا تيسّرت، كالزّكاةِ والنفَقةِ لأهلِها وصِلةِ الأرحامِ والأقربين.

الثالثُ: أن لا أشتغلَ بسببِها عن حضورِ الجمُعةِ والجماعاتِ ومجالسِ العِلمِ وأهلِ الفضْل، بل تكونُ عوْناً لي علىٰ الفَراغِ لذلك.

الرابعُ: أن يُوفّقَني اللّهُ لصَرْفِها في مَصارِفِها المُستحِقّة. انتهىٰ.

ـ تشييعُ الجنائز:

وقالَ الحبيبُ أحمدُ بنُ زَينٍ الحَبَشيُّ نفَعَ اللّهُ به: ينبغي لمَن يُشيّعُ جِنازةَ مسلـمٍ أنْ ينـويَ بذلكَ قضاءَ حـقِّ الميّتِ، وجبـرَ خاطرِ الحـيّ، لكونِـهِ يفرَحُ بذلك، وتكونُ نيتُـهُ في جبـرِهِ وجْهَ اللّهِ تعالىٰ فقطْ دونَ عرَضٍ آخرَ مِن نفعٍ أو دفْعٍ عاجـل، فالعُمـدةُ النيةُ الصالحـة، فلا فرْقَ بينَ أبنـاءِ الدنيا وأبنـاءِ الآخرةِ

---

(١) وهي مختارة من قصيدة رائية طويلة للحبيب أحمد بن عمر بن سميط في «ديوانه» ص٨١ ــ ٩٨.

إلاّ بالنيّات، ولا عُمدَةَ علىٰ الظواهرِ وإن توافَقتْ منَ الفريقَين، والنيةُ الصالحةُ باللّهِ الاستعانةُ وللّهِ إخلاصٌ ومنَ اللّهِ عطيّة، وليستْ إلا خَطْرةً تخطُرُ في القلب. انتهىٰ.

ـ تلاوةُ القرآنِ والأذكار:

قالَ الحبيبُ الإمامُ عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ نفعَ اللّهُ به: ينبغي للعبدِ ـ إذا قرَأَ شيئاً منَ القرآنِ وشيئاً منَ الأَذكار، التي ورَدَ فيها أنّ مَن قرَأَها يكونُ لهُ كذا منَ المطالبِ الدّنيويةِ أو يُدفَعُ عنهُ كذا منَ البلِيّاتِ الدّنيوية، كما ورَدَ أنّ سُورةَ «الواقعة»: مَن قرأَها لم تُصِبْهُ فاقة، إلىٰ غيرِ ذلكَ ممّا ورَدَ مِن هذا القَبيل ـ أن ينويَ بقراءةِ ذلكَ امتثالَ الأمرِ وطلبَ الأجرِ الأُخروِيِّ والتعبُّد، ويكونُ مقصودُ العاجلةِ تبعاً لذلكَ لا أصلاً. انتهىٰ.

تنبيه:

من لا يُحسِنُ النيةَ يقلِّدُ الأكابرَ منَ السلَف، وينوي ما نوىٰ، فيقولُ عندَ شُروعِهِ في العمَلِ بعدَما يستحضِرُ ما استطاعَ منَ النيات: نوَيْتُ بهذا العمَلِ ما نوىٰ سيّدُنا الفقيهُ المقدّمُ مثلاً.. وفلانٌ وفلان، ممّن يعلَمُ سَعةَ عِلمِهِ ومعرِفتِهِ أو اطّلاعَهُ علىٰ صالحِ النيات. قاله الحبيبُ عَيْدَرُوسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنه.

تنبيهٌ آخَر:

ذكَرَ الإمامُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه الحِرَفَ والأسبابَ وقالَ: ينبغي أن يعمَلَ بنيةِ نفْعِ نفْسِهِ ونفْعِ غيرِهِ ومَن يأتي بعدَه، فإنّ معظَمَ الناسِ اليومَ في بيوتِ الأولينَ وفي أموالِهم.

ثم ساقَ:

حكايةٌ:

عن كسرىٰ أنو شَرْوانَ أنه مرَّ علىٰ رجُلٍ مُسِنٍّ وهُوَ يغرِسُ نخلاً، فقالَ له: لِمَ تغرِسُ وأنتَ في هذا السّنّ، ولعلّكَ لا تُدرِكُ ثمرتَه؟ فقال: «غرَسوا لنا فأكلْنا، ونغرِسُ ويأكُلون»، فأمَرَ لهُ بأربعةِ آلافِ درهم. فقالَ له: إنّ النخيلَ لا تُثمِرُ إلا بعدَ عشرِ سنين، وهذا أثمَرَ لي في ساعةٍ واحدة، فأمَرَ لهُ بمِثلِها وقال: إنهُ رجلٌ حكيم. فقالَ له: إنّ النخيلَ لا يُثمِرُ في السَّنةِ إلا مرةً واحدة، وهذا أثمَرَ لي في يومٍ مرّتَين، فأمَرَ لهُ بأربعةِ آلافٍ ثالثةٍ وقالَ لخازِنه: سِرْ بنا لئلاَّ يُتِمَّ الخِزانةَ علينا. انتهىٰ.

* * *

مطلَبٌ
في مسائلَ شتّىٰ في النيّة

الأُولىٰ:

لو نـوىٰ معَ العبادةِ غيرَها، كسفَـرِ الحجِّ والتجارة، أو نوىٰ الوضوءَ أوِ الغُسلَ والتبرُّد، أو نـوىٰ الصّومَ والتـداويَ ونحوَ ذلك، فالـذي اختارَهُ ابنُ عبدِ السلام أنهُ لا أجْرَ لهُ مُطلقـاً تساوىٰ القصدانِ أم لا. واختارَ الغزاليُّ اعتبارَ الباعثِ علىٰ العمَل، فإنْ كانَ القصْدُ الدنيويُّ هُوَ الباعثَ لم يكنْ فيهِ أجْر، وإن كانَ الدينيُّ أغلبَ كانَ لهُ الأجْرُ بقَدْرِه، وإن تساوَيا تساقَطا. واختارَ هذا القولَ أيضـاً السُّيوطـيُّ كمـا في كتابِهِ «الأشباه»، قال: ففـي «الصحيـح» وغيـرِهِ أنّ الصحابـةَ تأثّمـوا أن يتّجـروا فـي المواسـمِ بمِنـىٰ، فنزلَـتْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] فـي مـوسـمِ الحـج[١]. انتهىٰ.

قلت: واعتمدَ ابنُ حجرٍ الهَيْتَميّ، منَ المتأخّرين، حصولَ الثوابِ بقدْرِ النيةِ مُطلقاً قَلَّ أو ساوىٰ أو غلَب. واللّه سبحانَهُ وتعالىٰ أعلم.

الثانية:

سئلَ سيّدُنا الإمامُ العارفُ باللّه، عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَـعَ بهِ عن التحيّةِ والسلامِ المُعتـادِ مِن النّاسِ علىٰ بعضِهـم، والإجـابةِ عليه: أنهُما قد يكونانِ معَ غفْلةٍ عن مشروعيّتِهما ويكونانِ علىٰ جهةِ العادة، ويدخُلُ في هذا البابِ غيرُهُ ممّا شاكَلَهُ منَ المطلوباتِ شرعاً، فهل يُثابُ علىٰ

---

(١) أخرجه البخـاري (١٧٧٠)، وأبو داود (١٧٣٤)، وغيرهما، من حديث ابن عباس رضيَ اللّه عنهما.

هذا العمَلِ لكونِهِ مطلوباً شرعاً أو لا يُثابُ لكونِهِ أتىٰ بهِ علىٰ جهةِ العادةِ معَ غفْلتِهِ عن مَشروعيّتِه؟

فأجابَ: بأنّ الأعمالَ بالنيّات، فلا يُثابُ إلا إن نوىٰ بهِ السُّنةَ وطلبَ الثوابِ عليهِ علىٰ مذهَبِ إمامِنا الشافعيّ، وأمّا مذهَبُ الإمامِ أبي حنيفةَ فيُثابُ ويكونُ هذا العمَلُ قد شمَلَتْهُ نيةُ الإسلام. انتهىٰ معنىً من «النهرِ المورود».

الثالثة:

قالَ الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ حسينِ بنِ طاهرٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «مجموعِه»، عندَ الكلامِ علىٰ ذمِّ الإسراف: ولَعمْري، وقَعَ مِن كثيرٍ مِنَ الصالحينَ المعروفينَ بالولايةِ مَن أنفَقَ جميعَ مالِهِ واستدَانَ بعدَ ذلكَ شيئاً كثيراً بطريقِهِ ووجهِه، فأنفَقَهُ علىٰ عيالِهِ وسائرِ وجوهِ البرِّ والخيرِ بنيةٍ صالحة، ولم ينفِقْ منهُ حبةً في فضول، فهؤلاءِ يُسلَّمُ لهُم ولمَن كانَ مثلَهم، فقد ذكرَ سيّدُنا الغزاليُّ في «الإحياء»: أنّ بعضَهم فعَلَ وليمةً عظيمةً أسرَجَ فيها ألفَ سِراج، فأنكرَ عليهِ واحدٌ وقال: هذا إسراف! فقالَ له: كلُّ سِراجٍ أسرجتُهُ لغيرِ اللّهِ فأطفئْه، فاجتهَدَ ذلكَ المُنكِرُ علىٰ إطفاءِ سِراجٍ واحدٍ فلم يقدِرْ. انتهىٰ.

الرابعة:

وأفادَ الحبيبُ عيْدَروسُ بنُ عمرَ الحَبَشيُّ نفَعَ اللّهُ بهِ أيضاً، أنّ بعضَ العلماءِ يقول: إنّ نيةَ الإسلامِ تشمُلُ بقيةَ أعمالِ البرّ، فالمرجوُّ أنّ مَن عمِلَ عمَلاً مِن أعمالِ البرِّ المشروعةِ علىٰ لِسانِ النبيِّ ﷺ، أنهُ لا يُحرَمُ الثوابَ عليها وإن لم تحضُرْهُ نيةٌ لذلكَ العملِ بخصوصِه، ويكونُ استحضارُهُ النيةَ فيهِ للكمالِ لا لأصْلِ الثواب. انتهىٰ.

الخامسة:

قال الإمامُ حُجّةُ الإسلامِ الغزاليُّ رحِمَهُ اللّهُ في «الأربعينَ الأصْل»: إنّ المُباحَ قد يصيرُ أفضَلَ منَ العبادةِ إذا حضَرَتْ فيهِ نية، فمَن لهُ نيةٌ في الأكلِ والشربِ ليقوىٰ علىٰ العبادة، وليسَ تنبعِثُ لهُ نيةُ الصّومِ في الحال، فالأكلُ أوْلىٰ له، ومَن ملَّ منَ العبادة، وعَلِمَ أنهُ لو نامَ عادَ نشاطُه، فالنومُ أفضَلُ له، بل لو علِمَ مثلاً أنّ الترفُّهَ ـ بدُعابةٍ وحديثٍ مباحٍ في ساعة ـ يرُدُّ نشاطَه، فذلكَ أفضَلُ منَ الصّلاةِ معَ المَلال، قال ﷺ: «إنّ اللّهَ لا يمَلُّ حتّىٰ تملُّوا»[1]. وقالَ أبو الدّرداء: إني لأستَجِمُّ نفْسي بشيءٍ منَ اللّهو، فيكونُ ذلكَ عوناً لي علىٰ الحق. وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللّهُ وجهَه: روِّحوا النفوس، فإنها إذا أُكرِهَتْ عَيِيت. انتهىٰ.

قلت: وعلىٰ ما ذكَرَهُ يُحمَلُ ما جاءَ عنِ الأفاضلِ من أمورٍ قد يُنكرُها الجاهل، فإنّهم يقلِبونَ المُباحاتِ طاعاتٍ بالنيّاتِ الصالحات، فهُم مُثابُونَ علىٰ جميعِ الحرَكاتِ والسّكَنات.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣، ١٩٧٠)، ومسلمٌ (٧٨٢)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضيَ اللّه عنها.

الباب الثالث

في حقيقة الصّدق وفضله

وفيه أربعة فصول:

الأول: في معنىٰ الصِّدْق وفضله.

الثاني: في عَلاماتِ الصَّادقينَ وأوصَافِهم.

الثالث: في طَرَفٍ من سِيَرِ الصادِقينَ وأخبارِهم.

الرابع: في آفاتِ الصِّدق.



الفصل الأوّل
في معنى الصّـدق وفضله

ـ معنىٰ الصدق :

قـالَ الإمامُ الغزاليُّ رحِمَه اللّه : لفْـظُ الصّـدقِ يُستعمَـلُ في ستةِ معانٍ : صـدقٌ في القولِ، وصدقٌ في النيةِ والإرادة، وصدقٌ في العزْم، وصدقٌ في الوَفاءِ بالعزْم، وصدقٌ في العمَل، وصدقٌ في تحقيقِ مقاماتِ الدِّينِ كلِّها. فمَنِ اتصفَ بالصدقِ في جميعِ ذلكَ فَهُوَ صِدِّيق؛ لأنهُ مبالَغةٌ منَ الصّدق. . . إلىٰ آخرِ ما قال.

وقالَ سيِّدُنا الشيخُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه : وأوّلُ الصّدقِ مُجانبَةُ الكـذِبِ في جميـعِ الأقوال. ثم إنّ للصّدقِ مُدخَلاً في جميعِ الأعمالِ والنياتِ والأحوالِ والمَقامات. ومعنىٰ الصدقِ فيها : الثّباتُ عليها، والإتيانُ بها علىٰ الوجهِ الأكمَلِ الأحوَطِ، معَ بذْلِ الاستطاعةِ ونهايةِ الجدِّ والتشميرِ للّهِ تعالىٰ في الظاهرِ والباطن. انتهىٰ.

قالَ سيّدُنا الإمامُ حامدُ بنُ عمَر حامـد[1] نفَـعَ اللّهُ به : الصّدقُ : الإتيانُ

---

(١) الإمام الشريف العارف باللّه حامد بن عمر حامد باعلوي، من تلاميذ الإمام الحدّاد وعمِّرَ بعده طويلاً. وفاته بتريم سنةَ ١٢٠٩هـ.

بالطاعاتِ علىٰ غاياتِ الكمال، وهُوَ مقامُ الإحسانِ والأدَبِ ترجِعُ حقيقتُهُ إلىٰ ذلك. انتهىٰ.

قالَ بعضُهم: الصادقُ: مَن صدَقَ في أقواله، والصِّدِّيقُ: مَن صَدَقَ في جميع أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِه، وهُوَ تالي درجةِ النُّبوة. قالَ اللّٰهُ تعالىٰ: ﴿ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

ــ فضلُ الصدق من كتاب اللّٰه تعالىٰ:

منَ الآياتِ الدالّةِ علىٰ فضْلِ الصّدقِ والثناءِ علىٰ أهلِهِ قولُ اللّٰه تعالىٰ: ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۞ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٣ ـ ٢٤].

وقد أمرَ اللّٰهُ المؤمنينَ أن يكونوا معَ الصادقين، فقالَ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]. وطالبَ أهلَ الصدقِ بالصّدقِ في صِدقِهِم فقال: ﴿ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٨]، وقالَ تبارَكَ وتعالىٰ: ﴿ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ [محمد: ٢١]. وقد وصَفَ اللّٰهُ أنبياءَهُ بالصّدقِ، فقال في إبراهيمَ عليهِ السلامُ: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١] ومثْلَ ذلك في إدريسَ عليه السلام [مريم: ٥٦].

ــ فضلُ الصِّدق منَ السُّنّةِ الغَرّاء:

وأمّا الأخبارُ الواردةُ في الحثِّ علىٰ الصّدق، فقد قالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: «عليكُمْ بالصِّدق، فإنَّ الصِّدقَ يهدي إلىٰ البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلىٰ الجنَّة، وما يزالُ الرجلُ يَصْدُقُ ويتحرَّىٰ الصِّدْقَ حتىٰ يُكتَبَ عندَ اللّٰهِ صِدِّيقاً. وإياكُم والكَذِب، فإنّ الكَذِبَ يهدي إلىٰ الفُجور، وإنّ الفُجورَ يهدي إلىٰ النّار. وما يزالُ الرجلُ يكذِبُ ويتحرَّىٰ الكَذِبَ حتّىٰ يُكتَبَ

عِنـدَ اللّهِ كذَّاباً»[١].

وقـالَ رسـولُ اللّهِ ﷺ: «تَحـرَّوا الصِّـدقَ، فـإنْ رأيتُـم أنّ الهَلَكـةَ فيـهِ فإنَّ فيهِ النَّجَاة»[٢].

وفـي البـابِ حديثُ توبةِ اللّهِ تعالىٰ علىٰ كعبِ بنِ مالكٍ وصاحبَيهِ رضِيَ اللّهُ عنهُم، وقولُ كعبٍ فيهِ لمّـا اعتذَرَ غيـرُهُ إلىٰ النبـيِّ ﷺ وقبِلَ ﷺ عُذْرَهُم: واللّهِ يا رسولَ اللّه، ما كانَ ليَ مِن عُذر، ما كنتُ قطُّ أقوىٰ ولا أيسَرَ منّي حينَ تخلَّفتُ عنك، فقال ﷺ: «أمَّا هذا فقد صَدَق». الحديث[٣].

قالَ ابنُ القيّمِ في «زادِ المَعاد» ــ بعدَ ذِكْرِهِ قصةَ كعبِ بنِ مالكٍ وتوبةَ اللّهِ عليـهِ وعلىٰ صاحبَيه ــ قال: وفيها عِظَـمُ مِقدارِ الصّـدقِ وتعليـقُ سعادةِ الدنيا والآخـرةِ والنجاةِ مِن شرِّهِما به، فما أنجَـىٰ اللّهُ مَن أنْجىٰ إلا بالصّـدق، ولا أهلَكَ مَن أهلكَ إلا بالكذِب. وقد أمَرَ اللّهُ سبحانهُ عبادَهُ المؤمنينَ أن يكونوا معَ الصـادقيـن، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسَمَ سُبحانَهُ الخلْقَ إلىٰ قِسمَيْن: سُعَداءَ وأشقياء، فجعَلَ السعداءَ هم أهلَ الصّدقِ والتصديق، والأشقياءَ هم أهلَ الكذِبِ والتكذيب. وهُوَ تقسيمٌ حاصرٌ مُطّرِدٌ مُنعكِس، فالسعادةُ دائرةٌ معَ الصّدقِ والتصديق، والشَّقاوةُ دائرةٌ مـعَ الكـذِبِ والتكذيب. وأخبَـرَ سُبحانـهُ أنهُ لا ينفَـعُ العبـادَ يـومَ القيامـةِ إلا

---

(١) أخرجـه البخـاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧)، وغيرهما، من حديث ابن مسعود رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجـه ابن أبي الدنيا في كتـاب «الصمت»، عن منصـور بن المعتمـر رحمه اللّه، مرسَلاً. «فيض القدير» (٣: ٢٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)، من حديث كعب بن مالك رضيَ اللّه عنه.

صِـدقُهـم، وجعَـلَ عِلمَ المُنافقيـنَ الذي تميَّـزوا بهِ هُوَ الكـذبَ: فـي أقـوالِهم وأفعالِهم. فجميعُ ما نعاهُ عليهِم أصلُهُ الكذِبُ في القولِ والفِعل، فالصدقُ بريدُ الإيمـانِ ودليلُهُ ومركَبُهُ وسائقُهُ وقائدُهُ وحِليتُهُ ولِباسُهُ ولُبُّه. فمُضادّةُ الكذبِ للإيمانِ كمُضادّةِ الشِّركِ للتوحيد، فلا يجتمِعُ الكذِبُ والإيمانُ إلا ويطرُدُ أحدُهما صاحبَهُ ويستقِرُّ مَوضِعَه. واللّهُ سبحانهُ أنجىٰ الثلاثةَ بصِدقِهم وأهلَكَ غيرَهم منَ المُتخلِّفِينَ بكَذِبهم، فما أنعَمَ علىٰ عبدٍ مِن نعمةٍ بعدَ الإسلام أفضَلَ منَ الصّدقِ الذي هُوَ غِذاءُ الإسلام وحياتُه، ولا ابتلاهُ ببَليّـةٍ أعظَمَ منَ الكـذِبِ الذي هُوَ مرضُ الإسلامِ وفسَادُه، واللّهُ المستعان. انتهىٰ.

ـــ ومِن كلامِ السَّلَفِ في الصِّدق:

عن ذي النُّونِ المِصْـرِيِّ رحِمَـهُ اللّه: الصّدقُ سيفُ اللّه، ما وُضِعَ علىٰ شيءٍ إلاّ قطَعَه.

وقالَ الحَبيبُ العارفُ باللّهِ أبو بكرٍ بنُ عبدِ اللّهِ العطّاسُ نفَعَنا اللّهُ به: لو أنّ المُريدَ صدَقَ في إرادتِهِ لَوَجَدَ الشيخَ المُسَلِّكَ واقفاً علىٰ بابِ دارِه. انتهىٰ.

وكانَ سيّدُنا الإمامُ عَيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: إنّ السالكَ الصَّـادقَ في سُلوكِه لا بدَّ أن يُقيِّضَ اللّهُ لهُ مَن يُرشِدُه، إمّا ظاهراً وإلاّ باطناً، فقد يكـونُ لـهُ مُلاحِظٌ مِن حيثُ لا يشعُر، وقد يكونُ غائباً لا يعرِفُهُ ولا يجتمعُ به، وقد يكونُ مِن أهلِ البرازخِ الشريفة، ومنهُم مَن تكونُ لهُ المُلاحَظةُ مـنَ النبيِّ ﷺ ويكـونُ شيخَهُ عَلِمَ أو لم يعلَـم، فلا بدَّ للسـالكِ الصّادقِ ممّن يُوصِلُهُ إلىٰ اللّهِ كما تقرَّر. انتهىٰ.

وما أحسَنَ قولَ الحَريري:

عليـكَ بـالصِّـدقِ ولـوْ أنـهُ	أَحـرَقَـكَ الصِّـدقُ بنـارِ الـوَعيـدْ
فابغِ رِضا المَوْلىٰ، فأغبىٰ الوَرىٰ	مَن أسخَطَ المَولىٰ وأَرضىٰ العبيدْ

مسألتان:

الأُولىٰ: سئلَ سيّدُنا الإمامُ العارفُ باللّهِ أحمَدُ بنُ حسنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به عنِ الفرْقِ بينَ الصِّدقِ والإخلاصِ فقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: الصّدقُ: وصْفُ أُناسٍ مخصُوصين، ومِن صفاتِ أهلِ الكمالِ المُرادين، والإخلاصُ: مِن صفاتِ المُريدين. ومِثْلُنا ما يطلُبُ الصّدقَ، بل يطلُبُ العمَلَ أوّلاً؛ لأنّ العمَلَ وظيفةُ الأجسام، والإخلاصَ وظيفةُ القلوب، والصِّدقَ وظيفةُ الأسرار. ولِعزّتِهِ قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة ١١٩] ولم يقل: وكونوا منَ الصَّادقين. فقيلَ له: ما حقيقةُ الصّدقِ في الإقبال؟ قال: أن يكونَ خُلُقاً لا تخلُّقاً. انتهىٰ. مِن «مجموعِ كلامِه».

الثانية: قالَ الإمامُ الشَّعرانيُّ رحِمَهُ اللّهُ في «لواقحِ الأنوارِ القُدسيّة»: فإن قيلَ: فما معنىٰ قولِه تعالىٰ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، فإنّ اللّهَ سمّاهُ صِدقاً فكيف يسأَلُ عنه؟ فالجواب: أنّ المُرادَ بهذهِ الآيةِ: الغِيبةُ والنميمةُ ونحوُهما إذا نقَلَ العبدُ الكلامَ كما سمِعَهُ مِن غيرِ زيادةٍ منهُ وذكَرَ أخاهُ المسلمَ بما فيهِ منَ السُّوء، فهذا وإنْ كانَ صِدْقاً فيُسأَلُ عنهُ ويؤاخَذُ به، فما كلُّ صِدقٍ حقّ، إذِ الصِّدقُ: ما وقَعَ، والحقُّ: ما وجَبَ فِعلُه.

ومعلومٌ أنّ الغِيبةَ والنميمةَ ـــ وإن كانتا صِدْقاً ـــ لا يجوزُ فِعلُهما، إذ ما كلُّ صِدقٍ يجوزُ فِعلُهُ وذِكْرُه، بخلافِ الحقِّ، فافهَم.

قال: واختَلَفوا فيمَن سُئلَ عن شيءٍ يلزَمُ منهُ أذىً لمسلم، كما إذا قالَ لهُ ظالم: أينَ فلان؟ أي: حتىٰ يظلِمَهُ بأخذِ مالٍ أو ضربٍ ونحوِهما، هل يَصدُقُ أو يقول: لا أعلَمُ طريقَهُ ويورِّي عن ذلك؟ فقالَ بكلٍّ منهُما قوم. والمُختارُ جَوازُ الكذِب، بل وجوبُه. وقد وقَعَ للشيخِ شِهابِ بْنِ الأُقَيطِعِ

البُـرْلُسِيِّ[1] أنهُ كانَ ينسَـخ، فدخَلَ عليهِ شخصٌ مِن قُطّاعِ الطريقِ وجماعةُ الوالـي وراءَهُ يطلُبونَـه، فقالَ للشيـخِ: خبِّئْني. فقـال: أُدخُلْ تحتَ رِجْلي! فنزَلَ، فجاءَ جماعةُ الوالي، فقالـوا للشيـخ: هل رأيتَ فلاناً؟ فقال: نعمْ، فقالوا: أينَ هُو؟ فقال: تحتَ رجْلي! فضحِكوا وترَكوه. وقالَ لقاطعِ الطريق: «الصِّدقُ يُنْجي». انتهىٰ كلامُ الشَّعراني.

❊ ❊ ❊

---

(١) لعله الشيـخ شهاب الدين البرلسي الشافعـي الملقـب بـ(عميرة)، أحد شيوخ الإمام الشعراني، المترجم له في «الطبقات الصغرىٰ» للشعراني ص٧٢ ــ ٧٣.

الفصل الثاني
في علامات الصّادقين وأوصافهم

عنِ الحارثِ المُحاسِبيِّ رحِمَهُ اللّهُ قال: الصَّادقُ هُوَ: الذي لا يُبالي لو خرَجَ كلُّ قدْرٍ لهُ في قلوبِ الخلْقِ مِن أجلِ صَلاحِ قلبِه، ولا يحبُّ اطّلاعَ الناس علىٰ مَثاقيلِ الذرِّ مِن حسَنِ عمَلِه، ولا يكرَهُ اطّلاعَهم علىٰ السيِّىءِ مِن عملِه؛ لأنَّ كَراهتَـهُ ذلكَ دليلٌ علىٰ أنهُ يحبُّ الزيادةَ عندَهم، وليـسَ هذا مِن أخلاقِ الصِّدِّيقين.

وقالَ أيوبُ السَّخْتِـيانيُّ رحِمَهُ اللّه: واللّهِ ما صدَقَ اللّهَ عبدٌ إلاّ سَرَّهُ أنْ لا يُشعَرَ بمكانِه.

وعن أبي القاسمِ الجُنَيدِ بنِ محمّدٍ رحِمَهُ اللّهُ قال: الصَّادقُ يتَقلَّبُ في اليومِ أربعينَ مرة، والمُرائي يَثبُتُ علىٰ حالةٍ واحدةٍ أربعينَ سنة!

قال الإمامُ النوَويُّ رحِمَهُ اللّهُ في معنىٰ ذلك: إنّ الصّادقَ يدورُ معَ الحقِّ حيـثُ دار، فـإذا كانَ الفضْلُ الشرعـيُّ في الصـلاةِ مثلاً صَلّـىٰ، وإذا كـانَ في مُجالَسةِ العُلَماءِ الصَّالحيـنَ والضِّيفانِ والعِيالِ، وقضاءِ حاجةِ مُسلمٍ وجبْرِ قلبٍ مكسورٍ ونحوِ ذلكَ، فعَلَ ذلكَ الأفضَلَ وترَكَ عادتَه، وكذلكَ: الصّيامُ والقراءةُ والذِّكْرُ، والأكلُ والشُّربُ، والجِدُّ والمَـزْحُ، والاختلاطُ والاعتزالُ والابتذالُ، ونحوُها، فحيثُ رأىٰ الفضيلةَ الشرعيّةَ في شيءٍ مِن هذا فعَلَه، ولا يرتبِطُ بعادةٍ

ولا بعبادةٍ مخصُوصةٍ كما يفعَلُهُ المُرائي. انتهىٰ. مِن «شرحِ المُهذَّب».

وقالَ سهلُ بنُ عبدِ اللّهِ التُّسْتَريُّ رحِمَهُ اللّه: مِن أخلاقِ الصِّدِّيقينَ أنْ لا يحلِفوا باللّهِ: لا صادقينَ ولا كاذبين، ولا يَغتابونَ ولا يُغتابُ عندَهم، ولا يُشبِعونَ بطونَهم، وإذا وَعَدوا لم يُخلِفوا. انتهىٰ. وقيلَ لهُ رحِمَهُ اللّه: ما أصلُ هذا الأمرِ الذي نحنُ فيه؟ فقال: الصِّدقُ والسَّخاءُ والشجاعة. انتهىٰ.

* * *

وقالَ سيّدُنا الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّاد رضِيَ اللّهُ عنه: السالكُ الصَّادقُ لا يزالُ في مَزيدٍ منَ المعرفةِ والعبادةِ إلىٰ أن يخرُجَ منَ الدنيا، وذلكَ علامةُ صِدقِه، فإذا ظهَرَ عليهِ أثَرٌ منَ التقصيرِ دلَّ ذلكَ علىٰ وقوفِهِ أو علىٰ فُتورِهِ كما قالَ أبو سُليمانَ رحِمَهُ اللّه: «لو وَصَلُوا ما رَجَعوا»، يعني إلىٰ الكسَلِ والراحاتِ والمُباحات. انتهىٰ. مِن «مُكاتَبتِه».

كانَ سيّدُنا الإمامُ عَيْدَروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ يحكي عن شيخِهِ الحَبيبِ عبدِ اللّهِ بنِ حُسين بنِ طاهرٍ مثالاً ضرَبَهُ للسالكِ إلىٰ اللّهِ مِن أهلِ الطريق: أنهُ قد تَعرِضُ لهُ وَقْفةٌ ــ أو قال: فَتْرة ــ وقد سارَ أربعينَ ذراعاً، فيرجِعُ إلىٰ حيثُ كان، ثم يعودُ ويرجِعُ للأخْذِ في سلوكِ طريقِه، فيسيرُ عشرينَ ذراعاً، فيظُنُّ أنهُ قد حصَلَ لهُ ستونَ ذراعاً بانضمامِ العشرينَ الأخيرة. انتهىٰ.

وكانَ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: إنّ المُريدَ الصَّادقَ لا يخطُرُ ببالِهِ سوىٰ ذكْرِ محبوبِه، كالعطشانِ الشّديدِ العطَش لا يخطُرُ ببالِهِ إلاّ ذكْرُ الماء، ويذكُرُ عندَ ذلكَ قولَهُ تعالىٰ: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ﴾ [القصص: ١٠]. قالَ أهلُ التفسير: يعني خالياً عن ذِكْرِ كلِّ شيءٍ سوىٰ ذكْرِ موسىٰ. وهكذا يكونُ المُريدُ الصّادقُ في طلَبِه لمحبوبِه ــ وقِسْ علىٰ ذلكَ كلَّ فاقدٍ لمحبوبٍ مِن محبوباتِهِ ــ الحريصُ علىٰ حصولِهِ عليهِ ولُقْيِهِ له، فإنهُ يبقىٰ كالوَلْهانِ في طلبِه، فلا تظُنَّ

أنّ هذا الشأنَ يحصُلُ بالهُوَيْنَىٰ. انتهىٰ بمعناه.

***

قـالَ الإمـامُ الحَبيـبُ أحمَدُ بنُ زَيْنٍ الحَبَشـيُّ رضِـيَ اللّهُ عنهُ في «شرحِ العَيْـنيّـة»: ولا يتحقَّقُ الصِّـدقُ إلاّ باستواءِ السَّرِيـرةِ والعَـلاَنيَة، فمَـن خالَفَتْ سريرتُهُ عَلاَنيَتَهُ بقصْدٍ منهُ فهُوَ مُراءٍ، وإن كانَ بغيرِ قصدٍ فهُوَ كاذب. ومِن دُعائهِ ﷺ: «اللَّهُـمَّ اجعَلْ سَريرتي خيراً مِن عَلاَنِيَتـي، واجْعَـلْ عَلانِيَتي صَالحة»[1].

قالَ الإمـامُ القُشَيريُّ رحِمَهُ اللّه: أقـلُّ الصّـدقِ استواءُ السِّـرِّ والعَلانية.

وأنشَدَ بعضُهم:

إذا السِّرُّ والإعلانُ في المؤمنِ استوىٰ ... فقد عزَّ في الدّارَينِ واستوجَبَ الثَّنا

فإنْ خـالَفَ الإعـلانُ سـرّاً فما لهُ ... علىٰ سَعْيِهِ فضلٌ سوىٰ الكَدِّ والعَنا

قالَ عبدُ الواحد[2]: كـانَ الحسَـنُ البصْريُّ رحِمَهُ اللّهُ إذا أمَرَ بشيءٍ كانَ مِن أعمَـلِ الناسِ به، وإذا نهىٰ عن شيءٍ كانَ مِن أترَكِ الناس له، ولم أرَ أحداً أشبَهَ سَرِيرتُـهُ بعَلانِيَتِه منهُ رضِيَ اللّهُ عنه. ذكَـرَهُ الإمـامُ الغزاليُّ في «الأربعينَ الأصل».

وقـالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّاد رضِيَ اللّهُ عنهُ في «رسالةِ المُعاوَنة»: وعليكَ، يا أخي، بإصلاحِ سَريرتِكَ حتىٰ تصيرَ خيراً مِن عَلانيَتِكَ

---

(١) أخرجـه الترمذي (٣٥٨٦)، وأبو نعيـم في «الحلية» (١ : ٥٣)، من حديث عمر بن الخطّاب رضِيَ اللّه عنه، وفي سنده مجهول.

(٢) الزاهـد القدوة، الواعظ البليغ، شيخ العُبّـاد، أبو عبيدةَ عبد الواحد بن زيد البصري (ت بعد ١٥٠هـ). صلىٰ الصبـح بوضوء العتمة أربعين سنة. مات جماعةٌ في مجلسه لجلالة وعظه.

الصالحة، وذلكَ لأنّ السريرةَ مَوضعُ نظَرِ الحقِّ، والعلانيةُ مَطمَحُ نظرِ الخلْق. وما ذَكَرَ اللّهُ السرَّ والعلَنَ في كتابِه إلاّ وبدَأَ بذكْرِ السرّ. قالَ بعضُ العارفين: لا يكونُ الصُّوفيُّ صوفياً حتىٰ يكونَ بحيثُ لو طِيفَ بجميعِ ما في باطِنِه علىٰ طبَقٍ في السُّوقِ ما استَحْيا مِن ظهورِ شيءٍ منه... إلىٰ آخرِ ما قال.

وقالَ سيّدُنا العارفُ باللّهِ، الحبيبُ عليُّ بنُ حسنٍ العطّاسُ نفَعَ اللّهُ به: إنّ مَن طَهُـرتْ طَوِيَّـتُهُ وصَفَا باطنُهُ عنِ الغِلِّ والغِشِّ والحِقْـدِ علىٰ المسلمينَ يكونُ أعبدَ أهلِ الأرض، ويكونُ نومُه عبادة.

***

قالَ الشيخُ عليُّ بنُ عبدِ اللّهِ الشاذليُّ[1] رضِيَ اللّهُ عنه: الصادقُ المُوفَّقُ لو كذَّبَهُ أهلُ الأرضِ ما ٱزدادَ بذلكَ إلاّ يقيناً، ولو صدَّقَهُ أهلُ الأرضِ لـم يَزدَدْ بذلكَ إلا تمكينـاً.

ونقَلَ الإمامُ الغزالـيُّ عن بعـضِ العارفينَ أنهُ قال: لا يكونُ الصِّدِّيـقُ صِدِّيقـاً حتىٰ يقولَ سبعونَ صَدِيقـاً مِن أصدقائه: إنهُ زِنْديق! انتهىٰ. أي: لأنهُ خالَفَهـم في أفعالِهـم ومَقاصِدِهـم، فصارَ عـدوّاً لهُم بعدَ أن كانـوا أصدقـاءَ له. وهكذا الإنسـانُ: إذا أرادَ أن يكونَ خيِّراً لا يَترُكونَ لهُ حالَـهُ، ويَسلُقـونَهُ بأَلسنةٍ حِدَاد، خصوصاً في هذا الزمانِ.

قالَ القائل:

وإذا أرادَ اللّـهُ نشْـرَ فَضيلـةٍ ... طُوِيَتْ، أَتاحَ لها لِسانَ حَسُودِ
لولا اشتعالُ النّارِ فيما جاوَرَتْ ... ما كانَ يُعرَفُ طِيبُ نَشْرِ العُودِ

---

(١) وهو الإمام أبو الحسن صاحب الطريقة، تقدمت ترجمته ١٧٢.

الفصل الثالث
في طرف من سير الصادقين وأخبارهم

قالَ حَمدونُ القصّارُ[(١)] رحِمَهُ اللّه: مَن نظَرَ في سِيَرِ السلَفِ عرَفَ تقصيرَهُ وتخلُّفَهُ عن أدنىٰ درَجاتِ الرجال.

قالَ الشيخُ زكريّا الأنصاريُّ رحِمَهُ اللّه: لأنّ الصحابةَ رضِيَ اللّهُ عنهُم بذَلوا أموالَهم وأنفُسَهم في سبيلِ اللّه، وباعوا أنفُسَهم للّه، وصَدَقوا فيما عاهَدوا اللّهَ عليه كما قالَ تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، والتابعونَ بعدَهُم أجهَدوا أنفُسَهم في العلومِ والأعمالِ والإعراضِ عنِ الحُطام، فمَن أمعَنَ النّظَرَ في سِيَرِهم، ثم وزَنَ نفسَه بأَحوالِهم، لم يجِدْها عندَ عُشرِ ما فَعَلوه. انتهىٰ. ذكَرَهُ في «شرحِهِ علىٰ الرسالةِ القشيرية».

وعن أنسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: غابَ عمّي أنسُ بنُ النضْرِ رضِيَ اللّهُ عنهُ عن قتالِ بدرٍ، فقال: يا رسولَ اللّه، غِبتُ عن أوّلِ قتالٍ قاتلتَ المُشركين، لئنِ اللّهُ أشهَدَني قتالَ المُشركينَ لَيَرَينَّ ما أصنَع، فلمّا كان يومُ أُحُدٍ انكشَفَ المسلمون، فقال: اللّهُمَّ أعتذرُ إليكَ ممّا صنَعَ هؤلاء ــ يعني أصحابَه ــ وأبرَأُ

---

(١) الوليُّ المَلامَتيّ، شيخ الصوفيّة، أبو صالح حمدون بن أحمد النيسابوري المعروف بالقصّار (ت٢٧١هـ). والمَلامَتية: تخريب الظاهر، وعمارة الباطن، مع التزامِ الشريعة. من كلام حمدون: لا يجزع من المصيبة إلا مَن اتهم ربّه.

إليكَ ممّـا صنَعَ هؤلاءِ، يعني المُشركيـن، ثـم تقدَّمَ، فاستَقبَلَهُ سعدُ بنُ معاذ، فقال: يا سعدُ بْنَ معاذ، الجنَّةُ وربِّ الكعبة، إنّي أجِدُ ريحَها مِن دونِ أُحُد، ثم مضىٰ فقاتلَ القومَ حتىٰ قُتل. قـالَ أنس: فوجَدْنا بهِ بضْعاً وثمانينَ ما بينَ ضربةٍ بالسيفِ أو طعنةٍ برُمح أو رَميةٍ بسهـم، ووجَدناه قد قُتِلَ ومَثَّلَ بهِ المشركون، فما عَرَفَـهُ أحـدٌ إلا أختَهُ بِبَنانِه. قـالَ أنـس: كنّا نرىٰ هذهِ الآيةَ نزَلَتْ فيهِ وفي أشباهِه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ . .﴾ إلىٰ آخرِها. انتهىٰ(١).

وقولُ أنسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ: «إنّ الآيةَ نزَلَتْ فيهِ وفي أشباهِه» أشارَ بذلك إلىٰ بعضِ مَن أكرَمَهُ اللّهُ بالشهادةِ في غزوةِ أحُد. قالَ الزُّهْريُّ وغيرُه: كانَ يومُ أحُدٍ يومَ بلاءٍ وتمحيص، اختبَرَ اللّهُ عزَّ وجلَّ المؤمنينَ وأظهَرَ بهِ المُنافقينَ ممّن كانَ يُظهِرُ الإسلامَ بلِسانِهِ وهُوَ مُستَخْفٍ بالكُفر، فأكرَمَ اللّهُ فيهِ مَن أرادَ كرامتَهُ بالشهادةِ مِن أهلِ ولايتِه. انتهىٰ.

وممّـن أكـرَمـهُ اللّهُ بالشهـادةِ يـومَئـذٍ: أسَـدُ اللّهِ وأسدُ رسـولِـهِ حمـزةُ ابنُ عبدِ المُطّلبِ سيّـدُ الشهـداءِ رضِيَ اللّهُ عنـهُ، كان الكُفّارُ قد سَلَبوهُ ومَثَّلوا به، وبَقَروا عن بطنِه واستخرَجوا كبِدَه. ولمّا رآهُ النبيُّ ﷺ قتيلاً بكىٰ، فلمّا رأىٰ ما مُثِّـلَ شَهَق. وعن أبي هريـرة: وقَفَ عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ علىٰ حمزةَ وقد قُتِلَ ومُثِّلَ به، فلم يرَ منظَراً كانَ أوجَعَ لقلْبِهِ منه(٢).

ومنهُم: حنْظَلةُ غسيلُ الملائكة، وهُوَ حنظَلةُ بنُ أبي عامرٍ رضِيَ اللّهُ عنه، فإنّـهُ لمّا سمعَ الصّيْحةَ وهُوَ علىٰ امرأتِـه، قامَ مِن فورِهِ إلىٰ الجهادِ ولم يسمَحْ لنفْسِهِ أن يتأخّرَ عن الخروجِ حتىٰ يغتسِل، فاستُشهدَ وهُوَ جنُب، فأَخبَرَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٠٦)، ومسلم (١٩٠٣)، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «الاستيعاب» (١ : ٣٧٤).

رسولُ اللّهِ ﷺ أصحابَهُ أنّ الملائكةَ تُغسِّلُه، ثم قال: «سَلُوا أهلَهُ: ما شأْنُه؟»، فسألوا امرأتَه، فأخبرَتْهُمُ الخبر[١].

ومنهُم: مُصعبُ بنُ عُميرٍ رضِيَ اللّهُ عنه، فعن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنه: أنّ رسولَ اللّهِ ﷺ حينَ انصرَفَ مرَّ علىٰ مُصعَبِ بنِ عُميرٍ وهُوَ مقتول، فوقَفَ عليهِ ودعا له، ثم قرَأَ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ . . .﴾ [الأحزاب: ٢٣] الآية. ثم قال: «اِشْهَدوا أنّ هؤلاءِ شُهداءُ عندَ اللّهِ يومَ القيامة، فائْتوهُم وزوروهُم، فوالذي نفْسي بيدِه، لا يسلِّمُ عليهِم أحدٌ إلىٰ يَومِ القيامةِ إلاّ رَدُّوا عليه»[٢].

وعن عبدِ اللّهِ بنِ جحْشٍ رضِيَ اللّهُ عنه: أنهُ كانَ يقولُ قبلَ يومِ أُحُد: «اللّهُمَّ إنّي أُقسِمُ عليكَ أن ألقىٰ العدوَّ غداً فيقتُلوني، ثم يبقُروا بطْني ويجدَعوا أنْفي وأُذُني ثمَّ تسألَني: بمَ ذاك؟ فأقول: فيكَ يا ربّ. فقُتِلَ رضِيَ اللّهُ عنهُ وفعَلَ العدوُّ بهِ ما طلَب[٣].

وكانَ عمرُو بنُ الجَمُوحِ أعرجَ شديدَ العَرَج، وكانَ لهُ أربعةُ بنينَ شبابٌ يَغزُونَ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ إذا غزا، فلمّا توجَّهَ إلىٰ أُحُدٍ أرادَ أن يتوجَّهَ معَهُ، فقالَ لهُ بنوه: إنّ اللّهَ قد جعَلَ لكَ رُخصة، فلو قعَدْتَ ونحنُ نَكفيكَ وقد وضَعَ اللّهُ

---

(١) أخرجه ابن حبّان (١٥ : ٤٩٦ برقم ٧٠٢٥)، والحاكم (٣: ٢٠٤ ــ ٢٠٥)، والبيهقي في «السنن» (٤ : ١٥)، من حديث عبد اللّه بن الزبير رضيَ اللّه عنهما.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣: ٢٠٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣: ٢٨٤)، من حديث أبي هريرة رضيَ اللّه عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣: ١٩٩ ــ ٢٠٠)، والبيهقي في «السنن» (٩: ٢٤)، وغيرهما، من حديث سعيد بن المسيب مرسَلاً، وصححه الذهبي في تعليقه علىٰ «المستدرك».

عنكَ الجهاد! فأتىٰ عمرُو بنُ الجَمُوحِ رسولَ اللّهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللّه، إنّ بَنيَّ هؤلاءِ يمنَعوني أن أخرُجَ معَك، واللّهِ إني لأرجو أن أُستَشهَدَ فأَطأَ بعَرْجَتي هذهِ الجنّة، فقالَ لهُ رسولُ اللّهِ ﷺ: «أمَّا أنتَ فقد وَضَعَ اللّهُ عنكَ الجهاد» وقالَ لِبنيه: «وما عليكُمْ أنْ تدَعُوه، لعلَّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ أن يرزُقَهُ الشَّهادة»، فخَرَجَ معَ رسولِ اللّهِ ﷺ، فقُتِلَ يومَ أحُدٍ شهيداً. ذكَرَهُ ابنُ القيّمِ في «زادِ المَعاد»[1].

ورَوىٰ ابنُ عبدِ البَرِّ في «الاستيعابِ»: أنهُ لمّا خرَجَ معَ المُجاهدينَ استقبَلَ القِبلةَ وقال: اللَّهُمَّ ارزُقْني الشّهادةَ ولا ترُدَّني خائباً إلىٰ أهلي. فرُزِقَها رضيَ اللّهُ عنه، وحينَئذٍ قالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: «والذي نفْسي بيدِه، إنّ منكُمْ مَن لو أقْسَمَ علىٰ اللّهِ لأبَرَّه، منهُم عمرو بنُ الجَمُوحِ، ولقد رأيتُه يطَأُ في الجنَّةِ بعَرْجَتِه»[2]. انتهىٰ.

رُويَ أنهُ جاءَ رجلٌ منَ الأعرابِ إلىٰ النبيِّ ﷺ، فآمنَ بهِ واتّبعَه، فقال: أُهاجِرُ معَك. فلمّا كانتْ غزوةُ خيبرَ غنِمَ رسولُ اللّهِ ﷺ شيئاً، فقَسَمَهُ وقسَمَ للأعرابيّ، فأعطىٰ أصحابَهُ ما قسَمَهُ وكان يرعىٰ ظهرَهُم، فلمّا جاءَ دفَعوهُ إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قِسمٌ قسَمَهُ لكَ رسولُ اللّهِ ﷺ، فأخذَه، فجاءَ بهِ إلىٰ النبيِّ ﷺ، فقال: ما هذا يا رسولَ اللّه؟ قال: «قِسمٌ قسَمتُهُ لكَ». قال: ما علىٰ هذا اتّبعتُكَ، ولكنِ اتبعتُكَ علىٰ أن أُرمىٰ هٰهنا.

ثم نهَضوا إلىٰ قتالِ العدوّ، فأُتيَ بهِ إلىٰ النبيِّ ﷺ وهُوَ مقتول، فقال؛ «هُوَ هُو؟» قالوا: نعمْ، قال: «صَدَقَ اللّهَ فصَدَقَه»، فكفَّنَهُ النبيُّ ﷺ في جُبَّتِهِ ثم

---

(١) وأخرجه ابن المبارك في «الجهاد» (٧٧)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة»، وغيرهما.
(٢) «الاستيعاب» لابن عبد البر (٣: ١١٦٩).

قدَّمَـهُ فصَلّـىٰ عليه، وكان مِن دُعائهِ له: «اللَّهُمَّ هذا عبـدُكَ، خَرَجَ مُهاجراً في سبيلِكَ، فقُتِلَ شهيداً وأنا عليه شهيد»[١]. انتهىٰ. مِنْ «زادِ المَعاد».

فائدةٌ: في سببِ تلقيبِ سيِّدِنا أبي بكرٍ بالصدِّيق:

لُقِّبَ سيِّـدُنا أبو بكـرٍ بالصِّدِّيق لمبادَرتِه إلىٰ تصديقِ رسولِ اللّهِ ﷺ فيما كان يُخبِرُ».

فعَن عائشـةَ رضِيَ اللّهُ عنها قالت: جاءَ المُشركونَ إلىٰ أبي بكرٍ فقالوا: هلْ لكَ إلىٰ صاحبِك؟ يزعُمُ أنهُ أُسْرِيَ بهِ اللّيلةَ إلىٰ بيتِ المقْدِس. قال: أوَ قالَ ذلك؟ قالـوا: نعـمْ. فقال: لقد صَـدَق. إنّي لأُصدِّقُهُ بأبعـدَ مِن ذلكَ. بخبَـرِ السّماءِ غَدْوَهُ ورَواحَه. فلِذلكَ سُمّيَ الصِّدّيق[٢].

وعن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: لمَّا رَجَعَ رسولُ اللّهِ ﷺ ليلةَ أُسْرِيَ به، فكـانَ بِذِي طُوىٰ، قال: «يا جبريـل، إنَّ قومـي لا يُصَـدِّقُوني». قـال: يُصدِّقُكَ أبو بكرٍ وهُوَ الصِّدِّيق[٣].

وعن أبي يحيىٰ قال: لا أُحصـي كـم سمِعتُ علياً يقولُ علىٰ المِنبَرِ: إنّ اللّهَ سمّىٰ أبا بكرٍ علىٰ لسانِ نبيِّهِ صِدّيقاً.

ورُوِيَ بسَنَـدٍ جيّـدٍ عـن حكيـمِ بـنِ سعْـدٍ قـال: سمِعـتُ عليـاً يقـول ويحلِـفُ: لأَنـزَلَ اللّهُ اسـمَ أبي بكـرٍ منَ السّمـاءِ الصِّـدِّيـق. ذكَـرَ ذلك كلَّـه

---

(١) أخرجه النسائي (١٩٥٣)، من حديث شدّاد بن الهاد رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣: ٦٢)، وغيره، من حديث السيّدة عائشة رضيَ اللّه عنها.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧: ١٦٦)، وغيره، من حديث أبي هريرة رضيَ اللّه عنه.

الحافظُ السيوطيُّ في «تاريخِ الخُلَفاء»[١].

حكاياتٌ في صدقِ السلوكِ إلىٰ اللّه:

قالَ الشيخُ عبدُ القادرِ الجيلاني رضِيَ اللّهُ عنه: بَنَيْتُ أَمري علىٰ الصِّدق، وذلك أنّي خرَجتُ مِن مكةَ إلىٰ بغدادَ أطلُبُ العِلم، فأعطَتْني أُمّي أربعينَ ديناراً وعاهدَتْني علىٰ الصِّدق، فلمّا وصَلْنا أرضَ هَمَذانَ خرَجَ علينا عربٌ فأخَذوا القافلة، فمَرَّ واحدٌ مِنهُم وقال: ما معَك؟ فأخبَرْتُه. فأخَذَني إلىٰ كبيرِهم، فسألَني فأخبَرْتُه. فقال: ما حمَلَكَ علىٰ الصِّدق؟ قلت: عاهدَتْني أُمّي علىٰ الصّدق فأَخافُ أن أَخونَ عهدَنا، فصاحَ ومزّقَ ثيابَهُ وقال: أنتَ تخافُ أن تَخونَ عهدَ أُمِّكَ وأنا لا أَخافُ أن أَخونَ عهدَ اللّه؟ ثم أَمَرَ بردِّ ما أخَذوهُ منَ القافلةِ وقالَ: أنا تائبٌ للّهِ علىٰ يدَيك، فقال مَن معَه: أنتَ كبيرُنا في قطْعِ الطريق، وأنتَ اليومَ كبيرُنا في التوبة. فتابوا جميعاً ببَركةِ الصِّدق. انتهىٰ. مِن «أُنسِ المجالس».

حُكيَ عن الشيخ أحمدَ بنِ أبي الحَواريِّ أنهُ عاهَدَ شيخَهُ أبا سليمانَ الدارانيَّ رضِيَ اللّهُ عنهُما أنْ لا يُخالِفَه في شيء. فلمّا كانَ ذاتَ يومٍ جاءَ وهُوَ مشغولُ القلب، فقالَ له: يا أستاذ، قد حَمِيَ التَّنُّور، فلم يُكلِّمْه، فكرَّرَ عليهِ ذاكَ مِراراً، فلمّا أكثرَ عليه قالَ له: اذهبْ فادخلْ، فذهبَ من عندِه ودخلَ في التنّور[٢]، فلمّا كانَ بعدَ ساعةٍ قالَ الشيخُ أبو سليمان: اِلحَقوا أحمد، فإنهُ

---

(١) «تاريخ الخلفاء» للحافظ السيوطي ص٤٦ ــ ٤٧.

(٢) إحساناً لظنّه باللّه تعالىٰ أنّ الصدقَ في العهدِ يُنجيه، وأنه ببركة صحبتِه للصالحين لا يصيبه سوء، لا أنّ الشيخ يُطاع في المحظور شرعاً، أو أنه معصوم، أو غير ذلك من المعاني المخالفة لعقيدة المسلم ومنهجه، فاقتضىٰ التنبيه.

عاهَدَني أنْ لا يُخالِفَنـي في شيء، فجاءوا إليهِ وأخرَجـوهُ منَ التَّنـورِ ولم تضُرَّهُ النّار. انتهتِ الحِكاية. ذكَرَهُ الإمامُ اليافعيُّ في «نشرِ المَحاسن».



الفصل الرابع
في آفات الصّدق

ـ الآفةُ الأولىٰ: الكَذِب:

قال اللّهُ عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

قالَ الإمامُ النوَويُّ رحمَهُ اللّهُ تعالىٰ، في كتابِهِ «الأذكار»:

قد تظاهَرَتْ نصوصُ الكتابِ والسُّنَّةِ علىٰ تحريمِ الكَذِبِ في الجُمْلة، وهُوَ مِن قبائحِ الذُّنُوبِ وفواحِشِ العُيُوب. وإجماعُ الأُمّةِ مُنعقِدٌ علىٰ تحريمِهِ معَ النصوصِ المتظاهِرة، فلا ضَرورةَ إلىٰ نقْلِ أفرادِها، وإنّما المهِمُّ بيانُ ما يُستَثْنىٰ مِنْهُ والتنبيهُ علىٰ دقائقِه. ويكفي في التنفيرِ منهُ الحديثُ المتفَقُ علىٰ صحّتِه، وهُوَ: ما رَوَيْناهُ في صحيحَيْهما، عن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنه قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «آيةُ المنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أخْلَف، وإذا اؤتُمِنَ خان»[(١)]. انتهىٰ.

قلتُ: وعليه، فالكَذِبُ تعتَريهِ أحكامٌ، قالَ حجّةُ الإسلامِ في «الإحياء»: والضابطُ في ذلكَ أنّ كلَّ مقصودٍ محمودٍ يُمكِنُ التوصّلُ إليهِ بالصِّدقِ والكذبِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (١٠٧)، من حديث أبي هريرةَ رضيَ اللّه عنه.

جميعاً فالكـذِبُ فيهِ حـرام، أو بالكـذِبِ وحدَهُ فمُباحٌ إنْ أُبيحَ تحصيـلُ ذلكَ المقصود، وواجبٌ إن وجَب، كما لو رأىٰ معصوماً اختفىٰ مِن ظالم يريدُ قتْلَهُ أو إيـذاءَه، لوجوبِ عصمةِ دمِـه، أو سـألَهُ ظالمٌ عن وديعةٍ يريدُ أخْذَها، فإنـهُ يجبُ عليهِ إنكارُها وإن كذَب، بل لوِ استُحلِفَ لَزِمَهُ الحَلِفُ ويُورِّي وإلاّ حنِثَ ولزِمَتْهُ الكفّارة، وإذا لم يتِمَّ مقصودُ حربٍ أو إصلاحُ ذاتِ البيْنِ واستمالةُ قلبِ مَجْنيٍّ عليهِ إلا بكذِب، أُبيح. ولو سألَهُ سلطانٌ عن فاحشةٍ وقَعتْ سِرّاً، كزِناً وشُربِ خمر، فلهُ أن يكذِبَ ويقول: ما فعَلْت، ولهُ أن يُنكِرَ سرَّ أخيه. انتهىٰ.

إرشاد:

قالَ سيّـدُنا القطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: الكذِبُ كذِبان: كذِبٌ يختلِقُهُ الإنسانُ بأنْ يقولَ خِـلافَ الواقع، وهذا كذِبُ الفُسّاق، وكذِبٌ في الحالِ، بحيثُ يَدّعي أمراً لو امتُحِنَ فيهِ لكانَ علىٰ خِلافِ ذلك، ولا يَصِيرُ الإنسانُ من الصدِّيقينَ حتىٰ يصدُقَ في الأمرَينِ جميعاً.

ـــ أحكامُ الكذِبِ في روايةِ الحديثِ النبوي:

قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّ كذِباً عليَّ ليسَ ككذبٍ علىٰ أحَد، فمَن كذَبَ عليَّ مُتَعَمِّداً فلْيَتبوَّأْ مقْعَدَهُ منَ النّار»[1].

وفي روايةٍ له: «لاتكْذِبوا علَيَّ، فإنَّهُ مَن يكذِبْ علَيَّ يَلِـجِ النّار»[2].

قالَ الإمامُ النوَويُّ رحِمَهُ اللّهُ في مقدّمةِ «شرحِ مُسلم»: واعلَمْ أنّ هذا الحديثَ يشتمِلُ علىٰ فوائد:

إحداها: تقريرُ هذهِ القاعدةِ لأهلِ السُّنة، وهِيَ: أنّ الكذِبَ يتناوَلُ إخبارَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤)، من حديث المغيرة رضيَ اللّه عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١)، من حديث علي رضيَ اللّه عنه.

العامدِ والساهي عنِ الشيءِ بخلافِ ما هُو.

الثانية: تعظيمُ تحريمِ الكذبِ عليهِ عليهِ الصلاةُ والسلام، فإنهُ فاحشةٌ عظيمة، ومُوبقةٌ كبيرة، ولكنْ لا يُكفَّرُ إلاّ أن يَستحِلَّهُ، هذا هُوَ المشهورُ مِن مذاهبِ العلماء، وقالَ الشيخُ أبو محمّدٍ الجُوَيْنيُّ: يكفَّرُ بتعمُّدِ الكذبِ عليهِ ﷺ. حكىٰ إمامُ الحرَمَينِ أنهُ كانَ يقولُ في درْسِهِ كثيراً: مَن كَذَبَ علىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ عمْداً كفرَ وأُريقَ دمُه، وضعَّفَ إمامُ الحرَمَينِ هذا القولَ وقال: إنهُ هفْوةٌ عظيمة.

الثالثة: أنه لا فرقَ في تحريمِ الكذبِ عليهِ ﷺ بينَ ما كانَ في الإحكامِ وما لا حُكمَ فيه كالترغيبِ والترهيبِ والمَواعِظِ وغيرِ ذلك، فكلُّهُ حرامٌ مِن أكبرِ الكبائر بإجماعِ المسلمينَ الذينَ يُعتدُّ بهم في الإجماع، خلافاً للكَرَّاميّةِ: الطائفةِ المبتدعةِ في زعْمِهم الباطِلِ أنه يجوزُ وضْعُ الحديثِ في الترغيبِ والترهيب، وتابَعَهُم علىٰ هذا كثيرٌ من الجَهَلةِ الذينَ ينسِبونَ أنفُسَهم إلىٰ الزهدِ ويَنسِبُهم جهلةٌ مِثلُهم.. إلىٰ آخرِ ما أطالَ في ذلك.

ثم قال:

الرابعة: يَحرُمُ روايةُ الحديثِ الموضوعِ علىٰ مَن عرَفَ كونَهُ موضوعاً أو غَلَبَ علىٰ ظنِّهِ وضعُه، فمَن روىٰ حديثاً علِمَ أو ظَنَّ وضْعَهُ ولم يبيِّنْ ــ حالَ روايتِهِ ــ وضْعَه، فهُوَ داخلٌ في هذا الوعيد، مُندرجٌ في جُملةِ الكاذِبينَ علىٰ رسولِ اللّهِ ﷺ، ولهذا قالَ العلماء: ينبغي لمَن أرادَ أن يرويَ حديثاً أو ذكَرَهُ أن ينظُر، فإن كان صحيحاً أو حسناً قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ كذا، أو فعَلَهُ، أو نحوَ ذلكَ مِن صِيَغِ الجزْم، وإن كانَ ضعيفاً فلا يقُلْ: قالَ أو: فَعَلَ أو: أمَرَ أو: نهىٰ أو شِبْهَ ذلك، بل يقول: رُويَ عنهُ كذا، أو: جاءَ عنهُ كذا، أو: يُروىٰ أو: يُذكَرُ أو: يُقالُ أو: بلَغَنا وما أشبهَه.

قالوا: وينبغي لقارىءِ الحديثِ أن يعرِفَ منَ النّحوِ واللّغةِ وأسماءِ الرجالِ ما يَسلَمُ بهِ مِن قولِهِ ما لم يقُل. قالوا: وينبغي للراوي وقارىءِ الحديث، إذا اشتَبهَ عليهِ لفظةٌ فقرَأَها على الشكّ، أن يقولَ عُقَيبَه: (أو كما قال). قالوا: ويُستحَبُّ لمَنْ روىٰ بالمعنىٰ أنْ يقولَ بعدَه: (أو كما قال) ونحوَ هذا، كما فعلَتْهُ الصحابةُ ومَن بعدَهم، واللّهُ أعلَم. انتهىٰ معَ حذْف.

* * *

رُويَ أنّ الإمامَ البُخاريَّ رحِمَهُ اللّهُ خَرَجَ يطلُبُ الحديثَ مِن رجل، فرآهُ قد هَرَبَتْ فرَسُهُ وهُوَ يُشيرُ إليها بردائهِ كأنّ فيهِ شعيراً، فجاءَته، فأخَذَها، فقال: أكانَ معَكَ شعير؟ فقال: لا، ولكنْ أوهَمْتُها، فقالَ البُخاري: لا آخُذُ الحديثَ عمّن يكذِبُ علىٰ البهائم. ذكَرَهُ في «أُنسِ المجالِس».

ـ الآفةُ الثانية: الرِّياء:

قالَ اللّهُ تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ٢٠]. وقالَ تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقالَ تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۞ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧].

قالَ بعضُ المُحققِّين: حقيقةُ الرِّياءِ هُوَ: أن تعمَلَ العمَلَ فتقصِدَ بهِ اطِّلاعَ الناسِ عليكَ لتكونَ لكَ عندَهُمُ المنزِلة، وفي قُلوبِهمُ المودّة.

قالَ سيّدُنا الإمامُ العارفُ باللّهِ عليُّ بنُ حسنِ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في «العطيّـةِ الهَنية»: الرياءُ هُوَ: أن تعمَلَ عمَلاً لأجْلِ الخلْق، فهُوَ شِركٌ بغيرِ شكّ، وناهيكَ بها حماقةً أن تُشرِكَ معَ اللّهِ مَن لا ينفَعُ ولا يضُرّ، معَ أنهُ لو علِمَ أنكَ

تقصِدُهُ بهذا العمَلِ سَقَطْتَ مِنْ عَينِه! انتهىٰ.

وقالَ الإمامُ الشَّعرانيّ: سمِعْتُ سيّدي علياً الخوّاصَ رحِمَهُ اللّهُ يقول: إذا راءىٰ العبدُ بعِلمِهِ وعمَلِهِ حبطَ عمَلُهُ بنصِّ الكتابِ والسُّنة، وإذا حبطَ عمَلُهُ كأنهُ لم يعمَلْ شيئاً قطّ، فكيفَ يرىٰ نفْسَهُ بذلكَ علىٰ الناسِ معَ توعُّدِهِ بعدَ الإحباطِ بالعذابِ الأليم؟ فلْيَتنبَّهْ طالبُ العِلمِ لمثْلِ ذلك. انتهىٰ.

قالَ الإمامُ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ: مِن الناسِ مَن يطيعُ ابتغاءَ مرضاتِ اللّهِ والزُّلفىٰ لديْه. ومنهُم طلباً للثواب، ومنهُم خوفاً منَ العقاب. ومنهُم مُراءاةً للخلْق، وهذا هُوَ الهالك. انتهىٰ مع حذف. مِن «غاية القصد والمراد».

ـــ وممّا وردَ منَ الأحاديثِ في ذمِّ الرياء:

عن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: قالَ اللّهُ تبارَكَ وتعالىٰ: «أنا أغنىٰ الشُّرَكاءِ عنِ الشِّرْك، مَنْ عَمِلَ عملاً أشرَكَ فيه مَعِي غَيرِي تركْتُهُ وشِرْكَه»[١].

وعن جُنْدُبِ العَلَقِيِّ قال: قالَ رسولُ اللّه ﷺ: «مَنْ يُسَمِّعْ يُسَمِّعِ اللّهُ بِه، ومَنْ يُرائي يُرائي اللّهُ بِه»[٢].

وعن شدّادِ بنِ أوْسٍ رضِيَ اللّهُ عنه قال: سمعتُ رسولَ اللّه ﷺ يقول: «مَنْ صَلّىٰ يُرائي فقد أشرَك، ومَنْ صامَ يُرائي فقد أشرَك، ومَنْ تصَدَّقَ يُرائي فقد أشرَك»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٧)، وغيره.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤: ١٢٥ برقم ١٧١٤٥).

وعنه، رضِيَ اللّهُ عنه، قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «إنّ أخْوَفَ ما أخافُ علىٰ أُمّتِي الإشراكُ باللّه. أمَا إنّي لستُ أقولُ: يعبُدُونَ شَمْساً ولا قَمَراً ولا وَثَناً، ولكنْ أعمالاً لِغَيرِ اللّه، وشَهْوةً خَفِيّة»[١].

وعن أُبيّ بن كَعْبٍ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «بَشِّرْ هذه الأُمّةَ بالسَّناءِ والرِّفْعةِ والدِّينِ والتمكينِ في الأرض. فمَنْ عَمِلَ منهُم عَمَلَ الآخرةِ للدُّنيا لم يكنْ لهُ في الآخِرةِ نَصيب»[٢].

وقالَ ﷺ: «يا أيُّها النّاسُ، اتّقوا هذا الشِّرْك، فإنّهُ أَخفىٰ مِن دبيبِ النَّمل» فقيلَ: فكيفَ نَتّقيهِ وهُوَ أخفىٰ مِن دبيبِ النّملِ يا رسولَ اللّه؟ فقال: «قولوا: اللّهُمَّ إنّا نعوذُ بكَ أن نُشْرِكَ بكَ شيئاً نعْلَمُه، ونسْتغْفِرُكَ لمَا لا نعْلَمُه»[٣].

وعن الجارودِ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «مَنْ طلَبَ الدنيا بعمَلِ الآخِرةِ طُمِسَ وجْهُهُ، ومُحِقَ ذِكْرُه، وأُثبِتَ اسْمُه في النّار»[٤].

وقالَ عليهِ الصّلاةُ والسّلام: «يُؤتىٰ يومَ القِيامةِ بصُحُفٍ مُختَتَمة، وتُفتَحُ بينَ يدي اللّهِ عَزَّ وجَلَّ، فيقولُ اللّهُ تعالىٰ: أَلقُوا هذهِ واقْبَلوا هذه، وتقولُ الملائكة: وعِزَّتِكَ وجَلالِك، ما رأَينا إلاّ خيراً، فيقولُ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ: إنّ هذهِ كانتْ لغيرِ وجهي، وإنّي لا أقبَلُ إلاّ ما ابتُغِيَ بهِ وجْهي»[٥].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٥)، وغيره.

(٢) أخرجه أحمد وابنُه (٥: ١٣٤)، وغيرهما.

(٣) أخرجه أحمد (٤: ٤٠٣)، وغيره، من حديث أبي موسىٰ الأشعري رضيَ اللّه عنه.

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢: ٢٦٨ برقم ٢١٢٨). قال الحافظ الهيثمي في «المجمع» (١٠: ٢٢٠): فيه من لم أعرفهم.

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣: ٩٧)، والدارقطني في «السنن» (١: ٥١)، من حديث أنس رضيَ اللّه عنه.

وعن ضَمْـرةَ بن حبيبٍ رضِيَ اللّهُ عنـهُ قـال: قالَ رسـولُ اللّهِ ﷺ: «إنّ الملائكةَ يرفَعونَ عمَلَ عبدٍ مِن عبادِ اللّه، فيَسْتكْثِرونَهُ ويُزَكُّونَه، حتّىٰ ينْتَهوا بهِ حيـثُ شاءَ اللّهُ مِن سُلْطانِه، فَيوحي اللّهُ إليهِم: إنَّكُم حَفَظَةٌ علـىٰ عمَلِ عبدِي وأنـا رقِيـبٌ علىٰ ما في نفْسِه. إنّ عبـدِي هذا لـم يُخْلِصْ عمَلَـه، فاكْتُبـوهُ في سِجِّين. ويَصعَـدونَ بعمَلِ عبدٍ من عبادِهِ يَسْتَقِلُّـونَهُ ويَحْقِرونَه، حتىٰ يَنْتَهوا بهِ حيـثُ شاءَ اللّهُ مِن سُلْطانِه، فيوحي اللّهُ إليهم: إنَّكُـم حَفَظَةٌ علىٰ عمَلِ عبدي وأنـا رقيـبٌ علىٰ ما في نفْسِـه، إنّ عبدي هذا أخْلَـصَ لي عمَلَـهُ فاكْتُبـوهُ في عِلِّـيِّين»[1].

ـــ ومِن كلامِ السَّلَفِ في ذمِّ الرِّياء:

قالَ السَّـرِيُّ السَّقَطيُّ رحِمَهُ اللّه: مَن تزيَّنَ للناسِ بما ليسَ فيهِ سقَطَ مِن عينِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالىٰ.

وقالَ الربيعُ بنُ خُثَيْمٍ رحمَهُ اللّه: كيفَ يُرائي العالِمُ بما يَعلَمُ معَ علمِهِ بأنّ كلَّ ما لا يُبتغىٰ به وجْهُ اللّهِ يضمحِلّ؟

قالَ الحسَـنُ البصْـريُّ رضِيَ اللّهُ عنه: صحِبـتُ أقوامـاً إنْ كانَ أحدُهم لَتعرِضُ لـهُ الحِكمة، لو نطَقَ بها لَنفَعَتْهُ ونفَعَتْ أصحابَه، وما يمنَعُـهُ منها إلا الشُّهرة.

وعن أبي يوسُفَ رحِمَهُ اللّه قال: يا قوم، أَريدوا بعِلمِكُمُ اللّه، فإني لم أجلِسْ مجلِساً قطُّ أنوي فيـهِ أن أتواضَـعَ إلاّ لم أقُمْ حتّىٰ أعلُوَهم، ولم أجلِسْ مجلِساً قطُّ أنوي فيهِ أن أعلُوَهم إلاّ لم أقُمْ حتّىٰ أُفتَضَح.

---

(١) أخرجـه ابن المبارك في «الزهد» ص١٥٣، من حديـث ضمـرة بن حبيب رضيَ اللّه عنه.

وقالَ بعضُهم: ما أعرِفُ رجلاً أحبَّ أن يُعرَفَ إلا ذهَبَ دِينُه وافتُضح.

وقالَ آخر: لا يجِدُ حلاوةَ الإيمانِ مَن أحبَّ أن يعرِفَهُ الناس.

وقالتْ رابعةُ العَدَويةُ رضِيَ اللّهُ عنها: أُكتُموا حسَناتِكم كما تكتُمونَ سيئاتِكم. وكانتْ تقول: ما ظهَرَ مِن أعمالي لا أعُدُّهُ شيئاً. انتهىٰ. نقلَهُ في «مرآةِ الجَنان».

***

وكانَ سيّدُنا القطبُ عبدُ الرحمٰنِ بنُ محمّدٍ السقّافُ رضِيَ اللّهُ عنهُ يقول: لا تعتَدَّ بشيءٍ منَ الأعمالِ الظاهرةِ أصلاً. وكانَ يقول: أُوقيَةٌ مِن أعمالِ الباطنِ خيرٌ مِن بُهَارٍ[1] مِن أعمالِ الظاهر. انتهىٰ. مِن «شرحِ العَينيّة».

قالَ سيّدُنا الشيخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَ به: للشّيطانِ علىٰ الإنسانِ مداخِلُ خفيّة، والرياءُ يجري فيهِ مجرىٰ الدّم، أمَا ترىٰ يحيىٰ بنَ مُعاذٍ الواعظَ المشهور، وكانَ مِن كبارِ تلامذةِ أبي يزيدَ البُسطاميِّ وكانَ يرقىٰ للوعظِ علىٰ المِنبَر، قالَ لجاريتِه: إذا جئتُ «بغدادَ» انفتَحَ ليَ الكلامُ في الوعْظ ـــ وكانَ يحضرُها الخلفاءُ والأمُراءُ وأبناءُ الدنيا ـــ وإذا كنتُ في غيرِ «بغدادَ» لم يكنْ مثلُ ذلك. فقالت له: يا سيّدي، هذا بسببِ الرِّياء!

وذكَرَ رضِيَ اللّهُ عنهُ أيضاً أنهُ كانَ بعضُهم قد صَلّىٰ في الصّفِّ الأوّلِ نحوَ أربعينَ سنة، فتخلَّفَ يوماً حتّىٰ ضاقَ الصّفُّ الأوّلُ حتّىٰ لا يُمكنُهُ الصلاةُ إلاّ في

---

(١) البُهار: وحدة وزنية كبيرة قدرها (٣٠٠) ثلاثُمئة رطل مكي، أو (٣٣٣) ثلاثُمئةٍ وثلاثةٌ وثلاثونَ مَنّاً بغدادياً، والأولىٰ تعادل ٢٤٣,٧٥كغم، والثانيةُ تعادل ٢٧٠,٥٦٢كغم. ينظر «المكاييل والأوزان الإسلامية» للمستشرق فالترهنتس، ترجمة: د. كامل العسي، ص (٢٠ ـــ ٢١). و«اللسان»: مادة (بهر).

الصفِّ الأخير، فرأىٰ في نفْسِهِ حياءً حيثُ خالَفَ عادتَهُ فقضىٰ صلاتَهُ في تلك المُدّةِ كلِّها. انتهىٰ.

وله في ذلك ـــ شعراً ـــ رضِيَ اللّهُ عنه:

وزَيِّنِ القلبَ بالإخلاصِ مُجتهداً   واعلَمْ بأنّ الرِّيا يُلقِيكَ في العطَبِ
ونقِّ جيْبَكَ مِن كلِّ العيوبِ، ولا   تدخُلْ مَداخِلَ أهلِ الفِسْقِ والرِّيَبِ

* * *

قالَ عيسىٰ عليهِ السلام: إذا كان يومُ صوْمِ أحدِكُم فلْيدهَنْ رأسَهُ ولِحيتَهُ ويمْسَحْ شفتَيهِ لكي لا يرىٰ الناسُ أنهُ صائم، وإذا أعطىٰ بيمينِهِ فلْيُخْفِ عن شِمالِه، وإذا صلّىٰ فلْيُرْخِ سَتْرَ بابِه، فإنّ اللّهَ يقسِمُ الثناءَ كما يقسِمُ الرِّزق.

قالَ سيّدُنا الإمامُ الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: الوليُّ ما هَمُّهُ ومطلوبُهُ إلا الخفاء، وإن أحَبَّ الظهورَ سُلِب. والأولياءُ لا يُحِبّونَ الاجتماعَ عليهم، ومَن أحبَّ ذلكَ فعندَهُ شُبهةُ رِياء، حتّىٰ أنّ مَن أحبَّ كثرةَ الجمْعِ في جنازتِهِ فهُوَ مُراءٍ طالبٌ شُهرتَه بعدَ الموت. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

* * *

وقد نَظَم بعضُهم ما يترتبُ علىٰ الرِّياءِ فقال:

إنْ خَلَصَ العمَلُ للرِّياءِ   فالإثمُ مِن وجهَينِ فيهِ جائي
إظهارُهُ للناسِ أنّ ذا عمَلْ   وقصْدُهُ غيرَ الإلٰهِ بالعمَلْ
وحيثُ ما الرِّياءُ يرجَحُ علىٰ   قصْدِ الثوابِ فهْوَ إثْمُهُ جَلا
وينتفي الثوابُ في القِسْمَينِ   أمّا لدىٰ التساوي في الأمرَينِ

فيتســاقطــانِ فــي استظهــارِ حُجّــةِ الإســلام فــلا تُمــاري
ويحصُــلُ الثــوابُ لكــنْ ينقُـصُ إن كــانَ ذا العمَـلُ ليـسَ يَخلُـصُ
مــعْ أنــهُ علــىٰ الــرِّيــاءِ رجَحــا مِن مَشرَبِ اليُوسِيِّ[١] هذا وضُحا

ــ أوصافُ المُرائين :

قالَ رسولُ اللّه ﷺ : «مَن أَحسَنَ صلاتَهُ حيثُ يراهُ النّاس ، وأساءَها حيثُ يخلو ، فتلكَ استهانةٌ استَهانَ بها ربَّهُ تبارَكَ وتعالىٰ»[٢] .

قــالَ قَتــادةُ رحِمَهُ اللّه : إذا راءىٰ العبـدُ يقولُ اللّهُ تعــالىٰ : أُنظُروا كيف يستهـزِىءُ بي ! وقالَ عمرُ بنُ الخطّابِ رضِيَ اللّهُ عنـهُ لرجلٍ طأْطـأَ رقَبَتَـه : يا صاحـبَ الرقبةِ ٱرفَعْ رقَبَتَكَ ! ليسَ الخشـوعُ في الرقـابِ ، وإنّمـا الخشوعُ في القلوب .

ورأىٰ أبـو أُمامةَ الباهلـيُّ رضِـيَ اللّهُ عنهُ رجـلاً في المسجـدِ يبكـي في سجودِه ، فقال : نِعْمَ الرجلُ أنتَ لو كانَ هذا في بيتِك ، حيثُ لا يَراكَ الناس .

قــالَ سيّدُنا القطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ــ علىٰ قولِ

---

(١) الإمـام العلاّمة الأديب الفقيه ، المتفنن النـادرة ، الولي العارف ، الحسن بن مسعود اليوسـي المالكي (١٠٤٠ ــ ١١٠٢هـ) ، المنعـوت بغـزالي عصـره ، تعلّم بالزاويـة الـدلائية ، وتنقّل في الأمصار ، وأخذ عن علماء سِجِلْماسة ودرعـة وسوس ومراكش وغيرها ، واشتهر حتىٰ قال العياشيُّ فيه :

من فاتهُ الحسنُ البصريُّ يصحبُهُ فليصحبِ الحسنَ اليوسيَّ يكفيهِ

له مؤلفات متقنة ، منها : «المحاضرات» ، «الكوكب الساطع شرح جمع الجوامع» لم يكمُل ، «ديوان شعر» ، وغيرها .

(٢) أخرجه البيهقي في «السنـن الكبير» (٢ : ٢٩٠) ، من حديـث ابن مسعـود رضيَ اللّه عنه .

الإمـامِ جعفرِ الصّادق: «مَن خانَ في السَّتْرِ هُتِكَ سَتْرُهُ في العَلانية» ـ أي: إذا كانَ يُحسِـنُ الصـلاةَ في الملإِ معَ الناسِ أكثـرَ منهُ خالياً، ويُرائِـي ويُـرىٰ في الملإِ خاشعاً خاضعاً وليسَ كذلكَ في الخَلْوة، فهذا هُوَ الخائنُ في السَّتْـرِ الذي يُهتَـكُ سَتْـرهُ، ويُقرَّبُ في الآخرةِ منَ الجنـةِ حتّىٰ يـرىٰ حُورَها وقصُورَهـا ثم يُصرَفُ عنهـا، فيقـول: يا ربّ، ولم أرَيْتَنيها؟ فيقـالُ له: هذا أردتُ بكَ لأنكَ راقبتَ عبادي ولم تراقبْني. أو كما قال. انتهىٰ.

وقـال رضِيَ اللّهُ عنهُ في «الحِكَم»: مَن أحـبَّ أن يُذكَرَ بمـا ليسَ فيهِ منَ الخيرِ وكرِهَ أن يُذكَرَ بما فيهِ منَ الشرِّ فاعلَمْ أنهُ مُراءٍ.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: منِ ٱصطنَعَ معروفاً إلىٰ مَن يخافُ مِن لسانِهِ نُظِرَ إلىٰ ٱصطناعِـهِ إلىٰ أهلِ الخيرِ والمستحقّيـن، فإنْ كانَ نحوَ تسعةِ أعشارِهِ وإلا فهُوَ رِياءٌ وكذِب. انتهىٰ.

كانَ الفُضيلُ بنُ عياضٍ رحِمَهُ اللّهُ يقول: إذا رأيتُمُ العالِمَ والعابِدَ يُنشرَحُ لهُ في العِلمِ والصلاةِ في مجالسِ الأُمراءِ والأكابرِ فاعلَموا أنهُ مُراءٍ.

وقالَ الإمامُ النوويُّ رحِمَهُ اللّه: ومِنَ الدلائلِ الصريحةِ علىٰ رياءِ العالِمِ أن يتأذىٰ ممّن يقرَأُ عليهِ إذا قرَأَ علىٰ غيرِه.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّما لم يظهَرْ علىٰ العلماءِ كراماتٌ كالعُبّادِ معَ أنّهم أفضَلُ منهم، لِمَا يدخُلُ عليهِم منَ الرياء. انتهىٰ.

ـ مسائلُ في الرِّياء:

الأولىٰ: سُئلَ سيّدُنا الشيـخُ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَـوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ونفَعَنا به: هل يجوزُ السكوتُ عنِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المُنكرِ لمَن يخشىٰ علىٰ نفسِه الرياءَ في ذلك؟

فأجابَ رضِيَ اللّهُ عنهُ بقولِه: لا يَجوزُ له السكوتُ بحال، ويجبُ عليهِ أن يُجاهِدَ نفْسَهُ في نفْيِ الرياءِ عنها معَ العمَل، ولا يُجاهِدْها بترْكِه، أعني ترْكَ العمَل، فذلكَ أُمنيَةُ الشيطان، وقد سمّاهُ الفُضَيلُ رحِمَهُ اللّهُ رياءً، فقال: ترْكُ العمَلِ لأجلِ الناس رِياء، والعمَلُ لأجْلِهِم شِرْك، وما دامَ الإنسانُ يخشىٰ الرياءَ علىٰ نفْسِهِ فالغالبُ أنهُ بعيدٌ عنه، وما لا يدخُلُ تحتَ الاختيارِ مِن خواطرِ القلوبِ فكفّارتُهُ أن يكرَهَهُ مهما كانَ مِن خواطرِ الآثام. انتهىٰ. مِن «مُكاتَبتِه».

الثانية: سُئلَ أيضاً رضِيَ اللّهُ عنه: هل يجوزُ تعليمُ العِلمِ لمَن يخشىٰ علىٰ نفْسِهِ الرياءَ في التعليم؟ فأجابَ بقولِه: نعمْ، يجوزُ له، وربّما تعيَّنَ عليهِ في العِلمِ العينيِّ عندَ فقْدِ مَن يقومُ به، وعليهِ ـ معَ ذلكَ ـ أن يُجاهِدَ نفْسَهُ في ترْكِ الرياءِ وفي الاتّصافِ بالإخلاص، ويتوبَ ويستغفِرَ منَ العوارضِ والخَطَراتِ التي تخطُرُ لهُ في ذلك، ويوَدُّ الشيطانُ اللّعينُ ـ لعَنَهُ اللّهُ ـ أن يترُكَ المسلمونَ العِلمَ والعمَل، والأمرَ والنّهيَ بهذا التلبُّس. والغالبُ أنّ مَن يخشىٰ الرياءَ لا يكونُ مُرائياً، وأمّا المُرائي المُصِرُّ علىٰ الرياءِ فلا ثوابَ لهُ، وربّما أثِمَ معَ فَوَاتِ الثواب، ولا يُؤجَرُ علىٰ التعليمِ ولا علىٰ الدِّلالةِ علىٰ الهُدىٰ والدعوةِ إلىٰ الخير، إذ كلُّ ذلكَ منَ التعليم. نعم، أرجو أن ينفَعَهُ اللّهُ بدعاءِ المُتعلِّمِ واستغفارِهِ إن دَعا لهُ واستغفر. أو كما قال. انتهىٰ. مِن «المكاتبة».

الثالثة: سُئلَ سيّدُنا الإمامُ عيدروسُ بنُ عمرَ الحبَشيُّ رضِيَ اللّهُ عنهُ عمّنْ تصدَّقَ بصدَقةٍ جاريةٍ رياءً: هل تنفَعُه؟ فقال: لا، ولكنْ ينتَفعُ بدُعاءِ الدّاعينَ لهُ ممّنِ انتفَعَ بتلكَ الصّدَقةِ منَ الخلْق. انتهىٰ. منَ «النهرِ المورود».

وقالَ في نحوِ ذلكَ سيّدُنا الشيخُ الإمامُ القطبُ عبدُ اللّهِ الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: كلُّ فعلٍ قصَدَ بهِ فاعلُهُ الناموس، أي: الرِّياسةَ والجاهَ عندَ الناس، لا يقبَلُهُ اللّهُ ولا ينفَعُ بهِ صاحبَهُ في الآخرةِ أصلاً، كالذي يفعَلُ بصدَقتِهِ رياءً، إلاّ

أنْ يكـونَ قد وافقَتْ صدَقتُهُ ـ مثلاً ـ يتيماً مُحتاجاً ومضطراً، فيحصُلُ لهُ ثوابٌ مِن وجهٍ آخر، كأنْ دعا لهُ بسببِه، أو بنىٰ نحوَ سِقايةٍ يرائي بذلك، فشَرِبَ منها رجلٌ وقال: اللَّهُمَّ ٱغفِرْ لمن بناها، ففي مثلِ هـذا لا مانعَ منه. ثم قالَ: وقد حكَمَ سيّدُنا عليٌّ رضِيَ اللّهُ عنه بالنّهي عن أكْلِ طعـام المُتفاخِرَيْن اللذيْن كلٌّ منهُما شيـخُ جماعـة، فذبَحَ أحدُهمـا كذا وكـذا منَ الجَـزُور، وفعَـلَ الآخـرُ أكثرَ، وتكرَّرَ منهُما ذلكَ مِراراً. فلمّا عَلِمَ بذلك أمَرَ بإلقائِه علىٰ المَزْبلة. . إلىٰ آخرِ ما قال.

الرابعة: قالَ بعضُ العارِفيـن: إنّ الصـلاةَ علىٰ النبيِّ ﷺ ما تحتاجُ إلىٰ شيخٍ ولا حضور، ولا يُبطِلُها الرياءُ ولا غيرُهُ لسرورِ المُصطفىٰ؛ لأنّ مَن صلّىٰ عليـهِ فـرِحَ منـهُ ﷺ، وثوابُ فرَحِ النبـيِّ ﷺ ما يُعادِلُـه شيء. قـال: وكـذلكَ الصّدَقة، فإنّ لها وجهَينِ مِن جهةِ الثواب، فالثوابُ المُترتّبُ عليها لا يحصُلُ إلاّ معَ خُلوصِ النيّةِ فيه، والثوابُ المترتِّبُ علىٰ فرْحةِ أخيكَ المُسلمِ لا يُبطِلُه الرياء. انتهىٰ.

الخامسة: قـالَ الإمـامُ السُّيوطيُّ رحِمَـهُ اللّهُ في «الإتقان»: يُكرَهُ ٱتخاذُ القـرآنِ معيشـةً يُتكسَّبُ بها. أخـرَجَ الآجُـرِّيُّ مِن حديـثِ عمـرانَ بنِ الحُصَينِ مرفوعاً: «مَن قرَأَ القرآنَ فلْيَسْأَلِ اللّهَ بهِ، فإنّهُ سيأتي قومٌ يقرأونَ القرآنَ يسألونَ النّاسَ به»[(١)]. انتهىٰ.

وفي «الإحياء»: قالَ ٱبنُ عمـرَ رضِيَ اللّهُ عنهُما: كنّا ـ أصحابَ رسولِ اللّهِ ﷺ ـ أُوتِينا الإيمانَ قبلَ القـرآن، وسيأتي بعدَكـم قـومٌ يُؤتَوْنَ القرآنَ قبلَ الإيمان: يُقيمـونَ حروفَه، ويُضِيعونَ حدودَهُ وحقوقَه، ويقولون: قرأْنا، فمَن

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤ : ٤٣٢)، وغيره، من حديث عمران بن الحصين رضيَ اللّه عنه.

أقرَأُ منّا؟ وعَلِمْنا، فمَن أعلَمُ منّا؟ فذلكَ حظُّهم. وفي رواية: أولئكَ شِرارُ هذهِ الأُمّة. انتهىٰ.

حكاية:

يُروىٰ عن بعضِ أهلِ اللّهِ أنهُ كانَ مشهوراً بالولاية، فقُصِدَ بالوفودِ إليهِ منَ المنازِلِ البعيدة، حتّىٰ بلَغَ شأنُهُ وخبرُهُ إلىٰ الخليفة، فقَصَدَهُ الخليفةُ ومَن معَهُ قاصدينَ زيارتَه، فلمّا عَلِمَ العارفُ باللّهِ بذلكَ أمَرَ بعضَ أصحابِهِ أن يأتيَ لهُ ببقْل، فلمّا دنا الخليفةُ مُقبِلاً عليهِ لمُلاقاتِهِ أخَذَ يأكُلُ البقْل، فأكَلَ أكْلَ النَّهْمةِ والشَّرَه، فلمّا رآهُ ذلكَ الخليفةُ علىٰ تلكَ الحالةِ استحقَرَهُ وصَغُرَ عندَهُ وقال لأصحابه: ما عندَ هذا مِن خير. ثم قال: كيفَ أصبحت؟ قال: كالناس، فرجَعَ الخليفةُ بمَن معَهُ وقد ملأوا السهلَ والجبل، وذلك مُرادُ الصالح. وقال: الحمدُ للّهِ الذي ردَّهُ عنّي وهُوَ لي ذامّ. انتهىٰ بمعناهُ. مِن كلامِ سيّدِنا عيدروسِ ابنِ عمرَ الحبَشيّ رضيَ اللّهُ عنه.

ـــ الآفةُ الثالثة: النِّفاق:

وقالَ الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنه: فِعلُ الكافرِ إذا صدَرَ منَ المؤمنِ فهُو النفاق، وفاعلُهُ منافق؛ لأنّ المؤمنَ بَيِّنٌ والكافرَ بَيِّن. كلٌّ مُقِرٌّ بما هُوَ عليهِ ظاهراً وباطناً، وأمّا المُنافقُ فمُتلبِّسٌ بالحالَين: الإسلامِ علىٰ ظاهرِهِ، والكُفرِ في باطِنِه.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: النفاقُ علىٰ قِسمَيْن: نفاقُ الكافرين، وهو: مَن يُظهِرُ الإيمانَ ويُخفي الكفر، ونفاقُ المؤمنينَ وهُوَ: أن يؤمِنَ ولا يعمَلَ بما يقتضِيهِ الإيمان، ومِن علامتِهِ أن يَضِيقَ ويضجَرَ مِن تلاوةِ القرآنِ والجلوسِ في المسجدِ ونحوِ ذلك، ويستأنِسَ بالهَذْوةِ والمجالسِ والأسواقِ ونحوِها، ولم نعرِفْ هذا إلا مِن قريب.

قلت: وقدِ اشتدَّ خوفُ الأكابرِ ــ منَ الصحابةِ والتابعينَ والرجالِ العارفينَ ــ مِن وقوعِهم في النفاق، معَ صفاءِ قلوبِهم وطهارةِ نفُوسِهم.

قالَ الإمامُ البخاريُّ في «صحيحه»: قالَ ابنُ أبي مُلَيْكة: أدركْتُ ثلاثينَ مِن أصحابِ رسولِ اللّهِ ﷺ كلُّهم يَخافُ النفاقَ علىٰ نفْسِه، ما مِنهُم أحدٌ يقولُ: إنهُ علىٰ إيمانِ جبريلَ وميكائيل. انتهى[١].

ــ علاماتُ النِّفاق:

قد وَرَدَ في الأخبارِ والآثارِ مِنْ علاماتِ النفاقِ وأوصافِ المنافقينَ شيءٌ كثير.

فمن ذلك ما رواه أبو هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنه قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «آيةُ المُنافِقِ ثلاث: إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أخلَف، وإذا اؤْتُمِنَ خان»[٢].

قالَ سيّدُنا الإمامُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في علاماتِ المُنافِقِ الثلاث: ما هُو أنهُ لا يَصدُقُ أبداً، فقد يَصدُقُ ويوفي ولا يخون، ولكنهُ ــ لأدنىٰ غرَضٍ ــ يكذِب، ولأدنىٰ داعيةٍ يخون، ولأدنىٰ عُذرٍ يُخلِف، وذلكَ لعدَمِ التقوىٰ فيه. انتهىٰ.

ومن ذلك ما رُوِيَ عن عليٍّ كرّمَ اللّهُ وجهَهُ قال: والذي خلَقَ الحبّة، وبرَأَ النَّسْمَة، إنهُ لعهدُ النبيِّ الأُمّيِّ إليَّ: أنهُ لا يُحبُّني إلا مؤمنٌ ولا يُبغِضُني إلا مُنافق[٣].

---

(١) «صحيح البخاري»، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يَحبَطَ عمله وهو لا يشعر (١ : ١٠٩ فتح الباري).

(٢) تقدم تخريجه وأنه في الصحيحين.

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٣١).

وعن أنسٍ رضِيَ اللّهُ عنه مرفوعاً: «آيةُ المُنافقِ بُغْضُ الأنصار، وآيةُ المؤمنِ حُبُّ الأنصار». وفي رواية: «حُبُّ الأنصار آيةُ الإيمان، وبُغضُهُم آيةُ النِّفاق»[١].

ورُوِيَ أنّ رجلاً جاءَ إلىٰ ابنِ عباسٍ فقالَ له: مِن أينَ جئت؟ قال: مِن زَمْزم. قال: فشَرِبْتَ منها كما ينبغي؟ قال: وكيف؟ قال: إذا شرِبْتَ منها فاستقبِلِ البيتَ واذكُرِ اسمَ اللّهِ وتنفَّسْ ثلاثاً وتضلَّعْ منها، فإذا فرَغْتَ فاحمَدِ اللّه، فإنّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «آيةُ ما بينَنا وبينَ المُنافِقينَ أنَّهُم لا يتضَلَّعونَ مِن ماءِ زمزم»[٢].

وقد وَرَدَ أنّ المؤمنَ هِمّتُهُ الصلاةُ والصيامُ والعبادة، والمُنافِقَ همّتُه في الطعامِ والشراب، كالبهيمة، وفي خبرٍ أو أثر: «إنّ المؤمنَ يأكلُ بشهوةِ أهلِه، والمنافقَ يأكُلُ أهلُهُ بشهوتِه».

وقالَ رجلٌ لحُذيفةَ رضِيَ اللّهُ عنه: إنّي أخافُ أن أكونَ مُنافقاً، فقال: لو كنتَ مُنافقاً ما خِفتَ النِّفاق، إنّ المُنافقَ قد أمِنَ منَ النّفاق. انتهىٰ. مِنَ «الإحياء».

وعنِ ابنِ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُما أنّ ناساً قالوا له: إنّا ندخُلُ علىٰ سلاطينِنا فنقولُ لهُم بخلافِ ما نتكلّمُ إذا خرَجْنا مِن عندِهم، فقالَ ابنُ عمرَ رضِيَ اللّهُ عنهُما: كنّا نعُدُّ هذا نفاقاً علىٰ عهدِ رسولِ اللّهِ ﷺ.

وقالَ الحسَنُ رحِمَهُ اللّه: إنّ مِن النفاقِ اختلافَ السرِّ والعَلانيَة، واللسانِ والقلب، والمُدخَلِ والمُخرج.

---

(١) أخرجه البخاري (١٧)، ومسلم (١٢٨، ١٢٩)، وغيرهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦١)، وغيره.

وقالَ سيّدُنا الإمامُ شيخُ الإسلامِ الحبيبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ ـ في حديث: «مَن حَمَىٰ مؤمناً مِن منافقٍ ينتَهِكُ حُرْمتَه . .»[1] ـ أي: يغتابُه، وهذا يدُلُّ علىٰ أنهُ لا يغتابُ الناسَ إلاّ منافق، إلا أنهُ قد يكونُ مُنافقاً تامَّ النفاقِ أو دونَ ذلك.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ: المؤمنُ يتَجوَّزُ في العاداتِ ولا يتجوَّزُ في العبادات، والمُنافِقُ يتجوَّزُ في العباداتِ ولا يتجوَّزُ في العادات.

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: ومِن علامةِ المؤمنِ منَ المنافق: أنّ المنافقَ جميعُ ما تراهُ منهُ في أفعالِهِ وجميعِ أحوالِهِ يتّبعُ الرُّخَص، والمؤمنُ يَحتاط، وهذا منافقٌ في العمَلِ دونَ الدِّين. وإن أنكَرَ علىٰ مَنْ يَرُدُّ عليهِ فهُوَ منافقٌ في الدِّينِ أيضاً. انتهىٰ. مِن «تثبيتِ الفؤاد».

وفي «تثبيتِ الفؤاد» قولُه أيضاً رضِيَ اللّهُ عنه: يدُلُّ علىٰ نِفاقِكَ أنْ تغضَبَ إذا قيلَ: يا منافق؛ لأنّ الإنسانَ ما يخلُو مِن نفاق. انتهىٰ.

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٨٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٠: ٩٨ ـ ٩٩ برقم ٧٢٢٥)، وغيرهما، من حديث معاذ بن أنس رضيَ اللّه عنه. وتتمتُه: «. . بعث اللّه مَلَكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم».

خاتمة في
النصائح النافعة والوصايا الجامعة

مقـدّمة
في معنىٰ النصيحـة وأهميتها

عن تَميمٍ الدّاريِّ رضِيَ اللّهُ عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قالَ: «الدِّينُ النَّصيحةُ»، قلنا: لمَن يا رسولَ اللّه؟ قال: «للّهِ ولرسولِهِ ولأئِمَّةِ المسلِمينَ وعامَّتِهم»[١].

قـالَ العلماءُ رحِمَهُم اللّه: النَّصيحةُ: كلمةٌ جامِعةٌ، معناها: إرادةُ جُملةِ الخير، وليـسَ في كلامِ العربِ كلمةٌ أجمَـعُ لخيرَيِ الدنيـا والآخرةِ منها ومِن لفظـةِ الفَلاح. وقولُـهُ: «الدِّيـنُ النَّصيحةُ»، أي: أنها داخلـةٌ في جميعِ أجزاءِ الدِّين.

ومعنىٰ النصيحـةِ للّه: صحةُ الاعتقـادِ في وَحْدانيّتِـهِ وإخـلاصُ النيّةِ في عبادتِهِ والمحبّةِ في ذاتِه. والنّصيحةُ لكتابِ اللّهِ تعالىٰ: الإيمانُ به، والعمَلُ بما فيـه، وتصحيـحُ قراءتِه، والإكثارُ مِن تلاوتِـه. والنّصيحـةُ لرسـولِ اللّه ﷺ: التصديقُ بنبوّتِهِ وبذْلُ الطاعةِ فيما أمَرَ بهِ ونهىٰ عنه، وإخلاصُ محبّتِهِ حتىٰ يكونَ أحـبَّ إلىٰ العبدِ مِن نفْسِهِ وولدِهِ ووالـدِهِ والنّاسِ أجمَعيـن. والنّصيحـةُ لأئمّةِ المسلميـنَ ـ وهُـمُ الذيـن وَلاّهُـمُ اللّهُ عليهِـم ـ: أن يُطيعـوهُم في الحـقِّ ولا يخرُجوا عليهِم. والنّصيحةُ لعامّةِ المسلمينَ: إرشادُهم إلىٰ ما فيهِ صَلاحُ دينِهم

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان من «صحيحه» برقم (٩٥).

ودنياهُـم، وسَتْـرُ عوراتِهم، وسدُّ خَلاّتِهـم، ورفْـعُ المَضـارِّ عنهُم، وجلبُ المنافِـعِ لهُم، وتوقيرُ كبيـرِهم، ورحمةُ صغيرِهم، وترْكُ غِشِّهِـم وحسَدِهم، وأن يحـبَّ لهُم ما يُحبُّ لنفْسِـهِ منَ الخيرِ ويَكرَهَ لهُم ما يَكـرهُ لنفْسِهِ منَ الشرِّ، وتَخَوُّلُهم بالمَوعِظةِ الحسَنة.

وعن جريرِ بنِ عبدِ اللّهِ البَجَلِيِّ رضِيَ اللّهُ عنه، قال: بايَعْتُ رسولَ اللّهِ ﷺ علىٰ إقامِ الصّلاةِ وإيتاءِ الزّكاةِ والنُّصْحِ لكلِّ مسلم[1].

قلتُ: ومنَ النّصيحةِ للمسلميـنَ أن لا تكتُـمَ لهُم أمراً تعرِفُ أنّ لهُم فيهِ صَلاحاً ونجاحاً عاجلاً وآجلاً، فقد رُوِي عن جريرِ بنِ عبدِ اللّهِ المذكورِ أنّهُ أمَرَ مَولاهُ أن يشتريَ لهُ فرَساً، فاشترىٰ لهُ فرساً بثلاثِمئـةِ درهم، وجاءَ بهِ وبصاحبه ليَنقُـدَهُ الثّمن، فقالَ جريرٌ لصاحـبِ الفرس: فرسُـكَ خيرٌ مِن ثـلاثِمئةِ درهم، أَتبيعُهُ بأربعِمئةِ درهم؟ قال: ذلكَ إليك، فقال: فرسُكَ خيـرٌ مِن ذلك، أتبيعُهُ بخمسِمئـةِ دِرهم؟ ثمّ لم يزَلْ يزيدُهُ مئـةً فمئةً وصاحبُـهُ يَرضـىٰ وجريـرٌ يقول: فرسُكَ خيرٌ، إلىٰ أن بلَغَ ثمانِمئةِ درهمٍ فاشتراهُ بها، فقيلَ لهُ في ذلكَ فقال: إنّي بايَعتُ رسولَ اللّهِ ﷺ علىٰ النُّصحِ لكلِّ مسلم. واللّهُ أعلَم. ذكَرَهُ الإمامُ النوَوِيُّ رحِمَهُ اللّهُ في «شرح مسلم»[2].

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٥٧) ومسلم (٥٦).

(٢) «شرح صحيح مسلم» للإمام النووي (٢: ٤٠).

وصيّة الله ربّ العالمين في كتابه المبين

قالَ اللّهُ تبارَكَ وتعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

فالتقوىٰ هِيَ وصيّةُ اللّهِ للأوّلينَ والآخرين.

قالَ بعضُ العارفينَ نفعَ اللّهُ بهِم: ولو كانتْ في العالَمِ خَصلةٌ هِيَ أصلَحُ للعبيدِ وأجمَعُ للخير، وأعظَمُ للأجرِ وأدفَعُ لكلِّ ضَيْر، وأجلُّ منها في العُبوديّةِ والعبادة، لأَوصىٰ اللّهُ بها عِبادَه، لكمالِ حِكمَتِهِ وسَعَةِ رحمَتِه، ولأنّهُ أعلَمُ بصَلاحِ عبدِهِ ونفعِهِ وضُرِّه، وأنصَحُ لهُ وأرحَمُ بهِ حتىٰ مِن نفْسِهِ فضلاً عن غيرِه.

وللتقوىٰ مَراتب: أوّلُها التقوىٰ عنِ الشِّركِ، ثم عنِ الكبائر، ثم عنِ الصّغائر، ثم عنِ المكروهات، ثم عنِ المُباحات، ثم عن كلِّ ما لم يكنْ خالصاً للّهِ عزَّ وجَلّ، وهُوَ تقوىٰ الصِّدّيقين.

وقالَ الأستاذُ أبو القاسمِ القُشَيرِيُّ رحِمَهُ اللّه: التقوىٰ: التحرُّزُ عنِ المَخاوفِ والتشميرُ للوظائف، وحِفظُ الحَواسِّ وعدُّ الأنفاس، وتنزيهُ الوقت عن مُوجِباتِ المَقْت، وحِفظُ البِرِّ وترْكُ الوِزْر، والاحتماءُ التامُّ عمّا يُسخِطُ المَولىٰ العلاّم.

وقد جمَعَ اللّهُ خِصالَ التقوىٰ في قولِهِ سبحانَهُ في كتابِهِ المكنون: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومِنْ ثَمَّ رويَ: «مَن عمِلَ بهذهِ الآيةِ فقدِ استكمَلَ الإيمان»[١].

* * *

وقد أشارَ إلىٰ هذهِ الوصِيّة، التي هِيَ تقوىٰ ربِّ البريّة، سيّدُنا الإمامُ القُطبُ عبدُ اللّهِ بنُ عَلَوي الحدّادُ رضِيَ اللّهُ عنهُ في قصيدتِهِ ذاتِ الحِكَمِ الجليّة، بقولِهِ نفعَ اللّهُ به:

وصيّتي لكَ يا ذا الفضلِ والأدبِ ... إن شئتَ أن تسكُنَ السامي منَ الرُّتبِ

وتدُركَ السَّبْقَ والغاياتِ تَبلُغُها ... مُهنَّأً بمنالِ القصْدِ والأَرَبِ

تقوىٰ الإلهِ الذي تُرجىٰ مَراحِمُهُ ... الواحدُ الأحَدُ الكشّافُ للكُربِ

الزَمْ فرائضَهُ واْترُكْ مَحارِمَهُ ... واْقطَعْ ليالِيْكَ والأيامَ في القُربِ

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنهُ في قصيدتِهِ العينيّة:

والقصدُ ذِكْرُ نصيحةٍ ووصيّةٍ ... للنفْسِ والإخوانِ إذْ كانوا معي

تقوىٰ إلهِ العالَمينَ فإنّها ... عزٌّ وحِرْزٌ في الدُّنا والمَرجعِ

فيها غنىٰ الدّارَينِ فاستَمْسِكْ بها ... والزَمْ تنَلْ ما تشتهيهِ وتدَّعي

---

(١) تقدم تخريجه ص ٤٤٤ وأنه من كلام أبي مَيْسَرة الهَمْداني الكوفي، التابعي، أحد العُبّاد الأولياء.

فائدة:

ذكَرَ بعـضُ المُحققيـنَ أنّ التقـوىٰ علىٰ ثلاثِ مَراتب: عُلْيا، ووُسطىٰ، ودُنْيا: فالعُليا: أن يتَّقيَ اللّهَ إجلالاً لهُ وقياماً بحقِّه، والوُسطىٰ: أن يتَّقيَهُ تحقيقاً للنِّسبةِ التي بينَه وبينَ ربِّه، والدنيا: أن يتَّقيَهُ طلباً لثوابِهِ أو خوفاً مِن عقابِه. وفي ذلكَ يقولُ بعضُهم:

أعلىٰ التُّقىٰ كونُهُ للذاتِ ... وما بها مِن كامِلِ الصفاتِ
أوْسطُهُ تحقيقُهُ للنِّسبةِ ... أيْ كونُهُ عبداً لمُولي النِّعمةِ
أدْوَنُهُ لطلَبِ الثوابِ ... بهِ، كذاكَ الدَّفعُ للعقابِ

❊ ❊ ❊

وممّا وردَ في الكتابِ المبين من وصايا لقمان الحكيم

كانَ للقمانَ ولدٌ ٱسمُهُ تارانُ علىٰ ما قالَهُ الطَّبريّ، وكانَ في قولٍ كافراً، فلم يزَلْ يعِظُهُ حتىٰ أسلَم. قـالَ تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والشِّـركُ ظلمٌ عظيمٌ لِمَا فيـهِ منَ التسويـةِ في العبـادةِ بينَ مَن يستحقُّهـا ومَـن لا يستحقُّها، وبينَ مَن لا نِعمـةَ إلا وهِـيَ منهُ وبينَ مَن لا نعمةَ لهُ أصلاً، وبيـنَ القويِّ القاهـرِ والضعيـفِ العاجـز، وبينَ الخالـقِ والمخلـوقِ والـربِّ والمربوب.

ورُويَ أنّ ٱبنَ لقمانَ سألَ أباهُ عنِ الحَبّةِ تقَعُ في أسفلِ البحر، أيعلَمُها اللّهُ تعالىٰ؟ فأجابَ لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

فالضميرُ في ﴿إِنَّهَآ﴾ راجعٌ إلىٰ الحَبّة. وقيلَ: إنّ سؤالَهُ كانَ عنِ الخَطيئةِ إذا عمِلَهـا حيثُ لا يراهُ أحدٌ كيـفَ يعلَمُهـا اللّه؟ فقالَ له: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾.. إلخ؛ أي: إنّ الخطيئـةَ إن تكنْ في صِغَرِها كحبّـةٍ واحدةٍ مِن خَـرْدَلٍ ـ وهِـيَ أصغَرُ شـيء ـ في أخفـىٰ مكـانٍ وأحـرزِه، كجـوفِ الصّخـرة، أو فـي أعلىٰ مكـانٍ كالسمَاوات، أو في أدناهُ كالأرضِين، يُحضرُها اللّهُ تعالىٰ فيحاسِبُ عليها مَنِ ارتكبَها.

وحاصلُ المعنىٰ كما قالَ الحسَن[١]: أنّهُ تعالىٰ محيطٌ بالأشياءِ جميعِها، صغيرِها وكبيرِها.

وفي بعضِ الكتبِ أنّ هذهِ الكلمةَ آخرُ كلمةٍ تكلَّمَ بها لقمانُ، فانشقَّتْ مَرارتُهُ مِن هيبتِها، فماتَ رحِمَهُ اللّه. وقيل: إنَّ الذي ماتَ حينَ ذاكَ هُوَ ابنُه.

ثم قالَ لقمانُ لابنهِ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ منَ الشدائدِ والمِحَنِ في سبيلِ ذلك، أوِ اصبرْ علىٰ شدائدِ الدنيا منَ الأمراضِ وغيرِها ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]. ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: لا تُمِلْهُ عنهُم ولا تولِّهِم صفحةَ وجهِكَ كِبْراً عليهِم وإعجاباً بنفْسِكَ واحتقاراً لهُم كما يفعَلُهُ المتكبِّرون، وقيل: هُوَ الرجلُ يكونُ بينَكَ وبينَهُ مودَّةٌ فَيلقاكَ فتُعرِضُ عنه. ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾: مُتبختِراً متكبِّراً مُختالاً، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨]: مُباهٍ بالمالِ والجاهِ والحسَب. ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾: اعدِلْ فيهِ وتوسَّطْ حتىٰ يكونَ بينَ الإسراعِ والتأنّي، مشيَ سكينةٍ ووقار، فإنّ سرعةَ المشيِ تُذهِبُ بهاءَ المؤمن. ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩] أي: أقبحُها؛ لأنّ أوّلَهُ زفيرٌ وآخرُهُ شهيقٌ كصوتِ أهلِ النار.

وعن سفيانَ الثوريِّ رحمه اللّه: أنّ صِياحَ كلِّ شيءٍ تسبيحٌ، إلا نهيقَ الحمير. انتهىٰ بحذفٍ واختصارٍ ممّا ذكَرَهُ سيِّدُنا الإمامُ الجليلُ عليُّ بنُ حسنٍ العطّاسُ رضِيَ اللّهُ عنه في «رسالته»[٢].

---

(١) البصري، رضِيَ اللّه عنه.

(٢) المسماة «لقمان الحكيم وحِكَمُه»، وهي مطبوعة.

ثم قالَ نفَعَ اللّهُ به: وفي قَصِّ القرآنِ الكريمِ لهذهِ الوصايا اللُّقمانيّةِ تقريرٌ لها وحثٌّ علىٰ اتّباعِها والعمَلِ بها، فإنّها جميعاً مِن شُعبِ الإيمانِ وجلائلِ الصِّفاتِ والأحوالِ. انتهىٰ.



وصايا رسول الله عليه الصلاة والسلام

عن أبي هريرةَ رضِيَ اللّهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ:

«مَن يأخُذُ عنِّي هذهِ الكلماتِ فيَعْمَلَ بِهِنَّ أو يُعَلِّمَ مَن يَعْمَلُ بِهِنّ»؟ قُلْتُ: أنا، فأخَذَ بيدِي، فعَدَّ خمساً، فقال: «اتَّقِ المَحارِمَ تكُنْ أعبَدَ النّاس، وارْضَ بِما قسَمَ اللَّهُ لكَ تكُنْ أغنىٰ النّاس، وأحْسِنْ إلىٰ جارِكَ تكُنْ مؤمناً، وأحِبَّ للنّاسِ ما تُحِبُّ لنفسِكَ تكُنْ مسلماً، ولا تكْثِرِ الضَّحك، فإنَّ كثْرَةَ الضَّحكِ تُميتُ القلب»[1].

وروىٰ الشيخُ نصرٌ المَقدِسيُّ[2] عن أبي ذرٍّ رضِيَ اللّهُ عنهُ قالَ: أَوصاني حبيبي رسولُ اللّهِ ﷺ بأربعِ كلماتٍ هُنَّ أحبُّ إليَّ منَ الدنيا وما فيها، قال: «يا أبا ذَرّ، جَدِّدِ السّفينةَ فإنَّ البحرَ عميق ــ يعني الدُّنيا ــ وخَفِّفِ الحِمْلَ فإنّ السفرَ بعيد، واحمِلِ الزادَ فإنَّ العَقَبَةَ طويلة، وأخلِصِ العمَلَ فإنّ النّاقد

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥)، وابن ماجه (٤٢١٧)، وأحمد (٢: ٣١٠)، وغيرهم.

(٢) الإمام الفقيه الزاهد، الجامع بين العلم والدِّين، أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي نزيل دمشق (ت٤٩٠هـ)، صاحب كتاب «الحجة علىٰ تارك المحجّة» وغيره من الأمالي. قبره بدمشق بباب الصغير تحت قبر معاوية رضِيَ اللّه عنه. وحكىٰ الإمام النووي عن أشياخه أن الدعاء عند قبره يوم السبت مستجاب.

بصير»[١]. انتهىٰ.

وعن ٱبنِ مسعودٍ، قال: «مَن سَرَّهُ أن ينظُرَ إلىٰ وصيَّةِ محمَّدٍ التي عليها خاتمُ أمرِهِ فليقرأْ هؤلاءِ الآياتِ: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١][٢].

وعن أبي ذرٍّ رضِيَ اللّٰهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللّٰهِ ﷺ:

«أُوصِيكَ بتقوىٰ اللَّه، فإنّهُ رأسُ الأمرِ كلِّه. عليكَ بتلاوةِ القرآنِ وذِكْرِ اللَّه، فإنّهُ ذِكْرٌ لكَ في السَّماءِ ونورٌ لكَ في الأرضِ. عليكَ بطُولِ الصَّمْت، فإنّهُ مَطْرَدةٌ للشَّيطان وعَونٌ لكَ علىٰ أمرِ دينِك. وإيّاكَ وكثرةَ الضَّحك، فإنّهُ يُميتُ القلبَ ويذهَبُ بنورِ الوجه. عليكَ بالجهاد، فإنّهُ رَهْبانيّةُ أُمَّتي. أَحِبَّ المساكينَ وجالِسْهُم. وانظُرْ إلىٰ مَن تحْتَكَ ولا تنظُرْ إلىٰ مَن فَوقَك، فإنّهُ أجدَرُ أن لا تَزْدَرِيَ نِعمةَ اللّهِ عليك. صِلْ قَرابَتَك وإن قَطَعوك. قُلِ الحقَّ وإن كان مُرّاً. لا تَخَفْ في اللّهِ لَوْمةَ لائم. لِيَحْجِزْكَ عن النّاسِ ما تَعلَمُ مِن نفْسِكَ ولا تجِدُ عليهِمْ فيما تأتي. وكفىٰ بالمَرْءِ عيباً أنْ يكونَ فيهِ ثلاثُ خِصال: أن يَعرِفَ منَ النّاسِ ما يجهَلُ مِن نفْسِه، ويسْتَحيَ لهُمْ ممّا هُوَ فيه، ويؤذيَ جَلِيسَه. يا أبا ذرّ، لا عقلَ

---

(١) هذا الحديث علىٰ اشتهاره علىٰ الألسنة لم نقف عليه في شيءٍ من دواوين السُّنَّة التي بين أيدينا، فلعله أثر من كلام بعض السلف رُفِعَ خطأً، واللّٰه أعلم. وقد نبّه الحافظ الذهبي إلىٰ ما في مرويات الشيخ نصر المقدسي بقوله: في مجالسه غلطات وأحاديث واهية. انتهىٰ. من «سير النبلاء» (١٩ : ١٤٠).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠ : ٣٠٨ برقم ٧٥٤٠)، وهو عند الترمذي (٣٠٧٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠ : ١١٤ ــ ١١٥ برقم ١٠٠٦٠) وغيرهما بلفظ: «صحيفة» بدل «وصية». قال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ غريب.

كالتّدبير، ولا وَرَعَ كالكَفِّ، ولا حَسَبَ كَحُسْنِ الخُلُق»[١]. انتهىٰ.

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرجه بطوله الطبراني في «المعجم الكبير» (١٦٢٨) وفي «مكارم الأخلاق» له، والآجُرِّي في «الأربعين»، وأخرجَ آخرَ قطعةٍ فيه: «لا عقلَ كالتدبير..»: ابنُ ماجه (٤٢١٨).

وصيّة سيّدنا الخضر عليه السلام

جاءَ في كتابِ «جمعِ الجوامعِ» للحافظِ السُّيوطيِّ ذِكْرُ قصةٍ لموسىٰ مع الخَضِرِ عليهما السلام، تضمّنَتْ وصايا وحِكَماً بليغة وهيَ:

قالَ موسىٰ عليهِ السلام: يا ربِّ، أَرِني الذي كنتَ أَرْيتَني في السّفينة، فأوحىٰ اللّهُ تعالىٰ: إنّكَ ستَراه، فلم يلبَثْ إلا يسيراً حتىٰ أتىٰ الخَضِرُ وهُوَ نَقيٌّ طيّبُ الرِّيحِ وحسَنُ الثّيابِ البِيض، فقال: السّلامُ عليكُم ورحمةُ اللّهِ وبرَكاتُه. يا موسىٰ ٱبنَ عِمران، إنّ ربَّكَ يُقرئُكَ السلامَ ورحمةَ اللّهِ وبركاتِه. قالَ موسىٰ عليهِ السلام: هُوَ السلامُ ومنهُ السلام وإليهِ السلامُ والحمدُ للّهِ ربِّ العالَمينَ الذي لا أُحصي نِعمَهُ ولا أَقدِرُ علىٰ أداءِ شُكرِهِ إلا بِمعونتِه. ثمّ قالَ موسىٰ: أريدُ أن تُوصيَني بوصيّةٍ ينفعُني اللّهُ بها بعدَك.

قالَ الخَضِرُ: يا طالبَ العِلم، إنّ القائلَ أقلُّ مَلالَةً منَ المُستمِع، فلا تُمِلَّ جُلَساءَكَ إذا حدَّثتَهم. وٱعلَمْ أنّ قلبَكَ وِعاء، فانظُرْ ما تَحشو بهِ وِعاك. وٱعزِفْ عنِ الدنيا وٱنبذْها وراءَك، فإنّها ليست لكَ بدارٍ ولا لكَ فيها محَلُّ قرار، وإنّما جُعِلَتْ بُلْغَةً للعبادِ ليتزوَّدوا للمَعاد.

يا موسىٰ، وطِّنْ نفسَكَ علىٰ الصبرِ تَلْقَ الحِكمة. وأشعِرْ قلبَكَ التقوىٰ تنَلِ العِلم، وروِّضْ نفسَكَ علىٰ الصبرِ تخلُصْ منَ الإثم.

يا موسىٰ، تفرَّغْ للعِلمِ إن كنتَ تريدُه، فإنّما العِلمُ لمَن تفرَّغَ له. ولا

تكونَنَّ مِكْثاراً بالمنطقِ مِهذاراً، فإنّ كثرةَ المنطِقِ تَشينُ العلماءَ وتُبدي مساوىءَ السُّخَفاء، ولكنْ عليكَ بالاقتصاد، فإنّ ذلكَ منَ التوفيقِ والسَّداد. وأَعرِضْ عنِ الجُهّالِ وباطِلِهِم. وٱحلَمْ عنِ السُّفهاء، فإنّ ذلكَ فعلُ الحُكَماء وزَينُ العلماء. وإذا شتَمَكَ جاهلٌ فٱسكُتْ عنهُ حِلْماً وجانِبْهُ حزْماً، فإنَّ ما بَقِيَ ـ مِن جهلِهِ عليكَ وشتمِهِ إياكَ ـ أعظمُ وأكبر.

يا ٱبنَ عمران، لا ترىٰ أنّكَ أُوتيتَ منَ العِلمِ إلا قليلاً.

يا ٱبنَ عمران، لا تفتَحَنَّ باباً لا تدري ما غَلْقُه، ولا تُغلِقَنَّ باباً لا تدري ما فتْحُه.

يا ٱبنَ عمران، من لا تنتهي منَ الدنيا نَهمَتُهُ ولا تنقضي منها رغبتُهُ كيفَ يكونُ عابداً؟ ومَن يحتَقِرُ حالَهُ ويتَّهمُ اللّهَ فيما قضىٰ لهُ كيفَ يكونُ زاهداً؟ وهل يكفُّ عنِ الشهواتِ مَن غلَبَ عليهِ هَواه؟ أو ينفعُهُ طلَبُ العِلمِ والجهلُ قد حواه؛ لأنّ سفَرَهُ إلىٰ آخرتِهِ وهُوَ مُقبِلٌ علىٰ دنياه.

ويا ٱبنَ عمران، تعلَّمْ ما تعلَّمتَ لتعمَلَ به، ولا تعلَّمْ لتُحدِّثَ بهِ فيكونَ عليكَ بورُهُ ويكونَ لغيرِك نُورُه.

ويا ٱبنَ عمران، اجعَلِ الزُّهدَ والتقوىٰ لِباسَك، والعِلمَ والذِّكْرَ كلامَك، وأَكثِرْ منَ الحسَنات، فإنَّكَ مُصيبُ السَّيئات، وزَعزِعْ بالخوفِ قلبَك، فإنّ ذلكَ يرضي ربَّك. وٱعمَلْ خيراً، فإنّكَ لابدَّ عاملٌ سوءاً.

سُوه (أي: يكفي)، قد وُعِظتَ إن علِمت.

فتولّىٰ الخَضِرُ وبقِيَ موسىٰ حزيناً مكروباً. انتهىٰ. مِن «مُكاتبةِ» الإمامِ أحمدَ بنِ زينِ الحبَشيِّ نفعَ اللّهُ به.

ونقَلَ العلاّمةُ الدَّميريُّ عن السُّهَيليِّ[١] أنّ موسىٰ حينَ حانَ فِراقُ الخَضرِ لهُ قالَ موسىٰ عليهِ السلام: أَوصِني يا نبيَّ اللّه. فقالَ لهُ الخضِر: يا موسىٰ، اجعَلْ همَّكَ في مَعادِك، ولا تخُضْ فيما لا يعنيك، ولا تترُكِ الخوفَ في أَمْنِك، ولا تيأَسْ منَ الأمنِ في خوفِك، وتدبَّرِ الأمورَ في عَلانيَتِك، ولا تذَرِ الإحسانَ في قدرتِك. فقالَ لهُ موسىٰ: زِدْني يا نبيَّ اللّه. فقالَ الخضِرُ لموسىٰ: وإياكَ واللَّجاجة، ولا تمْشِ في غيرِ حاجة، ولا تضحَكْ في غيرِ عجَب، ولا تعيِّرْ أحداً منَ الخطائينَ بخَطاياهُم بعدَ النّدم، وٱبكِ علىٰ خطيئتِكَ يا ٱبنَ عمران. فقالَ لهُ موسىٰ: قد أبلغْتَ في الوصيّة، فأَتمَّ اللّهُ عليكَ نعمتَهُ وعمَّرَكَ في طاعتِهِ وكلأَكَ مِن عدوِّه. فقالَ لهُ الخضِر: أَوصِني أنت، فقالَ لهُ موسىٰ: إياكَ والغضبَ إلا في اللّه، ولا ترضَ علىٰ أحدٍ إلا في اللّه، ولا تُحبَّ لدنيا ولا تُبغِضْ لدنيا، فإنّ ذلكَ يُخرِجُ منَ الإيمانِ ويدخِلُ في الكُفر. فقالَ لهُ الخضِر: لقد أبلغْتَ في الوصيّة، فأعانَكَ اللّهُ علىٰ طاعتِهِ وأَراكَ السُّرورَ في أمرِكَ وحبَّبَكَ إلىٰ خلقِهِ ووسَّعَ عليكَ مِن فضلِه. فقالَ موسىٰ: آمين. انتهىٰ.

فائدة:

رُوِيَ عن آدمَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنّهُ قالَ لبَنِيه: إذا أردتُم فعْلَ شيءٍ منَ الأشياءِ فقدِّموا ثلاثةَ أمور:

الأوّل: استَشيروا الأَخيار، فإنّي لوِ استَشرتُ الملائكةَ في الأكلِ منَ

---

(١) الإمام الحافظ العلاّمة البارع، عالم الأندلس، أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد اللّه السُّهَيلي الضرير (٥٠٨ ـ ٥٨١هـ)، صاحبُ التصانيفِ الفائقة، وبدائع الاستنباطات في العلوم، وكان إماماً في لسان العرب يتوقّد ذكاءً. من تصانيفه: «الروض الأُنُف» في السيرة النبوية، و«نتائج الفِكر» في النحو، و«التعريف والإعلام بما أُبهم في القرآن من الأسماء والأعلام»، وغيرها.

الشجرةِ لأَشاروا عليَّ بترْكِه .

الثاني : أن تنظُروا في العاقبة ، فإنّي لو نظرْتُ في العاقبةِ ما أكلْتُ منها .

الثالث : إذا عزمتُم علىٰ شيءٍ فٱختَلَجَتْ قلوبُكم فلا تفعَلوه ، فإنّي لمّا همَمْتُ بالأكلِ منَ الشجرةِ ٱختَلَجَ قلبي . انتهىٰ . من «الإرشاد» لابنِ عماد .

❊ ❊ ❊

من وصايا الخلفاء الراشدين

وصيّةُ سيّدِنا أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضِيَ اللّهُ عنه

ومِن وصيةِ خليفةِ رسولِ اللّهِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ لأميرِ المؤمنينَ عمرَ بنِ الخطابِ رضِيَ اللّهُ عنهُما ونفعَ بهِما: اتّقِ اللّهَ يا عمرُ إذا وُلِّيتَ علىٰ الناس، وٱعلَمْ أنّ للّهِ عمَلاً بالليلِ لا يقبَلُهُ بالنهار، ولهُ عمَلٌ بالنهارِ لا يقبَلُهُ بالليل. وأنّهُ لا يقبَلُ نافلةً حتىٰ تؤدّىٰ الفريضة. وإنَّما ثقُلَتْ مَوازينُ مَن ثقُلَتْ مَوازينُهم يومَ القيامةِ بٱتّباعِهِمُ الحقَّ في الدنيا. وإنّما خفَّتْ مَوازينُ مَن خفَّتْ مَوازينُهم يومَ القيامةِ باتّباعِهِمُ الباطلَ في الدنيا.

وصيةُ سيّدِنا عمرَ بنِ الخطابِ رضِيَ اللّهُ عنه

وعن عمرَ بنِ الخطابِ رضِيَ اللّهُ عنهُ أنّهُ قالَ لبعضِ إخوانِه: أوصيكَ بستةِ أشياء: إن أردْتَ أن تقَعَ في أحدٍ وتذُمَّهُ فذُمَّ نفْسَك، فإنّكَ لا تعلَمُ أحداً أكثرَ عيوباً منها، وإن أردْتَ أن تحمَدَ أحداً فٱحمَدِ اللّه، فليسَ أحدٌ أكثرَ مِنّةً عليكَ وألطَفَ بكَ منه. وإن أردْتَ أن تترُكَ شيئاً فاترُكِ الدنيا؛ فإنّكَ إن تركتَها فأنتَ محمودٌ وإلا ترَكَتْكَ فأنتَ مذموم. وإن أردْتَ أن تستعِدَّ لشيءٍ فاستعِدَّ للموت، فإنّكَ إن لم تستعِدَّ لهُ حلَّ بكَ الخُسرانُ والنَّدامة. وإن أردْتَ أن تطلُبَ شيئاً فاطلُبِ الآخرة، فلستَ تنالُها إلا بأنْ تطلُبَها. انتهىٰ. ذكَرَهُ الإمامُ عليُّ بنُ حسَنٍ العطّاسُ في كتابِهِ «القِرطاس».

وصايا الإمامِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ كرَّمَ اللّهُ وجهَه

فمِن وصاياهُ رضِيَ اللّهُ عنهُ الجامعةِ النافعةِ قولُهُ لكُمَيلِ بنِ زيادٍ النَّخَعيّ[١]:

يا كُمَيل، القلوبُ أوعِيةٌ فخيرُها أَوعاها. احفَظْ عنّي ما أقولُ لك: النّاسُ ثلاثة: فعالِمٌ ربَّانيّ، ومُتعلِّمٌ علىٰ سبيلِ النَّجاة، وهمَجٌ رِعَاعٌ أتباعُ كلِّ ناعق، يَميلونَ معَ كلِّ رِيح، لم يَستضيئوا بنُورِ العِلمِ ولم يلجأوا إلىٰ رُكنٍ وثيق.

يا كُميل، العِلمُ خيرٌ منَ المال. العِلمُ يحرُسُكَ وأنت تحرُسُ المال. العِلمُ يُكسِبُ العالِمَ الطاعةَ في حياتِهِ وجميلَ الأُحدوثةِ بعدَ وفاتِه، وصنيعُ المالِ يزولُ بزوالِه. والعِلمُ حاكمٌ والمالُ محكومٌ عليه.

يا كُميل، هلَكَ خُزّانُ الأموالِ وهُم أحياء. والعلماءُ باقونَ ما بقِيَ الدهر. أعيانُهم مفقودةٌ وأمثالُهم في القلوبِ موجودة. إنّ ها هنا لَعِلْماً جمّاً ـ وأشارَ إلىٰ صدرِه ـ لو أصبتَ لهُ حَمَلة، بلىٰ أصبتَ لَقِناً غيرَ مأمونٍ عليه، مُستعمِلاً آلةَ الدِّينِ للدنيا، مُستظهِراً بنِعَمِ اللّهِ علىٰ عبادِهِ وبحُجَجِهِ علىٰ أوليائه، أو منقاداً لحَمَلةِ الحقّ، لا بصيرةَ في إحيائه، ينقَدِحُ الشكُّ في قلبِهِ لأوّلِ عارضٍ مِن شُبهة. ألا لا ذا ولا ذاك، أو منهوماً باللَّذةِ سَلِسَ القِيادِ للشهوة، أو مُغرَماً بالجمْعِ والادِّخارِ ليسَ مِن رُعاةِ الدِّينِ في شيء، أقربُ شيءٍ شبَهاً بهما الأنعامُ السائمةَ. كذلكَ يموتُ العِلمُ بموتِ حامليه. اللَّهمَّ بلىٰ، لا تخلو الأرضُ مِن

---

(١) كُميل بن زياد بن نُهيك النخعي (١٢ ــ ٨٢هـ)، تابعي ثقة من أصحاب الإمام علي كرم اللّه وجهه. شهد صفين معه، وكان شريفاً مطاعاً في قومه، سكن الكوفة وقتله الحجاج. وثقه جماعة منهم ابن معين والعجلي وابن سعد، وذكره ابن حبان في الثقات. «لسان الميزان» (٤٤٩١).

قائمٍ للّهِ بحُجّة، إمّا ظاهراً مشهوراً أو خاملاً مستوراً، لئلا تبطُلَ حُجَجُ اللّهِ وبيّناتُه. وكم ذا وأين؟ أولئكَ واللّهِ الأَقلُّونَ عدداً الأعظَمونَ قدْراً، يحفَظُ اللّهُ بهم حُجَجَهُ وبيّناتِهِ حتىٰ يُودِعوها نظراءَهم وَيزرَعوها في قلوبِ أشباهِهم، هجَمَ بهِمُ العِلمُ علىٰ حقيقةِ البصيرة. وباشَروا رُوحَ اليقين، واستلانوا ما استَوْعَرَهُ المُترَفون. وأَنِسَوا بما استوحشَ منهُ الجاهلون، وصحِبُوا الدنيا بأبدانٍ أرواحُها معلَّقةٌ بالمحَلِّ الأعلىٰ. أولئكَ خلفاءُ اللّهِ في أرضِهِ والدُّعاةُ إلى دِينهِ. آهِ آهِ شوقاً إلىٰ رؤيتِهم. انتهىٰ[1].

وأخرجَ ٱبنُ عساكرَ عن عُقبةَ بنِ أبي الصَّهباء، قال: لمّا ضرَبَ ٱبنُ مُلجِمٍ علياً رضِيَ اللّهُ عنهُ دخَلَ عليهِ الحسَنُ وهُوَ باكٍ، فقالَ لهُ عليٌّ رضِيَ اللّهُ عنه: يا بُنيّ، احفَظْ عنّي أربعاً وأربعاً. قال: وما هُنَّ يا أبتِ؟ قال: أغنىٰ الغِنىٰ العقْل، وأكبرُ الفقرِ الحُمْق، وأوحَشُ الوَحْشةِ العُجْب، وأكرَمُ الكرَم حُسنُ الخلُق. قال: فالأربعُ الأُخَر؟ قال: إيّاكَ ومُصاحبةَ الأحمق، فإنّهُ يريدُ أن ينفعَكَ فيضُرُّك. وإياكَ ومُصادقةَ الكذّاب، فإنّهُ يقرِّبُ عليكَ البعيدَ ويُبعِدُ عنكَ القريب. وإياكَ ومُصادقةَ الفاجر، فإنهُ يبيعُكَ بالتافه. انتهىٰ. نقلَهُ الإمامُ السُّيوطيُّ رحِمَهُ اللّهُ في «تاريخِ الخلفاء».

ومِن وصيتِهِ رضِيَ اللّهُ عنهُ لولَديهِ الحسَنَينِ قال: أُوصيكُما بتقوىٰ اللّه، ولا تبغُوا الدنيا وإن بغَتكُما، ولا تبكِيا علىٰ شيءٍ زُوِيَ منها عنكُما. وقولا الحقّ، وٱرحَما اليتيم، وأغنِيا الضّعيفَ وٱصنَعا للآخرة. وكونا للظالمِ خصماً

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١ : ٨٠)، وأبو طاهر المقدسي في «تذكرة الحفاظ» من طريق أبي حمزة الثمالي. وللعلامة الشيخ أحمد السّفّاريني الحنبلي (ت ١١٨٨هـ) شرحٌ علىٰ هذا الأثر سماه: «القول العلي علىٰ أثر الإمام علي رضي اللّه عنه»، مخطوط.

وللمظلومِ أنصاراً، واْعمَلا بما في كتابِ اللّه. ولا تأخُذْكُما في اللّهِ لَومةُ لائم. ذكَرَها في «عِقد اليواقيتِ الجوهريّة».

عن أبنِ عباسٍ رضِـيَ اللّهُ عنهُما قـال: ما انتفعْتُ بكلامِ أحدٍ بعدَ كلامِ رسولِ اللّهِ ﷺ كأنتفاعي بكتابٍ كتَـبَهُ إليَّ عليُّ بنُ أبي طالب، فإنّهُ كتَبَ إليّ:

أمّا بعدُ،

فإنّ المـرءَ يَسـوؤُهُ فوْتُ ما لم يكنْ ليُدركَـه، ويسـرُّهُ إدراكُ ما لـم يكنْ لِيفوتَه، فليكنْ سُرورُكَ بما نِلتَ مِن آخرتِك، وليكُنْ أسفُكَ علىٰ ما فاتَ منها. وما نِلتَ مِن دنياكَ فلا تُـكثِرَنَّ بهِ فرَحاً، وما فاتكَ منها فلا تأْسَ عليهِ حَزَناً، وليكنْ همُّكَ فيما بعدَ الموت. انتهىٰ. مِن «مختصرِ صِفةِ الصَّفوة» للشَّعْرانيّ.

وعنِ ابنِ عبـاسٍ رضِيَ اللّهُ عنهُما: قالَ لي أبي: يا بُنيّ، إنّي أرىٰ أميرَ المؤمنينَ قدِ اْختصَّكَ دونَ مَن ترىٰ منَ المُهاجِرينَ والأنصار. احفَظْ عنّي ثلاثاً أوصيـكَ بهِـنّ: لا يجرِّبْ عليكَ كذبـاً، ولا تغتَـبْ عندَهُ مسلماً، ولا تُفشِ لهُ سرّاً. قال: قلتُ: يا أبتِ، كلُّ واحدةٍ خيرٌ مِن ألفِ بَدْرة[١]، فقال: كلُّ واحدةٍ خيرٌ مِن عشَرةِ آلافِ بَدْرة. انتهىٰ. مِن «الإرشاد» لابنِ عماد.

❊ ❊ ❊

---

(١) البَـدْرة: الصُّـرّة يكـون فيهـا ألفٌ أو عشَـرةُ آلاف درهـم، أو سبعـةُ آلاف دينـار. «القاموس» (ب د ر).

من وصايا السلف الصالح نفع الله بهم

قالَ ذو النُّونِ المِصريُّ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: كانَ السّلَفُ رضِيَ اللّهُ عنهُم يتواصَوْنَ بثلاثةِ وصايا: الأُولىٰ: مَن أصلَحَ ما بينَهُ وبينَ اللّهِ تعالىٰ أصلَحَ اللّهُ ما بينَهُ وبيـنَ الناس، الثانية: مَن أصلَحَ سريرتَهُ أصلَحَ اللّهُ علانِيَتَه، الثالثة: مَن أصلَحَ أمرَ آخرتِهِ أصلَحَ اللّهُ أمرَ دنياه. انتهىٰ. مِن «تقريب الوصول»[١].

وعن سفيانَ الثوريِّ رحِمَهُ اللّهُ قال: دخلْتُ علىٰ الإمامِ جعفرٍ الصّادقِ رضِيَ اللّهُ عنه، فقلتُ له: يا ٱبنَ رسولِ اللّهِ أوصِني، قال: يا سفيان، لا مروءةَ لِكَـذوب، ولا راحـةَ لحَسود، ولا إخـاءَ لمَلول، ولا سُـؤدُدَ لسيّـىءِ الخلُق، قلت: يا ٱبنَ رسـولِ اللّه، زِدْني، قال: يا سفيـان، كُفَّ عن مَحارِمِ اللّهِ تكُنْ عابـداً، وٱرضَ بما قسَمَ اللّهُ لكَ تكُنْ مسلمـاً، وٱصحَبِ النّاسَ بما تحبُّ أن يصحَبوكَ بهِ تكنْ مؤمناً، ولا تصحَبِ الفاجـرَ فيُعلِّمَكَ مِن فجورِه، وشاوِرْ في أمرِكَ الذينَ يخشَوْنَ اللّه. قلت: يا ابنَ رسولِ اللّه، زِدْني. قال: يا سفيان، مَن أرادَ عِزّاً بلا عشيرة، وهيبةً بلا سُلطان فلْيخرُجْ مِن ذُلِّ مَعصيةِ اللّهِ إلىٰ عِزِّ طاعةِ اللّه. قلتُ: يا ٱبنَ رسولِ اللّه، زِدْني. قال: أَدَّبَني أبي بثلاثٍ وأتبَعَني بثلاث.

---

(١) للإمام أحمد زيني دحلان، مفتي مكة، رحمه اللّه تعالىٰ، تقدمت ترجمته ص ١٤٨.

قالَ أبي: مَن يصحَبْ صاحبَ السُّوءِ لم يسلَم، ومن يدخُلْ مداخلَ السُّوءِ يُتَّهم، ومَن لا يملِكْ لِسانَهُ يندَمْ. ثمّ أنشد:

عـوِّدْ لِسانَكَ قـولَ الخيرِ تحْظَ بهِ ... إنّ اللِّسـانَ لِمَـا عـوَّدتَ معتـادُ
مـوكَّـلٌ يتقـاضـىٰ مـا نسِيـتَ لـهُ ... في الخيرِ والشرِّ فٱنظُرْ كيفَ ترتادُ

قالَ سفيانُ: ثم قلتُ: وما الثّلاثُ الأُخَر؟ فقال: قالَ أبي: إنّما يُتَّقىٰ حاسدُ نعمةٍ أو شامتٌ بمَعصِيةٍ أو حاملٌ نميمة. انتهىٰ. ذكَرَ ذلكَ في «مجمعِ الأحباب».

ومِن وصايـاهُ ــ أي: الإمام جعفرٍ الصادق ــ لابنِـهِ موسىٰ الكاظم[1]: يا بُنيّ، مَن قَنَع بما قسَمَ اللّهُ لهُ ٱستَغنىٰ، ومَن مدَّ عينَيهِ إلىٰ ما في يدِ غيرِهِ ماتَ فقيراً. ومَن لم يرْضَ بما قسَمَ اللّهُ ٱتهمَ اللّهَ في قضائه، ومنِ ٱستصغَـرَ زَلّـةَ نفْسِهِ ٱستعظَمَ زَلّةَ غيره. ومنِ استصغَرَ زَلّةَ غيرِهِ ٱستعظَمَ زلّـةَ نفْسه. يا بنيّ، مَن كشَفَ حِجابَ غيرِهِ ٱنكشفَتْ عوراتُ بيتِه، ومَن سَلَّ سيفَ البغْيِ قُتِلَ به، ومنِ احتفَرَ لأخيهِ بئراً وقَعَ فيها، ومَن داخَلَ السُّفهاءَ حُقِّر، ومَن خالَطَ العلماءَ وُقِّر، ومَن دخَلَ مداخلَ السُّوءِ ٱتُّهِم. يا بُنيّ، إياكَ أن تزدَريَ الرجالَ فتَزْدَريَك، وإياكَ والدخولَ فيما لا يَعنيكَ فتذِلّ. يا بُنيّ، كنْ بالمعروفِ آمِراً وعنِ المُنكَرِ ناهياً، ولمَن قطَعَكَ واصلاً، ولمَن سكَتَ عنكَ مُبتدئاً، ولمَن سأَلكَ مُعطِياً، وإياكَ والنميمة، فإنّها تزرَعُ الشحْناءَ في قلوبِ الرجال. وإياكَ والتعرُّضَ لعيُوبِ النّاس. يا بُنيّ، إذا زُرتَ فزُرِ الأخيار، ولا تَزُرِ الفُجّار. انتهىٰ. مِن «شرح العَينيّة».

وقالَ رجلٌ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحِمَهُ اللّه: أَوصِني. فقالَ له: احذَرْ أن تكـونَ ممّنْ يخالِطُ الصالحينَ ولا ينتفعُ بهِـم، أو يلـومُ المُذنبيـنَ ولا يجتنبُ الذنوب، أو ممّن يلعَنُ الشيطانَ في العَلانِيَةِ ويُطيعُهُ في السِّرّ.

---

(١) الإمام الهاشمي القدوة سيِّدُنا أبو الحسن موسى الكاظم بن جعفر الصادق، أحدُ أئمة أهـل البيـت الأطهار، وأحد الأسخياء الحُلَماء العبّاد. مولـده بالمدينة المنوَّرة سنةَ ١٢٨هـ، ووفاته ببغداد سنةَ ١٨٣هـ، وله بها مشهدٌ عظيمٌ مشهور.

وقالَ رجلٌ للفُضيلِ بنِ عِياضٍ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: أَوصِني. فقالَ له: هل ماتَ والدُك؟ قال: نعمْ، فقال: قُمْ عنّي، فإنّ من يحتاجُ إلىٰ مَن يَعِظُهُ بعدَ موتِ والدِهِ لا تنفَعُه موعِظة.

وقال رجلٌ لعبدِ اللّهِ بنِ المُبارَكِ رحِمَهُ اللّهُ تعالىٰ: أَوصِني، فقالَ له: اُترُكْ فُضولَ النَّظَرِ تُوفَّقْ للخشوع، واُترُكْ فُضولَ الكلامِ توفَّقْ للحِكمة، واترُكْ فُضولَ الطّعام توفَّقْ للعبادة. واترُكِ التجسُّسَ علىٰ عيوبِ النّاسِ توفَّقْ للاطّلاعِ علىٰ عيوبِ نفْسِك، واُترُكِ الخَوْضَ في ذاتِ اللّهِ تُوقَ الشكَّ والنِّفاق. انتهىٰ.

وقالَ رجلٌ لمحمّدِ بنِ سيرينَ رحِمَهُ اللّه: أَوصِني. فقال: لا تحسُدْ أحداً، فإنهُ إن كانَ مِن أهلِ النارِ فكيفَ تحسُدُهُ علىٰ دنيا فانيةٍ سيصيرُ بعدَها إلىٰ النار؟ وإن كانَ مِن أهلِ الجنّةِ فاتَّبعْهُ في أعمالِها واْغبِطْهُ عليها، فإنّ ذلكَ أَولىٰ مِن حسَدِكَ لهُ علىٰ الدنيا.

وقالَ رجلٌ للحسَنِ البصْريِّ رحِمَهُ اللّه: عِظْني. فقال: واعجَباً مِن ألسِنةٍ تصِف، وقلوبٍ تعرِف، وأعمالٍ تخالِف!

ومِن كلامِهِ رضِيَ اللّهُ عنه: علىٰ الأَسقامِ والأمراضِ أُسِّستْ هذهِ الدنيا. هبْكَ تصِحُّ منَ الأسقامِ وتبرَأُ منَ الأمراض، هل تقدِرُ تَنجو منَ الموت؟

وقالَ رضِيَ اللّهُ عنه: مِسكينٌ اْبنُ آدم! رضِيَ بدارٍ حلالُها حسابٌ وحرامُها عقاب، يستقلُّ مالَهُ ولا يستقِلُّ عمَلَه. انتهىٰ.

وعن إبراهيمَ بنِ أدهَمَ رحِمَه اللّه قال: صحِبتُ رجالاً بجبَلِ لُبنان، فكانوا يوصُونَني: إذا رجَعْتَ إلىٰ أهلِ بلدِكَ فعِظْهم بأربعِ خِصال، قلْ لهم: مَن يُكثِرِ الأكلَ لا يجدْ للطاعةِ لَذّة، ومَن يُكثِرِ النّومَ لا يجدْ للعمُرِ برَكة. ومَن طلَبَ رِضا النّاسِ فلا ينتظرْ رِضا الربّ. ومَن يُكثِرِ الكلامَ ــ بفُضولٍ أو غِيبة ــ فلا يخرُجُ منَ الدنيا علىٰ الإسلام. انتهىٰ.

رُويَ أنّ رجلاً أتىٰ إبراهيـمَ بنَ أدهَمَ رحِمَـهُ اللّهُ فقـالَ له: إنّـي مُسرِفٌ فأشتَهـي أن تُعلِّمَنـي شيئاً أنتفِـعُ به. فقال: إنّي مُعلِّمُـكَ خمسَ خِصـال، إن قدَرْتَ عليهِنَّ لـم تُصِبْكَ مصيبةٌ ولا تفوتُك لَذَّة. قال: هاتِ. قال: إذا أردْتَ أن تعصيَ اللّهَ فلا تأكُلْ رِزْقَه. فقال: كيفَ لي بذلك؟ قال: يا هذا، أفيَحسُنُ بكَ أن تأكُلَ رِزْقَهُ وتعصيَـه؟ وأمّا الثانية: إذا أردْتَ أن تعصيَـهُ فلا تسكُنْ شيئاً مِن بلادِه، فقالَ الرجُل: هذهِ أعظَمُ منَ الأُولىٰ. إذا كانَ المشرِقُ والمغرِبُ لهُ فأينَ أسكُن؟ وأما الثالثة: إذا أردْتَ أن تعصِيَهُ فانظُرْ موضِعاً لا يراكَ فيه. قال: كيفَ هذا وهُوَ يطَّلعُ علىٰ ما في السَّرائر؟ قال: أفيَحسُنُ بكَ أن تأكُـلَ رزْقَهُ وتسكُنَ بلادَهُ وتعصيَهُ وهُوَ يراكَ وما تجاهِرُهُ به؟ قال: والرابعة: إذا جاءَك ملَكُ الموتِ ليقبِضَ رُوحَكَ فقلْ له: أخِّرْني حتىٰ أتوبَ إلىٰ اللّهِ وأعمَلَ صالحاً. قال: لا يُقبَلُ منّي. قال: يا هذا، إذا لم تقدِرْ أن تدفَعَ الموت وأنهُ إذا جاءَكَ لم يكنْ لهُ تأخيـرٌ فكَيفَ ترجـو الخَـلاص؟ والخامسـة: إذا جاءَكَ الزَّبانيـةُ يـومَ القيامـةِ ليأخـذوكَ إلىٰ النارِ فلا تذهَبْ معَهـم. قال: لا يَدعونـي. قال: فكيفَ ترجو النَّجاة؟ قال: حسْبي حسْبي، أستغفِرُ اللّهَ وأتوبُ إليه. ولزِمَهُ حتىٰ ماتَ رحِمَهُ اللّه. انتهىٰ. معَ حذفٍ يسيرٍ. مِن كتابِ «المَسالكِ السَّويّـةِ» للإمامِ عبدِ اللّهِ بنِ الحسينِ بلفقيه نفَعَ اللّهُ به.

وقيـلَ لبعضِهـم: أَوصِني. فقال: إن شئتَ جمَعـتُ لكَ عِلـمَ العلماءِ وحِكَمَ الحُكماءِ وطبَّ الأطبّاءِ في ثلاثِ كلمات: أمّا عِلمُ العلمـاءِ فإذا سُئلتَ عمَّا لا تعلَـمُ فقلْ: لا أعلَم. وأمّا حِكَـمُ الحكمـاءِ فإذا كنتَ جليسَ قومٍ فكنْ أسكَتَهم، فإن أصابوا كنتَ مِن جُملتِهم، وإن أخطأوا سَلِمتَ مِن خَطَئِهم. وأمّا طبُّ الأطبّاءِ فإذا أكلْتَ طعاماً فلا تقُمْ إلا ونفْسُكَ تشتَهيه، فإنّهُ لا ينزِلُ بجسَدِكَ غيرُ مرضِ الموت. انتهىٰ. مِن كتابِ «البرَكة» للحُبَيْشيّ.

وعن مَيمونِ بنِ مَهْرانَ قال: قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز: احفَظْ عنّي أربعاً: لا تصحَبْ سُلطاناً وإن أمَرْتَهُ بمعروفٍ ونهيتَهُ عن مُنكر. ولا تخلُوَنَّ بٱمرأةٍ ولو أقرَأْتَهـا القرآن. ولا تَصِلَنَّ مَن قطَعَ رحِمَـهُ فإنّهُ لكَ أقطَع. ولا تتكلَّمَنَّ بكلامٍ تعتذِرُ مِنه غداً. انتهىٰ. مِن «كشفِ الخَفاء».



خاتمةُ الكتاب

انتهىٰ الكلامُ علىٰ الخِصالِ الخَمْسِ التي هيَ أساسُ طرِيقةِ السادةِ العَلَوية، والبِضْعةِ النّبَوية. نسألُ اللّهَ تَعالىٰ أنْ يَسلُكَ بنا في مَسالِكِهمُ السَّوِيّة، وأنْ يُحَلِّيَنا بأوصافِهِم وأخلاقِهِمُ ٱلسَّنِيّة، في كلِّ قَولٍ وفعلٍ وعملٍ واعتقادٍ ونِيّة، وأنْ يُلْحِقَنا بهم في أعلىٰ الجِنانِ العَلِيّة، بمَحْضِ جُودِهِ وفَضْلِهِ وإحسانِهِ وبِجاهِ خَيرِ البَرِيّة، عليهِ ﷺ أفضلُ الصّلاةِ وأزكىٰ التحِيّة.

فوا شَوْقَ الفُؤادِ لخَيرِ عَيْشٍ مَعَ الأحبابِ في الغُرَفِ العَلِيّهْ
عسَىٰ الربُّ الكريمُ بمَحْضِ فَضْلٍ يُبَلِّغُنا أقاصِيْ الأُمْنِيّهْ





الفهارس الفنية للكتاب

(١) فهرس الآيات القرآنية .

(٢) فهرس الأحاديث الإلهية (القدسية) .

(٣) فهرس الأحاديث النبوية القولية .

(٤) فهرس الأحاديث النبوية الفعلية والتقريرية .

(٥) فهرس الآثار المروية عن الأنبياء السابقين عليهم السلام .

(٦) فهرس الآثار المروية عن الصحابة رضي اللّه عنهم .

(٧) فهرس الأعلام .

(٨) فهرس المؤلفات المذكورة في متن الكتاب .

(٩) فهرس الشعر .

(١٠) فهرس البلدان والأماكن .

(١١) الفهرس التفصيلي لمحتويات الكتاب .

(١٢) الفهرس الإجمالي لمحتويات الكتاب .



(١)

فهرس الآيات القرآنية

❋ ❋ ❋

(٢)

فِهْرِسُ الأحاديثِ الإلهيّـة (القُدْسِيّـة)

❊ ❊ ❊

(٣)
فِهرِسُ الأحاديثِ النبويّة القَولية

الحديث	الراوي	الصفحة
آباؤك ثلاثة: أبوك الذي ولدك، وأبوك. . .	—	٢١٨
آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا . . .	ابن عباس	٧١٧
آية المنافق بغض الأنصار. . .	أنس	٧١٧
آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب. . .	أبو هريرة	٧٠٢، ٧١٦
اتق المحارم تكن أعبد الناس. . .	أبو هريرة	٥٣٥، ٧٢٩
اتقوا النار ولو بشق تمرة. . .	—	٣٤١
أتقاهم. . . = فعن معادن العرب تسألوني؟ . . .	—	—
أجرؤكم علىٰ الفتوىٰ أجرؤكم علىٰ النار. . .	عبيد اللّه بن أبي جعفر مرسلاً	٢٠٢
أجودكم بعدي رجل علِم علماً. . .	أنس	١١٧
أحب الناس إلىٰ اللّه عز وجل أنفعهم. . .	ابن عمر	٣٠٢
أحدّثكم حديثاً فاحفظوه، إنما الدنيا لأربعة. . .	أبو كبشة الأنماري	٦٤٥
أخلص نيتك يكفك العمل القليل. . .	معاذ بن جبل	٦٣٣
أخوف ما أخاف علىٰ أمتي. . .	عمر وعمران بن الحصين	٢٩٠
أدِّ الأمانة إلىٰ من أئتمنك ولا تخن من خانك. . .	أبو هريرة	٣٣٧
إذا أتىٰ عليَّ يوم لا أزداد فيه. . .	السيدة عائشة	١٠٩
إذا أراد اللّه بعبد شراً أمسك عنه. . .	أنس	١٨٧

(٤)

فِهْرِسُ الأحاديثِ النبويّـةِ الفعليّـة والتقريرية

❋ ❋ ❋

(٥)

فِهْرِسُ الآثارِ المرويةِ عن الأنبياءِ السابقينَ عليهِمُ السلام

(٦)
فِهْرِسُ الآثارِ المرويةِ عن الصحابة رضي اللّه عنهمُ



(٧)

فهرس الأعلام[1]

(١) ميّزنا الصحابة رضوان الله عليهم بحرف (ص).

❊ ❊ ❊

(٨)
فهرس المؤلفات المذكورة في متن الكتاب

❊ ❊ ❊

(٩)

فهرس الأشعار

القافية	البحر	الشاعر	عدد الأبيات	الصفحة
أنا	رجز	العيدروس الأكبر	١	٦٠
حواءُ	بسيط	الإمام علي	٥	٨٩ ـ ٩٠
أحياءُ	بسيط	ـ	٢	٤١٦
الأحياءِ	خفيف	ـ	١	٧٩
جائي	رجز	ـ	٧	٧١٠ ـ ٧١١
مصبوبُ	بسيط	امرىء القيس	١	٣٥٩
المهذَّب	طويل	النابغة الذبياني	١	٣٦٠
تجارِبُهْ	طويل	ـ	٣	٣٨٠
غضابُ	طويل	منسوب لرابعة العدوية	٣	٦٣١
والكتُبا	بسيط	عبد اللّه بن حسين بلفقيه	٥	٦٢
والأدبا	بسيط	ـ	٥	٩٧
الطلبا	بسيط	ـ	١	٥٠٠
المناصبِ	طويل	المتنبي	٢	٦٥
حسْبي	بسيط	عبد اللّه بن علوي الحداد	٢	٦٥
أبي	مجزوء الرجز	أحمد بن عمر بن سميط	٥	٦٦
الكتائبِ	طويل	ـ	١	٣٨٧
تَغِبِ	بسيط	عبد اللّه بن علوي الحداد	٢	٤٩٦
القُرَبِ	بسيط	عبد اللّه بن علوي الحداد	١	٤٩٨

❊ ❊ ❊

(١٠)

فهرس البلدان والأماكن

❊ ❊ ❊



الفهرس التفصيلي لمحتويات الكتاب[١]

(١) تنبيه للقارىء الكريم: تركنا في هذا الفهرس التعداد التفصيلي للفوائد الكثيرة والتنبيهات واللطائف التي ذكرها المؤلف في أثناء شرحه، واقتصرنا على ما له عنوان خاص، وذلك لئلا يتضخّم الفهرس، فاقتضىٰ التنبيه.

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



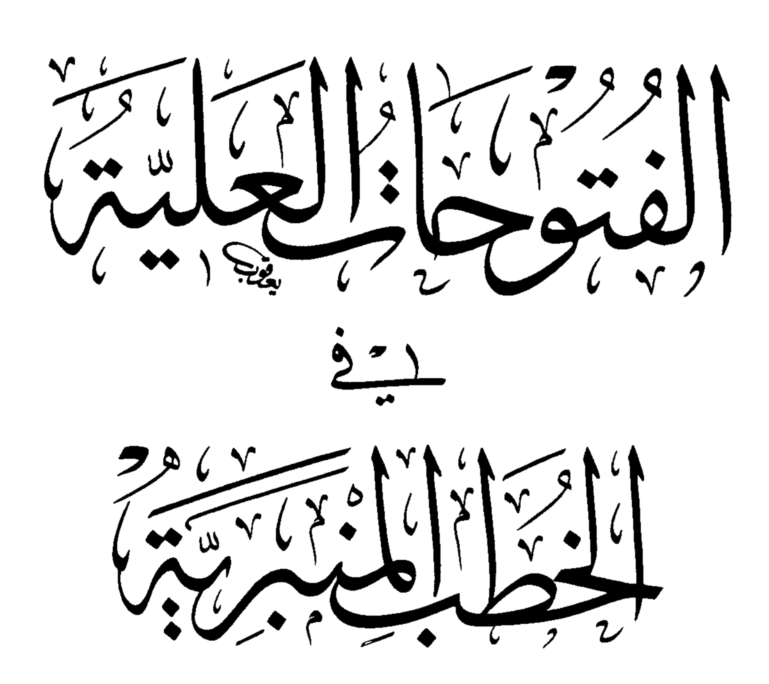
الفهرس الإجمالي لمحتويات الكتاب



صدر للمؤلف

العلامة المحقق الداعي إلى الله

الحبيب زين بن إبراهيم بن سميط







صدر للمؤلف

العلامة المحقق الداعي إلى الله

الحبيب زين بن إبراهيم بن سميط

الفيوضات الربانية

من أنفاس السادة العلوية

في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية



دار العلم والدعوة



دار الفتح للدراسات والنشر

من إصدارات
دار العلم والدعوة



الإمام العلامة الحبيب

أحمد بن عمر بن سميط

جمع تلميذه

الشيخ دحمان بن عبدالله بن عمر لعجم باذيب

اعتنى به وقدم له

محمد بن أبي بكر بن عبدالله باذيب

من إصدارات
دار العلم والدعوة

الدرر واللطائف

في اختصار

عوارف المعارف

للإمام شهاب الدين السهروردي

انتخاب واختصار
الإمام البارع العارف بالله
الحبيب محمد بن زين بن سميط باعلوي
(١١٠٨هـ - ١١٧٢هـ)

تحقيق وتعليق
حمد الله حافظ الصفتي

قرأه وقدم له
إياد أحمد الغوج